تاريخ المغول

منذ حملة جنكيزخان

حتى قيام الدولة التيمورية

عباس إقبال

ترجمة

د. عبدالوهاب علّوب

٩٥٣,٠٧٨
ع ب ت ا
عباس إقبال، ١٨٩٥ - ١٩٦٥م.
تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية / تأليف عباس إقبال؛ ترجمة عبد الوهاب علوب؛ مراجعة حسن النابودة .- أبوظبي؛ المجمع الثقافي، ٢٠٠٠.
٥٦١ص.
١- المغول - تاريخ.
٢- جنكيز خان، ١١٦٧ - ١٢٢٧م.
آ- عبد الوهاب علوب، ١٩٥٨م - ، مترجم.
ب- حسن النابودة، مراجع.
ج- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٢٣٨٠-هاتف : ٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع الثقافي





تاريخ المغول


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مقدمة المؤلف

باسمه تعالى

على الرغم من أن تاريخ إيران له مصادر عديدة مثله في ذلك كمثل تاريخ الأدب الفارسي، وقد قامت على تدوينه جماعة من العلماء الأقدمين من الإيرانيين وغير الإيرانيين، فمما يؤسف له أنه لم يتمُ حتى الآن وضع كتاب جامع عن تاريخ إيران يراعي مؤلفه المفهوم المعاصر لكلمة «تاريخ» ويوضح سمات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية في كل مرحلة من مراحل التاريخ إلى جانب إيضاحه للأحداث العسكرية والسياسية الكبرى، ويبين أسباب ما حققته الأمة الإيرانية من تقدم وتأخر في طريق تطورها المعنوي والأخلاقي ومراحل الحضارة والعوامل الرئيسة لهذه التطورات في كل مرحلة. وهو أمر لا يتحقق إلا من خلال الإلمام بالنهج العلمي للمؤرخين المحدثين في بحث القضايا التاريخية والمنهج المعاصر لكتابة التاريخ والذي تغير شكله تماماً منذ قرن من الزمان. فقد أرسى المحققون الغربيون قواعد هذا الفن منذ فترة من الزمن على أسس علمية محكمة، فأصبح يتطلب المهارة إلى جانب الاستعداد الفطري شريطة الإلمام بالمقدمات العلمية والاستعانة بالعديد من العلوم ودقة النظر واتباع نهج أساتذة هذا الحقل وتطبيق نظرية البحث في المسائل التاريخية ونقدها واستنتاجها.

ونظراً لتفرُّق مصادر تاريخ إيران في الوقت الحاضر وضياع كثير منها وعدم وجود المكتبات والمتاحف العامة وندرة الإصدارات التي تتناول كتب الأقدمين بالنقد وعدم إلمام الشعب الإيراني بالمنهج الغربي لتدوين التاريخ، فمن غير المتوقع من شخص بمفرده أو حتى من جماعة من الناس أن يتمكنوا من كتابة تاريخ إيران المفصَّل على النحو المنشود وبصورة تضاهي هذا النوع من التواريخ التي دونت عن دول الغرب ليلبوا بذلك حاجة ماسة للغة الفارسية ودولة إيران.

وعلى الرغم من عدم وجود أفراد في بلادنا يتلافون كل نقص ويتحركون دون توجيه من الحكومة، فهناك مجالات لابد للحكومة أن تبادر فيها إلى تنفيذ بعض الخطط نظراً لعدم قدرة

الأفراد على تنفيذها أو لعدم معرفتهم بما فيه صالحهم كإنشاء المكتبات والمتاحف العامة وجمع مصادر المعلومات؛ وهو ما لا يتأتي من الأفراد؛ وحتى إن تأتى ذلك منهم فلن يتم بالسرعة والتنظيم المنشودين وذلك لمحدودية قدراتهم. فعلى الحكومة أن تضع خطة خاصة لمثل هذه الأهداف المعنوية وتهيئ السبل وتتيح الوسائل اللازمة لتحقيقها بين يدي أولي العلم بقدر المستطاع.

هناك؛ حالياً؛ نهجان سائدان لكتابة التاريخ وتاريخ الأدب والحضارة، أحدهما البحث في القضايا الجزئية أو تقسيم العصور إلى فترات محدودة، والآخر كتابة التاريخ العام لعصر بأكمله أو تاريخ حقبة زمنية لأسرة حاكمة أو موضوع من الموضوعات. والباحثون في الشق الأول غالباً ما يتخصصون في عهد من العهود أو أحد الموضوعات الخاصة، وتتخذ أبحاثهم شكل رسائل مفردة عن موضوع بعينه، في حين يتعين على الكتّاب في الشق الآخر أن يكتبوا برؤية عامة عن جميع القضايا والعصور وأن يراعوا الناحية الكلية والربط المنطقي بين مختلف جوانب التاريخ واستنباط القوانين العامة في مؤلفاتهم، وهو أمر في غاية الصعوبة ولا يتأتى لفرد أن ينجزه على الوجه الأكمل إلا إذا أقدم المتخصصون أولاً على كتابة رسائل مفردة كلٌ في موضوع من الموضوعات أو عصر من العصور، ثم تتم دراسة الموضوعات والعصور حسب ترتيبها التاريخي بحيث يتسنى لفرد أو هيئة أن تقوم بتجميعها والتأليف بينها طبقاً لقواعد المنهج العلمي.

والمجلد الذي بين أيدينا يشمل تاريخ إيران منذ بداية ظهور جنكيزخان وحتى قيام الدولة التيمورية، أي من أوائل القرن السابع إلى النصف الثاني من القرن التاسع، ويتضمن تاريخ سيطرة الإيلخانيين المغول على إيران والأسر الحاكمة الفرعية التي حكمت بعض أجزاء من إيران في فترة القرنين ونصف القرن المذكورين.

كانت وجهة نظر المؤلف في البداية هي أن يضع هذا الكتاب في حدود المادة المطلوبة للدراسة في القسم الأدبي من المرحلة المتوسطة، ولكن تبين في مسار العمل أن المرور العابر على كثير من القضايا بصورة إجمالية يعد أمراً غير ممكن. لذا فقد اخترنا الاستفاضة في بعض الأقسام. ولكي لا يصعب الأمر على دارسي المستوى الثاني من المرحلة المتوسطة، طبعنا بعض الفقرات بخط أصغر،

وهي فقرات تم اقتباس معظمها عن مؤرخي العصرين المغولي والتيموري ونهدف منها بصفة خاصة إلى بيان منهجهم في كتابة التاريخ، وهو ما سنتبعه في المجلدات الأخرى من الكتاب بإذن الله.

والكتاب بالمقدمات التي أشرنا إليها يعد ناقصاً ولا شك أنه لا يخلو من الأخطاء أيضاً، وهو ما يرجع أولاً إلى أن العمل من تأليف كاتب لم يتخصص في هذا الباب بعينه؛ ثانياً، نظراً لعدم توفر النماذج أو الأمثلة الإرشادية في هذا الطريق الوعر وصعوبة الوصول إلى المصادر المطلوبة، وهي أسباب تجعل الكتاب لا يخلو من النقص، خاصة وأن التقيد بكونه كتاباً مدرسياً قد حال دون البحث المفصَّل في القضايا الجزئية وإيراد الآراء المختلفة ومصادر المعلومات والبحث في صحة الروايات وسقمها. لذا فإن الكتاب يعد تمهيداً لمن يأتي من بعدنا ويتصدى لرفع ما اعتوره من نقص ويفصِّل الحديث في كل جزء منه، فتكون النتيجة كتاباً منقَّحاً يمكن الوثوق به.

ويهدف الكاتب من هذا العمل في المقام الأول إلى بيان المنهج العلمي لكتابة التاريخ ومحاولة الكتابة عن تاريخ إيران في العصر المغولي خاصة وأن تاريخ إيران قد ورد في كتب مؤرخي تلك العهود ضمن التاريخ العام للأمم التي خضعت لحكم المغول.




www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

بحث في مصطلحات:
آق - قرا - گوی - قزل

إن مطالعة المتون القديمة، وخاصةً كتب التاريخ، تضع القارئ في مواجهة كثرة من الألفاظ والمصطلحات التركية يبدأ بعضها بسوابق من قبيل آق أو قرا أو گگ أو گوى أو قزل وهي سوابق ترد في مسميات جغرافية وتاريخية خاصة مثل آق قويونلو، آق سو، قراعثمان، قراكليسا، قزل أرسلان، قزل أوزون، گوى مسجد، گوى تنكرى وغير ذلك كثير.

كان للآق قويونلو والقراقويونلو دورٌ خاصٌ في التاريخ السياسي والاجتماعي الإيراني، وكثيراً ما وُضِعَتْ أحداث عصر هاتين الأسرتين موضع البحث والدراسة. كما درج بعض الكتّاب والباحثين المحدثين من إيرانيين وغير إيرانيين على ترجمة تسميتي آق قويونلو و قرا قويونلو بـ سپيد گوسفندان (الخراف البيضاء) و سياه گوسفندان (الخراف السوداء) وهو ما لا يفي بالمعنى المطلوب. وسرت عملية ترجمة الأسماء هذه إلى التسميات الجغرافية أيضاً؛ فتحول مسمى قرا دنيز (البحر الأسود) إلى درياى سياه وتغير اسم گوى مسجد تبريز إلى مسجد كبود (المسجد الأزرق). لذا فقد اختار كاتب هذا المقال مصطلحي آق قويونلو وقراقويونلو لينقل للقارئ ما توصل إليه بالبحث في نظريات غيره من الباحثين في هذا الصدد.

يرى مكرمين خليل بنيانتش في بحثه الجامع القيم في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة اسطنبول) أن مصطلح آق قويونلو يرجع إلى وجود صورة الخروف على بيارق التركمان وأعلامهم ووجود رسمه على قبورهم، ويرجح أن هذه العلامة كانت ترمز إلى نوع من الطواطم التي سادت بين هذه الأقوام قبل الإسلام.[١]

ويرى مينورسكي أن تسمية قبيلتي الآق قويونلو والقرا قويونلو ترجع إلى لون قطعانهم وأصلها.[٢]

ويستند الباحث التركي ضياء جوج آلپ في كتابه تورك توره سي إلى نظريات إدوارد شاوان في قوله:

«إن الأتراك في العصور التي كانوا يؤمنون فيها بالديانات الوثنية كانوا يرمزون إلى تجمعاتهم القومية برموز من الطبيعة. فكما يمثّل الشمال والجنوب والشرق والغرب الجهات الأربع للعالم، وكما يمثّل الربيع والصيف والخريف والشتاء مواسم السنة الأربعة فقد اتخذت الشعوب التركية من آق (الأبيض) و قرا (الأسود) و گوى (الأزرق) و قزل (الأحمر) ألواناً أربعة مختارة لهم كما يدل گوگ خان و قزل خان و آق خان و قرا خان على الرباعي الحاكم عندهم. كما كانت التقسيمات الأربعة للجيش قرا وول، جغداوول، صاغ قول، صول قول تقوم أيضاً على هذا الأساس».

ويتناول ضياء جوج آلپ لفظي «آق» و «قرا» بالبحث في مقال له بعنوان «دين الإيلخانات» حيث يقول:

«كانت الأراضي والأمم والأرواح وكل مظاهر الحياة في الكيانات الرسمية للأتراك القدماء تنقسم إلى قسمين متقابلين وتتخذ حالة ثنائية كاليمين واليسار، والشرق والغرب، والشمال والجنوب، وأخيراً «آق» (أبيض) و «قرا» (أسود). والثنائي الأخير كان يتم تحديد ماهيته وما إذا كان روحانياً أو شيطانياً، سعداً أو نحساً من قبل الحكام والكهنة».[٣]

ويستنتج الباحث المذكور مما ورد في كتاب جامع التواريخ تحت عنوان «أسماء وألقاب أبناء ستة من الأوغوز أطلقوا اسم «بوزوق» على ثلاثة منهم واسم «أوجوق» على الثلاثة الآخرين»[٤] أن التقسيمات الرباعية في العبارة المذكورة تستفيد من الأقسام الستة والاثني عشر والأربعة والعشرين طوراً فلكياً، إلا أنه لم يرد في المقولة المذكورة أي ذكر للألوان الرباعية.

وهكذا فإن معظم الكتّاب والباحثين الإيرانيين وغير الإيرانيين قد فسروا المصطلحات الأربعة آق و قرا و گوى و قزل بالمعنى العام والصفة المطلقة لألوان الأبيض والأسود والأزرق والأحمر؛ في حين أننا لو أولنا لفظ آق في مصطلح آق قويونلو بمعنى «الخراف البيضاء» فلا حاجة لتحديد اللون في العبارات التركيبية آق بلاغ، آق شهر، آق داغ، آق هون، آق أردو. وليس لدينا مرعى شتوي أبيض وآخر أسود أو أحمر حتى نقول قرا قشلاق و قزل قشلاق، أو أن نطلق اسم قرا چمن (البستان الأسود) على البستان الذي يُعرف في الدنيا كلها بلونه الأخضر، أو أن نحدد لله لوناً ونسميه گوى تنكرى. وكثيراً ما يصادفنا اسم مكان بعينه يوصف بكل هذه الألوان مثل آق داغ (الجبل

الأبيض) و قرا داغ (الجبل الأسود) و قزل داغ (الجبل الأحمر) و گوى داغ (الجبل الأزرق) و آق سو (المياه البيضاء) و قرا سو و قزل سو و گوى سو. وإلى جانب اختصاص هذه الألوان الأربعة بمواضع جغرافية فإننا نصادف أسرة أو قوماً بعينهم يستخدمون كل هذه المصطلحات في شؤونهم. ففي أسرة آل عثمان مثلاً نجد شخصين باسم قزل بوغا (الثور الأحمر) وآخرين باسم قراخان (الخان الأسود)؛ وهناك أيضاً گوى آلپ (البطل الأزرق) حيث يفاخر عثمان الفاتح في نقاشه مع فقيه مدينة قرا حصار قائلاً: « إن كنتَ من آل سلجوق فإني من نسل گوى آلپ ».[٥] كما كان آق پاشا من أشهر أمراء أورخان الفاتح.

وهو لا يصرح بأن نظريته التي تقول بطوطمية لفظي آق وقرا أو اقتصارهما على الكيانات القومية، ويبين أن الشعوب التركية عامة من الصين إلى حدود البلقان كانت تستطيع استخدام هذه المصطلحات. ويُستنتج من مطالعة الكتابات التاريخية أن مصطلحي قزل وگوى يزداد استخدامهما في العهود القديمة وكانا يقتصران على الأسماء المتميزة وأسماء الأعلام. أما في عصر الإيلخانيين فلا نصادف هذه التسميات كثيراً في حين يزداد استخدام آق وقرا. وإذا كان لفظ آق أو لفظ قرا يستخدم في العصور القديمة مع أسماء الأعلام والأسماء الخاصة من قبيل قراخان، قرا خطائيان، قرا دنيز، قرا كليسا، قرا قروم، آق سرا، آق حصار، آق شهر، آق أردو وما إلى ذلك من الأسماء المشهورة، فإن هذه الأسماء تتخذ صفة العموم في عصر الإيلخانيين، فكان كل نهر كبير يرونه يطلقون عليه اسم آق چاي و آق سو و قرا سو حيث نجد تسمية آق بولاق تطلق على ٤٠ موضعاً و آق دره ١٠ مرات، و آق كند ١٥ مرة و قزل بولاق ٨ مرات في أذربيجان وزنجان وقزوين وحدها. وكذلك تسميات گوى تپه، قرا تپه، آق قلعه وغيرها.

توصل الباحث من المطالعات التي قام بها في كتب التاريخ والجغرافيا ومقالات علم الاجتماع إلى أن ألفاظ آق و قرا و گوى و قزل حين تقترن بأسماء عامة وعادية فإنها تقوم بدور سوابق تدل على الصفة المطلقة للألوان، مثل آق دستمال (المنديل الأبيض)، قرا زلف (الجديلة السوداء)، قزل آلما (التفاحة الحمراء) ... ولكن حين يؤدي استخدام هذه الألفاظ التركية إلى تغيير الاسم العام وتحيله إلى اسم خاص واسم علم فإن هذه السوابق المذكورة تؤدي معنى « كبير، عظيم، جليل،

قوي، شريف، مقدس »، فتصف الأسماء أو تدل على كثرة العدد أو مقداره، وتؤدي معنى الصفة العالية التي تميز الأسماء مثل قرا عثمان (عثمان الأكبر)، قرا قويونلو، قزل أوزون، قزل آلان، قزل أرسلان، قزل أحمد، قزل أردو، گوى مسجد، گوى تنكرى، گوى سراى، گوى مدرسه.

وهناك ما يقابل هذه السوابق في اللغة الفارسية وهو لفظ شاه الذي يدل على مكانة الموصوف وأهميته كما في الألفاظ المركبة التالية: شاه مردان (صفوة الرجال)، شاهراه (الطريق السريع)، شاهرگ (الوريد)، شاهكار (إنجاز كبير) وغير ذلك. كما تؤدي السابقة « خر » نفس المعنى في بعض الألفاظ المركبة، مثل خرمگس، خرمهره، خرپا، خربنده، خرگاه، خرپشته، خرموش، خرپول...

ولتدعيم المقال بالوثائق والشواهد التاريخية، يمكن تقسيم المصطلحات موضع البحث إلى ثلاثة أقسام مستقلة على النحو التالي:

أ- أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية.

ب- الشخصيات التاريخية.

جـ- الأسماء الخاصة والمتميزة التي تصف عظمة الموصوف وكثرته.

آق

أ. أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية:

١- آق سرا - (القصر الكبير) وهو قصر الأمير تيمور. يقول خواندمير: « وقع هذا الفتح في قوي ئيل الموافق لسنة إحدى وثمانين وسبعمائة. واتجه صاحب القران بعد تخريب خوارزم نحو ماوراء النهر، وحين استقر به المقام شيد قلعة وبنى فيها قصراً منيعاً يسمى آق سرا ... »[٦]. ويتحدث مؤلف حبيب السير عن عودة الأمير تيمور من إيران إلى تركستان فيقول: « خرج صاحب القران الفاتح من ترمذ إلى كش فتباهى آق سرا على الفلك بمقدم فاتح العالم »[٧].

٢– آق سراي – إحدى مدن الأناضول، بناها السلطان السلجوقي كيقباد الأول في عام ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) واستغرق بناؤها سبع سنوات. وكانت من المراكز العسكرية والسياسية المهمة في عصر السلاجقة، وشيد فيها قليج أرسلان الثاني قلعة معروفة في عام ٥٦٦هـ. كما تضم المدينة آثاراً قديمة من عصر سلاجقة الروم.(٨)

٣. آق شهر – (المدينة الكبرى) وهي من مدن الأناضول القديمة وكانت تسمى «فيل موليوم» في العصور القديمة. وقد شيد السلاجقة فيها العديد من المباني وأطلقوا عليها آق شهر.(٩)

٤– آق دنيز – (البحر الأبيض، البحر الأعظم) وهو الاسم التركي للبحر المتوسط.

٥– آق سو – أحد الأنهار السبعة الكبرى (هفت آب) بقزاخستان والتي ورد ذكرها في كتاب تركستان نامه وغيره من المصادر الجغرافية.(١٠) وقد ورد ذكر العديد من الأنهار بهذا الاسم في العديد من الكتب.

٦– آق كرمان – من المدن التركية القديمة، وقد ورد ذكرها في كتب التاريخ باسم كرات.

٧– آق حصار – وهي مدينة قديمة بالأناضول الغربي وكانت تعرف باسم تياترا في العصر البيزنطي. وقد سقطت في أيدي الأتراك في سنة ٧٨٤هـ. وقد سميت باسم آق حصار (القلعة الكبرى) لوجود قلعة حصينة فيها. وهناك مدينة أخرى بهذا الاسم في منطقة مرمرة سقطت في أيدي الأتراك في سنة ٧٠٨هـ، ويرجع اسمها أيضاً إلى وجود قلعة كبرى في الصحراء. وتدل أطلال أعمدة هذه القلعة القديمة (آق حصار) وعمائرها الأخرى على ما كان للمدينة من مكانة.(١١)

٨– آق داغ – (الجبل الأعظم). ورد ذكر أربعة عشر جبلاً بهذا الاسم مع تحديد ارتفاع كل منها في كتاب دانشنامه إيران وإسلام.

٩– آق كتل – شِعب كبير يقع بين طريق سمرقند وخجند، وقد بني فيه رباط كبير يعرف باسم آق رباط في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري على يد شمس الملك.(١٢)

١٠– آق بورا – (السيل الأعظم) وهو نهر كبير يصب في سير دريا ويروي أراضي مدينة فرغانة.(١٣)

١١– آق مدرسه – بناء فخم ذو طابقين بمدينة نيكده الواقعة بوسط الأناضول شيده علي بن

علاء الدين في عهد القرامانيين في سنة ٨١٢هـ، وهو لايزال قائماً إلى الآن، ويضم حالياً متحف مدينة نيكده.[١٤]

١٢. آق باغ – (الروضة الكبرى) موضع الصيد الكبير لغازان خان بمدينة أبو بكرآباد.[١٥]

١٣. آق يابيق و آق أيدل – كان الأتراك القدماء يشيرون إلى نهر الفولجا باسم آق أيدل، وإلى نهر الأورال باسم آق يابيق في المصادر الجغرافية القديمة.

كما وردت أسماء عديدة مثل آق گنبد (القبة الكبرى)، آق داغ (الجبل الأعظم)، آق تپه، آق دربند، آق دره، آق قلعه، آق منار، آق چشمه وغيرها في فرهنگ آباديهاي إيران و لغت نامه لدهخدا وغيرهما من المصادر الجغرافية، ويؤدي لفظ آق فيها جميعاً معنى « الأكبر ».

ب. الشخصيات التاريخية:

١– آق بوغا – (الثور الأكبر) وهو جد السلاطين الجلايريين.

٢– آق تيمور بهادر – وهو من أمراء الأمير تيمور المعروفين.

٣– آق صوفي – (المتصوف الأكبر) وهو شقيق حسين المتصوف ويوسف المتصوف؛ وقد خطب الأمير تيمور ابنته لابنه جهانگير. وكان آق صوفي من أشهر معارضي الأمير تيمور الذي ظل يطارده لسنوات.[١٦]

٤– آق شاهزاده – من ندماء الأمير تيمور ومن مستشاريه المقربين.

٥– آق سلطان – وهو ابن السلطان محمد خوارزم شاه.[١٧]

٦– آق سنقر أتابك – وهو مؤسس أسرة الزنكيين وأتابكة الموصل والشام.

٧– آق سنقر – والي مراغة.

٨– آق سنقر والي ترشيز – آق سنقر: وهو ابن أحمد يل.

٩– آق بوغا – وهو ابن السلطان أحمد بن السلطان أويس. آق بوغا: أمير هرات وواليها.

١٠– آق شمس الدين – المتصوف الكبير والمرشد الشهير لفرقة البيرامية في تركيا في القرن التاسع الهجري.

١١– آق دنيز – الجد الأكبر لجنكيزخان.

١٢– آق شاه – وهو من أمراء خوارزم بزند (٦١٧هـ).

١٣– آق ملك – قائد الجيش المحلي وكان يلقب بآق ملك، وكان يقود جيشاً قوامه خمسة آلاف جندي.

١٤– آق محمد تيمور – ثالث ولاة سربدار، ووالي بيهق.

١٥– آق خاقان – وهو من خوانين أيلك خانيان.

١٦– آق پاشا – وهو من أشهر قواد عثمان الفاتح.

١٧– آق پيگم – وهي ابنة أبو الغازي سلطان حسين ميرزا.

١٨– آق پيگم – وهي ابنة السلطان أحمد ميرزا.

١٩– آق سلطان خنيقه – وهي ابنة السلطان محمد المغولي وثانية زوجات ألغ بيك.

٢٠– آق قوزى بيگم – وهي والدة محمدخان الشيباني.(١٨)

وتطالعنا في أساطير الأتراك وأدعيتهم وأورادهم الدينية في العصر الوثني أسماء من قبيل: آق أرن، آق قام، آق انا، آق جن، آق اياس، آق گون، آق أورمان، آق ميدان وغير ذلك، ويؤدي لفظ آق فيها جميعاً معنى «الأكبر».

جـ- الأسماء الخاصة والمميزة التي تعبر عن عظمة الموصوف وكثرته:

١– آق أردو – (الجيش العظيم) وهو اسم يطلق على أقوام وطوائف كبيرة سيطرت على صحراء قبچاق الشرقية من سنة ١٢٢٦ إلى ١٤٢٨م وكانوا في حالة صراع وحرب دائمة مع گوگ أردو (سكان غرب صحراء قبچاق) إلى أن تصالح الفريقان وزحفا بجيوشهما إلى روسيا بقيادة توقتميش وهاجموا موسكو واستولوا عليها. وربما كان حفيد جوجي مؤسس هذا الجيش الضخم.

٢– آق هون – (شعب الهون الكبير) وهم شعب الهون الذين هاجروا من شمال قراخستان إلى مناطق الهند وأفغانستان وأقاموا في العصر الساساني إمبراطورية كبرى بهذا الاسم. ويرد اسم امبراطورية الهون في كتب التاريخ باسم الهفتاليين أو الهياطلة، وقد استمرت خمسة قرون.

٣– آق تاتار – يشار إلى شعوب الأونقوت بهذا الاسم أيضاً في كتب التاريخ الخاصة بالأتراك.

٤– آق قويونلو – (الرعاة العظام).

وكان التركمان من سكان الأناضول قبائل رحل وكان اقتصادهم مغلقاً على الرعي وتربية الأغنام، وحتى ضرائبهم وخراجهم السنوي كانوا يؤدونها في صورة أغنام. ويشير عاشق پاشازاده في كتابه تاريخ آل عثمان إلى عدوانية تركمان أماسيه وتوقات وإلى قمعهم في سنة ٨٣١هـ على يد يوركوچ باشا، ويضيف إن الباشا المذكور أغار على خيام التركمان وقتل عدداً كبيراً منهم ونهب أغنامهم التي كانت من الكثرة بحيث أصبحت تباع وتشترى بأثمان زهيدة في چوروم.(١٩) ويشير المؤرخ نفسه إلى أن إسماعيل بيك قراماني حمل متاعه على ظهور الأغنام عند رحيله إلى بورسة أيام حروب السلطان محمد الفاتح مع أوزون حسن. وطبقاً للرواية التي وردت في كتاب تاريخ ديار بكريه والعديد من صفحات تاريخ عاشق پاشازاده، كان أوزون حسن قبل أن ينجح في تأسيس دولة الآق قويونلو يقيم في قويونلو حصار (قلعة الراعي) واتخذ منها مقراً لحكمه. وفي سنة ٨٦٥هـ أصدر محمد الفاتح أمره لمحمود باشا بإعداد العدة لقتال أوزون حسن وأن يفتح قويونلو حصار.(٢٠)

وفي القرن التاسع الهجري، وفي فترة تأسيس أسرتي الآق قويونلو والقرا قويونلو، كان امتلاك مئة رأس من الأغنام هو معيار الثراء ودليل الوجاهة عند الأتراك وخاصةً التركمان. وكان الثري الوجيه بينهم يلقب بـ يوز قويونلو (صاحب المئة رأس من الأغنام) لوصفه بالثراء وعلو المكانة. وتعد الأمثال التركية التي انتشرت عند الشعوب التركية والتي قام بجمعها مولانا شمس الدين في سنة ٨٨٥هـ أوضح دليل على ذلك، ونورد بعضاً منها نقلاً عن كتاب آتالار سوزي:.(٢١)

١– المثل رقم ٤٠٩ – «قويونون يوزه يتير، ايل اوني بينه يتيرر»: اجعل أغنامك مئة يجعلهم الناس ألفاً.

٢– المثل رقم ٤٩٥ – «يوز قويونلو آتام قالماك دان، بير يوسكو كلو آنام قالماك يه ي در»: وجود أمي ومهارتها في الحياكة أفضل من امتلاكي لمئة رأس من الغنم.

٣– المثل رقم ٥٧٩ – «يوز قويونلو دان يوزي برك يه ي در»: المحارب القوي أفضل من صاحب

مئة رأس من الغنم.

وإذا أخذنا في الاعتبار محل إقامة تركمان الآق قويونلو الذي كان مركزاً لتربية الأغنام ويسمى «قلعة الأغنام»، ونظراً لكثرة قطعانهم منها، يمكن القول بما يشبه اليقين: إن مصطلح آق قويونلو ظهر بمعنى «كبار ملاك الأغنام»، وأن السابقة «آق» في هذا المصطلح تشير إلى كثرة عدد أغنامهم. ويكفي دليلاً على كثرة أغنامهم وضخامة قطعانهم ما ورد في كتاب تاريخ ديار بكريه لأبي بكر تهراني حيث يقول: «أقام بايندرخان حفلاً كبيراً بمصيف كوكچه دنيز وذبح فيه مئة وعشرين ألف رأس من الكباش».[٢٢]

ولم يكن الآق قويونلو والقرا قويونلو يلقبون بملاك القطعان الكبيرة من الأغنام وحسب، بل إن العشائر التي كانت تمتلك قطعاناً كبيرة من الكباش ويتخصصون في تربيتها كانت تسمى آق گچی لو و قرا گچی لو (كبار ملاك الكباش)، وكانت هذه العشائر تسكن شمال شرقي سيورك.[٢٣]

٥- آق أولى - (صاحب الخيام الفخيمة)، آق أولر (الخيام الكبيرة).

كان التركمان قبائل رحل بين الصيف والشتاء. ولتيسير عملية الترحال كان معظمهم يعيشون في الخيام. وكانت خيام التركمان تسمى «أو» («أيو» بالخط القديم). يقول عاشق پاشازاده: «تعقب يوركوچ باشا خيام التركمان ونقلها إلى چورملو كوچ».[٢٤] ويشرح أبو بكر تهراني في كتابه تاريخ ديار بكريه كلمة «أو» بوضوح تام بقوله: «اتجه بايندرخان إلى مشتى قراباغ ومصايف كوكچه دنيز وأقام مجلساً عظيماً حضره حشد كبير من الناس وضرب خيمة ذهبية ضخمة تعرف بلغة الاتراك باسم «أو» (أيو)، وذبح في هذا الحفل الكبير مئة وعشرين ألف رأس من الكباش وتسعة آلاف رأس من الماعز وثمانية عشر الف ثور».[٢٥]

وفي الحكاية رقم ١٢ من كتاب دده قورقود، أقيمت مراسم العزاء لأحد كبار القوم في آق أو (الخيمة الفخيمة).[٢٦]

وكانت صحراء جرجان مكاناً مناسباً لتربية الأغنام ومقراً لقبائل التركمان. وعلى ضفتي نهر جرجان حيث الوادي البديع والقرية الصيفية التي تعرف بآق أولر، كان التركمان يضربون خيامهم

الضخمة الكثيرة العدد في العصور القديمة ويتخذون من المكان مصيفاً لهم. وكانت المنطقة تسمى بآق أولر بمعنى «مضرب الخيام الضخمة». وكان خوانين التركمان الذين يمتلكون الخيام والمعسكر والأغنام والأحشام يضربون عدداً هائلاً من الخيام يلقبون بآق أولي لكثرة خيامهم في هذا المصيف. وفي مقابل هذا المصيف ومصطلح آق أولي لدينا أيضاً گوگ أولى وهو اسم منطقة تقع بين بحر الخزر ونهر أورال على أطراف صحراء قزل قوم، وكان يسكنها القرا قالپاق وعاصمتهم درت جل.(٢٧)

يقول الباحث التركي المعروف زكي وليدي طوغان في كتابه بوگونكى تركستان (تركستان الحديثة): «في القرن السادس عشر الميلادي، كانت طوائف النوغاي والمانغيت تقطن بين بحر سير وبحيرة أورال، وكانوا بدواً رحلاً. وكانت قبائلهم تقيم خيامها على عجلات ويسمونها «درمه أو» أي «الخيمة المتحركة». وكانت القبائل التي تسكن منطقة استرخان وسرايجق وتعمل بالزراعة أيضاً هي قبائل الأوزبك والقزاق والباشقورت، وكانت تستخدم الخيام المتحركة أيضاً، وكانت مساكنها تقتصر على هذه الخيام. وكانت هذه الطوائف المذكورة اسم «قرا أولي» بصورة عامة».(١٢٨) وكانت قبائل القرا أولي طبقاً لما ورد بكتاب جامع التواريخ لرشيدي تنتمي لأفرع مهمة وأصيلة من الأتراك.(٢٨ب) كما أورد فضل الله بن روزبهان خنجي مؤرخ وكاتب بلاط محمدخان شيباني في تاريخه مهمان نامه بخارى شرحاً وافياً عن الخيام المتحركة الخاصة بالقزاق.(٢٩)

وفيما يتعلق بالإيضاحات والوثائق التاريخية التي عرضناها عن تسميات آق أولى و گوگ أولى و قرا أولى، ينبغي الإشارة إلى أن السوابق آق و گوگ و قرا في هذه المسميات لا تشير إلى المعنى اللوني، بل تفيد الضخامة والأبهة وكثرة العدد.



قرا

. أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية:

١- قرا سراى - (قصر أتابكة الموصل الفخم) مثل آق سراى و گگوى سراى الأمير تيمور أو گوگ سراى جنكيزخان. وقد ورد ما يلي عن «قرا سراي» بكتاب الفن الإسلامي لإرنست كونل: «وفي الموصل أيضاً هناك «قرا سراي» وهو اسم يطلق على أطلال قصر الزنكيين. ولم يبق من بهوه ذي الأعمدة سوى بعض الأعمدة التي كانت تشكل إيواناً فيما مضى، وكان قد شيد في سنة ١٢٣٣م في عهد لولو الأتابكي (بدر الدين)».(٣٠)

٢- قرا قروم - وهي سلسلة جبال ضخمة بآسيا الوسطى وتتصل بهضبة پامير وتمتد بحذاء جبال كوإن لن والهيمالايا باتجاه شمال غرب إلى جنوب شرق بين نجد والتبت ووديان السند والجونج، وتعرف حالياً باسم بلنوي. وتضم هذه الجبال ثاني أعلى قمة جبلية في العالم. وقد ورد لفظ «قروم» في معجم لغات الترك للكاشغري بمعنى الجبل.(٣١)

٣- قرا قروم - اسم مدينتين كبريين وتاريخيتين بمغولستان.

في مغولستان الغربية، في الجزء الشمالي من مناطق قرا قروم الجبلية، بنيت مدينة قرا قروم القديمة لأول مرة على ضفاف نهر أورخون على يد أحد خوانين الأويغور يسمى بوقوخان وكانت عاصمة لدولة الأويغوريين، وكانت تسمى أيضاً «أردو باليق» (مدينة الجيش). وظلت هذه المدينة عاصمة لدولة الأويغوريين حتى القرن العاشر الميلادي وكان يطلق عليها اسم «قرا بالقاسون» أي المدينة الكبرى. ولايزال المغول يطلقون على أطلال هذه المدينة القديمة اسم خاراخروم أي القلعة الكبيرة.(٣٢)

وعلى بعد ستين كيلومتراً من أطلال قرا قروم وحصونها، شيد الأويغور مدينة أخرى بالاسم نفسه في سنة ١٢٣٤م بأمر من جنكيزخان. وقد شيّد الصينيون حصونها. وكانت هذه المدينة عاصمة لسلاطين المغول وكانت تعد أكبر مدن مغولستان.(٣٣)

قرا

أ. أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية:

١- قرا سراى - (قصر أتابكة الموصل الفخم) مثل آق سراى و گگوى سراى الأمير تيمور أو گوگ سراى جنكيزخان. وقد ورد ما يلي عن «قرا سراي» بكتاب الفن الإسلامي لإرنست كونل:

«وفي الموصل أيضاً هناك «قرا سراي» وهو اسم يطلق على أطلال قصر الزنكيين. ولم يبق من بهوه ذي الأعمدة سوى بعض الأعمدة التي كانت تشكل إيواناً فيما مضى، وكان قد شيد في سنة ١٢٣٣م في عهد لولو الأتابكي (بدر الدين)».[٣٠]

٢- قرا قروم - وهي سلسلة جبال ضخمة بآسيا الوسطى وتتصل بهضبة پامير وتمتد بحذاء جبال كوإن لن والهيمالايا باتجاه شمال غرب إلى جنوب شرق بين نجد والتبت ووديان السند والجونج، وتعرف حالياً باسم بلنوي. وتضم هذه الجبال ثاني أعلى قمة جبلية في العالم. وقد ورد لفظ «قروم» في معجم لغات الترك للكاشغري بمعنى الجبل.[٣١]

٣- قرا قروم - اسم مدينتين كبريين وتاريخيتين بمغولستان.

في مغولستان الغربية، في الجزء الشمالي من مناطق قرا قروم الجبلية، بنيت مدينة قرا قروم القديمة لأول مرة على ضفاف نهر أورخون على يد أحد خوانين الأويغور يسمى بوقوخان وكانت عاصمة لدولة الأويغوريين، وكانت تسمى أيضاً «أردو باليق» (مدينة الجيش). وظلت هذه المدينة عاصمة لدولة الأويغوريين حتى القرن العاشر الميلادي وكان يطلق عليها اسم «قرا بالقاسون» أي المدينة الكبرى. ولايزال المغول يطلقون على أطلال هذه المدينة القديمة اسم خاراخروم أي القلعة الكبيرة.[٣٢]

وعلى بعد ستين كيلومتراً من أطلال قرا قروم وحصونها، شيد الأويغور مدينة أخرى بالاسم نفسه في سنة ١٢٣٤م بأمر من جنكيزخان. وقد شيَّد الصينيون حصونها. وكانت هذه المدينة عاصمة لسلاطين المغول وكانت تعد أكبر مدن مغولستان.[٣٣]

٤- قرا قوم - (القفار الشاسعة) .

وهي صحراء شاسعة مقفرة تقع في تركستان حول بحيرة خوارزم وسيحون وتشغل كثبانها الرملية مساحة تبلغ أربعمئة ألف كيلومتر تقريباً . وهناك قفار رملية أخرى بالاسم نفسه تقع بين خوارزم ومرو . والرمال عند الأتراك تسمى « قوم » . وكلمة « قرا قوم » تعني القفار الرملية الشاسعة . كما يطلقون على هذا النوع من القفار اسم قرا تقير و قزل تقير . وقد دوّن ڤامبري في سياحته حكايات عن القفار الرملية الجدباء (قزل تقير) .(٣٤)

٥- قرا آمد - (ديار بكرية) .

ديار بكرية هو اسم جغرافي إسلامي مثل ديار ربيعة وديار مضر . ويشير الأتراك في تواريخهم القديمة إلى هذه المدينة القديمة والمركز العسكري المهم باسم قرا آمد ، وكانت تعرف قبل الإسلام باسم آمد .

٦- قرا قشلاق - صحراء ساحلية ومشتى شاسع يشمل الجانب الشرقي كله من وادي سلماس ويمتد من أطراف جبال تمروخان تختي إلى المناطق القريبة من جبل شكريازي . ويشمل هذا المشتى المنطقة الشمالية الغربية من بحيرة أرومية وتقع قرى قطاع لكستان سلماس في هذه الصحراء . وفي مقابل مصطلح « قرا قشلاق » سيرد أيضاً مصطلح « قزل قشلاق » في موضعه فيما بعد .

٧- قرا دنيز - (البحر الكبير) ويشير پترو دولاڤاله في سياحته إلى البحر الأسود باسم البحر الكبير ، ويقول مترجم هذا الكتاب إلى الفارسية في ذيل صفحة ٧٠ : « البحر الكبير من أسماء البحر الأسود وقد شاع هذا الاسم في العصور القديمة » .

٨- قراباغ - على الساحل الغربي من بحيرة أرومي هناك منطقة شاسعة تسمى قراباغ وتشتهر ببساتين العنب . وقد ورد ذكر العديد من المناطق الجغرافية بهذا الاسم في الكتب .

٩- قراداغ - جبال ضخمة بشمال أذربيجان . وهناك أيضاً عدد من الجبال في تركيا وتركستان تشتهر بهذا الاسم .

١٠- قرا گول - بركة شاسعة في تركستان تبلغ مساحتها حسب قول بارتولد عشرين فرسخاً مربعاً ، وتضم العديد من أنواع الطيور والأسماك . وكان أبناء جنكيزخان يرتادون هذه البركة

(گول) للصيد .(٣٥)

١١- قرا بغاز گل - يقدم كتاب مبادئ علم الأرض التوصيف التالي لهذه البركة :

« في شرق بحر الخزر تقع أكبر البرك على سطح الأرض. وتساعد مياه البحر المالحة التي تدخ إلى قرا بغاز من خلال فتحة ضيقة على تعويض انخفاض مستوى المياه بهذه البركة نتيج للبخر » .(٣٦)

١٢- قرا حصار - (القلعة الكبرى، مثل آق حصار) .

هناك قلاع حصينة شيدت في مواضع جبلية وعرة بالأناضول في عصور العرب والبيزنطيي والسلاجقة، وهي تعرف باسم قرا حصار في كتب التاريخ.

وحول هذه الحصون بنيت مدن بهذا الاسم وكانت تستخدم هذه القلاع في صد الأعداء ولمزيد من المعلومات عن اثنتي عشرة قلعة تعرف باسم قرا حصار يمكن الرجوع للصفحات م ٢٧٦ إلى ٢٨٤ من المجلد السادس من دائرة المعارف الإسلامية طبعة اسطنبول.

١٣- قرا موران - وهو نهر عميق يسمح بالملاحة في الصين ويعرف اليوم باسم هوينهو. وق ورد الوصف التالي لهذا النهر بحاشية في كتاب رحلات ماركو پولو :

« قرا موران بلغة التتار معناها النهر الأسود، وهو اسم نهر عظيم يجري بتعرجات كثيرة عب الصين كلها. ونظراً لامتزاج مياهه بالطمي فإن الصينيين يسمونه " "هوانگ هو" أي النهر الأصفر وربما كان السبب في تسمية هذا النهر بالنهر الأسود أن القسم الأعلى من النهر يضم أراضي ترابي أسود اللون وأن قاع المياه يبدو أسود اللون » .(٣٧)

كما يشير ماركو پولو في سياحته إلى شطآن بيضاء وذهبية يرجح أنها ما تشير إليه كلمة « قرا نفسه من سواد اللون؛ وترد كلمات آق و قزل أيضاً في الأسماء الأصلية لهذه الشطآن.

ولم يكن تغيير الأسماء الجغرافية الخاصة بالأتراك القدماء شائعاً في إيران والصين وحدهما كتغيير اسم گوى مسجد إلى مسجد كبود (المسجد الأزرق)، و آق حصار إلى دژ سفيد (القلع البيضاء)، و قرا موران (النهر العظيم) في الصين إلى اسم « النهر الأسود » - بل كان شائعاً ف روسيا أيضاً. ففي تركستان الجنوبية مثلاً، هناك نهر يعرف باسم آمو دريا وكان يصب في بحر

الخزر حتى الربع الثالث من القرن السادس عشر الميلادي ثم تمّ تحويل مساره ليصب في بحر أورال.
وكان الأتراك يطلقون على مصب آمو دريا على الساحل الشرقي من بحر الخزر اسم قزل سو (المياه الحمراء)؛ وبعد احتلال الروس لتركستان غيروا اسم قزل سو إلى كراسنوڤوديسك ومعناه الحرفي «المياه الحمراء».(٣٨) كما يطلق الأتراك اسم آلتون أردو على قزل أردو، وهو يعني الجيش الذهبي.

١٤. قرا كليسا - (الكنيسة الكبرى، المعبد الأغر)

هي كنيسة الطاووس المقدس بالقرب من ماكو وقد اشتهرت في العالم بالقدم والفخامة. وبنيت هذه الكنيسة حسب قول المهندس أحمد حامي بالأحجار الجيرية البيضاء ولا تمت للون الأسود بصلة.

١٥. قرا سو (النهر العظيم)

ورد ما يلي في دائرة المعارف الفارسية:

«الفرات هو أكبر أنهار غرب آسيا، ويتكون من التقاء نهري قرا سو (بطول ٤٥٠ كيلومتراً) و مراد سو (بطول ٦٥٠ كيلومتراً). وقد ظل النهر الأول يسمى الفرات لفترة من الزمن مع أنه أقصر، ولايزال مجراه الأدنى يسمى بالفرات إلى يومنا هذا، ويعتبر الفرات الأصلي هو نفسه قرا سو في كل المصادر».

ويعرف أكبر أنهار منطقة كرمانشاه والذي يشكل الفرع الأصلي لنهر كرخة باسم قرا سو.

وهكذا يلاحظ من مطالعة الأسماء الجغرافية أن الأتراك كانوا في العهود القديمة يضيفون لفظ قرا إلى أسماء أكبر المدن والأنهار والجبال والصحارى والقلاع والبحار والمعابد للإشارة إلى ضخامتها وعظمتها.

ب. الشخصيات التاريخية:

١- قراخان - (خان الخطائيين الأكبر)

٢- قرا أرسلان بن داود الملقب بفخر الدين - أحد أشهر قواد حصن كيف في عصر أتابكة

الموصل. خرج قرا أرسلان في رمضان ٥٣٢هـ على رأس جيش قوامه ٥٠ ألف رجل لقتال الصليبيين وأنزل بهم الهزيمة في أنطاكية.(٣٩)

٣- قرا يوسف - والد جهانشاه الثاني وأمير قرا قويونلو وواليها.

٤- قرا خليل چندرلى - من مشاهير أمراء العثمانيين.

٥- قرا هولاكو - أول خوانين أولوس الجغتائيين.

٦- قرا يولك - جد أوزون حسن آق قويونلو.

٧- قرا تاتار - أحد مشاهير أمراء العثمانيين وكان يمتلك أربعين ألف منزل (خيمة) وقام بتنظيم جيش جرار هاجم به عثمان بيك في سيواس.

٨- قرا محمد - والد قرا يوسف قرا قويونلو.

٩- قرا سنقر - هو الأتابك سلطان داود والي أذربيجان والمتوفى سنة ٥٣٥هـ.

١٠- قرا سنقر علاء الدين - وهو والي مراغة وتوفي سنة ٦٠٤هـ.

١١- قرا حسن من آل چوپان - والي بغداد في سنة ٧٤٥هـ.

١٢- قرا هولاكو و قرا بوري - حفيد جنكيزخان.

جـ- الأسماء الخاصة والمميزة التي تعبِّر عن عظمة الموصوف وكثرته:

١- قرا قويونلو - يُرجع إلى التفاصيل التي وردت تحت «آق قويونلو». وإلى جانب القرا قويونلو والآق قويونلو والقرا گچى لو والآق گچى لي، تطالعنا في كتب التاريخ والجغرافيا والاجتماع الخاصة بالأتراك أسماء طوائف وقبائل مثل قرا مان، آق مان، قرا هون، آق هون، قرا خزر، آق خزر، قرا مجار، آق مجار، قرا تاتار، آق تاتار، قرا چستار، آق چستار، قرا سقال، آق سقال، وعشائر القرا خطائيين والقراخانيين، وقد أحجمنا عن إيرادها تفصيلاً. وإلى جانب الآق أولى والگوگ أولى، يشير أبو الغازي بهادر خان في كتابه شجرهء تراكمه (أنساب التركمان) فرعاً من التركمان يسمون قرا اولي.

٢- قرا ألوس - وهم طوائف وعشائر ضخمة.

الإسلامية. ونظراً لجلال عمارة هذه المباني وعظمتها فقد اقترنت أسماؤها دوماً بالصفة گوى. وحتى المساجد القديمة أيضاً كانت تسبق أسماءها هذه الصفة، وكان يتم تمييز العمائر الدينية الكبرى عن غيرها من منشآت بهذه الصفة. يقول بارتولد في كتابه «ألغ بيك وعصره»:

«وفي جنوب مدرسة ألغ بيك التي بنيت في سمرقند كان هناك مسجد شيدت جدرانه وسقفه بالخشب المقطع. وكان ثم فارق هائل بين قبلة المسجد الجامع وقبلة مدرسة الغ بيك. فكانت قبلة المسجد تتميز بالنجوم وطريقة وضعها في السماء، وكانت قبلته موضع ثقة المؤمنين والمصلين. وكان الناس يعتقدون أن عمارة المسجد لها صلة بعبدالله بن عمر بن الخطاب. لذا فقد كان المسجد يسمى أيضاً "عمر مسجدي" (مسجد عمر) و "مسجد كبود"».(٥٢)

وشيد السلطان أحمد الأول العثماني مسجداً يعرف باسم «مسجد أحمديه» في اسطنبول بين الأعوام ١٦٠٩ و١٦١٦م بناه المعماري الملكي محمد آقا الذي كان أحد تلاميذ المعمار الشهير سنان. وكان هذا الجامع العظيم البناء يعرف بين الناس باسم "گوگ مسجد" وهو الاسم الذي يعرف به أيضاً في كتب التاريخ وخاصة في الدليل السياحي التركي الذي يشرح آثار مدينة اسطنبول. ولايزال گوگ مسجد باسطنبول يعد أحد أبرز نماذج العمارة الإسلامية، ويجذب اهتمام الناس بمآذنه الست الجميلة أمام مسجد آيا صوفيا. وبين المساجد الستة عشر الشهيرة باسطنبول المدرجة في كتاب *Touristic Istanbul* (اسطنبول السياحية) يتخذ گوى مسجد مكان الصدارة.(٥٣)

٤- گوى مدرسة - (المدرسة الغراء):

ومن الأبنية القديمة التي يرجع تاريخها إلى عصر سلاجقة الروم هناك ثلاث مدارس فخيمة شيدت في ثلاث مدن مهمة بالأناضول في غضون ثماني سنوات، وكلها تشتهر باسم گوى مدرسه:

أ- گوى مدرسه بمدينة سيواس - وقد بنيت في سنة ٦٧٠هـ بأمر كيلوك بن عبدالله ومن تصميم وتأسيس الوزير المعروف فخر الدين صاحب عطا.(٥٤)

ب- گوى مدرسه بمدينة أماسيه - وهناك مسجد بجوارها، وشيدت في سنة ٦٦٥هـ. وربما

كانت طوائف اللر الكبرى واللر الصغرى تعرف في مجموعها في عصر الإيلخانيين باسم « قرا الوس ».[٤٠] ويشار في تواريخ الصفويين إلى هجرة نحو أربعين ألف أسرة من قبائل العراق وعشائرها إلى أذربيجان وأطراف همدان في سنة ٩٤٦هـ تحت عنوان « هجرة قرا الوس ».[٤١] وفي كتاب دستور الملوك وردت إشارة إلى رعاية ميرزا رفيعا للقرا الوس من قبائل العرب وعشائرهم.

وورد في تاريخ ديار بكريه أيضاً ما يلي عن « قرا أولوس »:

« حسن علي سلمه أبوه للبيجم وأشار عليها باتخاذ طريق بغداد نحو الشام ... ودخلت البيجم زوجة جهانشاه ميرزا من بوابة بغداد. تم تهجير القرا أولوس إلى العراق وأطراف أذربيجان وكان عددهم خمسين ألف أسرة في مقابل استيلاء كبير البوداق على أموال يزد والعراق ».[٤٢]

ملحوظة:

يستخدم مصطلح قرا في المصادر التركية للدلالة على طول الطريق والمسافة أيضاً. فيصف المرحوم زكي وليدي طوغان في كتابه القيم بوگونكى تركستان طريق الحرير الشهير الذي كان يمتد من الصين إلى غرب أوربا باسم « قرا تجارت يولاري » (طرق التجارة الكبرى) استناداً إلى المصادر القديمة.[٤٣]

وكما كانت كلمة قرا قد وردت فيما سبق على شكل سابقة وتم إيراد أمثلة على ذلك فقد ورد مثال استثنائي على هذه الكلمة بمعنى « كبير » على شكل لاحقة في اسم العلم « بايقرا » أي « الثري الكبير »، وهو اسم جد السلطان حسين بايقرا وتولى حكم همدان في عامي ٨١٧ و٨١٨هـ. وقد وردت كلمة « باي » في معجم لغات الترك للكاشغري وفي المتون القديمة ونقوش أورخون بمعنى « ثري »؛ وترد صفتا « باي و يوقسول » في الكتابات التركية المنظومة والمنثورة دائماً كصفتين متقابلتين بمعنى « الغني والفقير ».[٤٤] وكان بايسنقر وآتاباي وجعفرباي من كبار الشخصيات بين الأتراك والتركمان.

ويطلق الأتراك على أكبر طيور الدنيا وهو العقاب اسم « قرا قوش » أي « الطائر الأكبر ». ومن مصطلحات الترك أيضاً « قرا نَي » وقد وردت في معجم فرهنگ معين بمعنى « الناي الأكبر ».

وفي معلومة أخرى عن هذا القصر الشهير لجنكيزخان يقول المؤرخ نفسه:

«وفي أواخر ذي الحجة من سنة ٦١٧هـ، رفرف علم النهضة على البلدة العامرة، وفي ظاهر سمرقند صدر الأمر لجمع من الأمراء والجند بفتح أمصار تركستان، وانضم إليه حشد كبير من الناس. ونزل جنكيزخان في گوگ سرا واستراح به لمدة يومين».[٤٩]

٢- گوى سرا - (قصر الأمير تيمور).

وعن هذا القصر الملكي يقول مؤلف حبيب السير:

«وجاء الأمير تيمور من كان گل إلى سمرقند ونزل في مدرسة سراي السيدة ملك ... ثم أصدر أمراً كريماً لسائر سفراء البلاد المحيطة بالعودة، ثم انتقل بهمته العالية من مدرسة سراي السيدة ملك إلى گوگ سرا الذي شيده».[٥٠]

وطبقاً لما ورد في تذكرة الشعراء لدولة شاه السمرقندي، كان هذا القصر السلطاني يشتمل على خزانة وقلعة وسجناً:

«يُروى أنَّ السلطان شاهرخ حين ارتقى عرش سمرقند دخل الخزانة والكنز التيموري الذي كان قد تم تخزينه ودفنه في گوگ سراى و قلعة سمرقند».

وعن مقتل الأمير أبا بكر على يد ميرزا ألغ بيك يقول دولت شاه:

«وفي شهور سنة اثنتين وخمسين وثمانمئة وفي قلعة سمرقند وسجن گوگ سرا أرسل روحه الطاهرة إلى جنة المأوى».[٥١]

ويمكن الرجوع للصفحتين ٧٠ و٢٤٤ من كتاب «ألغ بيك وعصره» لعالم الإيرانيات بروفسور بارتولد للاطلاع على المزيد عن هذا القصر الحصين الخاص بالأمير تيمور.

٣- گوى مسجد - (المسجد الأغر).

گوى مسجد تبريز بناء شاهق وفخيم من آثار جهانشاه بن قرا يوسف، وقد اشتهر بين الناس وفي التواريخ القديمة بهذا الاسم ولايزال. إلا أنه يعرف حالياً في الكتب والمقالات باسم مسجد كبود (المسجد الأزرق). وتعد أطلال هذا المسجد نموذجاً للعمارة في القرن التاسع الهجري.

شيد السلاجقة والتيموريون والإيلخانيون المساجد والمدارس والعمائر في إيران وغيرها من البقاع

كما وردت السابقة قرا بمعنى «القوي» أيضاً. يقول أبو بكر تهراني في كتابه ديار بكريه:

«وعلى أطراف أرزنجان انضم سلطان طربزون إلى معسكره (عثمان بيك) وأمده بالمجانيق والعربات و الـ «قرا بغرا» لمساعدته على فتح القلعة».(٤٥)

وإذا بحثنا عن المعنى الحرفي لمصطلح «قرا بغرا» نجد أنه يعني «الجمل الأسود»؛ في حين أن الجمل أولاً لا صلة له بفتح القلاع؛ ثانياً، ليس هناك جمل أسود. ويفسر أمبري المصطلح في سياحته بمعنى «الحلقة الحديدية ذات السلاسل».(٤٦)

عُرف الجمل بين الأمم والطوائف كرمز للقوة والقدرة على حمل الأحمال. وكانت العرب تشبه هذا الحيوان بالسفينة ويسمونه «سفينة الصحراء» لأنه كان ينقل الأحمال على ظهره عبر الصحاري. وفي الإنجليزية أيضاً يسمى الجمل ***the ship of the desert*** أي بالمعنى نفسه، فالجمل يشبه المنجنيق الضخم في رفعه للأحمال بحركة واحدة. لذا فقد كان الترك يطلقون مصطلح «قرا بغرا» (الجمل القوي) على أكبر المجانيق وأقواها. وقد ورد ما يلي عن هذه التسمية وسابقتها التاريخية في كتاب سيرت جلال الدين منكبريني:

«... أقام جهانشاه (ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب أرزن الروم) عدة أيام في البلاط وأنس السلطان به وخلع على خاصته ورفاقه مئتي خلعة. وعند عودته إلى دياره أمر بإمداده بما توفر من آلات القلاع وأرسل إليه منجنيقاً ضخماً يطلق عليه اسم «قرا بغرا» بالإضافة إلى كثير من الرماح والسهام».(٤٧)

«گوى» أو «گو»

أ. أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية:

١- گوى سراي - (القصر الكبير) أي بالمعنى نفسه «آق سراي» و «قرا سراي».

وعن قصر جنكيزخان الكبير يقول خواندمير:

«وعلى أطراف سمرقند، جاءوا بغايرخان إلى جنكيزخان، وفي گوگ سرا أذاقوه كأس الشهادة».(٤٨)

ترجع عمارة هذه المدرسة إلى سيف الدين ترمتاي وإلى أماسيه.(٥٥)

جـ- گوى مدرسه بمدينة توكات - وقد بنيت في سنة ٦٧٣هـ. وفي سنة ١٩٢٦م افتتح متحف مدينة توكات في هذه المدرسة الأثرية.(٥٦)

٥- گوى برج - وهو من عمائر مدينة مراغة الأثرية، وقد شيد في سنة ٧٣١هـ ويقع بجوار گنبد كبود (القبة الزرقاء). والأرجح في ضوء النماذج التي سبق عرضها أن يكون الاسم الأول والأصلي لـ گنبد كبود التي بنيت في سنة ٥٩٣هـ هو گوى گنبد (القبة الغراء) حيث بني هذا البرج بجوارها بعد ١٣٠ سنة واتخذ اسم گوى برج. وهناك أيضاً گنبد سرخ (القبة الحمراء) بمراغة، والأرجح أن يكون اسمها الأصلي قزل گنبد.

٦- گوى سو - (النهر الكبير) وقد ورد بدائرة المعارف الإسلامية طبعة اسطنبول أسماء أربعة أنهار كبرى في تركيا تتراوح أطوالها بين ٢٦٨ و ١١٠ كيلومترات باسم گوى سو.

٧- گوگچه دنيز - وهو اسم بحيرة عذبة تقع في أرمينيا على أطراف مدينة ڤانڤارجيش التي كانت عاصمة أرمينيا فيما مضى. وفي أرمينيا أيضاً وعلى أطراف مدينة تشيلدر، وورد ذكر جبل باسم گوگچه داغ في سفحه بركة كبيرة تعرف باسم گوگچه گل (البركة الكبرى).

٨- گوگ دنيز - تشير المصادر الجغرافية للقرن السابع عشر الميلادي إلى بحيرة أورال باسم گوگ دنيز. ولاتزال أكبر جزر هذه البحيرة تعرف باسم گوگ آرال.(٥٧)

٩- گوى گانزو - ورد في كتاب رحلات ماركو پولو ذكر مدينتين باسم «گانزو» تقعان كل في مواجهة الأخرى على ضفتي نهر قرا موران المعروف؛ تعرف صغراهما باسم گانزو والكبرى باسم گوى گانزو. وتدل السابقة گوى على تمييز إحداهما على الأخرى من حيث الحجم والرقي.

١٠- گوى تپه - وهو اسم تل ترابي كبير على بعد ستة كيلومترات من أرومي، وقد بنيت فوقه قرية عامرة وكبيرة تعرف بالاسم نفسه، وقام الباحثون الأثريون بالتنقيب فيها عدة مرات حتى الآن.

وقد وردت في المصادر الجغرافية والتاريخية الخاصة بإيران وتركيا أسماء مثل گويجه قلعه، گوى دره، گوى تپه، گوى سو، گوى داش، گوى گنبد، گوى باغ، گوى گل، گويجه منار، وغيرها ضمن أسماء المواضع الجغرافية.

ب. الشخصيات التاريخية:

١- گوگ بوري - وهو لقب الملك المعظم مظفر الدين أبو ناصر بن زين الدين على كوچك، وهو من طوائف التركمان وكان والياً على أربيل وشهرزور ومن أبرز قواد صلاح الدين الأيوبي. وفي موقعة حطين الشهيرة التي وقعت في سنة ٥٨٣هـ والتي تحقق النصر الكامل فيها لصلاح الدين بعد مقتل ثلاثين ألفاً من الصليبيين ووقوع مثلهم في الأسر، أبدى گوگ بوري شجاعة فائقة فتولى قيادة ميمنة جيش الإسلام. وقد ظل في منصب الوالي لمدة ٤٤ سنة (من ٥٨٦ إلى ٦٣٠هـ).

ويشير العلامة محمد قزويني إلى أن گوگ بوري تعني «الذئب الأزرق» استناداً إلى قول ابن خلكان: «هذا اسم تركي معناه بالعربية ذئب أزرق» وإلى كتاب ترجمان عربي وتركي (نشر هوتسما).

وفي حالة المقارنة أو التصور الذهني، فإن الذئب الأزرق لابد أن تدل على لون الخزف اللازوردي والفيروزي نفسه في مسجد كبود بتبريز أو گنبد كبود بمراغة؛ ومن البدهي أنه ليس ثمّ ذئب بهذا اللون وأن هذا التعبير لا يصف الموصوف. بل كان الترك يلقبون أبطالهم وأبرز قوادهم بأسماء طيور الصيد الجارحة مثل طغرل (العُقاب)، سنقر (الصقر)، طوغان (الشاهين) وبأسماء الحيوانات القوية المهيبة مثل أرسلان (الأسد)، بوغا (الثور)، بوري (الذئب)، وللمغالاة في وصف قوتهم ومهابتهم كانوا يضيفون إلى أسمائهم اللواحق آق، قرا، قزل، گوى مثل آق سنقر، قرا سنقر، قزل أرسلان، قرا أرسلان، آق بوغا، قرا بوغا، قزل بوغا، قرا بوري، گوى بوري وغير ذلك. وطبقاً للرواية كان لماتيكان حفيد جنكيزخان أربعة أبناء يسمى أحدهم قرا هولاكو وآخر قرا بوري. وكان مظفر الدين ملك أربيل الذي دخل معترك السياسة والحكم في سن الرابعة عشرة يشتهر بلقب گوى بوري أي «الذئب القوي» نظراً لشجاعته في الحروب وانتصاراته فيها. ولمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى حواشي تاريخ جهانگشاى لعطا ملك الجويني التي أضافها العلامة القزويني، وإلى دائرة المعارف الإسلامية طبعة اسطنبول.

٢- گوى - وهو ابن أوغوز خان.

٣- گوى خان - وهو من أمراء خوارزم شاه.

٤– گوى آلپ (البطل المغوار) – وهو الجد الأكبر لآل عثمان.

٥– گوگچه، نور الدين – وهو والي همدان، وقد وردت سيرته كاملة في كتاب راحة الصدور.

٦– گوگچه، موسى – وهو أمير قبيلة «دجر» وكان من أبرز الشخصيات في عصر الآق قويونلو.

٧– گوى خان – وهو والد بايندر أمير تركمان الآق قويونلو.

٨– گوى خاتون (السيدة الكبيرة) – وهي طبقاً لما ورد بكتاب جهانگشاي، والدة جومغار أوغول بن هولاكو.

جـ– الأسماء الخاصة والمميزة التي تعبِّر عن عظمة الموصوف وكثرته:

١– گوى أردو – في غرب منطقة قبچاق الصحراوية، كان للترك جيش كبير وكان بمثابة دولة مستقلة، وظل في حالة عداء للآق أردو لسنوات طويلة كما ورد في كتب التاريخ الخاصة بالترك.

٢– گوى ترك – وهم أتراك آسيا الوسطى الذين تفرقوا بين إيران وتركيا والشام، وكانوا يسكنون غرب آسيا. وهم أحد الأفرع الكبرى من الأوغوز. يقول تامسون الأستاذ بجامعة كوبنهاجن:

« يطلق المؤرخ المغولي سانانغ سه تسن اسم "گوگ مغول" على الكثرة التي لا تُحصى من الأتراك من أنصار جنكيزخان ».(٥٨)

والسابقة گوگ في التسميات گوگ ترك، گوگ مغول، گوگ أردو تدل على ضخامة التنظيم واتساع النسيج الاجتماعي وزيادة العدد. كما وردت في أوائل المصادر المكتوبة للأتراك في القرن الثامن الميلادي (نقوش أورخون) إشارة إلى قبائل القرا ترك التي خرج كولتكين خان لقتالهم في موقع يسمى تابار بالقرب من نهر زرافشان.(٥٩)

ملحوظة:

١– گوگ تنكرى – (الإله العظيم). كان الترك يصفون الله في المتون القديمة والكتابات

الدينية بهذه الصفة. وتم العثور على نقوش على ضفتي نهر أورخون في قرا قروم، وتعد هذه النقوش آثاراً قديمة للترك يعود تاريخها إلى ألف وثلاثمئة سنة مضت. وتمت ترجمة أشكالها وخطوطها على يد الباحث الروسي رادولف وتامسون الأستاذ بجامعة كوبنهاجن في الفترة من ١٨٩٠م إلى ١٨٩٣م. فعلى أحد النقوش التي وضعت على قبر أحد خوانين الترك ورد ما يلي كما قرأه كل من تامسون ورادولف:

«اوزه گوگ تكڑى آسره يغز يرقيلندقده اكين آره كيشى اوغلى قيلنمش».

وهذا النص المدون بلغة الترك القديمة ترجمه الأستاذ نجيب عاصم أستاذ اللغة التركية بدار الفنون باسطنبول بما يعني: «في الأعالي السماء الزرقاء، وتحتها الأرض السمراء، وبينهما خلق الإنسان». وفي حين أن المعنى الأصلي للنص هو «في البداية خلق الله الإنسان على الأرض» فقد فسر بارتولد كلمة اوزه بمعنى «في البدء» ولم يقبل ترجمة كلمة گوگ بمعنى «السماء الزرقاء» كما ذهب البعض واعتبرها رمزاً خاصاً بالترك القدماء للدلالة على الله تعالى.(٦٠)

٢- گوگ دبتر - (السجل الجليل):

يقول الباحث التركي الشهير عبدالقادر إينان:

«كان المغول يسجلون أحوال أجدادهم وملوكهم في سجلات خاصة ويحفظونها في خزائن. وكانوا يطلقون على هذه السجلات والوثائق الملكية اسم "گوگ دبتر" وكانت جزءاً من «التاريخ السري للمغول»، وقد استعان بها رشيد الدين في ترتيب تاريخه المعروف».(٦١)

قزل

أ. أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية:

١- قزل آلان - هذا السد العظيم والحائط الحدودي الجسيم على سواحل بحر الخزر والذي يعرف خطأ باسم سد الاسكندر تم بناؤه في عصر الساسانيين. وقد استخدم الآلان وهم حراس الحدود الساسانيين هذا السد في صد هجوم الهياطلة (الهفتاليين). وفي سنة ٣٧٤م عبرت قبائل

الهون نهر القولجا وهاجموا الآلان. وكان هذا السد العظيم الذي كان يبلغ طوله عند إنشائه ٣٠٠ كيلومتر يقف كالجبل المنيع أمام جحافل جيوش الترك. ونظراً لضخامته ومنعته، أطلق الترك عليه لقب «قزل آلان».(٦٢)

٢- قزل أوزون - (النهر الكبير):

وهو الاسم التركي للنهر الأبيض (سفيد رود). ويبلغ طول هذا النهر الكبير خمسمئة كيلومتر، ويعد أغنى أنهار إيران بالمياه. وقد ورد أنه كان يعرف باسم «ماردي ماردوس» و «آماردي» قبل عصر السلاجقة. وقد أطلق عليه الأتراك اسم «قزل أوزون» لطوله وضخامته. وفيما يلي نقدم إيضاحات عن كلمة أوزون.

يشير المستشرق البولندي ت. كوفالسكي إلى أن كلمة أوز كانت تستخدم في التركية القديمة بمعنى الماء الغزير أو النهر. وكانوا يميزون الأنهار المتصلة بقزل أيرماق باللاحقة أوز مثل قليج أوزي، بوراق أوزي، اورن أوزي، اوران أوزي، والنهر الواقع بين چوروم وأماسيه يسمى مجيد أوزي، وهناك نهرا قاميشلى أوز واگرى أوز حول قونية، ونهر قزل أوز في منطقة بولي، وهم جميعاً من أنهار الأناضول. كما نصادف في المصادر الجغرافية الخاصة بالأناضول إشارات إلى أنهار آرقيت أوزي، آقچه أوزي، دانشمند أوزي، كش أوزي. وتعرف المنطقة الخصيبة الوفيرة الماء القريبة من ملاطية باسم أوز حيث يرى بعض الباحثين أن كلمة أوز تقابل كلمة قراچ (البور).(٦٣)

وكانت عاصمة قراخانيي ما وراء النهر تعرف باسم اوزكند حسب قول بارتولد، وكانت من أغنى مدن تركستان من حيث وفرة المياه. والجبال الشمالية الشرقية لبحيرة وان والتي تعد نسبة مياه الأمطار التي تسقط عليها من أعلى النسب السنوية تعرف باسم أوز آلپ. وقد ورد بدائرة المعارف الفارسية أن هناك عدداً من الأنهار المعروفة بتركستان تعرف باسم أوز. ويقول زكي وليدي طوغان في مقاله الشامل بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان «آمو دريا» إن الترك كانوا يطلقون على هذا النهر اسم أوز بوري أي «النهر العظيم». وكانت كلمة أوز بمعنى الماء أو النهر يقابلها عند الأويغوريين اوكوز، وعند القرغيز والمغول اوسون، وعند القزاق أوزن. كما وردت كلمة أوزن بمعنى النهر في حواشي تاريخ جهانگشاى للجويني ودائرة المعارف الإسلامية. من ثم وبناء على ما ورد

في المصادر المذكورة، فإن كلمة قزل أوزن تعني « النهر العظيم ».

٣- قزل أيرماق - أيرماق بالتركية تقال للنهر الكبير. وهذه التسمية التركية تطلق على أكبر أنهار الأناضول الذي كان يسمى « هاليس » من قبل.

٤- قزل داغ - يعرف أكبر جبال آلتائي (كاتون) باسم قزل داغ. وهذه المنطقة كان يسكنها الترك قديماً. ويعرف أشهر شلالات منطقة آلتائي باسم گوگ گول.(٦٤)

٥- قزل دنيز - اسم أطلقه الترك على بحر القلزم. وكان الاسم القديم لهذا البحر هو سينوس آرابيكوس.

٦- قزل قوم - (القفار الشاسعة). وهي صحراء جدباء فسيحة تشبه قرا قوم حول بحر سير. وقد ورد ذكر هذه القفار في كتاب تركستان نامه لبارتولد باسم قزل قوم؛ وأشار إليها ڤامبري في سياحته بالتسمية المحلية قزل تقير، وهي مثل قرا تقير، وكلاهما بمعنى القفار الشاسعة.

٧- قزل قشلاق - مثل قرا قشلاق، ومعناها « المشتى » وهي منطقة فسيحة على ضفتي نهر أرس، وهي حالياً مشتى القبائل والعشائر حول محافظة ماكو. وفي نطاق مدينة ماكو، هناك مشتى شاسع آخر يعرف باسم قزل سورو؛ وقطيع الأغنام الكبير يقال له بالتركية « سورو ».

٨. قزل وانك - في اللغة الأرمنية كانت الكنائس التي تبنى في المدن والأقاليم والقرى وتتبع الأسقفية من الناحية الإدارية باسم يه گه غه چی *yegegeci*، وهي معابد عامة. أما الكنائس الخاصة والكبيرة التي تدار منها الأسقفية وتمثل المرجع الديني ومركزاً لتعليم الطلاب وتدير الكنائس التابعة فكانت تعرف باسم وانك *vank*، ومنها وانك جلفاي أصفهان. وكان لمعظم مباني هذا النوع الأخير من الكنائس جانب تاريخي وأثري وكانت لطرزها المعمارية أهمية وقيمة خاصة من الناحية الفنية، ومن هذا النوع ساقموسا وانك تاديو وانك (قرا كليسا)، آق وانك (كليساي آق تامار)، سن استيفانو وانك (قزل وانك).

على أطراف قرية دره شام، وفي منطقة پلدشت التابعة لمحافظة ماكو وعلى بعد ١٧ كيلومتراً شمال غرب طريق خوي - جلفا المعبّد، تقع كنيسة سان استيفانو الضخمة التي تعد من أهم الآثار المعمارية المسيحية في إيران، وقد بنيت في القرن العاشر الميلادي. وهذه الكنيسة التاريخية تعرف

في المنطقة باسم قزل وانك، وهو الاسم الذي يعرفها به أرمن إيران أيضاً. وضمن مجموعة وثائق وصكوك ماتنادران الفارسية التي يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الهجري وتم نشرها في سنة ١٩٦٨ في يريڤان، تتعلق الوثيقتان ٨ و١٦ بالشؤون الملكية الخاصة بهذه الكنيسة. وتعد آثار قزل وانك وخاصة أوانيها الخزفية المنقوشة من مصادر البحث المعروفة. وتعد كل من تاديو وانك (قرا كليسا) وقزل وانك أكبر وأقدم أثرين معماريين مسيحيين في إيران.

وفي الفترة نفسها بناء قزل وانك على جزيرة آق تامار ببحيرة وان، شيدت كنيسة ضخمة على يد الملك گاگيك ڤاسپوركان في الفترة من ٩١٥ إلى ٩٢١م، وهي تعد من أشهر كنائس أرمينيا. يقول هـ. لينتش في المجلد الثاني من تاريخ أرمينيا إن الأسقفية كانت تعرف باسم آق وانك.[٦٥]

٩- قزل جامع - (الجامع الكبير). وهو اسم مسجدين جامعين فخيمين بناهما زين الدين يوسف بن علي كوچك حاكم أربيل (شقيق مظفر الدين گوگ بوري) في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وأحدهما في الموصل والآخر في أربيل. بني قزل جامع الموصل بجوار نهر دجلة في حي مقام الخضر، ويعرف حالياً باسم الجامع الأحمر. وقد ورد بدائرة المعارف الإسلامية طبعة اسطنبول أن هناك مسجدين هما الأرقى والأكبر بين سبعة وعشرين مسجداً في الموصل، وهما قزل جامع والآخر الجامع الكبير للسلطان سعيد نور الدين.

١٠- قزل مسجد - وهو أقدم مساجد بدليس. وقد ورد عنه في كتاب شرفنامه ما يلي:

«هناك أربعة جوامع كبيرة في بدليس، كان أحدها كنيسة للأرمن قديماً. وحين تيسر لجيش الإسلام فتح المدينة تحولت إلى مسجد اشتهر باسم قزل مسجد. والثاني شيده السلاجقة وكتب عليه تاريخ بنائه بالخط الكوفي ويعرف باسم جامع كهنه (الجامع القديم). والثالث بناه الأمير شمس الدين الوالي بجوار گوگ ميدان ويعرف باسم جامع شمسيه»[٦٦]

وفي كتب الجغرافيا الخاصة بإيران، ورد ذكر عدد من المدن بأسماء قزل حصار، قزل بلاغ، قزل تپه، قزل داش، قزل داغ، قزل رباط، قزل سو، قزل چشمه، قزل دره، قزل قلعه، قزل قيه، قزل كند، قزل گنبد، وهي أسماء يمكن ملاحظتها في كتب الجغرافيا الخاصة بتركستان والأناضول أيضاً.

ب. الشخصيات التاريخية:

١– قزل أرسلان – وهو الأتابك الصامت المعروف بقزل أرسلان حفيد ايلدكر.

٢– قزل أرسلان – شقيق پهلوان.

٣– قزل – وهو اسم أمير الترك الشهير في القوقاز سنة ٤٩٩هـ.

٤– قزل – وهو أحد أمراء السلطان محمود السلجوقي في سنة ٥٢٣هـ.

٥– قزل – وهو اسم أمير غزان.

٦– قزل أرسلان – وهو سعد الدين بن زنكي، ممدوح الشاعر سعدي.

٧– قزل بوغا – وهو اسم اثنين من أجداد آل عثمان.

٨– قزل حميد – وهو من مشاهير أمراء آقسراي بالأناضول وكان منافساً لمحمد بيك المعروف بجمري.

٩– قزل أوقو – وهو من أشهر قواد توقتميش خان وتولى زعامة قبيلة القبچاق الذهبية في سنة ٧٨٧هـ.

١٠– قزل سلطان – وهو لقب أحد أمراء شاه طهماسب ولقي مصرعه في سنة ٩٣٣هـ في قضية التكلو والاستاجلو.

١١– قزل سارق – وهو من مشاهير أمراء السلطان ملك شاه السلجوقي وتولى عملية قمع الإسماعيلية في قهستان.

١٢– قزل خواجه – وهو اسم للأمراء وكان اسم قبيلة من تركمان الأناضول سيطرت أماسيه وتوكات في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وكانت في حالة كر وفر مع الدولة العثمانية.

١٣– قزل آخوند – وهو لقب رجل ذي نفوذ وقوة من التركمان في گمش تپه. وكان اسمه الحقيقي مراد وكان قد تعلم في بخارى. وقد تحدث ڤامبري في كتابه رحلات درويش مخادع عن نفوذ قزل آخوند ومكانته.(٦٧)

كانت كل هذه الشخصيات المذكورة من مشاهير رجال تاريخ الترك وقوادهم. وكلمة قزل التي تسبق أسماءهم تدل على قوتهم ونفوذهم وعلو مكانتهم.

جـ. الأسماء الخاصة والمميزة التي تعبِّر عن عظمة الموصوف وكثرته:

١ـ قزل أردو – يماثل گوى أردو و آق أردو.

كان جيش جنكيزخان الكبير المظفر يلقب بقزل أردو (الجيش الأحمر) وقد وردت أخبار فتوحاته وعدد جنوده في كتب التاريخ الخاصة بالمغول. وترد هذه التسمية في كتب التاريخ الحديثة بصورة «آلتون أردو» أيضاً.

إضافة إلى تمييز الأتراك للمساجد الكبرى عن غيرها من المساجد باستخدام السابقتين گوى و قزل (مثل گوى مسجد و قزل مسجد)، كانوا يميزون أسماء كبار رجالهم وشخصياتهم الدينية ومقابرهم وأضرحة متصوفيهم وأماكنهم المقدسة أيضاً بالسوابق آق، قرا، گوى، قزل، وكانوا بذلك يحددونها كأسماء أعلام وأسماء خاصة. ومن ذلك:

آق تربت – (الضريح الشريف) وهو ضريح أحمد يسوي أحد أقطاب متصوفة تركستان بمدينة يسي.(٦٨)

وكان تركمان جرجان أيضاً يضيفون السوابق آق، قرا، قزل إلى أسماء أئمتهم للتوقير. يقول رابينو عن الأماكن المقدسة بأستراباد:

«يقع ضريح قرنگى امام خارج مدينة جرجان، وهو بناء قديم تعلوه قبة والجزء الأكبر منه تحت الأرض. ويبلغ ارتفاعه من طرف القبة حتى قاع المقبرة نحو ١٥ ذراعاً. ونظراً لعدم وجود نقش فيه فقد تعذر التعرف على اسم صاحبه. ولكن من المعتقد أنه ضريح الإمام يحيى بن زيد الذي لقي مصرعه في أثناء القتال نحو سنة ١٢٥هـ خارج المدينة. و"قرنگى امام" في لغة التركمان تعني "الإمام الأسود". وهناك ضريحان آخران يوليهما التركمان احتراماً شديداً، أحدهما قزل امام (الإمام الأحمر) قرب قاري قلعه في الأراضي الروسية، والآخر آق امام (الإمام الأبيض) على رأس تل قرب قرية نيلي في مدينة فندرسك. ويقال إن هؤلاء الأئمة الثلاثة كانوا أشقاء»(٦٩)

وتنسب القبة الزرقاء (گوى گنبد) بمراغة إلى ضريح والدة هولاكوخان. وقد التقط علماء الآثار صوراً جوية لهذه الجزيرة ولقرية آق گنبد منذ سنوات بحثاً عن مقبرة هولاكوخان في جزر بحيرة أرومية، ولكن دون التوصل إلى نتيجة. ومما قد يفيد في هذا الصدد أن نذكر بعض

المعلومات عن مقبرة هولاكوخان وموقع خزائنه.

في شمال غرب بحيرة أرومية وشرق محافظة سلماس، هناك صحراء ساحلية مترامية الأطراف ورد في الوثائق التاريخية التي جمعها كل من أورارتو وآشور أنها كانت مكاناً لتربية الجياد منذ أوائل الألفية الميلادية الأولى ومن مدنها ما يعرف حالياً باسم «اخته خانه».

ظلت هذه الصحراء الشاسعة تعرف باسم «دشت ماهان» حتى عصر السلطان جلال الدين ملكشاه، وظلت مرعى لأغنام ملكة ابنة السلطان طغرل وزوجة ملكشاه التي أغار عليها صاحب علي. وبعد استيلاء المغول على أذربيجان واستقرارهم في المنطقة، تحول اسم هذه الصحراء التاريخية إلى قرا قشلاق (المشتى الكبير). وعلى الجانب الجنوبي الشرقي من صحراء قرا قشلاق تقع ناحية «أنزل» التي كانت مسكناً لطوائف قديمة، وكان العثور في سنة ١٩٠٥ على تمثالين برونزيين لرأس ثور ومنطقة منقوشة يرجع تاريخها إلى الأورارتوئيين في هذه الناحية هو الذي كشف عن اسم «أنزل» ودفع إلى المزيد من الأبحاث. وكان المغول يطلقون على هذه الناحية اسم «قرا باغ». وتقع مدنها التي تسمى بأسماء تركية بصفة عامة على سواحل بحيرة أرومي وفي سفح جبل ورگه ويز وتمتد حتى البحر. وعلى بعد مئتي متر من الساحل وفي وسط البحر، هناك جبل يقف منفرداً وعلى قمته قلعة كبيرة تسمى گوره چين قلعه[٧٠] ويرجع تاريخها إلى عصر الماديين. وفي أوائل عصر دخول الإسلام كانت هذه القلعة سكناً لوجنا بن رواد ثم لمحمد بن بعيث.

وبعد استقرار المغول في صحراء قرا قشلاق ومدن قرا باغ، قام هولاكوخان حسب ما ورد في كتاب جامع التواريخ بحفظ الخزائن والغنائم التي استولى عليها في هذه القلعة الحصينة. وفي النهاية ووري جثمانه هو نفسه تحت ثراها. يقول مؤلف جامع التواريخ:

«أرسل هولاكوخان الخزائن والأموال الوفيرة التي استولى عليها من بغداد بصحبة الملك ناصر الدين بن علاء الدين صاحب الري إلى أذربيجان، وكذلك فعل في قلاع الملاحدة والروم والكرج والأرمن. وأمر الملك مجد الدين تبريزي ببناء عمارة عالية وفي غاية الاستحكام على الجبل المطل على ساحل بحر أرومي وسلماس. فانفقت كل هذه الأموال وتم بناؤها»[٧١]

وفيما يتصل بهذه الخزائن يتناول رشيد الدين فضل الله بداية حكم السلطان أحمد (تكودار

بن هولاكوخان) على النحو التالي :

«وبعد الاحتفال والسرور أمر باحضار الخزائن التي أعدت في شاهوتله وتوزيعها على الخوانين والأمراء والمقربين والمحتاجين، وبمنح كل جندي في الجيش مئة وعشرين ديناراً»[٧٢]

وهو ما يثبت صراحة أن خزائن هولاكوخان كان قد تم إعدادها على ساحل بحر أرومي وسلماس في « شاهو ». ويتناول جامع التواريخ وفاة هولاكوخان كما يلي :

« وفي ليلة الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وستمئة وافته المنية، وكان عمره ثمانية وأربعين عاماً شمسياً ورحل عن دار الفناء إلى دار البقاء وتم حفر حفرة في جبل شاهو قبالة دهخوارگان وأقيم العزاء وسط معسكراته ودفن تابوته في تلك الحفرة»[٧٣]

وقول رشيد الدين فضل الله بأن جبل شاهو (ساحل أرومي وسلماس وخزائن هولاكو وقبره) يقع قبالة دهخوارگان يعد صحيحاً تماماً. فهذا المكان يقع على الساحل الشرقي للبحيرة، وقبالته وعلى الساحل الغربي يقع جبل شاهو أو گوره چين قلعه.

وعلى الرغم من هذه الدقة في تحديد مكان خزائن هولاكو ومدفنه، فإن الباحثين ينقبون عن مكان الخزائن في جزيرة شاهي التي تبعد كثيراً عن مكانها في جبل شاهو، ولم يصلوا إلى نتيجة بالطبع.

الحواشي وقائمة المصادر والمراجع:

1 *Islam Ansiklopedisi* , Istanbul, Akkoyunlar.

٢- تشكيل دولت ملى در إيران، واتر هنيتس، ترجمه إلى الفارسية كيكاوس جهاندارى، ص٣١.

٣- تورك توره سى، ضياء گوگ آلپ. اسطنبول، ١٣٣٩هـ. ق. ص١٢-٢١.

٤- جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله، تحقيق بهمن كريمى، ص٣٧-٤٣.

٥- تواريخ آل عثمان، درويش أحمد عاشق پاشازاده، اسطنبول ١٣٣٢هـ. ق. ص٢ و١٨.

٦- حبيب السير، ج٣، ص٤٢٩.

٧- المصدر السابق، ج٣، ص٥٢٦.

٨- دانشنامه إيران وإسلام؛ لغت نامه دهخدا، مادة آق سراي.

٩- المصدر السابق، مادة آق شهر.

١٠- دانشنامه إيران وإسلام، مادة آق سو.

١١- دانشنامه إيران وإسلام؛ *Islam Ansiklopedisi*، مادة آق حصار.

١٢- تركستان نامه، و. بارتولد، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاورز، ج١، ص١٧٥ و٦٦٠.

١٣- آبياري در تركستان، و. بارتولد، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاورز، ج١، ص١٩٠-١٨٩.

١٤- *Islam Ansiklopedisi*، مادة *Nikide*.

١٥- تاريخ مبارك غازاني، رشيد الدين فضل الله، نشر كارل يان، ص٩٩.

١٦- حبيب السير، ج٣، ص٤٢٢.

١٧- جهانگشاى جوينى، تنقيح وحواشى العلامة محمد قزوينى، ج٢، ص١٣١-١٣٣.

١٨- حبيب السير، ج٤، فهرس الأعلام، الغ بيك وزمان أو. و. بارتولد، ترجمه إلى الفارسية حسين أحمدى پور، ص٢٣٣.

١٩- تواريخ آل عثمان، درويش أحمد عاشق پاشازاده، اسطنبول، ص١٥٤ و١٥٩.

٢٠- المصدر السابق، درويش أحمد عاشق پاشازاده، اسطنبول، ص١٧٠.

٢١- آتالار سوزى، جمعه مولانا شمس الدين، ٨٨٥هـ.ق. مخطوط رقم٣٤٤٣ مكتبة فاتح باسطنبول والذى طبعه بالحروف اللاتينية وحققه ولدايز بوداق سنة ١٩٣٦م.

٢٢- تاريخ ديار بكريه، أبو بكر تهراني، تحقيق نجاتي لوغال، فاروق سومر، أنقرة، ص٢٥.

٢٣- المصدر السابق، أبو بكر تهراني، تحقيق نجاتي لوغال، فاروق سومر، أنقرة، ص٢٣٤.

٢٤- تواريخ آل عثمان، درويش أحمد عاشق پاشازاده، اسطنبول، ص٣، ٤٩، ٧٤، ١١٣.

٢٥- تاريخ ديار بكريه، أبو بكر تهراني، ص٢٥.

26 Dedem Korkudun Kitabi, Orhan Saik gokyay, Istanbul, 1973, S: 150.

كتاب بابا قورقود، ترجمة فريبا عزب دفتري، محمد حريري أكبري، تهران، ص٢٩٣.

27 Mekaleler ve incelemeler, A. Inan, Ankara, 1968, S: 45.

٢٨ أ- بوگونگى تركستان وياقين ماضيسي، أحمد زكي طوغان، القاهرة ١٩٢٩، ص١٠٩.

٢٨ ب - جامع التواريخ، تحقيق بهمن كريمى، ص٣٩.

٢٩- مهمان نامه بخارى، فضل الله بن روزبهان خنجي، تحقيق منوچهر ستوده، تهران، بنگاه ترجمة ونشر، ص٢٢٤-٢٢٢.

٣٠- المرجع السابق، ص٨١ و٨٤.

٣١- لغت نامه دهخدا، دايرة المعارف فارسي مصاحب، فهرست أماكن جهانگشاى جوينى *Islam Ansiklopedisi*، مادة قرا قروم.

٣٢- المرجع السابق.

٣٣- المرجع السابق.

٣٤- لغت نامه دهخدا، دايرة المعارف فارسى مصاحب، فهرست أماكن جهانگشاى جوينى -Islam Ansiklope-disi، مادة قرا قروم. سياحت درويشى دروغين، أرمينيوس ڤامبرى، ترجمه إلى الفارسية خواجة نوريان، ص١٢٨ و٤٤٢.

٣٥- آبيارى در تركستان، و. بارتولد، ترجمه إلى الفارسية كريم كشاورز، ص١٦٩.

٣٦- مباني زمين شناسي، أوبروتشيف، ترجمه إلى الفارسية عبدالكريم قريب، تهران، انتشارات خوارزمي، ج١، ص٧٣.

٣٧- سفرنامه ماركو پولو، ترجمه إلى الفارسية حبيب الله صحيحي، ص١٩٩، جهانگشاي جويني، ج١، ص١٥١.

٣٨- بو گونگي تركستان، احمد زكي وليدى طوغان، ص١٣.

39-*Islam Ansiklopedisi* .

٤٠- تكملة الاخبار، عبدي بيك شيرازي(نويدي) مخطوط مكتبة ملك رقم ٣٨٩٠ الجزء الخاص باللر الكبرى واللر الصغرى.

٤١- المصدر السابق، أحداث سنة ٩٤٦هـ.ق. وكان زعيم هذه القبائل هو غازي خان تكلو.

٤٢- تاريخ ديار بكريه، أبو بكر تهراني، ص٣٦١.

٤٣- المرجع السابق، ص٩١.

٤٤- *Islam Ansiklopedisi*، مادة *Boy*.

٤٥- تاريخ ديار بكريه، أبو بكر تهراني، ص٩٠.

٤٦- سياحت درويشي دروغين، أرمينيوس ڤامبري، ص٨٥.

٤٧- سيرت جلال الدين منكبرني، محمد زيدري تسوى، ترجمه إلى الفارسية محمد علي ناصح، ص٢٦٤، مجتبي مينوي ١٩٩.

٤٨- حبيب السير، ج٣، ص٢٩. جهانگشاي جويني، ج١، ص٦٦.

٤٩- حبيب السير، ج٣، ص٣١. جهانگشاي جويني، ج١، ص٩٢.

٥٠- حبيب السير، ج٣، ص٥٣٠-٥٢٩؛ ج٤، ص٢٢٤-٢٢٣.

٥١- تذكرة الشعراء، دولتشاه سمرقندى، تحقيق محمد عباسي، ص٣٩٦ و٤٤٦.

٥٢- الغ بيك وزمان او. و. بارتولد، ترجمه إلى الفارسية حسين أحمدي پور، ص٢٠٤.

٥٣- هنر معمارى در سرزمينهاى إسلامي، ج. هوج، ترجمه إلى الفارسية پرويز ورجاوند، ص٨٤.

٥٤- أخبار سلاجقه روم، نشر محمد جواد مشكور، ص٥٣٥.

٥٥- معماري اسلامى إيران در دوره ايلخانيان، دونالد ويلبر، ترجمه إلى الفارسية عبدالله فريار، ص٩٣.

٥٦- معماري إسلامي إيران در دوره إيلخانيان، ص٩٣.

٥٧- دانشنامه إيران وإسلام، مادة آرال.

٥٨- أورخون أبده لري، نجيب عاصم، اسطنبول، ١٣٤١هـ.ق.، ص٦٦.

٥٩- المرجع السابق، ص١٢٢- ١٢١

٦٠ أورخون أبده لري، نجيب عاصم، ص١٠١.

61-Mekaleler ve incelemeler, A. Inan, S: 512.

٦٢- جغرافياي نظامي ايران (جرجان وبحر الخزر) علي رزم آرا، ص٢٢ و٥٣. إيران در زمان ساسانيان، آرتور كريستنسن، ترجمه إلى الفارسية رشيد ياسمى، ص٨٤.

٦٣- توركييات مجموعه سى، ج٢، اسطنبول ١٩٢٨، ص٥٧٥.

٦٤- مباني زمين شناسي، أوبروتشيف، ترجمه إلى الفارسية عبدالكريم قريب، ص٤١.

٦٥- هنر معمارى در ارمنستان، هرمان وأهرميان، من إصدارات صحيفة آليك، تهران، ص٢٧ و٣١. نظري به تاريخ أذربيجان. محمد جواد مشكور، ص٤٠٢. قبالجات ماتنادران، يريڤان، ج١، قباله شماره ٨ و١٦.

٦٦- شرفنامه، امير شرف خان بدليسي، تحقيق محمد عباسي، تهران، مطبوعاتي علمي، ص٤٥٥.

٦٧- سياحت درويشي دروغين، أرمينيوس ڤامبري، ترجمه إلى الفارسية خواجه نوريان، ص٧٧، ٧٨، ٨٠، ١١٢، ٤١١، ٤١٤.

٦٨- ترك أدبياتيدا أيلك متصوفلر، محمد فؤاد كوپرولوزاده، اسطنبول، ١٩١٨، ص٧٠. وقد خصصت معظم صفحات هذا الكتاب لمناقب ومآثر أحمد يسوي. ويقول فضل الله بن روزبهان خنجى عن مكانة هذا المتصوف في تركستان:

«... وفى يوم السبت الرابع من ذي الحجة، نويت زيارة الضريح المنير والمشهد العطر لحضرة قطب الزمان قدوة أجلة المشايخ فى العالم، السيد أحمد إليسوي قدس الله روحه. وقد نفد صبري فى انتظار ذلك اليوم. وفى النهاية شرفنا بزيارة هذا الضريح المبارك وتبركت بروح ذلك القطب الفريد وأمنت غوائل الدهر، وكانت زيارة ذلك المشهد المبارك الذي يعد كعبة السالكين وقبلة المجاهدين باعثاً على الاطمئنان والسكينة» مهمان نامه بخاري، تأليف فضل الله بن روزبهان خنجي، تحقيق منوچهر ستوده، تهران ١٣٤١، ص٢٥٤.

٦٩- سفرنامه مازندران وأستراباد، هـ. ل. رابينو، ترجمه إلى الفارسية علينقي وحيد مازندراني، تهران، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، ص١٢٦ و٢١٩.

٧٠- ومن الخطأ قراءة اسم هذه القلعة الحصينة والقديمة بصورة گورچين أو گوگرچين بمعنى «حمامة». فمن غير المرجح أولاً أن يطلق على قلعة بهذا الاستحكام والقدم اسم حمامة. ثانياً، كلمة گورچين هي اسم تركى؛ فى حين أن هذه القلعة كانت قائمة قبل ألف سنة من انتشار اللغة التركية فى أذربيجان. واسمها الصحيح گوره چين. وكلمة گوره باللغة الكردية تعنى "كبير"، وهى باللغة الأفستائية أوگرا، وبالبهلوية گفرا. ونصادفها مراراً كاسم علم جغرافي فى المناطق الكردية على الشريط الحدودي لكل من إيران والعراق وتركيا وغرب بحيرة أرومية، ومن ذلك تل گوره الكبير والشهير في شمال العراق؛ وتل گرد گوره الكبير بمنطقة أشنو والذى تم التنقيب فيه سنة ١٣٤٤هـ. ق. من قبل علي أكبر سرفراز ومعه لجنة من الآثار؛ وممر گوره شنگه الذي يقع على حدود إيران والعراق؛ وقمة گوره ميز في كردستان. وكلمة گين لاحقة

فارسية تفيد الصفة وتدون بصورة "چين" فى أسماء الأعلام والأماكن بغرب بحيرة أرومية وشمال شرقى العراق.

٧١- جامع التواريخ، تحقيق بهمن كريمي، ص٧١٦.

٧٢- المصدر السابق، ص٧٨٦.

٧٣- المصدر السابق، ص٧٣٦.

وبالإضافة إلى المصادر والمراجع المذكورة، يمكن الرجوع إلى شهرياران گمنام (الحكام المجهولون) لأحمد كسروي؛ لغت نامه لدهخدا ؛ حبيب السير و فرهنگ آباديهاي إيران للدكتور لطف الله مفخم پايان للمزيد عن الشخصيات التاريخية والأماكن القديمة التي لم نتمكن من تحديد مراجعها.



الفصل الأول

أوضاع دول آسيا إبان الغزو المغولي

الأوضاع الجغرافية لآسيا الوسطى والشرقية:

تعد آسيا الوسطى والشرقية من بحر أُخُتْسك إلى بحر الخزر منطقة شاسعة تتميز بتنوع جغرافي كبير من جبال وصحاري وهضاب وقفار ووديان خصيبة مثمرة، إلا أن الغلبة فيها للصحاري والقفار والمرتفعات التي يصعب اجتيازها. لذا فإن هذه المنطقة الفسيحة قليلة السكان نسبياً. ولولا وجود دول ذات حضارة كالصين وإيران على طرفي هذه المنطقة لما كانت لها تلك المكانة التي أحرزتها في القرون الخالية من تاريخ آسيا ولما كان لأهلها الذين عاشوا زمناً على البداوة والترحال أي ذكر.

هذه المنطقة التي يقع الجزء الأعظم منها على خط العرض نفسه مع دول وسط أوربا والبحر المتوسط تحدُّها من الشرق صحراء منشوريا وجبال خينجان الكبرى وسور الصين العظيم، ومن الغرب بحر الخزر، ومن الشمال صحراء سيبيريا الشاسعة التي لم تغرِ الشعوب التي هاجرت إلى شرق آسيا وآسيا الوسطى نظراً لاتساعها الشديد وقسوة مناخها وقلة عدد سكانها، وظلت قليلة السكان وتفتقر إلى العمران حتى أوائل القرن العشرين عندما تم إنشاء الخط الحديدي العام لسيبيريا. وإلى الجنوب، هناك صحراء التبت الشاسعة التي تضم جبال الهيمالايا الشاهقة التي لم تسمح بعبور الناس على الرغم من وجود بعض المعابر، ولاسيَّما أن مناخها شديد القسوة وطرقها شديدة الوعورة، وهو ما لم يسمح بوجود علاقات وتعاملات كافية بين الدولتين القديمتين الصين والهند أو بوجود تواصل فكري وتبادل معرفي وتمازج سكاني بين سكان كل منهما.

ونتيجة لهذا الوضع اقتصرت الهجرات والفتوحات وحركة السكان في هذا الجزء من آسيا الشرقية والوسطى على العرض الجغرافي لبلادهم منذ أقدم عصور التاريخ، ولما كانت غالبية سكانها من البدو الرحل الذين كانوا في سعي دائب إلى المناطق العامرة التي يتوفر فيها الرزق، فقد كانت غزواتهم تتركز دائماً على أحد طرفي بلادهم، أي الصين وإيران، فكان سكان هاتين الدولتين

المستقرتين عرضة للتهديد والخطر من جانبهم باستمرار. ولما كان شعبا هاتين الدولتين في حاجة دائمة للتواصل وإجراء التعاملات التجارية والعلاقات السياسية بينهما، ونظراً لأن الطريق بينهما كان يمر بأراضي هؤلاء البدو، ولأن الصينيين من ناحية والفرس من ناحية أخرى كانا في حاجة دائماً للحفاظ على طرق اتصالهم بالدول الأخرى فقد اضطروا لمهادنة هؤلاء البدو أو دفع الجزية والخراج وإقامة علاقات ودية معهم في سبيل الحفاظ على طرق القوافل بين شرق آسيا وغربها مفتوحة.

ويمكن تقسيم هذه المنطقة الشاسعة من ناحية الارتفاع والانخفاض إلى قسمين متميزين، أحدهما صحراء جنوب غرب سيبيريا القليلة الارتفاع، وتركستان[1] التي تقع بين هضبة إيران وهضبة پامير وسلسلة الجبال التي تمتد على أطراف هذه الهضبة الأخيرة بمحاذاة بعضها البعض حتى حدود بحيرة بايكال. والقسم الآخر هو الذي يقع بين هذه السلسلة الجبلية وسور الصين وجبل خينجان الكبير ويتكون من عدة قفار جدباء تحيط بها جبال شاهقة نسبياً. وأهم بقاع هذه المناطق صحراء منغوليا في الشمال بين جبال خينجان الكبرى وسلسلة جبال يابلونوي وآلتاي التي تصل بينها صحراء جوبي وصحراء دزونجاري بين جبال آلتاي وتيانشان صحراء تركستان الشرقية ونواحي خُتن وكاشغر (المحصورة بين جبال تيانشان وقرا قروم) وكو إن لن.

وفي وديان هذه الجبال وسفوحها غالباً ما تنبت الحشائش الوفيرة في الفصول المطيرة وبعد ذوبان الثلوج من فوق القمم الشاهقة. وفيما عدا الواحات المحيطة بالأنهار ووديان الجبال الجنوبية اليانعة التي تتوفر فيها أسباب العيش والاستقرار نظراً لاعتدال مناخها النسبي وقربها من الدول ذات الحضارات المستقرة، فإن بقية الأراضي عبارة عن منازل للسكان من البدو الرحل الذين هم في سعي دائب إلى المراعي والمناخ المعتدل، وبالتالي فإنهم لا يعرفون الاستقرار في مكان ثابت.

والطريق الطبيعي الذي يصل بين هذين القسمين الشرقي والغربي عبارة عن معابر بين جبال متوازية تقع في المنطقة الفاصلة بين بحيرة بايكال وهضبة پامير. وأكثر هذه المعابر اتساعاً وأيسرها اجتيازاً هو المعبر الذي يصل بين جبال آلتاي وجبال تيانشان والذي يمر منه نهر ايرتيش. أما المعابر التي تقع وسط جبال تيانشان وتصل بين هضبة پامير وصحراء تركستان والهضبة الإيرانية فكلها ضيقة ويصعب اجتيازها.

وهضبة پامير ليست هضبة مستوية، بل إنها تمثل الكتلة الجبلية لآسيا الوسطى، وهي النقطة التي تبدأ منها عدة سلاسل جبلية وعدد من الأنهار ثم تتخذ اتجاهات شتى. والجبال المهمة التي تنبع من هذه الكتلة الجبلية هي جبال تيانشان في الشمال وتمتد من أطراف سمرقند حتى قلب تركستان والصين، وجبال كو إن لن وقرا قروم والهيمالايا في الجنوب وتمتد جميعها بمحاذاة بعضها البعض باتجاه شمال غربي إلى جنوبي شرقي بين هضبة التبت ووديان السند والجونج. وعلى الجانب الغربي تبدأ سلسلتان جبليتان من پامير، إحداهما سلسلة هندوكوه أو هندوكُش وما يتبعها من جبال كجبل بابا والجبل الأبيض والجبل الأسود وجبال شمال خراسان الحالية، والأخرى سلسلة جبال سليمان التي تتجه جنوباً كامتداد لنهر السند نحو بلوشستان وتنتهي عند سواحل المحيط الهندي.

والطرق الرئيسة التي تصل بين الدول المحيطة بهضبة پامير، أي تركستان وكاشغر والبنجاب وأفغانستان الحالية وإيران، هي المعابر الجبلية التي أشرنا إليها منذ قليل، وكانت كل غزوات شعوب آسيا الشرقية والوسطى لتركستان وأفغانستان الحالية وإيران وكذلك غارات الفرس على آسيا الوسطى وكاشغر والهند تتم عن طريق هذه المعابر الوعرة.

من هذا المسح الموجز للأوضاع الجغرافية لهذا الجزء الشاسع من آسيا يتضح أن القسم الأعظم منه إما صحراء مقفرة أو جبال وهضاب مرتفعة، وليس فيه مناطق طبيعية صالحة للسكنى إلا على أطراف هذه القفار وعلى سفوح الجبال الغنية بالماء والكلأ والتي كانت؛ دائماً ومنذ القدم موضع نزاع وحروب بين الشعوب المستقرة والبدو الرحل. وتنقسم هذه المناطق الطبيعية في هذا الجزء من آسيا إلى أربعة أقسام:

١– المنطقة المحصورة بين جبال خينجان ويابلونوي وآلتاي وجبال سايان، أي حوض بحيرة بايكال وأنهار سلنجا وأرقون وكيرولين وروافدها.

٢– سفوح جبال تيانشان ووديان نهري جيحون (آمو دريا) وسيحون (سير دريا) العليا، أي حوض بحيرات بالخاش وقره جول وايسي جول ووادي نهر أيلي وتشو وقِزلسو. وكان قسمها الشمالي الغربي يعرف قبل المغول باسم تركستان وقسمها الجنوبي الشرقي باسم فرغانة.

٣- المنطقة الخالية المحصورة بين جبال تيانشان وكو إن لن وهضبة پامير، أي حوض نهر تاريم وروافده خُتن ويارقند وكاشغر وآق سو، والذي يعرف حالياً باسم تركستان الشرقية أو تركستان الصينية، إلا أنه كان يعرف عند المسلمين باسم كاشغر وخُتن.

٤- الجزء الواقع بين جبال تيانشان وهضبة پامير والهضبة الإيرانية وبحر الخزر، أي حوض بحيرة أورال أو بحيرة خوارزم والوديان الوسطى والسفلى لأنهار سيحون وزرفشان وجيحون، والذي كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام إبان سيطرة المغول:

أ- المنطقة المجاورة للهضبة الإيرانية أي وديان أنهار مرغاب وتجن وأترَك، وهي تدخل ضمن خراسان وتضم مدناً مهمة كمرو وبلخ وفارياب ومرو الروذ وغيرها.

ب- القسم الواقع بين بحيرة خوارزم وبحر الخزر والمناطق المجاورة لمصب نهر جيحون والذي كان يعرف بخوارزم. والمدن الرئيسة التي يضمها هذا القسم هي أوركنج أو جرجانية وهي عاصمة هذه الولاية، وهزار أسب وخيوة (خيوَق).

جـ- القسم الذي يقع بين نهري سيحون وجيحون والمرتفعات الغربية لهضبة پامير والذي يعرف باسم ما وراء النهر.

وإلى جانب هذه المناطق الثلاث وعلى سفوح هندوكوه ووديان جيحون العليا، هناك بعض المناطق الطبيعية الصغيرة الأخرى كصغانيان وبدخشان و وخان وغيرها، ولكن نظراً لضعف أهمية هذه المناطق فنادراً ما يرد ذكرها في التاريخ.

كانت منطقة ما وراء النهر، أي ذلك الجزء من نهر جيحون، أهم وأغنى من سائر المناطق، فكانت تضم مدناً عامرة أصاب الخراب بعضها وباد البعض الآخر وزال من جراء اجتياح المغول. وأهم هذه المدن في ذلك الوقت بخارى وسمرقند وخُجند وكَش وترمذ ونخشَب (نَسَف) وتشاش وأُترار وطراز وبَناكت وأسبيجاب وغير ذلك.

ومن بين المناطق الطبيعية الأربع المشار إليها، كانت المنطقة الأولى هي الموطن الأصلي لطائفة من الشعوب الصفراء عرفت فيما بعد باسم عام هو المغول والتتار، واستولت بزعامة جنكيزخان وأبنائه على دول آسيا الشرقية والوسطى والغربية وروعت شعوبها. ومع أن كاشغر وخُتن كانت فيما مضى

موطناً لطائفة من الآريين البيض وهناك آثار تاريخية عديدة بقيت منهم في تلك المنطقة، فقد سقطت منذ المئة الثانية من الهجرة في يد طائفة من الترك، فصارت منذ ذلك الحين وتدريجياً موطناً ومستقراً للأتراك.

والموطن الأصلي للأتراك هو المنطقة الثانية، أي سفوح جبال تيانشان والجزء الشمالي من بحيرة خوارزم وبحر الخزر ومصب نهر سيحون. وكانت بلاد هذه الشعوب تحدها منازل طائفة المغول من ناحية، وممالك آريي ما وراء النهر وإيران من ناحية أخرى.

وبغض النظر عن بعض العناصر من آريي كاشغر وخُتن وإيرانيي ما وراء النهر وخوارزم، كانت المنطقة الممتدة من بحر الخزر وحتى بحر أُخُتْسك وسور الصين، كانت آسيا موطناً لمختلف عشائر المغول والترك حيث كانت الطبيعة لا تساعد على التعايش مع جنس آخر وكانوا يعيشون على البداوة وسكنى الخيام والترحال الدائم والسعي إلى الكلأ والإغارة على الممالك العامرة وعلى الصين وما وراء النهر وإيران. وعلى الرغم من تعرضهم لضربات مؤثرة من جانب سكان هذه الممالك المستقرة فإنهم لم يرتدعوا وكانت مصدراً لمتاعب جمة لها.

عشائر الترك والمغول: في أواخر القرن السادس الهجري، كانت آسيا الشرقية وسواحل المحيط الهندي أي مملكتا كوريا والصين الأصلية مقسمة بين أسرتين ملكيتين، إحداهما أسرة ملوك كين الذين كانوا يتزعمون طائفة من شعوب منتشو الصفراء وحكموا «الخطا» أي الصين الشمالية، وهم بالنسبة لأهل الصين قوم غرباء. وكانت عاصمة هذه الأسرة الملكية مدينة بكين تارة ومدينة كايفونغ على ضفتي النهر الأصفر (هوانجهو) تارة أخرى. وكانت الأسرة الملكية الأخرى هي أسرة سونغ التي كانت من الصينيين الأصليين، وحكمت الصين الجنوبية؛ وكانت عاصمة هذه الأسرة مدينة هانغ تشيو (على سواحل المحيط إلى الجنوب من شنغهاي).

كانت المناطق الواقعة تحت سيطرة هاتين الأسرتين تحيط بها من الشمال والغرب منازل عشائر شتى من الترك والمغول؛ فكان هؤلاء القوم يسكنون كل آسيا الوسطى والشمالية كما سبقت الإشارة.

كان المغول عشائر كثيرة العدد، وكانوا من الكثرة بحيث أصبح هناك فارق كبير بينهم نظراً

لكثرة بطونهم واتساع رقعة أراضيهم. وأهم عشائرهم على النحو التالي:

١- قبيلة التتار وقُنقْرات، وكان موطنهم يحده من الشمال نهرا أرقون وسلنجا ومملكة شعب القرغيز، ومن الشرق مملكة الخطا (الصين الشمالية)، ومن الغرب مملكة الأويغور، ومن الجنوب التبت ومملكة التَنجغوت. وكانت هاتان القبيلتان من أكثر قبائل آسيا الشمالية الصفراء وحشية، ولم يكن لهم شأن كبير وكانوا غالباً ضمن أتباع أباطرة كين ويدفعون الجزية لهم. وكان لباسهم من جلود الكلاب والجرذان، وطعامهم لحمها. ومع أنهم لم يكن لهم شأن كبير فمن الغريب أن اسمهم أطلق على كل العشائر الصفراء التي دانت لحكم جنكيزخان، وأصبح جيش جنكيز وأتباعه ورفاقه يعرفون جميعاً باسم «التتار». وكان هذا اسمهم العام في الفترة الأولى من الغزو المغولي، ثم صار اسم «المغول» علماً عليهم أيضاً فيما بعد.

٢- عشيرة قيات الصغيرة التي تعرف باسم بورجْقين، وهي العشيرة التي أنجبت جنكيز خان. وموطنهم ما بين نهري أُنُن وكيرولين وسفوح جبال قرا قروم[٢] (يابلونوي الحالية).

٣- قبائل أويرات وآرلاد وجلاير بين نهر أُنُن وبحيرة بايكال.

٤- عشيرة كَرائيت، وموطنها الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي وجنوب بحيرة بايكال وحتى سور الصين.

وفي غضون قرنين، أصبحت هذه العشائر أقوى شعوب منغوليا وسيطرت على معظم الطوائف المحيطة بها، ومنذ سنة ٣٩٨هـ وبعد اعتناق ملكها للديانة المسيحية دخلت هذه العشائر في المسيحية؛ لذا فقد اشتهرت في أوربا في ذلك الوقت وانتشرت فيها الأساطير عن هذه العشائر وعن ملكها.

٥- قبيلة نايمان، وهي من قبائل الترك، وموطنها الحوض الأعلى لنهر أُرخُن وسفوح جبال آلتاي وبحيراتها؛ وقد اعتنقت المسيحية كما فعلت قبيلة كرائيت، إلا أنها لم تكن على وفاق مع تلك القبيلة وكان بينهما صراع مستمر.

٦- الترك الأويغور الذين كانوا يؤمنون بالديانة المانوية، وكانوا أكثر تحضراً من سائر قبائل الترك والمغول بصفة عامة. وكان موطنهم شمال شرق تركستان الشرقية الحالية وشمال بحيرة لب نور

ونهر تاريم، أي مدن تورفان وبيش باليغ (جوتشن الحالية) وبرقول وقره شهر. وسنتحدث عنهم فيما بعد.

٧ . أتراك القَرلُق وتقع مملكتهم إلى الجنوب من مملكة الأويغور وتشمل الحوض الأدنى لنهر تاريم. وهم الطائفة نفسها التي تعرف عند الشعراء باسم خلُّخ، حيث اشتهروا باعتدال القوام وحسن الصورة.

٨ . الأتراك القراخطائيون وكانت لهم دولة كبيرة بين مملكة الخوارزمشاهيين ومواطن المغول الشرقيين إبان الاجتياح المغولي، وكانوا يفرضون الجزية على أتراك القرلق والأويغور. وربما نكون قد طالعنا قصة تأسيس دولة القراخطائيين وحروبهم مع ملوك إيران خاصةً السلطان سنجر ضمن تواريخ الأسر السابقة، ومع ذلك سنتحدث بإيجاز عنهم.

كان الحد الفاصل بين مملكة القراخطائيين وممتلكات الخوارزمشاهيين من ناحية شرق نهر سيحون. وكانت شعوب المغول والترك تنقسم إلى قبائل متعددة، ولكن مع ظهور جنكيزخان وفيما عدا من خضع منهم لأباطرة أسرة كين خضعت بقيتهم من ناحية الشرق لحكم ملك قبيلة كرائيت، وخضع من سكن منهم في غرب منغوليا لحكم جورخان الخطائي.

أدى ظهور نجم جنكيز وأبيه إلى تحرير قبيلة قيات الصغرى من استعباد أباطرة الخطا؛ ثم إلى زوال دولتي الكرائيت والقراخطائيين وإخضاع كل قبائل المغول والترك لحكومة واحدة والاستعانة بهم في اجتياح الممالك المتحضرة في شرق منغوليا وغربها.

أوضاع الممالك الإسلامية إبان الاجتياح المغولي:

بعد وفاة السلطان علاء الدين تكش بن إيل أرسلان في سنة ٥٩٦، آل مُلك خوارزم لابنه علاء الدين محمد الذي كان يلقب قبل وفاة أبيه بقطب الدين. وكان السلطان محمد هو الابن الأصغر للسلطان تكش، وكان ابنه الأكبر ملكشاه قد توفي قبل أبيه. وكانت ولاية العهد من نصيبه في حياة تكش؛ وبعد وفاته ادعى ابنه هندوخان الحق في ولاية العهد وناصب علاء الدين محمد العداء، وانضم إليه سلاطين الغوريين ضد علاء الدين. وإبان حكم علاء الدين محمد، كان جزء

من أفغانستان الحالية والهند الغربية في يد سلاطين الغوريين، وخضعت تلك الولاية لحكم شقيقين هما السلطان غياث الدين والملك شهاب الدين. وبعد استيلاء هذين الشقيقين على هرات وغزنين وبلخ وكابل وسيستان وكرمان ودحر الأسرة الغزنوية وإنزال الهزيمة بعشيرة الغز في الجزء الشرقي من خراسان القديمة وكرمان، اعتبرا وفاة السلطان تكش فرصة للاستيلاء على خراسان. فاجتاحا مرو وطوس وأرسلا جنودهما إلى جرجان وبسطام لمعاقبة رعايا الخوارزمشاهيين. وأنزل السلطان محمد خوارزمشاه الهزيمة بجنود الغوريين الذين طلبوا عفوه فعفا عنهم (سنة ٥٩٧هـ).

وبعد إعادة تجهيز الجيوش، اتجه سلاطين الغوريين إلى سرخس وطالبوا السلطان محمد بالتنازل عن بعض ولايات خراسان. ولما رفض السلطان أن يستسلم لهم، قام الملك شهاب الدين بالهجوم على طوس ونهب جنوده ممتلكات أهلها. وفي تلك الآونة توفي أخوه غياث الدين، فمضى شهاب الدين إلى مرو، ولكنه وقع هناك في أسر جند خوارزم وانهزم جيشه (سنة ٥٩٨هـ). وفكّر الغوريون في المرة الثالثة في سحق خوارزمشاه، فاتجهوا بجيوشهم نحو خوارزم، فخرج شهاب الدين في هذه المرة مع عدد كبير من جنده ومعهم عدد كبير من الفيلة إلى ضفاف نهر جيحون بهدف الاستيلاء على مقر حكم السلطان محمد؛ إلا أن أهالي خوارزم تكاتفوا وطلب خوارزمشاه المدد من جورخان القراخطائي ومن عثمان خان وأنزل بشهاب الدين هزيمة ساحقة وكاد ملك الغوريين نفسه أن يلقي حتفه في المعركة على يد القراخطائيين، ولكنه لاذ بالفرار من ميدان القتال بعون من عثمان خان الذي لم يرض بقتل سلطان مسلم بيد الكفار. ولتدارك الأمر وتلافي هذا الضعف ذهب إلى الهند إلى أن يتدبر أمره، إلا أنه قتل في سنة ٦٠٢هـ وسقطت ممتلكاته في يد الأمراء فاستقل كل منهم بما في حوزته. وكانت ممتلكات سلاطين الغوريين في الهند من نصيب أحد الغلمان من خواص شهاب الدين كان يدعى قطب الدين آيبك. وفي سنة ٦٠٧هـ، سقط من فوق جواده وتوفي.

ومنذ ذلك الحين، آل حكم الهند لعدد من غلمان السلاطين السابقين وأشهرهم شمس الدين ألتُتمش الذي أسس الأسرة الشمسية في دلهي، واستولى في الفترة من ٦٠٧ إلى ٦٣٣ على غرب الهند وبلاد السند. وفي أيام فرار السلطان جلال الدين خوارزمشاه بن السلطان محمد إلى الهند،

كان هذا الجزء من الهند تحت سيطرة شمس الدين. وآلت هرات وفيروزكوه (شمال أفغانستان الحالية) للأمير محمود بن السلطان غياث الدين، ولما كان الأخير رجلاً عابثاً سكيراً فقد خرج محكوموه على طاعته واختلت شؤون الحكم إلى أن تمَّ قتله في سنة ٦٠٩هـ وولوا مكانه تاج الدين علي شاه شقيق السلطان محمد خوارزمشاه الذي كان قد لاذ بحمى الأمير محمود. ودفع خوارزمشاه شخصاً لقتل أخيه وضم هرات وفيروزكوه إلى مملكته، وأطاح بأسرة سلاطين الغوريين (سنة ٦٠٩هـ) ثم استولى في سنة ٦١١هـ على غزنين أيضاً ووصل بحدود مملكته من الشرق إلى الهند.

وعلى الرغم من انشغال السلطان محمد خوارزمشاه بضم أراضي سلاطين الغوريين، فإنه لم يغفل عن شأن العراق والحدود الغربية لمملكته، ففي تلك الآونة وفي سنة ٦٠٦هـ، استولى على مازندران التي ظلت تحت إمرة أمراء طبرستان لمدة طويلة، وفي السنة التالية ضم كرمان إلى دولته.

ومنذ أواسط المئة السادسة للهجرة، قامت طائفة من الترك صفر الوجوه يستوطنون شمال الصين بتأسيس دولة كبيرة في ولاية كاشغر وختن تعرف بدولة القراخطائيين. وكان هؤلاء يؤمنون بالبوذية والكنفوشيوسية ولم تكن علاقاتهم ودية مع المسلمين في الممالك المجاورة؛ بل كانوا يناصبونهم العداء، وفي سنة ٥٣٦ أنزلوا بالسلطان سنجر هزيمة نكراء في موقعة قطوان بتحريض من أتسِز خوارزمشاه واستولوا على منطقة ما وراء النهر التي كانت تخضع لحكم آل أفراسياب من أبناء إيلك خان منذ عهد الأمراء السامانيين. إلا أنهم لم يقضوا على أفراد هذه الأسرة التي كانت من الأتراك المسلمين، واكتفوا بفرض الخراج عليهم. وكان آخر ملوكها نصرة الدين عثمان خان بن إبراهيم الذي كان يقيم بسمرقند ويلقب بسلطان السلاطين، وظل في الحكم من سنة ٦٠٠ إلى ٦٠٩هـ.

وكان القراخطائيين يلقبون ملوكهم بلقب جورخان وربما كان معناه «خان الخوانين»؛ وأصبح أحد هؤلاء الملوك والذي كان معاصراً لأتسز خوارزمشاه (٥٣٥-٥٥١هـ) جاراً للممالك الخوارزمشاهيين بعد استيلائه على ما وراء النهر. ولكي يسد أتسز الطريق عليه، وافق على دفع خراج سنوي قيمته ثلاثين ألف دينار على ألا يتعرض الجورخان لأراضيه. وظلَّ هذا الاتفاق سارياً حتى عهد السلطان محمد خوارزمشاه.

ورأى هذا الملك الذي فتح كل هذه الممالك وكان يعدّ نفسه نداً للملوك المجاورين أن دفع الخراج لملك مشرك عارٌ عظيمٌ. لذا فقد تلكأ في أداء الخراج لعدة أعوام، فتكدرت العلاقات بينه وبين الجورخان من جراء ذلك، خاصةً أن هناك مراسلات عديدة كانت تصل إلى خوارزمشاه من أهالي بلاد ما وراء النهر وبخارى ممن ظلوا خاضعين زمناً لحكم عمال القراخطائيين يحثونه فيها على تحرير بلادهم. وفي سنة ٦٠٧هـ، عزم السلطان محمد على فتح بخارى وسمرقند، وخاض ثلاث حروب مع الجورخان؛ واستولى في الحرب الأولى على بخارى ولقّب بالاسكندر الثاني وسَنجَر. وفي الحرب الثانية كاد أن يقع في أسر جنود القراخطائيين، ولكنه فر سالماً. وفي المرة الثالثة، تحالف مع خوارزمشاه كل من عثمان خان صاحب سمرقند وكوچلك خان ملك طائفة النايمان اللذين كانا قد قبلا التبعية للجورخان من قبل، خاصةً كوچلك خان الذي كان جاراً لممالك القراخطائيين من ناحية الشرق، حيث أرسل خفيةً رسالة للسلطان محمد يبلغه فيها بأنه سيهاجم ممالك الجورخان من الشرق وأن على خوارزمشاه أن يهاجمها من الغرب فيستاصلوا شافة حكامها ويقسموا ممتلكاتها فيما بينهما. وفي النهاية أطاح خوارزمشاه في سنة ٦٠٧هـ بأسرة القراخطائيين في بلاد ما وراء النهر بعون من كوچلك، ووقع الجورخان في أسر كوچلك وتوفي بعد عامين.

وبعد أن وصل خوارزمشاه بحدود مملكته إلى كاشغر وضفاف السند من الشرق، اتجه إلى العراق التي كانت في ذلك الوقت خاضعة لحكم أتابكة فارس وأذربيجان، وكان النفوذ الديني للخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥هـ-٦٢٢هـ) لايزال باقياً في تلك الأقطار؛ ولم يكن خوارزمشاه على وفاق مع الخليفة لعدة أسباب، منها أنه لم يكن يعدّ نفسه أقل شأناً من سلاطين البويهيين والسلاجقة وكان يريد منهم الاعتراف بحكمه في بغداد. وكان أبوه السلطان تكش قد دخل في خلاف مع الخليفة أيضاً وللسبب نفسه ، ووقعت بينهما مناوشات. ومن تلك الأسباب أيضاً أن الخليفة أهان ذات مرة رسل خوارزمشاه حين جاءوه بالعلم والهدايا للحجيج من قبل خوارزمشاه بتقديمه لعلم وهدايا جلال الدين حسن الإسماعيلي الذي كان من خلفاء حسن الصباح على علم خوارزمشاه وهداياه وقبوله لضم عدد من فدائيي الإسماعيلية ضد خصومه، مما أدى إلى غضب خوارزمشاه. وحين فتح السلطان محمد خوارزمشاه علي غزنين في سنة ٦١١هـ واستولى على

ومن التصرفات الذميمة التي أقدم عليها السلطان محمد وأثارت غضب أمه وطبقة رجال الدين ومعظم رعاياه اغتياله للشيخ مجد الدين شرف بن المؤيد البغدادي العارف المعروف. كان الشيخ مجد الدين البغدادي أحد مريدي العارف الكبير الشيخ نجم الدين كبري مؤسس الطريقة الكبراوية؛ وبعد رحيل إمامه أصبح ذا مكانة مرموقة؛ وله مريدون كثيرون في خوارزم؛ وأثارت كثرة عدد أتباعه ونفوذه الضغينة في نفس السلطان محمد. وفي سنة ٦١٢هـ، أمر بقتل الشيخ مجد الدين دون سبب واضح. ويقال إنه سرعان ما ندم على فعلته النكراء، إلا أنه اكتسب بها عداوة كثير من الناس خاصة علماء الدين الذين كانوا قد ضاقوا به ذرعاً لعصيانه للخليفة، وازدادوا كرهاً لخوارزمشاه، مما كان بدوره سبباً في زعزعة أساس حكمه.

وفي ظل هذه الظروف، حيث لم يكن السلطان محمد يأمن جانب أمه وجيشه ولم يعد له نصير بين الناس وعلماء الدين؛ وفقد الثقة في نظمه الإدارية والعسكرية، قام جنكيزخان بجيش فتي ومنظم وبتشكيلات عسكرية سليمة باجتياح ممالك الخوارزمشاهيين وقوّض دعائم دولة السلطان محمد بكل سهولة كما سنرى.

كان هذا إجمالاً لأوضاع الممالك الإسلامية الشرقية إبان الاجتياح المغولي. أما الممالك الإسلامية الأخرى كالجزيرة العربية والشام ومصر فكانت في يد الأكراد الأيوبيين وأمرائهم الفرعيين، وكانوا منهمكين في الجهاد ضد الصليبيين الفرنجة. وكانت آسيا الصغرى خاضعة لمن تبقى من سلاجقة الروم، إلا أن هؤلاء الأمراء كان لهم معارضون، فمسيحيو الروم الشرقيون والأناضوليون لم يتركوهم يحكمون في سلام، فقد قضى السلاطين المسلمون لهذه الأسرة أيضاً معظم وقتهم في الجهاد.

وفي الوقت الذي أصبح العالم الإسلامي عرضة للخطر من كل جانب، لم يقدَّر للبلاد الإسلامية قائد مقتدر أو حاكم عاقل مدبر يتولى أمرها ويوقف زحف جحافل المخربين أكان ذلك بقوة السلاح أم بتدبير العقل. بل على العكس من ذلك؛ كان زمام المسلمين في يد خليفة ضعيف يتبع أهواءه كالناصر لدين الله وملك غافل كالسلطان محمد ممن كان سعيهم لأغراضهم الشخصية وخصوماتهم الفردية سبباً في اشتعال النيران في بلادهم وضياع ملكهم وإطفاء شعلة حضارة الشرق.

خزائن شهاب الدين الغوري، قام بتوقيع بعض الأحكام والفرامين بخاتم الخليفة الذي كان يحرض شهاب الدين على معاداة خوارزمشاه ومعارضته، بل إنه لم يتوانَ عن دعوة القراخطائيين إلى فتح ممالك الخوارزمشاهيين.

فحصل خوارزمشاه عل عدة فتاوى من علماء مملكته بأن بني العباس ليس لهم الحق في الخلافة وبوجوب اختيار أحد سادات آل الحسين لهذا المنصب، خاصةً أن الخليفة الناصر قد تخاذل عن حماية ثغور الممالك الإسلامية وأوجد شقاقات يجب على كل مسلم أن يهب لدفعها. لذا فقد أعلن عزل الخليفة وألغى اسمه من السكة والخطبة وولى أحد سادات ترمذ خليفة بدلاً منه.

وفي سنة ٦١٤هـ، قاد خوارزمشاه جيوشه نحو بغداد. وفي العراق، التقى بالأتابك سعد بن زنكي الذي كان قد جاء لفتح تلك البلاد فأسره. إلا أن الأتابك آثر السلامة بقبول دفع ربع محصولات فارس وبعض الامتيازات الأخرى له. كما أنزل الهزيمة بأتابك الأوزبك الذي كان قد جاء من أذربيجان إلى العراق بهدف فتح العراق، فخضع بدوره لطاعة خوارزمشاه مؤثراً السلامة.

وأرسل خوارزمشاه عدداً من جنوده من همدان إلى أسدأباد؛ إلا أن الشتاء كان قارساً، فوقعت خسائر كبيرة في أرواح الجنود نتيجة للثلج والبرودة القارسة على أبواب أسدأباد، ولم يعد إلى العراق إلا نفر قليل منهم. وأصر السلطان على إعداد العدة لفتح بغداد والإطاحة بالخليفة؛ ولكن نظراً لعدم اطمئنانه إلى الأوضاع في بلاده الأصلية وما وراء النهر، فقد عاد إلى خراسان.

ولما كان السلطان محمد لا يثق في الخليفة ورجال الدين الذين كانوا يعدون طاعة الخليفة فرض ذمة، ولما كان غير مطمئن تماماً إلى الإقامة في البلاد التابعة له، فقد أنشأ فرقة تسمى «قراول» (الحرس) من أتراك صحراء قبچاق وهم طائفة قَنقلي التي كانت أمه تركان خاتون منهم. ووضع ثقته في تلك الفرقة التي أمسكت بزمام الأمور تحت رعاية تركان خاتون، وجردوا السلطان محمد من أية سلطة فعلية. ونشب خلاف دائم بين السلطان محمد وأمه تركان خاتون التي أمسكت بزمام البلاد بحماية من قومها الأتراك. ولم يجد السلطان أمامه سوى أن يذعن لرأي أمه وأتراك القبچاق في أغلب الأمور وتحول إلى أداة لتحقيق أهدافهم، وهو ما كان أحد الأسباب الرئيسة لضعف سلطة خوارزمشاه واضمحلال دولته.

حواشي

١- المقصود بتركستان وافغانستان في هذه المقدمة الجغرافية المناطق التي تعرف حالياً بهذين الاسمين وليس مفهومهما التاريخي.

٢- لا ينبغي الخلط بين هذه السلسلة الجبلية والسلسلة التي تعرف حالياً باسم قرا قروم والتي تقع في جنوب تركستان الشرقية وشمال كشمير.



الفصل الثاني
قيام دولة المغول

ظهور جنكيزخان:

ولد جنكيزخان في سنة ٥٤٩هـ تقريباً في منغوليا، واسمه المغولي الأصلي هو تَموچين. وكان أبوه هو يَسوكاي بهادُر زعيم قبيلة قيات إحدى قبائل المغول.

كان أجداد جنكيزخان والطوائف الخاضعة لهم يدفعون الخراج لأباطرة الصين الشمالية قبل مولد أبيه بمدة طويلة. وكان يسوكاي بهادر رجلاً رشيداً، وتمكن في أيام زعامته من إخضاع عشائر المغول ممن كانوا يعيشون بجوار مخيمات قبيلته. وبلغت قوته ومكانته حداً جعل إمبراطور الصين يخشى امتداد سلطانه، فأرسل جماعة لقمعه، إلا أن يسوكاي بهادر أنزل بهم الهزيمة وحرر قبيلته من ربقة العبودية واستقل بشؤون قبيلته ووضع أساس الدولة الكبرى التي أقامها ابنه تموچين.

كان تموچين في الثالثة عشرة من عمره حين توفي أبوه. ولما شقت فئة من المغول عصا طاعته تعرض للمتاعب ولكنه تغلّب على خصومه بعد لأي. ثم ذهب إلى زعيم قبيلة الكرائيت ويسمى أُوَنْج خان وكان يدين بالمسيحية وعقد أواصر الصداقة معه؛ ونظراً لسابق الود الذي جمع بين أُوَنْج خان ووالد تموچين فقد أكرم وفادته ورفض الإذعان لأمر إمبراطور الصين بالخروج لصده وسحقه . إلا أن هذا الود لم يستمر طويلاً، فقد كانت شوكة تموچين تزداد يوماً بعد يوم. وخشي أُوَنْج خان ألا يتمكن يوماً من السيطرة على أمره إلا أن تموچين سبقه وهاجر مع أتباعه. فأرسل الخان جيشاً في أعقاب تموچين ونشب القتال بين الفريقين وكانت الغلبة لتموچين ولقي خان قبيلة الكرائيت مصرعه. وكانت هذه الموقعة سبباً في علو مكانة تموچين وقبول عدد من القبائل الأخرى لحكمه والدخول في طاعته، وعُرف منذ ذلك الحين بجنكيزخان.

وبعد انتصار جنكيزخان على قبيلة الكرائيت، خشي تايانك خان ملك قبيلة النايمان أن يتعرض للهجوم من جانب خان المغول. وفي سنة ٦٠٠هـ، قام جنكيزخان بشن هجوم على تايانك خان وهزمه قرب جبال آلتاي. وفي هذه الموقعة جُرح تايانك خان وأسلم الروح بعد ذلك بقليل، ودان

قومه لجنكيزخان، ولاذ ابنه كوچلك خان بالفرار.

وبعد إخضاع ممالك قبيلة النايمان، حقّق جنكيزخان النصر على عدد آخر من طوائف المغول حول التبت وشرق تركستان الحالية. ففي سنة ٦٠٣هـ، أنزل الهزيمة بقبيلة القرغيز، وقاد جيشه لسحق كوچلك خان بن تايانك خان حول نهر أيرتيش. ولكن ما إن وصل إلى تلك المنطقة حتى وجد كوچلك خان ألا طاقة له على المقاومة فلاذ بالفرار من جديد، وذهب بعد عناء كبير إلى جورخان القراخطائيين ونزل عنده مكرماً حتى إن الجورخان زوَّجه ابنته وساعده على استعادة مملكة أبيه الضائعة وإحياء دولته القديمة.

دولة الأويغور وزوالها على يد جنكيزخان:

كان شعب الأويغور أحد قبائل التتار، وكانوا في البداية يستوطنون الحوض الأعلى لنهر أرقون على رافد نهر آمور وسفوح جبال قرا قروم (يابلونوي حالياً)، وكانوا يعيشون على الترحال والبداوة كسائر عشائر المغول. وفي أواسط القرن الثاني الهجري، هاجرت جماعة منهم إلى حدود تركستان واستقرت في وادي نهر تاريم الخصيب وانتزعوا تلك المنطقة من أيدي التُخاريين وهم قوم آريون ولهم حضارتهم ولغتهم الخاصة، وأقاموا لأنفسهم دولة ذات شأن في تركستان الشرقية تضم مدن تورفان وكوجا وبيش باليغ وبرقول وقره شهر وآلماليغ (كولجاي الحالية)، واتخذوا من بيش باليغ (ومعناها الأحياء الخمسة) عاصمة لهم، وهي المدينة نفسها التي تعرف حالياً باسم أرومچي وتقع إلى الجنوب من صحراء دزونجاري والسفوح الشرقية لجبال تيانشان.

وبعد انتزاع الأويغور لبلاد تركستان الشرقية اختلطوا مع التُخاريين وأدى اختلاطهم معهم إلى نشأة جنس جديد ساد تلك النواحي لمدة أربعة قرون وإلى قيام واحدة من أهم حضارات العصور الوسطى.

ونظراً لسكنى الأويغور في منطقة كانت معبراً لعامة شعوب آسيا المتحضرة في العصور الوسطى، فقد أصبحوا بمثابة حلقة وصل بين الفرس والصينيين والهنود؛ ولما كانوا هم أنفسهم ورثة الشعب الآري المتحضر، فقد صاروا جنساً كالتُخاريين؛ فتعرفوا على منجزات الشعوب ذات

الحضارة في ذلك الوقت وعلى مختلف ديانات عصرهم كالبوذية والمسيحية والزردشتية والمانوية، وفي سنة ١٤٣هـ اعتنق خانهم الديانة المانوية وتبعه الكثير من أتباعه في اعتناق هذه الديانة.

وكان دخول المبشرين المسيحيين من إيران إلى تلك البلاد سبباً في انتشار أحد أنماط الخط السرياني بين المسيحيين الأويغور وبدأوا تدريجياً في تدوين لهجتهم التركية بذلك الخط الذي أصبح يُعرف بالخط الأويغوري، وكان هذا هو السبيل الذي اتخذه المبشرون المسيحيون في الدعوة بين قبائل النايمان واستمالتهم إلى المسيحية.

وفي أواسط القرن الثاني الهجري، أصبحت للأويغور قوة فائقة ففتحوا المناطق المحيطة بأنهار سلنجا وأرخُن وكيرولين أي بلاد منغوليا الشمالية ونقلوا عاصمتهم إلى مدينة قره بلغاسون التي تحولت فيما بعد إلى قرا قروم عاصمة جنكيزخان، ودانت لهم منغوليا كلها لمدة قرن من الزمان وكان أباطرة الصين كثيراً ما يستمدون العون منهم. إلا أن القرغيز الذين كانوا يستوطنون الجزء الغربي من سيبيريا طردوهم من قره بلغاسون في سنة ٢٢٦ واستولوا على منطقة أرخُن، وعادت دولة الأويغور إلى حدودها الأولى.

وكان شعب الأويغور إبان سيطرتهم على تركستان الشرقية والواحات الداخلية بصحراء جوبي الوسطى قد هجروا تلك المنطقة التي كانت قديماً موطناً للتخاريين الآريين تدريجياً. وعلى الرغم من غلبة حضارة أريي آسيا الغربية فقد زال شعب التخاريين وحل محلهم الأويغور الذين يعدون أول طائفة من الترك صفر الوجوه تتعرف على الحضارة.

وقد ثبت من الآثار التي تم العثور عليها حديثاً في مختلف مدن صحراء جوبي وتركستان الشرقية، خاصةً تورفان، أن حضارة شعب الأويغور كانت حضارة آرية خالصة، ولم يتم العثور على الكثير من آثار الحضارة الصينية فيها. وكان زيهم ورسومهم مقتبسة من الفرس، وهو ما يدل على أن اتصال الأويغور بجيرانهم من الآريين غرب بلادهم كان أكبر من اتصالهم بالصينيين.

وكان مما عزز من نفوذ الحضارة الإيرانية بين شعب الأويغور اعتناق جماعة منهم للديانة المانوية. وكان المانوية كما نعلم قوماً مرهفي الحس ومحبين للفنون والجمال، وكان لهم طراز خاص في التصوير كان منشؤه التصوير الفارسي في العصر الساساني. فقد اقتبس الأويغور هذا الفن من

معلميهم الفرس وزينوا كتبهم وآثارهم وعمائرهم الدينية بهذا الطراز من التصوير. وقد وجد هذا الطراز التصويري الأويغوري الذي تم الكشف مؤخراً عن آثار عديدة منه طريقه إلى الصين بعد استيلاء المغول على تركستان الشرقية. وفي الصين، طرأت على هذا الفن بعض التغييرات، وهو الطراز نفسه الذي عاد إلى إيران من جديد بعد اجتياح المغول لإيران ونبع منه فن التصوير والتذهيب المغولي والتيموري والصفوي.

كان شعب الأويغور يدين بالمسيحية والبوذية والمانوية كما أشرنا ولم يعرف الإسلام طريقه إليهم. وكان أول قوم يعتنقون الإسلام من بين شعوب الترك في شرق سمرقند وسيحون هم طائفة القرلق الذين كانوا في البداية يستوطنون المنطقة المحيطة بجبال تار باجاتاي، وهم الطائفة نفسها التي كانت قبل دخول الإسلام قد ساعدت الأويغور على فتح منطقة أُرخُن ومنغوليا الشمالية، وأنزلت بإمبراطور الصين هزيمة نكراء في سنة ١٣٤هـ واستولت على ولايات كاشغر ويارقند وأقاموا لأنفسهم دولة، ودخلوا الإسلام في القرن الثالث الهجري وصاروا جيراناً للدولتين السامانية والغزنوية.

سبق أن أشرنا إلى أن الجورخان القراخطائي المعاصر للسلطان محمد خوارزمشاه استولى على ما وراء النهر من ملوك الخانية وولىَّ عثمان خان سلطان السلاطين حاكماً عليها وفي السنة نفسها أخضع بلاد الأويغور وأرسل عاملاً له عليها. واتخذ عامله سبيل الظلم والقهر ونفر الناس من حكم القراخطائيين. وما إن وصلت أنباء زحف جنكيزخان إلى أسماع ملك الأويغور حتى قتل عامل الجورخان وأرسل المبعوثين إلى خان المغول بقبوله طاعته وصار منذ ذلك الوقت من رفاق جنكيز.

وكان الأويغور كما سبقت الإشارة أيضاً يدونون كتاباتهم بالخط الأويغوري وكانت لهم دفاتر ودواوين تكتب بهذا الخط. وأدى اختلاطهم بالمغول إلى انتشار هذا الخط بين أتباع جنكيزخان، ومنذ ذلك الوقت أخذ كتّاب المغول ومنشؤوهم في تعلم الخط الأويغوري ودوَّنوا به كتابات المغول.

مجاورة المغول لممالك الخوارزمشاهية:

بعد أن قام كوچلك خان بأسر الجورخان القراخطائي في سنة ٦٠٧هـ، دب الخلاف بينه وبين

السلطان محمد خوارزمشاه حول تقسيم ممالك القراخطائيين. وبعد أن أوفد خوارزمشاه مبعوثيه إلى كوچلك عدة مرات دون جدوي، خرج بجيش نحو بلاد القراخطائيين ونهب جيش كوچلك خان وخزائنه.

ولما كان كوچلك يسعى إلى تطهير ولاية كاشغر من معارضيه وخصومه، فقد قصد كاشغر وتركستان الشرقية وظل في حالة صدام مع أهلها لمدة ثلاث سنوات متصلة (٦٠٧- ٦١١هـ)؛ واضطر الأهالي للخضوع له على أثر وقوع قحط في البلاد. وكان جيش خوارزمشاه قد وصل إلى مدينة بيش باليغ في تلك الآونة، وكان من المفترض أن يدافع جنده عن مسلمي كاشغر وختن ويصدوا عنهم بطش جنود كوچلك، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك حيث تجنبوا الاحتكاك بجيش كوچلك. ونظراً لخوف السلطان محمد من أن يقوم كوچلك خان بالاستيلاء على الولايات الشمالية لما وراء النهر، فقد أمر بتهجير أهالي بلاد اسبيجاب وفرغانة وتشاش وكاسان من ديارهم وتوطينهم في مدن أخرى، ثم أمر بتخريب هذه المدن حتى لا تقع في أيدي أتباع كوچلك.

وفي شتاء سنة ٦١٢هـ، مر السلطان محمد خوارزمشاه بمدينة جَند (بالقرب من نهر سيحون وقبالة بلاد تركستان) قاصداً صحراء قرغيز موطن عشائر القبچاق. وهناك وجد فرقة من جنود جنكيز كانوا قد جاءوا بقيادة ابنه توشي (جوجي) بغرض مطاردة المتمردين التتار. ولم يكن توشي وسائر قواد التتار يميلون إلى قتال المسلمين. لذا فقد أرسلوا رسالة إلى السلطان محمد ينبئونه فيها أنهم لم يوفدوا من قبل خان التتار إلا لصد المتمردين ومطاردة الفارين. فتلبس الغرور خوارزمشاه فرد بأن الكفار عنده جميعاً سواء وكلهم أعداء للمسلمين، وأصدر أمراً بمهاجمة جند جنكيز. ولم تسفر المعركة بين التتار وجنود خوارزمشاه عن نتيجة، فقد أبدى أتباع جنكيز بسالة بالنهار ولكنهم لاذوا بالفرار ليلاً، وعاد خوارزمشاه إلى سمرقند في صيف ٦١٣هـ.

كانت هذه الموقعة أول صدام بين جيش السلطان محمد خوارزمشاه وجيش جنكيز؛ ومع أنها لم يكن لها طابع الحرب الرسمية ولم تكن على قدر كبير من الأهمية، فقد كان لها تأثير كبير على فكره، فقد أظهرت له القوة العسكرية للمغول. وكان ذلك من الأسباب التي أجبرت خوارزمشاه على التقهقر وتجنب مواجهة هؤلاء القوم على أرض القتال.

تبادل السفراء بين خوارزمشاه وجنكيز:

بعد الفتوحات التي حقَّقها جيش السلطان محمد خوارزمشاه في آسيا الوسطى، فكّر في إخضاع الصين. وقد بذل ناصحوه كل جهد لصرفه عن هذه الفكرة دون جدوي، إلى أن بلغته أنباء فتوحات جنكيز في بلاد الأويغور والتبت، وسمع أن خان المغول فتح مدينة بكين عاصمة الصين الشمالية في سنة ٦١٢. ولكي يتحقق السلطان محمد خوارزمشاه من صحة هذه الأنباء ويطّلع على مدى استعداد جيش المغول، أوفد وفداً برئاسة أحد أركان دولته يسمى السيد الأجلّ بهاء الدين الرازي. ومر الوفد بتركستان الشرقية ووصل إلى حدود بكين عاصمة أسرة كين الملكية والتي كانت في أيدي المغول في ذلك الوقت. يقول مؤلف كتاب طبقات ناصري إنه حصل على المعلومات التالية شفاهة من فم السيد الأجلّ بهاء الدين:

« حين وصلنا إلى حدود طمغاج واقتربنا من مقر آلتون خان (الاسم العام لملوك أسرة كين)، رأينا على البعد تلاً عالياً أبيض اللون، فظنناه جبلاً من الثلج. ولكن حين سألنا قيل لنا إنه تل من عظام القتلى. وحين تقدمنا منزلاً آخر وجدنا الأرض وقد تخضبت بدماء بشرية. وكان علينا أن نعبر ثلاثة منازل أخرى حتى نصل إلى أرض جافة، ولكن حين وصلنا كان بعضنا قد هلك من شدة عفونة الأرض. وعندما وصلنا إلى بوابة طمغاج وجدنا موضعاً أسفل برج القلعة وقد تكدس فيه الكثير من العظام البشرية. وحين استفسرنا قيل لنا إنه يوم فتح هذه المدينة تم إخراج عشرين ألف فتاة بكر من هذا البرج وقد لقين حتفهن به حتى لا يقعن أسيرات في أيدي جيش المغول، وإن هذه عظامهن »

واستقبل جنكيزخان وفد خوارزمشاه بكل احترام وأرسل معهم رسالة يقول فيها للسلطان إن جنكيز يعدّ نفسه ملكاً على الشرق كما يعدّ خوارزمشاه حاكماً على الغرب، وإنه يتطلع إلى السلام بينهما وإلى حرية حركة القوافل والتجار بين بلاد خوارزمشاه وجنكيز.

كان بدو منغوليا يحتاجون إلى المنتجات الواردة من البلاد المحيطة بهم. وكانت هناك تجارة واسعة بين المغول وأهل الصين قبل عهد جنكيز، وكانت بلاد مسلمي تركستان الشرقية والأويغور

هم الوسيط في هذا التبادل التجاري. وكان التجار المسلمون من رعايا خوارزمشاه من ناحية وجنكيزخان من ناحية أخرى يتطلعون إلى افتتاح طرق التجارة القديمة وتشغيلها، إلا أن خوارزمشاه نفسه لم يكن يولي اهتماماً لهذه الأمور، وحين أرسل الرسل إلى الصين كان هدفه مجرد الحصول على معلومات والتحقق من الأنباء التي وصلته عن مدى قوة المغول ولم يظهر اهتماماً بمصالح رعاياه وبلاده. أما جنكيزخان فكان يستقدم التجار المسلمين إلى بلاده وكان يتطلع إلى إقامة علاقات سلام بينه وبين خوارزمشاه. وكان التجار المسلمون من رعايا خوارزمشاه يعانون من الحروب التي تنشب في تلك المناطق وكانوا ينتهزون فرصة السلام لإتمام معاملاتهم التجارية.

وبعد أن قامت جيوش المغول بتوسيع حدود ممتلكاتهم إلى السفوح الغربية لجبال آلتاي وتيانشان وحوض بحيرتي بالخاش وإيسي جول، ووصل خوارزمشاه بحدود بلاده أيضاً إلى صحراء قرغيز، بدأ التجار المسلمون من رعايا خوارزمشاه في إيفاد قوافلهم عبر معابر آلتاي إلى منغوليا والصين وكانوا يتفادون طريق كاشغر وختن التي كانت تحت سيطرة كوچلك خان، خاصةً أن جنكيزخان كان يؤمّن طرق التجارة ويعين الحراس (قُرُقچي) لحماية القوافل ومساعدتها في منازل القوافل.

وذهب ثلاثة من التجار المسلمين[١] معهم أقمشة نفيسة موشاة بالذهب إلى جنكيزخان؛ فاشترى جنكيزخان بضاعتهم بأسعار مرضية وأكرم وفادتهم وأرسل معهم عدداً من تجار بلاده[٢] إلى بلاد خوارزمشاه وحملهم بالهدايا إليه. والتقى التجار بالسلطان خوارزمشاه بعد عودته من العراق في ما وراء النهر في ربيع سنة ٦١٥هـ، وسلموه رسالة جنكيز المتعلقة برغبته في إقرار علاقات السلم بينهما. وعلى الرغم من غضب خوارزمشاه من مخاطبة جنكيز له بكلمة «يا بنيّ»، فقد تمكن أحد أعضاء وفد جنكيز من تهدئة غضبة خوارزمشاه بحسن تدبيره فوافق السلطان على توقيع معاهدة مع جنكيز، وتعهد الطرفان بمد جسور الصداقة والدفاع المشترك. وكان من وقّع هذه المعاهدة من جانب جنكيز شخصاً من أهالي ما وراء النهر يدعى محموداً ولقب بـ يَلواج (ومعناها «المرسل» بالتركية). وربما كان محمود هذا هو محمود الخوارزمي الذي أشار إليه بعض المؤرخين

ضمن رسل جنكيز.

وبعد عقد هذه المعاهدة، خرج عدد كبير من تجار المغول (ما بين ٤٠٠ و٥٠٠هـ) قاصدين ما وراء النهر ومعهم الكثير من البضائع النفيسة من ذهب وفضة وحرير وأقمشة ومسك وأحجار كريمة، ودخلوا مدينة أُترار، أولى مدن بلاد الخوارزمشاهيين.(٣)

كان أمير أُترار من جانب خوارزمشاه هو إينالجق المعروف بغايرخان وكان من أقرباء تركان خاتون والدة خوارزمشاه.(٤) وطمع هذا الأمير في مال التجار المغول واتهمهم بالتجسس على خوارزمشاه؛ وقد صدقه الأخير وأمره بمراقبتهم. وقام غايرخان بقتل التجار المغول باستثناء أحدهم لاذ بالفرار، ونهب أموالهم. وذهب التاجر الناجي إلى جنكيزخان وأبلغه بتلك الواقعة الشنعاء.(٥)

حين علم جنكيزخان بواقعة قتل التجار، أوفد أحد عماله وكان أبوه يعيش في بلاط السلطان تكش خوارزمشاه(٦) ومعه اثنان من الرسل إلى السلطان محمد. وبعد إبداء الاحتجاج على تلك الفعلة الشنعاء التي نزلت بالتجار المغول، طلبوا تسليمهم غايرخان. إلا أن السلطان محمد لم يذعن لمطلبهم لأن معظم جنود جيشه وقادته العسكريين كانوا من أقرباء غايرخان وكان السلطان نفسه أداة في أيديهم. كما أن تركان خاتون بما كان لها من نفوذ وسلطة تدعمها في ذلك قوة أتراك عشيرة القَنقلي ما كانت لتدع خوارزمشاه يغامر بتسليمه. وفي النهاية لم يرفض خوارزمشاه الانصياع لمطلب جنكيز وحسب، بل أمر بقتل رسله؛ وبحركة حمقاء واحدة أطلق طوفان المغول بيده نحو إيران وسائر البلاد الإسلامية.

مقتل كوچلك وسقوط دولة النايمان سنة ٦١٥هـ:

قبل أن يثأر جنكيزخان لرعاياه من خوارزمشاه، قرر القضاء على كوچلك خان الذي كان قد استقر بتركستان الشرقية وأخذ ينشر أذاه بين الناس وخاصة المسلمين، ثم يتجه بحملته إلى بلاد الخوارزمشاهية فارغ البال.

ولتحقيق هذا الهدف، أرسل جنكيز أحد قواده وهو جَبه نويان على رأس جيش ضخم إلى كاشغر، وفتح جبه نويان كاشغر دون عناء ولاذ كوچلك بالفرار. وكان أول ما فعله جبه نويان هو

أن سمح بحرية الأديان وألغى القيود التي كان كوچلك قد فرضها على مسلمي ختن وكاشغر بعد استيلائه عليهما. وفر كوچلك من كاشغر إلى بدخشان دون أن يبدي أية مقاومة في مواجهة المغول، وقُتل على أبواب بدخشان. وأخذ أتباع جنكيز يعملون السيف في كل من يصادفونه من عشيرة النايمان. وبذلك دالت دولة النايمان في سنة ٦١٥هـ.

كان للقضاء على دولة النايمان وقمع فتنة كوچلك بتلك السهولة تأثير عميق على مزاج السلطان محمد خوارزمشاه، لأنه قبل هذه الواقعة بعدة سنوات كان ملك عظيم الشأن كخوارزمشاه قد تحاشى الدخول في مواجهة معه وأمر بإخلاء المدن الحدودية وتخريبها بينما تمكن أحد قواد جنكيز من استئصال شأفته بهذه السهولة.

كان القضاء على كوچلك وتحرير المسلمين على يد أتباع جنكيز سبباً لامتنان مسلمي كاشغر وختن وفرحهم حتى إنهم عدو المغول رحمة مرسلة من السماء. كما كانت هذه بمثابة ضربة للسلطان محمد خوارزمشاه الذي كان يعدّنفسه حامي حمى المسلمين؛ فبهذه الخطوة لم يعد بوسعه الزعم بأن المغول أعداء الإسلام حتى يهب المسلمون إلى الجهاد معه.

حملة جنكيز على ممالك الخوارزمشاهية في سَنة ٦١٦هـ:

كان جنكيزخان يغالي في تصوره عن قوة السلطان محمد خوارزمشاه. لذا فبعد أن أعد العدة، خرج مع أبنائه وجيوشه إلى ما وراء النهر. وفي هذه الحملة التي بدأت في خريف ٦١٦هـ، خرج معه أمراء القرلق والماليغ والأويغور الذين كانوا قد خضعوا لجنكيز. ويقال إن عدد جنود جنكيز عند خروجه إلى ما وراء النهر كان يتراوح بين ستمئة ألف وسبعمئة ألف؛ إلا أن هذا الرقم مبالغ فيه دون شك، ويذهب الباحثون المحدثون إلى أن عدد جنود جيشه لم يزد عن مئتي ألف. وكان عدد جنود جيش خوارزمشاه أكبر من عدد جنود جنكيز بكثير، ولكن للأسباب التي سبق ذكرها لم يكن الود متصلاً بينه وبين الأمراء الخوارزمشاهيين؛ لذا فإنهم لم يفعلوا شيئاً إزاء تقدم المغول. وكان ضعف إرادة خوارزمشاه وتردده وافتقاده لعنصر التخطيط واتخاذ القرار الحاسم، كلها سمات أفسدت أمره. وقبل أن يقدم هذا الملك الذي أنزل ببلاده بلاء بهذا الحجم على قتل رسل جنكيز،

كان قد شكل مجلساً من أمرائه لتدبر أمر المغول، وتشاور مع الإمام شهاب الدين خيوقي[٧] الذي كان مقرباً عند السلطان في هذا الصدد. فأشار عليه العالم المذكور بأن الصلاح في أن يكتب إلى عماله على أطراف مملكته وأن يحشد الجند للدفاع عن ديار الإسلام وأن يمنع المغول من المرور بضفاف نهر سيحون. إلا أن فريقاً من أمراء الخوارزمشاهية لم يوافقوا على هذا الرأي وقالوا إن الأصلح هو السماح بتقدم المغول إلى ما وراء النهر وبلوغ الجبال والمعابر الوعرة؛ ولما كانوا لا يعرفون الطرق والمسالك جيداً ننقض ونجهز عليهم. وأشار فريق آخر منهم بإمكانية صدهم عند نهر جيحون، في حين أشار فريق ثالث بوجوب ملاقاتهم في غزنين وفي الهند إذا لزم الأمر. ولم يول السلطان محمد خوارزمشاه عناية لفكرة شهاب الدين خيوقي؛ بل وافق على رأي ذلك الفريق من الأمراء الذين أشاروا بقتال المغول في مسالك ما وراء النهر الوعرة، وقام بتوزيع جيشه وأمرائه على مدن ما وراء النهر الكبرى وجلس ينتظر زحف المغول.

هذا السلطان الأناني الضعيف الإرادة الذي فقد الثقة في أمه وقواده وقبل أن يحشد الجنود الذين استدعاهم من أطراف مملكته عبر نهر جيحون دون قتال وترك أمراءه وجيشه المشتت بين المدن.

كانت أول المدن التابعة لخوارزمشاه التي تتعرض لحملة المغول هي مدينة أُترار؛ فقد كانت هذه المدينة مجاورة لبلاد الترك وتقع على الحدود الشمالية الشرقية للمملكة الخوارزمشاهية، إضافة إلى أن واليها غايرخان كان قد أثار غضب جنكيز ودفعه إلى طلب الثأر وحشد الجيوش.

وفي رجب ٦١٦هـ، ظهرت جيوش جنكيز على أبواب قلعة أُترار. وهنا قام جنكيز بتقسيم جنوده إلى أربع فرق على النحو التالي:

فرقة قوامها تومان (ومعناها بالمغولية عشرة آلاف) ومكلفة بفتح أُترار، وكان اثنان من أبنائه وهما جغتاي وأوجداي (أقطاي) ضمن قواد هذه الفرقة.

وفرقة ثانية بقيادة ابنه الثالث جوجي (توشي) كلفت بفتح مدن نهر سيحون، خاصة مدينة جَند.

وفرقة صغيرة قوامها خمسة آلاف جندي كلفت بفتح مدينتي خَجند وبَناكت، واتجه جنكيز

بصحبة ابنه الرابع تولوي (تولي) على رأس الجزء الأعظم من جيشه نحو بخارى. وكان غرضه قطع خطوط الاتصال بين السلطان محمد خوارزمشاه وبين بقية جيشه في المدن المذكورة آنفاً.

« ... وحين وصل جنكيز إلى مشارف مدينة أُترار، فر أحد رجال ديوان خوارزمشاه وهو بدر الدين عميد[٨] وانضم إلى جنكيزخان[٩] وأخذ يكتب الرسائل المزورة على لسان أمراء الخوارزمشاهية إلى جنكيزخان يبدي فيها الود والإخلاص وطلب العون لصد السلطان، ودوَّن رد جنكيزخان على ظهر كل منها بقبول المودة والمدد وأرسلها بصحبة أحد الجواسيس. وقبض خواص السلطان على الجاسوس وانتزعوا منه الرسائل وعرضوها على السلطان. ولما كان خواص السلطان والأمراء قد تلبستهم الحيرة، فاتجه بعض منهم إلى مخدع السلطان. وكان قد علم بأمرهم فغير مرقده. ورمى الأمراء مرقده بوابل من السهام وطعنات السيوف. وحين علموا أن السلطان ليس في مرقده لاذوا بالفرار وذهبوا إلى بلاط جنكيزخان. ولم يبق لدى السلطان شك في غدر الأمراء». (نقلاً عن تاريخ گزيده، ص٤٩٧-٤٩٨)

حصل جنكيزخان من هؤلاء الأمراء وغيرهم من المسلمين ممن انضموا إلى معسكره؛ فراراً من السلطان؛ على الكثير من المعلومات عن الأوضاع في بلاط السلطان محمد وعن المسالك والدروب وتداعى أمر ذلك الملك التعس. وكان جيش جنكيز يضم فئة من التجار المسلمين على دراية كبيرة بأحوال الطرق ووسائل استغلالها. وإلى جانب حجم الحملة وتقسيم الجيش كان واضحاً أن جنكيز لديه معلومات صحيحة عن الأوضاع الجغرافية لبلاد ما وراء النهر وأنه كان يتقدم لفتح شتى البقاع بناء على خريطة دقيقة.

فتح بخارى وتخريبها على يد المغول في سنة ٦١٦هـ:

بعد أن عبر جنكيز نهر سيحون، وصل إلى قلعة زرنوق. وكان أهالي المدينة قد عزموا على مقاومة جيشه، إلا أن خان المغول أوفد دانشمند الحاجب الذي كان من رجاله المسلمين قبل وصول الجيش يدعوهم لقبول طاعته. فأرسل أهالي زرنوق الهدايا الثمينة إلى جنكيز بناء على نصيحة دانشمند الحاجب. فأمنهم جنكيز. وبعد إحصاء عدد الرجال في تلك المدينة خرج شبابهم الذين

عرفوا باسم «حَشَر»[١٠] مع جيش المغول في اتجاه بخارى.

وفي زرنوق، اقتاد عدد من التركمان ممن خبروا مسالك ما وراء النهر جيش جنكيز عبر طريق لم يكن مطروقاً حتى ذلك الوقت وأصبح من بعد يعرف بالطريق الخاني نحو قلعة نور (على بعد اثني عشر فرسخاً شمال شرقي بخارى).

كان وصول جند المغول إلى مدينة نور مفاجئاً وغير متوقع إلى حد ما، فظن أهالي المدينة في البداية أنهم جماعة من تجار القوافل، ولكن حين قام قائد حراس جنكيز وتعرف رتبته بـ تاير بهادُر[١١] بإبلاغ الأهالي بوصول جنكيز ودعُاهم لقبول طاعته، لم يجدوا أمامهم سوى تسليم المدينة للقائد الأعلى من تاير بهادُر ورتبته سَبتاي بهادُر.[١٢]

وأبلغ تاير بهادُر أهالي نور بأمر السبتاي بهادر بحمل ما يحتاجونه من مواد بناء وزراعة وماشية وأغنام معهم إلى الصحراء وأن يتركوا ديارهم كما هي، وأغار المغول عليها. وبعد أن وصل جنكيز إلى مدينة نور، لم يطالب إلا بالألف والخمسمئة دينار التي كانت تؤدى لخوارزمشاه. ودفع الأهالي نصف هذا المبلغ من حصيلة بيع أقراط النساء، وأجلوا دفع النصف الآخر إلى حين وأمنوا شر المغول.

وبعد استيلاء جنكيز على زرنوق في غرة ذي الحجة ٦١٦هـ، وصل إلى بوابة بخارى وحاصر المدينة. كان تعداد الجيش الذي تركه خوارزمشاه في بخارى يتراوح عند المؤرخين بين اثني عشر الف وثلاثين ألف جندي. وكان كبار قادة هذا الجيش هم اختيار الدين كُشلو كبير حوذية خوارزمشاه وإينانج خان الحاجب.

وبعد الأيام الثلاثة التي استغرقها حصار بخارى، خرج الجيش المحاصَر بقيادة إينانج خان من المدينة وأغار على المغول، إلا أن المغول هزموهم بصعوبة. ولم ينج سوى إينانج خان الذي فر عن طريق نهر آمو، ولقي الباقون حتفهم. ولما لم يجد أهالي بخارى في أنفسهم قدرة على المقاومة وافقوا على الاستسلام. وذهب قاضيها بدر الدين ومعه وفد من أعيانها إلى قواد المغول يطلبون الأمان. وبعد الحصول على الأمان، فتحت بوابات المدينة أمام جيش جنكيز، فتدافع المغول إلى داخل المدينة في الرابع من ذي الحجة.[١٣]

وفيما يلي يقدم عطا ملك الجويني مؤلف كتاب جهانگشا شرحاً مؤثراً لدخول المغول إلى بخارى:

«ذهب أئمة مدينة بخارى وأعيانها إلى جنكيزخان الذي دخل لمعاينة القلعة والمدينة، ودخل المسجد الجامع بجواده وتوقف أمام المقصورة في حين ترجل ابنه تولي وصعد المنبر. فسأل جنكيزخان عما إذا كان هذا هو قصر السلطان، فقيل له إنه بيت الله، فترجل عن جواده وارتقى درجتين من المنبر وقال إن الصحراء خلو من العلف وأمر بملء بطون الجياد. ففتحت شون المدينة وتم سحب الغلة، وأتوا بصناديق المصاحف إلى صحن المسجد وتبادلوا كؤوس الخمر وأحضروا مطربات المدينة للسماع والرقص وتغنّى المغول بأهازيجهم وتمّ تكليف مشايخ العصر وساداته وعلمائه وفقهائه برعاية خيول القواد. وبعد ساعتين، نهض جنكيزخان وعزم على العودة إلى بلاطه وتبعته الجماعة التي كانت برفقته. وكانت أوراق المصاحف تدهس تحت أقدامهم. وهنا توجه الأمير الإمام جلال الدين على بن الحسن الرندي الذي كان من أفاضل علماء ما وراء النهر إلى الإمام العالم ركن الدين إمام زاده وقال: «ما هذا الذي أرى؟! أهو حقيقة يارب أم منام؟!»[١٤] فقال له إمام زاده: «اسكت! إنها ريح الله قد هبت، ولا مجال للكلام[١٥]...». وسأل جنكيز أهل بخارى: «من أمناؤكم ومعتمدوكم؟» فقدموهم إليه؛ فعيَّن مع كل منهم حارساً مغولياً حتى لا يتعرض له أحد من جند المغول. وفي صباح كل يوم كان يؤتى بجماعة الأعيان إلى بلاط خان العالم. وكان جنكيزخان قد أمر الجند بطرد السلطان من المدينة والقلعة؛ وهو ما تعذر على أهل المدينة. وانهمكت تلك الجماعة في القتال والحرب والإغارة حتى نشبت النيران في الأحياء وكانت بيوت المدينة من الخشب فظلت مشتعلة لعدة أيام عدا المسجد الجامع وبعض القصور المبنية بالطوب.

دمَّر الطغاة المدينة وسوَّوا جدرانها بالأرض وشردوا كل أهلها من رجال ونساء في الصحراء، واختاروا الشباب والكهول من ذوي الأهلية وضموهم إلى حملتهم (حَشَر) على سمرقند ودبوسية[١٦] وتوجهوا منها إلى سمرقند. وتفرق أهل بخارى بسبب ما حاق بهم من خراب وذهبوا إلى القرى وأضحت البلاد قاعاً صفصفاً. وكان أحد أهالى بخارى قد فر وجاء إلى خراسان؛ وحين سألوه عن حال بخارى أجاب: «جاؤوا وخربوها وأحرقوها وقتلوا أهلها وحملوا متاعها ومضوا».

(جهانگشای جوینی، ج۱، ص۸۰-۸۲)

وعندما استدعى جنكيز أعيان بخارى قال لهم إن هدفه من استدعائهم جمع الأدوات الفضية التي باعها لهم خوارزمشاه (أي بعد قتل التجار المغول في أترار على يد غايرخان) لأنها تخصه هو وأقرباؤه. فجمعوا كل ما كان لديهم من أمتعة وجاءوا به إلى خان المغول وسلموه له. وهذه المسألة تنبئ بالدور المباشر الذي لعبه خوارزمشاه في واقعة قتل تجار المغول ومسؤوليته عن إثارة غضب جنكيزخان.

وهكذا أدى استيلاء المغول على بخارى التي كانت تعد كبرى مدن ما وراء النهر وكانت تضم خيرة علماء بلاد الإسلام وكثير من أهل الفضل والأدب إلى خراب المدينة وفر منها أهلها بعد أن نهب المغول كل شيء فيها بالقوة.

فتح سمرقند في سنة ٦١٧هـ:

بعد أن فرغ جنكيز من تدمير بخارى، اتجه صوب سمرقند وأسر جمعاً كبيراً من أهالى بخارى واصطحبهم مع جيشه. وكان جند جنكيز القساة يجرون أسرى بخارى وراء خيولهم ويقتلون من يعجز منهم عن السير. وحين اقتربوا من سمرقند تركوا الأسرى وراءهم ليلحقوا بالفرسان الذين يتقدمون الهجوم على سمرقند. وكان الهدف من ذلك إيهام مسلمي سمرقند أن هذا الحشد العظيم هو جيش المغول فيتملكهم الرعب من كثرته.

وفي اليوم التالي وصل الأسرى، ومع كل عشرة منهم علم، أمرهم المغول بالتحرك به. وتحقق للمغول ما أرادوا، وظن أهل سمرقند أن هذه الحشود هي جيش جنكيز، فأغلقوا بوابات المدينة وبدأوا في المقاومة.

يقدر المؤرخون تعداد جيش خوارزمشاه في سمرقند ما بين خمسين ألفاً ومئة وعشرة آلاف؛ والرقم الأخير يبدو مبالغاً فيه إلا إذا أضفنا تعداد أهالي سمرقند الذين هبوا لقتال المغول إلى عدد الجنود. على أية حال فقد تحاشى جيش السلطان مواجهة المغول رعباً منه. ولكن في ثالث أيام الحصار، أرسل أهل المدينة عدداً من محاربيهم إلى خارج المدينة لمهاجمة جنكيز. وقد تقهقر جند

جنكيز في البداية أمام المسلمين، ثم استدرجوهم إلى كمين وقطعوا الطريق بينهم وبين المدينة وأعملوا القتل فيهم. وبلغ عدد هؤلاء القتلى ما بين خمسين ألفاً وسبعين ألفاً.

وبعد أن علم أهالى سمرقند بواقعة استشهاد محاربيهم، وهنت قواهم. وتوانى الجيش الخوارزمي بقيادة طُغاي خان شقيق تركان خاتون عن القتال بدعوى أنهم ينتمون إلى جنس المغول نفسه، وطلبوا الأمان من جنكيز. ولم يواصل الدفاع سوى عدد قليل من الأهالى وأبوا الاستسلام وتحصنوا بقلعة المدينة. وقد استمر حصار سمرقند من خمسة إلى عشرة أيام باختلاف المؤرخين.

وباستسلام الأتراك الخوارزميين، لم يجد الأهالى أمامهم من سبيل سوى إيفاد وفد منهم برئاسة شيخ الإسلام والقاضي إلى جنكيز ليعلنوا التسليم ويفتحوا بوابات المدينة أمامه. واجتاحت جحافل جند جنكيز سمرقند في عاشوراء من سنة ٦١٧هـ. وبعد تدمير قلعة المدينة، خرج الأهالي منها ووجهت لهم الدعوة لتسليم أسلحتهم وأموالهم ودوابهم. وبعد نهب ممتلكاتهم بدأوا في قتلهم وإحراق المدينة وهتك أعراضهم، وتكررت الكارثة التي حاقت ببخارى.

« ... كل من كان في القلعة طردوه إلى الصحراء وفصلوا الأتراك عن العرب، وحلقوا رؤوس الأتراك من الأمام على شاكلتهم، ووطنوهم. وفيما عدا الأتراك، فقد أعدموهم مع غروب الشمس. وفي تلك الليلة، غرق القنقليون عن آخرهم في بحار الدمار ونار الحريق، وكان عددهم أكثر من ثلاثين ألفاً من القنقليين والترك. وكان مقدموهم هم برَشماس خان وطُغاي خان وسرسيغ خان وأولاغ خان وعشرين ونيف من أمراء السلطان. وساد المدينة والقلعة الخراب وتجرع الأمراء والجنود والناس كؤوس الهلاك. وفي اليوم التالي تم إحصاء من أفلتوا من نصال السيوف، وتم تعيين ثلاثين ألف رجل منهم كحراس وساقوا مثلهم من الشباب ضمن جماعة الجيش (حَشَر) وسمحوا للبقية بالعودة فكانوا من زمرة الناجين. وتم فرض مئتي ألف دينار على المستسلمين، وتم تكليف ثقة الملك والأمير عميد الكبير اللذين كانا من كبار أعيان سمرقند بتحصيل ذلك الخراج. كما عينوا طائفة منهم كشرطيين، وأخذوا بعضاً من جماعة «حَشَر» نحو خراسان، وساقوا بعضاً آخر مع أبنائهم إلى خوارزم. وكانوا بعد ذلك يجندون المزيد من الشباب الذين لم يفلت منهم الكثير. وهكذا فقد ساد الخراب العام». (جهانگشاى جوينى، ج١، ص٩٥-٩٦)

فتح مدن شمال غرب ما وراء النهر:

كانت مدينة أترار من أولى المدن التابعة لخوارزمشاه التي فرض جيش جنكيز عليها الحصار كما سبق الذكر، إلا أن هذه المدينة أبدت قدراً من المقاومة أكبر مما أبدته سائر مدن ما وراء النهر. واستمر حصارها ما يقرب من خمسة أشهر.

لم يكن إينالجق يستطيع الاستسلام في مواجهة المغول للأسباب التي نعرفها، وصمَّم على المقاومة حتى آخر رمق. وأخذ يدافع ويقاوم بالجنود الذين كان خوارزمشاه قد وضعهم تحت إمرته.[١٧] كما أرسل خوارزمشاه أحد أمرائه أيضاً وهو القراجة الخاص ومعه عشرة آلاف جندي كإمداد له. ولما وجد القراجة الخاص الا طاقة له هو وإينالجق بمقاومة جيش جنكيز دعا إينالجق للاستسلام؛ إلا ان الأخير عدّ قبول دعوته خيانة ولم يذعن له؛ وأبدى قدراً أكبر من المقاومة دفاعاً عن القلعة في خدمة مليكه خوارزمشاه. وفي النهاية خرج القراجة الخاص من إحدى بوابات المدينة وانضم لصفوف جنكيز. إلا ان جغتاي وأقطاي عدوه خائناً لولي نعمته خوارزمشاه بعد تحقيقات مطولة، وتم إعدامه هو وكل من كانوا معه، ودخلوا أترار من البوابة نفسها التي خرج منها.

وتحصن إينالجق مع جنوده في قلعة المدينة، وكل يوم كان عدد من جنوده يخرجون من القلعة ويوجهون ضربات باسلة لجيش المغول. وقتل عدد كبير منهم. واستمر الوضع كذلك لمدة شهر. وفي النهاية لم يبق سوى إينالجق واثنين من رفاقه، اضطروا للتحصن أعلى القلعة وظل يدافع بقطع الأحجار التي كانت الإماء تقطعها من الجدران وتمده بها. وأخيراً، سقط في أيدي التتار وقام كل من جغتاي وأقطاي بقتل هذا الرجل الشجاع.

لم يُبق المغول بقيادة جغتاي وأقطاي على أحد لدى دخولهم مدينة أترار، فكانوا يقتلون كل من يصادفونه من أهالي المدينة وينهبون ممتلكاتهم وأسروا عدداً منهم وأرسلوهم إلى جيش جنكيز الذي كان مشغولاً بفتح المدن الوسطى بما وراء النهر.

وبعد فتح أترار زحف جوجي نحو مصب نهر سيحون ووصلت طلائع جيشه إلى مدينة سقناق التي تقع على بعد أربعة وعشرين فرسخاً من أترار. وأرسل جوجي حسن حاجي الذي كان قد

التحق بخدمة جنكيز كتاجر برسالة إلى أهل سقناق يدعوهم فيها للاستسلام إلا أن الأهالي تجمعوا عليه وقتلوه. وبعد حصار دام سبعة أيام، تمكن جوجي والقائد المغولي الآخر ألش إيدي الذي تولى قيادة الجيش في تلك المنطقة من فتح سقناق وسوياها بالأرض وأعملا القتل في أهلها، وعين جوجي ابن حسن حاجي حاكماً على تلك المدينة الخراب. وبعد فتح مدن أوزجند[١٨] وبارجين ليغ كنت وأشُناس وصل جيش المغول إلى أطراف مدينة جند (بالقرب من پروسك الحالية).

غادر الجيش الخوارزمشاهي المرابط في جند المدينة وهو بقيادة قُتلُغ خان، وفر الأخير إلى خوارزم. وأرسل قادة جيش جنكيز شخصاً يدعى جين تَمور[١٩] لأخذ الطاعة من أهالي جند. وفكر الأهالي في قتله في بادئ الأمر؛ إلا أن جين تمور أسدى لهم النصح وذكر لهم عاقبة قتل حسن حاجي والمصير الذي آل إليه أهالي سقناق، ووعدهم بصرف نظر المغول عن مدينتهم، فكفوا أيديهم عنه ونجا جين تمور بحياته وذهب إلى جوجي وإلش إيدي وأبلغهما بضعف أهالي جند وخلوها من الناس. وحاصر المغول المدينة في صفر ٦١٧هـ. وقد أوصد الأهالي بوابات المدينة في وجوههم ولكن دون إبداء مقاومة. وسرعان ما فتح المغول المدينة وهجروا أهلها ونهبوها ولم يقتلوا سوى من أغلظ القول لجين تمور، بينما عفوا عن بقية الأهالي. وتم تعيين علي خواجة بخارائي رسول جنكيز السابق إلى خوارزمشاه عاملاً عليها.

وبعد فتح جند، بقي جوجي بها، وخرج في السنة التالية لفتح خوارزم. وخرج إلش إيدي إلى قفار قرا قروم.

فتح بناكت وخجند:

بدأ الجيش الذي كان جنكيز قد جرَّده إلى حدود فرغانة وأعالي وادي سيحون بقيادة أولاغ نويان وقادة آخرين بحصار مدينة بناكت، وبعد ثلاثة أيام، سلَّم الحراس المدينة وكانوا من الترك.

وتحرك المغول بعد أن فرغوا من فتح مدن أترار وبخارى وسمرقند إلى فرغانة أيضاً، وزحفوا باتجاه خجند فيما يناهز العشرين ألف جندي وخمسين ألف من شباب المدن المفتوحة (حَشَر). وكانت حكومة خجند في ذلك العهد بيد شخص يدعى تيمور ملك وكان من أشجع أمراء خوارزمشاه

واشتهر بالصمود والثبات أمام جحافل المغول. تحصن تيمور ملك مع ألف محارب في إحدي جزر نهر سيحون بالقرب من خجند بقلعة كان قد بناها. وحاول المغول إلقاء القبض عليه دون جدوى وظل تيمور ملك يقاتل دون هوادة ويصرع جند المغول. وحين رأى أن المغول قد أحاطوا به من كل جانب وضيقوا عليه الخناق، حمل مؤنه على سبعين سفينة كان قد أعدها من قبل ومضى في جمع من رفاقه إلى بناكت ومنها إلى جند وبارجين ليغ كنت. وظل يقاتل جند المغول في كل مكان في طريقه إلى أن أصبح وحيداً بلا سلاح، فذهب إلى خوارزم ومنها إلى حدود خراسان، والتحق بخدمة السلطان في شهرستانه.[٢٠]

«وكان أميرها (أي خجند) هو تيمور ملك وهو أمير شجاع، وكان قد أنشأ وسط جيحون[٢١] قلعة عند ملتقى فرعي النهر، فتحصن بها مع ألف من المقاتلين البواسل. وعندما وصل الجيش لم يتمكن من القلعة من فوره، لأن السهام والمجانيق ما كانت لتبلغها. واقتاد المغول شباب خجند ضمن صفوف شباب المدن المفتوحة (حَشَر) وكانوا يحصلون على الإمدادات من أترار وبخارى وسمرقند ومن القرى الأخرى التي دانت لهم إلى أن اجتمع لهم خمسون ألفاً من هؤلاء الشباب وعشرين ألفاً من المغول. وكان جند المغول ينزلون مياه النهر على خيولهم. وكان قد بنى اثني عشر قارباً، وكان يخرج خفيةً كل يوم فجراً ويقاتل بشراسة في كل اتجاه دون أن يمسه جرح سهم واحد، وكان يطفئ النار والنفط ويتحاشي الأحجار التي كانوا يطلقونها عليه في الماء وكان يغير على جنودهم ليلاً. وقد حاولوا أن يدفعوا أذاه دون جدوى. وحين ضيّقوا عليه الخناق جاء بسبعين سفينة كان قد أعدها ليوم المفر وحمل فيها المؤن والمتاع والرحال وركب هو وبعض رجاله في قارب وحملوا المشاعل وشقوا عباب النهر كالبرق، إلى أن وصلوا إلى بناكت وظل الجنود يقاتلونه من كلا الجانبين حتى حدود جند ووصل إلى بارليغ. وحين بلغ خبره إلوش إيدي أمر بصف الجنود على ضفتي النهر ومد الجسور إلى سفنه. وحين وصل إلى بارجليغ خرج من الماء. وكان جيش المغول لايزال يتعقبه، فأخذ يتنقل من المقدمة إلى المؤخرة. وبعد عدة أيام من المراوغة كان معظم رجاله قد قتلوا أو جرحوا في حين كان جند المغول في ازدياد، ولم يبق معه إلا قلة قليلة ولكنه ثبت ولم يستسلم. وعندما قتل آخر من كانوا معه ولم يبق لديه سلاح سوى ثلاثة سهام أحدها مكسور.

وكان هناك ثلاثة من جند المغول يطاردونه، فأطلق السهم المكسور وفقأ عين أحدهم به. وقال للآخرين: «بقي سهمان بعددكما ولكني أشفق على السهمين؛ ومن الأصلح لكما أن تعودا أدراجكما وتبقيا على حياتكما. فعاد المغوليان ووصل هو إلى خوارزم وعاد إلى القتال فنزل في حشد على أطراف مدينة كنت وقتل القائد العسكري الإقليمي بها وعاد أدراجه. ولما لم ير صلاحاً في البقاء بخوارزم مضى إلى السلطان ولحق به على الطريق إلى شهرستانه. وظل معه لفترة ثم مضى إلى الشام في زي المتصوفة. وبعد أن هدأت الفتنة دفعه حب الوطن إلى العودة. ولكن ما كاد يقضي عدة سنوات في فرغانة حتى استشهد على يد أحد جند المغول». (جهانگشاى جوينى، ج١، ص٧١-٧٣)

عبور المغول من جيحون ومطاردة خوارزمشاه:

بعد فتح سمرقند قام جنكيزخان بتقسيم جيشه مرة أخرى إلى عدة فرق، كلَّف كلاً منها بإخضاع بعض مما تبقي من ولايات المملكة الخوارزمشاهية. فوضع ثلاثة تومانات (ثلاثين ألف جندي) تحت قيادة جبه نويان[٢٢] وسبتاي بهادُر وتُغاجار[٢٣] وكلفهم بتعقب خوارزمشاه وأمرهم ألا يتوقفوا في الطريق حتى يلقوا القبض على خوارزمشاه، وألا يتعرضوا للبلاد التي يمرون بها؛ وإذا وجدوا ألا طاقة لهم بمقاومته أن يتوقفوا ويبلغوا جنكيزخان.

وأرسل ولديه جغتاي وأقطاي في جيش كبير إلى جرجانية مقر الأسرة الخوارزمشاهية وولاية خوارزم، وأمر ابنه جوجي الذي كان على أبواب جند بإرسال إمدادات لأخويه. كما كلف عدداً من جنده بقيادة أولاغ نويان ويساوُر بالتوجه إلى وَخْش وطالقان. أما جنكيز نفسه فقد قضى الصيف على حدود نخشَب حتى يستريح جنوده ويهيئ خيول جيشه لحملة جديدة.

كان خوارزمشاه الفار أمام جحافل جيوش جنكيز يقيم حينذاك في بلخ. وهناك، جاءه عماد الملك وزير ابنه ركن الدين حاكم العراق بدعوة من ركن الدين إلى العراق إلى أن يتمكن من إعادة تنظيم صفوف جيشه وصد تقدم المغول. وقبل خوارزمشاه هذا الاقتراح؛ فترك عدداً من جنوده عند معبر پنجاب (بين بلخ وترمذ) لكي يبلغوه بمدى تقدم المغول ومضى هو صوب العراق. ولكنه

لم يكد يتجاوز ترمذ حتى بلغته أنباء سقوط بخارى وسمرقند وتخريبهما؛ فأسرع خوارزمشاه إلى ولاية طوس. وبعد عبوره نهر جيحون، انضم ما يقرب من سبعة آلاف من الترك القراخطائيين وجيش علاء الدين حاكم قُندوز إلى جيش المغول وكانوا مستعدين لقتال خوارزمشاه.

عبر جيش جبه وسبتاي وتغاجار نهر جيحون في ربيع الأول ٦١٧هـ. وكانوا قد تلقوا أمراً من جنكيزخان بالتعجيل في أعقاب خوارزمشاه والا يتعرضوا للبلاد التي يمرون بها. وحين بلغوا بلخ، تركوا عليها حاكماً من جانبهم واتخذوا طريقهم إلى هرات. كان حاكم هرات أمين ملك[٢٤] قد استسلم من قبل لجنكيز الذي أمر جند التتار بعدم التعرض لبلاده. فاحترم اثنان من قادة المغول أمر جنكيز وكفوا أيديهم عن هرات وأمين ملك، وتجاوزوا تلك المدينة، في حين وصل جند تغاجار وحاصروا هرات دونما اعتبار لأمر جنكيز. وفي هجمة شنوها على قرية بوشنج[٢٥] قُتل أحد قادة جيشه[٢٦] فدمر المغول تلك القرية تدميراً وقتلوا كل أهلها ثم اتجهوا صوب نيسابور.

كان خوارزمشاه التعس لا يستقر في مكان من شدة الرعب. وبعد بلوغه نيسابور، لم يتوقف أكثر من ساعة ثم اتخذ طريقه نحو بسطام حيث أعطى أحد رجال حاشيته عشرة صناديق مليئة بالنفائس والمجوهرات الملكية لكي يحفظها في قلعة أردهَن.[٢٧] إلا أن هذه النفائس الثمينة سرعان ما وقعت بعد انتهاء أمر خوارزمشاه في أيدي المغول وتم إرسالها إلى جنكيز.

واتجه السلطان محمد خوارزمشاه من بسطام إلى الري ومنها إلى قلعة فَرزين[٢٨] حيث كان ابنه ركن الدين في انتظاره وسط جيش قوامه ثلاثون ألف رجل. وفي هذا الموقع كان خوارزمشاه يستطيع بجيشه وإمدادات ابنه وأمرائه الآخرين أن يواجه جنود سبتاي وجبه المجهدين ويسترد ماء وجهه؛ ولكن كان الهلع من المغول قد تملكه تماماً. كما أن حمقه منعه من انتهاز الفرصة السانحة لكي يصد تقدم المغول السريع إن لم يستطع أن يهزمهم.

وهنا أرسل خوارزمشاه حريمه مع ابنه غياث الدين إلى قلعة قارون وهي إحدى القلاع الداخلية بجبال البرز، وأوفد رسولاً إلى مَلك نصرة الدين هزار اسب وهو من أتابكة لرستان يستدعيه. وفي تلك المنطقة سعى أمراء العراق الذين جاءوا إلى خوارزمشاه إلى إقناعه بملاقاة المغول على سفوح جبل أُشتران بدعوى أن هذه المنطقة لا تصلح للمقاومة والدفاع ولكنه لم يقتنع برأيهم. فذهب

الأمراء كسيري الخاطر. وحين وصل ملك نصرة الدين دعا السلطان إلى اللجوء إلى أحد المعابر الضيقة للجبال الواقعة بين إقليم فارس ولرستان، وقال إنه يستطيع أن يحشد ما يقرب من مئة ألف جندي من ولايات فارس ولرستان وكوه كيلويه يمكن بهم سد الطرق على جيش المغول وإيقاع الهزيمة بهم. إلا أن السلطان رفض هذا الاقتراح من جانب الأتابك نصرة الدين بزعم أن الأتابك يريد أن ينتهز الفرصة ليتخلص من خصمه أتابك إقليم فارس. فعاد الأتابك نصرة الدين حزيناً إلى مملكته، وظل خوارزمشاه يبحث عن مخرج إلى أن بلغه نبأ وصول المغول إلى الري وتخريبهم لها وقتلهم لأهلها.

نهاية السلطان محمد خوارزمشاه:

تقدم جيش جبه وسبتاي من هرات نحو خراسان، وسرعان ما وصل إلى طوس، وهناك اتخذ كل من القائدين طريقاً لتعقب خوارزمشاه؛ فوصل سبتاي إلى الري عن طريق دامغان وسمنان، بينما اختار جبه طريق مازندران، ووصل أيضاً إلى الري بعد الإغارة على مدنها، خاصة آمُل. وفي الري سمع المغول أن خوارزمشاه غادر همدان في طريقه إلى مازندران. لذا فقد أسرعوا نحو همدان بعد الإغارة على الري وتدميرها. وكانوا يدمّرون القرى ويقتلون أهلها في طريقهم. وبالقرب من دولت آباد ملاير، عثروا على أقرباء خوارزمشاه وقتلوا منهم الكثيرين، كما قتلوا الكثيرين من العشرين ألف جندي الذين كانوا مع السلطان، وكثيراً من الأمراء وأركان الدولة ومن بينهم عماد الملك وزير ركن الدين بن خوارزمشاه. حتى حصان خوارزمشاه أصابه سهم في تلك الموقعة، ولما لم يكن المغول يعرفونه، فقد لاذ بقلعة قارون وفكّر في الفرار إلى بغداد؛ إلا أن المغول هبطوا عليه كالبلاء المفاجئ فغادر السلطان التعس قلعة قارون قبل أن يحاصرها المغول ولجأ إلى قلعة سرچاهان (على بعد خمسة فراسخ من مدينة سلطانية وعلى سفح جبل طارم). وبعد فترة من حصارهم لقلعة قارون، علموا أن السلطان قد غادرها في طريقه إلى بغداد. فتعقبوه لعدة أيام، ولكن لما كانوا قد فقدوا أثره فقد عادوا من منتصف الطريق.

وبعد إقامة خوارزمشاه لمدة سبعة أيام بقلعة سرچاهان ذهب إلى جيلان ومنها إلى آمُل حيث

احتفى به أمراء مازندران جميعاً عدا ركن الدين قائد كبود جامه[٢٩] الذي كان خوارزمشاه قد قتل عمه وابن عمه واستولى على ممتلكاتهما إبان فتح مازندران، فاتفق مع المغول وتسلط بعون منهم على الممالك التي فتحوها.

وبعد أن سمع خوارزمشاه خبر اقتراب المغول وهو في مازندران، ركب سفينة واتجه صوب جزيرة آبَسكون[٣٠] الصغيرة، وأطلق المغول الذين كانوا يطاردونه وابلاً من السهام على سفينته، وألقى عدد منهم بنفسه في الماء وغرق أملاً في إلقاء القبض عليه من شدة الغضب الذي كان في صدورهم ضده. وفي ذلك الوقت اشتدت وطأة المرض على خوارزمشاه إذ أصيب بذات الجنب، وقضى أياماً في جزيرة آبَسكون وهو يعاني آلام المرض الذي كان يشتد يوماً بعد يوم. وتصادف في تلك الأيام أن جاءت أنباء اقتحام المغول للقلعة التي كانت ملاذاً له ولحريمه وأبنائه في مازندران ومقتل أبنائه وأسر حريمه. فلم يتحمل المصاب وأسلم الروح في شوال ٦١٧هـ في الجزيرة نفسها، ولم يكن هناك كفن له فتم تكفينه في قميص أحد رجال حاشيته.

حين تولى السلطان جلال الدين حكم إيران أمر بنقل رفات خوارزمشاه من جزيرة ابسكون إلى قلعة أردَهن.[٣١] ولكن بعد مقتله قام المغول بإخراج رفاته من القلعة وأحرقوها بناء على أمر من أقطاي بن جنكيزخان.

موقعة خوارزم وفتحها في سنة ٦١٨هـ:

كان اهتمام جنكيز ينصب على مطاردة السلطان محمد خوارزمشاه واستئصال شأفته؛ إلا أن الاستيلاء على عاصمة الخوارزمشاهيين والنيل من تركان خاتون أم السلطان وسائر أمرائه كانت أموراً حتمية في نظر خان المغول. وكانت مدينة جرجانية أو أوركنج أو كركانج عاصمة خوارزم في ذلك الوقت واحدة من أكثر المدن الإسلامية عمراناً واكتظاظاً بالسكان وكانت مركزاً للعلوم والآداب والبحث والدرس، وكانت تضم مكتبات كبرى، وصارت منذ عهد أتسز خوارزمشاه مركزاً للشعراء والأدباء والعلماء ومقصداً لأهل العلم والأدب من خراسان وما وراء النهر والعراق. إضافة إلى ذلك، كانت جرجانية تقع من ناحية على رأس طريق تجاري بين جرجان وممالك طائفة

الخزر وصحراء قبچاق وجنوب روسيا الحالية؛ ومن ناحية أخرى كانت تتصل بما وراء النهر وكاشغر والصين، وكان التجار يترددون عليها ويبعثون الروح في أسواقها. وكانت جرجانية في عهد أتسز وخلفائه تنافس مرو عاصمة السلطان سنجر. وكان من المقيمين بها حينذاك الإمام العلامة جار الله أبا القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (٤٦٧–٥٣٨هـ) الملقب بفخر خوارزم، والأمير رشيد الدين محمد العمري البلخي الكاتب المعروف بوطواط (توفي ٥٧٣هـ) وبهاء الدين محمد بن المؤيد البغدادي[٣٢] وشقيقه الشيخ مجد الدين شرف بن المؤيد البغدادي، والإمام شهاب الدين أبا سعد بن عمر الخيوقي[٣٣]، والشيخ نجم الدين أحمد بن عمر خيوقي المعروف بكُبري، والإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، وكانوا جميعاً من حاملي مشاعل العلم والأدب في جرجانية.

كانت خوارزم، أي المملكة الأصلية للخوارزمشاهيين، تخضع لحكم تركان خاتون والدة السلطان وأتراك القنقلي، وهي طائفة كانت تستطيع أن تنزل بالجيش المغولي الفاتح ضربات موجعة في موقعها هذا في قلب الممالك الخوارزمشاهية. إلا أن شيخوخة تركان خاتون ونكبتها من ناحية، والشقاق بين الأمراء وفي الجيش من ناحية أخرى حالا دون ذلك.

وحين كان جنكيزخان في ما وراء النهر، أوفد دانشمند الحاجب في سفارة إلى تركان خاتون ومعه رسالة فحواها أن حربه مع خوارزمشاه وحده وأنه لا يفكر مطلقاً في التعرض للممالك الخاضعة لإدارة تركان خاتون، وطلب منها أن توفد أحد ثقاتها إليه لكي يسلم خان المغول أمر السلطة في خوارزم وخراسان وأعمالهما للملكة. ولم تثق تركان خاتون في عرض جنكيز حيث بلغها أن خوارزمشاه عبر نهر جيحون وحرر ما وراء النهر كلها، فأخذت حريمه وأطفاله الصغار ونفائس خزائنه وأمرت بسجن جماعة من الأعيان والأمراء كان خوارزمشاه قد ألقى القبض عليهم في حياته قبل أن تغادرها بدعوى أن فتنة المغول سرعان ما تخمد ويعود الاستقرار للمملكة الخوارزمية، وألقت بهم في مياه نهر جيحون حتى لا يختصم الخوارزمشاهيون من بعد.[٣٤]

وبعد تحرك تركان خاتون من خوارزم، بقي بجرجانية جمع من الأمراء وقادة الجيش ووقع زمام شؤون البلاد في يد شخص يدعى سپهسالار علي ويلقب بكوه دروغان[٣٥] أو دروغيني ولا يتمتع بأية خبرة أو كفاءة. لذا فقد ازدادت الأوضاع اختلالاً ووقع الاضطراب بين الناس وأصبحت الأموال

الديوانية نهباً للمختلسين، إلى أن جاء إلى خوارزم اثنان من نواب ديوان خوارزمشاه وهما عماد الدين المشرف وشرف الدين الوكيل وتوليا إدارة شؤون ديوان خوارزم باسم خوارزمشاه. وبعد وصولهما بقليل، جاء كل من جلال الدين وأوزلاغ شاه وآق شاه أبناء السلطان محمد بعد دفن أبيهم بجزيرة آبسكون إلى خوارزم عن طريق بحر الخزر وأبلغوا الناس بوفاة السلطان.

كان خوارزمشاه طوال حياته خاضعاً لرأي تركان خاتون وكان قد أعطى ولاية عهده لابنه قطب الدين أوزلاغ شاه نزولاً عند رغبة أمه. إلا انه بعد ان بلغه نبأ أسر تركان خاتون وهو بجزيرة آبسكون وأحس بدنو أجله استدعى جلال الدين وأخويه ونصب جلال الدين ولياً للعهد وأمر ولديه الآخرين بطاعته ومبايعته.

وبعد وصول ولدي خوارزمشاه إلى خوارزم وإعلان ولاية عهد جلال الدين وخلع أوزلاغ شاه، لم يذعن أمراء الترك لهذا الأمر، وقام أحدهم ويلقب بقُتلُغ خان ومعه سبعة آلاف جندي بإعلان معارضتهم لجلال الدين وصمموا على سجنه أو قتله. وقام إينانج خان بإبلاغ جلال الدين بالأمر فخرج ومعه ثلاثمئة فارس وتيمور ملك أمير خجند السابق الذي كان قد أتى لتوه إلى خوارزم وأنزل هزيمة ببعض جنود التتار وفر بعدها إلى خراسان. وبعد ثلاثة أيام من فرار جلال الدين، رحل كل من أوزلاغ شاه وآق شاه عن جرجانية وأسرعا إلى خراسان.

وبقي أمراء جيش خوارزمشاه ومعهم ما يقرب من تسعين ألف جندي من أتراك القنقلي وبعد مغادرة أبناء خوارزمشاه، ولوا السلطة لأحد أقرباء تركان خاتون ويدعى خُمارتَكين وقَبِلَ الجميع طاعته. وكان جنكيزخان يعرف أهمية موقع خوارزم وعمرانها وقوة أتراك القنقلي، فحشد معظم جيشه وقصد خوارزم من عدة اتجاهات. فمن الجنوب الشرقي، أي من ناحية بخارى، كلف جيش جغتاي وأقطاي بالتحرك نحو جرجانية؛ ومن ناحية أخرى أمر جوجي الذي كان على مشارف جند بإرسال قواته لمعاونة جيش جغتاي وأقطاي وأن يرسل قواته الخاصة من خلفهم إلى جرجانية، فبلغ عدد الجنود بخلاف قوات جوجي الخاصة مئة ألف جندي.

وعندما اقتربت طلائع جيش جنكيزخان من بوابات مدينة جرجانية، ظن أهلها أن هذا هو الجيش المغولي كله فهجموا عليه وتقهقر المغول واستدرجوا أهالي خوارزم معهم؛ وعلى مسافة

فرسخ واحد من المدينة حاصر جيش المغول الجرار أهالي خوارزم، وقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم كانت أعداد كبيرة من الناس قد قتلوا بينما عاد من نجا منهم إلى المدينة مهزوماً.

وفي اليوم التالي، وصل كل من أقطاي وجغتاي وحاصرا المدينة. ودعيا الأهالي في البداية للاستسلام، ولكن لما لم يجبهما أحد نصبا المجانيق وبدآ في رمي الحجارة والأخشاب على رؤوس الأهالي. ولم تكن هناك حجارة كثيرة على أطراف خوارزم، فكان جند المغول يقتطعون كتلاً من أشجار التوت التي تكثر في هذه النواحي وتستخدم في تغذية دود القز ويضعونها في الماء حتى تتصلب وتقسو ويقذفون بها المدينة بالمجانيق.

وبوصول جيش جوجي، اكتمل حصار المدينة من أطرافها كافة. وأرسل جوجي رسالة لأهل المدينة يعدهم بالأمان إن استسلموا. إلا أن أهالي جرجانية لم ينصاعوا على الرغم من أن السلطان محمد كان قد كتب يدعوهم إلى مسالمة المغول والرفق بهم، وأخذوا يدافعون عن مدينتهم. فكلف المغول الأسرى، أي جزء من حشود شباب المدن المفتوحة، بردم خندق مياه المدينة في مدة عشرة أيام وبتدمير قلاع المدينة. وأدخلت هذه العمليات الرعب في قلب خمارتكين، فكف عن الجدال وخرج من المدينة وأعلن استسلامه للتتار. وكان لهذه الخيانة تأثير فتٍّ في عضد أهالي جرجانية؛ ومع ذلك فإنهم لم يستسلموا للمغول. واضطر جيش جنكيز إلى التدرج في الاستيلاء على عاصمة خوارزمشاه من حي إلى حي ومن حارة إلى حارة من أيدي الأهالي وبمشقة بالغة بحيث كان بعض الجنود يقاتلون الأهالي بالسهام والأقواس بينما أخذ البعض الآخر في إضرام النيران في البيوت بإلقاء الزجاجات المملوءة بالنفط عليها.

واستمر الحال لعدة أيام دون أن تستسلم المدينة. ففكر المغول في حيلة أخرى، وهي تدمير سد جيحون وتحويل مياهه نحو مدينة جرجانية، وهو ما فعلوه فيما بعد، ولكن قبل أن يشرعوا في ذلك، شن الأهالي هجوماً على ثلاثة آلاف من الجند كانوا يرممون جسراً في المدينة وقتلوهم عن آخرهم. وبعث هذا العمل روحاً جديدة في نفوس أهالي جرجانية فازدادوا جلداً في القتال وصبراً على المكاره.

وفي النهاية، سوّى المغول المدينة بالأرض عدا ثلاثة أحياء لاذ بها من تبقى من الأهالي. وأرسل

محتسب المدينة عالي الدين خياطي إلى جوجي وطلب الأمان. ولم يقبل جوجي هذا المطلب بدعوى أن أوان ذلك قد فات وأصدر أمره بترحيل كل من بقي من الأهالي إلى خارج المدينة. وقام بفصل أرباب الحرف والصنائع وكان عددهم يزيد عن مئة ألف وأرسلهم إلى الممالك الشرقية، وأسر قادة المغول النساء والأطفال وقاموا بتقسيم الرجال بين الجنود، فكان نصيب كل جندي مغولي أربعة وعشرين رجلاً ليقتلهم. وبعد أن فرغوا من الأهالي نهب التتار المدينة وهدموا ما لم يهدموه في أثناء القتال. وبذلك بادت المدينة التي لم يكن لها مثيل في عصرها من حيث العمران والرقي وكثرة عدد السكان.

استمر حصار جرجانية قرابة أربعة أشهر، من ذي القعدة ٦١٧هـ حتى صفر ٦١٨هـ. وبعد انتهائه، لم يبق أحد من أهلها حياً. فكانت أعداد قتلاهم من الكثرة بحيث أحجم المؤرخون عن تسجيلها لأنهم لم يصدقوها.[٣٦] ومن بين من قتلوا في هذه الموقعة الشيخ نجم الدين كبري العالم والعارف الشهير وسترد سيرته فيما بعد.

وكان من أسباب طول أمد حصار جرجانية بالإضافة إلى صمود أهلها أن جوجي بن جنكيز لم يكن يرغب في تخريب هذه المدينة، وكان يريد لها أن تدخل ضمن نطاق سيطرته. لذا فإنه لم يتعرض للمدينة طوال مدة الحصار. ودب الخلاف بينه وبين أخيه جغتاي حول هذا الأمر. وحين بلغ نبأ الخلاف إلى جنكيز، وضع جيوش جوجي وجغتاي وأقطاي تحت إمرة الأخير. وبعد فتح خوارزم، تركها لجوجي، واستدعى كلاً من جغتاي وأقطاي، فذهبا إليه وكان حينذاك مشغولاً بمحاصرة مدينة طالقان.

«أرسل جنكيزخان كلاً من توشي وجغتاي على رأس جيش جرار إلى خوارزم. ووصل الجيش إلى بوابة المدينة وظل أهل خوارزم يقاتلونهم لمدة أربعة أشهر. وفي النهاية استولوا على المدينة وقتلوا كل أهلها وخربوا عمائرها عدا موضعين، أحدهما قصر واخجك (؟) والآخر قبر السلطان محمد تكش. ويروى أن (جوجي) حين فتح خوارزم وهجَّر أهلها إلى الصحراء أمر بفصل النساء عن الرجال» (طبقات ناصري، ص٣٧٨-٣٧٩)

مصير تركان خاتون:

أمرت تركان خاتون والدة خوارزمشاه بقتل الأمراء والملوك والأعيان الذين كانوا مسجونين في خوارزم، وغادرت المدينة عن طريق الصحراء وبرفقتها حريم خوارزمشاه وأبناؤه الصغار ونظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح[٣٧] الوزير إلى خراسان، ومنها إلى مازندران وتحصنت بقلعة إيلال (لال) وهي من قلاع ولاية لاريجان.

وقام المغول بمحاصرة تلك القلعة في أوائل سنة ٦١٧هـ، واستمر حصارها أربعة أشهر. وفي النهاية ونتيجة لنفاد الماء، اضطرت تركان خاتون ووزيرها نظام الملك للاستسلام. فنزلا من القلعة واستسلما مع كل مرافقيهما لجيش جنكيز.

«من عجائب الأمور أن حريم السلطان محمد خوارزمشاه كن قد تحصنّ بقلعة لارجان وهي إحدى قلاع مازندران. وكان سُنتاي وهو أحد أمراء المغول موفداً من قبل جبه نويان لتعقب السلطان. وفي طريق عودته بعد أن يأس من اللحاق بالسلطان، حاصر تلك القلعة. ومن عجائب القدر أن هذه القلعة لم يكن أحد يتصور أن تحتاج إلى الماء؛ فأهل تلك الناحية كانوا يعانون الأمطار الغزيرة. وحين أحاط جند المغول بالقلعة، فرت الأمطار كما فر حظ الدولة الخوارزمشاهية، وظلت القلعة محرومة من الماء لمدة خمسة عشر يوماً، فاضطرت تركان خاتون وسائر الحريم وناصر الملك وزيرها إلى النزول من القلعة. وفي تلك اللحظة هطل المطر وظل يهطل لمدة طويلة حتى امتلأت القلعة بقدر غير معهود من الماء» (تاريخ ألفي، وقائع سنة ٦١٧هـ)

وتم إرسال تركان خاتون ووزيرها نظام الملك وحريم خوارزمشاه وأبنائه الصغار إلى جنكيزخان الذي كان على مشارف طالقان؛ فأمر بقتل نظام الملك وأبناء خوارزمشاه الصغار في سنة ٦١٨، وأودع بنات خوارزمشاه وحريمه وأخواته مع تركان خاتون في مكان واحد وأمرهن بالندب على موت خوارزمشاه بصوت مرتفع وقت الرحيل. ولما كان السلطان جلال الدين منكبرني أيضاً قد انهزم على ضفاف نهر السند، فقد أسر حريمه أيضاً وأرسلهن مع حريم خوارزمشاه إلى قرا قروم. وظلت تركان خاتون بتلك المدينة حتى وافتها المنية في سنة ٦٣٠هـ. وأجبر المغول بنات خوارزمشاه على طاعة أمراء المسلمين الخاضعين للمغول وعلى الزواج بهم عدا خان سلطان زوجة

نصرة الدين عثمان خان سلطان السلاطين القراخاني حيث اختارها جوجي لنفسه.

كانت تركان خاتون والدة خوارزمشاه وعلى الرغم من كفاءتها وحسن تدبيرها من الأسباب الرئيسة لفساد أمر خوارزمشاه بسبب قرابتها لأتراك قنقلي وإعطائهم الفرصة للتدخل في شؤون البلاد واستبدادهم بالرأي. فهذه المرأة التي كانت ابنة أحد أمراء الترك وبعد زواجها من السلطان تكش قد سمحت لأقربائها من الترك بالتدخل في شؤون الحكم. ولم تدخل أية منطقة تحت سيطرة الخوارزمشاهيين في عهد زوجها تكش وابنها السلطان محمد إلا وقامت تركان خاتون بتعيين أحد خواصها حاكماً عليها.

وكانت تلك المرأة على القدر نفسه من الجرأة في سفك الدماء وحب الدنيا. فأمراء الأقاليم الذين يأسرهم ابنها ويأتي بهم إلى خوارزم كانت تأخذهم ليلاً وتلقي بهم في نهر جيحون حتى يقر الملك لابنها دون متاعب.

ولم يكن خوارزمشاه يجد بداً من الإذعان لأمر أمه تركان خاتون، لأنه من ناحية كان يعدّ طاعة الأم فريضة أخلاقية، ومن ناحية أخرى كان معظم أمراء الدولة من أقربائها. ولما كانوا قد أعانوه على القضاء على القراخطائيين فإنه لم يكن يستطيع مخالفتهم.

كانت دائرة قوة تركان خاتون هي ولاية خوارزم؛ وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في تلك المنطقة إما من أتراك قنقلي أو من خواص الملكة وغلمانها. وقد تم تعيين نظام الملك محمد بن صالح في منصب الوزارة واختيار أوزلاغ شاه ولياً لعهد خوارزمشاه بأمر منها وعلى خلاف رغبة السلطان محمد. فعلى الرغم من أن ولديه جلال الدين وركن الدين كانا أكبر من ابنه الثالث أوزلاغ، فقد تنازل السلطان عن ولاية عهده للأخير بعد إصرار تركان خاتون ولُقِّب بأبي المظفر قطب الدين، وذلك لأن والدة أوزلاغ كانت من قبيلة تركان خاتون نفسها وكان أهلها كأهل تركان خاتون من الأتراك ذوي النفوذ وكانوا من أعوان والدة خوارزمشاه. وهكذا؛ فعند عودة جلال الدين إلى خوارزم وإعلان خلع أوزلاغ وتعيينه بدلاً منه كان أول من شق عصا الطاعة عليه وأدى إلى فساد أمره وفراره من خوارزم هو خال أوزلاغ شاه، أي قُتلُغ خان.

كانت تركان خاتون تناصب السلطان جلال الدين العداء، وحين فر من خوارزم، نصحها أحد

خواصها بالفرار واللحاق بجيش جلال الدين، إلا أن تركان خاتون رفضت النصيحة وقالت إن الوقوع في أسر جنكيز أفضل كثيراً من العيش في ظل جلال الدين.

موجز القول: إن هذه المرأة الأنانية المتعطشة للدماء وأقرباءها من الأتراك كانوا من الأسباب الرئيسة لفساد أمر خوارزمشاه، وكان كثير من الخلل الذي أصاب دولته ناتجاً عن استبدادها وعن الفجوة التي تفصل بينها وبين ابنها».

فتح خراسان وظهور السلطان جلال الدين منكبرني:

بعد فتح سمرقند، قضى جنكيزخان فترة على أطراف جيحون وسمرقند. وفي تلك الآونة كان أبناؤه وجيشه الجرار في خوارزم منشغلين بفتحها. وكانت جماعة من المغول أيضاً في فرغانة بهدف الاستيلاء على مدنها التي لم يتم فتحها بعد. وحين كان جنكيز في سمرقند فر أبناء السلطان خوارزمشاه، جلال الدين وأوزلاغ شاه وآق شاه، من خوارزم. وكان جلال الدين أسرع من أخويه في مغادرة المدينة حيث اصطحب ثلاثمئة فارس وتيمور ملك وإلي خجند السابق إلى مدينة نَسا. وحين بلغ نبأ فرار أبناء خوارزمشاه إلى جنكيز، أرسل عدداً كبيراً من المغول في أثرهم. وظل هؤلاء الجنود يراقبون الطريق من مرو إلى شهرستانه.

ما إن وصل جلال الدين إلى خوارزم عن طريق الصحراء حتى التقى بسبعمئة من المغول وصرعهم بهجمة واحدة واستولى على جيادهم وأسلحتهم وقليلاً منهم من تمكن من الفرار حتى إن عدداً منهم احتمى بترع نسا، فأخرجهم جنوده من الترع وضربوا أعناقهم. وبعد استيلاء جلال الدين على مؤن المغول وأسلحتهم وخيولهم، أعد فرسانه لبلوغ نيسابور ووصل إليها بسرعة، إلا أن أخويه اللذين كانا قد وصلا إلى ولاية أُستُوا (قوچان) كانا قد وقعا في أسر جماعة من التتار قتلوهما ونهبوا ما كانا يحملانه معهما من جواهر ونفائس وباعوها لأهل تلك النواحي بأبخس الأثمان.

على الرغم من النصر الذي حققه جلال الدين فإنه لم يتمكن من حشد قوات كافية في خراسان، لذا فبعد إقامة قصيرة في نيسابور مضى إلى مدينة زوزن (بولاية قهستان وعلى مسافة

ثلاثة أيام من قاين). إلا أن الأهالي لم يتفقوا معه ولم يسمحوا له بدخول مدينتهم، فاضطر للذهاب إلى مدينة بُست ومنها إلى هرات.

وذهب جنكيزخان من سمرقند إلى نخشَب ومنها إلى قلعة ترمذ، ودعا الأهالي لطاعته، إلا أنهم رفضوا التسليم وظلوا يقاومون جيشه لمدة أحد عشر يوماً وقتلوا عدداً منهم، لكنهم هُزموا في النهاية وفتح جنكيز مدينة ترمذ وقتل كل أهلها.

«يُروى أن جمعاً من جند جنكيزخان أمسكوا بامرأة في ترمذ وأرادوا قتلها. فقالت لهم تلك المسكينة لا تقتلوني وسأعطيكم لؤلؤة كبيرة. فسألوها أين وضعتِ هذه اللؤلؤة. فقالت ابتلعتها. فشق المغول بطنها من فورهم وأخرجوا اللؤلؤة. ومنذ ذلك الوقت أخذوا يشقون بطون القتلى على أمل العثور على الجواهر» (حبيب السير، ج٣، ص٢٣)

وبعد فتح نخشب وترمذ، عبر جنكيزخان نهر جيحون وذهب إلى ناحية بلخ وطالقان في حين أرسل عدداً من جنوده إلى طُخارستان. كانت بلخ من أمهات مدن خراسان. وقد استسلمت ولكن نظراً لظهور جلال الدين واستغاثة الأهالي به جعل جنكيزخان لا يثق في أهل بلخ. فأمرهم بإخلاء المدينة على عادة المغول وقتلهم.

وفي أثناء مطاردة كل من جبه وسبتاي للسلطان محمد خوارزمشاه في خراسان، فإنهما لم يتعرضا كثيراً لمدن هذا الإقليم، بل مروا كالسيل على مدنه. وبعد رحيل جيش جبه وسبتاي لم يعد أهل خراسان يسمعون عن المغول وضجيجهم كثيراً؛ فشرعوا في ترميم القلاع والحصون وتخزين المؤن والعلف.

وبعد أن عبر جنكيزخان مياه نهر جيحون ومعبر ترمذ، كلف ابنه تولوي (تولي) بالمضي إلى خراسان. وفي غضون ثلاثة أشهر، كان تولوي قد فتح كل مدن خراسان من حدود مرو الروذ حتى بيهق (سبزوار) ومن نَسا وأبيورد حتى هرات وفعل بهذه المدن العامرة الكثيفة السكان ما فعله بما وراء النهر.

واقعة مرو سنة ٦١٨هـ:

كانت مرو عاصمة السلطان سنجر؛ وكانت في عهده مركز خراسان ومن أهم مدن إيران. وقد

بلغت من العمران والرقي مبلغاً جعل الملاك والدهاقين على درجة من الثراء تضاهي ثراء الأمراء والملوك في البلاد المجاورة. وقد اجتمع فيها أهل العلم والفضل كمدينة جرجانية، وكانوا يعمرون المدارس والمكتبات العامة والخاصة في تلك الأيام. يقول ياقوت الحموي:

«غادرت مرو في سنة ٦١٦هـ. وكان في هذه المدينة آنذاك عشر مكتبات وقفية لم أر مثلها لا من ناحية كثرة الكتب ولا جودة النسخ. ومن هذه المكتبات مكتبتان بجامع المدينة، تعرف إحداهما بالخزانة العزيزية وكان قد أوقفها عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق أبي بكر. وكان هذا الشخص يتولى منصب الساقي في بلاط السلطان سنجر. وكان في البداية يتعيش في سوق مرو من بيع الفواكه والريحان؛ ثم اتجه لبيع الخمور وارتقى مكانة رفيعة في بلاط سنجر. وكانت هذه المكتبة تضم ١٢٠٠٠ مجلداً. وكانت الخزانة الأخرى تعرف بالخزانة الكمالية، ولا أعلم إلى من تنسب. ومن مكتبات مرو الأخرى مكتبة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته. وقد توفي هذا المستوفي (المحاسب العام) في سنة ٤٩٤هـ وكان على المذهب الحنفي. وهناك أيضاً مكتبة نظام الملك حسن بن إسحق في مدرسته؛ ومكتبتان تنسبان لأسرة سمعاني؛ ومكتبة أخرى في المدرسة العميدية، ومكتبة مجد الملك وهو من وزراء هذا العهد، ومكتبات أسرة خاتوني في المدرسة التي تنسب إليهم، ومكتبة الضميرية في الخانقاه. والوصول إلى هذه المكتبات في غاية اليسر، وقد استفدت كثيراً من فوائدها وأحببتها لدرجة أني نسيت الأهل والعيال وسائر البلاد. وأغلب الفوائد التي يضمها هذا الكتاب ما هي إلا عنقود قطفته من بستان هذه المكتبات. ولو لم تسقط هذه المدينة في قبضة التتار لما غادرتها حتى الموت، فأهلها مضيافون، والمدينة من حيث كثرة الكتب المتقنة بلا مثيل» (معجم البلدان، ياقوت، ج٤، ص٥٠٩-٥١٠)

في أواخر أيام السلطان محمد خوارزمشاه، كانت حكومة مرو تضم شخصاً يدعى مجير الملك شرف الدين مظفر. ولكن لما كان عم هذا الرجل قد ارتكب جرماً، فقد عزله خوارزمشاه من حكومة مرو وعين مكانه بهاء الملك نجيب الدين. وكان مجير الملك ملازماً لركاب خوارزمشاه بصورة دائمة إلى أن فرَّ هذا السلطان من بلاد ما وراء النهر إلى ترمذ وأرسل رسالة إلى أهل مرو

يدعوهم للاستسلام للمغول وقبول القائد العسكري الإقليمي الذي يعينونه عليهم. إلا أن بهاء الملك غادر مرو مع جمع من أهله وأعيان المدينة ولاذ بإحدى القلاع خارج مرو وترك نائباً له عليها. وعندما وصل جنود جبه وسبتاي، وافق المفتي شمس الدين الحارثي وقاضي المدينة على التسليم وقدما هدايا ثمينة للقائدين المغوليين.

وبعد فرار السلطان محمد إلى جزيرة آبسكون، غادر مجير الملك من مرو إلى مازندران وحشد حوله ما يقرب من سبعة آلاف من التركمان والجند. ولما كانت أمه فيما سبق ضمن جواري حريم خوارزمشاه ثم وهبها السلطان لوالد مجير الملك، فقد لعبت فكرة الملك وخلافة خوارزمشاه برأسه. وكان الأوباش والرعاع يحيطون به من كل جانب.

وكان أهالي مدينة سرخس في تلك الآونة قد أذعنوا لرأي القاضي شمس الدين بالتسليم للمغول وقبول قائدهم العسكري الإقليمي. وكان هذا القاضي من أقارب مفتي مرو، وكانت هناك مراسلات بينهما. ولما كان المفتي يميل إلى تسليم مرو وقبول القائد العسكري الإقليمي المغولي كما فعل أيام عبور جيش جبه وسبتاي، فقد دارت المكاتبات بينه وبين قاضي سرخس في هذا الشأن. وقد علم مجير الملك بهذا الأمر، ولكنه لم يتحدث إلى المفتي بصدده، إلى أن سب المفتي يوماً أعداء المغول صراحة في خطبته، فثار الناس عليه، إلا أن المفتي اعتذر بأن عبارته كانت من قبيل السهو، ونجا من أذى الناس. ولكن لم يمض وقت طويل حتى أمسك أقارب مجير الملك بأحد رسله إلى قاضي سرخس وحصلوا على الرسالة التي كان قد أرسلها إليه. فانقض قادة الجيش على المفتي ومزقوه إرباً بعد اكتشاف أمره، وأرسلوا جماعة إلى سرخس سببت المتاعب لأهلها لاستسلامهم للمغول.

مضى بهاء الملك بعد فراره من مرو إلى مازندران وروى أخبار مرو لجند المغول هناك وطمأنهم إلى فتح تلك المدينة وقبول أداء الخراج السنوي واتخذ طريقه إلى مرو ومعه سبعة آلاف جندي مغولي وعشرة آلاف من شباب المدن المفتوحة. وحين دنا بهاء الملك من مرو، أرسل رسله إلى مجير الملك يدعوه لتناسي الخلافات السابقة وقبول حكم المغول. وقد دب الرعب في قلب مجير الملك من قوة المغول في بادئ الأمر، إلا أنه رفض دعوة بهاء الملك بناء على إصرار من جانب أعيان المدينة

وقتل رسله، وأرسل ما يقرب من ألفي جندي من بقية جيش خوارزمشاه في مرو إلى بهاء الملك.
وحين علم جند المغول ممن كانوا يرافقون بهاء الملك بخبر قتل رسله اعتقلوه وسجنوه وأرسلوه إلى طوس حيث ضربت عنقه.

ومضى جنود مجير الملك إلى سرخس وقتلوا شمس الدين قاضي المدينة وأخذوا ينهبون الناس على أطراف مرو وسرخس. وفي تلك الأثناء جاءهم خبر وصول تولي. ومع ذلك لم يكفوا أيديهم ونشب النزاع بين التركمان ومجير الملك وتعرض الكثير من ضواحي مرو للخراب نتيجة لتمرد التركمان.

بدأ جيش تولي بمهاجمة عشائر التركمان على حدود مرو وقتلوا منهم الكثيرين. وما إن تمكنوا من تشتيت شمل تلك الطائفة حتى وصلوا إلى مشارف مرو في سنة ٦١٧هـ وضربوا حولها حصاراً استمر خمسة أيام. وفي تلك المدة، قامت جماعات من أهالي مرو بالإغارة على جنود تولي عدة مرات دون إحراز نتائج مهمة، فكانوا يعودون أدراجهم نتيجة لهجوم المغول. وفي اليوم الخامس، لم يجد مجير الملك بدأ من التسليم؛ فأوفد شخصاً إلى تولي وطمأنه الأخير بأنه سيكون هو وأهل المدينة في أمان إذا استسلم. وكذلك فعل مجير الملك وذهب إلى تولي. فأكرمه تولي ومنحه خلعة، ثم طلب منه قائمة بأسماء أقاربه حتى يتسنى له اختيار من يليق منهم بخدمته. وما إن قدم له مجير الملك تلك القائمة في حضور أعيان المدينة حتى أمر تولي بتقييدهم جميعاً، وأخذ قائمة أسماء تجار مرو وأثريائها وصناعها وحرفييها، ثم أمر بترحيل سكان المدينة إلى خارجها بحيث لا يبقى بها منهم أحد. ثم جلس على مقعد ذهبي وأحضر قادة الجيش الذين كان قد سجنهم وضرب أعناقهم أمام أعين أهالي مرو، وقسَّم العامة بعيالهم وأموالهم بين جنوده فقتلوهم بأبشع صورة. ثم أحرق المدينة وأضرم النار في ضريح السلطان سنجر وأمر بنبش القبور طمعاً في العثور على المال. وقد هلك في تلك الواقعة ما يقرب من سبعمئة ألف من سكان تلك المدينة.

«وأخذ يقتاد الخاصة والعامة وكرام الناس ولئامهم نحو الصحراء. واستمر خروج الناس أربعة أيام بلياليها. وقد فصلوا النساء عن الرجال والأخوات عن إخوتهن وانتزعوا الأطفال من أمهاتهم. ثم قاموا بتقسيم المروزيين جميعاً بين الجنود وشباب المدن المفتوحة، ويُروى أن نصيب كل جندي

من جيش المغول بلغ ثلاثمئة أو أربعمئة شخص ليقتلهم. وقدم القاضي أرباب سرخس للانتقام وبالغ في إذلالهم. وبحلول الليل، امتلأت الصحراء والجبال بدماء الأهل والأعزاء. ثم أمر بتدمير القلعة وتسوية الحصن بالأرض وبإضرام النار في مقصورة المسجد التي كانت قد بنيت على نسق أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة. وبعد أن فرغوا من نهب الأموال والأسر والتقتيل أمر الأمير ضياء الدين علي الذي كان من أكابر مرو بالذهاب إلى المدينة حاكماً على من تبقى من أهلها في الزوايا والخبايا وتم تعيين برماش قائداً عسكرياً إقليمياً. وحين عاد الجيش كان عدد من القوا القبض عليهم مختبئين زهاء خمسة آلاف شخص. وجاءت جماعة من المغول كانوا في المؤخرة وطلبوا نصيبهم في القتل العام، فأمر المغول بقتل كل من فر إلى الصحراء بعد نهبه. ثم اتخذوا طريقهم إلى نيسابور. وكانوا يقتلون كل من يجدونه ممن فروا إلى الصحراء. وظل السيد عز الدين نابه أحد كبار السادات واشتهر بالورع والفضل مع جماعة من الناس يحصون أعداد القتلى لمدة ثلاثة عشر يوماً. ومن الواضح أن القتلى في القرى والصحارى بلغ ألف ألف وثلاثمئة ألف قتيل» (جهانگشای جوینی، ج١، ص١٢٧)

واقعة نيسابور في سنة ٦١٨هـ:

تعدّ نيسابور أيضاً واحدة من مدن خراسان الأربع مثل مرو وبلخ وهرات. وفي عهد السامانيين والغزنويين، كانت المركز العسكري لسلاطين هاتين الأسرتين ومن المدن المهمة في ذلك الإقليم. وكانت تضم عدداً كبيراً من السكان، وكثيراً ما تعرضت لصدمات نتيجة للزلازل وهجمات المغيرين خاصة الغز الأتراك، لدرجة أن المدينة الكبرى الأخرى التي تعرف باسم شادياخ التي بنيت إبان الغزو المغولي إلى جوار نيسابور أصبحت تعرف في ذلك العصر بأنها مدينة نيسابور نفسها.

وفي أثناء عبور جيش جبه وسبتاي من خراسان، أعلن حاكم نيسابور من قبل خوارزمشاه استسلامه وأرسل الهدايا والمؤن للجيش، فحصل أهلها على الأمان، وتمَّ تدمير حصن المدينة بأمر قائد المغول.

وبعد فترة حين شاع خبر ظهور جلال الدين منكبرني وفتوحاته، شرع الأهالي في خراسان

وجنوب ما وراء النهر في ترميم حصون المدن وخرجوا لصد المغول. وكذلك فعل أهالي نيسابور. ودعاهم القائد العسكري المغولي في طوس للتسليم ولكنهم رفضوا دعوته؛ بل إن شباب المدن المفتوحة (حشَر) المقيمين بطوس قتلوا رئيسهم بتحريض من أهالي طوس وأرسلوا رأسه إلى نيسابور. وذهب أحد العلويين في طوس سراً إلى ولاية أُستوا (قوچان الحالية) وأبلغ أحد قادة المغول ويدعى قُشتَمور بواقعة قتل رئيس الحشَر؛ فأبلغ قشتمور قادة المغول بالواقعة وذهب بنفسه إلى طوس وقتل المتمردين.

وفي هذه الأثناء وصلت طلائع جيش تولي بقيادة تُغاجار نويان صهر جنكيزخان، وضرب حصاراً حول مدينة نيسابور في أواسط رمضان من سنة ٦١٧هـ. وفي ثالث أيام الحصار، لقي تغاجار مصرعه بسهم رماه المحاصَرون وانهزم جند المغول. وقام خليفة تغاجار وهو توركاي نويان بتقسيم ما تبقى من الجيش إلى قسمين؛ فذهب قسم إلى طوس لمساندة قشتمور، بينما ذهب القسم الآخر معه إلى سبزوار واستولوا عليها بعد قتال دام ثلاثة أيام وقُتِل فيه ما يقرب من سبعين ألف شخص.

وبعد أن تمكن تولي من فتح مرو، ذهب إلى نيسابور واستولى في طريقه على كل ضواحي طوس إلى أن بلغ نيسابور. ومع أن أهالي نيسابور ظلوا حتى ذلك الوقت يقاومون دون هوادة، فقد اضطروا في النهاية للتسليم بسبب القحط وغلاء الأعلاف وقوة جنود تولي الفائقة، وأوفدوا قاضي المدينة لمقابلة تولي؛ إلا أن الأخير لم يقبل الاستسلام بل لم يسمح للقاضي بالعودة أيضاً، وشرع في مهاجمة حصن المدينة وبواباتها.

وبعد ثلاثة أيام من القتال الشرس ومقتل الكثيرين على الجانبين، كانت الغلبة للمغول الذين تدفقوا على المدينة في العاشر من صفر ٦١٨هـ. وبدأ الأمر بقتل حاكم المدينة المسن الذي ظل يسب المغول حتى آخر أنفاسه؛ ثم قاموا بترحيل الأهالي إلى الصحراء حيث قتلوا الرجال وأسروا النساء ثم قتلوهن، بينما أقدموا على تعذيب بعض الأهالي طمعاً في المال. وظلوا يفتشون البيوت ويهدمون المباني لمدة خمسة عشر يوماً. ولما كان بعض المصابين في مرو يختبئون وسط القتلى ويفلتون من الموت، فقد أقدم المغول في نيسابور على قطع رؤوس القتلي وسووا المدينة بالأرض.

ومن أهلها من أسلموا الروح تحت الأرض حيث كانوا يختبئون في السراديب.

وذهبت ابنة جنكيز وهي زوجة تغاجار إلى نيسابور، وقام المغول بقتل كل من بقي بها بأمر منها. كما أمرت بتخريب المدينة بحيث تصلح أرضها للزراعة وألا يدعوا حتى كلاب المدينة وقططها حية. وكذلك فعل المغول حتى إنه يروى أن جنود تولي فتحوا الماء على أراضي نيسابور الخربة لمدة سبعة أيام وزرعوها بالشعير.

وبعد تخريب تولي لنيسابور، ولّى عليها أحد أمرائه وترك معه أربعمئة من الحشَر ليقتلوا من يجدونه حياً في المدينة، ومضى إلى هرات. وبلغ عدد ضحايا نيسابور ١٧٤٨٠٠٠ قتيل (انظر معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج٤، ص٨٥٨-٨٥٩).

وقام المغول بتدمير ضواحي طوس ضمن تخريبهم لنيسابور. كما أغاروا على مدينة مشهد الحالية التي تضم ضريح علي بن موسي الرضا وقبر هارون الرشيد، وهدموا عمائرها، ثم اتخذوا طريقهم صوب هرات.

فتح هرات في سنة ٦١٨هـ:

بعد مذبحة نيسابور، ذهب تولي إلى هرات وأوفد أحد أقاربه إلى تلك المدينة يدعو أهلها للدخول في طاعته وطلب من قاضي المدينة وخطيبها وحاكمها وأعيانها استقباله. وكان والي هرات في ذلك الوقت هو ملك شمس الدين الجوزجاني؛ وقد عدّ الإذعان لطاعة المغول عاراً؛ وقتل رسول تولي وأعد العدة للدفاع عن المدينة.

غضب تولي لقتل رسوله فضرب حصاراً حول هرات استمر لمدة سبعة أيام قُتل فيها عدد من المغول. وفي اليوم الثامن، أسلم ملك شمس الدين الروح على أثر ضربة سهم. وأدت وفاته إلى انقسام أهل هرات؛ فوافق فريق منهم على التسليم، في حين اعترض أتباع جلال الدين منكبرني وشمس الدين لهذا الرأي. وفي النهاية، ذهب علماء المدينة وأعيانها إلى تولي وسلموه المدينة؛ فأبدى تولي رأفته ولم يقتل سوى اثني عشر ألفاً من أتباع جلال الدين. وبعد تعيين الحاكم والقائد العسكري الإقليمي غادر هرات وذهب إلى أبيه في طالقان وكان في تلك الآونة مشغولاً بحصار قلعتها.

فتح طالقان وباميان وطخارستان في سنة ٦١٩هـ:

بعد عبور جنكيزخان من معبر البنجاب وفتح ترمذ وبلخ والاستيلاء على مدن ولاية جوزجانان وهي آندْخود وميمند وفارياب، مضى نحو طالقان كما سبقت الإشارة. كانت طالقان التي تسمى طالقان خراسان أو طالقان بلخ مدينة تبعد ثلاثة منازل إلى الشرق من مرو الروذ على طريقها إلى بلخ. ولا ينبغي الخلط بينها وبين طالقان العراق وطالقان طخارستان.[٣٨] وكانت قلعة طالقان التي تعرف بنصرت كوه[٣٩] قلعة حصينة تقع على الطريق من بلخ إلى مرو. وقد دعا جنكيز أهلها للتسليم فرفضوا، فضرب حصاراً حولها.

استمر حصار قلعة نصرت كوه مدة عشرة أشهر وقتل فيه عدد كبير من جند المغول، وفي أثنائه فرغ أبناء جنكيز أي تولي وجغتاي وأقطاي من فتح كل من خراسان وخوارزم وجاءوا لمساعدة أبيهم. وفي النهاية، أقام التتار تلاً من الأحجار والأخشاب بارتفاع القلعة ونجحوا في فتحها، وقتلوا المحاصرين بها من نساء وأطفال، بينما نجح فرسانها في النجاة بأرواحهم وفروا إلى الجبال والوديان المحيطة.

وبعد فتح طالقان وهدم قلعتها، مضى جنكيز إلى باميان. وفي تلك الآونة كان جلال الدين منكبرني قد استكمل فرض سيطرته التامة على غزنة وقندهار وهرات وانتصاره على جند التتار. لذا فقد اتجه جنكيز نحو غزنة لصده. ورفض أهالي باميان الاستسلام، بل إن موتوجن بن جغتاي الذي كان عزيزاً لدى جده لقي مصرعه على أثر الإصابة بسهم في أثناء محاصرتها، فأبدى جده جنكيز إصراراً أكبر على فتحها. وبعد فتح المدينة، أمر بقتل دوابها بالإضافة إلى كل أهلها ولم يأسر منهم أحداً ولم يدع جنيناً في بطن أمه، وقلب المغول باميان رأساً على عقب، فسميت منذ ذلك الحين «ماو باليغ» أي «مدينة الشر».

وتمكّن عدد من جند جنكيز من فتح معظم مدن طخارستان أيضاً وشرعوا في محاصرة قلعتي واليان و وَلخ وكانتا من أشد قلاعها استحكاماً.

جلال الدين منكبرني:

كان السلطان جلال الدين منكبرني أكبر أبناء خوارزمشاه. ونتيجة لتأثير تركان خاتون القوي

على السلطان محمد وبغضه لأخيه الأصغر جلال الدين خوارزمشاه كما سبقت الإشارة، فقد عين أوزلاغ شاه ولياً للعهد وحرم جلال الدين وسائر أبنائه هذا الحق. وفي سنة ٦٠٩هـ، حين أطاح خوارزمشاه بدولة الغوريين واستولى على فيروزكوه وغزنين وباميان وكل سيستان، ترك حكم تلك المناطق لابنه جلال الدين. ولكن لما كان يحبه ويتوسم فيه الرشاد والعقل وكان في حاجة إليهما، فكان يصطحبه في أغلب حروبه بعد أن عيَّن شخصاً يدعى كربَر مَلك نائباً له. وكان حكم هرات في تلك الآونة في يد أمين مَلك، وولاية بيشاور في يد اختيار الدين محمد بن علي خربوست، وهو أحد زعماء الغوريين.

وعندما وصل التتار إلى أطراف هرات، قام أمين ملك، وهو ابن خال جلال الدين، بإخلاء المدينة تحاشياً لمواجهة جحافلهم، واتجه صوب سيوستان وهي من ولايات السند وشرع في فتح مدنها، وفي أثناء فتوحاته استدعى كربر ملك أيضاً لمساعدته. واغتنم اختيار الدين خربوست حاكم بيشاور فرصة غياب كربر ملك، وخرج إلى غزنين للاستيلاء عليها. فتمكن من خداع صلاح الدين محمد النسَائي محافظ قلعة غزنين من قبل جلال الدين واستولى على المدينة. وفي ذلك الوقت، كان شمس الملك شهاب الدين إلپ وزير جلال الدين في المدينة. وحين بلغ هذا النبأ أمين ملك، اتجه إلى غزنة وعرض على اختيار الدين الاتحاد في مواجهة المغول، إلا أن اختيار الدين رفض عرضه وقال: «نحن قوم غوريون وأنتم أتراك والتعايش بين هاتين الطائفتين صعب». ووجه كل من صلاح الدين محافظ القلعة وشمس ملك الدعوة لوزير خربوست للنزول ضيفاً عليهما وقتلاه. وقبل أن يعلم جنوده بهذه الواقعة قاما بتشتيتهم واستوليا على قلعة المدينة. وبعد ثلاثة أيام أخر وحين وصل أمين ملك وضعوها تحت إمرته واستولى أمين ملك على غزنة.

وكان جنكيز في ذلك الوقت مشغولاً بمحاصرة طالقان وكان كل جيشه معه إلا قليلاً. وأنزل أمين ملك الهزيمة بجماعة من المغول لا يزيد عددهم عن الفين أو ثلاثة آلاف جندي، وترك صلاح الدين المحافظ في غزنة وخرج يطارد فلولهم، كما قام بسجن الوزير شمس الملك في إحدى القلاع.

وفي غياب أمين ملك أقدم أهالي غزنة على قتل صلاح الدين واستولى الأخوان اللذان جاءا من ترمذ ويدعى أحدهما رضي الملك والآخر عمدة الملك على المدينة وتولى رضي الملك حكم غزنين.

واجتمعت جماعة من التركمان والترك بقيادة سيف الدين أغراق مَلك في بيشاور، وقد أراد رضي الملك أن يهزمهم فانهزم. وفي تلك الأثناء، أقدم أعظم مَلك بن عماد الدين والي بلخ السابق ومَلك شير حاكم كابل على غزو غزنة واغتصباها من عمدة الملك شقيق رضي الملك وأقاما بها.

اتجه السلطان جلال الدين إلى هرات بعد مناوشات مع المغول على حدود نيسابور في أواخر سنة ٦١٧هـ؛ وفي الطريق، قام بإنقاذ شمس الملك من سجنه وأرسله إلى غزنة، ودخل المدينة في أوائل سنة ٦١٨هـ، وتزامن دخوله إليها مع عودة أمين ملك. خرج أمين ملك في حشد بلغ ثلاثين ألفاً لاستقبال جلال الدين، وقدم له كل من سيف الدين أغراق وأعظم ملك ومظفر ملك زعيم الأفغان وقائد أتراك القرلق جيشاً يقترب من هذا العدد. وتزوج جلال الدين ابنة أمين ملك.

موقعة پروان وفتح جلال الدين:

بعد أن تدبر السلطان جلال الدين أمره مع جيشه المختلط من مختلف طوائف الترك والأفغان والغوريين والخلج والقرلق، خرج إلى پروان (وهي من المدن الواقعة بين غزنة وباميان بالقرب من غزنين ومنبع نهر لوكر) وعسكر بجيشه فيها. وحين علم أن جماعة من المغول في طخارستان يحاصرون قلعة واليان، شن هجوماً عليهم وقتل منهم ما يقرب من ألف جندي وهزم بقيتهم؛ وعبرت فلولهم نهر جيحون ودمروا الجسر من ورائهم ومضوا إلى جنكيز وأطلعوه على تفاصيل الواقعة.

عاد جلال الدين إلى پروان، وجرد جنكيز حملة إلى پروان لصده بجيش يتراوح عدده حسب رواية المؤرخين ما بين ثلاثين ألفاً وخمسة وأربعين ألف جندي بقيادة قوتوقو نويان. ودارت رحى الحرب بين جلال الدين وقوتوقو نويان على بعد فرسخ من پروان. وأعطى جلال الدين ميمنة الجيش لأمين ملك، والميسرة لسيف الدين أغراق واتخذ هو موقعه في قلب الجيش، وأمر جنوده بالترجل عن جيادهم وبقتال المغول مترجلين. واستمر القتال لمدة يومين؛ مر اليوم الأول دون رجحان كفة أي من الطرفين؛ وفي اليوم الآخر أمر قوتوقو كلاً من جند المغول بصنع تمثال يشبهه ويجلسه على جواده بغرض إيهام جنود جلال الدين بأن المغول قد وصلتهم إمدادات فيلوذون بالفرار. وكادت

الحيلة أن تنطلي على جيش جلال الدين، إلا أنه صمد فاستمد جنوده روحاً قتالية عالية من صموده فأنزلوا الهزيمة بقوتوقو. ثم أصدر أمراً إلى جنوده بركوب جيادهم وتعقب فلول المغول، واتجه قوتوقو المهزوم إلى جنكيز.

وساد الفرح كل البلاد نتيجة لهذا النصر الذي حققه المسلمون. وبعد أنْ بلغت أنباء هذا الفتح خراسان وجنوب ما وراء النهر، ثار الأهالي في العديد من مدنها وقتلوا رؤساء الشرطة المغول فيها. وكان من أوائل نتائج هذا النصر أن فك المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة ولخ بطخارستان الحصار ولاذوا بالفرار.

وبعد فتح پروان، دب النزاع بين قواد جلال الدين حول تقسيم الغنائم؛ ووقع الخلاف بين أتباع السلطان وأمين ملك (الخوارزميون وجيش الترك) وجماعة سيف الدين أغراق وأعظم ملك (طائفة الخلج والترك والغوريين). وحين دب الخلاف بين سيف الدين وأمين ملك حول أحد جياد المغول ووجه أمين ملك ضربة بالسوط على رأس سيف الدين بينما لم يتدخل جلال الدين للتحقيق في الأمر، اتخذ كل من سيف الدين وأعظم ملك ومظفر ملك طريقهم إلى بيشاور. وبذل السلطان جهوداً لاسترضائهم دون جدوى. وفي النهاية، عاد جلال الدين إلى غزنة، ونشب القتال بين أتباع كل من سيف الدين وأعظم ملك ومظفر ملك على مشارف بيشاور، وفي غضون ثلاثة أشهر، كان كل فريق قد قتل قائد الفريق الآخر، وجاء المغول وأجهزوا على من تبقى منهم.

وفي ذلك الوقت، كان جنكيزخان قد فرغ من محاصرة طالقان وقلعة نصرت كوه، وحين بلغه نبأ فتح جلال الدين في پروان، اتجه إلى غزنين عن طريق باميان.

حرب السند في الثامن من شوال ٦١٨هـ:

لم تكن لجلال الدين القدرة على منازلة جند جنكيز؛ لذا فقد أخلى غزنين وقرر عبور نهر السند وإعادة سيف الدين أغراق وغيره من قادة الجيش المتناحرين، إلا أن جنكيزخان كان أسرع منه فجرد إليه فرقة من جيشه التقت جلال الدين في جرديز على بعد منزل إلى الشرق من غزنين. وتمكن جلال الدين من هزيمة هذه الفرقة ومضى إلى ضفاف السند. وبعد خمسة عشر يوماً من

إخلاء جلال الدين لغزنين، دخلها جنكيزخان؛ وبعد تعيين حاكم عليها من قبله سارع في أعقاب السلطان على ضفاف نهر السند.

كان جلال الدين بصدد إعداد سفن لعبور السند حين باغته جيش جنكيز حيث قامت طلائعه بمهاجمة فرقة من جيشه بقيادة أورخان وألحقت بهم الهزيمة. ومع أن جلال الدين كان قد أوفد بعض رجاله لإعداد السفينة، فإن الوقت لم يكن كافياً لوصول عدد كافٍ من السفن التي تصلح للعبور؛ فلم تصله سوى سفينة واحدة خصصها السلطان لعبور أمه وحريمه. ولكن حتى هذه السفينة الوحيدة حطمتها الأمواج واستحال عبور النهر.

ولحق جيش جنكيز بأتباع جلال الدين بجوار نهر السند بالقرب من معبر نيلاب. وأبدى السلطان جلداً وصموداً كبيراً وأنزل الهزيمة بقلب جيش جنكيز، إلا أن عدداً من قواد جنكيز تمكنوا من ضرب ميمنة جيش السلطان بقيادة أمين ملك وأسروا ابن جلال الدين الذي كان في الثامنة من عمره وقتلوه بأمر من جنكيز. وهنا طلبت والدة السلطان وجماعة من حريمه من جلال الدين وهن يبكين أن يقتلهن حتى لا يقعن أسيرات في يد جنكيز؛ فأمر السلطان بإغراقهن في مياه السند. كما قرر أمين ملك الفرار ومضى إلى بيشاور حيث لقي مصرعه على يد جماعة من المغول.

ظل جلال الدين يقاتل التتار مع سبعمئة من رفاقه لفترة من الزمن. وحين أدرك ألا طاقة له على الصمود هجم بجنوده وجيادهم على مقدمة جيش جنكيز. وما إن تمكن من ردهم إلى الوراء قليلاً حتى ألقى بنفسه في مياه السند وعبر سالماً إلى أراضي الهند.

وقتل جنكيزخان كل من تبقى من جيش جلال الدين ومن أسرة السلطان قتل الأطفال والذكور، ولم تأخذه الشفقة بطفل رضيع، وأسر من تبقى من حريم السلطان وأرسلهن إلى منغوليا، وأصدر أمراً بنزول الغواصين إلى مياه نهر السند وإخراج الأموال والنفائس التي كان قد تم إغراقها في النهر بأمر من جلال الدين. وترك ولديه أقطاي وجغتاي في هذه النواحي لكي يصدوا السلطان إن عاد، بينما عاد هو إلى ضفاف جيحون.

آثار ظهور السلطان جلال الدين:

حين ظهر السلطان جلال الدين في شرق إيران وظل يقاتل المغول، خاصة بعد انتشار نبأ النصر

الذي حققه في پروان، بدأ أهالي خراسان وجنوب ما وراء النهر في عصيان أوامر المغول على أمل انتصاره عليهم، فقتلوا العديد من ولاتهم ورؤساء شرطتهم. ففي مرو، خرج حاكمها ضياء الدين علي إلى سرخس لقمع الثورة التي هبّت فيها، واتجه برماس القائد العسكري الإقليمي المغولي مع جماعة من الحرفيين الأسرى إلى بخارى، ظن الأهالي أن الحاكم والقائد العسكري الإقليمي قد لاذا بالفرار خوفاً من السلطان جلال الدين، فثاروا. وطالبهم برماس بالطاعة فرفضوا، وعصوا أوامر ضياء الدين علي بعد أن عاد من سرخس أيضاً. وفي هذه الأثناء، جاء كوج تكين پهلوان الذي كان من قواد جيش جلال الدين مع حشد كبير إلى مرو وضربوا حصاراً حولها، فلم يجد ضياء الدين علي ورجاله من المغول سبيلاً سوى مغادرة المدينة وتسليمها. إلا أن كوج تكين دعا ضياء الدين إلى المدينة طمعاً في الحصول على الأموال الديوانية؛ ولما لم يحصل منه على شيء أمر بقتله، فتأججت نار الثورة.

وفي هذا الوقت نفسه، جاء قراچه نويان قائد المغول إلى سرخس، فلاذ كوج تكين وألف من أنصاره بالفرار، فتعقبه قواد آخرون من جيش جنكيز مع عدد كبير من الجنود ولحقوا به وعادوا إلى قتل من تبقى من أهالي مرو، كما أتوا على ما تبقى من المساجد والمباني. ولما عادوا إلى الظن بأن بعضاً من الأهالي لايزالون أحياء مختبئين، فقد أمروا أحد المؤذنين برفع الأذان. ونجحت الحيلة وخرجت جماعة من الناس من الشقوق فقتلوهم. واستمر ذبح الأهالي وتخريب المنشآت لمدة واحد وأربعين يوماً.

وبعد عودة المغول، جاء أحد الأمراء إلى مرو وجمع من حوله جماعة من التركمان، فاجتمع له ما يقرب من عشرة آلاف شخص في تلك المدينة الخراب. وظل هذا الأمير يوجه ضربات موجعة للمغول حول مرو الروذ وپنجده وطالقان ويغير على جيادهم ومؤنهم لمدة ستة أشهر. وعاد قراچه نويان مرة أخرى من طالقان إلى مرو، وجاء في أثره قوتوقو نويان. وفي هذه المرة، قام جند جنكيز بقتل سكان مرو بالتعذيب والحرق والتمثيل بالجثث وعملوا على منع وصول الأغذية الكافية إلى عاصمة سنجر. ويروى أن «مرو قد تحولت إلى قفار ليس بها ظل يكفي لحيوان بري أن يستريح فيه إلى أن قام السلطان شاهرخ بن الأمير تيمور جوركان بإعادة إعمارها».(٤٠)

وفي هرات أيضاً، ثار الأهالي وقتلوا الحاكم والقائد العسكري الإقليمي المغولي وولوا عليهم ملك مبارز الدين سبزواري. وحين بلغ جنكيز نبأ هذه الواقعة، كتب إلى ابنه تولي قائلاً: «لو كنتَ قد أقمت مذبحة جماعية لأهالي هرات لما نشبت هذه الفتنة». ثم اتخذ إيلچيكداي نويان(٤١) طريقه مع ثمانين ألف جندي إلى هرات وأمر بعدم ترك أحد من أهلها حياً وبإرسال إمدادات من الجند من خراسان. وأغار جند المغول في چهار ستون على هرات، وبعد ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، استولى إيلچيكداي نويان على المدينة في جمادى الأخرى ٦١٩هـ، ودمروها عن آخرها وذبحوا كل من صادفوه من أهلها.

«أبدى الهرويون ثباتاً في مقام الحرب والقتال وبذل الفريقان غاية الجهد والتضحيات لمدة ستة أشهر وسبعة عشر يوماً. وفي شهور سنة ٦١٩هـ، شن إيلچيكداي غارات رهيبة لعدة أيام متوالية؛ وفي كل غارة قُتل ما يقرب من خمسة آلاف جندي من جيشه أو جرحوا. ومن كثرة الأحجار والمجانيق تفتت جدار القلعة وتهدمت قواعد البروج؛ وذات يوم تهدم خمسون ألف ذراع من الجدران وتم نقلها على ظهور الحمر. وفنى أربعمئة من كبار رجال التتار. وبعد هذه الموقعة بثلاثة أيام وبسبب قلة الذخيرة بدأ اختلاف الآراء يشق صفوف الهرويين. وفي صباح يوم جمعة من شهر جمادى الأخرى من السنة المذكورة، استولى إيلچيكداي نويان على المدينة من برج خاك برسر الذي يعرف حالياً باسم خاكستر وولّى أهالي تلك الديار الأدبار وفصلت السيوف البتارة عروق الحياة في كل رجل وامرأة وفي كل شيخ وشاب، ولم يكن لهذا الجيش من عمل سوى القتل والهدم والاقتلاع والحرق، واستشهد من الهرويين أكثر من مليون وستمئة ألف. وحينئذ، اتجه إيلچيكداي إلى أطراف ولاية هرات. وحين وصل إلى قصبة أوبة عاد ألفان من جند المغول إلى هرات لقتل كل من خرج من مكمنه، وأعاد هؤلاء الجنود الكرة في تلك البلدة حيث قتلوا ثلاثة آلاف آخرين من الأهالي، ولم يبق حياً في هرات سوى ستة عشر شخصاً منهم مولانا شرف الدين خطيب قرية جفرتان، وكان قد اختبأ في ثقب بقبة المسجد الجامع. وقد ورد في تاريخ هرات أنه حين خلت البلدة من جيش المغول، خرج أحد هؤلاء الناجين الستة عشر من المسجد وجلس على مائدة دكان لبيع الحلوى في السوق وأخذ يتلفت حوله فلم ير أحداً. فحك لحيته وطأطأ رأسه وقال الحمد لله

أننا قد وجدنا لحظة فراغ. ثم انضم أربعة وعشرون شخصاً من الولايات المجاورة إلى هؤلاء الستة عشر، ولم يكن بهذه البلدة العامرة غير هؤلاء الأربعين شخصاً ولمدة خمس عشرة سنة. وقد عاشوا داخل المسجد الجامع الذي كان ضريح السلطان غياث الدين يأكلون لحم القتلى، وكانوا يدورون على مخازن البيوت وحظائر الخيل يلتقطون ما يجدونه من القمح والشعير حبة بحبة إلى أن جمعوا قدراً من الغلال وزرعوا قطعة من الأرض. وفي السنة التالية وفي موسم الحصاد حصل كل منهم على حفنة من القمح والشعير. وقد ولّى هؤلاء الأربعون مولانا شرف الدين الخطيب المشار إليه حاكماً عليهم. وقد عاشوا في ضنك إلى أن شرع أقطاي قاآن بن جنكيزخان في إعادة إعمار هذه المدينة العامرة. فأرسل الأمير عز الدين المقدم[٤٢] وبعضاً آخر من الناس إليها وأمر بإعمار تلك الخطة» (حبيب السير، ج٣، ص٢٦)

وسرعان ما خمدت فورة أهالي مدن ما وراء النهر بعد تدمير مرو وهرات ونيسابور، خاصة أن ثورة الأهالي في مناطق كخراسان لم تتخذ طابع الثورة العامة، بل كانت حفنة من المشاغبين تهاجم بعض جند المغول ويحصلون على بعض الغنائم. وفي سمرقند وحدها أقدم المتمردون في أوائل سنة ٦١٩هـ على تخريب جسر جيحون وقطعوا الطريق الذي يربط المدينة بالخارج. ولكن بمجرد وصول جغتاي إلى تلك المدينة، قمع المتمردين وأعاد بناء جسر جيحون وأعاد الارتباط بين ضفتي النهر.

عودة جنكيز إلى منغوليا في سنة ٦١٩هـ:

بعد فرار السلطان جلال الدين إلى الهند، أرسل جنكيز ابنه أقطاي إلى غزنين، وعلى الرغم من موافقة الأهالي على التسليم فقد أمر بترحيلهم جميعاً إلى الصحراء ربما نتيجة لحركة عصيان، وقتلهم جميعاً عدا الحرفيين وخرَّب غزنة ثم ترك قوتوقو نويان بها وعاد عن طريق هرات. وظل جنكيز يطارد فلول جيوش أعظم ملك وسيف الدين أغراق لمدة ثلاثة أشهر على حدود بيشاور وولاية البنجاب؛ ثم ذهب من بيشاور إلى كابل وحدود جيحون. وبعد قضاء الصيف على حدود باميان، عبر ذلك النهر في الخريف متجهاً إلى سمرقند. وكان سبب هذه العودة يرجع للثورة التي نشبت في الصين الشمالية والتبت وكان الأمر يستدعي حضور جنكيز.

«في أثناء إقامة جنكيز على ضفاف السند، مرض معظم الحشم بسبب رطوبة الجو وانهارت قوة الجيش، وكان معهم كثير من الأسرى؛ كما أخذوا الكثير من الهنود كرقيق في تلك النواحي. فكان في كل بيت عشرة من الأسرى أو عشرون، وكان المناخ ملائماً بالنسبة للأسرى. وأمر جنكيزخان بأن يكلف كل أسير في كل بيت بتبييض أربعمئة من الأرز. وقد فرغوا من ذلك في خلال أسبوع. ثم قتلوا كل أسير معهم، ولم يبق لهؤلاء المساكين من الأسرى والهنود من أثر. ثم أرسلوا المبعوثين إلى البلاد المجاورة يدعونهم للتسليم. فأرسل مبعوثاً إلى الرانا[٤٣] الذي قبل التسليم في بادئ الأمر، ولكنه لم يثبت عليه. فجرد جيشاً اعتقله وقتله. وأرسل الجيش لمحاصرة أتباع أغراق والقلعة التي يتحصنون فيها. وبعد أن استرد الجنود عافيتهم، قرر جنكيزخان العودة عن طريق الهند إلى بلاد تنجوت. وقطع عدة منازل ولكنه لم يعثر على طريق، فعاد وذهب إلى فرشاور (بيشاور) وعاد من الطريق الذي أتى منه» (جهانگشاى جوينى، ج١، ص١٠٨-١٠٩)

في أثناء عودة جنكيز باتجاه نهر جيحون، كلّف ابنه الآخر جغتاي بفتح ولايتي مكران والسند. فأغار جغتاي على الولايتين المذكورتين كما فعل أقطاي، وأنزل الأخوان الدمار ببلاد غزنين والسند وكرمان ومكران بحيث لا يجد جلال الدين أسباب الحياة لجيشه إن عاد. وبعد تخريب تلك المناطق، اتخذ كل من أقطاي وجغتاي طريقهما إلى ما وراء النهر أيضاً، ووصلا إلى بخارى في شتاء ٦١٩هـ، وأمضيا ذلك الفصل بجوار نهر زرافشان بغرض الراحة والصيد. وفي ذلك الوقت استدعى جنكيز ابنه الثالث جوجي الذي كان في صحراء قبچاق إذ كان جنكيز يريد أن يذهب مع أبنائه إلى ضفاف نهر سيحون للصيد وأن يتناقش معهم ضمن ذلك في شؤون مصالح الممالك المفتوحة. فقد مرض جنكيز بعد عودته من ضفاف السند نتيجة لسوء المناخ في تلك النواحي، واشتد عليه المرض يوماً بعد يوم وأحس بدنو أجله.

انضم كل من أقطاي وجغتاي إلى جيش أبيهما على ضفاف سيحون حيث عقد جنكيز في ربيع ٦٢٠هـ ما يعرف في المغولية باسم «قوريلتا» (مجلس للشورى) مع أبنائه. وفي صحراء قُلان باشي (شمال جبال الكسندروفسكي وغرب بحيرة إيسي جول) وصل جوجي ومعه مئة ألف جواد هدية لأبيه.

قضى جنكيزخان الصيف في مخيم قُلان باشي. وبعد انتهاء المجلس الموسع الذي عقده مع أبنائه عاد جوجي إلى صحراء قبجاق. وبعد قتل عدد من زعماء الأويغور المتمردين في ذي الحجة ٦٢١هـ، عاد مع أبنائه جميعاً عدا جوجي إلى معسكر الأسرة الأصلي حول نهر كيرولين وأُنُن.

« أرسل جنكيزخان مبعوثاً من سمرقند إلى جوجي في صحراء قبجاق، فبعد فتح خوارزم عزم على الذهاب إلى تلك النواحي بسبب العداء البسيط الذي كان يكنه لأخيه جغتاي. وهناك، قضى وقته في الصيد. وكانت فحوى رسالة جنكيز إلى جوجي ضرورة حضوره بحشمه وأتباعه من موضعه حتى يرتادوا الصحراء الشاسعة للصيد. وكان كل من أقطاي وجغتاي منشغلين بالصيد في شتاء ذلك العام، وكانا يرسلان خمسين حملاً[٤٤] من البجع كل أسبوع. وبعد انقضاء الشتاء وفي أوائل الربيع، اتخذ جنكيز طريقه من سمرقند إلى تركستان. وبعد عبوره نهر سيحون لحق به كل من أقطاي وجغتاي. وحين بلغا موضعاً معيناً، صف جوجي قواته في دائرة، وعند موضع آقا بركة حيث اكتملت الدائرة، هجم جنكيز أولاً وحصل على صيد وفير. وعندما فرغ الأمراء من الصيد ذبحوا بعضها ووسموا أفخاذ بقيتها بالأختام وأطلقوها. وحين فرغوا من الصيد مَثَلَ جوجي بين يدي أبيه جاثياً على ركبتيه وقبل قدميه وعانق إخوانه وسأل عن أحوالهم بحرارة وقدم الهدايا الكثيرة لأبيه ومنها مئة ألف جواد، عشرون ألفاً منها بلون واحد. وقضوا الصيف في ذلك المكان. وحين اجتمع الأمراء من كل صوب وحدب، عقد جنكيز مجلساً موسعاً عرض فيه كل منهم أحواله تفصيلاً أمام العناية الملكية. ثم أذن لجوجي بالذهاب إلى صحراء قبجاق. ثم خرج جنكيز نفسه؛ وبعد أن قطع عدة منازل ومراحل وصل إلى معسكره في شهر ذي الحجة ٦٢١هـ. وسعد برؤية حريمه وأبنائه بعد سبع سنوات. ويقال إن جنكيزخان حين بلغ منزله، كان هولاكوخان لايزال في التاسعة من عمره، بينما كان قوبلا قاآن في العاشرة. وقد أسرع كلاهما لاستقباله. وفي الطريق قام قوبلا قاآن باصطياد أرنب واصطاد هولاكو غزالاً. وكانت عادة المغول بعد أول صيد يقوم به الطفل أن يتم دهن إبهامه بالزيت. وقد قام جنكيزخان بدهن إبهام حفيديه بيده ثم أقام الولائم وأمضى الشتاء في عيش وسرور » (تاريخ ألفي، وقائع سنة ٦٢١هـ).

وفاة جوجي وجنكيز في سنة ٦٢٤هـ:

بعد وصول جنكيز إلى معسكر أجداده، بلغه نبأ عصيان ملك ولاية تنجغوت (تنجت) الواقعة في شمال التبت، فقرر تجريد حملة إليه. وبعد إعداد العدة اتجه بجيشه إلى هناك. وكانت نتيجة هذه الحرب الضروس هزيمة ملك تلك الولاية وقتل عدد كبير من قواته. ولكن سرعان ما اشتد المرض على جنكيز وتوفي في رمضان ٦٢٤هـ في سن الثانية والسبعين وأراح الدنيا من الخوف والعذاب.

وبعد وفاة جنكيز بستة أشهر، لحق به ابنه الأكبر جوجي (توشي) في صحراء قبچاق. وهناك روايتان عن موته. فقد أورد بعض المؤرخين[٤٥] أن جوجي كان أقوم نفساً من أبيه ولم يقدم كثيراً على القتل والتخريب في البلاد وكان يصف أباه بالجنون بسبب ما يرتكبه من قتل ودمار. بل إنه اتفق ذات مرة مع المسلمين على اغتيال جنكيز، ولكن أخاه جغتاي علم بالمكيدة وأبلغ والده، فدس له جنكيز السم سراً. ويذهب بعض آخر من المؤرخين[٤٦] إلى أن جنكيز كان سيئ الظن بجوجي، وبعد عودته إلى منغوليا استدعاه، إلا أن جوجي تعلل بالمرض واعتذر عن الحضور. وفي الوقت نفسه جاء أحد أهالي تنجغوت من صحراء قبچاق إلى منغوليا وأبلغ جنكيز بأنه رأى جوجي في رحلة صيد وأنه كان سليماً معافى . فأرسل جنكيز كلاً من أقطاي وجغتاي للإطاحة بأخيهما. ولكن قبل وصولهما بلغه نبأ وفاة جوجي.

على أي الأحوال، لا جدال في وجود قدر من الخصومة بين جوجي وجنكيز وجغتاي، فقد كان الابن الأكبر جوجي يريد أن يقيم دولة مستقلة حول بحر الخزر وأن يضم إليها خراسان ومازندران والولايات الشمالية من إيران والتي لم يكن كل من جبه وسبتاي قد استوليا عليها، وألا يخضع لسيطرة أحد، وهو ما أثار حنق أبيه وإخوته ضده.

« وحانت الفرصة لأهالي مرجيت التي تعرف أيضاً باسم مجريت فأغاروا على معسكر جنكيز وأسروا زوجته التي كانت حاملاً وأرسلوها إلى أُوَنك خان فأشفق عليها، وحين عاد جنكيزخان إلى معسكره أعادها إليه. وبعد عدة أيام أنجبت ولداً أسماه جوجي أي « الضيف الجديد »، وكان أكبر أبناء جنكيز. وقد تدرج في الشباب والعنفوان، فولاه جنكيز ولاية خوارزم وصحراء قبچاق والآلان

وآس وروسيا وبلغاريا وتوابعها. وتصاعدت حدة العداء بين جوجي وكل من جغتاي وأقطاي، فقد كان الأخيران يطعنان في نسبه بناء على القصة المشار إليها» (حبيب السير، ج٣، ص٤٣)

حواشي

١- وهم احمد خُجندي وعبدالله بن الأمير حسن جَندي واحمد بالجيج.

٢- برئاسة محمود الخوارزمي وعلى خواجه بخارائي ويوسف أُتراري.

٣- أترار اسم اطلقه المسلمون على مدينة فاراب قبل غزو المغول، وتقع اطلال هذه المدينة حالياً على الضفة الغربية من نهر سيحون على بعد تسعة فراسخ إلى الجنوب الشرقي من مدينة تركستان.

٤- ربما كان ابن شقيق تركان خاتون.

٥- يذهب بعض المؤرخين إلى ان الامر بقتل التجار المغول صدر عن خوارزمشاه نفسه. على اية حال فمسؤوليته عن هذا الأمر واضحة.

٦- باسم ابن كَفرَج بُغرا.

٧- كان الإمام شهاب الدين ابو أسعد بن عمر خيوقي من فقهاء خوارزم المعروفين. وكان قد فر من خوارزم إبان فتنة المغول ولجأ إلى مدينة نَسا في خراسان، إلا انه قُتل على أيديهم بها في سنة ٦١٨هـ.

٨- يقول محمد بن احمد النَسَوي مؤلف سيرة جلال الدين منكبرني إن هذا الشخص كان النائب الشخصي في أُترار ويسمى صفي الاقرع الذي تولّى وزارة الخوارزمشاهية في بلاد الترك، وأن خوارزمشاه أمر بقتل أبيه سعد وعمه منصور اللذين كانا قاضيين في اترار وجماعة من إخوته وأبناء عمومته.

٩- ورد هذا الاسم بثلاثة صور مختلفة عند مؤرخي العصر المغولي: چينگگز، چنگز، چنگيز. وقد اخترنا هنا الصورة الشائعة من الاسم.

١٠- وهي تعني الجيش غير النظامي او المرتزقة. وكانت تستخدم في العصر المغولي بمعني الأفراد المعاونين الذين يساعدون في الأعمال العسكرية كردم الخنادق وحمل الاحجار والخشب لردم الأنهار وتخريب القلاع.

١١- «بهادُر» تعني «مجاهد».

١٢- سُبُتاي أو سُودَه أو سُبُداي أو سُوبُداي.

١٣- ظلت قلعة مدينة بخارى بجنودها الأربعمئة صامدة تقاوم لمدة اثني عشر يوماً، وفتحها المغول يوم عيد الأضحى من سنة ٦١٦هـ.

١٤- اين كه مي بينم بيداريست يارب يا بخواب، وهو مصراع من بيت شعر للشاعر انوري، ومصراعه الآخر هو: خويشتن را در چنين نعمت پس از چندين عذاب (أن أرى نفسي في هذه النعم بعد كثير من العذاب).

١٥- الإمام ركن الدين إمام زاده وابنه بعد ان رأيا تعدي المغول على مقدسات أهالي بخارى لم يتحملوا المشهد فقاتلا

جنود المغول واستشهدا ومعهما عدد من كبار رجال المدينة منهم قاضي بخارى ومجد الدين مسعود بن صالح شقيق نظام الملك وزير خوارزمشاه ومجد الدين مسعود خطيب بخارى وإمام الحنفية بالمدينة، وكان خوارزمشاه قبل سفره إلى العراق قد عينه في هذا المنصب بدلاً من الإمام برهان الدين محمد صدر جهان.

١٦- من أعمال سمرقند على بعد خمسة فراسخ من رَبنجَن.

١٧- وكان عددهم يتراوح بين عشرين ألفاً وخمسين ألفاً باختلاف روايات المؤرخين.

١٨- كانت أوزجند من المدن التابعة لولاية جند، وهي غير مدينة أوزجند المعروفة التابعة لولاية فرغانة.

١٩- چين تيمور أو جندَمور أو جن دَمر.

٢٠ -وتقع بالقرب من نَسا على أطراف قفار خوارزم الجنوبية، وهي مسقط رأس محمد بن عبدالكريم الشهرستاني مؤلف الملل والنحل.

٢١- جيحون في هذا الموضع بالمعنى المطلق للنهر. فجيحون خجند تعني نهر سيحون.

٢٢- جَبَه أو يَمَه.

٢٣- تُغاجار أو تُوقَجَر أو تُقَجار.

٢٤- يذكر مؤرخو تاريخ المغول اسم هذا الشخص باشكال مختلفة: أمين المُلك، يمين مَلك، يمين المُلك، امين مَلك.

٢٥- بوشَنج أو فوشَنج أو پوشنگ، من قرى جنوب غربي هرات على الضفة اليسرى من نهر هريرود مكان غوريان الحالية.

٢٦- ورد لدى معظم المؤرخين أن القائد المغولي الذي لقي مصرعه في تلك الواقعة هو تغاجار نفسه؛ إلا أن الثابت من واقع الوثائق المغولية أنه لم يكن تغاجار؛ فقد قتل الأخير الذي كان صهراً لجنكيز أيضاً في موقعة نيسابور.

٢٧- من القلاع الحصينة بين دماوند ومازندران على بعد ثلاثة أيام من الري.

٢٨- فرزين إحدى قلاع الكرج، وكانت الكرج مدينة على بعد ثلاثين فرسخاً جنوب شرقي همدان بالقرب من سلطان آباد الحالية.

٢٩- ولاية بجنوب مستنقع أستراباد وكانت تقع مكان ولاية أشرف الحالية.

٣٠- عند مصب نهر جاجان وعلى بعد ثلاثة أيام من مدينة جرجان القديمة، ولم يبق منها أثر حالياً.

٣١- كان جلال الدين يريد أن ينشئ مدرسة في أصفهان وينقل إليها رفات أبيه.

٣٢- الشاعر ورئيس دار إنشاء السلطان علاء الدين تكش خوارزمشاه (٥٦٨-٥٩٦هـ) والد السلطان محمد خوارزمشاه، والذي تعرف مجموعة منشآته بعنوان التوسل إلى الترسل (توفي بعد ٥٨٨هـ).

٣٣- وكان يعمل بالتدريس في خمس من مدارس خوارزم. وأنشأ في إحدي هذه المدارس مكتبة عظيمة يقول النسوي عنها «لم أر قبلها أو بعدها مثيلاً لها». وحين فر هارباً من خوارزم، حمل معه بعضاً من أقيم كتبها، إلا أن هذه الكتب وقعت في أيدي العوام بعد مقتله، وقام النسوي بجمع بعضها من أيدي الناس (سيرة جلال الدين، ص٤٨-٤٩).

٣٤- ومن مشاهير هذه الجماعة التي يبلغ عدد أفرادها اثني عشر من الأمراء والأعيان والسادات ولدا طغرل السلجوقي،

وعماد الدين صاحب بلخ، وبهرامشاه صاحب ترمذ، وعلاء الدين صاحب باميان، وجمال الدين عمر صاحب وخش، وولدا أمير سقناق وبرهان الدين محمد صدرجهان وشقيقه افتخار جهان وولداه ملك الإسلام وعزيز الإسلام وغيرهم (النسوي، ص٣٩).

٣٥- ومعناه «جبل الأكاذيب» وذلك بسبب دأبه على الكذب.

٣٦- جهانگشاى جوينى، ج١، ص١٠١.

٣٧- كان هذا الشخص من غلمان تركان خاتون؛ وكان خوارزمشاه قد عيَّنه وزيراً له بعد عزل وزيره نظام الملك محمد بن بهاء الدين مسعود الهروي بإصرار من جانب تركان خاتون. ولكن نظراً لعدم كفايته قام خوارزمشاه بعزله بعد عودته من العراق إلى نيسابور (في أواخر ٦١٤هـ). وذهب نظام الملك ناصر الدين إلى تركان خاتون في خوارزم. وتكدرت الأخيرة تجاه خوارزمشاه وعينت نظام الملك وزيراً لاوزلاغ شاه ولي عهد خوارزمشاه. وعندما أرسل خوارزمشاه عز الدين طغرل أحد خواصه، إلى خوارزم لقتل نظام الملك والعودة برأسه، علمت تركان خاتون بالأمر وأجبرت عز الدين على تحية نظام الملك على الملا وإعلان بقائه في منصبه وزيراً من جانب خوارزم.

٣٨- لاتزال طالقان طخارستان باقية بالاسم نفسه وتقع إلى الشرق من قندوز على طريق فيض آباد.

٣٩- أو ناصر كوه أو منصور كوه.

٤٠- تاريخ ألفي.

٤١- أو إيلچكتاي.

٤٢- هو الأمير عز الدين المقدم الهروي وكان يعمل نساجاً. وحين دخل تولي إلى هرات التحق بخدمته.

٤٣- من ألقاب ملوك الهند مثل لقب «راجا». ولابد أن يكون المقصود هنا أحد حكام إقليم البنجاب.

٤٤ أي حمل حمار (خروار أو بار خر).

٤٥ منهاج سراج در طبقات ناصري، ص٣٧٩.

٤٦ رشيد الدين فضل الله في كتابه جامع التواريخ، وتتوي في تاريخ ألفي.

الفصل الثالث

سياسة جنكيز ونتائج الغزو المغولي

حكم التاريخ على جنكيزخان:

يقول مؤلف كتاب طبقات ناصري نقلاً عن ثقاة: «كان جنكيزخان حين جاء إلى خراسان رجلاً طويل القامة قوي البنية حليق الوجه أبيض البشرة وعيناه كعيني القطط، وكان يتحلى بالجلد والذكاء والعقل، وكان ذا هيبة ومحارباً عنيداً وشجاعاً ومتعطشاً للدماء».[1] وهي تقريباً الأوصاف نفسها التي وصفه بها متك هوانك سفير أباطرة الصين الجنوبية لدى المغول. وهو يثني على ضخامة بنيته وعرض جبهته وطول لحيته.

أما من ناحية الصفات الأخلاقية، فكان جنكيز رجلاً ذا عزم وعقل وتدبير وكان قادراً على ضبط النفس تماماً، وكان يبدي ثباتاً عجيباً في مواجهة المشكلات والعقبات ولم يكن يتراجع عن تحقيق هدفه، ولم يكن يعرف الاضطراب واليأس أمام الملمات، فكان يستقبل الأحداث ببرود وهدوء تامين.

وعندما كان السلطان جلال الدين منكبرني في پروان، تمكن من هزيمة قوات قوتوقو نويان، فذهب الأخير إلى جنكيز مهزوماً، فلم يخرج خان المغول عن هدوئه الطبيعي لدى سماعه خبر الهزيمة، وكل ما قاله هو أن قوتوقو نويان قد اعتاد أن يخرج من كل معاركه منتصراً وأنه لم يذق طعم الهزيمة قط، وأنه سيحتاط لنفسه بعد هذه الهزيمة.

لا شك في أن جنكيزخان يعد أحد أكثر الفاتحين الذين سجَّل التاريخ أسماءهم بطشاً وسفكاً للدماء. فما أريق من دم وما خرب من مدن بأمر منه لم يعرفه التاريخ في أي عصر من عصور الفتوحات. فلم يكن ذبح سكان مدينة بأكملها وقتل عدة ملايين من البشر وقتل النساء والأطفال والعاجزين بحركة من شفتيه يمثل أمراً صعباً عنده. ولكن ينبغي الإقرار بأن فتح كل هذه الممالك وإدارة كل تلك المنطقة المترامية الأطراف لم يكن ممكناً دون حيازة العقل والكفاءة والتدبير. ولا ينبغي أن نتصور أن جنكيز كان مجرداً من السياسة وأنه كان يجرد جيشه لمجرد عشقه لفتح البلدان

وإزهاق الأرواح؛ بل يمكن القول إن جنكيز كان فاتحاً يستحل كل قتل وتدمير وتخريب دون لحظة تأمل أو حرص في سبيل تحقيق هدفه، ولم يكن يهتم بأي شيء سوى نيل مراده.

كان كل هدف جنكيزخان في بادئ الأمر هو فتح الطريق التجاري وطريق القوافل القديم بين إيران والصين (طريق الحرير). وكان تأديبه لطوائف الأيغور والقراخطائيين والنايمان والتتار الذين سدوا الطرق وكانوا سبباً في انعدام الأمن فيها لهذا الغرض نفسه. وحين بدأ في التعامل مع الممالك الخوارزمشاهية كان يرعى كل شروط الأدب والاحترام تجاه السلطان محمد، إلا أن إقدام الأخير على الإطاحة بدولة القراخطائيين وتدمير السد الذي كان قائماً بين الممالك الإسلامية وأراضي التتار والمغول، إضافة إلى غروره وسوء مسلكه مع مبعوثي جنكيز ووهم فتح الصين وغير ذلك أدت إلى إثارة غضب خان المغول وإطلاق شرارة حملته على الممالك الإسلامية.

وقد تبدو صفة العدل التي نسبها بعض المؤرخين المنصفين المعاصرين لجنكيز غريبة لأول وهلة، إلا أنها حقيقية. فقد كان جنكيزخان رجلاً بدوياً لم يجد غير الذبح والتدمير سبيلاً للانتصار على قبائل وشعوب من بني جنسه ولا تقل عنه وحشية وسفكاً للدماء.[٢] وكان هذا هو السبيل نفسه الذي اتبعه كل جيرانه فيما بينهم. فكانت المذبحة التي أقامها السلطان محمد خوارزمشاه لأهل سمرقند في سنة ٦٠٩هـ وتنكيل جنود أبيه بأهل العراق في سنة ٥٩٠هـ والهجوم على تفليس وذبح أهلها في سنة ٦٢٣هـ على يد ابنه السلطان جلال الدين منكبرني من جنس العمل نفسه ولا فرق بينها وبين ما اقترفه المغول من جرائم من حيث الشناعة وأسلوب القتل.

كان جنكيزخان في مذابحه الجماعية يبدو كسياف تجرد من المشاعر ينفذ أحكاماً دون أن يفرق بين غني وفقير أو بين صغير وكبير أو بين رجل وامرأة أو بين مسلم وغير مسلم. ولم يكن يحيد عن العدل حتى في عمله الذميم هذا. وكان في إزهاقه للأرواح يمارس ضبط النفس إلى أقصى حد، على خلاف بعض أبنائه وبعض الفاتحين الذين عرفهم التاريخ (كتيمورلنك ونادر)، فلم يكن غضبه يدفعه لارتكاب بعض الفظائع كإخراج الأعين وقطع الآذان وجدع الأنوف وإقامة تلال من الجماجم.

يشبِّه بعض المؤرخين جنكيز بزعيم قبائل الهون، ويشبِّهون هجمات جنوده بالطوفان، ويعتبرون

تدفق المغول من قبيل الهجرة الجماعية للبدو الرحل. إلا أن استعداد جنكيز للحملة على ممالك الخوارزمشاهية وحرصه وتعقله في الأمور العسكرية والانضباط ومراجعة المستشارين وأهل الخبرة وتحريك الجيوش على وفق خطة سليمة يكذّب هذا التشبيه ويدل على أن جنكيز كان يدير كل شؤون الحملات العسكرية طبقاً لتخطيط محكم.

وكان طول عمر جنكيز وعدم فقدانه لأي من قواه البدنية والعقلية حتى الموت دليلاً على سلامته النفسية ومراعاته لجانب الاعتدال في حياته ولهوه. فكثير من خلفائه (من أمثال جغتاي وأقطاي وجيوك) انغمسوا في اللهو وجذبهم بهرج الحياة وزخرفها بعد الاختلاط بأهل الحضر في البلاد المفتوحة وسكنى المدن، فكانوا يقضون أغلب أيامهم في السكر والعربدة، في حين أن جنكيز لم يتخل عن بساطته البدوية، وكان يغضب لإفراط المغول في الشراب وكثيراً ما كان ينهرهم بسبب هذه العادة.

وكانت خشيته في قلب جيشه بلا حدود، وكان كل جنده يعتبرونه سروراً عظيماً لهم ويرون في حكمه حكماً سماوياً مقدساً ويؤمنون بانه لا ينبغي أن يكون على الأرض حاكم سواه. وكان عصيان جنكيز والخروج على أمره بمنزلة ارتكاب جرم عظيم عندهم؛ فأمر الخان عند المغول منزّل من السماء والاعتراض عليه في حكم الاعتراض على الله. وكان قتل أحد أفراد أسرة الخان يمثل إثماً عظيماً؛ لذا فقد كان محو مدينة نيسابور على يد المغول بعد مقتل تغاجار صهر جنكيز، وإبادة باميان على أثر قتل موتوجن بن جغتاي من منطلق هذه العقيدة.

«كان جنكيزخان مثالاً للعدل، فلم يكن يمكن لأحد في معسكره أن يأخذ سوطاً سقط في الطريق إلا صاحبه. ولم يكن أحد في جيشه يكذب أو يسرق. وكل امرأة يأسرونها في أرجاء خراسان وفارس لا يمسها أحد إن كانت متزوجة. ولم يكن يمكن لأحد أن يكذب، وهذا المعنى واضح. وفي شهور سنة ٦١٨هـ عاد كاتب طبقات منهاج سراج من تمران إلى غور ورأى الملك حسام الدين حسن عبدالملك في قلعة سنكه؛ وفجاة عاد أخوه الملك تاج الدين حبشي عبدالملك الذي كان يلقب بخسرو غور[٣] من طالقان إلى غور بإذن من جنكيزخان. وقد سمعنا هذه الحكاية منه، فقال: عندما خرجنا من عند جنكيزخان وجلسنا في الحظيرة مع الحاجب الذي كنت قد

أتيت معه وعدد من الأمراء الآخرين. وكان أكبر الحاضرين هو الحاجب. وجيء باثنين من المغول كانا قد ناما في أثناء النوبة. فقال الحاجب مَنْ مِن المغول أحضرهما؟ فأجاب المغولي الذي أتى بهما قائلاً: أنا أحضرتهما. فقال وما الجرم الذي ارتكبا؟ فقال كانا على ظهر جيادهما، وكنتُ أطوف للتفتيش، وحين وصلت إليهما وجدتهما نائمين. فضربت جيادهما بالسوط وقلت لهما لقد أخطأتما حين نمتما وتركتهما. وقد أحضرتهما اليوم. فنظر الحاجب إلى المغوليين وسألهما هل نمتما. فاعترفا، فأمر بأن يُقتل أحدهما وتُعلق رأسه في خصر الآخر ويُطاف به حول المدينة، ثم يُقتل الآخر. فأطاعوا جميعاً وتم تنفيذ الأمر. وقد اندهشت وقلت للحاجب إن هذا المغولي لم يكن لديه شاهد أو حجة، فكيف يكون جزاؤهما القتل؟ فقال الحاجب وما العجب في ذلك؟ أنتم أيها العرب تفعلون الشئ وتكذبون؛ أما المغولي فيفضل الموت وإن كانت له ألف روح على أن يكذب. فالكذب شانكم أيها العرب، لذا فقد ابتلاكم الله بنا» (طبقات ناصري، ص٣٧٤-٣٧٥)

لم يكن جنكيز يؤمن بديانة أو قومية محددة، بل كان يتحاشى التعصب لأمة على أمة أو تفضيل بعض على بعض. فكان يكرم العلماء والزهاد من كل الأديان والطوائف.[٤] وكان أبناؤه في فتوحاتهم إذا وجدوا عالماً في أي مكان ووجدوا أنه يليق بخدمة أبيهم كانوا يرسلونه سالماً إليه.

«في شهور سنة ٦٢٢هـ، حدث أن سافر كاتب طبقات منهاج السراج إلى قهستان. وحين وصل إلى مدينة قاين رأى إماماً من أعيان خراسان يدعى القاضي وحيد الدين بوشنجي رحمه الله. وروى هذا الإمام أنه حضر حادثة مدينة هرات (أي فتحها على يد تولي) وكنت كل يوم أرتدي زي الغزاة وأدخل بينهم. وذات يوم شهدت ضجيجاً على أطراف هرات، وانزلقت قدمي وسقطت في الخندق وتدحرجت كالحجر على التراب إلى أن وقعت وسط جيش الكفار وكدت أقع في الأسر. وقد حدثت تلك الواقعة في الموضع الذي كان تولي بن جنكيزخان قد نصب خيمته أمامه. وظللت أتدحرج عشرين ذراعاً من الحافة وكان لايزال هناك أربعون ذراعاً أخرى حتى أصل إلى قاع الخندق. وقد حفظني الله تعالى ولم أصب بسوء ولم يكسر أي عضو من أعضاء بدني. وعندما وصلت إلى الأرض هرول جمع من المغول إليّ قائلين أحضروه حياً ولا ترهقوه. وحين أخذوني إلى تولي نظر إليّ وقال: انظروا كيف لم يصب بأي جرح، ثم قال لي: أنت بشر أم من الجن أم الملائكة

أو من الشياطين، أم لديك تعويذة من أسماء الله. اصدقني القول. طأطأت رأسي وقلت أنا بشر مسكين من جنس العلماء والدعاة، ولكن كان لديّ شيء. فقال وما هو؟ قلت: وقوع نظر ملك مثلك عليّ عصمة لي. فنظر تولي إليّ في رضا وقال: هذا رجل حكيم ومثله يليق بخدمة جنكيز، ثم أمر بإرسالي إلى جنكيز حيث تقربت منه وأصبحت ملازماً لبلاطه. وكان دائم السؤال عن أخبار الأنبياء وسلاطين العجم وملوك الماضي. وذات مرة سألني: هل يبقي اسمي قوياً من بعدي؟ فطأطأت رأسي وقلت إنْ أعطيتني الأمان أقول لك. فقال أعطيتك الأمان. فقلت: الاسم الذي يبقى هو الناس. فكيف يبقى الاسم مادام عبيد الخان يقتلون الناس. وعندما انتهيت من كلامي ألقى بالسهم الذي في يده وغضب غضباً شديداً وأشاح بوجهه عني. وحين رأيت أمارات الغضب على ناصيته غير المباركة سلمت أمري إلى الله وانقطع أملي في الحياة وتيقنت أن الأجل قد حان وأني سأرحل عن الدنيا بسيف هذا الملعون. وبعد فترة اتجه إليّ وقال: كنت أعتبرك رجلاً حكيماً، ولكن تأكدت من كلامك هذا أنك لا عقل لك» (طبقات ناصري، ص٣٥٢)

مستشارو جنكيز:

كان جنكيزخان يستشير أهل العلم والاطلاع في الأمور العسكرية وإدارة شؤون الحكم؛ وكان معسكره يضم عدداً من هؤلاء، خاصة التجار ورجال القوافل المسلمين القادمين من الممالك البعيدة ولديهم الكثير من المعلومات عن أحوال البلاد خارج منغوليا. وكانوا يسدون خدمات جليله لجنكيزخان في هذا الشأن. وظل جهاز دولته يضم عدداً من هؤلاء حتى سنة ٦٠٠هـ، وكانوا يذهبون في سفارات من قبله أو لأداء مهام أخرى له. وفي أثناء تحرك جيوشه نحو مملكة الخطا أي الصين الشمالية، ذهب أحد المسلمين ويدعى جعفر برسالة منه إلى آلتون خان، فسجنه الأخير، إلا أن جعفر تمكن من الهرب وجاء إلى جنكيزخان سراً وأبلغه عن أحوال مملكة الخطا وعن آلتون خان. فجرد جنكيز جيشه إلى آلتون خان من الطريق نفسه الذي سلكه جعفر وفتح بلاد الخطا.(٥)

ومع أن جنكيز لم تكن تأخذه شفقة بأي من أعدائه، فقد كان يفرق بين أهل الحضر المسالمين وبين البدو اللصوص؛ فكان يقرِّب الأويغور والمسلمين والصينيين إليه، بينما كان يبغض المنجو

والتنجغوت والترك الخوارزميين والأفغان ويقسو في تعامله معهم.

وكان من أشهر المستشارين الذين اتخذهم جنكيز من أهل البلاد المتحضرة المغلوبة محمود بلواج من المسلمين وتاتاكوس من الأويغور ويلوچوت ساي من الصينيين. وقد ولد الأخير وهو من الصين الشمالية في سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م)؛ وكان أبوه قد تولّى منصب الوزارة في خدمة سلاطين كين. وقد أبدى في مطلع شبابه رغبة في تحصيل العلم والحكمة، ونبغ في علم النجوم والأدب والجغرافيا وجمع الكثير من الكتب في هذه الأفرع وفي سنة ٦١٤هـ (١٢١٣م) أصبح حاكماً لمدينة بكين. وحين استولى جنكيزخان على تلك المدينة، ضم يلوچوت ساي إلى خدمته بسبب الضغينة التي كان كل أهالي الخطا يكنونها تجاه سلاطين كين. وقد لقي عنده كل تكريم واحترام منذ ذلك الوقت، وذلك لحكمته وتدبيره وعلمه بالنجوم؛ وكان المغول يقدرون علماء النجوم تقديراً بالغاً، فاخذ ساي في الارتقاء في بلاط جنكيز يوماً بعد يوم.

«كان هناك رجل من طائفة التنجوت اشتهر بصناعة الأقواس، وكان موضع تقدير جنكيز لهذا السبب. وكان يقول ماذا يفعل أديب عالم كيلوچوت ساي لدى قوم لا هم لهم سوى الحرب والفتوحات. وحين بلغت هذه المقولة أسماع يلوچوت ساي قال له: إن إدارة شؤون الممالك تحتاج إلى وجود عمال ذوي بصيرة كما تحتاج صناعة الأقواس إلى خبير. وبعد علم جنكيز برده ازدادت مكانته عنده».

كان يلوچوت ساي يلازم جنكيز في كل فتوحاته، وكان شاهد عيان على كل مذابحه. ومع أنه لم يكن يجرؤ على الاعتراض على سياسته، فقد كان ينقذ المساكين من القتل قدر استطاعته وكان يمد المرضى بالدواء والغذاء وينقذ الكتب النادرة من الحرق والإغراق وأدى مهمة تعهد بها من بعده خواجة نصير الدين طوسي في خدمة سفاح آخر هو هولاكو بعد ذلك بنصف قرن.

وقد ساعد نفوذ يلوچوت ساي وحسن تدبيره على منع كثير من فظائع المغول على الأقل في وطنه الصين التي احتفظ بعلاقة وجدانية خاصة بها. فبعد عودة جنكيز من الممالك الإسلامية في سنة ٦٢٢هـ، تمكن يلوچوت ساي من إنقاذ أرواح كل بني وطنه من خطر جسيم. ففي هذا الوقت خلت المخازن والخزائن من الأموال والأقمشة، وتم تشكيل مجلس لمناقشة القضية وقال أحد القواد إن

الصينيين لا فائدة ترجى منهم في شؤون الدولة والحرب، ومن الأفضل قتلهم جميعاً واتخاذ ولاياتهم مرتعاً للحيوانات ومزرعة للغلال؛ ولم يبدِ خان المغول اعتراضاً على هذا الرأي وكاد يأمر بتنفيذ تلك المهمة. وهنا أوضح يلوچوت ساي لجنكيز أنه يمكن تحقيق الهدف من خلال فرض الضرائب على المحاصيل والأراضي والغلال والأقمشة وكل ما يحتاجه الجيش دون اللجوء إلى هذا الإجراء الذميم. ووافق خان المغول على هذا الاقتراح وافتدى دماء سكان الخطا بفرض أربعين ألف كيس من الغلال وثمانين ألف قطعة حرير ومبلغ من المال سنوياً. واستطاع هذا الرجل الحكيم في عهد جنكيز وابنه أقطاي أن يدير القسم الشرقي من ممالك المغول على غرار الصين تدريجياً وعمل على تعريف المغول بحضارة الصين وآدابها.

الياسا:

كان للمغول قبل جنكيزخان مجموعة من العادات والمعتقدات والآداب القومية تتفق وحياة البدو ولم يتم تدوينها نظراً لعدم معرفتهم بالخط والكتابة. وقد أبقى جنكيزخان على بعضها وأضاف إليها أحكاماً وتشريعات من عنده، وأضفى عليها طابعاً رسمياً وأمر بتعليم أطفال المغول الخط الأويغوري وتدوين الأحكام والتشريعات المذكورة في لفائف والاحتفاظ بها في خزائن أمراء أسرة جنكيز.

ويعرف كل من هذه الأحكام والتشريعات عند المغول باسم «ياسا»[٦] ومعناها الحكم والقاعدة والقانون؛ وتعرف في مجموعها أي اللفائف المدونة بالخط الأويغوري والتي تضم كل أحكام المغول وقواعدهم الرسمية والتي وقّعها جنكيزخان وصدّق عليها باسم إلياسا الكبرى.[٧] وكانت عبارة عن القواعد والأحكام المتعلقة بتعبئة الجيش وتخريب البلاد وشؤون الحكم وعقد المجالس في الأحداث الجسام والفتوحات المهمة وأقسام العقوبات ونهج حياة المغول في الإقامة والترحال وغير ذلك. وكلما ارتقى أحد الخوانين العرش أو وقع حادث عظيم أو اجتمع الأمراء يطلعون على إلياسا الكبرى ويتخذون القرارات بناء عليها.

كانت إلياسا الجنكيزية موضع احترام بالغ يكاد يصل إلى القدسية بين المغول، ولم يكن أحد

يجرؤ على معارضة موادها. وحتى بعد سقوط ملك أبنائه في إيران ظلت الأحكام الجنكيزية موضع احترام من جانب التيموريين حيث كانت قواعدها تُطبّق في إدارة شؤون السياسة.

كانت عادة الصينيين منذ القدم أن يسجلوا أقوال أباطرتهم اليومية؛ وقد أخذ المغول هذه العادة عنهم؛ فكانوا يدونون كلام خوانينهم بصفة يومية ويعلنونها بعد موتهم. إلا أنهم لم تكن لهم حرية كاملة في تسجيل كل هذه الأقوال؛ بل كانوا يقتصرون على ما يسمح به الخان. وحين كانوا يعمدون إلى تعمية المعنى، كانوا يلجؤون إلى السجع والتكلف. وهذا النوع من كلام خوانين المغول والذي كان يحظى باحترام الناس وتقديرهم كان يعرف باسم بيليك ومعناها الحكمة والمعرفة. وكانت أقوال جنكيزخان تحظى بالاحترام وأصبحت بعد موته مصدراً يَرجِعُ إليه المغول كالياسا الجنكيزية.

عادات المغول:

كانت طوائف التتار والمغول التي اجتاحت ممالك آسيا الشرقية والوسطى والغربية بقيادة جنكيزخان ثم مدت هيمنتها إلى حدود البحر المتوسط وأوربا الشرقية والوسطى تنتمي إلى قبائل شتى. وكانت هذه القبائل التي تنتمي إلى الجنس الأصفر بمختلف أفرعه قبل ظهور جنكيز والاستقرار في البلاد المتحضرة العامرة تعيش على البداوة والترحال الدائم من مكان إلى مكان آخر، وكانت حياتهم في غاية البساطة والصعوبة. وفي هذا النوع من الحياة، خاصة حين يفتقر الناس إلى الاستعداد وإلى وسائل الحضارة، لا مكان لسكنى المدن وهدوء الطباع؛ بل يمارس الناس حياتهم في سعي دائم وتنقل مستمر بين أماكن الصيف والشتاء والغزو والإغارة على أهل الحضر أو على البدو الآخرين. فكانت الحرب وعادات التسلط والسيطرة هي الشغل الشاغل لكل رجل وامرأة، وكان تعلم هذه العادات منذ الصغر ضرورة من ضرورات الحياة عندهم.

والحكم والأمر في هذا النوع من القبائل يكون بيد من يتميز هو أو أبوه عن أقرانه بالعقل والتدبير والقوة ويحتوي الآخرين تحت نفوذه بالحنكة وسفك الدماء وتطبيق الأحكام الصارمة، وكلما قل استعداد المحكومين لتقبل النصائح وفهم المصالح زادت الحاجة إلى الشدة والقسوة. وفي هذه الحالة، فإن الحاكم أو خان القبيلة إذا بدا منه أقل قدر من الضعف والتردد ضاعت دولته وحل

محله من هو أقوى وأشد قسوة أو انهار أساس اتحاد القبيلة تماماً.

وكان جنكيزخان من الزعماء الذين تمكنوا من احتواء قبيلة الأجداد بقوة السيف وحسن التدبير وسن الأحكام المتعددة، بل إنه فرض سطوته على سائر قبائل الترك والمغول ووحّد كل هذه الشعوب في ظل حكومة واحدة بعد أن كانت تعيش في حالة تناحر ونزاع دائمين، فجمع شتاتهم من أجل تنفيذ هدف أكبر.

في بداية حملة جنكيزخان، كانت الأغلبية بين رفاقه من المغول الأصليين بالطبع؛ إلا أن هذه الطائفة لم تكن كثيرة العدد في البداية، وكان عددها يقل مع كل حرب تخوضها. ولتعويض خسائر جيشه، كان جنكيزخان يتخير جنوداً جدداً من بين سكان الممالك المفتوحة خاصة من يتصل منهم بصلة عرقية أو أخلاقية بالمغول (كطوائف النايمان والكرائيت والتنجغوت وأتراك قبچاق وقنقلي وقرلق والأويغور) ويخضعهم لحكمه وأحكامه وتنظيماته، إلى أن فاقت هذه العناصر الخارجية المغول الأصليين من حيث العدد، وأصبحت الأغلبية في جيش جنكيز للأتراك والمغول المغلوبين.

والمقصود بعادات المغول تلك العادات والتقاليد السارية بين هذه الطوائف المختلفة والتي اقتبسها أبناء جنكيز عن الأتراك والمغول المغلوبين بعد دمجهم في حكمهم وأضفوا عليها الطابع الرسمي بعد تعديلها ودمجها في عاداتهم القومية. وقد كانت أوضاع الحياة العامة لشعوب المغول والترك واحدة وذلك بسبب وحدة العرق والبداوة. لذا فقد جمعت بينها عادات واحدة تقريباً، ونادراً ما نجد بين إحدى عشائرهم عادة غير معروفة عند سائر العشائر.

وبعد انتصار المغول على إيران والصين وبدء اعتيادهم على سكنى المدن حدثت تحولات جذرية في عادات المغول. ومع أن الصورة الظاهرية تحتم إحلال عادات الغزاة محل عادات البلاد المغلوبة، إلا أن العكس هو الذي حدث في هذه الحالة، فبعد جيلين من حكم المغول خضع أحفاد جنكيز لعادات الرعايا المغلوبين تماماً وانزوت عقائد الأجداد وتقاليدهم؛ فثأر الوزراء والمستشارون وأرباب الفنون من الصينيين والفرس والأويغور والمسيحيين بقوة التدبير للهزيمة التي أخضعتهم للمغول بقوة السيف، وفرضوا عليهم لغاتهم ودياناتهم وأصول حكمهم. فحين تتصادم أمتان بينهما

اختلاف جذري من حيث الاستعداد الفطري وأسلوب الحياة تكون الغلبة لمن تستند قوة تدبيرها وفن إدارتها وسياستها وأسس حياتها الفكرية والروحية على الواقع تدعمها في ذلك الآداب العريقة والماضي التاريخي الممتد الذي يصل بينها وبين تراثها برباط وثيق.

أدى الغزو المغولي إلى محو العديد من مدن الصين وما وراء النهر وإيران والعراق والشام وقتل الكثير من العلماء وأهل الفضل وتدمير ملايين المجلدات من الكتب النفيسة؛ إلا انه لم ينجح في القضاء على الشعبين الصيني والإيراني أو على لغات هاتين الأمتين القديمتين وآدابهما؛ بل نفخ الروح في شعلة القوميتين الفارسية والصينية التي خفتت لفترة من الزمن نتيجة لغارات البدو الرحل، وجعل من أحفاد جنكيز دعاة لنشر الدين الإسلامي والبوذية وآداب اللغتين الفارسية والصينية وقطع صلتهم بالخيم القديم وبني جنسهم الأصلي تماماً.

ولا ينبغي أن ننسى أيضاً أن تخلي أمة من الأمم عن عاداتها وقبولها لعادات أمة أخرى ليس أمراً يحدث بين يوم وليلة؛ بل يحدث على مدى جيل أو جيلين. ومهما بذلت المحاولات في هذا الصدد فإن للزمن دوراً كبيراً فيه. وقد تمتزج عادات الغالب بعادات المغلوب وتكون المحصلة نشأة عادات أخرى جديدة.

صحيح أن عادات المغول بعد فتحهم للممالك ذات الحضارة قد خضعت لعادات أهل الحضر، إلا أن كثيراً منها مما لا يتحتم التخلي عنه (كقبول دين المغلوبين) أو ما يتصل بتعلق المغول مثلاً بخانهم الأعظم (كالياسا الجنكيزية) قد ظل سارياً بل انتقل إلى المغلوبين أيضاً. ونشير فيما يلي إلى بعض من العادات والتقاليد التي كانت سارية أيام حكم أبناء جنكيز لإيران، ونؤجل الحديث عن تاثير العادات الإسلامية والفارسية في المغول إلى موضع آخر.

لما كان اتباع جنكيزخان ينتمون لطوائف شتى من عشائر المغول والتتار، فلا سبيل لإدراجهم جميعاً تحت مسمى واحد من حيث الصفات العرقية؛ بل يجب القول إن جنود جنكيز كانت بينهم بعض الاختلافات من حيث الشكل وطول القامة ولون البشرة وشكل الأنف والجمجمة ولو أنهم يُذكرون جميعاً تحت اسم واحد.

هناك سمات عرقية ظاهرية تجمع بين كل شعوب المغول والتتار وتميزهم عن سائر الشعوب غير

المغولية. فالتتار بصورة عامة يتميزون بالآذان الكبيرة وقلة شعر الرأس واللحية وامتلاء الوجه وتجعد البشرة وبروز الوجنتين واتساع ما بين العينين وكبر حجم الجفون والعينين اللوزيتين. ومتوسط الطول بين التتار يتراوح بين ١٦٤ / ١ و٦٨٤ / ١ متر. ولون شعرهم أسود ولون بشرتهم أصفر وأنوفهم مفلطحة ومفتوحة المنخارين. ويميل لون عيونهم إلى الزرقة. ومن التتار، خاصة ذرية يسوكاي بهادر والد جنكيزخان الذي كان ينتمي إلى عشيرة قيات، من يتميزون بزرقة العينين ويعرف من له هذه الصفة عند المغول باسم بورجقين أي الأشهل. والمقصود بقبيلة بورجقين قيات أبناء يسوكاي بهادر وذريته.

كان هدف جنكيزخان هو إخضاع عشائر المغول لحكمه ليتمكن عن طريق هؤلاء البدو من إخضاع الحضر من سكان المدن. لذا فإنه لم يول اهتماماً بعادات أهل الحضر؛ بل إنه كان يمنع المغول من سكنى المدن، ولم يكن هو نفسه يهتم إلا بالعودة إلى موطن أجداده الأصلي والاحتفاظ بأسلوب الحياة البدوية نفسه.

كان المغول على عادة البدو عامة يسكنون الخيام وكانوا يطلقون على مخيماتهم الصيفية أو الشتوية اسم "يورت أو أردو.(٨) وحتى بعد إخضاع البلاد ذات الحضارة والحاجة إلى الإقامة في العواصم، استمروا في اختيار مواضع للصيف وأخرى للشتاء يرحلون إليها بحشمهم وخيولهم. وكان هناك أشخاص يعرفون باسم يورتجي يَتِمُّ إرسالهم إلى الضواحي لاختيار المكان الذي يناسب الخان وحاشيته حيث ينصبون خياماً من الشعر أو اللباد. وكان أقرباؤه أيضاً يسكنون تحت خيام مماثلة أو أكواخ تصنع من أفرع الشجر وأوراقها حول مخيم الخان. وبعد انقضاء الفصل والرحيل عن المخيم، كانوا يحرقون كل ما لا يمكن نقله كالأكواخ الخشبية وما إلى ذلك.

وكانت المخيمات الصيفية والشتوية لخوانين المغول بمثابة مدينة ضخمة؛ فإلى جانب كثرة الخيام والأكواخ والكثافة السكانية، كان الخان يصطحب في ركابه كثيراً من الناس من كاتب وقاض وقواد عسكريين وحرفيين وتجار، وكان الحرفيون وأهل الصنائع والتجار يبيعون بضاعتهم ويشترون ويلبون كل احتياجات المخيم. وكان خوانين المغول في هذا النوع من المخيمات غالباً ما يستدعون أمراءهم وأقرباءهم للمشورة في الأمور المهمة كاختيار زعيم العشيرة والفتوحات المهم عن طريق مبعوثين

يعرفون باسم إيلچي؛ وكان هذا النوع من مجالس الشوري يعرف باسم قوريلتاي.

وكانت عادة المغول أن أصغر أبناء الخان نادراً ما يغادر المخيم الأصلي للأجداد ولا نصيب له في أملاك أبيه أو إخوته. وكل ما يمتلكه هو مخيم الأجداد بعد موت الخان، وهو ما حدث بعد وفاة جنكيزخان حيث آلت المنطقة المحيطة بنهري كيرولين وأُنن إلى تولي أصغر أبنائه، وهو نصيب أقل من أنصبة سائر أبناء جنكيز. وربما كان سن أبناء الخان يشكل عاملاً في هذه القسمة.

وكانت من عادات المغول تعدد الزوجات والمحظيات،(٩) وكانت عادة خوانينهم إذا انتصروا على ملك أو أمير أو اتحدوا معه أن يتزوج الخان ابنته أو أخته، أو زوجته إن قتلوه، وهو ما كان جنكيزخان يفعله حيث يقال إن تعداد زوجاته ومحظياته بلغ خمسمئة.

وبعد وفاة المغولي، خاصة إذا كان من الزعماء، فإن زوجاته ومحظياته يورثن لأكبر أبنائه حيث يكون له الخيار في أن يتزوجهن أو يزوجهن لأصدقائه أو يعتقهن. ونظراً لتعدد الزوجات عند المغول فإن الأب يعطي الأولوية في ترتيب الأبناء لمن كانت لأمه الحظوة عنده فمن بين أبناء جنكيز التسعة كانت الأولوية للأبناء الأربعة الذين أنجبهم من يسونجين بيجي أعز زوجاته إليه، وقد ورثوا المناصب الكبرى بعد وفاة الأب.

وكان مجموع الأبناء والأقارب والأهل الذين ينحدرون من نسل خان أو أمير مغولي واحد يعرفون باسم أروغ، وتعرف العشيرة والرعايا الخاضعين لأمره باسم أولوس. والمقصود بأولوس جنكيز الأربعة كل أهالي البلاد التي دانت بعد موته لأبنائه الأربعة جوجي وجغتاي وأقطاي وتولي.

وكان الصيد من الأمور التي كان المغول يضفون عليها أهمية فائقة ويعتبرونها من ضرورات الحياة. فكان المغول إذا فرغوا من الحرب يقضون أوقات فراغهم في الصيد. وكان لترتيبات الصيد وفحص الفريسة وإبعاد الحيوانات والصيد الجماعي تقاليد وقواعد، وكانت بعض أحكام إلياسا التي سنها جنكيزخان تتعلق بذلك.

«من أحكام جنكيزخان أن يبذل المغول والتتار الجد والجهد في الصيد، فقد ورد عنه أن صيد الوحوش مما يناسب أمير الجيوش. وكان الصيد من المقدسات عند هذه القبائل. فكان مطلع فصل الشتاء موسماً كبيراً للصيد. فكانوا يبدؤون بإرسال الصيادين للتعرف على كثرة الفرائس أو

ندرتها. وبعد معاينة المكان يقومون بتحريك ألف شخص طبقاً لقواعد الحرب نفسها من ميمنة وميسرة وقلب وجناح. وبعد شهر أو أكثر، تزدحم الصحراء أو الجبل بالناس حيث يخرج الخان أو الخوانين للصيد ومعهم صنوف الطعام والشراب. فيحاصر الناس الفريسة بهدوء حتى لا تفلت من الفخ، وإن حدث أن أفلتت الفريسة أجريت التحقيقات، وكانوا يعتبرون ذلك من الواجبات ويعينون له أمير ألف وأمير مئة وأمير عشرة، وقد يقتل المتسبب في ذلك. وإذا حاد الطابور عن الخط المستقيم بالغوا في تأديب أفراده وعقابهم. وحين يقترب الطابور تتصل الجماعات ببعضها البعض، وحين يزداد اقتراباً يلتصق الأفراد ببعضهم البعض ويتوقفون. وحينئذ تمتلئ الحلقة بأنواع السباع والوحوش. ثم يبدأ الخان وعدد من مقربيه وحاشيته ويرمون بسهامهم ويصيدون. وحين يصيبه الملل يجلس على موضع مرتفع حيث يبدأ الأمراء والعوام في التقدم للصيد بينما يشاهدهم الخان. ويتم جمع الفرائس. وإن تعذر إحصاؤها يُكتفى بإحصاء السباع. والهدف من كل هذه الجلبة ليس مجرد الصيد، بل المقصود هو تدريب جموع الجيش على الرماية وركوب الخيل حتى يراعوا الحزم والحيطة في القتال والا يغفلوا أو يتهاونوا. وظل هذا التقليد سارياً منذ بداية دولة المغول وحتى الآن. وكان جنكيزخان يبالغ في مسألة الصيد، وانتقل هذا الاهتمام الزائد إلى ابنه الأكبر جوجي. فنظراً لأهمية الصيد البالغة عند الأتراك، فقد رعاه جنكيزخان وورّثها لابنه الأكبر» (من تاريخ ألفي وجهانگشاي جويني، ج١، ص١٩–٢٠)

وكان المغول يهتمون أيضاً بالمصارعة والملاكمة وكانوا يستمتعون بمشاهدة مبارياتهما، حتى إن خوانينهم كانوا يحتفظون بجماعة من ممارسيهما وكانوا يجلبون المصارعين من بلاد الخطا والقبچاق. وحين دانت لهم ما وراء النهر وإيران، أخذوا معهم جماعة من الرياضيين في هذين الفنين إلى منغوليا. وكان جوجي يهوى مشاهدة مصارعة النساء في خوارزم.

ونظراً لجهل المغول وعدم اختلاطهم بالمتحضرين فقد كانت لهم معتقدات خرافية عديدة، فكانوا يرون أن للشياطين والسحر تأثيراً بالغاً في أحوال الإنسان وفي حياته. فكانوا يخافون السحر خوفاً شديداً، وكل من يُتهم بممارسته يعذب عذاباً شديداً. وتضم إلياسا الجنكيزية أحكاماً مشددة ضد السحرة. وكان القادرون على كشف السحر ونقضه جماعة من الكهنة البوذيين

يعرفون باسم بَخشي أو تُوين، ويعرف أهل السحر باسم قام. وكانت عقيدة أهل السحر عندهم أن الشياطين مسخرون لهم وأن الأرواح الشريرة على ألفة معهم، وبمراودة الشياطين والأرواح يمكنهم التنبؤ بالغيب. وكان المغول يؤمنون بقدراتهم، فلم يكونوا يشرعون في أمر إلا بعد موافقة المنجمين.

ومن أهم الوسائل التي كان السحرة يتبعونها في التنبؤ وتمييز الخير من الشر في الأمور وتحديد أثر السحر النظر في عظام الخراف. وكان بعض الخوانين على علم بهذا الفن. فكان يتم وضع عظام الكبش في النار حتى تتفحم. ثم يتفحصها الخان أو الساحر بدقة؛ فإذا خرجت من النار سليمة دون أن تتهشم، فهذا معناه أن الخان موفق في أمره وأن الصلاح فيما استقر عليه. وإذا حدث وتهشمت العظام أو تفتتت أجزاء منها فإن الأمر المنشود له عواقب وخيمة ولا خير فيه. وكان جنكيزخان يولي هذا الأمر أهمية كبرى؛ وكان في عظائم الأمور إما أن يستشير يلوچوت ساي الذي مهر في هذا الفن أو يقدم عليه بنفسه حيث كان عليماً به.

وكلمة بَخشِي لفظ سنسكريتي ويعني في الأصل الكاهن البوذي، وكان الزهاد منهم يعرف باسم توين. وبعد اختلاط المغول بشعب الأويغور الذي كانت جماعة منه تؤمن بالبوذية اتخذوا من هؤلاء الكهان كتّاباً لهم. وإلى جانب قيامهم بتعليم المغول الخط الأويغوري، استطاعوا اجتذاب عدد من المغول إلى الوثنية البوذية وتقديس الشمس. وكان قادة المغول وأمراؤهم يستشيرون هذه الجماعة في مسألة السحر. لذا فإن كلمة بخشي قد اتخذت عند المؤرخين القدماء معاني الوثنية والعالِم بالسحر والساحر والكاتب.

كما كان المغول يخافون الرعد والبرق، وكانوا يقفون صامتين حين يسمعون دوي الرعد. وإذا ضربت الصاعقة أحدهم كانوا يطردون قبيلته ويهدمون بيته ولا يسمحون له بالعودة إلى المخيم إلا بعد ثلاث سنوات. وإذا ضربت الصاعقة قطيعهم كانوا يمتنعون عن تناول طعامهم منه بقية الشهر الذي حدث فيه ذلك؛ وفي نهاية الشهر، كانوا يصرخون فرحاً. وكانوا يعتقدون أن المرء إذا جلس في الماء أو غسل يديه في ترعة أو رفع الماء في أوعية ذهبية أو فضية أو غسل رداء ثم ألقى به في الصحراء في نهار الربيع أو الصيف كان ذلك سبباً في حدوث الرعد والبرق. لذا فإن إلياسا

الجنكيزية تشدد على منع تلك التصرفات وتنص على معاقبة مرتكبها بالإعدام.

وكانت بين المغول جماعة تدَّعى القدرة على استنزال المطر صافياً من السماء عن طريق حك بعض الأحجار أو وضعها في أوضاع معينة؛ وكان هذا الفن يعرف عند المغول باسم ياي وجداميشي، ويعرف هذا النوع من الأحجار باسم جَده أو يَده؛ ويعرف من يباشر هذا الفن باسم يايچي أو جده چي. وكانت هذه الخرافة شديدة الانتشار بين أقوام المغول ويشير إليها أغلب المؤرخين. وكانت هناك جماعة منهم أيضاً تدعي القدرة على استنزال المطر من السماء عن طريق الأذكار والأوراد.

لم يكن خوانين المغول يعرفون البلاط والعاصمة في بداية أمرهم؛ لذا فلم تكن لديهم مراسم محددة للتتويج والاستقبال الرسمي والمجلس الملكي العام، بل كانت مراسم هذه الرسميات تتسم بالبساطة. وبعد وفاة جنكيزخان وعندما أراد كبار رجال العشيرة تتويج ابنه أقطاي خاناً عليهم، قاموا أولاً بتحديد يوم السعد عن طريق السحرة والمنجمين، ثم رفعوا قلانسهم حسب عادتهم، ثم أمسك جغتاي يد أخيه اليمني وأمسك أوتكين شقيق جنكيزخان يد أقطاي اليسرى وأجلساه على العرش، وقدم تولي له شراباً، ثم جثا الحاضرون جميعاً على الأرض ثلاث مرات احتراماً وهنؤوه وهم راكعون. وبعد انتهاء مراسم التتويج، خرج أقطاي من المعسكر في معية سائر الأمراء وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جلسوا لتناول الشراب والاحتفال. وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يطهون الطعام لثلاثة أيام متوالية على روح جنكيزخان، واختاروا أربعين فتاة من نسل الأمراء وأركبوهن في كامل زينتهن على الخيول وأرسلوهن إلى روحه.[١٠]

يُعرف الركوع أمام سلاطين المغول بلفظ چوك في اللغة المغولية، وهو يعد دليلاً على احترام الخان، وذلك بالارتكاز بإحدى الركبتين على الأرض وتوجيه الكوع إلى الأرض.

وحين كان خان المغول يريد أن يبدي عنايته لأحد كان يقدم له بيده كأساً[١١] من النبيذ أو لبن الفرس (قميز). وكان الشخص موضع هذه العناية يتناول كأس الخان ويشربه مرة واحدة بعد أداء تحية الركوع. وكان هذا التقليد من أهم تقاليد المغول. وكانوا وقت عقد صلح أو اتفاق بين طرفين يذيبون مقداراً من الذهب في الشراب ويشربونه في كؤوس من ذهب.

وكان سلاطين المغول يكرمون من يؤدي لهم خدمة أو يقدم لهم عوناً وقت الشدة؛ وكان هذا التكريم يعرف عندهم بلفظ سيرغاميشي. فكانوا يهبونه الأراضي والأملاك لكي يتمتع بمحاصيلها. وكان هذا النوع من الأملاك يورث لنسل الشخص المكرم (سيورغال).

نظام الدولة والجيش عند المغول:

بعد أن قام جنكيزخان بتوحيد مختلف قبائل المغول والتتار تحت سيطرته، قام بتحديد عشرِ مهام لإدارة شؤون الدولة والجيش كما ورد في ملحمة المغول[١٢] المدونة وأسند الإشراف على أدائها لأحد المسؤولين أو لعدد منهم على النحو التالي:

١- أربعة أفراد لحمل السهام والأقواس؛ وقد عُرف القائم بهذه المهمة فيما بعد باسم قورجي.

٢- ثلاثة أفراد لإعداد الطعام والشراب.

٣- فرد واحد للإشراف على مراتع الأغنام.

٤- فرد واحد لإعداد العربات ووسائل النقل.

٥- فرد واحد للحراسة ويعرف باسم چربي.

٦- أربعة أفراد لحمل السيوف؛ وقد أسندت هذه المهمة لجوجي قَسار شقيق جنكيزخان.

٧- فردان لرعاية الخيل ويعرف القائم بهذه المهمة باسم أختـه چي. وكان بيلجوتاي شقيق جنكيزخان الآخر أحد هذين الفردين.

٨- أربعة أفراد للإشراف على مراتع الخيل والمواشي.

٩- أربعة أفراد لحمل أوامر جنكيزخان.

١٠- فردان مسؤولان عن حفظ نظم مجالس شورى المغول.

وقد اختار جنكيزخان عدداً من المغول كحرس خاص له، ويعرف واحدهم باسم كشيكچي. فكان ثمانون شخصاً يتولون الحراسة بالليل وسبعون بالنهار. وبخلاف الحرس الخاص، كان لدى جنكيز ألف شخص من صفوة المحاربين ويعرف واحدهم باسم بهادُر وتعني المقاتل أو الشجاع. وكان هؤلاء المحاربون يتقدمون طلائع الجيش وقت الحرب.

وكان الحرس الخاص لجنكيز يخضعون لقواعد صارمة؛ فإن تغيب أحدهم عن نوبة خدمته كان يعاقب في المرة الأولى بثلاثين جلدة، وفي المرة الثانية بسبعين جلدة، وفي الثالثة يتم عزله بعد معاقبته بسبع وثلاثين جلدة. وكانت هذه العقوبة نفسها تُطبَّق على الرئيس الذي يهمل في تعيين مساعديه.

ولم يكن لقائد الحرس الخاص الحق في معاقبة مساعديه دون إذن الخان؛ بل كان يجب أن يتم حسم كل شئ بأمر من الخان. وإذا حدث وقام أحد المسؤولين بمعاقبة مساعد له كان يعاقب بما عاقبه به نفسه. ولم يكن الحرس الخاص يشاركون في الحرب إلا إذا نزل الخان نفسه ميدان القتال. وكان معظم قواد جنكيز من حرسه الخاص. ولما كان جنكيز يعرفهم جيداً وجربهم بأوامر صارمة، فقد كانت قيادة ألوية جيشه في يد من لا يطيعون إلا أوامر الخان. وكان جنودهم ومرؤوسوهم جميعاً مجرد أدوات لتنفيذ أوامره.

وكان أعلى رجال جنكيز وحاشيته مرتبة هم أمراء أسرته، ويعرف واحدهم بالمغولية باسم نُقُيُن أو نُويان. وكان تولي بن جنكيز يلقب دونهم بلقب أُلُغ نويان أي الأمير الأكبر. وكان أشراف الجيش يلقبون بـ تَرخان، وكانوا يعفون من دفع الضرائب؛ وكان كل ما يغنموه في الحرب لهم؛ وكانوا يدخلون البلاط دون إذن أو تصريح، وكانوا يتبوأون مكانة رفيعة في الاحتفالات ويتناول كل منهم كأساً من يد الخان. وكان جيش جنكيز ينقسم إلى جيوش قوام كل منها عشرة آلاف جندي ويعرف باسم تومان؛ وينقسم كل تومان إلى عشرة ألوية قوام كل منها ألف جندي؛ وتنقسم كل من هذه الألوية إلى عشرة فصائل قوام كل منها مئة جندي؛ وتنقسم كل مئة إلى عشرة كتائب قوام كل منها عشرة أفراد.

ولما كان المغول يعتبرون جهة الجنوب أقدس الجهات، فقد كانوا يتخذونها وقت ترتيب الصفوف. وكانوا يقسمون الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب. وكان قائد الجيش يتخذ مكانه في القلب الذي كان يُعرف عندهم باسم قُول. وكان كل من قواد الألوية والفصائل والكتائب يمثلون بين يدي الخان مرة كل سنة، ويأخذون أوامره ويتعلمون الحرب. ولم يكن يمكن لأي جندي أن يذهب إلى مكان آخر غير مكانه أو أن يلجأ إلى قائد غير قائده وإلا أعدم وعوقب مَنْ ساعده على

ذلك.

كان جنكيز يُبقي على معظم جنوده في حالة من الفقر والاحتياج حتى يحرصوا على النصر. وكان يصدر أمره لهم وقت التحرك بحمل الأسلحة وكل ما يحتاجونه حتى العلم والإبرة معهم؛ وإذا حدث وأهمل أحدهم في حمل لوازمه يوم استعراض الجيش يعاقب.

وكان التقليد المتبع في تعبئة الجيش المغولي أن يتم تقديم لواء الأحمال الثقيلة وخيام الغلمان والأطفال والنساء ويعرف باسم أغرُوق إلى المقدمة في أوقات الأمان، وأن يتم إرجاعهم إلى المؤخرة وقت الخطر حتى يطمئنوا عليهم وقت الهجوم والقتال.

وحين اتسعت رقعة ممالك المغول وازداد تردد التجار والجنود والمبعوثين عليها، أقام جنكيزخان منازل للقوافل تعرف باسم يام على رؤوس الطرق. لإمداد القوافل والجيوش بالعلف والطعام والشراب. وكانت نفقات هذه المنازل تدفعها التومانات (منزل لكل تومانين). وكانت خيل البريد الحكومية تعرف باسم ألاغ(١٣) ويتم تجهيزها بهذه المنازل لنقل المبعوثين. وكان يتم التفتيش على هذه المنازل مرة كل سنة حيث يتم تلبية احتياجاتها.

أسلوب الحرب عند المغول وموقفهم من المغلوبين:

كان جنكيزخان حين يريد أن يفتح مدينة أو يخضع أميراً أو ملكاً، يدعوه أولاً للتسليم (إيلي) عن طريق الرسل والمبعوثين. وإذا رفض التسليم يقال له ياغي ويتحتم إخضاعه بالحرب:

«من العادات المحمودة لجنكيزخان أنه حين كان يرسل دعوته إلى من يرفض التسليم لم يكن يخيفه بإظهار قوته؛ بل كان يكتفي بعبارة «إذا قبلتم الطاعة كان لكم الأمان، وإلا فالله يعلم ما لا نعلم». وحين فتح جنكيزخان ولاية ما وراء النهر، دخل مخيمه أحد كتبة خوارزمشاه وعرض على جنكيزخان حاله، فقال له الخان نحن في حاجة لمن يكتب شيئاً إلى المستسلم والرافض لطاعتنا. لذا فقد سلَّم هذا الكاتب لأحد أمرائه. وبعد فتح جبه نويان لمعظم ولايات خوارزمشاه كتب يطلب التوجه لفتح الشام لولا بدر الدين لؤلؤ وإلى الموصل الذي حال بجيشه الكبير دون تقدم جيش المغول؛ ويشكو من وعورة الطريق. وحين علم جنكيزخان بحقيقة الأمر، طلب من الكاتب المذكور

أن يكتب لبدر الدين رسالة يقول فيها: «لقد وهبني الله ملك الأرض. فإن استسلم بدر الدين أمن على روحه وماله وعياله وحريمه، وإن تمرد وعصى فالله الخالد أعلم بما يحدث لملك الموصل. ودوَّن الكاتب هذه الرسالة بما كان متعارفاً عليه من عبارات مهذبة وامتداح يليق بالملوك. وقام الحاجب بترجمة مضمون الرسالة إلى المغولية لجنكيزخان. فاعتبرها الملك الفاتح مخالفة لأمره؛ فعاتب الكاتب قائلاً: «يا رجل؛ أين ما قلته لك؟». فأجاب ذلك الأحمق التعس قائلاً: «هكذا ينبغي أن تكتب الرسائل». فغضب الخان وقال: «حين يقرأ الرافض لطاعتنا ما كتبته سيزداد تمرداً وإباء». ثم أمر بمعاقبة الكاتب الأحمق» (تاريخ ألفي)

وحين كان خان المغول يصل إلى بوابة مدينة من المدن ويدعو أهلها للتسليم لطاعته فيخرج أعيانها لاستقباله بالهدايا (ترغو) وعلف الدواب والخراج اللازم لم يكن جنكيز يتعرض لمدينتهم بسوء ويقوم بتعيين قائد عسكري إقليمي وحاكم من قبله عليها، ويصدر أمراً يعرف باسم يرليغ لأمير المدينة المستسلم حتى لا يتعرض له أحد. وكان هذا اليرليغ يختم بخاتم (تمغا) الخان بالحبر الأسود أو بماء الذهب،١٤ وكان حامل ختم الأحكام الخانية يسمى تمغاچي.

وإذا اختار أهالي المدينة طريق العداء، يصدر الأمر بذبح نسائهم وأطفالهم وبتخريب مدينتهم وذبح كل أهلها. وكان تعاملهم مع محكوميهم يبدأ بترحيل الأهالي إلى خارج المدينة، ثم فصل الحرفيين عنهم وإرسالهم إلى تركستان ومنغوليا، ثم يتم اختيار الشباب منهم فيما يُعرف باسم «حَشَر» كما سبقت الإشارة؛ ثم يتم قتل الباقين.

كان خان المغول يعفو عمن يطيعه ومن يسدون خدمات له؛ وكان يمنحهم لوحة ذهبية أو فضية أو خشبية تعرف باسم پايزه حسب اختلاف مكانتهم، وعلى هذه اللوحة التي تساوي حجم كف اليد وطولها نصف ذراع يتم نقش اسم الله واسم الملك ومعهما علامة خاصة. وكانت أعلى لوحة تزين بنقش رأس أسد.

وحين كان خان المغول يوجه اتهاماً إلى أحد عماله، كان يستدعيه لمحاكمته فيما يعرف باسم يَرغو. وكان القضاة يعرفون باسم يرغوچي. وإذا حُكم على المدعى عليه بغرامة مالية يُمنح صكاً يعرف باسم موچُلكا. وكان كاتب هذا الصك ويعرف باسم موچلكاچي. يحتفظ به حتى يؤدي

المدعى عليه التزاماته. وكان يتم تسليم الصك من جانب أمراء المغول حتى يقبلوا طاعته ويخضعوا لرئاسته.

أسباب انتصار المغول وهزيمة خوارزمشاه:

من الشرح الذي قدمناه حتى الآن لأوضاع السلطان محمد خوارزمشاه وعادات المغول وتقاليدهم وسياسة جنكيزخان، يمكن الوقوف على بعض أسباب هزيمة خوارزمشاه وانتصار المغول. ومن ثم فلا حاجة بنا للتفصيل والتكرار.

كان السلطان محمد خوارزمشاه ملكاً فاتحاً ومحارباً قديراً، وكان ذا قدرة كبيرة على تحمل المصاعب ولم يكن ميالاً للهو والعبث؛ بل كان يقضي معظم أيامه في مجالسة أهل العلم ومناقشة الفقهاء وعلماء الدين. ولم يكن يهتم كثيراً بسياسة الملك وإصلاح حال الرعية؛ ولكنه كان مستبداً ويغلب عليه التعصب، وكان يتطلع دوماً لتوسيع رقعة مملكته بحيث لا يُذكر اسم غير اسمه في كل ممالك العالم الإسلامي الشرقية، بل أن يمتد حكمه إلى «بلاد الكفر» الصين وكرجستان، وهو ما دفعه لارتكاب سلسلة من الأخطاء لم تعد عليه إلا بالضرر. ويمكن تلخيص أسباب هزيمته أمام المغول فيما يلي:

١- كانت الأغلبية في جيش الخوارزمشاهيين للمرتزقة الأتراك. وكانت هذه الطائفة التي تنتمي إلى عشيرتي قبجاق وقنقلي تخضع لسيطرة تركان خاتون والدة السلطان دون السلطان نفسه. ولما لم يكن لهؤلاء المرتزقة من هدف سوى الإغارة، فإنهم لم يكونوا يخضعون لنظم سليمة تحكمهم. بل كان احترامهم لمكانة تركان خاتون هو الذي يدفعهم للطاعة بصورة عامة.

٢- كان نفوذ تركان خاتون الكبير في شؤون البلاد وانعدام الوفاق بينها وبين ابنها قد زلزل أساس الدولة الخوارزمشاهية، خاصة أن تركان خاتون وجنودها المرتزقة من عشيرة قنقلي قد وضعوا الممالك الأصلية للخوارزمشاهيين، أي خوارزم، تحت إدارتهم المستقلة وعينوا أقرباءهم في إدارة معظم شؤون الممالك المفتوحة أيضاً. ولم يكن للسلطان محمد حيلة حتى في اختيار ولي عهد مملكته ووزيره سوى النزول على رغبة والدته. وكانت تركان خاتون وأتراك القنقلي يرتكزون على

جماعة رجال الدين في كل من خوارزم وما وراء النهر. ولما كان السلطان محمد يعتبر نفوذ هذه الجماعة عقبة في طريقه، فقد سعى لسلبهم قوتهم ونفوذهم، وكانت هذه المسألة من العوامل الرئيسة للخلاف بينه وبين أمه. وبلغ هذا الخلاف ذروته بمقتل الشيخ مجد الدين البغدادي وتجريد حملة لفتح بغداد.

٣- كان لتجريد السلطان محمد خوارزمشاه لحملة لفتح بغداد وعزل الخليفة ورفع اسمه من الخطبة والسكة تاثير سئ بين المسلمين خاصة بعد الهزيمة التي لحقت بخوارزمشاه وجيشه في أسدأباد وعودته من منتصف الطريق حيث زادت جرأة المسلمين المؤمنين بأحقية الخليفة العباسي وكذلك جرأة أمه تركان خاتون وأتراك القنقلي، مما أدى في النهاية إلى زعزعة عزيمته.

٤- كان كل من خوارزمشاه ووالدته في غاية القسوة والتعطش للدماء. وبعد فتح الممالك الكبرى التي لم تُعرف مملكة باتساعها منذ عهد ملكشاه السلجوقي، كان تعاملهما مع الأمراء والسلاطين المغلوبين ورعاياهم يتسم بالبطش والقسوة. فكانا يجلبان الأمراء والملوك إلى خوارزم ويضعونهم في القيود والأصفاد. وكانت تركان خاتون تميل دائماً لإغراقهم في مياه نهر جيحون. ولم يكن تعاملهما تجاه من يسدون لهما الخدمات ويتخذون جانبهما في الحرب ضد الأعداء يتسم بصدق النية، وكانا يقدمان على قتلهم لأقل سوء ظن يساورهما، وهو ما فعله خوارزمشاه مع ملك تاج الدين بلكاخان صاحب أترار وابن عم عثمان خان صاحب سمرقند والذي تطوع بإسداء خدمات جليلة له في حربه مع الغوريين. فقبل التحرك نحو بغداد أرسله في بادئ الأمر إلى مدينة نَسا بخراسان لعله يهلك من شدة الحرارة وسوء المناخ. ولما نجا من ذلك، أرسل إليه من يقتله، وقد فعل.

وبعد إنزال الهزيمة بالقراخطائيين والاستيلاء على ما وراء النهر أنزل جنوده من الأذى بمسلمي بخارى وسمرقند ما جعلهم يفضلون دفع الجزية للكفار القراخطائيين على قبول حكم خوارزمشاه، وبدؤوا في قتلهم بكل قسوة في سمرقند. فذهب خوارزمشاه إلى سمرقند وأمر بذبح أهلها. وفي رواية أن جنوده قتلوا مئتي ألف منهم، وفي رواية أخرى عشرة آلاف. كما قتلوا عثمان أيضاً. وفي النهاية عفوا عن بقية الأهالي بشفاعة من الأشراف والتقاة والأئمة.

وقبل تحرك خوارزمشاه إلى بغداد نفى صدر جهان برهان الدين محمد بن أحمد رئيس الحنفية وخطيب بخارى الذي اشتهر بالثراء والكرم وحب الناس له إلى خوارزم وعين مجد الدين مسعود بن صالح شقيق الوزير نظام الملك محمد بن صالح في منصبه؛ وأرسل ثلاثة من أسرة شيخ الإسلام في سمرقند إلى نَسا، وهو ما كان له أثره على الأهالي أيضاً.

٥- كانت هناك خلافات وخصومات بين أمراء خوارزمشاه وقواده العسكريين، وكانوا يتهمون بعضهم البعض بالانتماء للفرقة الإسماعيلية لدى السلطان. ولما كان بعضهم منحازاً لسلطة السلطان ويطيع البعض الآخر أمر تركان خاتون، فقد كانوا يكيدون لبعضهم بعضاً بصورة مستمرة. وكان من بين القواد العسكريين من ليسوا على وفاق مع السلطان نفسه وحاولوا اغتياله عدة مرات، بل منهم من قبل خدمة جنكيز كيداً للسلطان.

٦- كان خوارزمشاه يفتقر إلى حسن التدبير، وأدى به الغرور والكبر في البداية، والخوف والتردد في نهاية الأمر إلى القضاء عليه.

لم يكن القضاء على دولة القراخطائيين ومهادنة النايمان في صالحه، خاصة أن القراخطائيين غير المسلمين كانوا يعاملون مسلمي ما وراء النهر بالعدل والإحسان ويكتفون بتحصيل الخراج منهم. فأدى القضاء عليهم واستيلاء أتباع كوچلك خان النايماني على كاشغر وختن وبطشهم بالمسلمين في تلك الديار وقسوة الجنود الخوارزميين مع أهالي سمرقند وبخارى أولاً إلى هدم السد الذي كان يفصل بين بلاد التتار والمغول والممالك الإسلامية والقضاء على المدافعين عن هذا السد وهم القراخطائيون. وأدّى ثانياً إلى بغض المسلمين عامة للخوارزمشاهيين وأضعف قدرتهم على الجهاد ضد المغول والدفاع عن بلادهم.

«اتجه خوارزمشاه إلى الخطا، وقد قال له الملوك والوزراء وخوانين تركستان الذين كانوا معه إن جيش الخطا والختن لم يهزمه أحد قط، وقال له الحكماء إنا سمعنا من آبائنا أن وراء جيش الخطا عش للنحل هو جيش يأجوج وكانوا يقصدون به جيش المغول، فلا تستفز عش النحل هذا. إلا أن طمع السيطرة على العالم أصمت أذن السلطان عن هذه النصائح. فمضى وهزم خان الخطا واستولى على بلاده» (مجمع الأنساب، محمد بن علي شبانكاره اي)

لم يُبقِ خوارزمشاه ووالدته على أي ملك قوي مستقل في أي من الممالك التي فتحها السلطان من كاشغر إلى العراق؛ فقد قضى السلطان عليهم جميعاً إما بقوة السلاح أو بعون من القراخطائيين وسلطان سمرقند وغيره. وباكتساح المغول للممالك الإسلامية وفرار السلطان محمد ووالدته أمامهم، لم يعد في ما وراء النهر وإيران من له القدرة على الوقوف في وجه المغول والدفاع عن الإسلام.

وكانت ردود خوارزمشاه الفظة على رسائل جنكيزخان وقتله لتجاره ومبعوثيه ومصادرة أموالهم أوضح دليل على عدم تعقله وجهله بقواعد السياسة.

٧- لم يكن أهل خراسان والعراق وأفغانستان يميلون إلى حكم الخوارزمشاهيين؛ فإلى جانب أنهم كانوا يعتبرونهم دافعي خراج للقراخطائيين وجاحدين لنعمة السلاجقة وعصاة للخليفة، لم يكونوا راضين عن بطشهم وكونهم من الأتراك، وكان أهالي الجزء الشرقي من إيران يفضلون الغوريين (الذين كانوا يحكمون باستقلال تام ويجاهدون في الهند) عليهم، وهو ما كان من عوامل التمزق بين المسلمين الذين كانوا يحاربون المغول في خراسان وأفغانستان. وكان هناك خلاف بين الفرس وأتراك قنقلي والخوارزميين؛ وكان الأتراك قد رفعوا أيديهم من الدفاع نظراً لوحدة الجنس التي تجمع بينهم وبين المغول واستسلموا لهم وساعدوهم.

٨- كانت إدارة شؤون الحكم في ممالك خوارزمشاه أيضاً في حالة مزرية؛ فكان عمال الدولة والوزراء يفتقرون إلى الكفاءة ويتصفون بالجشع وكانوا من خواص تركان خاتون وغلمانها، ولم يكن من بينهم وزير يدير شؤون الممالك المترامية الأطراف بقوة السياسة والحنكة. وبعد قيام السلطان بعزل وزيره نظام الملك ناصر الدين ترك شئون الحكم بين أيدي ستة من الوكلاء. وعلى الرغم من استبداد نظام الملك وعدم كفاءته فقد تحسر الأهالي على عهد وزارته.

ولم يكن لأبناء خوارزمشاه الكبار، جلال الدين وركن الدين وغياث الدين، أية سلطة أو رأي في عهد أبيهم بسبب نفوذ تركان خاتون؛ وبمجرد أن قضى المغول على خوارزمشاه وتركان خاتون، دب النزاع بينهم بدلاً من أن يتحدوا للدفاع عن ممالك أبيهم. فكان أكبرهم وهو جلال الدين وعلى الرغم من شجاعته يشبه أباه في الافتقار إلى حسن التدبير، فأخذ يتخبط في مواجهة خصم

عاقل كجنكيزخان وقواده.

٩- بعد الحرب التي خاضها خوارزمشاه في قرابة سنة ٦١٢هـ ضد جيوش جوجي بن جنكيز والتي كانت أول مواجهة مع المغول، دب الرعب في قلبه من استبسال جنود المغول وحنكتهم في الحرب. وبعد عودته من سمرقند أخذ يشيد مراراً وتكراراً بثبات المغول في القتال ومعرفتهم بفنون الرماية والقتال بالسيف، وهو ما أخافه لدرجة أعجزته عن الصمود أمامهم؛ بل إنه في فراره كان يحذر الأهالي من المغول ويدعوهم للتسليم لهم وطاعتهم. وكان لخوفه وفراره تأثير سئ على الجنود وأهالي البلاد وأدى إلى انفراط عقد الجيش وضعف روح الدفاع عند الأهالي.

«وفي النهاية» (المعجم في معايير أشعار العجم، ص٦٤٤)

١٠- كان من العوامل الرئيسة لضعف الممالك الإسلامية وتصدعها وجود خليفة عباسي يحكمه هواه هو الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ) أمضى ستة وأربعين سنة في الخلافة بالظلم بين الناس وجمع المال وإرسال الجواسيس إلى مختلف البلاد والعبث والتظاهر بالفتوة. ولكي يتفرغ لعبثه أخذ يضرب سلاطين إيران ببعضهم البعض. ولما كان يخشى الخوارزميين بعد تحذير جواسيسه منهم، أخذ يدعو السلاطين في البلاد المحيطة سراً إلى قتال خوارزمشاه ويحث الغوريين على مواجهته. ولم يكتف هذا الخليفة العابث بذلك، بل أخذ يحث القراخطائيين والتتار غير المسلمين على القضاء على الخوارزميين. وحين ذهب السلطان جلال الدين منكبرني إلى عراق العرب يطلب من أمرائه ومن أمراء الجزيرة والشام والروم المساعدة لصد المغول والدفاع عن الإسلام، وبدلاً من تلبية دعوته أخذ يحثهم على صده وأرسل جيشاً لمحاربة منكبرني وعمل بتلك التصرفات الحمقاء على القضاء على ملكه وملك أسرته.

١١- قاتل أهالي مدن ما وراء النهر وإيران ببسالة في مواجهة المغول، وبذلوا تضحيات كبيرة في دفاعهم عن بلادهم، إلا أن التناحر بين الزعماء وقادة الجيش وخيانة الضباط الترك وافتقاد القائد المدبر وفرار خوارزمشاه لم تسمح لهذه البطولات بأن تتمخض عن نتيجة حاسمة. فكان دفاع إينالجق المستميت في أترار وتيمور ملك في خجند وملك شمس الدين الجوزجاني في هرات ومقاومة أهل خوارزم ونيسابور وهرات ونصرت كوه وغيرها دليلاً على أن روح الفداء بلغت عند

الناس ذروتها، إلا أنهم هُزموا نتيجة لتدهور أحوال رعايا خوارزمشاه وتداعي أساس دولته وصمود المغول وتنظيمهم وتعقل خانهم؛ ذلك أن تنظيم الإدارة يتفوق على القوة والتدبير والدفاع.

وبالإضافة إلى تدهور أوضاع البلاد الإسلامية المشار إليها، يمكن إجمال عوامل تقدم جنكيز في النقاط التالية:

١ - حنكة جنكيز وثباته وصبره وتواضعه.

٢- إطلاعه الكامل على أوضاع ممالك خوارزمشاه واستغلال معلومات التجار المسلمين والمترجمين والعارفين بالمسالك والطرق.

٣- الياسا الجنكيزية وأحكامها الصارمة في حفظ النظام بين المغول وإخضاعهم جميعاً لأمر واحد.

٤- الاتفاق التام بين قواده وأبنائه، حيث لم يكن لأي منهم رأي بعد رأي جنكيز، وكانوا جميعاً أدوات لتنفيذ أهدافه ولم تكن تساور أياً منهم فكرة الاستقلال أو التفوق على الآخر.

٥- الوحدة العرقية ووحدة اللغة والعادات والتقاليد ووحدة الهدف بين جنود جنكيز، وهو ما كان جنود خوارزمشاه يفتقرون إليه.

آثار الغزو المغولي:

كان غزو المغول للممالك الإسلامية العامرة في الشرق من أهم الأحداث التاريخية التي شهدتها تلك البلاد وكان لها تأثير غير مسبوق على مصير سكانها. فما عاناه الفرس من الغزو المغولي وما تلقته حضارتهم وأدبهم من صدمات نتيجة له يعد من أكبر الكوارث التي روينا قصتها الحزينة إجمالاً في الفصول السابقة.

اكتسح الغزو التتري الجامح الجزء الأكبر من العالم في ذلك العصر، أي من اليابان إلى ألمانيا، وأشاع الدمار في تلك الرقعة الشاسعة وقتل أهلها وشردهم. وقد تم ذلك بسرعة فائقة وبصورة قاسية مما حدى بأحد المؤرخين[١٥] إلى اعتبار هذا الغزو أقرب إلى الكارثة السماوية منه إلى الحدث التاريخي.

يقدم المؤرخون الإسلاميون لهذا الحدث التاريخي الجلل والصدمات التي تعرض لها أهالي ما وراء النهر وإيران والجزيرة والعراق والشام في تلك الكارثة المفاجئة شرحاً أليماً يصعب تصديقه لولا تسجيل المؤرخين الذين عاصروا الغزو المغولي والأفراد الذين رأوا تلك الكارثة رأي العين. يقول دوسون المؤرخ المعروف الذي وضع أهم تواريخ المغول وأشهرها في هذا الصدد:

«لو لم تكن وثائق أمم العالم تتفق على بشاعة المغول وتعطشهم للدماء لكان من العسير على المرء أن يصدق ما كتبه مؤرخو الشرق عن هذا الموضوع. إلا أن الشهادة التي أدلى بها مؤرخو الغرب عن وحشية المغول وما رووه عنهم في هذا الصدد تتطابق تماماً مع ما ورد في تواريخ الشرق».

ولإيضاح تلك المسألة ننقل فيما يلي ما كتبه بعض أهل الفضل ممن عاصروا المغول.

بعد ذكر أحداث الغزو المغولي يقول المؤرخ الإسلامي الشهير عز الدين بن الأثير الذي كان يعيش في الموصل والجزيرة إبان اكتساح المغول للممالك الإسلامية الشرقية وانتهى من تدوين كتابه المعروف كامل التواريخ في سنة ٦٢٨هـ أي قبل عامين من وفاته:

ويقول شمس الدين محمد بن قيس الرازي صاحب كتاب المعجم في معايير أشعار العجم إنه ظل يهرب أمام سيل المغول وواجههم عدة مرات:

ويشير الأديب والجغرافي المعروف شهاب الدين ياقوت الحموي (٥٧٥-٦٢٦هـ) الذي فرَّ من خراسان إبان الغزو المغولي في مواضع شتى من كتابه معجم البلدان إلى فظائع المغول ومذابحهم، ويتحدث تفصيلاً في رسالة كتبها بعد فراره من خراسان إلى الوزير القاضي أبي الحسن علي بن يوسف القفطي صاحب حلب بتاريخ ٦١٧هـ عن أحوال خراسان بعد تدميرها. وقد أورد ابن خلكان النص الكامل لهذه الرسالة في تاريخه ضمن ترجمته لياقوت. وتتضمن هذه الرسالة وصفاً لأوضاع خراسان قبل غزو المغول لها وبعده. وفي تلك الرسالة يشير ياقوت إلى سبب إقامته في مروشاهجان. وبعد وصف درجة عمرانها وارتفاع مكانة العلم والأدب فيها يصفها دون مبالغة بأنها نموذج للجنة.

وضمن وقائع سنة ١٢٣٠م (٦٣٧-٦٣٨هـ)، يقول ماتيو باري[١٦] الذي كان من مؤرخي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وعاصر اجتياح المغول لتلك المنطقة:

«في هذه السنة، انطلقت أمة ملعونة من نسل الشيطان بجيش جرار من التتار من مواطنها الجبلية وعبرت معابر جبال القوقاز وتدفقت جموعهم كالجراد أو زبانية جهنم[١٧] فوق الأرض واتسع نطاق دمارها ليشمل المناطق الشرقية من أوربا وأحالتها يباباً بلقعاً وأغرقت أهلها في دماء ونيران. وبعد أن استولى هؤلاء التتار على بلاد المسلمين خربوا المدن وقضوا على الغابات وهدموا القلاع واجتثوا الأشجار من جذورها وسووا الرياض بالأرض وسفكوا دماء الأهالي. وإذا تصادف أن أخذتهم الشفقة ببعض الأبرياء كانوا يجبرونهم على أسوأ أشكال العبودية بوضعهم في مقدمة جيش المغول ضد أقربائهم وجيرانهم. ومن كان يقرر الهرب أو يختبئ أملاً في النجاة كان المغول يطاردونه ويذبحونه كما يذبح الجزار الشاة. وإذا أبدي أحد الناس شجاعة في الحرب معهم وانتصر كانوا يجبرونه على معاملة أسراه بالمعاملة نفسها التي كان يلقاها من أسياده.

كان التتار أمة حيوانية، بل كانت الغيلان أفضل منهم؛ فقد كانوا يبدون حرصاً غريباً على سفك الدماء، وكانوا يمزقون لحم الكلاب والبشر ويخلطونه ويأكلونه، وكان لباسهم من جلد الثيران ويصنعون أسلحتهم من ألواح الحديد. وكانوا قصار القامة وأقوياء البنية وشديدي الاحتمال ولا يدركهم التعب. ولم يكونوا يغطون ظهورهم برداء يحميه، بل كانوا يغطون صدورهم بالدروع ويتلذذون بشرب دماء حيوانات قطعانهم صافية. وكانت جيادهم القوية تأكل أغصان الشجر. ولما كان المغول قصار القامة فقد كانوا يصعدون ثلاث سلمات لكي يركبوا خيولهم هذه. وكان المغول يفتقرون إلى القوانين عامة ولا يعرفون أية وسيلة من وسائل الراحة. وهم أشرس من الأسود والدببة. وهم يصنعون من جلود الثيران قوارب ويضعون عشرة منها متجاورة. وهم مهرة في قيادة القوارب بحيث كانوا يعبرون أعرض الأنهار وأعمقها دون عناءوحين لا يتوفر لهم الدم ليشربوه كانوا يشربون الماء المعكر بالطين. وكانت أسلحتهم عبارة عن سيف أحادي النصل وخنجر. وهم في القتال لا يعرفون امرأة أو رجلاً ولا يرعون سناً ولا حالة، ولا يعرفون لغة غير لغتهم، وهي لغة لا يفهمها أحد غيرهم. ولم يكن الوصول إليهم ممكناً إلا في أيامنا هذه، فلم يكونوا يغادرون ديارهم؛ لذا فإن أحداً لا يعرف عاداتهم وتقاليدهم. وكانوا في هجرتهم يصطحبون قطعانهم ونساءهم معهم، وكانت نساؤهم تشارك في الحروب. وسرعان ما وصل المغول بهذه الأحوال التي

وصفناها إلى حدود الممالك المسيحية وقتلوا كل من وجدوه أمامهم بأبشع الطرق وأشدها وحشية. وحيثما وضعوا أقدامهم وطؤوا كل شئ بأفظع صورة. لذا فقد فكَّر المسلمون في الاتحاد مع المسيحيين لعلهم بذلك يتمكنون من صد هذه الغيلان المتوحشة»

كان الفزع الذي أصاب الناس من اجتياح المغول مما يستحيل وصفه. فبعد سماع أنباء كوارثهم عجز كل البشر في الشرق والغرب على السواء عن الحركة ولم تواتهم الجرأة للإقدام على أي شئ.

يقول ابن الأثير:

وكان الأبشع من القتل والذبح وتخريب المدن والبلاد تلك الصدمة التي تلقتها الحضارة الإسلامية وعلوم العربية والفارسية وآدابهما. إلا أن هذه الكارثة كانت من الكوارث التي لا تظهر آثارها على الفور؛ بل يستغرق ظهورها قرناً أو قرنين من الزمان. فبعد ذبح آلاف العلماء والشعراء والأدباء وحرق المكتبات وتدمير المدارس ومعاهد العلم بات واضحاً أنه حتى إذا عاد الأمن والطمأنينة فلم يبق هناك عالِم يُستقى منه العلم ولا كتاب يُهتدى به. وبعد كل هذا الخراب بسط غراب الجهل جناحيه على كل البلاد العامرة القديمة.

يشكو عطا ملك الجويني الذي دوَّن تاريخه بعد ما يقرب من نصف قرن من اجتياح المغول من هذا الوضع الأليم ويقول:

«بسبب تغير الزمان وتأثير الفلك الدوار اندرست المدارس وانطمست معالم العلم وانطوت فئة طلاب العلم تحت ركلات الملمات. والفن الآن لا وجود له إلا تحت التراب فقد توارت كل القلوب العامرة بالفنون تحت الثرى ... وقد خلت الأرض عامة ومدن خراسان خاصة من زينة العلوم وحلية الفنون والآداب بعد أن كانت مطلع السعادة والمبرات وموضع الخيرات ومنبع العلماء ومجمع الفضلاء ومربع أهل الفنون ومرتع الحكماء. فأصبح الكذب والتزوير يسمى وعظاً وتذكيراً، وأضحت النميمة هي الصرامة والشهامة وباتت اللغة والخط الأويغوري هو الفضل والفن. وفي زمن يعد القحط فيه هو المروءة والفتوة، وحين يعم الجهل والضلال يُمتحن الأخيار ويبتلون ويعلو نجم الأشرار، ويقع الكريم الفاضل في فخ المحن بينا ينعم اللئيم الجاهل بالخيرات، ويذل العزيز ويعز الذليل» (جهانگشاي جويني، ج١، ص٤، ٥)

٣ـ إيجاد علاقات سياسية بين آسيا وأوربا وتبادل السفراء بين خوانين المغول وملوك دول أوربا المسيحية.

٤ـ إيجاد اتصال بين أهل العلم من الصينيين والأويغوريين والبوذيين والفرس والعرب والأوربيين وامتزاج أفكارهم ومعلوماتهم وانتشار التصوير الصيني في الممالك الإسلامية.

٥ـ انتشار اللغة الفارسية في ممالك آسيا الشرقية وعلو نجم الوزراء والحكماء الفرس في الممالك غير المسلمة الخاضعة للمغول ودخولهم في إدارات الصين وانتشار الدين الإسلامي في تلك البلاد.

تقسيم ممالك المغول:

كان لدى جنكيزخان العديد من الزوجات والمحظيات، ولكن كانت يسونجين بيجي هي أهمهن وأكبرهن عنده؛ لذا فإن أبناءه منها كانت لهم الميزة والتفوق على سائر أبنائه حسب عادة المغول. ومن بين أبنائه السبعة كان أبناؤه منها أربعة هم جوجي (أو توشي) وجغتاي وأقطاي وتولوي (أو تولي) وكان يستعين بهم في الملمات. وقد كلَّف كلاً منهم في حياته بتنفيذ جزء من تقاليد المغول والقيام بالشؤون الملكية والقومية. فاختار أكبرهم وهو جوجي للصيد الذي كان من أهم الأمور وجزءاً لا يتجزأ من لوازم الحرب عند المغول. وكلَّف ابنه الثاني جغتاي بتنفيذ الأحكام الجنكيزية والعقوبات. وفوض أقطاي لإدارة شؤون الإمبراطورية وأسند مهمة تعبئة الجيوش وتجهيزها لتولي. وكان لكل من أبناء جنكيز الآخرين لقب في الجيش ويؤدون مهامهم العسكرية فيه تحت قيادة إخوتهم وأبيهم.

وتم تقسيم ممالك التتار بعد فتح الصين الشمالية وبلاد الكرائيت والنايمان والأويغور والتنجغوت والقراخطائيين والخوارزمشاهيين في حياة جنكيز على النحو الآتي:

١ـ الخطا، أي الصين الشمالية، من نصيب أتوكين نويان شقيق جنكيز.

٢ـ الممالك الواقعة بين مدينة قباليغ وهي من مدن بلاد كاشغر حتى أطراف مدينة بلغار[١٨] أي حتى نهاية الحد الذي وصل إليه جيش التتار من ناحية الغرب، وكانت من نصيب جوجي. وكانت هذه الممالك تضم الوادي الأعلى من نهر سيحون وأراضي خوارزم وصحراء قبجاق وبلاد عشائر

الفصل الرابع
ولاية خلفاء جنكيز حتى عهد هولاكو

السلطان جلال الدين في الهند:

بعد أن نجا السلطان جلال الدين من قبضة جنود جنكيزخان وعبر نهر السند، عاش مع خمسة أو ستة من رفاقه لمدة على الضفة اليسرى من ذلك النهر إلى أن جمع عدداً من الناس حوله وقويت شوكته عن طريق الإغارة على الهنود ونهب دوابهم وأسلحتهم. وانضم إليه الفارون من جيش خوارزمشاه، إلى أن بلغت أنباء تعاظم قوته مرة أخرى إلى المغول، فجردوا جيشاً لقمعه. ولم تكن لجلال الدين طاقة لمقاومتهم؛ فتحاشاهم واتجه إلى دهلي.

وبعد أن ذاع صيت قوة جلال الدين في السند وعبوره سالماً من نهر السند، قام ناصر الدين قُباجة حاكم بعض ولايات السند بإرسال ابنة أمين الملك بكل إجلال إلى زوجها السلطان جلال الدين بعد أن أنقذها من النهر، وهو ما أسعد جلال الدين فاتصل الود بين الجانبين؛ ولكن سرعان ما تعكر صفو الود بينهما. وكان السبب في ذلك أن شمس الملك شهاب الدين إلب وزير جلال الدين ذهب إلى قباجة بعد فرار السلطان. وقد كان وزيراً كفؤاً، فعينه قباجة وزيراً له. وقد أفضى إليه الوزير بكل أسراره ظناً منه أن جلال الدين قد اختفى. وما إن تبين كذب ظنه حين طلب السلطان من قباجة أن يرسل إليه شمس الملك حتى سارع قباجة بقتل شمس الملك، كما قتل رعاياه ابن أمين الملك الذي كان قد لجأ أيضاً إلى بلاده. فخرج جلال الدين مع بعض أمراء أخيه غياث الدين الذي كان قد انضم إليه بغزو بعض المدن الخاضعة لحكم قباجة. ومع أنه أصيب بسهم في ذراعه فقد حقق بعض الفتوحات. وكان من أقوى حكام الهند الغربية في ذلك العهد إلى جانب ناصر الدين قباجة، شمس الدين ألتُتمش (٦٠٧-٦٣٣هـ) الذي كان من غلمان سلاطين الغور والذي أسس الأسرة الشمسية في دهلي، وأصبح من أشهر سلاطين الهند فيما بعد.

وقبل شروعه في الكر والفر في الهند، أوفد السلطان جلال الدين رسولاً إلى شمس الدين في دهلي يطلب منه العون؛ إلا أن شمس الدين كان يخشى قوة السلطان جلال الدين فمنع رجاله من

وكان من بين الممالك الإسلامية ثلاث مناطق لم تطأها سنابك خيل المغول حيث سد أمراؤها وسلاطينها الطريق على المغول إلى بلادهم بقبولهم دفع الخراج والخضوع لهم فلم يتركوا مدنهم للمصير الذي لقيته ما وراء النهر وخراسان. وكانت هذه المناطق الثلاث هي جنوب إيران وبلاد الروم والهند الغربية، وهي مناطق كانت تمثّل المراكز الرئيسة لانتشار اللغة الفارسية وكان أمراؤها من كبار رعاة الأدب والشعر بهذه اللغة. لذا فقد صارت هذه المناطق الثلاث ملاذاً للفارين من مذابح التتار والساعين لقضاء بقية أعمارهم في أمان في رعاية أمراء محبين للأدب والعدل. ويمكن القول إن المغول لو كانوا قد خرّبوا هذه المناطق وقتلوا أهل العلم فيها وأحرقوا كتبهم لما بقيت الكتب التي وصلتنا من أعمال شعراء الفارسية وأدبائها.

كان جنوب إيران في ذلك العهد تحت حكم الأمراء السلغوريين أي أتابكة فارس ممن يرعون الفضل والأدب. وقد حظي إقليم فارس في كنفهم بالأمن فبقيت ذكراهم العطرة في أشعار سعدي الشيرازي أحد كبار شعراء الفارسية جزاء لرعايتهم له. فبقبولهم لدفع الخراج وطاعة المغول أسدوا للغة الفارسية خدمة جليلة. ويقول سعدي في مدحه للأتابك أبي بكر بن سعد:

سد الاسكندر طريق يأجوج إلى الدنيا بحائط من النحاس والحجارة

وأقمتَ أنت سداً من ا لذهب أمام يأجوج لا من النحاس كالاسكندر

وسنأتي فيما بعد إلى ذكر أحوال بلاد الروم والهند.

ومع ذلك فقد كان لاجتياح المغول تاثيرات إيجابية نسبياً بعد ما أحدثوه من خراب ودمار وقتل وما نجم عن غزوهم من انحطاط للحضارة الإسلامية والأدب الفارسي. ونكتفي في هذا المقام بتعداد هذه الإيجابيات بصورة مختصرة إلى أن نفصل القول فيها في الفصول التالية:

١- توحيد كل ممالك آسيا ذات الحضارات من ساحل المحيط الهادي وحتى البحر المتوسط في ظل حكومة ونظام إداري واحد.

٢- تأمين الطرق وإزالة الحواجز التي حالت من قبل دون اتساع العلاقات التجارية وذلك بسبب الشقاق والعداء بين دول المنطقة. وقد أدى ذلك إلى انتعاش التجارة والتبادل التجاري بين آسيا الشرقية والغربية من ناحية، وآسيا وأوربا من ناحية أخرى.

قتل رسوله بالسم، وحمله بالهدايا إلى السلطان ورسالة يقول له فيها إن المناخ في تلك المنطقة غير ملائم ومن الأفضل للسلطان أن ينتقل إلى مكان يليق به. فاتجه جلال الدين إلى أطراف لاهور وتزوج ابنة أحد راجات الهند وشن هجوماً بعون منه على ناصر الدين قباجة وأنزل به هزيمة نكراء وغنم غنائم وفيرة.

وفي ذلك الوقت كان السلطان شمس الدين قد جهز جيشاً قوامه ثلاثين ألف جندي وجرده لصد جلال الدين؛ إلا أنه انهزم على يد أحد قواد جيش جلال الدين، فاضطر شمس الدين للدخول إليه من باب الاعتذار والصداقة. وفي ذلك الوقت، بلغ جلال الدين نبأ استيلاء أخيه غياث الدين على العراق وغزو براق الحاجب لكرمان وميل قواد الجيش إليه، فغادر الهند وعاد إلى إيران.

تاسيس أسرة قراخطائيي كرمان في سنة ٦١٩هـ:

اتجه السلطان جلال الدين وأتباعه إلى كرمان عن طريق مكران. وفي منتصف الطريق، هلكت كثرة من جنده بسبب العطش وفساد المناخ ولم يصل إلى كرمان منهم سوى أربعة آلاف تقريباً. كانت كرمان في ذلك الوقت خاضعة لحكم براق الحاجب الذي تولى من قَبْل منصب الحاجب في بلاط الجورخان القراخطائي وأوفد كسفير من جانب الجورخان (إبان وقوع الخلاف بينه وبين خوارزمشاه) إلى بلاط السلطان محمد الذي لم يسمح له بالعودة. وبعد سقوط القراخطائيين، ولاه خوارزمشاه منصب الحاجب في بلاطه.

وبعد ضعف السلطان محمد، كان براق الحاجب الذي كان يعمل في خدمة غياث الدين ابن السلطان قد علا نجمه كثيراً لدى هذا الأمير حتى إنه ولاه حاكماً على كرمان من قبله حين عزم على التوجه لفتح العراق، واستولى براق على قلعة جواشير واتخذ منها مقراً له. وبعد أن جاء جلال الدين من الهند إلى كرمان، أرسل إليه براق الحاجب كثيراً من الهدايا وأبدى طاعته له. ومع أن جلال الدين قد تأكد له نفاقه وخيانته وسعى بعض الأمراء لإقناعه بالقبض على براق والاستيلاء على كرمان، فإنه لم ير في ذلك صلاحاً؛ ولما كان في عجلة من أمره، فقد ترك براق في كرمان واتجه

القومان (روسيا الجنوبية) وبلغار وباسقرد (على سفوح جبال الأورال) وبلاد القرغيز (سيبيريا الغربية) . ونظراً لوفاة جوجي قبل أبيه فقد آلت تلك الممالك لابنه باتو .

٣- ممالك القراخطائيين السابقة وما وراء النهر وقد آلت لجغتاي . وكانت حدود مملكته تشمل بلاد الأويغور وسمرقند وبخارى ومدن آلماليغ وترفان وقره شهر وكاشغر ويارقند وختن وفرغانة وچاچ وأترار وبناكت وبدخشان وبلخ وباميان وقندوز ، أي المنطقة التي تعرف اليوم عموماً باسم تركستان (سواء تركستان الغربية أو الشرقية أو تركستان الأفغانية) . وكانت عاصمته مدينة قناس، وهي من المدن المجاورة لآلماليغ .

٤- المعسكر الأصلي لأجداد جنكيز، أي وديان أنهار كيرولين وأنن وأرخن وسفوح جبال قراقروم، وقد آل حسب تقاليد المغول إلى أصغر أبناء جنكيز، أي تولي . وقد تولى الحكم محل أبيه لمدة عامين (من ٦٢٤هـ إلى ٦٢٦هـ) إلى أن تم تعيين خليفة جنكيز رسمياً، مستعيناً بثلاثة من المستشارين .

٥- وكان نصيب أقطاي ولي عهد جنكيز أقل من أنصبة بقية إخوته وكان ينحصر في منطقة جبال تارباجاتاي وأطراف بحيرة آلاجول وحوض نهر إيميل الذي يصب في تلك البحيرة ويقع إلى الغرب من منغوليا .

وكان موطن كل من خلفاء جنكيز يعرف باسم يورت ويعرف رعايا كل من أبنائه باسم أولوس باللغة المغولية . والمقصود بكلمة « أولوس » مجموع ممالك أبناء جنكيز الأربعة . وكانت إدارة ممالك إيران تمثل حالة خاصة سنتطرق إليها فيما بعد .

حواشي:

١- طبقات ناصري، ص٣٧٣ .

٢- لم يكن التتار والنايمان وأسرة أباطرة كين والتنغوت والقراخطائيون والخوارزمشاهيون وحتى الأفغان الآريين يتورعون عن التنكيل بالمغول .

٣- في بداية محاصرة جنكيز لقلعة نصرت كوه في سنة ٦١٧هـ، كلف خان المغول عدداً من قواده وصهره قوتوقو نويان والحاجب ومعهم خمسة وأربعون الف جندي بفتح بلاد الغور وخراسان، فاغاروا على كل مدن طخارستان والغور . وبعد محاصرة قلعة آستيه وهي من قلاع الغور، استسلم محافظها تاج الدين حبشي بن عبدالملك، واخذه المغول إلى جنكيز الذي

لقب الملك تاج الدين بخسرو غور وأعاده مع الحاجب إلى الغور، إلا أنه انقلب على المغول بعد هزيمة السلطان جلال الدين فقتلوه (طبقات ناصري، ص٣٤٤-٣٤٥).

٤- جهانگشاي جويني، ج١، ص١٨.

٥- طبقات ناصري، ص٣٣.

٦- وردت هذه الكلمة وأصلها في المغولية دزْ اساك في الكتب العربية والفارسية بأشكال مختلفة من قبيل ياسا وياسه ويَساق وياساق ويسَق؛ وكانت تطلق أصلاً على الفرمان أو الحكم الذي يصدره أي ملك أو أمير. ولما كان أحد أقسام إلياسا الجنكيزية المتعلقة بالعقوبات المفروضة على معظم الجرائم ينص على جريمة القتل، فقد أصبح من معاني كلمة «ياسا» القتل والموت. والمصدر من هذه الكلمة «ياساميشي» معناه السياسة وإدارة دفة الأمور. كما وردت أحكام الجنكيزية أيضاً بلفظ «توره»، ومعناها بالمغولية العادات القومية ودستور الأجداد. وترد كلمة يوسون مع كلمة ياسا في كتب التاريخ الخاصة بالمغول. وهي كلمة مغولية أيضاً وتعني النهج والطريقة.

٧- فتعرف الياسا الكبرى باسم «تونجين» ومعناها الحرص وعلم اليقين (تاريخ وصاف، ص٥٦٠).

٨- وقد دخلت هذه الكلمة اللغات الأوربية أيضاً واتخذت تدريجياً معنى الجيش ورفاق الخان، وبمعناها نفسه في الفارسية. وكلمة horde في الفرنسية تعد تحريفاً لهذه الكلمة.

٩- والمحظية بلغة المغول تُسمى قوما.

١٠- جهانگشاي جويني، ج١، ص١٤٧-١٤٩.

١١- وتعرف في المغولية بكلمة أياغ.

١٢- وتُعرف باسم يوان چاءويي شي أي التاريخ السري لأسرة يوان وهو نفس التاريخ الأسطوري للمغول. وقد استقينا معظم موضوعات هذا الجزء من كتاب بارتولد *Turkestan*, pp. 285-9.

١٣- أُلاغ أصلاً بمعني البريد وتطلق أيضاً على الرسول أو المبعوث. وقد دخلت هذه الكلمة اللغة الفارسية قبل فتح المغول لإيران في عهد حكم القراخطائيين لما وراء النهر.

١٤- كان خاتم الحبر الأسود يعرف باسم قرا تمغا، وخاتم ماء الذهب باسم آلتون تمغا.

١٥- دوسون D'Ohsson مؤلف كتاب التاريخ المعروف للمغول.

١٦- Matthew Paris

١٧- كلمة Tartare في اللغات الأوربية تعني جهنم؛ وقد أطلق الأوربيون على التتار اسم تارتار بسبب التشابه اللفظي بين الكلمتين.

١٨- لا ينبغي الخلط بين مدينة بلغار التي تسكنها أغلبية مسلمة وتقع بالقرب من غازان الحالية بوسط روسيا وبين بلغاريا الحالية.

صوب شيراز.

أما أبناء خوارزمشاه الآخرين، فقد كان السلطان ركن الدين الملقب بغورسانجي والياً على العراق في عهد أبيه. وحين فر خوارزمشاه إلى مازندران، ذهب ركن الدين إلى كرمان حيث حشد جيشاً وعاد إلى العراق ومنها إلى أصفهان واستولى بعون من صدر الدين خُجندي على منطقة جوباره مقر القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد رئيس الشافعية وقتل عدداً من أتباعه. فذهب القاضي إلى الأتابك سعد بن زنكي في إقليم فارس. ولكن لما كان أهالي أصفهان يتذمرون من جنود السلطان ركن الدين لظلمهم وبطشهم فقد تمردوا عليهم وقتلوا عدداً منهم، فقد اتجه ركن الدين من أصفهان إلى الري حيث ظل في حالة صدام مع الإسماعيلية لفترة إلى أن انتشر خبر وصول المغول، فاحتمى ركن الدين بإحدي قلاع فيروزكوه، إلا أن المغول فتحوا تلك القلعة بعد ستة أشهر وقتلوا ركن الدين.

أما السلطان غياث الدين الملقب ببيرشاه فقد اتجه بعد وفاة أبيه إلى كرمان التي كانت منطقة خاضعة لحكمه في حياة خوارزمشاه. ولم يسمح له محافظ قلعة جواشير بالدخول اتجه غياث الدين إلى العراق أيضاً وجمع جنود أبيه وقواد جيشه من حوله وكان من بينهم براق الحاجب ويغان طايسي خاله الذي وجد الحظوة عنده وعلت منزلته لدى غياث الدين وقويت شوكته في الدولة حتى أوشك على الاستيلاء على العرش، وكان الخليفة الناصر يشجعه على ذلك سراً. وكان أتابك إقليم فارس وقاضي أصفهان يتعاونان معه أيضاً. وفي النهاية، تواطأ يغان طايسي مع بعض الأمراء وأعلن عصيانه لغياث الدين في سنة ٦٢٠هـ، إلا أنه لم يفلح في شئ وحلت به الهزيمة ولاذ قادة التمرد بالفرار إلى أذربيجان.

وبعد استيلاء غياث الدين على العراق وخراسان ومازندران مضى إلى أذربيجان، فتودد إليه الأتابك أوزبك وهو الأتابك قبل الأخير لهذه الدولة فزوَّج ابنته للسلطان غياث الدين وعاد الأخير إلى العراق. وفي أواخر سنة ٦٢٠هـ، اتجه السلطان غياث الدين إلى إقليم فارس لطرد الأتابك سعد من الإقليم؛ فلجأ الأتابك إلى قلعة اصطخر ودخل غياث الدين شيراز في أوائل سنة ٦٢١هـ واستولى على معظم مدن إقليم فارس. وانتهى الأمر بتقسيم الإقليم بين الأتابك والسلطان غياث

الدين. وفي تلك الآونة، وصلت أنباء زحف المغول إلى الري وتخريبهم للمدن الخاضعة لحكم غياث الدين، فغادر السلطان إقليم فارس بناء على طلب من الخليفة الناصر وعاد إلى العراق. وعندما استولى السلطان غياث الدين على العراق وفارس وأذربيجان وخراسان، جاء جلال الدين من الهند إلى كرمان كما سبقت الإشارة؛ وبعد ترك براق الحاجب في تلك الولاية، اتجه صوب شيراز وأوفد الأتابك سعد ابنه سلغور شاه لاستقباله وتزوج السلطان ابنة الأتابك وواصل طريقه إلى أصفهان حيث كان في استقباله القاضي ركن الدين مسعود بن صاعد.

وحين سمع غياث الدين نبأ مجيئ أخيه وفتوحاته، خرج ومعه ثلاثون ألف فارس لصده؛ إلا أن جلال الدين منع أخاه من الحرب بإرسال سفير إليه، فعاد غياث الدين إلى الري وانصاع معظم قواد الجيش لأمر جلال الدين. وحين وجد غياث الدين هذه الحالة، فر من وجه أخيه واستولى جلال الدين على الري وأعطى الأمان لأخيه وأبقاه في بلاطه بكل إعزاز إلى أن بدر منه خطأ فيما بعد حيث أقدم وهو في حالة سكر على قتل أحد ندماء السلطان، وحين عاتبه السلطان فر إلى خوزستان ثم إلى العراق وعاد منها مرة أخرى إلى خوزستان حيث أرسل رسولاً إلى براق الحاجب في كرمان، واتفق الطرفان على اللقاء في منطقة أبَرقو. وجاء غياث الدين إلى كرمان. وعلى الرغم من تظاهر براق بطاعة غياث الدين، فقد كان في الحقيقة يسيطر عليه ويعمل على إضعافه لدرجة أنه حمله على أن يزوِّجه أمه. وقد تقزز بعض أمراء براق من فعلته هذه، فاستأذنوا غياث الدين لقتل براق، ولكنه رفض. وحين علم براق بالأمر، قتل غياث الدين وأمه في سنة ٦٢٥هـ، واستقل بكرمان تماماً منذ ذلك الوقت. ولما كان مطيعاً للمغول، فقد ظل يحكم كرمان هو وأبناؤه لمدة ثلاثة وثمانين عاماً تقريباً (٦١٩-٧٠٣هـ)؛ وتعرف هذه الأسرة باسم قراخطائيي كرمان أو أسرة قُتلُغ خاني نسبة إلى لقب براق.

فتوحات السلطان جلال الدين:

بعد أن تغلب السلطان جلال الدين على أخيه وانضم غياث الدين إلى أتباعه وأمرائه اتجه إلى خوزستان حيث قضى صيف سنة ٦٢١هـ، ودخل جمع من زعماء قبائل اللر في طاعته. ثم أرسل

السلطان رسولاً من خوزستان إلى الخليفة الناصر يطلب منه العون لصد المغول. إلا أن الخليفة لم يلب دعوته نظراً لغضبه من تصرفات السلطان تكش والسلطان محمد خوارزمشاه جد السلطان جلال الدين وأبيه وبغضه للخوارزمشاهيين عامة؛ بل سعى لصده بأن أرسل أحد أمرائه ويدعى جمال الدين قشتَمر على رأس جيش قوامه عشرون ألف جندي لردعه، ودعا مظفر الدين كوكبوري (٥٨٦–٦٣٠هـ) صاحب أربيل لإرسال إمدادات تساعده على صد جلال الدين.

وبعد استيلاء جلال الدين على شوشتر وانتصاره على الأمير مظفر الدين وجه السبع عامل الخليفة على تلك المدينة وفتح البصرة وألحق الهزيمة بجيش جمال الدين قشتمر، مضى إلى العراق، وشرع جنوده الذين كانوا يفتقرون إلى معدات القتال والملابس والجياد في إيذاء الأهالي والإغارة على المدن، فساد الخوف أرجاء العراق. وتقدم جلال الدين بجيشه حتى قرية بعقو على بعد سبعة فراسخ من بغداد؛ إلا أنه بدلاً من أن يخلّص بغداد من سطوة الخليفة الحقود ويثأر للكوارث التي حاقت بجده وأبيه على يديه، مضى إلى دقوقا وحاصرها واستولى عليها. وبلغه في تلك المدينة أن مظفر الدين صاحب أربيل يتقدم على رأس جيش كبير لمهاجمته. فسارع السلطان بمباغتة مظفر الدين وألقى القبض عليه، إلا أنه أحسن معاملته وأعاده إلى ملكه واتجه هو إلى أذربيجان.

بعد أن تم إخضاع غياث الدين على يد جلال الدين، فرَّ يغان طايسي إلى أذربيجان وانضم إلى الأتابك أوزبك في معارضة جلال الدين؛ فمضى إلى العراق وأرسل الخليفة الناصر له مرسوماً بتنصيبه والياً على همدان وحرَّضه على معاداة جلال الدين. وبعد أن أغار على أذربيجان مرتين وجمع خمسين ألف فارس أسرع إلى همدان واتخذ منها مقراً له.

وتزامن قدوم يغان إلى همدان مع وصول جلال الدين إلى مراغة. وما أن بلغ السلطان نبأ استيلاء يغان على همدان، أسرع إليه من مراغة وحاصر جيشه. وحين وجد يغان أنه على وشك السقوط في يد السلطان، أرسل زوجته التي كانت ابنة السلطان محمد خوارزمشاه وشقيقة كل من جلال الدين وغياث الدين إلى السلطان كاعتذار له؛ فعفا السلطان عنه وضمه إلى أمرائه وعاد إلى أذربيجان.

كانت أذربيجان وأرّان في ذلك الوقت تحت سيطرة الأتابك أوزبك بن الأتابك محمد جهان

پهلوان؛ وقد تزوج ابنة طغرل الثالث آخر ملوك سلاجقة العراق. وكان رجلاً يفتقر إلى الكفاءة والملك، وكان يقضي حياته بين الشراب والفسق، فعانى الأهالي وعمال الدولة والمسؤولين كثيراً على يديه. إلى جانب أن خطر زحف الكرج الذي تكرر كثيراً سلب الأهالي الراحة. ففي سنة ٦٢٢هـ، شن الكرج هجوماً على بلاد شروان وأران وأذربيجان، ولكنهم انهزموا أمام المقاومة المستميتة من جانب المسلمين.

وبعد أن علم الأتابك أوزبك بقدوم جلال الدين، غادر تبريز وفرَّ إلى كنجة تاركاً البلاد بين يدي زوجته. وحاصر جلال الدين تبريز؛ وبعد سبعة أيام من المناوشات بين الطرفين، طلب أهالي تبريز الأمان وفي ١٧ رجب ٦٢٢هـ، سلموا المدينة لجلال الدين. ومع أن السلطان كان يكره أهالي تبريز وكان يعتبرهم متواطئين في قتل جنود الخوارزمشاهيين وإرسال رؤوسهم إلى المغول، فقد عفا عنهم وأرسل زوجة الأتابك مع جماعة آخرين بكل احترام إلى خوي ولم يتعرض لممتلكاته. ثم بادر بحسن معاملة الأهالي وتشييد المباني وتليت الخطبة باسمه؛ وانشغل بتجهيز الجيش لتأديب الكفار الكرج.

حرب جلال الدين ضد الكرج في سنة ٦٢٢هـ:

بعد أن استولى السلطان جلال الدين على تبريز، ولما كان ينوي الجهاد ضد الكفار الكرج، فقد أوفد القاضي مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمي سفيراً من قبله إلى السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي (٦١٦هـ-٦٣٤هـ) ملك الروم وإلى ملوك الشام يطلب منهم العون لصد أعداء الإسلام.

وظل القاضي مجير الدين في تلك المنطقة حتى بعد فتح تفليس حيث عاد إلى بلاط السلطان..

كان الكرج قد ملوا من الهزائم التي لحقت بهم على يد مسلمي شروان وأذربيجان؛ وحين علموا بسقوط ممالك الأتابك أوزبك في يد جلال الدين وأفول نجم دولته، فكروا في الثأر لهزائمهم والحصول على نصيب من ممالك الأتابك، فجردوا جيشاً إلى أران وأذربيجان، وكان هدفهم بعد الاستيلاء على أذربيجان هو الزحف على بغداد وتنصيب حاكم من قبلهم بدلاً من الخليفة وتحويل المساجد إلى كنائس.

بعد أن علم الكرج بنية السلطان جلال الدين في الهجوم عليهم، أرسلوا إليه رسالة فحواها أن المغول بكل ما لهم من قوة امتنعوا عن مهاجمة كرجستان بعد أن وصلوا إلى مشارفها؛ ومع أنهم انتصروا على خوارزمشاه وغزوا كل تلك المدن فقد ألقوا السلاح أمام الكرج وعبروا حدود كرجستان بكل حذر. وفي النهاية حين علموا بأن جلال الدين لن يتراجع عن قراره نتيجة لهذا التخويف وأنه عازم على غزو أراضيهم، جهزوا جيشاً يناهز السبعين ألف رجل وشنوا هجوماً على مدن أران.

خرج جلال الدين بجيش جرار وهاجم جنوب بحيرة سفان (كوكجة الحالية) واستعاد مدينة تفين أو دفين وهي من المدن المسلمة القريبة من إيروان الحالية وكان الكرج قد انتزعوها من أيدي المسلمين من قبل.

كان حكم كرجستان في ذلك الوقت في يد امرأة تدعى روسودان (٦٢٠هـ-٦٤٥هـ). وقد أرسلت أحد قوادها ويدعى إيفاني لصد جلال الدين. وانتصر السلطان على جيش الكرج في منطقة جرني التي كانت من نواحي أرمينيا وتقع إلى الجنوب من بحيرة سفان، وألقي القبض على الشقيقين اللذين كانا يتوليان قيادة طليعة الجيش الكرجي وهما إيفاني وشلقة١ وحلت بالكرج هزيمة نكراء وهلك من جيشهم ما يقرب من عشرين ألف رجل. وتوغل جلال الدين في زحفه حتى مشارف بلاد الأبخاز، وأراد فتح تفليس (عاصمة الكرج) لولا أنه قد بلغه أن بعض أهالي تبريز قد أعلنوا العصيان وقتلوا عدداً من أتباع الأتابك أوزبك، فعاد إلى أذربيجان.

حين خرج جلال الدين لقتال الكرج، ترك وزيره شرف الملك في المدينة؛ إلا أنه قبل أن ينتصر على الكرج، تلقى رسالة من شرف الملك تفيد بأن شمس الدين طغرائي وابن أخته نظام الدين رئيس بلدية تبريز قد أعلنا العصيان تأييداً للأتابك. فأخفى جلال الدين نبأ هذه الواقعة عن قواد جيشه، وبمجرد أن انتصر على الكرج، ترك جيشه في كرجستان وعاد إلى تبريز حيث اعتقل نظام الدين وقتله، وأخضع بقية المتمردين وأخضع أهالي المدينة لطاعته من جديد. وكانت زوجة الأتابك قد أرسلت له رسالة تعرب فيها عن رغبتها في الزواج منه وأنها مطلقة شرعاً، فعقد السلطان عليها.

وبعد فترة من إقامة جلال الدين في تبريز، جرَّد جيشاً إلى كنجة التي كانت عاصمة أران ومكان إقامة الأتابك أوزبك واستولى عليها وفرَّ الأتابك إلى قلعة النجك بالقرب من نخجوان. وحين بلغه نبأ زواج الملكة من جلال الدين، سقط مريضاً ومات كمداً بعد ذلك بقليل.

فتح تفليس في ٨ ربيع الأول ٦٢٣هـ:

حين كان جلال الدين في تبريز، قام الكرج بحشد قوات جديدة من عشائر لان ولزكي والقبچاق لتعويض الهزيمة التي لحقت بهم وشرعوا في مهاجمة جيش جلال الدين والمدن التي استولى عليها. فعاود جلال الدين الكرة بجيش كبير وأمر بقتلهم جميعاً دون هوادة، وكذلك فعل المسلمون حين فتحوا تفليس عاصمة الكرج ومقر الملكة روسودان.

نظراً لعدم قدرة الملكة على المقاومة، فقد خرجت من تفليس وعهدت إلى كل من ممنا وبوتزو وهما من قواد جيشها بالدفاع عن المدينة. واستولى جلال الدين على تفليس في الثامن من ربيع الأول من سنة ٦٢٣هـ وذبح أهالي تلك المدينة الكبيرة ذات الكثافة السكانية ولم يبقِ إلا على من أعلن إسلامه منهم. وباع جند جلال الدين نساء الكرج وأطفالهم كإماء وعبيد وقتلوا الرجال وتوسَّعوا في القتل إلى كل المدن المسيحية الواقعة جنوب تفليس وكانوا في هذه المذبحة أشبه بالمغول.

يشبِّه المسيحيون مذبحة تفليس بمذبحة أورشليم على يد تيتوس إمبراطور الروم، ويعتبرونها من أكبر الضربات التي وجِّهت للمسيحية في القوقاز. أما المسلمون الذين عانوا الكثير من الأذى من جانب الكرج منذ أن استولى الكرج على تفليس في سنة ٥١٥هـ، فقد فرحوا فرحاً شديداً بفتح تلك المدينة ورفعوا جلال الدين إلى مكانة السلطان محمود سبكتكين وغيره من الفاتحين العظام واعتبروا ظهوره هبة إلهية للدفاع عن الإسلام.

وفي الوقت الذي كان فيه جلال الدين في كرجستان منهمكاً في تعقب فلول الكرج، بلغه نبأ بأن براق الحاجب رفع راية العصيان في كرمان وانتهز فرصة بعد السلطان للاستيلاء على العراق، وأنه أرسل للمغول يرهبهم من كثرة جند جلال الدين وقوتهم. وكان السلطان ينوي التوجه إلى

أرمينيا وفتح قلعة أخلاط، فترك وزيره شرف الملك في تفليس وعاد في سبعمئة من فرسانه إلى كرمان. وحين سمع براق بوصول السلطان فجأة، أبدى اعتذاره وعفا عنه السلطان وأبقاه في حكومة كرمان ومضى إلى أصفهان. ولم يكد يستريح من تعب الطريق حتى بلغه نبأ عودة حشود الكرج وتحرش جند صاحب قلعة أخلاط بجيشه؛ فاضطر السلطان إلى العودة إلى كرجستان وأرمينيا.

السلطان جلال الدين والملوك الأيوبيون:

كانت الجزيرة العربية والشام ومصر تخضع لحكم الأيوبيين، أي أبناء صلاح الدين المجاهد الكردي الشهير، كما سبق أن ذكرنا. فكانت حران والرها في يد الملك الأشرف مظفر الدين موسى (٦١٥هـ-٦٣٥هـ)، ودمشق في يد أخيه الملك المعظم عيسى (٦١٥هـ- ٦٢٤هـ) ومصر في يد أخيه الآخر الملك الكامل محمد (٦١٥هـ-٦٣٥هـ).

كان الملك المعظم منبهراً بجلال الدين، وكان يباهي بالعباءة والجواد اللذين كان السلطان قد أهداهما إليه. ولم يكن الود موصولاً بينه وبين إخوته، فدعاه السلطان جلال الدين للاستيلاء على قلعة أخلاط (على الساحل الشمالي لبحيرة وان) التي كانت في يد الملك الأشرف؛ وكان السلطان يعتزم تجريد حملة إليها لولا أن بلغه نبأ تمرد براق فأسرع إليه لقمع تمرده.

وفي غياب السلطان جلال الدين، شرع وزيره شرف الملك في مهاجمة أراضي الكرج وأطلق يده في إسراف. وقد وضع قادة الجيش العراقيل في طريقه نظراً لسوء العلاقات بينهم وبينه. وحين ضاق طريق المؤن على جنود جلال الدين، وجههم شرف الملك للإغارة على حدود أرزنة الروم وأخلاط؛ فقام الجنود بالإغارة ونهب هذه المنطقة، إلا أن نائب الملك الأشرف في أخلاط وهو الحاجب حسام الدين علي الموصلي تمكن من صدهم واسترد كثيراً من الغنائم التي حصلوا عليها. فلم يجد شرف الملك بداً لصد الكرج وجنود الملك الأشرف وقادة الجيش المعارضين له سوى استدعاء السلطان الذي كان في العراق وإرسال الرسل لطلب الإمدادات إلى كرجستان وأرمينيا.

وصل السلطان جلال الدين من العراق إلى تفليس في رمضان ٦٢٣هـ. ومنح شرف الملك أربعة

آلاف دينار لمن جاءوه ببشرى وصوله. وسارع السلطان بتجهيز الجيش وحاصر إيڤاني قائد جيش الكرج الذي كان قد حشد فلول جيشه بعد الهزيمة. وقام جزء من جيش السلطان بمحاصرة قارص، ولكن نظراً لشدة استحكام قلعتي هاتين المدينتين، صرف السلطان النظر عن فتحهما ومضى إلى تفليس. وبعد شن هجوم على حدود الأبخاز عاد إلى تفليس. وكان هدفه خداع الحاجب على محافظ قلعة أخلاط الذي بذل كل جهد للدفاع عن قلعته. لذا فبعد مناوشات على حدود الأبخاز، شن هجوماً مباغتاً على قلعة أخلاط، ولكنه قبل أن يصل إلى المدينة، كان بعض الخونة في جيشه قد أطلعوا الحاجب على هدف السلطان. ومع أن السلطان سارع إلى تلك المدينة فإنه لم يتمكن من فتحها بسبب الدفاع المستميت من جانب أهلها الذين عانوا الكثير على يد الجنود الخوارزميين. كما أبدى الحاجب علي دفاعاً مستميتاً. وفي النهاية، ترك السلطان أخلاط في ٢٣ ذي الحجة ٦٢٣هـ وعاد إلى أذربيجان بسبب بدء فصل الشتاء ووصول نبأ هجوم التركمان على أذربيجان.

كانت طائفة من التركمان المعروفين بتركمان إيوائي قد هاجمت أطراف أُشنو وأرومية وخوي في الفترة التي كان جلال الدين فيها في كرجستان وأخلاط وأغاروا على أذربيجان وزحفوا حتى أطراف تبريز. ولم يكن جلال الدين يولي هجومهم أهمية كبيرة في بادئ الأمر؛ ولكنه في النهاية اضطر لمواجهتهم بسبب استغاثة الملكة زوجته في رسالة منها، وذبح كثيراً منهم وخلص أذربيجان من شرورهم. وبعد عودة جلال الدين إلى أذربيجان، ذهب الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم وتصالح معه وطلب منه العون على صد جلال الدين. واتفق الأخوان على الدفاع عن الممالك الأيوبية، ونبها أخاهما الثالث الملك الكامل إلى خطر جلال الدين وانتظرا نهاية الشتاء حتى يتبينا نية جلال الدين في الهجوم على أخلاط.

كان جنود جلال الدين قد تعبوا من الحروب، فأصدر أمراً براحة الجيش في المراتع الشتوية وتأجيل فتح أخلاط إلى ربيع ٦٢٤هـ. وفي تلك الأثناء، شن الكرج المحاصرون في مدينتي آني وقارص بدعوة من مسلمي تفليس الذين عانوا ظلم الخوارزميين على تفليس التي كانت بلا دفاعات، وبعد قتل أقارب جلال الدين وحرق المدينة تركوها ومضوا. وحين جاء جلال الدين إلى

تفليس لم يجد منهم أحداً، وأحجم أيضاً عن مطاردة الكرج. وفي السنة نفسها، أقدم الإسماعيلية على قتل أحد كبار أمراء جلال الدين وكانت كنجة إقطاعيته، وكان يشتهر بالرأفة والعدل والكرم على خلاف السلطان. وقد غضب جلال الدين لقتله فهاجم معاقل الإسماعيلية واستولى على العديد من مناطقهم على أطراف ألموت وقومس وقتل الكثيرين. وفي تلك الأثناء، بلغه نبأ وصول جند المغول إلى أطراف دامغان، فاتجه السلطان لصدهم حيث كانت جماعة قليلة العدد فهزمهم وعاد بعد أسر عدد منهم وتعقب فلولهم.

وفي أثناء انشغال جلال الدين بقتال الإسماعيلية والمغول، قامت زوجته التي كانت تقبض على زمام الأمور بل كانت الحاكم الفعلي في عهد زوجها الأول الأتابك أوزبك بتحريض الحاجب علي حاكم أخلاط على الاستيلاء على أذربيجان وذلك بسبب إهمال جلال الدين لها وحرمانها من أي نفوذ في شؤون الحكم. وساند الملكة في ذلك بعض أهالي تلك المدن خاصة أهالي خوي ممن عانوا ظلم جلال الدين وجنوده وبطشهم. فذهب الحاجب علي إلى أذربيجان واستولى على خوي ومرند ونخجوان، ثم عاد مع الملكة زوجة جلال الدين إلى أخلاط. وما أن هم جلال الدين بالانتقام من الحاجب علي وزوجته الملكة حتى سمع خبر وصول جيوش المغول الجرارة إلى أطراف دامغان والري بهدف غزو مدن إيران الغربية مرة أخرى وردٌ جلال الدين إلى العراق.

حرب جلال الدين ضد المغول قرب أصفهان في رمضان ٦٢٥هـ:

في الوقت الذي كان فيه جلال الدين في أذربيجان بلغه أن عدداً كبيراً من المغول بقيادة خمسة من قواد التتار أشهرهم تايماس وتاينال يتقدمون نحو العراق. فذهب جلال الدين من تبريز إلى العراق وترك أربعة آلاف من جنوده بين الري ودامغان لاستطلاع أوضاع الغزاة المغول ومضى هو إلى أصفهان واتخذ منها مقراً لمعسكره بسبب تركيز أتباعه بها وتوفر معدات القتال.

وبعد أن بلغ نبأ وصول المغول إلى قرية سين بأصفهان، استدعى جلال الدين قادة جيشه وأمراءه الذين كانوا في هلع من اقتراب قواد التتار، ودعاهم ببرود ورباطة جأش فائقة للصمود والمقاومة؛ وأقسموا قسماً جماعياً على الموت دون الفرار أمام العدو. وأمر جلال الدين قاضي أصفهان

وحاكمها باستدعاء المسلحين في المدينة وأحجم عن بدء القتال لمدة ثلاثة أيام بمشورة المنجمين، وخرج من المدينة لملاقاة المغول في اليوم الرابع في ساعة السعد التي حددها المنجمون.

أدّى إحجام جلال الدين عن الخروج من المدينة إلى بثّ الرعب في قلوب المغول. فأرسلوا فرقة من ألفي رجل إلى أطراف لرستان لجمع المؤن والغنائم حتى يطمئنوا على توفر المؤن في فترة حصار المدينة. فأرسل جلال الدين ثلاثة آلاف من جنوده لتعقب الفرقة المغولية وحاصروها في المضائق الجبلية وأسروا ما يقرب من أربعمئة منهم أحياء وعادوا بهم إلى المدينة، وسلم جلال الدين عدداً منهم إلى قاضي المدينة وحاكمها فقتلوهم وجعلوا لحمهم طعاماً للكلاب والنسور.

وفي ٢٢ رمضان ٦٢٥هـ، حشد جلال الدين قواته لقتال المغول؛ فأسند قيادة ميمنة الجيش لأخيه السلطان غياث الدين واتخذ هو موقع القلب. ولكن لم تكد الحرب تبدأ حتى أخَذَ أخوه غياث الدين وأحد أمراء السلطان ويدعى جهان پهلوان إيلچي عدداً من جيشه وولوا الأدبار. وكانت تلك الخيانة بمثابة ضربة في الصميم لجلال الدين. ومع ذلك فإنه لم يتراجع عن قرار القتال ودارت بين جنوده وبين المغول معركة حامية واشتد القتال بين الجانبين حتى انفرط عقدهما دون انعقاد النصر لأي منهما لفترة من الوقت؛ فقد أنزل الجناح الأيمن من جيش جلال الدين الهزيمة بميسرة جيش المغول وتعقبهم حتى كاشان، بينما تمكنت ميمنة جيش التتار من هزيمة ميسرة جيش جلال الدين في كمين أعدوه لهم. أما السلطان الذي كان في القلب فلم يعلم بأوضاع جناحي جيشه. فظل وحده يقاتل ببسالة ويتلقى ضربات المغول حتى تمكن من النجاة منهم وفر إلى لرستان وتشتتت ميسرة جيشه وقلبه، واستشهد في تلك الموقعة معظم أمرائه وكبار قواده، وفر بعض فلول جيشه إلى فارس وكرمان، ولجأ بعضها الآخر إلى أذربيجان. وبعد يومين، عادت ميمنة جيش جلال الدين إلى أصفهان ظناً منهم أن قطاعي الجيش الآخرين قد عادا إليها. ولكن ما أن علموا بالحالة المزرية التي وصل إليها السلطان وجنوده حتى تفرقوا وتواروا في شتى الأرجاء. أما أهالي أصفهان الذين كانوا حتى ذلك الوقت في مأمن من اجتياح المغول فقد وقع بينهم الاضطراب بسبب اقتراب جحافل المغول وعدم وجود أخبار عن السلطان وجيشه ولم يكن أحد منهم يعلم ما حدث للسلطان وما خطة التتار بعد هزيمته.

أما المغول فبعد ما تلقوه من ضربات قاصمة وخسائر جسيمة في صفوفهم، أسرعوا بعد ثلاثة أيام إلى الري وخراسان وعبروا نهر جيحون وهم في غاية الإعياء في طريقهم إلى معسكرهم الأول. وظل أهالي أصفهان دون خبر عن السلطان لمدة ثمانية أيام؛ وظن معظمهم أنه قتل في المعركة فشرعوا في تعيين سلطان جديد؛ إلا أن قاضي أصفهان رأى أنه ما لم يظهر السلطان حتى يوم عيد الفطر يتم تتويج يغان طايسي سلطاناً عليهم، وكان طايسي قد بقي بالمدينة يوم القتال بسبب اعتلال مزاجه. وتصادف ورود جلال الدين إلى أصفهان في أول أيام عيد الفطر، فابتهج الأهالي ببشرى نجاته. وظل جلال الدين في أصفهان لعدة أيام حشد فيها فلول جيشه من كل الأرجاء، وأصدر السلطان الذي كان غاضباً على معظم قواد جيشه لتهاونهم في القتال أمراً بتجريم المتخاذلين منهم بالطواف بهم في أحياء المدينة. أما من تفانوا في الحرب ولم يتوانوا عن المقاومة والدفاع فمنحهم الخلع والألقاب الخانية والملكية، ثم أسرع إلى الري لتعقب التتار.

أما غياث الدين فكان في قلق بسبب قتله أحد خواص أخيه السلطان. لذا فقد لاذ بالفرار في أثناء المعركة وذهب من أصفهان إلى خوزستان، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها فلجأ إلى علاء الدين الإسماعيلي صاحب الموت. وطلب جلال الدين من صاحب الموت إعادة أخيه، إلا أنه رفض تسليمه بدعوى أن غياث الدين قد احتمى به وأنه ابن سلطان، ولكنه تعهد لجلال الدين بمنع غياث الدين من التعرض لبلاده. فقبل جلال الدين تعهد علاء الدين. وذهب غياث الدين إلى كرمان في السنة نفسها كما ذكرنا حيث لقي مصرعه على يد براق الحاجب.

معارك جلال الدين في كرجستان وأرمينيا:

اصطحب جلال الدين وزيره شرف الملك في طريقه إلى العراق لقتال المغول؛ ولكن ما أن وصل إلى همدان حتى بلغه أن حشداً من الأمراء تمردوا في أذربيجان ويفكرون في تتويج حفيد الأتابك أوزبك سلطاناً. فطلب جلال الدين من شرف الملك أن يعود إلى أذربيجان ووضع المملكة وأران بين يديه مع كل الصلاحيات. وسرعان ما قضى شرف الملك على المتمردين واستعاد قلاع أذربيجان الكبرى التي استولى عليها الأعداء وألحق الهزيمة بأنصار الأتابكة.

بعد انتقال السلطان جلال الدين لابنة طغرل الثالث أبقى على استقلالها على سلماس وأرومية وأطراف خوي وسلمها قلاع تلك المدن بشرط أداء خراج عنها كما سبق أن أشرنا. وفي غياب السلطان، وجه شرف الملك اتهاماً للملكة بمساندة الأتابكةوذهب إلى أطراف خوي وسلماس واستولى على أموالها وقلاعها. فاضطرت الملكة للاستغاثة بالحاجب حسام الدين علي نائب الملك الأشرف الأيوبي والي أخلاط، وطلبت منه الاستيلاء على قلاعها وممتلكاتها والدفاع عنها ضد جنود شرف الملك. فهب الحاجب علي لإغاثة الملكة حول بحيرة أرومية واستولى على ممتلكاتها وعاد شرف الملك إلى تبريز (سنة ٦٢٥هـ).

وبعد عودة شرف الملك إلى تبريز، قضى وقته في قمع المتمردين الذين تحصنوا في مختلف قلاع أذربيجان وأران، وتمكن من الاستيلاء على كل تلك القلاع؛ كما أرسل عدداً من جنوده للاستيلاء على روئين دز وهي من قلاع مراغة ومقر أرملة الأتابك خاموش[٢] بن الأتابك أوزبك. ولم تكن لهذه المرأة قدرة على المقاومة، فأبدت استعدادها للزواج من شرف الملك. ولكن قبل أن يتم هذا الأمر وصل جلال الدين من العراق واتخذها زوجة له.

وبعد أن سمع شرف الملك بعودة الحاجب علي من أذربيجان إلى أخلاط، اتجه إلى صحراء موغان وأطراف أران وشروان لحشد جيش. وفي تلك المنطقة اضطر إلى الدخول في نزاع مع التركمان وشروانشاه حول الضرائب، وارتكب جنوده تعديات كثيرة على الأهالي. وحدث الشئ نفسه في نخجوان التي كانت في حوزة الملكة ابنة الأتابك جهان پهلوان. فاتجه شرف الملك منها إلى الأراضي الخاضعة لسلطة عمال الحاجب علي؛ إلا أن جنوده هُزموا على يد أتباع الحاجب علي، فلجأ شرف الملك مهزوماً إلى مرند وتبريز واستولى الحاجب علي على خوي ونخجوان ومرند واتجه إلى تبريز. واتخذ شرف الملك طريق أران خوفاً من أن يتمكن الحاجب علي من حشد جيش في تلك المناطق والشروع في الاستيلاء على مدن أذربيجان. إلا أن الأوضاع في أذربيجان في تلك الآونة كانت قد تغيرت بشدة حيث أعلن الأمراء المتمردون عصيانهم كل في ركن من البلاد طمعاً في الاستقلال وبدعوى تبعيتهم لبقايا الأتابكة. كما أدّى نبأ هزيمة جلال الدين على يد المغول إلى حدوث اضطرابات كبرى بين الأهالي، إلا أن شرف الملك واصل إرسال الرسل إلى أطراف البلاد لطمأنة

الأهالي إلى انتصار السلطان وغلبة الإسلام على الكفر ودعوة الأمراء المتمردين إلى الطاعة. وفي تلك الأثناء أيضاً انتشرت أنباء عودة جلال الدين إلى أصفهان وهزيمة المغول، فجاء عدد من أمراء السلطان إلى أذربيجان لمساعدة شرف الملك واتجهوا في السنة نفسها (٦٢٥هـ) إلى مرند وخوي لتعقب جنود الحاجب علي وأنزلوا بهم هزيمة فادحة على مشارف پَركري (من أعمال أرمينيا إلى الشمال الشرقي من بحيرة وان) وقتلوا شقيق الملك الأشرف الأيوبي في تلك الموقعة وحصلوا على كثير من الغنائم، وتحصن الحاجب علي في پركري.

وبعد انتصار شرف الملك على الحاجب علي، شرع في تطهير أذربيجان من جنوده وبطش بأتباعه في كل من مرند وخوي ونخجوان بطشاً شديداً، ثم عاد إلى تبريز. وفي تلك الآونة عاد جلال الدين من العراق.

وبعد عودة جلال الدين إلى تبريز واطلاعه على مظالم عمال شرف الملك وسوء مسلكه تجاه الملكة ابنة طغرل الثالث وما حاق بأهالي تبريز من عسف وعجز عن أداء الضرائب أخفى غضبه على شرف الملك واكتفى برفع أيدي أقربائه عن شؤون البلاد ولم يرد على مراسلاته في موغان. وحين جاءه شرف الملك في موغان لم يبدِ له شيئاً في هذا الصدد؛ بل وجهه لإصلاح ما خربه وخفض الضرائب وعزم على تعبئة الجيش وإعداد الجنود لتنفيذ مخططاته الحربية.

بعد هزيمة السلطان جلال الدين على يد جيش المغول في أصفهان، أوفد أحد أمرائه الأتراك إلى أتراك قنقلي والقبچاق الذين كانوا من حلفاء سلاطين الخوارزمشاهية القدامى يطلب منهم المدد. فهب أتراك قنقلي لتلبية دعوته وأرسلوا خمسين ألف محارب إلى دربند بالقوقاز كإمداد للسلطان. ونظراً لصعوبة عبور ذلك المضيق الضيق، فقد توقفوا في شماله وأرسلوا أحد قادتهم ويدعى كوركا مع ثلاثمئة رجل إلى جلال الدين عن طريق البحر، والتقى كوركا بشرف الملك في موغان. وبعد عودة السلطان جلال الدين من العراق إلى أذربيجان لقضاء أشهر الشتاء استقبل القائد التركي المذكور بحفاوة بالغة، وتقرر عودة كوركا إلى أتراك قنقلي وقبچاق حتى نهاية فصل الشتاء، وأمر السلطان بتطهير معبر دربند لتسهيل عبور قواته.

كان صاحب دربند في تلك الآونة طفل يقوم برعايته أحد الأتابكة يلقب بأسد. ومَثَل الأتابك

بين يدي السلطان وبادر بتسهيل عبور قوات القنقلي والقبچاق. فأكرمه السلطان ووهبه إقطاعية باسمه وعينه والياً على دربند وأرسل عدداً من أمرائه برفقته إلى دربند؛ إلا أن هؤلاء الأمراء قاموا في الطريق بتقييد الأتابك أسد، وحين وصلوا إلى دربند، أغاروا على المدينة من خارج القلعة. وتمكن الأتابك أسد من الهرب وتحصن بقلعة دربند وسد طريق دخول الأمراء إلى المدينة وعبور الأتراك من مضيق دربند. وبسبب هذا التصرف الأحمق لم يتحقق الاتحاد المنشود بين السلطان وأتراك القبچاق وقنقلي.

وبعد أن قضى جلال الدين فترة في موغان، جرد جيشه لفتح مدينة لوري الواقعة إلى الشرق من بحيرة إيروان، فتم فتحها واقتربوا من أطراف بحيرة إيروان، إلا أن الكرج باغتوهم ليلاً وألحقوا بهم الهزيمة.

وتمكنت رسودان ملكة كرجستان وقائدها إيڤاني من حشد أربعين ألف رجل من طوائف الكرج والأرمن وألان وسرير ولزكي والقبچاق وسوان بغرض الثأر من الهزائم التي لحقت بالكرج على يد جلال الدين وجنوده. وكان حشد هذا الجيش الكبير سبباً في قلق جلال الدين الذي لم يكن لديه ما يكفي من المعدات والقوات. وتشاور السلطان في هذا الشأن مع وزيره شرف الملك، فأشار عليه وزيره بكسب الوقت إلى أن يتداعى جيش العدو نتيجة للحرارة وتناقص المؤن وتكون الإمدادات قد وصلت إلى جنود جلال الدين من المدن. إلا أن جلال الدين رفض هذا الرأي وغضب على وزيره وسكب الدواة على رأسه وحكم عليه بغرامة قدرها خمسين ألف دينار وعزم على خوض الحرب مستنداً إلى شجاعته وجرأته.

ومع بدء القتال، تعرف جلال الدين على بيارق أتراك القبچاق، فأرسل إليهم رسولاً يحمل قدراً من الخبز والملح يذكرهم بسابق العهد الذي كان بينهم وبينه. فأعلنت تلك الجماعة التي بلغ تعدادها عشرين ألف رجل اتخذوا مكانهم في ميمنة جيش أعداء جلال الدين الامتناع عن قتال جلال الدين. وعرض جلال الدين على أعدائه القتال بالالتحام المباشر، وتمكن في هذا القتال من قتل إيڤاني وأبنائه الثلاثة وأحد قواد الكرج ولحقت بالكرج هزيمة نكراء، ودخل جلال الدين تفليس مرة أخرى وأعمل القتل في أهلها من جديد.

وعندما كان السلطان في العراق، قام الأمير الأرمني لمنطقة سمكور (الواقعة غرب نهر كورا) والذي يعرف عند المؤرخين المسلمين باسم بهرام الكرجي وعند المؤرخين الكرج باسم فارام جاجِل بشن هجوم على مدينة كنجة واضطهاد أهاليها من المسلمين. وقد توجه السلطان بعد انتصاره على الكرج لتأديبه واستولى على قلاعه الحصينة ومنها قلعتا ساجان وعلي آباد؛ كما فتح قلعة كاك بعد حصار دام ثلاثة أشهر، ثم توجه إلى مدينة كاغزفان (أو غاغزفان) بشمال نهر أرس واستولى عليها أيضاً. وتمكن مرة أخرى من إلحاق الهزيمة بالكرج وحلفائهم بالقرب من پتشني الخاضعة لسلطة آقاك بن إيفاني؛ وبعد تأديب خصومه اتجه إلى أرمينيا بغرض محاصرة أخلاط من جديد وصد حاكمها.

فتح أخلاط في ٢٨ جمادى الأولى ٦٢٧هـ:

بعد أن فرغ السلطان جلال الدين من أمر الكرج، توجه إلى نخجوان وذلك لأن حاكمتها أعربت عن رغبتها في الزواج منه. فذهب إليها وتزوجها. وبعد قضائه عدة أيام بنخجوان توجه إلى قلعة أخلاط وضرب حصاراً حولها في أوائل شوال ٦٢٦هـ. وقبل أن تصل قوات جلال الدين إلى أخلاط، أوفد الملك الأشرف أحد أمرائه وهو عز الدين أيبك الذي كانت بينه وبين حسام الدين علا الحاجب المدافع عن تلك المدينة عداوة سابقة إلى أخلاط، وقتل آيبك الحاجب علي لسبب غامض، وعينه الملك الأشرف والياً على المدينة. وقبل إقدامه على قتل الحاجب علي، كان هذا الوالي الجديد قد بذل المساعي السلمية لمنع جلال الدين من محاصرة أخلاط إلا أن السلطان رفض ذلك وأبدى إصراراً شديداً على فتح تلك المدينة وأمر بدكها باثني عشر منجنيقاً وفتحها بقوة السلاح.

وفي أثناء فتح أخلاط، جاء ركن الدين جهانشاه بن طغرل صاحب ولاية أرزن الروم وابن عم علاء الدين كيقباد السلجوقي والذي كان حتى ذلك الوقت خاضعاً لأمر الملك الأشرف ومن حلفاء الحاجب علي إلى جلال الدين والتمس عفوه وقدم له الكثير من الهدايا وأمده بعدد من المعدات الحربية التي تساعده على محاصرة أخلاط. كما أبدى الملك المسعود أحد ملوك أرتقية (٦١٩هـ-٦٢٩هـ) ووإلى آمد، والملك المنصور والى ماردين خضوعهما للسلطان جلال الدين

وأوفد كل منهما الرسل إليه للتحالف معه.

في آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢هـ وبعد ما يقرب من سبع وأربعين سنة في الخلافة توفي الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي أشرنا إليه من قبل ضمن حديثنا عن عدائه لآخر سلاطين الخوارزمشاهية. وقد تولى الخلافة من بعده ابنه ناصر الدين الذي لقب بالظاهر بأمر الله. وقد أرسل الخليفة الجديد رسولين إلى جلال الدين يزفان له بشرى تعيين خليفة جديد. ودخل رسولا الخليفة إلى بلاط جلال الدين في تبريز واستقبلهما جلال الدين بكل احترام وحمَّل أحدهما بالهدايا إلى بغداد. ولكن قبل أن يصل رسول جلال الدين إلى بغداد، بلغه نبأ وفاة الظاهر بأمر الله فلم تقم علاقات بين السلطان والخليفة.

وبعد وفاة الظاهر بأمر الله في ١٤ رجب ٦٢٣هـ، آلت الخلافة لابنه الأكبر جعفر المنصور الذي لقب بالمستنصر بالله وهو الخليفة العباسي قبل الأخير. وحين كان جلال الدين يحاصر أخلاط في سنة ٦٢٦هـ، أرسل إليه المستنصر رسالة يطلب منه عدم التعرض لبعض ملوك الأراضي التابعة لخليفة بغداد -كبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ومظفر الدين كوكبري صاحب أربيل وعماد الدين بن هزار أسب ملك الجبال- وإعادة ذكر اسم الخليفة في مدن إيران والذي كان السلطان محمد خوارزمشاه قد حذفه منها. ووافق جلال الدين على مطلبي الخليفة وأرسل رسولاً من قبله محملاً بالهدايا إلى بغداد واعترف بالخليفة كأمير المؤمنين وولي أمر المسلمين؛ وذكر الخليفة اسمه أيضاً بلقبي «خاقان» و «شاهنشاه»، ولكنه أحجم عن منحه لقب «سلطان».

وفي أثناء حصار أخلاط، أمر جلال الدين بنقل رفات السلطان محمد خوارزمشاه من جزيرة آبسكون إلى قلعة أردهن إلى أن تحين الفرصة لتشييد ضريح يليق بأبيه في أصفهان وينقل إليه الرفات. إلا أن ذلك لم يحدث كما سبقت الإشارة؛ فقد أخرج المغول رفات السلطان محمد من قلعة أردهن وأحرقوها بأمر من أقطاي قاآن. يقول محمد النسوي الكاتب الخاص للسلطان جلال الدين الذي ظل في خدمة جلال الدين منذ سنة ٦٢٢هـ:

«استدعاني السلطان ذات ليلة في أخلاط، ووجدت عنده امرأة محتالة تدعى أنها تحمل رسالة للسلطان من زكي الدين العجمي أحد المقربين للملك الأشرف، ومضمون هذه الرسالة أنه إذا

أرسل السلطان خمسة آلاف دينار لزكي الدين العجمي ليقسمها بين الجنود سيتمكن من تاليف قلوبهم مع السلطان ويحملهم على تسليم أخلاط وفتح بوابات المدينة أمامه. فاستشارني السلطان في ذلك الأمر، ولما وجدني غير ميال لهذا العرض اندهش وسألني لماذا ترفض قبول ذلك. ونظراً لحرصه الشديد على فتح أخلاط فقد وافق على تسليم المبلغ المطلوب. فقلت لقد رأيتُ زكي الدين حين جاء برسالة إلى السلطان من قبل الملك الأشرف، وتحدثت إليه. وقد قدر السلطان أيضاً رجاحة عقله وذكاءه، ومن المستبعد أن يجازف في أمر على هذه الدرجة من الخطورة أو أن يتدخل في مثل هذا الأمر الجلل. فإذا كان قلبه قد تعلق بالسلطان ويود مساعدة ولي نعمته فكيف خطرت على باله هذه النتيجة عن طريق استرضاء فئة من المعارضين؛ فاستمالة هذه الفئة عن طريق المنال والترغيب أمر عسير، وإذا أفشى أحدهم هذا السر سيلقي بنفسه إلى الهلاك. وإذا كان زكي الدين يريد هذا المبلغ لنفسه كما تدعي هذه المرأة فإن إقدامه على أمر كهذا يعد مستبعداً أيضاً. فزكي الدين يعلم أنه لو سلم المدينة للسلطان سينال من المال والعطايا والضياع والعقارات ما يفوق هذا المبلغ بكثير. وقد زعزعت براهيني من عزم السلطان على تسليم المبلغ لهذه العجوز. ولكن لما كان شغوفاً بفتح أخلاط فقد أعطى العجوز ألف دينار وقال لها لو صدقت رسالتك سأعطيك بقية المبلغ. وعادت العجوز إلى المدينة وانتشر الخبر الكاذب بين جنود الملك الأشرف، وأصبح زكي الدين متهماً أمام عز الدين أيبك بمراسلة السلطان جلال الدين، فأقدم أيبك على قتل ذلك المسكين دون أي ذنب. وبعد أن استولى جلال الدين على أخلاط، رأى أحد قادة جيشه تلك العجوز مع زوجها في إحدى المدابغ، وكانت قد أنفقت ثلاثمئة دينار من المبلغ وردَّت الباقي، وأزهق الخوارزميون روحها جزاء هذا الجرم» (من سيرة جلال الدين منكبرني، ص١٩٣-١٩٤)

وفي أثناء حصار أخلاط، أوفد علاء الدين كيقباد السلجوقي سفراء إلى السلطان جلال الدين، ولتوثيق علاقات الصداقة طلب من جلال الدين أن يزوج ابنته لابنه وتسليم ركن الدين جهانشاه صاحب أرزن الروم وابن عم علاء الدين كيقباد الذي كان على عداء سابق معه لملك سلاجقة الروم. ورفض السلطان هذا العرض واحتد وزيره شرف الملك على سفراء علاء الدين بل هددهم بأنه سيغزو أراضي علاء الدين وحده لو أذن له جلال الدين. وقد غضب علاء الدين من هذا التصرف

وبعد سقوط أخلاط، عرض الملك الأشرف إقامة حلف قوي مع علاء الدين كيقباد السلجوقي وأمراء حلب والموصل والجزيرة ضد جلال الدين. وحضر الملك الكامل ملك مصر وشقيق الملك الأشرف بدعوة من علاء الدين كيقباد، إلا أنه سرعان ما عاد إلى مملكته بسبب غزو الصليبيين لسواحل مصر والشام. والتقى الملك الأشرف وعلاء الدين كيقباد بمدينة سيواس وخرجا منها إلى أطراف أرمينيا لصد جلال الدين.

وقام ركن الدين جهانشاه صاحب أرزن الروم وابن عم علاء الدين كيقباد بإطلاع جلال الدين بنبأ احتشاد جند الروم والشام وحثه على المبادرة بمهاجمة خصومه وتفريق شملهم قبل أن تتحد صفوفهم. فأسرع جلال الدين إلى مدينة ملازجرد[٣] حيث اتفق مع ركن الدين على المضي إلى أرزن الروم وإعداد العدة للحرب. وبعد خمسة أيام أخر، اتجه السلطان مع جنوده إلى خرتبَرت[٤] حيث تم ضم صفوف الجيشين وتوجها لصد الأعداء.

ثبت فشل خطة جلال الدين وركن الدين بمهاجمة جند الشام والروم كل على حدة، فقبل أن يقدم السلطان على تنفيذها كان عشرون ألفاً من قوات علاء الدين كيقباد قد انضموا إلى خمسة آلاف من جنود الملك الأشرف.

وقبل بدء القتال، سقط جلال الدين مريضاً؛ لذا فإنه لم يتمكن من تنفيذ خطته قبل اجتماع شمل جيشي الأعداء. كما أن عدداً من الجنود الأرانيين والعراقيين والآذريين والمازندرانيين في جيشه عادوا إلى بلادهم. وبقي وزيره شرف الملك مع جمع من الجيش في ملازجرد وضرب عدد من الجنود حصاراً حول بَرجَري (بارجيري)، بينما احتشد أعداؤه من كل صوب وتحالفوا لصد الخوارزميين.

ونشبت الحرب في منطقة ياسي چمن وهي إحدى مناطق أرزنجان واستمرت أربعة أيام. وفي الأيام الثلاثة الأولى، حدثت مناوشات بين طلائع الجانبين؛ ومع أن الخوارزميين هزموا طليعة جيش الروم في البداية، فقد كانت الهزيمة في الأيام التالية من نصيب طلائع الجيش الخوارزمي، إلى أن شن جنود الشام والروم هجوماً كاسحاً على قوات جلال الدين وركن الدين في ٢٨ رمضان ٦٢٧هـ فأوقعوا الفُرقة في صفوفهم فلاذت كل جماعة من الجيش الخوارزمي بالفرار كل في اتجاه، وعاد

جلال الدين مهزوماً إلى خرتبرت وأخلاط بعد مقتل عدد كبير من قواته في الحرب وأسر قواده. وكان من بين الأسرى ركن الدين جهانشاه صاحب أرزن الروم. وأمر علاء الدين بقتل قواد الجيش الخوارزمي، بينما أخذته الشفقة بركن الدين واكتفى بسجنه.

ولم يتمكن جلال الدين من جمع جنود جيشه الذين فروا إلى كرجستان وطرابزون، فاضطر إلى ترك شرف الملك مع فلول جيشه في أرمينيا لصد تقدم العدو واتجه هو إلى خوي.

«يوم السبت الثامن والعشرون من رمضان ٦٢٧هـ، حين طلع الصبح وأشرقت الشمس، أمر السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي بتعبئة الجنود وتحديد ميمنة الجيش وميسرته وقلبه وساقه وبأن يبدي المقاتلون البواسل شجاعتهم وبأن يظهروا بسالتهم حين تقترب المسافة مع العدو. واحتشد جيش لا حصر له يزيد عدده على مئة ألف جندي. وجاء الملك الأشرف إلى السلطان وقال له إذا امتطى السلطان اليوم بغلاً بدلاً من الجواد ووضع قيداً على البغل أيضاً فلا شك أن كل ثعلب في هذا الجيش الباسل يتحول إلى عشرة أسود. فامتطى السلطان بغلاً وحين تمت تعبئة الجيش واقترب موعد تداني الجمعين، اعتلى جلال الدين تلاً والقى نظرة على الجيش المنصور وتحسر قائلاً لو كان هذا الجيش لي وواجهت به جيش التتار لصرعتهم ولرويت نبات الأرض بدماء هذه الكلاب الضارية. ثم بكى وتصبَّر وشن الملك الأشرف وكمال الدين كاميار[٥] هجوماً شجاعاً قَلَبَ نظام الميمنة والميسرة وأوردوهما وادياً ضيقاً لا مفر منه ولا مكان للقتال. ولم ينشغل السلطان جلال الدين بالحرب والطعن والضرب، بل أسرع في التو نحو البيارق وعلقها على الخرج وانضم إلى الغارات الليلية واشتباك الجياد والكر والفر، وانهمك جيش العرب بأعمال السلب والنهب. وكان أهالي الروم يطاردون الأعداء في تلك المناطق في جماعات كالجبال المتحركة ببطء. وفجأة، وصلوا إلى باب صاحب أرزن الروم ورأوا أخاه التوأم فأخذوه إلى شاه جهان فسجد تحت قدميه فأعطاه السلطان الأمان وسلمه لبعض الأمراء ليحافظوا عليه. ووقع الملك المظفر أسيراً في اليوم الأول. ثم اتجه السلطان إلى البلاط، وجاء الملك الأشرف سائراً على قدميه في ركاب السلطان وظل السلطان يبدي الاعتذار. وحين وصل السلطان إلى البلاط قبَّل الملك الأشرف الأرض ومضى إلى خيمته وذهب السلطان إلى المصلَّى وسجد لله شكراً» (سلجوقنامه لابن بيبي، ص١٧٣-١٧٥)

وأدرك ألا سبيل للوصول إلى جلال الدين من باب الصدق، فاضطر للتحالف مع غريمه الملك الأشرف استعداداً لصد جلال الدين.

واستمر حصار أخلاط قرابة عشرة الأشهر صمد خلالها الأهالي على الرغم من معاناتهم لشتى صنوف المصاعب في مواجهة الجنود الخوارزميين. ولم يتوان جلال الدين عن البطش بالأهالي دون رحمة وتضييق الخناق عليهم بمنع المؤن ورجم المدينة بالحجارة والإغارة على ضواحي أخلاط، إلى أن ساد القحط وعم الغلاء فاضطر الأهالي لأكل لحوم الكلاب والخيل والحمر والبغال والقطط والجرذان. ومع ذلك ظل الأهالي صامدين. وحدثت خيانة من جانب أحد أمراء الملك الأشرف حيث قام بتسليم المدينة لجنود جلال الدين في ٢٨ جمادى الأخرى ٦٢٧هـ وأعمل ذلك الأمير السفاح السيف في رقاب أهل أخلاط بصورة لا تقل عما فعله بهم المغول؛ وظل جنوده يقتلون وينهبون من الصباح إلى المساء.

وبعد فتح المدينة، ألقى السلطان القبض على مجير الدين يعقوب وتقي الدين عباس شقيقي الملك الأشرف، وأسر عز الدين آيبك حاكم أخلاط. وأبقى عنده على شقيقي الملك الأشرف بكل احترام. أما عز الدين أيبك فقد سلمه لأحد غلمان الحاجب علي حاكم أخلاط السابق بسبب ما عرف عنه من خيانة، فقتله الغلام قصاصاً لمقتل مولاه. ومن بين الأسرى الذين وقعوا في يد جلال الدين في تلك الموقعة زوجة الملك الأشرف وهي ابنة إيفاني القائد الكرجي المعروف، وقد اتخذها ضمن حريمه انتقاماً من الحاجب علي لإيوائه لزوجته في أخلاط.

هزيمة جلال الدين على يد علاء الدين كيقباد في سنة ٦٢٧هـ:

بعد فتح أخلاط، ندم السلطان جلال الدين على ما بدر من جيشه في حق أهالي المدينة فأمر بإصلاح ما خرب فيها وتجديد عمائرها وقلاعها. وفي تلك الآونة جاءه سفراء من قبل الخليفة يطلبون تسليم شقيقي الملك الأشرف للخليفة؛ فأرسل السلطان تقي الدين عباس مع السفراء إلى دار الخلافة؛ أما مجير الدين يعقوب فاستبقاه عنده.

وبعد هزيمة جلال الدين، استولى جنود علاء الدين على أرزن الروم ودخل جنود الملك الأشرف مدينة أخلاط. وكان الملك الأشرف يخشى أن يتمكن جلال الدين مرة أخرى من مهاجمة أراضيه وأراضي علاء الدين، فأوفد السفراء إلى جلال الدين في أذربيجان يطلب الصلح والقسم بعدم التعرض لأراضيه وأراضي علاء الدين كيقباد. وقد رفض جلال الدين طلبه في البداية؛ ولكن ما أن بلغه نبأ وصول جند المغول حتى وافق على طلبه وتقرر أن يحتفظ كل من جلال الدين والملك الأشرف وعلاء الدين بما تحت يده من ممتلكات وألا يتعرض أي منهم للآخرين.

ولاية أقطاي قاآن (من ٦١٦ هـ إلى ٦٣٩هـ):

كان جنكيزخان قد قام في حياته بتعيين ابنه الثالث أقطاي خليفة له وانصاع بقية أبنائه وسائر أعيان المغول لأمره وأطاعوا أقطاي بعد وفاة جنكيز. ولإضفاء الطابع الرسمي على ولايته تم عقد مجلس كبير بعد وفاة جنكيز بعامين ونصف العام، أي في ربيع ٦٢٦هـ، على ضفاف نهر كيرولين لمبايعة أقطاي خاناً (قاآن) في حفل ضخم. وكان أقطاي يرفض هذا التكليف في بادئ الأمر، إلا أن إخوته وأبناء إخوته وسائر المقربين أصروا عليه وذكروه بوصية جنكيز في هذا الصدد، فوافق على خلافة أبيه بلقب أقطاي قاآن.

وكان أكثر من أصر في حياة جنكيزخان على تنصيب أقطاي في هذا المنصب هو يلوچوت ساي المستشار الصيني لجنكيز، فقد كان أقطاي أقوم نفساً وكان يقضي أوقاته في المرح واللهو. وقد أصر يلوچوت ساي على اختياره حتى يحكم المغول شخص سليم النفس يتلافى ما حدث في عهد جنكيز من خراب، وفي النهاية تحقق له ما أراد. وبعد تنصيبه قام أقطاي بتعيين يلوچوت ساي حاكماً على الولاية الصينية الخاضعة للمغول ومستوفياً خاصاً له. واستطاع هذا الرجل المدبر أن يدير ممالك المغول بعون من عمال التبت والأويغور والفرس والصين والتنجغوت وعلّم التتار تدريجياً عادات الأمم المتحضرة.

في المجلس الذي انتهى باختيار أقطاي لخلافة جنكيزخان، قرر أمراء المغول وزعماؤهم الصينيون تجريد جيشين لإتمام عمليات الغزو التي بدأها جنكيز بغزو البلاد التي لم يكن قد تم غزوها،

أحدهما صوب الخطا أي الصين الشمالية، والآخر نحو إيران للقضاء على جلال الدين وإتمام غزو أذربيجان وكردستان. ووضع الجيش الأخير تحت قيادة شخص يُدعى جُرماغون نويان اتجه ومعه خمسون ألف جندي وعدد من القواد العسكريين إلى تركستان واستمد العون أيضاً من خوانين خوارزم وحكامها المغول وشباب البلاد المفتوحة في خراسان ووصل إلى إيران وبصحبته ما يقرب من مئة ألف رجل ومنها إلى العراق عن طريق أسفراين والري.

نهاية السلطان جلال الدين في سنة ٦٢٨هـ:

كان السلطان جلال الدين آنذاك في خوي؛ وكان يظن أن جيش المغول سيقضي الشتاء في العراق، فاتجه من خوي إلى تبريز ولم يكد يرسل جيشه لقضاء فصل الشتاء في صحراء موغان حتى بلغه نبأ وصول طلائع المغول إلى زنجان. وبعد أن يأس جلال الدين من استمداد الخليفة والملك الأشرف وعلاء الدين كيقباد لصد المغول أسرع نحو موغان لجمع جيشه المشتت، إلا أن المغول لم يتركوا له الفرصة حيث أسرعت فرقة منهم في أعقابه إلى موغان وأغاروا ليلاً على خيمة جلال الدين في قلعة شير كبود وهي إحدى قلاع موغان، ولكنهم لم يعثروا على السلطان الذي فر من المعركة سالماً واتجه نحو نهر أرس وتفرق جنده.

واتجه جلال الدين عن طريق نهر أرس إلى صحراء ماهان (أرومية) وقضى بها شتاء ٦٢٨هـ. ومن هناك أوفد مجير الدين يعقوب – شقيق الملك الأشرف الذي كان من مرافقيه وكان قد فر من موغان – لطلب العون من الملك الأشرف ومطالبته بالمساعدة على صد الكفار والكف عن التناحر. ومن ماهان مر مجير الدين بشرف الملك الذي كان في ذلك الوقت في إيران وحدود بيلقان منشغلاً في الظاهر برعاية حريم السلطان وخزائنه وفي الباطن بإعداد أسباب استقلاله، لكي يوفد معه رسولاً ورسالة. إلا أن شرف الملك تصرف على خلاف نية السلطان وعمل على إضرام نار الحقد بين جلال الدين والملك الأشرف.

وفي أران، عمل شرف الملك على تحصين القلاع وجمع الأموال وتبذيرها كعادته، وراسل كلاً من علاء الدين كيقباد والملك الأشرف ودعاهما للاستيلاء على أذربيجان وأران، ووصف جلال

الدين في مراسلاته بأنه رجل ظالم ومهزوم. وحين علم جلال الدين بتصرفات وزيره، أمر أمراءه ورجال حاشيته بعدم طاعة أوامر شرف الملك، واستدعاه من أران حيث كان قد تحصن بإحدى القلاع. فجاء شرف الملك إلى السلطان وقد وضع كفنه على كتفه خوفاً منه. وأبدى جلال الدين له الاحترام في الظاهر ولم يتحدث إليه بما عرفه ولكنه لم يسمح له بالتدخل في شؤون البلاد إلى أن سنحت الفرصة فسجنه في إحدى القلاع ثم قتله. وبعد أن قضى السلطان شتاء ٦٢٨هـ في ماهان، سمع أن المغول مروا بأوجان في طريقهم إليه؛ فغادر ماهان إلى كنجة حيث أنزل العقاب ببعض الأهالي ممن ساندوا المغول وقتلوا عدداً من الجنود الخوارزميين وأرسلوا رؤوسهم إلى المغول، ثم اتجه إلى أخلاط ودياربكر لاستمداد سلاطين الشام والجزيرة.

وفي منتصف رمضان ٦٢٨هـ، أوفد محمد بن أحمد النسوي المؤرخ المعروف وكاتبه الخاص برسالة إلى شهاب الدين الملك المظفر الغازي ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي كان حاكماً لجزء من الجزيرة كميافارقين والرها وحاني وسروج وأخلاط وجبل الجور، وطلب منه العون لصد المغول. فتعلل شهاب الدين ببعض الذرائع لجلال الدين. وحين هم سفيره النسوي بالعودة وصلت إلى شهاب الدين رسالة مع الحمام الزاجل من مدينة برجري إلى ميافارقين تفيد بأن طلائع جيش التتار قد عبرت حدود أخلاط وتتقدم إلى دياربكر (آمد) لتعقب جلال الدين. وكان جلال الدين في ذلك الوقت بمدينة حاني (على بعد ثمانية فراسخ إلى الشمال من دياربكر)، وحين علم بتقدم المغول اتجه إلى جبل الجور (على بعد عشرين فرسخاً شمال دياربكر بين دياربكر وبدليس وأخلاط) حيث صنع كميناً للمغول. ولكنه غادر المنطقة بعد عدة أيام ونزل على أطراف دياربكر. وعند هذه النقطة هبط عليه المغول بغتة وقتلوا معظم رفاقه، إلا أن جلال الدين تمكن مرة أخرى من الفرار من المعركة سالماً واتجه إلى أطراف ميافارقين، وقُتل في الجبال المحيطة بالمدينة بيد الأكراد في منتصف شوال ٦٢٨هـ.

وعن قتل السلطان جلال الدين على يد الأكراد يقول النسوي كاتبه الخاص إنه حين وصل جلال الدين إلى المعابر الجبلية على أطراف ميافارقين، ألقى المحاربون الأكراد القبض عليه وقرروا قتله. فقدم السلطان نفسه لكبيرهم سراً وكلفه إما أن يوصله إلى الملك المظفر صاحب دياربكر ويحصل

على إنعام كبير أو إلى إحدى المدن التابعة للسطان ويعينه في منصب أمير. فصمم الكردي على إعادته إلى إيران؛ فأخذه إلى عشيرته وتركه عند زوجته ومضى إلى الجبال لإحضار قبيلته. وفي هذه الأثناء، جاء كردي مسلح إلى زوجته وسألها: «من يكون هذا الخوارزمي، ولماذا لا تقتلينه؟». فقالت له: «إنه في حمى زوجي فهو في أمان». إلا أن ذلك الكردي حين علم بأن الضيف الخوارزمي هو السلطان قتله ثأراً لمقتل أخيه في حصار أخلاط، وبذلك آلت حياة ذلك السلطان الشجاع إلى هذه النهاية المفجعة.

وبعد التسليم بمقتل جلال الدين، أرسل الملك المظفر صاحب آمد (دياربكر) رجاله إلى الجبال التي لقي السلطان فيها مصرعه، فعثروا على جواده وسلاحه ورداءه وكذلك على رفات ذلك الملك التعس وأمر المظفر بدفنها. وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من مقتل السلطان جلال الدين منكبرني كان الأهالي لايزالون يجهلون الطريقة التي لقي بها حتفه واعتقدوا أنه لايزال حياً، فكان أحد الأهالي يخرج كل صباح ويقول «أنا السلطان» فيدخل السرور على الناس بهذه البشرى ويلقي في قلوب التتار الرعب. بل أخذ الأهالي يتناقلون الأساطير عنه ورفضوا أن يصدقوا أن هذا الرجل الشجاع الذي لم يعرف للراحة طعماً في حياته وظل ينتقل كل يوم من مكان إلى مكان في ممالك إيران والعراق والجزيرة وكرجستان الشاسعة وكان خصماً عنيداً للتتار والمسيحيين الكرج قد مات.

نبذة من سيرة جلال الدين:

كان جلال الدين قصير القامة قمحي اللون وكان يتحدث الفارسية والتركية، وكان يشبه الأتراك في هيئته. وكانت أمه من أصل هندي، وهو ما كان أحد أسباب حقد تركان خاتون عليه وإقصائه عن ولاية العهد، فقد كانت تركان خاتون تريد لشقيق جلال الدين الأصغر أوزلاغ شاه الذي كانت أمه من أتراك القنقلي مثلها أن يرث عرش خوارزمشاه بعد أبيه. وكان جلال الدين رجلاً حليماً رابط الجأش ونادراً ما كان يفحش في القول. وكان فريداً في شجاعته وعزمه وإرادته وخفته في القتال؛ إلا أنه كان قليل الدراية بإدارة شؤون الجيش. وكان كسائر القادة ذوي الأصل التركي لا يتوانى عن البطش والقتل بلا رحمة، ولم يكن طوال مدة حكمه يولي اعتباراً لتنظيم

شؤون البلاد والجيش واستمالة قلوب الرعية واجتذاب الحلفاء لصفه؛ فكان يعتبر أن السيف هو الفيصل في كل الأمور. والأهم أنه قد انغمس في اللهو والشراب خاصة في أواخر سنوات حياته لدرجة أفقدته وعيه وأنسته الأعداء المتربصين به. ففي الغارة الليلية التي شنها المغول على خيمته بصحراء موغان وكذلك في الحملة التي شنوها على جنوده على أطراف آمد كان جلال الدين غارقاً في معاقرة الخمر. ومع أن جنود التتار كانوا يطاردونه في كل مكان، فإنه لم يكن يتدبر أمره بشأنهم خاصة حين ذهب إلى أطراف دياربكر يلتمس العون من سلاطين الشام والجزيرة. وحتى حين أصبح التتار قاب قوسين أو أدنى منه كان منغمساً في الشراب واللهو هو وأمراؤه.

كان لجلال الدين غلام يدعى قلج وكان موضع حب السلطان الشديد. وحدث أن دنا أجل الغلام، فبكى السلطان بكاء حاراً لدرجة أفقدته صوابه فأتى بتصرفات لا تصدر عن عاقل؛ فقد أمر جنوده وأمراءه بالسير في جنازة الغلام وأن يرافقوا نعشه سيراً على الأقدام من مكان يبعد عدة فراسخ عن تبريز؛ وقد سار هو معهم على قدميه جزءاً من هذه المسافة إلى أن أصر وزيره والأمراء على أن يركب جواداً. وبعد وصول النعش إلى تبريز أمر الأهالي بالخروج أمام النعش والنواح على الميت، وأمر بمعاقبة كل من تقاعس عن ذلك؛ وأقصى الأمراء الذين تشفعوا للمقصرين. وبعد كل تلك التصرفات، فإنه لم يدفن رفات الغلام؛ بل ظلت رفات الغلام ترافقه في كل مكان ويبكيه ويربت على رأسه ووجهه. وقد امتنع عن الطعام والشراب، وكان يرسل للغلام بعضاً مما كانوا يأتونه به من طعام وشراب، ولم يكن أحد يجرؤ على القول بأن الغلام قد مات وإلا قتله. فكانوا يذهبون بالطعام والشراب ثم يعودون ويقولون إن الغلام يقبل الأرض بين يدي السلطان ويقول له إنه أفضل حالاً بفضل عطف السلطان. وأدت هذه التصرفات السفيهة إلى تنفير معظم الأمراء منه وغضب وزيره شرف الملك ودفعه إلى السعي إلى الاستقلال عنه بعد أن ضاق ذرعاً بحمقه وظلمه واستبداده.

ولم يكن جلال الدين يقل عن أبيه في الافتقار إلى الحكمة في معاملة الرعايا والمغلوبين؛ فكان فظاً وشرساً. وقد عادى الخليفة والإسماعيلية وملكة كرجستان والملك الأشرف وعلاء الدين كيقباد دون هدف محدد أو رؤية سياسية واضحة وبدون أن يكون له حليف في ذلك أو نصير؛

وقد اكتسب عداء رعايا كل هؤلاء لدرجة أن بعض الإسماعيلية ومسلمي كنجة وتبريز آثروا الخضوع للمغول على التبعية له.

موجز القول إن جلال الدين خوارزم شاه وعلى الرغم من جلده ودفاعه المستميت وسعيه الدائب لصد الأعداء وفتح الممالك، فقد ترك كثيراً من مناطق إيران نهباً للمغول مرتين في خلال عشر سنوات وعرَّض الكثير من المسلمين الذين كانوا على أهبة الاستعداد للقتال ضد الكفار والثأر من التتار للقتل بسبب بطشه وظلمه وسوء سياسته ولهوه.

الحملة المغولية الثانية للممالك الإسلامية:

قام الجيش الذي تم تجريده إلى إيران وتعقب السلطان جلال الدين بعد المجلس الذي عقد في سنة ٦٢٦هـ بقيادة جرماغون وبأمر من اقطاي قاآن بإخضاع البلاد التي لم يكن المغول قد غزوها تماماً كغزنين وكابل والسند وزابلستان وطبرستان وجيلان وأران وأذربيجان والجزيرة وغيرها. ومع أن هذه الحملة الثانية لم تكن بنفس أهمية الحملة الأولى، فإن سرعة تقدم المغول لم تكن أقل منها في المرة الأولى نظراً لعدم وجود من يستطيع أن يقف في وجه طوفان هجومهم؛ كما أن حجم المذابح لم يكن أقل مما تم بقيادة جنكيز وأبنائه، خاصة بعد أن استراح المغول من خصم خطير كجلال الدين، فاجتاحوا أذربيجان وأران وكرجستان والجزيرة والعراق دون أية عقبات في طريقهم، وأبادوا تلك المناطق التي شهدت كثيراً من التناحر بين الأمراء والهجمات والغارات والمظالم من جانب جلال الدين وعماله. وتقدم المغول حتى أطراف بغداد وقلب الأناضول. وبعد تشتيت جيش جلال الدين حول دياربكر، جاء أورخان – وهو أحد الأمراء الخوارزميين كان جلال الدين قد أنقذه في آخر غارات المغول على معسكره – إلى أربل على رأس أربعة آلاف من الجنود الخوارزميين، واتجه منها إلى أصفهان؛ إلا أنه سرعان ما سقط في أيدي المغول وقتل. وتفرقت فلول جيش جلال الدين في كردستان والجزيرة والشام. وقد لقي جزء منهم حتفه على أيدي الأكراد والبدو العرب، واختار جزء آخر منهم الالتحاق بخدمة السلاطين الأيوبيين في الجزيرة وملك سلاجقة الروم كجنود مرتزقة عرفوا باسم «الخوارزمية»، وظلوا لفترة مصدراً لمتاعب الأهالي والأمراء والسلاطين.

وبعد مقتل جلال الدين، انقسم جيش المغول إلى جماعات، اتجهت إحداها لغزو دياربكر وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين والموصل وتقدمت حتى ضفاف الفرات. وقد اقترفوا في هذه الحملة كثيراً من المذابح وعمليات التخريب وألقوا الرعب في القلوب في كل مكان. واتجهت جماعة أخرى من جنود التتار إلى مدينة بتليس (بدليس)، وبعد إحراقها استولوا على بعض القلاع الواقعة على أطراف أخلاط وغيرها وأقاموا مذابح جماعية لأهالي تلك المنطقة. واجتاحت جماعة ثالثة مراغة في أواخر سنة ٦٢٨هـ، ثم اتجهوا إلى أربل عن طريق أذربيجان وقتلوا كثيراً من أهلها. ولما لم يكن لدى الناس فيها خبر عن جلال الدين، فقد ظلت جماعة المغول في تلك النواحي وفي أذربيجان. وفي أوائل ٦٢٩هـ، تحركوا لاجتياح تبريز عاصمة أذربيجان.

كان أهالي تبريز ساخطين على تصرفات جلال الدين وعماله، وحدث ذات مرة أن أقدموا على قتل كل أتباعه وأرسلوا رؤوسهم إلى التتار. وحين علموا باقتراب جحافل المغول رأى قاضي المدينة ورئيسها الصلاح في الطاعة، فقدموا الهدايا والأموال والنفائس لقواد جيش المغول وقبلوا تعيين قائد عسكري إقليمي من قبلهم وتعهدوا بدفع خراج سنوي باهظ. واختار قادة المغول جماعة من النساجين المهرة بالمدينة وأرسلوهم إلى أقطاي قاآن وأمروهم بصنع خيمة ثمينة له. وبذلك نجت مدينة تبريز من بين مدن إيران من مذابح المغول.

وبعد أن اتجه خطر المغول إلى الجزيرة والعراق، طلب الخليفة العباسي المستنصر بالله العون من السلاطين التابعين له، فخرج الملك الكامل ملك مصر من القاهرة في طريقه إلى الشام على رأس جيش كبير في سنة ٦٢٩هـ؛ ورافقه عدد من سلاطين الشام الأيوبيين كالملك الناصر داود والملك الأشرف وعلاء الدين كيقباد ملك سلاجقة الروم. وبعد وصول الملك الكامل إلى حران بلغه أن المغول قد رحلوا عن أخلاط. وبدلاً من أن يتعقبهم، اتجه إلى دياربكر واستولى عليها بعد حصار دام خمسة أيام من صاحبها الملك المسعود (٦١٩هـ- ٦٢٩هـ) وهو من ملوك أرتقية وقد اشتهر بالمجون والظلم وأرسله إلى الشام حيث كان صلاح الدين الأيوبي قد عينه والياً عليه. ثم استولى على حصن كيفا (شرق دياربكر وشمال شرق ماردين بجوار أعالي دجلة)، ثم عاد إلى مصر دون أن يخوض حرباً مع المغول. وكان المغول في تلك الآونة قد قلبوا أذربيجان وجيلان وسائر الولايات

التابعة لجلال الدين رأساً على عقب واتجهوا إلى صحراء موغان لقضاء فصل الشتاء.

على الرغم من كارثة المغول الرهيبة لم يكف سلاطين الجزيرة والشام ومصر عن التناحر والحروب الأهلية فيما بينهم؛ وفي السنة التالية أي في ٦٣٠هـ، أرسل علاء الدين كيقباد سفيراً إلى أقطاي قاآن ليقدم له فروض الطاعة، ثم هاجم الملك الأشرف واستولى منه على أخلاط، فسارع الملك الكامل لنجدة أخيه في سنة ٦٣١هـ ومعه ستة عشر من الملوك الأيوبيين منهم إخوته الملك المظفر والملك الصالح والملك الأشرف والملك الحافظ وابن عمه الملك المعظم توران شاه (٦٤٧-٦٤٨هـ) وتحرك معهم صوب ممالك الروم، وأراد أن يعبر نهر قزل إيرماق ولكنه لم يستطع؛ فاضطر لإرسال جزء من جيشه من الفرات إلى مدينة خرتبرت (حصن زياد أو خربوت)، وأسرع علاء الدين كيقباد لملاقاتهم، إلا أن السلاطين الأيوبيين التابعين للملك الكامل رفضوا مساعدته ظناً منهم أنه لو تمكن من الاستيلاء على بلاد الروم سيقسمها بين السلاطين الأيوبيين فتخرج الشام ومصر من أيديهم تماماً. لذا فإن الملك الكامل لم يستطع مواجهة علاء الدين وأخضع ملك خرتبرت وهو من سلاجقة الروم لسيطرته، وفي السنة التالية حين تشتت جيش الملك الكامل وعاد هو وأقرباؤه الأيوبيون إلى ممالكهم. واستولى علاء الدين على مدينتي الرها وحران، وأقام مذبحة استمرت ثلاثة أيام في الرها قتل فيها عدداً كبيراً من المسيحيين والمسلمين فيها وأغار على كنائسها ونهب جنوده ما بها من كتب وصلبان وأوانٍ ذهبية وفضية. وحين عاد إلى مملكته، ذهب الملك الكامل إلى الرها واستعادها هي وحران من جيش السلاجقة، ولحقت بالأهالي خسائر فادحة على يد جنوده أيضاً.

وفي هذه الفترة، استولى جيش المغول على كنجة ودخلوا أرمينيا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى مروا في سنة ٦٣٣هـ من أربل ونينوي وزحفوا نحو بغداد في سنة ٦٣٤هـ ووصلوا إلى سامراء (سر من رأى) وزنجاباد. وأعلن الخليفة وعلماء بغداد الجهاد ضدهم، وهزمهم المسلمون بقيادة كل من مجاهد الدين دويدار[٦] وشرف الدين إقبال شرابي بالقرب من تكريت بين دجلة وجبل الحمرين، وبالقرب من الجعفرية تمكنوا من فك أسر ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من الأسرى كان المغول قد أسروهم من مدينة أربل ودقوقا، وحصَّنوا بغداد، ولكن حين عاد المغول إلى بغداد في أواخر سنة ٦٣٤هـ، تمكنوا من هزيمة جنود الخليفة في خانقين وقتلوا كثيراً منهم فعادت فلول جيش المسلمين

بالهزيمة إلى بغداد.

وقام جرماغون وقواده بتدمير أرمينيا وكرجستان التابعتين لبهرام الكرجي والملكة رسودان على التوالي وقلبوهما رأساً على عقب، وفرت الملكة. أما بهرام وآفاك بن إيفاني فقد استسلما وقبلا الخضوع لحكم المغول، والتحق آفاك بخدمة أقطاي قاآن الذي أعاده حاكماً على بلاده. وأصبحت كل من أرمينيا وكرجستان منذ ذلك الوقت من البلاد الدافعة للخراج مثلها في ذلك كمثل فارس وكرمان.

وقام المغول في تلك الحملة الثانوية بعمليات تدمير كبرى في شرق إيران وجنوب شرقيها، أي سيستان وغزنين وكابل وحدود السند؛ وبالإضافة إلى فارس وكرمان اللتين كان أمراؤهما من الأتابكة السلغوريين والقراخطائيين يدفعون الخراج للمغول، قام المغول بأعمال القتل والتخريب في بقية المناطق كما سترد الإشارة فيما بعد.

ولم يتوقف التناحر بين سلاطين الشام ومصر والجزيرة وبلاد الروم على الرغم من خطر الغزو المغولي؛ بل كان هؤلاء السلاطين الحمقى يتناحرون دائماً فيما بينهم بغرض الاستيلاء على مدينة أو قلعة ويُعرِّضون الأبرياء في بلادهم للهلاك، ولم يكن للخليفة العباسي في بغداد أي نفوذ أو قوة يضع بها حداً لصراعاتهم الأهلية أو أن يوحد قواهم المشتتة لصد المغول في المعابر المنيعة بين أرمينيا وكردستان والشام.

وفي سنة ٦٣٤هـ، وقع خلاف حاد بين الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف، وتحالف الأخير مع غياث الدين كيخسرو (٦٣٤هـ-٦٤٢هـ) ابن علاء الدين كيقباد وولي عهده لصد الملك الكامل. إلا أن كلا الشقيقين توفيا في سنة ٦٣٥هـ قبل أن تنشب الحرب بينهما.

وفي سنة ٦٣٧هـ، عاد قواد المغول بجيش جرار إلى أرمينيا، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على بلاد الروم نظراً لأن جنود غياث الدين كيخسرو كانوا يسيطرون على معابر جبال أرمينيا.

وفي سنة ٦٣٩هـ، تم عزل جرماغون من قيادة جيش المغول على أثر إصابته بالشلل وتعيين بايجو نويان مكانه. وقام القائد الجديد في السنة نفسها باجتياح أرزن الروم التي كانت من ممتلكات غياث الدين بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل وعدد من العربات والمجانيق، وفتح قلعتها وقتل عدداً

كبيراً من سكانها وأسر عدداً آخر. ولصد زحف المغول، تحرك غياث الدين في السنة التالية صوب أرمينيا بجيش كبير من المسلمين والأرمن والعرب والكرج عن طريق البحر، ووقعت المواجهة بينه وبين المغول في منطقة كوسه داغ بأرزنجان. ومع أن النصر قد تحقق له في البداية، إلا أنه انهزم في النهاية وفر إلى أنقورة (أنكورية). واستولى التتار على سيواس وقيسارية (قيصرية) واجتاحوهما. ولما وجد كيخسرو أنه ليس نداً للمغول، أوفد إليهم رسولاً بقبوله دفع جزية نقدية وعينية سنوية للخان وأن يكون في خدمته. وقد وضع قبوله لتبعية المغول نهاية لاستقلال سلاجقة الروم وانضمام بقية الممالك السلجوقية لممتلكات قاآن المغول (سنة ٦٤٠هـ).

غزو الصين (٦٣١هـ) وروسيا والمجر (٦٣٥هـ-٦٣٩هـ):

في سنة ٦٢٧هـ، وفي الوقت الذي كان فيه قواد المغول يطاردون جلال الدين ويغزون ممالكه في إيران والجزيرة وأرمينيا وكرجستان والشام والعراق، زحف أقطاي وأخواه جغتاي وتولي وأبناؤه نحو الصين ووادي هوانجهو (قراموران بتسمية المغول). وكانت الصين في ذلك الوقت خاضعة لحكم أسرة كين، وكان المغول قد استولوا في عهد جنكيز على بعض ولاياتها الشمالية كشبه جزيرة شانتونغ والمنطقة المحيطة بخليج بتشيلي من ملوك هذه الأسرة.

انقسم جيش المغول إلى قسمين، هاجم أحدهما ممالك أباطرة أسرة كين من الشمال بقيادة أقطاي، والآخر من الجنوب بقيادة تولي وأوقعوا الهزيمة بالجيش الصيني، وحاصر سُبُتاي القائد المغولي المعروف العاصمة الصينية آنذاك كايفونغ وفتحها في سنة ٦٣١هـ. ونتيجة لهذه الحملة، استولى التتار على الصين الشمالية كلها وعلى مملكة كوريا. وفي هذه الحملة سقط تولي مريضاً وتوفي في سنة ٦٣٠هـ بعد أربعة عشر عاماً في الحكم.

وفي حملة المغول على الصين الشمالية، قدم أهالي الصين الجنوبية الذين كانوا تحت حكم أسرة سونغ العون للمغول، وكان هدفهم أن يكون لهم نصيب في تقسيم ممالك أسرة كين. إلا أن المغول رفضوا ذلك، فنشبت الحرب أيضاً بين أهالي الصين الجنوبية والمغول وقضى خلفاء أقطاي قاآن على أسرة سونغ وضموا بلادهم إلى ممتلكاتهم كما سنرى فيما بعد. وبعد غزو أقطاي قاآن للصين

الشمالية، عين مستشار أبيه المسلم محمود يلواج حاكماً عليها، كما عين ابنه مسعود بيك لإدارة ممالك الأويغور والختن وكاشغر وما وراء النهر وحتى ضفاف نهر جيحون. وقد شرع الأب وابنه كما سنرى فيما بعد في تعمير ما تم تخريبه وإصلاح أحوال الأهالي وإدارة شؤون تلك البلاد، وتمكنوا من تضميد كثير من الجروح التي أحدثها غزو المغول.

وفي سنة ٦٢٤هـ، وبعد عودته من الصين وفي مجلس جديد، كلف أقطاي قاآن كلاً من باتو بن جوجي خان وجيوك ابنه ومنجو بن جغتاي بغزو ممالك الروس والجركس والبلغار، وجرد جيشاً جراراً إلى أوربا الشرقية بقيادتهم. وكانت القيادة العامة لهذه الحملة لبتوخان ملك صحراء قبچاق؛ إلا أن زمام الحملة كان في الحقيقة في يد سبتاي. وفي سنة ٦٣٥هـ، قام هذا الجيش الذي ضم مئة وخمسين ألف رجل بغزو الجزء الواقع بين جبال الأورال وشبه جزيرة القرم والذي كان يسكنه الباشغرد والبلغار، وألحق الهزيمة بالأمراء السلاف والروس واحداً بعد الآخر في وادي نهر الڤولجا وأضرم النيران في مدينتي ڤلاديمير وموسكو، ثم زحف صوب أوكرانيا وأحالوا مدنها إلى خراب، وفي سنة ٦٣٨هـ استولى الجيش على عاصمتها كييف. وبذلك تم لهم الاستيلاء على روسيا كلها وظلت روسيا منذ ذلك الوقت خاضعة لحكم المغول ولمدة قرنين ونصف القرن (٦٣٦هـ-٨٨٦هـ).

وبعد فتح روسيا، انقسمت قوات التتار إلى جيشين؛ زحف أحدهما إلى بولنده، بينما اتخذ القسم الآخر طريقه نحو المجر. وأنزل الجيش الأول الهزيمة بالتحالف الألماني البولندي في سنة ٦٣٩ واستولى على مدينة بريسلاف، وواصل زحفه حتى وصل إلى حدود برلين الحالية ومملكة ساكس. وتمكن الجيش الآخر في الوقت نفسه من هزيمة المجريين واستولى على عاصمتهم پِست، وتقدم إلى أطراف ڤيينا من ناحية وإلى سواحل البحر الأدرياتي من ناحية أخرى؛ ولكن لما كان شعب المجر والمغول من أصل واحد، فقد جلوا عن بلادهم بعد عام واحد واكتفوا بتبعيتهم الرسمية لهم. وحين انتشر خبر وفاة أقطاي قاآن أيضاً، كان هذا الجيش قد وصل إلى أوربا، وتم استدعاء كل من سبتاي وباتو إلى آسيا لحضور مجلس لاختيار خان جديد. فعاد المغول من أوربا دون أن يتم غزو ألمانيا وأوربا الغربية كلها، فنجت تلك المنطقة من ويلات التتار.

وفاة أقطاي قاآن في سنة ٦٣٩هـ:

في مدة سبع السنوات التي انشغل جيشه العظيم فيها بفتح أوربا الشرقية، كان أقطاي قاآن يقضي حياته في اللهو والشراب. ولما كان رجلاً قويم النفس وهادئاً، فقد عمل على تعمير البلاد والإحسان إلى الرعية وإصلاح ما حدث من تخريب في عهد أبيه، خاصة أن زمام الأمور كان في عهده في يد وزير حكيم كيلوچوت ساي وأن الجزء الأعظم من ممالكه في يد محمود يلواج وابنه الأمير مسعود بيك؛ فسرعان ما تحسنت الأوضاع واستراح الناس.

عمل يلوچوت ساي ولو في فترة وزارته على الأقل على إنقاذ بلاده الأصلية الصين من خطر التقسيم كغنيمة بين خلفاء جنكيز. وقد تمكن من تحقيق ذلك واستطاع أن يضع الصين تحت إدارة منظمة وأن يحسن إدارة ممالك أقطاي قاآن بعون من الكتبة والعمال الفرس والأويغور والصينيين والتبت. فنظم الدخل والنفقات وأنشأ مدارس لتدريب شباب العمال في بكين (خان باليغ). وكان التتار الوحشيون ساخطين على تصرفاته وإصلاحاته وأفلحوا ذات مرة في تأليب أقطاي قاآن عليه فسجنه، إلا أنه سرعان ما ندم على فعلته وأعاد زمام الأمور بين يديه كما كانت.

ومع أن المغول حتى ذلك العهد لم يكونوا يعرفون الاستقرار في مكان واحد وأن كلمة مغول كانت مرادفاً لجوب الصحلري والتخريب، فقد أولى أقطاي قاآن اهتماماً للعمارة والتعمير نتيجة لاختلاطه بأهل الحضارة من صينيين وأويغور وفرس، فأمر في سنة ٦٣١هـ ببناء مدينة جديدة في مخيم أردو باليغ بشمال منغوليا وسفوح جبال قراقروم على أطلال إحدى المدن التي خربت في عهد سيطرة الأويغور، وباسم أردو باليغ نفسه، واتخذ منها عاصمة له نظراً لقربها من جبال قراقروم؛ وقام كل من إخوته وأبنائه وأمرائه ببناء عمارة له في ذلك الموضع.

قضى أقطاي قاآن مدة إقامته في منغوليا في التنقل بين المصايف والمشاتي واللهو والشراب بإفراط، وكان دائماً في حالة سكر، وهو ما أدى في النهاية إلى تقلب مزاجه ووفاته في السنة الثالثة عشرة من حكمه أي في سنة ٦٣٩هـ. وقد اشتهر أقطاي قاآن في مشرق الأرض بالكرم والشهامة والسخاء، وتداولت الألسن حكايات كثيرة عن جوده. كما عرف بعدله وحبه للرعية ورفقه بالمسلمين وحمايتهم خلافاً لأخيه جغتاي حتى قيل عنه إنه كان مسلماً في قلبه. (انظر طبقات ناصري، ص٣٨٢-٣٨٧).

منغوليا في سنة ٦٤٤هـ. وتعلل باتو بآلام في الساق وضعف المزاج فلم يحضر المجلس وأرسل أحد خوانين روسيا ويدعى ياروسلاف بدلاً منه. إلا أن أبناء كل من جغتاي وجوجي وتولي وبني عمومة جيوك وسائر أمراء المغول وأعيانهم حضروا جميعاً. ومن البلاد البعيدة حضر المجلس كل من الأمير مسعود حاكم ما وراء النهر وحكام وعمال الخطا وخراسان والعراق ولرستان وفارس وأذربيجان وكرمان وكرجستان والموصل وحلب والجزيرة إما بأشخاصهم أو أوفدوا نواباً عنهم محملين بالهدايا. حتى الخليفة العباسي وعلاء الدين صاحب ألموت سارعا بإيفاد رسول ونائب من باب الاحتياط والخوف. وكان من بين المسيحيين الذين حضروا هذا المجلس سنباد شقيق هَيتون ملك ولاية كيليكيا الأرمني، وپلان كارپن سفير البابا إينوسان الرابع. وهذان الأخيران اللذان سيرد فيما بعد الحديث عن تدخلهما في سياسة خوانين المغول دوَّن كل منهما شرحاً لرحلته إلى منغوليا يعد من المصادر المهمة للتعرف على الأوضاع الجغرافية لممالك المغول وتاريخ ذلك العصر.

وبعد أن حضر أمراء الممالك المحيطة وممثلوهم، استقر الحاضرون على اختيار جيوك لخلافة أقطاي كما أرادت توراكينا خاتون. وقد رفض في البداية، ولكنه وافق في النهاية بشرط أن يظل العرش من بعده في ذريته. وهلل أمراء المغول لقبول هذا الشرط وفكوا مناطقهم على عادة المغول ورفعوا قلانسهم وكؤوس الشراب وبدأ الناس في أداء فروض الطاعة أمام عرشه وتم تنصيب جيوك خان في منصب القاآن رسمياً.

كان جيوك خان على عكس أبيه رجلاً محارباً وفاتحاً ينصب اهتمامه على الفتوحات العسكرية، فكان أشبه بجده جنكيزخان منه بأبيه أقطاي. لذا فبمجرد أن استقر على عرش الخانية أمر الأمراء باحترام إلياسا الجنكيزية وألا يحرفوها أو يتصرفوا فيها، وأن يجهزوا الجيش لغزو الصين الجنوبية التي كانت تعرف باسم منزِي وسائر الأقطار الإسلامية والإطاحة بباتو. فوجه سبتاي بهادر القائد المعروف نحو الصين الجنوبية، وإيلتشيكتاي فاتح هرات إلى إيران بدلاً من بايجو؛ بينما اتجه هو أيضاً إلى الإقليم الخاضع لباتو للإطاحة به. ولكن ما إن وصل إلى باليغ حتى وافته المنية في التاسع من ربيع الآخر سنة ٦٤٧هـ بعد عام واحد على العرش. وكانت أمه توراكينا خاتون قد سبقته بعدة أشهر.

ولاية جيوك خان وصاية والدته (من ٦٣٩هـ إلى ٦٤٧هـ):

قام أقطاي قاآن في حياته بتعيين ابنه الثالث كوتشو ولياً للعهد بسبب تعلقه الشديد به. إلا أن كوتشو توفي قبل وفاة والده، فعين أقطاي ابنه شيرامون (أو سيرامون) الذي كان لايزال طفلاً صغيراً بدلاً منه. وكان الابن الأكبر لأقطاي قاآن، أي جيوك، في منغوليا في سنة وفاة والده، ومع أن أقطاي كان قد طلبه في أردو باليغ، فقد وافته المنية قبل أن يراه؛ فتولت زوجة القاآن وهي توراكينا خاتون زمام الحكم وخلفت زوجها في حقيقة الأمر إلى أن تم عقد مجلس موسع لتحديد خليفة أقطاي.

نشأ الاختلاف بين كبار رجال أسرة جنكيز حول تعيين خليفة أقطاي. فمن ناحية، كان باتو ملك خوانين روسيا وصحراء قبچاق الذي لم يكن له نفوذ كبير بين المغول يريد خلع أوروغ أقطاي وخروج العرش من أسرته؛ ومن ناحية أخرى كان كوتان الابن الثاني لأقطاي يدعي لنفسه خلافة أبيه، وكان البعض أيضاً يريدون تعيين الطفل الصغير شيرامون في منصب القاآن.

كانت توراكينا خاتون امرأة حكيمة وذكية بذلت مساعيها للحفاظ على التاج والعرش لابنها جيوك وظلت لمدة أربع سنوات ونيف (٦٣٩هـ–٦٤٤هـ) تقاوم المعارضين وتدفع العقبات التي وضعها باتو الذي كان يعرقل عقد المجلس. وبعون من امرأة داهية تدعى فاطمة من أهالي طوس، تمكنت من تقصير أيدي أعدائها واستمالة الجنود إليها وشرعت في اعتقال وعزل من كان له سابق خصومات وأحقاد تجاهها هي وابنها. فأرادت أن تعتقل تشينقاي وهو من أمراء أقطاي المسيحيين المعروفين ومحمود يلواج صاحب الديوان وحاكم الخطا، إلا أن الرجلين علما بما تدبره لهما توراكينا خاتون، فلاذا بحمى أخيه كوتان، بينما احتمى الأمير مسعود بيك ابن محمود يلواج حاكم ما وراء النهر بباتو. وظلت توراكينا خاتون توفد الرسل لكوتان للمطالبة بتسليم تشينقاي ويلواج، ولكنه أبى تسليمهما.

وأوفدت توراكينا خاتون المبعوثين إلى كل أطراف الممالك الخاضعة لسيطرة المغول في محاولة من جانبها لإضفاء الصبغة الرسمية على ولاية ابنها جيوك وعقد المجلس ولاستدعاء السلاطين والأمراء والأعيان إلى منغوليا. وتم عقد مجلس تعيين جيوك على سواحل إحدى بحيرات غرب

كانت توراكينا خاتون تدين بالمسيحية؛ وقد عهدت بتربية ابنها جيوك ورعايته للأمير قُداق المسيحي. وبعد أن وصل جيوك إلى منصب الخان، قرب إليه تشينقاي المستشار المسيحي لأبيه وقلده منصب الوزارة. وقد ساعد كل من قداق وتشينقاي على استمالة جيوك لمساعدة المسيحيين، فأصبح الرعايا المسيحيون في البلاد كالأرمن والكرج والسريان والروس موضع رعاية الخان واهتمامه، وكان لأطبائهم نفوذ كبير في البلاط. كما انتشرت بعض العادات المسيحية بين المغول. وعلى أساس هذه المشاعر، عقد جيوك تحالفاً مع الأرمن ربما كان الغرض منه غزو الشام ومصر المسلمين. فقد كان عاجزاً عن إدارة دفة الحكم بنفسه وذلك بسبب ضعفه وإدمانه للخمر؛ فتولى كل من قداق وتشينقاي إدارة شؤون البلاد نيابة عنه وساعدا على تأجيج نار العداء مع المسلمين.

استقبل جيوك رسل الخليفة العباسي بكل إجلال حين جاءوا لحضور مجلس تتويجه، وأرسل معهم رسائل للخليفة تحمل الوعد والوعيد بتحريض منهما. أما رسل علاء الدين صاحب الموت فقد أعادهم بكل مهانة ورد على رسائله بكل قسوة.

ولاية الفرع الثاني من أسرة جنكيز (منجو قاآن: ٦٤٨هـ-٦٥٧هـ):

حين توفي جيوك خان، ساد الاضطراب أحوال المغول من جديد، ودب الخلاف بين مسؤوليهم حول اختيار القاآن. وقد تولت زوجته أغول غايمش (أقول قيمش) الحكم بالنيابة على عادة المغول حتى ينعقد المجلس ويقوم الأمراء بتعيين خليفة لجيوك.

كانت أغول غايمش تميل إلى تتويج شيرامون ابن أخي جيوك الذي كان أقطاي قاآن قد اختاره ولياً للعهد بعد وفاة أبيه؛ وكان معظم المسؤولين المغول قد تعهدوا بالإبقاء على العرش في ذرية جيوك بعد وفاته، ومع ذلك فإنهم رفضوا اقتراحها، خاصة باتو وسرقويتي زوجة تولي خان اللذين كانا من أكثر أصحاب النفوذ عند المغول، حيث كانا يدبران لأمر آخر. كانت سرقويتي بيجي الزوجة المسيحية لتولي خان ابنة أخي أوانج خان آخر ملوك الكرائيت، وكانت تعد أكبر خواتين المغول وأكثرهن حكمة وكفاءة. ولم يكن لها نظير في عصرها من حيث احترامها للياسا الجنكيزية

وإدارة شؤون الحكم والجود. ونتيجة لهذه الخصال الحميدة التفت حولها قلوب معظم القواد والأمراء المغول، وكانت دائماً موضع احترام أقطاي قاآن بعد وفاة تولي، وكان يستشيرها في كثير من الأمور. ومع أنها كانت تدين بالمسيحية لم تكن تبدي أي نوع من التعصب وكانت تترفق بالرعايا المسلمين في البلاد؛ فتكفلت بتكاليف بناء مدرسة إيرا ببخارى وخصصت لها الأوقاف وعينت عليها أحد كبار علماء المسلمين.

ولم يحضر باتو ملك خوانين القبچاق وروسيا إلى المعسكر الأصلي لجنكيزخان الذي عقد لاختيار خليفة جيوك متعللاً بألم ساقيه؛ وأوفد بعض أمرائه كممثلين له. ولم يلبِ أبناء اقطاي وجغتاي الدعوة لهذا المجلس بأنفسهم، بل أوفدوا رسلاً إلى باتو لينوبوا عنهم. أما سرقويتي فأوفدت أبناءها إلى باتو وقالت إن باتو هو الأخ الأكبر لكل الأمراء وطاعته واجبة عليهم جميعاً ولا يجوز مخالفته. وكانت سرقويتي أم أبناء تولي الأربعة الذين كانوا يمثلون الأركان الرئيسة للملكة وأكبر أمراء المغول، وهم منجو (منككا) وهولاكو (هولاتو) وقوبيلاي وأريق بوكا.

كان منجو قد تم تكليفه هو وكل من جيوك وباتو بفتح روسيا وأقطار أوربا الشرقية في عهد أقطاي على النحو الذي ذكرنا من قبل، وفي تلك المهمة حدث اتفاق تام بينه وبين باتو الذي كان مصراً على الإطاحة بأسرة أقطاي. وكان تصويت باتو في المجلس الذي عقد لاختيار خليفة جيوك لصالح منجو الذي كان أميراً ذكياً وكفؤاً ليتولى ذلك المنصب. ولما كانت سرقويتي قد مهدت الطريق لذلك الأمر من قبل، فقد أثمرت خطته وخطة باتو بينما لم تسفر ترتيبات أغول غايمش عن شيء.

وباختيار منجو لمنصب الخان، سقط الفرع الأول من أسرة جنكيز وهم أبناء اقطاي قاآن، وانتقلت خلافة جنكيز إلى أبناء تولي الذين ينتمون إلى الفرع الثاني من الأسرة. وفي المجلس الذي صوت فيه باتو لصالح منجو لمنصب الخان حيث لم يكن كل أمراء المغول حاضرين فيه، تقرر عقد مجلس موسع في السنة الجديدة يحضره كل أمراء المغول وأعيانهم لتتويج منجو رسمياً. واعترضت جماعة من أبناء اقطاي وجيوك وجغتاي على ذلك بدعوى أن المنصب لابد أن يظل منحصراً في ذرية اقطاي وجيوك، وأوفد معظمهم الرسل إلى باتو ليعربوا له عن غضبهم على النحو الذي ذكرنا

من قبل.

واستمرت المفاوضات بين باتو ومنجو وسرقويتي من ناحية والمعارضين من ناحية أخرى لمدة عامين؛ وفي النهاية، تمت مبايعة منجو من قبل أنصاره رسمياً لمنصب الخان على حدود قراقروم بتأييد من باتو في ذي الحجة سنة ٦٤٨هـ. وعلى الرغم من امتناع جماعة من أتباع شيرامون وأغول غايمش عن حضور المجلس، فقد تم تتويج منجو ملكاً رسمياً.

«ولما ارتقى عرش المملكة أراد أن تعم الراحة كل الأجناس. فأمر بألا ينشغل أي مخلوق بالخلاف في ذلك اليوم السعيد وأن ينشغل الناس باللهو والمرح. وكما أراد لكل إنسان أن يأخذ نصيبه في ذلك اليوم من السعد والمرح، فقد أمر أيضاً بعدم تعريض أي حيوان لعناء الركوب والحمل والقيد، ومنع إراقة دم ما يؤكل منها، وأن يأمن الوحوش من طير وحيوان على الأرض أو في الماء من شباك الصيد، وبعدم تلويث الماء الزلال... وكان صاحب يلواج قد أمر بنسج صورة بالألوان لملك العالم وهو جالس ومن حوله الأمراء كعقد الثريا على يمينه وإخوته السبعة يقفون بين يديه بكل أدب،[٧] وعلى يساره جلست الخواتين كحور العين بينا يطوف السقاة بكؤوس الشراب، وبين الأمراء يقف المقدم منجاسار والكتبة والوزراء والحجاب والنواب، ويقف مقدمهم بلغا في مرتبته، وسائر الأمراء والحشم يقفون خارج البلاط بكل أدب كل في مكانه. وقد ظلوا في سرور وحبور لمدة أسبوع، حيث كان بيت الشراب والمطبخ ينحرون كل يوم ألفي رأس من الأغنام بحضور بركاي[٨] طبقاً للشريعة. وفي هذه الأثناء حضر قدان أوقول وأخوه ملك أوقول[٩] وقراهولاكو،[١٠] وقدموا التهاني طبقاً للتقاليد المعروفة» (جامع التواريخ لرشيدي، طبعة بلوشة ٧ : ص٢٨٣)

وبعد أن علم معارضو منجو بتتويجه رسمياً شرعوا في التآمر ضده. وما إن هموا بالتوجه إلى المعسكر الأصلي لجنكيز حتى علم منجو بتآمرهم، فاعتقل زعماءهم وقام بنفسه بالتحقيق في تفاصيل المؤامرة وعاقبهم جميعاً بالسجن والتقييد والإعدام، وكان من بين من حوكموا بقوانين إلياسا إيلتشيكتاي نويان وقائد حرب هرات وقائد جيش المغول في شرق إيران، وقد حكم عليهم منجو بأن تُدق على أفواههم الأحجار حتى الموت. كما أمر منجو باعتقال أبيهم في بادغيس وإرساله إلى باتو الذي قتله. كما تم إلقاء القبض على شيرامون وأغول غايمش وتشينقاي وأعدموا وخلا الطريق تماماً لانفراد منجو قاآن بالعرش.

سياسة منجو قاآن:

كان منجو قاآن في إدارته لشؤون الملك حريصاً كل الحرص على قواعد إلياسا الجنكيزية وعادات المغول وتقاليدهم. ولكن لما كانت الخشونة والقسوة اللتان ميزتا خوانين المغول الأول قد خفت حدتها نسبياً لطول مخالطتهم للأمم ذات الحضارة، فقد اتسعت نظرتهم إلى إدارة شؤون البلاد والتعامل مع الأمم المغلوبة ورعاياها واتبعوا نهجاً أكثر عدلاً واحتراماً لقواعد السياسة ولأصول إدارة شؤون الحكم. وقد خفف منجو من معاقرته للخمر وأمر بخفض الضرائب وأقر رواتب ثابتة للجنود وعمل على نشر الرخاء على الأهالي وأمر عمال الدولة ومسؤوليها بعدم التعسف في مصادرة الدواب من الأهالي، كما استدعى من إيران عدداً من فضلاء الفرس إلى منغوليا لتولي مهام إدارة دواوين قراقروم ودوَّنوا لغة خليطاً من الفارسية والصينية والأويغورية والتنجغوتية. وولَّى محمود يلواج حاكماً على الجزء الشرقي من ممالك المغول حتى الخطا والصين؛ وعين ابنه الأمير مسعود حاكماً على تركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم. وقد عمل الأب وابنه على ازدهار حكم أبناء جنكيز وإصلاح كثير من أوجه الخلل، خاصة الأقطار الإسلامية التي تولى حكمها الأمير مسعود منذ عهد أقطاي، حيث أعاد المدن الخربة إلى سابق عهدها.

كان منجو قد تربَّى في كنف أمه المدبرة فنشأ مثلها في معاملتها لكل الأديان السائدة في ممالك المغول، فكان يحترم أتباعها. ومع أن أمه كانت تدين بالمسيحية، كان يسوي في معاملته بين المسيحيين والبوذيين والتاؤيين والمسلمين ويسمح لهم بإقامة المناظرات الدينية فيما بينهم وفي حضوره. وبلغت حرية المسلمين درجة أن اسم خليفة بغداد كان يذكر علناً في الخطبة في بعض الأقطار، ولو أن الخطبة كانت تتضمن دعاء بدوام دولة منجو أيضاً.

وفي عهد سرقويتي وابنها منجو، زادت الحركة بين أقطار أوربا المسيحية وبلاد آسيا وبلاط المغول. وكان المسيحيون في تلك الأيام منشغلين بالحروب الصليبية ضد المسلمين في مصر والشام، وكانوا قد تلقوا ضربات موجعة من السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبناء إخوته. وأرادوا أن يقيموا علاقات ودية مع المغول الذين كانوا يعتبرونهم أعداء للإسلام وكانوا يدعونهم للتحالف معهم. فأرسلوا السفراء إلى بلاط خان التتار عدة مرات، خاصة أن قبيلتي النايمان والكرائيت كانتا قد

اعتنقتا المسيحية قبل ذلك بمدة طويلة؛ فكانت أوربا المسيحية تعتقد أن هناك دولة مسيحية كبرى في أقصى الشرق. لذا فقد كانوا ينادون أوانك خان آخر خوانين قبيلة الكرائيت وعم سرقويتي الذي كان جنكيزخان قد هزمه وقتله بلقب الملك يوحنا Prêtre Jean؛ ومع أنهم لم يكن لديهم معرفة كافية بأوضاع بلاده وموقعها، فقد كانوا في سعي دائم للتحالف معه ضد المسلمين.

وفي المجلس الديني الذي عقد في سنة ١٢٤٥م (٦٤٣هـ) بمدينة ليون الفرنسية، تقرر إيفاد بعثتين تبشيريتين إلى منغوليا لاستمالة المغول إلى العقيدة المسيحية ودعوتهم للتخلي عن ظلم المسيحيين وتأليف قلوبهم معهم. وكانت إحدى هاتين البعثتين برئاسة پلان كارپن الذي حضر مجلس اختيار جيوك كما سبقت الإشارة. أما البعثة الأخرى فكانت تتكون من أربعة قساوسة، وقد تلقت من البابا إينوسان الرابع تعليمات بالتوجه نحو إيران ليؤدوا مهمتهم في أقرب معسكر للمغول. وقد اصطحبت هذه البعثة قسيسين آخرين على علم بأوضاع الشرق، ووصلت إلى إيران عن طريق تفليس في سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م). وكانت القيادة العامة لجيش المغول في إيران الغربية في ذلك الوقت لبايجو نويان.

وقد تحولت المباحثات بين بايجو ورسل البابا إلى مشادة، فقد كان القساوسة يغالون في وصف مكانة البابا وقالوا إنهم والبابا لم يسمعوا اسم خاقان المغول من قبل، بل سمعوا عن قوم وحشيين جاءوا من أقصى الشرق وغزوا الممالك الكبرى وقتلوا عدداً لا حصر له من الناس. فطلب بايجو وبعض من أمرائه قتل رسل البابا لتجاسرهم عليهم؛ إلا أنهم عفوا عنهم احتراماً لتقاليد السفارة والتمثيل، وأعادوهم إلى بلادهم برسالتين إلى البابا ورسولين من قبل المغول. وقد وصل هذان الرسولان المغوليان إلى البابا في سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) وسلماه الرسالتين. وكان الغرض من هذه السفارة دعوة البابا إلى قبول طاعة المغول والمثول بين يدي الخاقان وتقديم فروض الطاعة له.

في الوقت الذي كان فيه لويس التاسع ملك فرنسا مشغولاً في الحرب ضد المسلمين على سواحل شرق المتوسط، مثل بين يديه رجل مسيحي في جزيرة قبرص وادعى أنه موفد إليه من قبل إيلتشكتاي قائد جيش المغول في إيران لغزو بيت المقدس وانتزاعها من أيدي المسلمين بعون منه. فأرسل لويس ثلاثة رسل محملين بالهدايا من قبرص إلى خان المغول في سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨م)،

والتقوا في السنة التالية بأغول غايمش التي كانت تتولى نيابة الملك في ذلك الوقت. فأكرمت أغول غايمش وفادة السفراء وأعادت أحدهم في سنة ٦٤٩هـ إلى لويس لموافاته بتقرير عن رحلته.

وبعد فترة أوفد لويس بعثة أخرى برئاسة رجل دين يدعى جيوم دو روبروكي Guillaume de Rubruquis إلى بلاط خان المغول. فتوجه جيوم في سنة ٦٥٠هـ من القسطنطينية إلى شبه جزيرة القرم، ومنها إلى مدينة سراي (تقع على ضفاف نهر الفولجا وشمال بحر الخزر) عاصمة ملك صحراء القبچاق؛ ثم مر من معابر جبال الأورال ووادي نهر إيلي؛ وفي ٢٢ شوال ٦٥٠هـ، مثل بين يدي منجو قاآن في مدينة قراقروم. وقد أكرم منجو قاآن وفادة سفير لويس وسمح له بالتناظر مع كهان البوذية وعلماء المسلمين، ولكنه لم يقدم رداً مقنعاً له فيما يتعلق بمشروع التحالف بينهما؛ بل طالبه بالخضوع هو وسائر الملوك المسيحيين لطاعة خان المغول. وبقي سفير لويس في قراقروم لمدة خمسة أشهر، عاد بعدها في سنة ٦٥٢هـ إلى الشام، ومثل بين يدي لويس في عكا وقدم له الرسالة التي أرسلها إليه منجو قاآن بالخط الأويغوري.

وفي السنة نفسها التي عاد فيها سفير لويس إلى أوربا، جاء هتوم ملك كيليكيا إلى باتو عن طريق القوقاز. وقد أمده باتو وابنه بعدد من الحراس لازموه إلى قراقروم. وقد بقي في قراقروم لمدة خمسة عشر يوماً ظل فيها يذكر خان المغول دائماً بتجديد الاتفاق الذي أبرمه جيوك خان معه لشن هجوم مشترك على المسلمين. وفي النهاية حصل من منجو على مراسلات وتوصيات بتقديم العون للمسيحيين وتجريد جيش لقتال المسلمين. وكانت حملة هولاكو وزوال الخلافة العباسية من نتائج هذا التعهد إلى حد ما.

وفي السنة الثانية من توليه العرش، وبعد تنظيم الشؤون الإدارية والانتهاء من إعادة ترتيب الأوضاع الداخلية للمملكة، شرع منجو في مواصلة الفتوحات، وقرر غزو البلاد التي لم تكن قد فتحت بعد. فكلف أخاه الأصغر هولاكو بقمع الإسماعيلية وإخضاع خليفة بغداد، وأسند إلى قوبيلاي أخيه الأوسط مهمة إخضاع الممالك التابعة لأسرة سونج أي الصين الجنوبية. ونظراً لأن قصة حملة قوبيلاي وتوليه حكم الصين ليست لها صلة كبيرة بتاريخ إيران، فإننا نكتفي بتقديم نبذة عنها، ثم نواصل سرد أحداث حملة هولاكو وأبنائه.



غزو الصين الجنوبية وتتويج قوبيلاي (٦٥٨هـ-٦٩٣هـ):

أسند منجو قاآن إلى قوبيلاي في سنة ٦٥٤هـ مهمة غزو الصين الجنوبية التي كانت تعرف أيضاً باسم منزي. وظل قوبيلاي منشغلاً بغزو ممالك سونغ عن طريق التبت وأعالي نهر يانجتسي كيانغ حتى سنة ٦٥٥هـ وهي سنة وفاة منجو قاآن. وقد استولى على جزء من هذه الأراضي بينما اتجه منجوقاآن نفسه لغزو جزء آخر منها.

توفي منجو في سنة ٦٥٥هـ في أثناء الحرب نتيجة لسوء المناخ؛ لذا فقد توقف قوبيلاي عن غزواته واتجه إلى الصين الشمالية لحضور تعيين خان جديد. وفي غياب منجو، تولى أريق بوكا أخوه الأصغر الآخر العرش بالنيابة في منغوليا. وكان منجو يفكر في تعيين أريق بوكا زعيماً للمغول وأفرع أسرة جنكيز الأربعة من بعده؛ إلا أن قوبيلاي لم يوافق على هذه الخطة، خاصة أنه تربّى في كنف مربين صينيين وكان تأثيرهم عليه طاغياً. فرفض طاعة أخيه مطمئناً إلى ولاء الجيش وأتباعه من الصينيين. وفي سنة ٦٥٨هـ، وفي إحدى مدن الصين الشمالية، عقد مجلساً خاصاً توج فيه نفسه خاناً وامبراطوراً وأعلن خروج أريق بوكا عليه.

ولم يكن هذا المجلس كأي مما سبقه من مجالس المغول؛ فلم يكن يضم سوى القادة الصينيين لجيش قوبيلاي ولم يحضره أي من أفراد أفرع أسرة جنكيز الأربعة. لذا فإن موافقة سائر المغول عن طيب خاطر على زعامة قوبيلاي لم تكن أمراً ممكناً إلا إذا أجبرهم على الخضوع لتبعيته بالقوة، خاصة أن قوبيلاي كان يرى نفسه خليفة لأباطرة الصين السابقين وكان في الحقيقة قد اندمج في الحضارة الصينية ومعارفها وتقاليدها. فكان على الجنس المغولي إما أن يأبى الخضوع لهذا القاآن الداعية لحضارة الصين أو يضطر إلى الخروج على إلياسا الجنكيزية وينضوي تحت لواء خان جديد خادم لحضارة الصين القديمة.

اتخذ قوبيلاي قاآن من مدينة بكين القديمة مقراً لحكمه وغير اسمها إلى خان باليغ (أي مقر الخان). ولما كان المغول قد رفضوا تبعيته واعترفوا بأريق بوكا خاناً عليهم، فقد لجأ إلى تعبئة الجيش لإخضاعهم خاصة قيدوخان ملك المحيطة بجبال تارباجاتاي وحفيد أقطاي الذي خرج العرش من أسرة أبيه بسبب تصرفات والدة قوبيلاي قاآن، وثار عليه فرع جغتاي (ما وراء النهر وتركستان)،

وسعى قوبيلاي قاآن بكل جهده للاستيلاء على مدينة قراقروم من أريق بوكا دون جدوى. ولكن في النهاية تمكن من هزيمة أريق بوكا واعتقاله بعد جذب ملك فرع جغتاي إلى صفه والتحالف معه (٦٦٢هـ)، وظل أريق بوكا في السجن حتى قبض في سنة ٦٦٤هـ.

وبعد قمع معارضيه، استولى قوبيلاي قاآن على الصين الجنوبية بعد عشرين عاماً من المتاعب والمشقة، وأطاح بأسرة سونج ورسخ استيلاء المغول على تلك البلاد (٦٧٨هـ)، ثم شن حملات على الهند الصينية وجاوة واليابان أيضاً.

كان خوانين مغول إيران، وهم أخوه هولاكو وابن أخيه أبقاخان، منضوين تحت لواء قوبيلاي قاآن ولم يشقوا عصا طاعته طوال مدة حكمه، وظلت روابط الأخوة والود متصلة بينهم، وكان كل منهم في عون الآخر وقت الحاجة كما حدث وقت غزو عراق العرب وبغداد حيث جرد قوبيلاي عدة مجموعات من جيشه بعون من هولاكو؛ كما قام هولاكو بعد استيلائه على دار الخلافة بإرسال نصف الغنائم التي حصل عليها من نهبه للمدينة إلى أخيه كهدية.

يعد قوبيلاي قاآن بصورة عامة أقوى حكام المغول؛ فبعد غزو الصين والقضاء على أسرة سونج، شرع على الفور في إعمار المباني التي خرَّبها الاجتياح المغولي، وجمع الحرفيين وأهل الصنائع الذين كانوا قد تواروا وحملهم على مواصلة حرفهم، ومهد العديد من الطرق وأنشأ منازل القوافل في كل مكان ونظم البريد في أرجاء البلاد وعمل على الرقي بالزراعة وأنشأ دوراً لرعاية المعوقين. وعلى الرغم من اهتمام قوبيلاي قاآن بالبوذية فقد سمح بحرية الأديان الأخرى وسمح لكهنة البوذية والكنفوشية والمسيحية والعلماء والأئمة المسلمين حرية بعقد المناظرات في مجالسه الملكية وأمر بترجمة أجزاء من القرآن والإنجيل والتوراة وتعاليم بوذا إلى اللغة المغولية.

كما ازدهرت التجارة إلى حد بعيد في عهد قوبيلاي قاآن. وفي عهده جاء الرحالتان الفينيسيان الشهيران مافيو پولو ونيكو پولو، ثم ابن الأخير ماركو پولو الذي حظي بمحبة قوبيلاي قاآن وأسند إليه قوبيلاي أعمالاً مهمة تتعلق بتنظيم حكومة ولايات الصين وإدارة الجمارك والسفارة وغير ذلك طوال عشرين عاماً؛ ونتيجة لذلك، كان ماركو پولو على دراية واسعة بأوضاع ممالك قوبيلاي قاآن، وبعد عودته إلى أوربا في سنة (٦٩٥ هـ) روى تفاصيل رحلته لصديق له قام بجمعها ونشرها فيما

بعد، وتضم معلومات قيمة عن الأوضاع العامة في ممالك المغول في ذلك العصر.

ومن أهم أحداث عهد قوبيلاي قاآن ترددُ التجارِ المسلمين على الصين ونفوذِ الفرس في جهازه الحكومي وانتشار اللغة الفارسية في الصين. فحين كان هذا الملك يريد أن يغزو المدن الحصينة في الصين الجنوبية كان يطلب أشهر المهندسين من إيران والشام لتركيب المجانيق والعربات الحربية ويقيمون في معسكره. وكان هناك دائماً عدد من فرس ما وراء النهر وخراسان في بلاطه، وكان بعضهم ممن هجَّرهم المغول إلى منغوليا كحرفيين وأهل صنائع في أعقاب غزو ما وراء النهر وإيران. وكانوا من الكثرة حتى إنهم أقاموا لأنفسهم في بعض المناطق مدينة جديدة على غرار وطنهم الأصلي. وكان بعض أمراء قوبيلاي قاآن وعماله الإداريين في الصين من الفرس؛ وبلغ نفوذهم حد أن هذا الخان المغولي أعطى منصب الوزارة بعد محمود يلواج لأحدهم وكان يدعى السيد الأجلّ، وقد ظل هذا الفارسي في منصبه لمدة خمس وعشرين سنة (٦٥٨هـ-٦٨٣هـ)، وفي عهده أمر قوبيلاي قاآن بتنظيم تداول العملات الورقية (چاو) في الصين.

وبعد السيد الأجل، انتقلت وزارة قوبيلاي قاآن إلى الأمير أحمد بناكتي الذي ظل في هذا المنصب لمدة طويلة ولكنه لم تكن في كفاءة السيد الأجل نفسها وأمانته؛ لذا فقد تآمر عليه خصومه وقتلوه، وآلت الوزارة إلى أحد أمراء الأيوغور ويدعى سنكة. وكان هذا الوزير يسيء للمسلمين ويضطهدهم. وقد قتل هو أيضاً بعد سبع سنوات في المنصب نتيجة لاختلاساته وجمعه للمال.

قام الأمير أحمد بناكتي وسنكة في أيام وزارتهما بطبع كميات هائلة من العملات الورقية دون وجود أرصدة وعائدات تضمنها، لدرجة أنه بعد عشر سنوات من وفاة قوبيلاي قاآن، أي في سنة ٧٠٣هـ، كانت كمية العملات الورقية المتداولة قد زادت عن الحد، مما أدى إلى انخفاض قيمتها الفعلية، فتذمر الأهالي، وتمت محاولات بعد قوبيلاي قاآن لاستعادة قيمة العملات دون جدوى، وهو ما حدث في إيران أيضاً كما سنرى بعد قليل.

حواشي

١ - أبدى جلال الدين في البداية احتراماً لكل من إيفاني وشلقة بهدف استغلالهما في فتح كرجستان، ولكنه أمر بقتل شلقة بعد أن تيقن من خيانته. ويقال في رواية إن إيفاني قتل في معركة، وفي رواية أخرى إنه قتل بيد أتباع جلال الدين.

٢- كان الأتابك قزل أرسلان بن أوزبك آخر أتابكة أذربيجان. ويلقب بخاموش (الصامت) لإصابته بالصمم والبكم. وفي سنة ٦٢٦هـ حين أنهى جلال الدين حصاره لأخلاط وعاد إلى كنجة، التحق خاموش بخدمة السلطان. وبعد قليل ذهب إلى علاء الدين صاحب الموت، وتوفي فيها بعد شهر. وكانت زوجته حفيدة علاء الدين أحمد يلي (٥٨٤هـ-٦٠٤هـ) الذي كان أحد ممدوحي الشاعر الشهير نظامي كنجوي.

٣- ملازجرد أو منازجرد مدينة تقع في شمال أخلاط وجنوب منبع الفرات الشرقي على طرف أرزن الروم.

٤- خَرتبَرت مدينة تقع جنوب الفرات الشرقي وشمال شرقي ملاطية وشمال غربي آمد (دياربكر)

٥- الأمير كمال الدين كاميار بن إسحق قاضي أرزنجان هو أحد كبار أمراء علاء الدين كيقباد السلجوقي. وكان رجلاً فقيهاً ومتحدثاً وحكيماً ومن مريدي الشيخ شهاب الدين السهروردي. وهو الذي كان قد جاء مع أمير آخر من أمراء كيقباد في سفارة إلى جلال الدين في أثناء حصار أخلاط، وفي النهاية لقي مصرعه على يد أحد أمراء السلاجقة في سنة ٦٣٥هـ.

٦- دويدار أو دويت دار أو دواتدار بمعنى الكاتب (صاحب الدواة).

٧- كان لتولي خان عشرة أبناء توفي أحدهم في حياته، وهم منجو وقوتوقتو وقوبيلاي وهولاكو وأريق بوكا وبوتشك وموكة وسوتوكتاي وسبوكتاي.

٨ -بركايابر بن جوجي الذي اعتنق الإسلام.

٩- قدان أوقول وملك أوقول كلاهما ابنا أقطاي قاآن.

١٠- قراهولاكو أو قرا أوقول بن ماتيكان بن جغتاي.



الفصل الخامس
غزو هولاكو لإيران وزوال الخلافة العباسية

حكم إيران في عصر المغول حتى هولاكو (٦١٨هـ-٦٥٤هـ):

بعد اجتياح خوارزم، أسند جوجي حكم هذا الجزء الذي كان يمثّل نطاق المملكة الأصلية للخوارزمشاهيين لأحد قادته ويدعى جنتمور. وكان جنتمور هو الذي تولّى فيما بعد إمارة خراسان ومازندران أيضاً بأمر من أقطاي قاآن. ومنذ ذلك الوقت ولمدة خمس وثلاثين سنة تقريباً، كانت أوضاع الحكم والإدارة في إيران تحت الاحتلال المغولي تسير بآلية واحدة؛ فكان خوانين المغول يرسلون شخصاً من منغوليا مباشرة ليتولّى إدارة البلاد وقيادة الجيش المقيم بها. وكان هذا النوع من الحكام يستعينون بعمال ومعاونين من الفرس للقيام بمهام جمع الضرائب وإدارة الشؤون الداخلية وقمع المعارضين.

وفي سنة ٦٢٦هـ، وبعد مجلس تتويج أقطاي قاآن وتكليف جورماغون نويان بإيران وتعقب السلطان جلال الدين، أمر أقطاي عدداً من أمراء الولايات الغربية وحكامها بمعاونة جورماغون وتقديم الإمدادات العسكرية له. فانضم جنتمور إلى جيش جورماغون؛ ونظراً لخروج جنتمور لمطاردة جلال الدين وتوجهه إلى أذربيجان وأرمينيا، فقد كُلِّف جنتمور بتأمين خراسان وقمع المتمردين فيها، وعين كل من أمراء المغول شخصاً من قبله لمعاونته، وكان من بين هؤلاء كلبُلات من قبل أقطاي قاآن ونوسال من قبل باتو.

وفي ذلك الوقت، أخذ اثنان من قواد السلطان جلال الدين العسكريين يدعى أحدهما قراچة والآخر يغان سنقور في القيام بأعمال عسكرية على حدود نيشابور بدعوى أن السلطان جلال الدين فاتح عظيم وسرعان ما سيطرد المغول من إيران؛ وأخذا يحرضان الأهالي على التمرد على الحكام والقائد العسكري المغولي فقتلوا معظمهم وكان هؤلاء معينين من قبل جورماغون.

وبعد علم أقطاي قاآن بثورة خراسان، أمر بتوجيه طاير بهادر قائد أحد أفرع الجيش المقيم ببادغيس بقمع قراچة. وكان قراچة في ذلك الوقت قد انهزم على يد كلبلات معاون جنتمور

وتحصن بقلعة أرك بسيستان. فضرب طاير بهادر حصاراً حول قلعة أرك لمدة عامين نشب خلالهما خلاف حاد بينه وبين جنتمور حول حكم خراسان، إذ كان كل منهما يعتبر المنصب حقاً له. وانحاز جورماغون لبهادر واختاره حاكماً على خراسان ومازندران. فأوفد جنتمور بهاء الدين الصعلوك وهو أحد ملوك خراسان الذين كانوا قد أعلنوا طاعتهم برفقة نصرت الدين ملك كبود جامة وكلبلات إلى القاآن لأداء فروض الطاعة. وسر أقطاي قاآن لوصول هؤلاء الملوك وأقام احتفالاً لهم؛ ولما كانت هذه أول مرة يمثل فيها أحد ملوك إيران بين يدي القاآن لتقديم فروض الطاعة، فقد استحسن مسلك جنتمور وكلبلات، بينما ازداد ضيقاً بجورماغون الذي تمكن من غزو كل تلك الممالك وكان تحت إمرته كل هؤلاء الجنود ولكنه لم يتمكن من إيفاد أي من الملوك لتقديم فروض الطاعة. فأصدر القاآن قراراً رسمياً بتعيين جنتمور حاكماً على خراسان ومازندران وأمر بألا يتدخل جورماغون في شؤونه (٦٣٠هـ).

ولاية جنتمور (٦٣٠هـ-٦٣٣هـ):

بعد تعيين جنتمور، تم تعيين الملك بهاء الدين لإمارة خراسان وأسفراين وجوين وبيهق وجاجرم، والملك نصرت الدين للإمارة من حدود كبود جامة إلى أستراباد؛ واتخذ جنتمور من شرف الدين الخوارزمي وزيراً له، وعين بهاء الدين محمد الجويني والد المؤرخ الشهير عطا ملك الجويني في منصب صاحب الديوان لإدارة الشؤون المللية وجمع العوائد.

وبعد قليل وفي قرابة سنة ٦٣٣هـ، أوفد جنتمور أحد أمرائه وهو جرجوز ومعه بهاء الدين الجويني صاحب الديوان لتقديم تقرير عن أوضاع حكومته للخان. واحتفى أقطاي بهما وولّي بهاء الدين الجويني حاكماً لبايزة ويرليغ وآلتمغا وعينه صاحباً لديوان المملكة كلها.

ولاية نوسال (٦٣٣هـ-٦٣٧هـ):

حين عاد بهاء الدين الجويني وجرجوز من بلاط المغول، كان جنتمور قد توفي. وعندما وصل نبأ وفاته للخان، ولّي نوسال الذي كان أميراً مسناً في مكانه لحكم خراسان ومازندران وأبقى بهاء

الدين الجويني في منصب صاحب الديوان. وبعد قليل، نشب خلاف بين جرجوز ونوسال، فذهب جرجوز إلى بلاط القاآن الذي أصدر أمراً بتعيينه حاكماً، وظل نوسال في منصب قائد الجيش حتى قبض في سنة ٦٣٧هـ.

ولاية جرجوز (٦٣٧هـ-٦٤١هـ):

كان جرجوز أويغوري الأصل وكان أحد كتبة جوجي المرموقين نظراً لمعرفته بالخط واللغة الأويغورية وآداب الكتابة والبلاغة. وحين تم تعيين جنتمور حاكماً لخوارزم، رافقه جرجوز؛ وعندما ظهرت دلائل كفاءته وحسن خدمته رقاه جنتمور وجعله حاجباً ونائباً له. وكان جنتمور قد أوفده بصحبة بهاء الدين الجويني في سفارة إلى أقطاي كما سبقت الإشارة، وانبهر الخان ببلاغته وحسن بيانه فأولاه عنايته وعينه حاكماً على خراسان.

وبعد وفاة جنتمور وتعيين نوسال في منصبه، استدعى الخان جرجوز مرة أخرى لتقديم تقرير عن الأوضاع في خراسان. ونظراً لسوء أوضاع الضرائب وتنظيم الإدارة في تلك الأيام وتعدي عمال المغول على الرعية وتأخر وصول أموال الضرائب المقررة، فقد حنق نوسال وكلبلات على جرجوز وأرادا عرقلته عن الذهاب في هذه المهمة؛ إلا أنهما لم يتمكنا من منعه، وتم تعيينه من قبل الخان مسؤولاً مستقلاً عن وصول العوائد.

اتسمت ولاية جرجوز بالعدل والكفاءة التامة؛ فضبط جمع الضرائب ووضع نظاماً دقيقاً لها وأصلح أوجه الخلل، فلم يتمكن أي من خصومه من عصيانه، فهو حاكم معين من قبل الخان وفي وجوده لم يتمتع أمثال كلبلات الذكي الطموح بحرية الحركة. ومع ذلك فإن خصوم جرجوز لم يتوقفوا عن تآمرهم عليه، وكان من أشدهم عداوة له شرف الدين الخوارزمي الذي لم يتمكن من التدخل في الأمور في وجود جرجوز. وفكر شرف الدين في الوصول بابن جنتمور إلى منصب الحاكم بدلاً من جرجوز بعون من البعض؛ فأخذ يحرض ابن جنتمور ضده من ناحية، وعمل على تشويه صورة جرجوز من ناحية أخرى، إلى أن اتهمه خصومه لدى الخان الذي أوفد عدداً من معاونيه إلى خراسان للتحقيق في أحوال جرجوز. وأناب جرجوز بهاء الدين الجويني في خراسان

وذهب إلى معسكر الخان والتقى برسل الخان في بناكت واحتدم النقاش بينهم لرفض جرجوز العودة وكسر أحدهم أحد أسنانه. فاضطر جرجوز للعودة، ولكنه أرسل قميصه الملطخ بدمه إلى الخان. وإلى أن وصل أمر الخان، ظلت أوضاع الحكم في خراسان في اضطراب؛ وكان شرف الدين رجلاً خبيثاً ومنافقاً وعمل على إذكاء الأحقاد، إلى أن عاد جرجوز من معسكر الخان. ومضى كلبلات وابن جنتمور إلى بخارى حيث قُتل كلبلات. واسترد جرجوز عطف الخان من جديد واستقر في منصبه، وقام الخان نفسه بمحاكمة الطرفين فعاقب المخطئين وأخمد نار الفتنة.

وفي فترة حكمه الجديدة التي بدأت من سنة ٦٣٨هـ، اتخذ جرجوز من مدينة طوس التي لم تكن تزيد عن أطلال خربة في ذلك الوقت؛ فأمر بإعمارها، فأنشأ كل من أمرائه ورجاله بعض المنشآت فيها وشقوا الترع حتى عمرت المدينة وازدهرت خراسان في عهده وساد العدل وشاع الأمن وعاش الأهالي في رخاء.

وفي النهاية، شرع جرجوز في تحجيم شرف الدين. ومع أن الخان لم يكن في البداية يريد له العودة مع جرجوز إلى خراسان، فقد اصطحبه جرجوز معه نظراً لاحتياجه لمن يتولي مسؤولية حسابات الديوان. وبعد الاطلاع على حساباته أوفد رسولاً من قبله إلى الخان ليقدم له تقريراً عن فساد شرف الدين. ثم ذهب إليه بنفسه، إلا أن أقطاي قُبِضَ في ذلك الوقت واضطربت الأوضاع، فعاد جرجوز إلى خراسان خوفاً من بعض خصومه. وكان بعض أمراء المغول ممن يحملون له الضغينة قد أرسلوا بعض الأشخاص فِي أعقابه فأمسكوا بهِ في خراسان وأخذوه إلى معسكر المغول. ولم يكف شرف الدين عن عدائه له، وتمكن من العودة إلى منصبه السابق بعون من فاطمة الطوسية. وتم تسليم جرجوز لقرا أوقول حفيد جغتاي. فأمر بقتل ذلك الأمير الذي كان قد اعتنق الإسلام في أواخر أيامه.

ولاية جورماغون (٦٤١هـ - ٦٥٤هـ):

كان الأمير جورماغون من كتبة أقطاي. وكان الخان قد أرسله ضمن رسله إلى خراسان حين احتدم الخلاف بين جرجوز وابن جنتمور. وبعد استقرار أمور جرجوز، أصبح الأمير أرغون نائباً له

بأمر من أقطاي. وعندما تم إلقاء القبض على جرجوز وقتله، تركت توراكينا خاتون حكم الممالك التي كانت في حوزة جرجوز من ضفاف نهر جيحون حتى حدود فارس وكرجستان والموصل وبلاد الروم للأمير أرغون، وعينت شرف الدين وزيراً له كما سبق أن ذكرنا.

وفي سنة ٦٤١هـ، ذهب الأمير أرغون إلى خراسان ومنها إلى العراق وأذربيجان وعمل على تحجيم نفوذ زعماء المغول كجورماغون وبايجو ممن اتبعوا طريق الاستبداد والظلم في معاملتهم لأهالي تلك البلاد، وعين العمال والمعاونين فيها واتبع سبيل الرفق والعدل مع عامة الأهالي، وأوفد ملوك البلاد المجاورة ممثلين عنهم لتقديم فروض الطاعة له. واختار الأمير أرغون بهاء الدين الجويني نائباً له في أذربيجان وكرجستان وبلاد الروم وعاد إلى طوس. وكان الوزير شرف الدين قد قُبِضَ في ذلك الوقت.

ذهب الأمير أرغون من إيران إلى بلاط الخان أربع مرات من سنة ٦٤٣هـ إلى ٦٥١هـ لتقديم كشف حساب حكومته ودفع افتراءات خصومه؛ وكان في كل هذه الرحلات إما أنْ يترك بهاء الدين الجويني نائباً له أو يصطحبه معه. وكان بهاء الدين طوال مدة خدمته للأمير أرغون يتبع طريق الأمانة في أدائه لعمله إلى أن وافته المنية في سنة ٦٥١هـ في سن الستين.

استمرت ولاية الأمير أرغون على إيران مدة خمس عشرة سنة تقريباً (من ٦٤١هـ إلى ٦٥٤هـ)، وقد ظل في منصبه هذا إلى أن أسندت لهولاكو مهمة قمع الإسماعيلية وغزو عراق العرب والجزيرة. وعندما ذهب هولاكو إلى إيران لتنفيذ مهمته، التحق الأمير أرغون بخدمته وظل معه إلى أن توفي في سنة ٦٧٣هـ.

في فترة عمله مع أرغون وتوليه لمنصب صاحب الديوان، ألحق بهاء الدين الجويني ابنه عطا ملك الذي لم يكن قد تجاوز السابعة عشر من عمره منشئاً في إدارة الأمير أرغون؛ وظل عطا ملك كاتباً خاصاً لأرغون لمدة عشر سنوات تقريباً، ورافقه في عدة أسفار إلى منغوليا، وهي الأسفار التي اطلع فيها عطا ملك على أوضاع الممالك الأصلية للمغول وتعرف على حياتهم وتاريخهم وجمع خلالها مادته ومعلوماته القيمة لتدوين كتابه النفيس تاريخ جهانگشا.

ثانياً، الأرمن، فنظراً للضغينة الدينية التي كانوا يكنونها للمسلمين الخاضعين لخلفاء بني العباس كانوا يريدون للمغول أن يستولوا على بغداد وأن يهزموا مسلمي مصر والشام الذين رفعوا راية الجهاد ضد الصليبيين وأن يقضوا على الإسلام قضاء مبرماً. وكانت زيارة هتوم ملك أرمينيا لبلاط منجو قاآن بهدف عقد تحالف معه والتمهيد لذلك. فأرسل خان المغول أخاه هولاكو لقمع الإسماعيلية ومعاقبة الخليفة العباسي وغزو مصر والشام كما وعده، ووضع كلاً من جورماغون وبايجو والأمير أرغون تحت إمرته. وتحرك هولاكو الذي كانت سرقويتي والدته تدين بالمسيحية وكذلك زوجته دوقوز خاتون بجيش معظم جنوده من المسيحيين المغول من عشائر الكرائيت والنايمان والأويغور في سنة ٦٥١هـ نحو إيران.

كان معقل الإسماعيلية الأول في جبال ولاية طالقان وألموت حيث ضمت هذه المناطق ما يقرب من خمسين قلعة حصينة استولى عليها الإسماعيلية، وأشهرها قلعة ألموت[1] وميمون دز ولنبه سر. وكانت ألموت بمثابة عاصمة إسماعيلية إيران. وإلى جانب حصن ألموت كان للإسماعيلية عدد من القلاع في ولاية قومس (سمنان ودامغان حالياً) وقهستان أيضاً. وكانت إدارة كل هذه القلاع البالغ عددها قرابة مئة وخمسين في يد حاكم واحد يسمى المحتشم. ولم يكن للمحتشم زوجة ترافقه طوال مدة شغله لمنصب الاحتشام. وربما كان ذلك بهدف استعداده الدائم للدفاع والفرار دون أن يتقيد بأحد معه.

كان حصن ألموت الذي يعد مركز تجمع الإسماعيلية لا يبعد عن مدينة قزوين بأكثر من ستة فراسخ. ولما كان أهالي قزوين من أهل السنّة المتشددين، فقد كانت هناك حالة حرب دائمة بينهم وبين فدائيي الإسماعيلية. يقول محمد بن علي طباطبا المعروف بابن الطقطقي مؤلف كتاب الفخري:

«قص عليّ الملك إمام الدين يحيى بن افتخاري قائلاً: حين كنا في قزوين كنا نخفي كل متاعنا من أثاث وقماش في سراديب تحت منازلنا، ولم نكن نترك شيئاً ظاهراً فوق سطح الأرض خوفاً من نهب الملاحدة. وفي الصباح، كنا نخرج متاعنا، ونقوم بالعمل نفسه من جديد حين يحل الليل. وكان ديدن أهالي قزوين حمل المدي والأسلحة، وكان ديدن الملاحدة النهب والأذى، إلى أن ذهب

مهمة هولاكو وقمع الإسماعيلية (٦٥١هـ - ٦٥٤هـ):

على الرغم من اجتياح المغول لمعظم الأقطار الإسلامية وإجبار أهلها على الخضوع لهم فإن الإسلام لم يُقهر في الجزء الغربي من آسيا، وظلت هناك مناطق لم يتمكن المغول من الاستيلاء عليها حتى ذلك الوقت. فكانت لفدائيي الإسماعيلية قلاع حصينة في كل أنحاء قهستان والموت والوديان الجنوبية لسلسلة جبال البرز، وكانت هذه القلاع ملاذاً لجماعة من المحاربين كانت لهم سطوة وقوة في تلك المناطق قبل ذلك بقرن ونصف القرن وكانوا مصدر متاعب دائمة لخصومهم كما سنرى في تاريخ السلاجقة والخوارزمشاهيين. وكانت خلافة بني العباس الاسمية في بغداد قائمة؛ ومع أن خليفة بغداد لم تكن له أية سلطة فعلية أو قوة، فقد كان له نفوذه الديني، وكان يمكنه تحريك بعض الأمراء المطيعين بإشارة منه باسم الحفاظ على الخلافة والدفاع عن الإسلام.

وإلى جانب ذلك، كانت كل من مصر والشام لاتزالان تحت حكم السلاطين الأيوبيين ولم يجد المغول سبيلاً إليهما. وكان سلاطين هذين الإقليمين في صراع مع مسيحيي أوربا والصليبيين ويجاهدون ضد الفرنجة كما سبقت الإشارة.

وعلى الرغم من الكوارث التي عاناها المسلمون منذ بدء الغزو المغولي، فقد استمر الشقاق قائماً بينهم. فمن ناحية كان هناك عداء جوهري بين الإسماعيلية وسائر المسلمين وكان فدائيو الإسماعيلية يقتلون كل من يمتلك أسباب القوة، فساد الخوف كل أنحاء الأقطار الإسلامية في الشرق. ومن ناحية أخرى، لم يكن الأمراء الأيوبيون على وفاق فيما بينهم أو مع السلاطين السلاجقة بآسيا الصغرى ومع سائر أمراء الجزيرة، فكانوا يتناحرون على قلعة أو شبر من الأرض. بل كانوا يتبادلون المكائد فيما بينهم عند خوانين المغول وحكامهم ويساعدون على استنفار المغول لاجتياح بقية الأقطار الإسلامية.

كان المغول على دراية تامة بهذه الأوضاع، فشرعوا في القضاء على الإسماعيلية وبني العباس وفي اجتياح آخر الأقطار الإسلامية في الجزء الغربي من آسيا أيضاً. وكان ممن أعانوهم على تحقيق هذا الهدف أولاً المسلمون من رعاياهم ممن ضاقوا ذرعاً بظلم الملاحدة وتطلعوا إلى اجتثاث الفساد من جذوره بأية وسيلة، فكانوا يحرضون المغول على إعادة غزو إيران وهدم معاقل الإسماعيلية؛

شمس الدين قاضي قزوين إلى الخان ودعا جيشه لهدم قلاعهم» (الفخري، ص٢١)

ويُروى عن ثقاة[٢] أن «كل أهالي قزوين كان لديهم أسلحة حتى إن كل تاجر في السوق لديه سلاح حاضر في دكانه. وكان هناك قتال ينشب يومياً بين أهل قزوين وملاحدة الموت إلى أن جاء عهد خروج جنكيزخان وغزو جيش المغول للعراق والجبال حيث بدأت أسفار القاضي شمس الدين (أحمد الكافي) القزويني المتكررة من قزوين إلى الخطا وتحمله لمشقة فراق الأوطان. وذهب مرة إلى منجوخان يطلب منه العون بعد أن أطلعه على شرور الملاحدة وتخريبهم في بلاد الإسلام. ويُروى أن القاضي تحدث في حضور منجوخان بألفاظ قاسية ووصف حكمه بالضعف والعجز مما أغضب الخان الذي سأله: أي عجز رأيتَ في بلادنا حتى تتحدث بمثل هذه الألفاظ القاسية؟ فقال القاضي شمس الدين: أي عجز أكبر من أن تقوم فئة من الملاحدة تخالف في عقيدتها عقائد المسيحية والإسلام والمغول ببناء عدة قلاع. إنهم يتجبرون بأموالكم وينتظرون أن تفتر دولتكم فيخرجون من الجبال والقلاع ويقضون على من تبقى من أهل الإسلام فلا يتركون لهم أثراً. فأثار هذا الكلام غضب منجوخان وحثه على هدم قلاع الملاحدة في قهستان وألموت».

كان الإسماعيلية قد أعلنوا طاعتهم للمغول في عهد جنكيز وكان جلال الدين حسن زعيمهم قد خضع لأمر جنكيز قبل سائر أمراء إيران وأدَّى بطريق غير مباشر إلى استفحال أمر المغول في عهد جلال الدين منكبرني؛ إلا أنهم في ذلك الوقت خرجوا على طاعة المغول وقتلوا أحد قادتهم في إحدى الحملات التي شنها المغول على قلاعهم.

وعلى الرغم من حملات جرماغون وبايجو على أطراف العراق ومناوشاتهم مع جيش خليفة بغداد، لم يفلح المغول في غزو دار الخلافة أو على الأقل في إخضاع الخليفة؛ بل إنهم انهزموا. وكانت هذه الهزيمة ثقيلة للغاية على خان المغول وقادة جيشه حتى أن بايجو شكا الخليفة المستعصم بالله عند منجو قاآن وطلب مساعدته للقضاء عليه.

وفي ضوء كل ذلك، قرر منجو قاآن تجريد حملة كبرى على إيران لقمع الملاحدة الإسماعيلية من ناحية، والقضاء على خليفة بغداد وفتح الطريق لغزو الشام ومصر من ناحية أخرى. وبعد التشاور مع زعماء المغول أسند منجو هذه المهمة إلى أخيه الأصغر هولاكو الذي كان في ذلك

الوقت في السادسة والثلاثين من عمره، وأمر بتحريك مئة وعشرين ألف جندي من خيرة جند جنكيز وجَمْعٍ من الأمراء إلى إيران وإخضاع المنطقة من ضفاف جيحون حتى أقصى مدن مصر لإمرة المغول. وفي ربيع الأول ٦٥١هـ، خرج هولاكو بجيش منجو قاآن نحو نهر جيحون مصطحباً معه جماعة من رماة النفط من الخطا وعدد من العربات الحربية والمجانيق. ونظراً لعدم إسراعه في الحركة، فقد أرسل أحد أمراء جيشه المسيحيين ويدعى كيتو بوقا بالتوجه إلى أطراف قهستان ومعه اثني عشر ألف جندي ووصل هو إلى سمرقند في سنة ٦٥٣هـ.

ووصل كيتو بوقا إلى قهستان في السنة التالية وشرع في الإغارة على المنطقة وتخريب قلاع الإسماعيلية وفتح بعض حصونهم؛ ثم زحف مع خمسة آلاف فارس ومثلهم من المشاة إلى دامغان وضرب حصاراً حول إحدى أشد قلاع الإسماعيلية تحصيناً وهي قلعة جردكوه أو دز جنبدان التي تبعد عن دامغان ثلاثة فراسخ، وأمر بحفر خندق حولها وترك فرقة من جنود التتار هناك وأسرع لفتح قلعتي رودبار وطارم.

كان المحاصَرون داخل قلعة جردكوه يغيرون ليلاً على المغول وقتلوا منهم قرابة المئة؛ وقد زادت قوتهم نتيجة للمساعدات من قبل علاء الدين محمد خليفةِ زعيمِهم جلال الدين حسن فصمدوا في مواجهة هجمات المغول وأبدوا مقاومة عنيدة. ومع أن جنود كيتو بوقا فتحوا العديد من قلاع الإسماعيلية، فإنهم لم يوفقوا في فتح جردكوه.

كانت زعامة الإسماعيلية آنذاك لخداوند علاء الدين محمد (٦١٨هـ-٦٥٣هـ) الذي كان يفتقر إلى الكفاءة ورجاحة العقل، وكان يقضي أوقاته في الفسق ومعاقرة الخمر. وقد وافق ابنه ركن الدين خورشاه على قتل أبيه الذي لم يكن راضياً عن تصرفاته. وبعد أن قُتل علاء الدين بيد أحد حجابه وهو فاقد للوعي من شدة السكر، خلفه ركن الدين وأصبح زعيماً لكل ملاحدة إيران والشام (٦٥٣هـ).

كان محتشم قهستان في ذلك الوقت هو ناصر الدين عبدالرحمن بن أبي منصور، وهو رجل كريم وصاحب نزعة فلسفية وكان يشجع على ترجمة كتب الحكمة من العربية إلى الفارسية ويجتذب أهل الفضل إلى بلاطه. وعندما كان كيتو بوقا منهمكاً في فتح قلعتي رودبار وقهستان،

وصل هولاكو وجيشه الجرار المجهز إلى ما وراء النهر وعسكر على أطراف سمرقند حيث أقام له الأمير مسعود حفل استقبال ضخم. وبعد أربعين يوماً من الإقامة في ذلك المكان، انتقل بجيشه إلى مدينة كش حيث توافد عليه الأمير أرغون حاكم إيران الشرقية والملك شمس الدين كرت ملك هرات وفيروزكوه وغرجستان لتقديم فروض الطاعة ونيل عطف الخان.

عبر هولاكو نهر جيحون في أواخر سنة ٦٤٣هـ ووصل إلى خراسان عن طريق بلخ وخاف. وهناك قام الأمير أرغون بتقديم منشئيه وعماله المهرة إليه ووضعهم في خدمته لتلبية أوامره. وكان من هؤلاء المنشئين عطا ملك الجويني ابن بهاء الدين صاحب الديوان.

وبعد وصوله إلى طوس، أرسل هولاكو الملك شمس الدين كرت إلى ناصر الدين محتشم حصن قهستان يدعوه لقبول طاعته. وكان ناصر الدين رجلاً طاعناً في السن وضعيفاً؛ فمضى بصحبة شمس الدين إلى هولاكو وأعلن استسلامه. وقد أكرم هولاكو وفادته وعينه حاكماً لمدينة تون، وقد وضع خواجه نصير الدين الطوسي كتابه المعروف أخلاق ناصري باسمه.

فتح ألموت والقضاء على الإسماعيلية في سنة ٦٥٤هـ:

ذهب كيتو بوقا إلى هولاكو في طوس وأطلعه على أوضاع قلاع الإسماعيلية وركن الدين خورشاه، وقرر هولاكو أن يقوم بنفسه بفتح بقية أوكار الفدائيين وأن يقضي على تلك الفئة بإخضاعه لخورشاه. فتحرك صوب خرقان وبسطام، ومن بسطام أوفد رسولين من قبله إلى خورشاه يدعوه للاستسلام. وبمشورة من خواجة نصير الدين الطوسي الذي كان آنذاك في حصن ميمون دز أعلن استعداده للاستسلام، وأوفد أخاه وأحد نوابه إلى هولاكو. فأكرم هولاكو وفادة رسولي الإسماعيلية وبعث برسالة إلى خورشاه بأن يقوم بتخريب قلاعه لو كان مستعداً بالفعل للطاعة وأن يسرع بالمثول بين يديه. فأمر خورشاه بهدم بعض جدران قلاع لنبه سر وميمون دز وألموت، وطلب مهلة مدتها سنة للمثول بين يدي هولاكو. فادرك هولاكو أن خورشاه لا ينوي الاستسلام؛ فزحف صوب القلاع الأصلية للملاحدة عن طريق بسطام، وأرسل كيتو بوقا من طريق سمنان، وأرسل جماعة أخرى من جيشه إلى مازندران، واستولوا على برلار ودماوند من ناحية، ودخلوا ولاية

رودبار الجبلية من ناحية أخرى واقتربوا من قلعة ميمون دز. واستولى هولاكو في أواخر رمضان ٦٥٤هـ على المعابر الوعرة بين رودبار وطالقان وضرب حصاراً حول القلعة في مساحة يبلغ قطرها ستة فراسخ. ولكن سرعان ما أدرك أن فتح ذلك الحصن الحصين ليس بالأمر اليسير، خاصة أن الشتاء كان على الأبواب ولم يكن إعداد المؤن أمراً سهلاً. فجدد الدعوة لخورشاه بالاستسلام. ووجد خورشاه أنه لم تعد لديه القدرة على المقاومة وأن المحاصرين داخل حصن ميمون دز لم يعد لديهم استعداد للمقاومة. فأوفد ابنه وخواجة نصير الدين الطوسي إلى هولاكو وغادر هو نفسه الحصن في أواخر ذي القعدة ٦٥٤هـ، ومثل بين يدي هولاكو. وبذلك انتهى عهد الإسماعيلية الذي دام لمدة ١٧٧ عاماً.

استقبل هولاكو خورشاه بكل احترام وأمر رجاله بهدم حصن ميمون دز ضمن ما يقرب من مئة قلعة أخرى من قلاع الإسماعيلية في تلك المنطقة وفي قهستان. ومن بين كل هذه الحصون لم يواصل المقاومة سوى ثلاثة حصون هي جردكوه ولنبه سر والموت. وفي النهاية استسلمت جردكوه بعد عشرين يوماً؛ بينما واصلت لنبه سر المقاومة لمدة سنة. ولكن مع تفشي الطاعون بين أفرادها اضطر محتشمها للتسليم وفتح بوابات الحصن.

أغار هولاكو على حصون الإسماعيلية التي كانت تحوي نفائسهم ومؤنهم وقسم محتوياتها على جيشه، وأجبر خورشاه على إصدار أمر لمحتشم قلعة الموت الملقب بسپهسالار بالتسليم، وكذلك فعل خورشاه؛ إلا أن سپهسالار رفض. فأمر هولاكو جنوده بفتح القلعة. وبعد ثلاثة أيام من القتال الشرس، تم له فتح ألموت كغيرها من قلاع الإسماعيلية. وسقط بذلك آخر معاقل الفدائيين الكبرى في يد المغول. ودخل المغول الوكر الأصلي لحسن الصباح وأتباعه وحطموا مجانيقهم ونهبوا أموالهم وخزائنهم واستولوا على المكتبة النفيسة التي أسسها الإسماعيلية في ألموت على مدار سنوات طويلة وذاع صيتها في أرجاء الدنيا، وأمر هولاكو بتدميرها. واستأذن عطا ملك الجويني الذي رافق هولاكو في تلك السفرة للاطلاع على الكتب في تلك المكتبة وأن يحصل على النفيس منها على أن يتم حرق ما يتعلق منها بأفرع المذهب الإسماعيلي. فدخل مكتبة الإسماعيلية وانتقى منها المصاحف وأدوات التنجيم والرصد وغيرها من نفائس الكتب، وأتلف

بقية الكتب. ومن بين النفائس التي أنقذها مؤلف بعنوان سرگذشت سيدنا (سيرة سيدنا) عن الإسماعيلية وسيرة حسن الصباح وخلفائه. وقد ضمنه عطا ملك في المجلد الثالث من كتابه جهانگشاى جوينى، كما بقي منه جزء أكثر تفصيلاً ضمن جامع التواريخ لرشيدي.

وبعد أن أقام ركن الدين خورشاه لعدة أيام في معسكر هولاكو، ذهب إلى منجو قاآن لمقابلته بناء على طلب منه هو نفسه، إلا أن منجو رفض مقابلته. ولما كان أهالي جردكوه لم يكونوا قد استسلموا تماماً فقد أعاده لكي يضع تلك القلعة تحت التصرف التام لهولاكو ويخضع أتباعه المتمردين. فعاد خورشاه إلى إيران وقُتل على يد مرافقيه المغول على ضفاف نهر جيحون (٦٥٥هـ). وقام هولاكو بقتل ابني خورشاه وأخواته وإخوته وأقاربه بين أبهر وقزوين وأمر بقتل أي منهم في أي مكان. كما أحضر الحاكم المغولي لخراسان إسماعيلية قهستان بحجة إحصاء عددهم وقتل منهم أكثر من اثني عشر ألفاً مرة واحدة. ولكن على الرغم من كل ذلك ظل فدائيو الإسماعيلية موجودين لفترة من الزمن في مناطق مختلفة من إيران والشام، وشن المغول في عهد أبقا بن هولاكو وخلفائه الآخرين حملات لقمع فلولهم عدة مرات. وفي النهاية استولى المغول على إحدى أشد حصونهم استحكاماً في الشام في سنة ٦٥٨هـ. وهدمت حكومة مصر أوكارهم المهمة على أطراف الشام ولبنان في سنة ٦٧١هـ وخمدت فتنة الملاحدة.

فتح بغداد وزوال الخلافة العباسية (٦٥٥-٦٥٦هـ)

خلافة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ)

آلت الخلافة العباسية منذ عام ٦٤٠هـ إلى أبي أحمد عبدالله الملقب بالمستعصم بالله الذي كان الخليفة السابع والثلاثين والأخير من أسرة بني العباس. وقد كان رجلاً متديناً هادئ الطبع عف اللسان حسن الأخلاق ولكنه كان ضعيفاً ولا دراية له بشؤون السياسة والحكم؛ ولم يكن يطّلع على حقائق الأمور ولم يكن يهابه أحد؛ وكان يقضي معظم وقته في مجالس السماع والنساء والمهرجين أو في مكتبته الشخصية دون تحقيق استفادة حقيقية. ومع أن المغول كانوا على أبواب بغداد وبدلاً من أن يتدبر أمرهم أخذ يرسل الرسائل إلى سلاطين الدول المحيطة يطلب منهم موافاته

بالمغنين والملحنين. وكان يولّي أدنياء الناس كبار الأعمال في البلاط والديوان والحكومة. فكان رجال بلاطه جميعاً عدا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي من أراذل الناس ممن سيطروا على شخصه تماماً ووجهوه أنّا شاؤوا.

كانت عادة الخلفاء العباسيين حتى نهاية عهد المستنصر أن يسجنوا أبناءهم من باب الاحتياط. إلا أن المستعصم لم يرع هذا العرف وترك أبناءه الثلاثة طلقاء. وقد استغل الابن الأكبر ضعف أبيه فانطلق يمارس أعمال التخريب والبطش مما ساعد أيضاً على سقوط الأسرة العباسية.

مرت ست عشرة سنة منذ بدء خلافة المستعصم حتى وصول هولاكو إلى أطراف بغداد، ومع أن نبأ اقتراب جند المغول كان ينتشر كل يوم لم يتحرك الخليفة الغافل اللاهي للبحث عن مخرج من المأزق ولو بإرسال الهدايا لهولاكو وعرض الاستسلام على المغول. وكلما كانوا يبلغونه باقتراب التتار إلى العراق كان يقول « تكفيني بغداد ولا حاجة بي للبلاد الأخرى ».

وقد طرق المغول أبواب العراق عدة مرات في عهد خلافة المستعصم، إلا أنهم لم يفلحوا في الاستيلاء عليها إلا في سنة ٦٥٦هـ. وكانت أول مرة يزحفون فيها إلى أطراف بغداد في عصر هذا الخليفة في سنة ٦٤٣هـ. وكان لسليمان بن برچم زعيم تركمان الإيوائي نفوذ كبير في بغداد في ذلك الوقت. وكان أحد زعماء هذه الطائفة نفسها يدعى خليل بن بدر قد شق عصا الطاعة على الخليفة وخرج إلى الجبال، وأسرع سليمان شاه لإخماد حركته وقتل خليل. وتعاونت جماعة من الأكراد مع المغول ورافقتهم في زحفهم على بغداد. فأمر الخليفة جنود بغداد أن يستعدوا خارج دار الخلافة لصد المتمردين إذا فكروا في دخول المدينة. فظن المغول أن هذا العدد القليل من جند الخليفة هم كل جيشه، فأسرعوا بالزحف نحو بغداد؛ فأرسل إليهم الخليفة أحد قادة جيشه وهو شرف الدين إقبال شرابي.

وصل المغول إلى أطراف بغداد في ربيع الآخر من سنة ٦٤٣هـ، وخرج جيش الخليفة بقيادة شرف الدين إقبال شرابي وبعون من مؤيد الدين محمد بن أحمد العلقمي وزير المستعصم للجهاد ضد المغول. ولما لم يجد التتار في أنفسهم قدرة على المقاومة فروا ليلاً وأمنت بغداد شرهم في هذه المرة.

كان زمام الحكم والجيش في الدولة العباسية في ذلك الوقت في يد المجموعة التالية: المؤيد بن العلقمي وزيراً؛ شرف الدين إقبال شرابي من قادة الجيش؛ سليمان شاه التركماني زعيم طائفة تركمان الإيوائي؛ مجاهد الدين أيبك الكاتب الثاني؛ علاء الدين آلتون برس الكاتب الأول. وكان جند الخليفة في ذلك الوقت لا يزيد عددهم عن ستين ألفاً معظمهم تحت إمرة سليمان شاه، وكانت شؤون الخلافة في يد علاء الدين الكاتب الأول ومجاهد الدين أيبك الكاتب الثاني وإقبال شرابي وابن العلقمي الوزير. إلا أن هؤلاء الأمراء والوزراء لم يكونوا مخلصين للخليفة تماماً، وكان كل منهم يفكر في وسيلة للإطاحة به. بالإضافة إلى أن كلاً منهم كان يضمر العداء للآخرين. وكان موضع ثقة الخليفة الساذج بين أفراد هذه الطغمة هو مجاهد الدين الكاتب الثاني. وقد جمع مجاهد الدين فئة من الأوباش حوله وقرر خلع الخليفة المستعصم وتعيين خليفة آخر من أسرة بني العباس. فأسرَّ ابن العلقمي للخليفة بالمؤامرة؛ إلا أن الخليفة بدلاً من أن يبطش بعدوه استدعاه ونصحه ثم عفا عنه. فكاد الكاتب الثاني لابن العلقمي عند الخليفة بأن اتهمه بالتواطؤ مع هولاكو. واستفحل أمر مجاهد الدين وازداد عدد من تجمعوا حوله يوماً بعد يوم. وعندما فكر الخليفة في ردعه نشبت الفتنة في بغداد.

كان أهالي بغداد خليط من السنّة والشيعة والمسيحيين، وكانت بينهم خلافات حول المعتقدات الدينية وكانوا يختلفون أيضاً في توجهاتهم السياسية. واستفحل هذا التصدع الداخلي بين أهالي بغداد وزاده العداء المتبادل بين الحكام والمسؤولين وإضطرمت نار الفتنة في البلاد. وكانت سذاجة الخليفة وضعفه تصور له أن كل من يخطو خطوة من وزرائه وعماله كانت تنبع من حبه للخير وللبلاد.

وبعد تمرد الكاتب الثاني على الخليفة، تمكن المستعصم من إخماد نار الفتنة بعون من صاحب ديوانه. وكتب رسالة بخط يده إلى الكاتب الثاني يعطيه فيها الأمان ويقول إن ما بلغه عنه كان محض افتراء، واستدعاه لمقابلته وخلع عليه واسترضاه. كان هناك سابق عداء بين الكاتب الثاني والوزير مؤيد الدين بن العلقمي كما سبقت الإشارة، وكان كل منهما يكيد للآخر عند الخليفة. وفي أواخر عهد المستعصم، أي في سنة ٦٥٠هـ، نشبت فتنة بين الشيعة والسنّة في بغداد. وكلّف

الخليفة ابنه الأكبر أبا بكر بإخمادها. فأغار أبو بكر على تجمعات الشيعة بحي الكرخ وضريح الإمام موسى بن جعفر، واقترف كثيراً من الفظائع وقتل الكثيرين، مما أدى إلى بغض الشيعة عامة للخليفة وبني العباس. كما تألم الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان من الشيعة.

في الوقت الذي كان حال بغداد على ذلك النحو، جاء هولاكو من العراق بجيش جرار إلى همدان. ورافقه في رحلته هذه بدر الدين لؤلؤ (٦١٦هـ-٦٥٧هـ) صاحب الموصل وأبو بكر بن سعد أتابك فارس وخواجه نصير الدين الطوسي وعطا ملك الجويني وابنا رئيس الدولة الطبيب الهمداني. وظل خان المغول في همدان وعلى أطراف كرمانشاه قرابة عشرة الأشهر. وفي بداية إقامته كان قد استدعى بايجو وأرسله مرة أخرى إلى بلاد الروم ثم انشغل طوال مدة إقامته بإعداد الجيش. وفي أثناء إقامته في همدان ظل السفراء يترددون بينه وبين الخليفة عدة مرات. ولم يكن العداء القديم بين الوزير ابن العلقمي ومجاهد الدين وحمق الخليفة يسمحان بإرسال الهدايا لخان المغول وقبول طاعته لسد طريق وصول المغول إلى العراق وإنقاذ آخر معاقل العلم والأدب في المشرق الإسلامي من براثن هؤلاء البرابرة.

وفي العاشر من رمضان ٦٥٥هـ، أرسل هولاكو مبعوثيه إلى الخليفة يطلب منه الاستسلام والمثول بين يديه، وإن لم يتيسر ذلك أن يوفد سليمان شاه وابن العلقمي والكاتب الثاني بالرد إليه. فأوفد الخليفة مبعوثين أحدهما شرف الدين عبدالله بن الجوزي[٤] إلى همدان لتحذير هولاكو من بطشه ويأمره بالعودة إلى خراسان. فغضب هولاكو من رد الخليفة؛ وكان أهالي بغداد قد أساؤوا معاملة مبعوثيه. فأعاد سفراء الخليفة ونصحه مرة أخرى بقبول طاعة المغول.

بعد عودة سفراء الخليفة، وجد ابن العلقمي أن الأصلح هو أن يتم إرسال الهدايا من بغداد إلى هولاكو وذكر اسمه في الخطبة وضرب المسكوكات باسمه عله ينصرف عن اجتياح البلاد. وقد وافق الخليفة على اقتراح وزيره وأمر بإعداد الهدايا، إلا أن مجاهد الدين الكاتب والقادة التابعين له عارضوا الفكرة وقالوا للخليفة إن ابن العلقمي يقدم على ذلك لكي تكون له الحظوة عند هولاكو وهدفه الإبقاء على الجيش في محنته. ونتيجة لوشايتهم أحجم الخليفة عن إرسال الهدايا وشرع في تعبئة الجيش بإصرار من سليمان شاه، ولكن نظراً لامتناعه عن إمدادهم بالمال فإن مسألة تعبئة

الجيش لم تتم كما ينبغي. واضطر الخليفة في النهاية إلى إرسال الهدايا إلى هولاكو ومعها رسالة يرهبه فيها من سوء عاقبة من يخرجون على طاعة بني العباس ويلفته إلى ما آل إليه أمر يعقوب بن ليث الصفاري وأخيه عمرو والسلطان محمد السلجوقي والسلطان محمد خوارزمشاه ظناً منه أن مثل هذه التهديدات الجوفاء ستخيف هولاكو وترده على عقبيه من منتصف الطريق تاركاً الخليفة للهوه ومجونه ومجالس سماعه، في حين أن هذه الرسائل التافهة لم تؤد إلا إلى إثارة حنق هولاكو وغضبه وزادت من عزمه على التوجه نحو بغداد.

اجتياح بغداد:

في تحركه صوب بغداد، لجأ في البداية إلى استقطاب العشائر والأمراء المقيمين على أطراف المناطق الجبلية للعراق بإمدادهم بالمال، كما أخضع الأكراد التابعين لسليمان شاه، ثم أمر بتقدم قوات جرماغون وبايجو من بلاد الروم إلى أربيل والموصل ومحاصرة بغداد من جهة الغرب ثم انتظار زحف قوات هولاكو من جهة الشرق. وأمر عدداً من أمراء المغول بالتوجه صوب بغداد بصحبة سونجاق نويان من طريق كردستان الحالية، وبتوجه كيتو بوقا وعدد من القواد الآخرين من طريق لرستان وخوزستان. وتقدم هو بقواته نحو بغداد في أوائل ذي الحجة ٦٥٥هـ من طريق كرمانشاه وحلوان. ورافقه في زحفه الأمير أرغون وخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين بيتكچي وعلاء الدين عطا ملك الجويني. ومرة أخرى أرسل هولاكو رسالة إلى المستعصم من أسدأباد يدعوه فيها للمثول بين يديه. فأوفد إليه الخليفة شرف الدين بن الجوزي وأعاد على مسامعه التهديدات السابقة نفسها وطلب منه العودة وتفريق قواته، وبعد أن يفعل ذلك سيرسل إليه الخليفة أي مبلغ سنوي يحدده. ولم يمتثلْ هولاكو لهذا الأمر واشتم من الرسالة رائحة الانهيار. فعبر كرمانشاه ودخل العراق.

وكان كل من سونجاق وبايجو في ذلك الوقت قد وصلا إلى أطراف بغداد، وبعد إلحاق الهزيمة بطلائع جيش الخليفة عبرا بقواتهما نهر دجلة. وكان كيتو بوقا قد تمكن من غزو بلاد لرستان أيضاً ودخل العراق من جهة الجنوب. وعسكر جزء من جيش الخليفة بقيادة مجاهد الدين أيبك الكاتب

الثاني في بعقوبا؛ وما إن سمع مجاهد الدين وقواته بعبور قوات سونجاق وبايجو لنهر دجلة ووصولهم إلى الجزء الغربي من بغداد حتى تقهقروا إلى أطراف الأنبار ووصلوا إلى مسافة تبعد عن دار الخلافة بتسعة فراسخ. ونشب القتال بينهم وبين قوات سونجاق ولحقت بهم الهزيمة. أما في قتالهم مع قوات بايجو فقد نزلت بهم هزيمة فادحة قُتل على أثرها منهم اثنا عشر ألف جندي؛ ولاذ مجاهد الدين وبعض من رفاقه بالفرار إلى بغداد، وضربت قوات سونجاق وبايجو حصاراً حول بغداد من جهة الغرب في ١٥ محرم ٦٥٦هـ، وحاصرها كيتو بوقا أيضاً من جهة أخرى. وكان هولاكو قد نزل إلى الجانب الشرقي من عاصمة العباسيين في ١١ محرم وحاصرها من الشرق. وبدأ المغول في إمطار بغداد بوابل من الحجارة والنفط والنار. ونظراً لعدم وجود أحجار على أطراف بغداد كان التتار يجلبونها من جبال حمراوين وجلولا ويجتثون النخيل من جذوره ويرمونها على بغداد.

بدأ حصار بغداد يوم الثلاثاء ٢٢ محرم ٦٥٦هـ واستمر حتى نهاية المحرم. وفي هذه الأثناء أخذ المغول يخربون المدينة شبراً شبراً ويفتحون الأبراج ويتقدمون. وعندما وجد الخليفة أن الأمر يفلت من يده، سعى إلى رد هولاكو عدة مرات عن طريق إرسال الهدايا والرسل، إلا أنه لم يقبل دعوة الخليفة، وأرسل نصير الدين الطوسي إلى المستعصم لاستدعاء سليمان شاه والكاتب، فاضطر الخليفة إلى إرسالهما إليه. فطلب هولاكو منهما الخروج بأتباعهما من بغداد حتى يتمكن من الزحف بهم ضمن قواته على الشام ومصر. وخرجت قوات بغداد وحشد كبير من أهالي المدينة مع الكاتب وسليمان شاه من المدينة التماساً لطريق النجاة وتوجهوا إلى هولاكو. فقتلهم السفاح المغولي عن آخرهم، وبعد عدة أيام قتل الكاتب وسليمان شاه وابنه وأرسل رؤوسهم إلى بدر الدين لؤلؤ في الموصل مع ابن لؤلؤ. ومع أن بدر الدين كان من أصدقاء سليمان شاه، فقد علق رؤوس الثلاثة على أعواد المشانق وهو يبكي خوفاً من هولاكو.

خرج الخليفة بأبنائه الثلاثة ومعهم ثلاثة آلاف من سادات بغداد وأئمتها وقضاتها وأعيانها من المدينة في الرابع من صفر ٦٥٦هـ وتوجه إلى هولاكو. فتظاهر هولاكو باللين معه وأمره بمنع من تبقى من الأهالي في دار الخلافة من الجهاد ضد التتار. فأطاعه الخليفة ووضع الأهالي أسلحتهم. وأخرجهم هولاكو من بغداد بدعوى إحصائهم وقتلهم جميعاً وأمر قواته باجتياح المدينة. وفي

التاسع من صفر، دخل بغداد وسلمه المستعصم بيده مفاتيح خزائن ظلت في يد أجداده لمدة خمسة قرون:

«حين وصل الخليفة إلى هولاكو، أنزل خواصه من الأئمة والأشراف والمشايخ عند بوابة كلواذ، ثم أمر بالإغارة على المدينة. ثم أمر باستدعاء الخليفة وأمره بتقديم الهدايا. وعلى الفور قام بتوزيعها على خواصه وأمرائه وقواده والحاضرين، ثم وضع طبقاً من ذهب أمام الخليفة وأمره بأن يأكل. فقال الخليفة لا أستطيع أن آكل. فقال له إذن لم تأخرت ولم تفتح هذه البوابات الحديدية ولماذا لم تأتِ إلينا على ضفاف جيحون. فأجابه الخليفة بقوله هكذا كان أمر الله. فقال له الملك: وما سيسري عليك من قضاء الله أيضاً. وأمره بإخراج الحريم وأبنائه ومضى بهم إلى قصر الخليفة. وكان معه سبعمئة من الحريم وألف ومئتي خادم، وقام بتفريق الآخرين. وحين فرغوا من اجتياح المدينة أعطوا أهلها الأمان وجمعوا الغنائم، وغادرها الملك في الرابع عشر من صفر» (نقلاً عن رساله كوچك فتح بغداد المنسوبة لنصير الدين الطوسي)

وقام المغول في اجتياحهم لبغداد بتخريب المباني والعمارات كأضرحة الخلفاء وضريح الإمام موسى الكاظم وقتلوا كثيراً من الناس. وبعد أسبوع، أمر هولاكو بوقف القتل والغارات. ثم غادر المدينة لسوء جوها في ٢٤ صفر، ثم استدعى المستعصم وقتله هو وابنه الأكبر أبا بكر، ثم قتل ابنه الأوسط بعد عدة أيام، وقتلت قواته كل من صادفوه من بني العباس عدا ابن الخليفة الأصغر مبارك شاه الذي وهبه هولاكو لزوجته فسلمته بدورها إلى نصير الدين الطوسي وزوجوه بامرأة مغولية. وهكذا سقطت دولة بني العباس التي دامت خمسمئة وخمس وعشرين سنة وزالت الخلافة تماماً. ويقال إن عدد ضحايا بغداد بلغ ثمانمئة الف قتيل.

وبعد قتل الخليفة، أرسل هولاكو ابن العلقمي إلى بغداد وزيراً كما كان، وعين قائداً عسكرياً للمدينة وبدأ في إعمار ما تخرب ودفن جثث القتلى. وعاد هولاكو بعد قليل إلى خانقين، إلا أن قواده استولوا على الحلة والكوفة والنجف. ولما أبدى أهالي واسط مقاومة، أقدم المغول على قتل أربعين ألفاً منهم واجتاحوا المدينة ثم اتجهوا إلى شوشتر وغيرها من مدن خوزستان.

ابن العلقمي الوزير (توفي ٦٥٦هـ):

كانت وزارة الخليفة المستعصم كما رأينا في يد مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد بن العلقمي الذي ظل في منصب الوزير حتى غزو المغول لبغداد. وكان ابن العلقمي من فضلاء عصره، إذ اشتهر بحسن الخط وقرض الشعر والإنشاء، وكان راعياً لأهل العلم والأدب، وكان يقتني مكتبة تحوي عشرة آلاف مجلد مخطوط، وكان الشعراء والكتّاب يحيطون به وينظمون الشعر ويدونون الكتب باسمه. وكان من أشهر هؤلاء الأدباء عز الدين عبدالحميد بن أبي الحديد (٥٨٦هـ-٦٥٥هـ) الذي وضع كتاب شرح نهج البلاغة باسم ذلك الوزير المحب للعلم.

وكانت لابن العلقمي مكانة رفيعة في الكفاءة والحنكة، وكان زمام أمور الخلافة كلها بين يديه. وكان الخليفة يثق به ويعتمد عليه؛ ولكن نظراً لضعف إرادته فقد كان يستجيب لأية بادرة تصدر عن الآخرين، خاصة أن سائر خواصه كان يكنون الحقد لابن العلقمي ولم يكن يستطيع صد كيدهم لوزيره فتحول إلى أداة لتنفيذ أغراض هذا وذاك.

أما فيما يتعلق بدور هذا الوزير في مسألة حصار بغداد وقتل الخليفة المستعصم، فيورد المؤرخون روايات متضاربة. لذا فإن حقيقة الأمر يشوبها قدر من الغموض. فمعظم المؤرخين المسلمين، خاصة أهل السنّة منهم ممن تحسروا كثيراً على مقتل الخليفة وزوال أسرة بني العباس، يقولون إن ابن العلقمي غضب أشد الغضب لتشيعه على أثر ما شهده حي الكرخ ببغداد من مذابح وغارات وتخريب لضريح الإمام موسى على يد أبي بكر ابن الخليفة، فأضمر الحقد لبني العباس وصمم على دفع هولاكو لاجتياح بغداد بأية وسيلة واجتثاث بني العباس من جذورهم. لذا فقد دأب على إرسال الرسل لهولاكو وخواجه نصير الدين الطوسي دون علم الخليفة يخبرهم بمدى ضعف الخليفة وسهولة فتح بغداد، وأرسل جيش الخليفة إلى المناطق المحيطة وقال للخليفة إنّ مسألة الصلح مع هولاكو مضمونة ولا حاجة له بالجيش. بل يروي هؤلاء المؤرخون أنه في أثناء القتال بين أهل بغداد وقوات المغول، أمر ابن العلقمي وهو على أطراف المدينة بفتح سد أحد الأنهار خارج بغداد، فغرقت جماعة من جيش الخليفة من جراء ذلك.

أما المؤرخون الشيعة ومنهم محمد بن علي طباطبا مؤلف كتاب الفخري الذي دونه في سنة

٧٠١هـ أي بعد غزو بغداد بخمس وأربعين سنة فيبرئون ساحة الوزير ابن العلقمي من هذه الاتهامات ويُرجعون كل هذه الأحداث الأليمة إلى ضعف الخليفة وظلم ابنه أبي بكر وتناحر الأمراء وقادة الجيش. فيثني طباطبا على أمانة ابن العلقمي وتدينه ويروي ما يلي نقلاً عن قول ابن شقيقة ابن العلقمي:

«روى لي كمال الدين أحمد بن الضحاك ابن أخت ابن العلقمي أن هولاكو حين جاء إلى أطراف بغداد طلب من الخليفة أن يرسل وزيره إليه. فاستدعى الخليفة ابن العلقمي وقال له إن هولاكو يطلبك. وكنت أنا حاضراً معه. فقال الوزير للخليفة: ومن الذي سيتولى شؤون دار الخلافة إذا خرجتُ من المدينة؟! فأجاب الخليفة: لا مفر من أن تذهب إليه. فأطاع الوزير أمر الخليفة ومضى إلى هولاكو، وقدمه خواجة نصير الدين الطوسي لهولاكو بما هو أهل له، وأعجب هولاكو بالوزير، وبعد فتحه لبغداد سلمه المدينة إلا أن ابن العلقمي سقط مريضاً بعد ذلك بقليل وقبض في جمادي الأولى ٦٥٦هـ. ولو كان ذلك الوزير خائناً للخليفة وجاحداً لنعمته لما وثق به هولاكو ولما ترك له بغداد».

وعلى الرغم من كل ذلك لا يمكن القول إن ابن العلقمي لا دخل له في تقدم المغول والقضاء على أسرة بني العباس كما يدعي ابن طقطقي؛ فإذا سلمنا بخطأ كل ما نسبه المؤرخون السنّة لابن العلقمي واعتبرناه نابعاً من تعلقهم بأسرة الخلفاء، فلابد لنا من أن نأخذ في اعتبارنا أن ابن العلقمي كان فارسياً شيعي المذهب إضافة إلى حقده الدفين على الخلفاء العباسيين وأهل السنّة بسبب مسألة الكرخ وضريح الإمام موسى الكاظم وذبح شيعة بغداد. وكان هناك عداء سياسي بينه وبين عمال الخليفة وأمرائه غير الأكفاء، ولم يكن يرى من الخليفة الضعيف أي اهتمام بشؤون البلاد.

ويرى بعض المؤرخين أن حملة هولاكو تمت بتحريض من الفرس، ويقولون إن الفرس لم ينسوا عداءهم القديم للعرب بسبب تدميرهم لمجد إيران الغابر والإطاحة بالدولة الساسانية، فقادوا المغول إلى بغداد ليمحوا آخر أثر تبقى لدولة العرب في مشرق الأرض. بل إنهم يقولون إن بعضاً منهم حرضوا المغول على إلقاء كتب الخلفاء في نهر دجلة انتقاماً للكتب التي أهدرها العرب في النهر

نفسه عند فتح المدائن. ولا سبيل للاستدلال على صحة هذا الخبر أو سقمه، ولا ندري ما إذا كانت هذه من الاتهامات التي يوجهها أهل السنّة للفرس الشيعة أم أن الفرس كان لهم دور في هذه المسألة في ذلك الوقت.

نخلص من ذلك إلى أن دور ابن العلقمي في سقوط الخليفة وتقدم هولاكو يشوبه الغموض التام. وكما انه لا سبيل لتصديق كل أقوال أهل الغرض، فلا سبيل كذلك للجزم بأن ذلك الوزير برئ من هذه المسألة. ويكمن التضارب في أن المؤرخين السنّة يصورون الأمر على أنه ناجم عن خيانة عظمى. ويتوقف حل هذا اللغز على التمحيص الدقيق للأوضاع في بغداد آنذاك والحصول على معلومات كاملة عن أحوال أهلها الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت في ظل الحكم وعماله الظالمين الجشعين.

نتائج غزو بغداد:

يُعدُّ غزو بغداد وسقوط الخلافة العباسية التي دامت خمسمئة عام من أهم الأحداث في تاريخ الإسلام. وإذا لم يبق ثَمَّ مكان للخليفة ولم يعد له نفوذ سياسي كبير في الممالك الإسلامية في الشرق بعد استقرار المغول فيها وتفتت الدولة العباسية، فإن أهالي معظم الأقطار الإسلامية كانوا لايزالون يعتبرون الخليفة أميراً للمؤمنين ووليا للأمر فيهم، وبالتالي فإن مكانته الروحية ظلت كما هي: وظل المسلمون حتى بعد أن خضعوا للمغول لم يجدوا ما يحول دون تلاوة الخطبة باسمه واعتباره زعيماً روحياً لهم. ويتبين من معارضة المسلمين للسلطان محمد خوارزمشاه وأبيه على الرغم من قوة هذين الحاكمين وتأييدهم للخليفة العباسي أن أهالي الأقطار الإسلامية كانوا ينظرون إلى بغداد نظرة احترام وينأون بالخليفة عن أي مساس أو تبديل. وفي أثناء زحف هولاكو على بغداد حذره أحد المنجمين الذين كانوا في ركابه من الزحف على دار الخلافة وقال له إن المساس بالأسرة العباسية يأتي باللعنة وحذّره من العواقب الوخيمة المترتبة على ذلك. إلا أن هولاكو لم يُصْغِ لتحذيرات المنجم على الرغم من تصديق نصير الدين الطوسي وغيره ممن كانوا يستنكرون الفكرة على تحذيره واستولى على بغداد دون أن يصيبه أذي.

كان غزو بغداد على يد هولاكو وقتل الخليفة العباسي بيد الكفار المغول سبباً في حزن المسلمين في الأقطار كافة خاصة أهل السنّة منهم، فقد اعتبروها أكبر نازلة ألمت بمقام الخلافة وبآل البيت على يد الكفار. فلم يستطع الشيخ سعدي الذي كان يعيش في ذلك الوقت في شيراز بمنأى عن هذا الحدث الجسيم أن يمنع نفسه من الإعراب عن تأثره بالحدث، فنظم قصيدة في رثاء المستعصم والدولة العباسية مطلعها كالتالي:

للسماء حق إن أمطرت دماً على زوال ملك المستعصم أمير المؤمنين(٥)

ومن النتائج الأخرى لغزو بغداد ومقتل المستعصم وأهله من منظور أهل السنّة سقوط الخلافة وخلو الأرض من ولي للأمر، وهي مسألة إن لم تكن ذات أهمية كبيرة عند الشيعة الذين يعدون أقلية بالنسبة لسائر المسلمين فقد كانت حدثاً هائلاً عند بقية المسلمين. وكانت هذه القضية ذريعة اتخذها الأتراك العثمانيون في إحياء مسألة الخلافة واعتبار أنفسهم أمراء للمؤمنين وخلفاء للخلفاء العباسيين كما سنرى فيما بعد. وتعد هذه المسألة من أهم القضايا في تاريخ إيران في العصر الحديث.

اختيار مراغة عاصمة وبناء مرصد فيها:

بعد استيلاء المغول على بغداد، نهب هولاكو أموالاً طائلة من خزائن الخلفاء العباسيين وأرسلها إلى أذربيجان مع غنائم كرجستان وأرمينيا وبلاد الروم واللر والأكراد وأمر ببناء مبنىً عالٍ في إحدي الجزر الداخلية ببحر كبوذان (بحر أرومية) بين مدينة سلماس وأرومية وبصهر الأدوات الذهبية والفضية منها وحفظها فيه على شكل سبائك. وقد غرقت هذه الجزيرة تحت الماء في سنة ٦٨١هـ التي توفي فيها أبقا خان برواية بعض المؤرخين.

كانت العلاقات بين هولاكو وأخيه منجو قاآن تقوم على الود والوفاق؛ لذا فقد أرسل هولاكو إلى أخيه بعضاً من الغنائم التي نهبها من بغداد مع خبر فتح إيران والعراق وقرار التوجه إلى الشام ومصر؛ وأدى بذلك واجب الاحترام لأخيه.

وطوال مدة إقامة هولاكو على أطراف أذربيجان ومراغة، ظلت وفود أمراء البلاد المجاورة

وسلاطينها يتوافدون عليه للتهنئة بفتح بغداد، ومن بينهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والأتابك سعد الدين ابن الأتابك أبي بكر بن سعد السلغري والسلطان عز الدين ملك سلاجقة الروم وأخوه ركن الدين. وقد اتخذ هولاكو من مراغة مقراً لإقامته، وربما يرجع ذلك إلى اعتدال جوها وقربها من الشام ومصر. وقد أمر نصير الدين الطوسي ببناء مرصد في مكان مناسب من تلك المدينة. ويشير رشيد الدين فضل الله مؤلف جامع التواريخ إن منجو قاآن حين أرسل هولاكو إلى إيران وسمع عن أستاذية نصير الدين طلب منه أن يرسل الطوسي إلى بلاطه لبناء مرصد في منغوليا بعد فتح قلاع الملاحدة. ولكن نظراً لانشغال منجو في ذلك الوقت بفتح الصين الجنوبية، فقد رأى هولاكو أن ينفذ هذا الأمر في إيران. وأبلغ نصير الدين الطوسي هولاكو بأن بناء مرصد جديد وكتابة زيج جديد يحتاج إلى قرابة ثلاثين سنة. ولكن نظراً لإصرار هولاكو على تنفيذ هذه المهمة، فقد طلب من الطوسي إتمام المهمة في اثني عشر عاماً. ولما كان رصد كل الكواكب وحساب دورتها وإعداد جداول جديدة أمراً غير ممكن في تلك المدة، فقد شرع الطوسي في إعداد زيج جديد في سنة ٦٥٧هـ بالاستعانة بجداول وأزياج سابقة ومراصد جديدة. وبالإضافة إلى كبار المنجمين والعلماء المسلمين الذين تمَّ استدعاؤهم من كل مكان خصيصاً لهذا الغرض تمَّ استدعاء أحد علماء النجوم الصينيين إلى مراغة لمساعدة المنجمين المسلمين في ترتيب التاريخ الصيني والأسلوب الحسابي المعمول به عند الصينيين. ووقع الاختيار على بقعة فوق تل بشمال مراغة لبناء المرصد، وتم وضع كل أدوات الرصد اللازمة التي تم الاستيلاء عليها من بغداد تحت تصرف نصير الدين بأمر من هولاكو الذي أمر أيضاً بوضع كل أوقاف ممالك المغول تحت تصرف الطوسي.

واستغرق بناء مرصد مراغة قرابة الخمسة عشر عاماً، ونشر الطوسي نتيجته في كتاب بعنوان زيج أيلخاني في سنة ٦٦٣هـ أي في عهد أبقا خان. وكان المنجمون الذين عملوا مع الطوسي في مرصد مراغة هم العلامة قطب الدين الشيرازي ومؤيد الدين العرضي الدمشقي ومحي الدين المغربي وفخر الدين المراغي وفخر الدين الأخلاطي ونجم الدين دبيران الكاتبي القزويني. وبلغت تكاليف إنشاء المرصد قرابة عشرين ألف دينار. وقد توقف العمل فيه تدريجياً بعد أبقا خان، ولم يبق منه اليوم سوى أطلال.

غزو هولاكو للجزيرة والشام:

بينما كان هولاكو منشغلاً بفتح بغداد، أرسل أحد قواده ويدعى أرقيو نويان إلى أربيل لفتح قلعتها الحصينة. وكانت هذه القلعة في حوزة جماعة من الأكراد. وقد وقف أرقيو عاجزاً تحت القلعة لمدة من الزمن وفشل في فتحها، إلى أن تمكن من فتحها بعون عسكري وفكري من بدر الدين لؤلؤ؛ فهدم برجها ثم اتجه إلى الشام.

كانت الشام والجزيرة في ذلك الوقت في حوزة السلاطين الأيوبيين. وكانت ستة أفرع من أسرة الأيوبيين تحكم ميافارقين وحصن كيفا والكرك وحلب وحماة وحمص؛ إلا أن الشقاق والتناحر كان سائداً بينهم، ولو كانوا قد اتحدوا لتمكنوا من دحر قوات هولاكو. وكان الملك الناصر يوسف صاحب حلب (٦٤٠هـ-٦٥٩هـ) من أقوى هؤلاء السلاطين، وقد رأى بعد فتح بغداد في سنة ٦٥٦هـ أن الأصلح هو أن يرسل إلى هولاكو التحف والهدايا مع ابنه ووزيره وأن يبدي له الطاعة والولاء. ولم تجد هذه المبادرة من جانب الملك الناصر ترحيباً لدى سائر السلاطين الأيوبيين، فاتخذوا منه موقفاً عدائياً وشرعوا في الإطاحة به. فلم يجد الملك الناصر بداً من طلب العون من هولاكو، مما عجل بزحف هولاكو على الشام. وقبل تحركه إلى الشام، أرسل هولاكو عدداً من الرسل إلى بدر الدين لؤلؤ في الموصل يطلب منه نظراً لكبر سنه أن يرسل ابنه الملك الصالح ليشارك في فتح الشام ومصر مع قوات التتار. فأطاعه بدر الدين، وفي مقابل ذلك زوج تركان خاتون ابنة السلطان جلال الدين منكبرني للملك الصالح.

وفي رمضان سنة ٦٥٧هـ، اتجه إلى بحيرة وان (أخلاط) ودياربكر بصحبة كل من بايجو وسونجاق وسائر قواده، وأرسل ابنه يشموت ومعه سونتاي نويان لمحاصرة ميافارقين، وأرسل الملك الصالح لفتح آمد (دياربكر)، بينما استولى بنفسه على الرها ونصيبين. وبعد عبور الفرات، شرع في محاصرة حلب وكلّف كلاً من قواده بفتح إحدي بواباتها. وقد قاوم أهالي حلب المغول، إلا أن هولاكو تمكن من الاستيلاء عليها من يد الملك المعظم توران شاه عم الملك الناصر يوسف بعد أسبوع واحد بعون من كيتو بوقا وأرقيو نويان وسونجاق، وظل التتار يشنون الغارات في حلب لمدة أسبوع وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، بينما ظلت قلعة المدينة تقاوم لمدة أربعين يوماً؛ ثم طلب أهلها

الأمان وسلموا القلعة للمغول.

وبادر أهالي دمشق بإرسال التحف والهدايا إلى هولاكو وقبلوا طاعة المغول خوفاً من أن يلقوا مصير أهالي حلب. وكان هولاكو قد أرسل كيتو بوقا للاستيلاء عليها. وبذلك خضعت دمشق للمغول في سنة ٦٥٧هـ.

وبينما كان هولاكو مقيماً في حلب، وفد إليه رسل من المشرق يبلغونه بوفاة منجو قاآن. وقد تألم هولاكو لوفاته ألماً شديداً، فترك كيتو بوقا على حدود الشام وعاد إلى أخلاط في ٢٤ جمادى الأخرى ٦٥٨هـ. ونظراً لعدم تقدمه إلى ما هو أبعد من دمشق، فقد أوفد رسولاً إلى مصر يدعو حاكمها لقبول طاعته.

موقعة عين جالوت (رمضان ٦٥٨هـ):

ظلت مصر منذ وصول السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الحكم في يد أفراد أسرته. وبعد وفاة الملك الكامل في سنة ٦٣٥هـ وعلى الرغم من تعاظم خطر الصليبيين والمغول، ظل هؤلاء الحكام في نزاع مع أبناء عمومتهم في الشام وفلسطين؛ بل كان منهم من لم يتورع عن الاستعانة بالصليبيين في سبيل تحقيق أهدافه الشخصية. وتولى ابن الملك الكامل الملقب بالملك الصالح أيوب حكم مصر في سنة ٦٣٧هـ بعد الإطاحة بأخيه. وبالاستعانة بالغلمان الأتراك الذين يعرفون باسم المماليك وفلول جيش جلال الدين خوارزمشاه الذين يعرفون باسم الخوارزمية والذين ظلوا يعربدون في الجزيرة والشام بعد قتل جلال الدين وانتهى بهم الأمر كمرتزقة في خدمة الملك الصالح، ألحق الملك الصالح أيوب هزيمة نكراء بالصليبيين ومن والاهم من الأيوبيين بالقرب من غزة، وضم الشام إلى مصر.

وفي سنة ٦٤٥هـ، شن الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالملك المقدس هجوماً على مصر واستولوا على ميناء دمياط. وكان الملك الصالح في ذلك الوقت في الشام وكان يفكر في فتح حمص؛ فأسرع إلى مصر وشرع في صد الصليبيين. ولكنه كان مريضاً وتوفي في طريق عودته إلى مصر، ولم يخض الحرب مع لويس (٦٤٧هـ).

كان للملك الصالح ابن واحد كلفه بإمارة حصن كيفا، وهذا الابن هو الملك المعظم توران شاه الذي ورد ذكره من قبل. وكانت والدته الجارية الأثيرة لدى الملك الصالح وكانت تلقب بشجرة الدر. ولكي تضمن شجرة الدر خلافة الملك الصالح لابنه، اخفت نبأ وفاة السلطان عن الأمراء بمساعدة اثنين من مقربيها. ومع أن الملك الصالح لم يعين أحداً لخلافته، فقد استدعت تورانشاه من حصن كيفا وأعلنته خليفة للملك الصالح. واستقر توران شاه في مقر الحكم بعد دخوله مصر. وقبل وصول توران شاه إلى مصر، كان الصليبيون قد أنزلوا الهزيمة بجيش مصر وبدؤوا في الزحف نحو القاهرة. وبعث وصول الملك المعظم إلى مصر روحاً جديدة في نفوس المسلمين، فاستولوا على اثنتين وثلاثين من السفن التي كانت تأتي بالمؤن للصليبيين، فحل القحط والعطش بالقوات المسيحية، ولم تجد بداً من العودة على أعقابها. فانتهز المسلمون الفرصة وشنوا هجوماً على الصليبيين المهزومين، وتمكنوا في الثاني من محرم ٦٤٨هـ من أسر لويس التاسع مع عدد من أمرائه. وقرر الملك المعظم بعد هذا الفتح التخلص من قبضة الأمراء والمماليك؛ إلا أن المماليك ثاروا وقتلوه. وبقتله انتهى حكم الأسرة الأيوبية لمصر (محرم ٦٤٨هـ).

كان المماليك غلماناً زاد عددهم في الشام ومصر نتيجة لغزو المغول وفرار الناس من أمامهم. واستبقى الملك الصالح جماعة منهم كحرس خاص له؛ ونظّم منهم فرقاً عرفت بالمماليك البحرية نظراً لوجود معسكراتها على الضفة الشرقية من النيل. وبعد أن قضى هؤلاء المماليك على توران شاه لم يتمكنوا من الإبقاء على وحدة صفوفهم، وبلغ الخلاف بينهم إلى حد أن خرج لويس ملك فرنسا ومن معه من سجنهم دون مشقة ونجوا بأنفسهم بعد دفع فدية من المال، حتى إن أحد قتلة توران شاه أتى بالسيف الذي قتل به ملك مصر إلى لويس وطلب منه الثمن.

على الرغم مما كانت شجرة الدر تتمتع به من كفاءة وخبرة بشؤون الحكم فقد استعانت بأحد قادة المماليك وهو عز الدين أيبك التركماني وأخذت زمام حكم مصر في يدها. إلا أن المستنصر خليفة بغداد لم يعترف بها بدعوى أن المرأة لا تستطيع التصدي للملك. وقام مماليك دمشق بتسليم المدينة لملك حلب الأيوبي. وفي النهاية، تزوجت شجرة الدر من أيبك وأصبح أيبك ملكاً يلقب بالملك المعز (٦٤٨هـ).

وكانت ثمة جماعة أخرى من المماليك أطلقوا على أنفسهم اسم «المماليك الصالحية» بسبب تعلقهم بالملك الصالح. وثارت تلك الجماعة على أيبك وأعلنت أحد أبناء الأيوبيين في اليمن وريثاً للعرش ولم تعترف لأيبك إلا بلقب أتابك.

وطلب صاحب حلب المساعدة من كل أفراد الأسرة الأيوبية أيضاً للثأر لابن عمه الملك المعظم. وانتهى به الأمر إلى قتال المماليك من أنصار أيبك، ولكنه اضطر لقبول الصلح وفي سنة ٦٥١هـ، سلم سواحل فينيقيا وغزة وبيت المقدس ونابلس لمصر.

نظراً لعدم إنجاب شجرة الدر من أيبك فقد جمع أيبك في حريمه عدداً من المحظيات؛ وشرع في الزواج من ابنة بدر الدين صاحب الموصل. فدبرت شجرة الدر سراً لقتله في ربيع الأول ٦٥٥هـ، أي بعد عام واحد من فتح بغداد على يد هولاكو. وأقدم المماليك على قتل شجرة الدر وتوجوا ابن أيبك ذا الخمسة عشر عاماً ملكاً وولوا الأمير سيف الدين قدوز (قطز) أتابكاً له. وقام قطز - ويزعم البعض أنه من أمراء الأسرة الخوارزمشاهية الفارين - في ذي الحجة ٦٥٧هـ بخلع ابن أيبك عن العرش وتوج نفسه ملكاً بلقب الملك المظفر، وسرعان ما رسّخ دعائم قوته في مصر، وزاد أنصاره بسبب حسن مسلكه وعدله وعطائه. وكان ممن أخلصوا له الخوارزمية أي بقايا جيش السلطان جلال الدين الخوارزمشاهي ومن فروا أمام طوفان المغول. وتزامن وصول رسل هولاكو إلى مصر بطلب الطاعة مع بدء بسط الأمير قطز لسلطته.

وبعد التشاور مع كبار أمرائه، تجاسر الأمير قطز وقتل رسل هولاكو وزحف بجنوده المدربين إلى فلسطين. وكان هولاكو في ذلك الوقت قد عاد إلى منغوليا تاركاً كيتو بوقا مع ما يقرب من عشرة آلاف فارس مغولي في الشام كما سبقت الإشارة. وفي عين جالوت بفلسطين أنزل قطز هزيمة ساحقة بقوات المغول فلم ينج منهم إلا القليل، وأسر كيتو بوقا حياً وضرب عنقه (رمضان ٦٥٨هـ).

كان فتح عين جالوت أحد أهم أحداث تاريخ مصر والشام، فقد صد زحف المغول على مصر. وعلى الرغم من أن هذا الحدث لم يصب هولاكو نفسه بصدمة، فقد كان بمثابة ضربة قاصمة لهيبة المغول. وحين بلغه نبأ مصرع كيتو بوقا أبدى أسفه وقرر الثأر له، ولكنه لم يفلح في ذلك لأسباب

أخرى.

أما قطز فلم يجنِ ثمار هذا الفتح، فقد لقي مصرعه في ذي القعدة ٦٥٨هـ على يد أحد زعماء المماليك وهو الأمير بيبرس ركن الدين البندقداري الذي توج نفسه ملكاً لمصر بلقب الملك الظاهر.

في نفس توقيت موقعة جالوت في سنة ٦٥٦هـ، كان يشموت بن هولاكو قد ضرب حصاراً حول ميافارقين وخاض حرباً مع الملك الكامل الأيوبي. واستولى على المدينة بعد عامين نتيجة لتفشي القحط والغلاء بين أهلها، وقتل المغول الملك الكامل. وبعد فتح ميافارقين، حاصر يشموت مدينة ماردين لمدة ثمانية أشهر دون أن ينجح في فتحها. وانتهى الأمر بأن قتل ابن صاحب القلعة أباه وسلم القلعة للمغول.

وفي سنة ٦٥٨هـ، توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الملقب بالملك الرحيم وتولى الحكم من بعده ابنه الملك الصالح إسماعيل. وسرعان ما حرر إسماعيل الموصل، وذهب إلى بيبرس بدعوة من أخيه الذي كان عند بيبرس. فأعطاه بيبرس عدداً من الفرسان للتوجه إلى الموصل والعودة بخزائنه ونفائسه. وبعد عودته إلى الموصل حاصرها المغول. وخاض الملك الصالح الحرب ضد المغول على أمل وصول إمدادات من بيبرس. وأبدى أهلها مقاومة عنيدة وأحدثوا خسائر جسيمة في صفوف المغول. وحين بلغ نبأ القتال بين أهل الموصل والمغول إلى بيبرس من ناحية وإلى هولاكو في أذربيجان من ناحية أخرى، أرسل كلاهما الإمدادات إلى طرفي القتال. إلا أن المغول كانوا قد علموا مسبقاً بوصول جيش مصر والشام، فقطعوا عليه الطريق وهزموه ودخلوا بزي أهل الشام واتجهوا نحو الموصل. وظن أهل الموصل أنهم من أهل الشام وقد أتوا للنجدة، فخرجوا من المدينة فاطبق عليهم المغول وقتلوا أعداداً منهم.

ومع ذلك لم يفلح المغول في الاستيلاء على قلعة الموصل. وطال حصارها حتى عم القحط المدينة وطلب الملك الصالح الأمان. واستولى المغول على الموصل في رمضان ٦٦٠هـ وذبحوا أهلها. وأمر هولاكو بلف الملك الصالح في لية خروف مكسوة باللباد وبإلقائه في الشمس لمدة أسبوع حتى أصابها الدود وأكل جسده. وبعد هذه الميتة البشعة شطروا جسد ابنه ذي ثلاث السنوات إلى نصفين بجوار دجلة وعلقوا كل نصف في ناحية حتى تعفّن.

وفاة هولاكو (٦٦٣هـ):

بعد أن فرغ هولاكو من فتح بقية إيران والشام، عزم على ترسيخ دعائم قوته وتأديب خصومه الشخصيين ومن بينهم ابن لجوجي يدعى بَركاي ويتولى حكم صحراء القبچاق، وكان قد سعى بأمر من أخيه باتو لتمهيد طريق منجو قاآن لتولي منصب الخان؛ فكان يعتبر نفسه أعلى من هولاكو ويتحكم فيه. ووصل التنافس بين هولاكو وبركاي حد الحرب؛ فأرسل بركاي ثلاثين ألف جندي من صحراء القبچاق إلى إيران لقتال هولاكو. فعبرت القوات دربند في القوقاز واتجهت إلى شروان. وجاء هولاكو أيضاً إلى شماخي وهزم قوات بركاي، ثم اتجه إلى دربند، وأرسل ابنه أبقا خان (أباقا خان) إلى مملكة بركاي فأغار على ديارها ونهب أموالها. إلا أن بركاي حشد قوات جديدة وهاجم جيش أباقا خان حول نهر تَرَك وهزمه في جمادى الأولى ٦٦١هـ، وعاد أباقا خان إلى داغستان، وذهب هولاكو إلى تبريز لتعويض هذه الهزيمة وإعداد العدة للعام التالي. وفي هذه الفترة نفسها وصل إلى هولاكو في إيران نبأ جلوس قوبيلاي قاآن على عرش المغول وتفويض هولاكو من قبله بملك البلاد الواقعة بين نهر جيحون والشام ومصر. فقسم هولاكو تلك الممالك بين أبنائه وأمرائه المخلصين؛ فأعطى العراق وخراسان ومازندران لابنه الأكبر أباقا خان، وأران وأذربيجان ليشموت، وبلاد الروم لمعين الدين پروانه الذي تولى من قبل وزارة سلاجقة آسيا الصغرى ثم خضع للمغول، وولّى تركان خاتون على كرمان، وأعطى إقليم فارس للأمير أنكيانو، والجزيرة لأحد أمرائه.

كانت وزارة هولاكو منذ دخوله إيران في سنة ٦٥٣هـ في يد الأمير سيف الدين بيتكچي الخوارزمي الذي تولى الوزارة حتى سنة ٦٦١هـ. وحين توجه هولاكو إلى صحراء القبچاق لتأديب بركاي، أمر بقتل ذلك الوزير حول دربند بتحريض من بعض الوشاة، وسلم الوزارة لشمس الدين محمد الجويني الملقب بصاحب الديوان وشقيق عطا ملك المؤرخ المعروف الذي تولّى حكومة بغداد منذ سنة ٦٥٧هـ، وترك حكومة بغداد لأخيه عطا ملك.

وقبل أن يشرع هولاكو في شن الحرب على بركاي وغيره من خصومه، سقط مريضاً في ربيع الأول ٦٦٣هـ وقبض في ١٩ ربيع الآخر من السنة نفسها بجوار نهر جغاتو (جنوب بحيرة أرومية)

في سن الثامنة والأربعين ودفن في جبل شاهو.

سياسة هولاكو خان:

كان هولاكو من خوانين المغول المحبين للعمارة؛ فقد بنى منشآت على أطراف مراغة وبحيرة أرومية ونهر جغاتو وجبل آلاتاغ. وكان يحب الحكمة والنجوم والكيمياء، وبدد جزءاً من الثروات التي نهبها من الممالك الإسلامية على الكيمياء. وكان هولاكو يؤمن بالبوذية وبنى معابد لها في خوي، في حين أن زوجته دوقوز خاتون حفيدة آقانج خان آخر ملوك طائفة الكرائيت كانت تدين بالمسيحية. وكانت هذه السيدة زوجة تولي أبي هولاكو، وآلت إليه بعد وفاة أبيه؛ وكان لها تأثير كبير عليه، لذلك أولى هولاكو عناية كبيرة للمسيحيين وولأهم مهام كبرى رعاية لخاطرها؛ وكان كيتو بوقا قائده المعروف من هذه الطائفة.

لم يكن في إيران أتباع للبوذية، لذلك أولى هولاكو اهتمامه، بتأثير من زوجته للمسيحيين الذين كانوا يتركزون في أذربيجان وأرمينيا، فبنى لهم الكنائس. وكانت دوقوز خاتون قد اختارت شخصاً من طائفة جاثليقان الأرمنية يدعى فارتان مستشاراً لها. وكان الأرمن وسائر مسيحيي إيران ساخطين دوماً على فتح المسلمين لبلادهم، لذا فقد كانوا يعتبرون هولاكو ودوقوز خاتون هما المخلّصين لهم. وسعت تلك الطائفة كما سبق أن ذكرنا إلى استغلال قوة المغول لخدمة توجهاتها الدينية. فأمدوا المسيحيين الذين كانوا يقاتلون المسلمين في مصر والشام بالعون بهدف القضاء على الإسلام في آسيا وأفريقيا.

كانت حملة المغول على الشام ومصر تخدم ذلك المخطط أيضاً، خاصة أن كيتو بوقا بعد فتحه لدمشق شرع في تحويل مساجدها إلى كنائس. ولولا كفاءة الأمير قطز وانتصاره في عين جالوت، لقضى المغول على آخر معاقل الإسلام في فلسطين وشمال أفريقيا. ولكن في ضوء إصرار الصليبيين على اقتلاع المسلمين أصبح من الصعب على الإسلام أن يزدهر بين هذين العدوين المتعصبين.

ومع أن موقعة عين جالوت ليست لها أهمية كبرى من الناحية العسكرية، فقد كانت أهميتها تكمن في أن المغول لم تعد لهم من بعدها قدرة على فتح الشام ومصر. وهناك عامل آخر أدى إلى

تخفيف حدة عداء المغول للإسلام تدريجياً، الا وهو اعتناق مغول صحراء القبچاق والخزر وتركستان للإسلام.

خضع سلاطين مغول إيران الذين أصبحت ممالكهم ضمن ممتلكات مماليك الشام ومصر المسلمين ومسلمي صحراء القبچاق وتركستان الجدد للإسلام ووصل إسلامهم تدريجياً إلى حد أن أصبحوا خداماً لشريعته وخفت نفوذ المسيحيين الأرمن في إيران في ظل نفوذ الأمراء والوزراء المسلمين من الفرس.

الحواشي

١- يقول حمد الله مستوفي: «هذه القلعة كانت في البدء تسمى أله آموت أي وكر العُقاب الذي كان الأطفال يتدربون عليه؛ ثم صار ألموت بمرور الزمن» (نزهة القلوب، ص٦١).

٢- نقلاً عن كتاب طبقات ناصري، ص٤١١-٤١٤.

٤- وهو ابن محي الدين أبي محمد يوسف (٥٨٠-٦٥٦) وحفيد أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزي (٥١٠هـ-٥٩٧هـ) العالم والواعظ المعروف. وكان أبوه محي الدين المدرس بالمدرسة المستنصرية ببغداد ورئيس ديوان المستعصم قد قتل في أثناء اجتياح بغداد.

٥- آسمان را حق بود گر خون ببارد بر زمين   بر زوال ملك مستعصم امير المؤمنين

والشاعر المقصود هو مشرّف الدين مصلح بن عبدالله سعدي الشيرازي من كبار شعراء الفرس ولد عام ٦٠٦هـ بشيراز. وبسبب الصراع بين الخوارزمشاهيين والأتابكة والغزو المغولي، أخذ في الترحال لمدة طويلة في العالم الإسلامي. وبعد عودته انشغل بمديح كبار قومه. وتشمل أعماله ديواناً في الغزل وكتابين بعنوان بوستان وگلستان" . وتسمى أعمال سعدى في مجموعها باسم كليات سعدي. وتوفي سعدى بين ٦٩١ و٦٩٤هـ (المترجم).


www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل السادس

سلاطين مغول إيران

(الإيلخانيون ٦٦٣هـ-٧٥٦هـ):

بعد وفاة هولاكو، رشحت زوجته دوقوز خاتون بعد التشاور مع ڤارتان الجايليقي الأرمني ابنها أباقا خان لخلافته، وكان أباقا في ذلك الوقت يتولى حكومة خراسان ومازندران. وأسرعت بإيفاد رسول إلى أباقا الذي كان يقضي فصل الشتاء في أران تستدعيه إلى معسكر المغول في جغاتو. وجاء أخوه يشموت بعد أسبوع من وفاة هولاكو، وكان على أطراف دربند. وبعد إقامة مراسم العزاء، تم تتويج أباقا خليفة له في رمضان ٦٦٣هـ؛ إلا أن دوقوز خاتون قُبِضَتْ قبل تتويج ابنها بثلاثة أيام.

يعرف أباقا وغيره من خلفاء هولاكو ممن حكموا إيران منذ ذلك الوقت وحتى زوال هذه الأسرة بسلاطين المغول أو الإيلخانيين. ولما لم تعد لهذه الأسرة صلة كبيرة بخوانين منغوليا ولا تخضع لسلطة بلاط قراقروم، فهي تعد أسرة مستقلة. ومنذ تتويج أباقا، بدأ زوال نفوذ المغول وسلطة خوانين منغوليا عن إيران حيث اتبع خلفاء هولاكو نهج سلاطين إيران، ويعدون في الحقيقة صنفاً مستقلاً من ملوك تلك البلاد.

ولاية أباقا خان (٦٦٣-٦٨٠هـ):

بعد تتويج أباقا خان على عرش إيران الإيلخانية، عين أخاه يشموت حاكماً لدربند وشروان وصحراء موغان والاتاغ، وأسند قيادة جيش المغول على أطراف بلاد الروم وحدود الشام لاثنين من قواده، وعين شيرامون بن جورماغون في كرجستان، وولى سونجاق نويان على إقليم فارس وبغداد؛ وأبقى سونجاق نويان على عطا ملك الجويني في حكومة بغداد من قبله؛ وكان عطا ملك قد تولى هذا المنصب في سنة ٦٥٧هـ من قبل هولاكو. وكانت وزارة أباقا خان من نصيب خواجه شمس الدين محمد الجويني صاحب الديوان كما كانت في الفترة الأخيرة من حكم هولاكو؛ فانشغل هو

في تبريز وابنه خواجة بهاء الدين محمد في أصفهان والجزء الأكبر من عراق العجم بإدارة شؤون الدولة. وقد تولى حكم خراسان اثنان من الأمراء المحليين، وتولت تركان خاتون حكم كرمان، وتولت الملكة آبش خاتون حكم إقليم فارس، وتولى الملك شمس الدين كرت الحكم في هرات وغور وغرجستان. وكان يدير شؤون الحكم في لرستان ويزد أتابكة محليون وتولى الأمراء الأيوبيون حكم الجزيرة من قبل خان المغول.

تولى علاء الدين عطا ملك الجويني حكم بغداد وكل أنحاء عراق العرب اسمياً من قبل سونجاق طوال فترة حكم أباقا خان (٦٦٣-٦٨٠هـ)، إلا أنه كان في الحقيقة مستقلاً تماماً في عمله، وقد سعى في تلك الفترة إلى إعمار عراق العرب وإصلاح ما خرب في عصر المغول؛ فبنى العديد من القرى والقصبات الجديدة وشق الترع للزراعة وأحال الأراضي البور حقولاً يانعة. وحقق في ذلك فلاحاً كبيراً حتى قيل إن بغداد في عهده كانت أكثر ازدهاراً مما كانت عليه في عصر الخلفاء.

وفي أوائل ولاية أباقا خان، شرع القائد العسكري الإقليمي المغولي لبغداد قرابوغا ونائبه إسحق الأرمني في إيذاء عطا ملك؛ فحرضا أحد البدو ليقول إن عطا ملك ينوي التوجه إلى الشام مع أقاربه وأولاده وأمواله ليلتحق بخدمة ملوك الشام مسترشداً بذلك البدوي. فحاصر قرابوغا وإسحق دار عطا ملك واعتقلاه وأخذاه مع الأعرابي إلى معسكر أباقا ليسمعاه اعترافات الأعرابي. فأمر أباقا بتقييد الأعرابي فاعترف تحت التعذيب بأن اتهاماته كانت بتحريض من إسحق الأرمني. فأمر خان المغول بقتل البدوي وإسحق، وأعاد عطا ملك إلى حكومة بغداد.

هيأ خواجه شمس الدين محمد الجويني صاحب الديوان وأخوه عطا ملك أسباب ازدهار دولة أباقا خان. فعمل صاحب الديوان على جمع العوائد من كل الممالك وإدارة شؤون الحكم والسياسة، ولم يتفوق عليه سوى الملك. ونتيجة لهذه الكفاءة، شهدت إيران في عصره ازدهاراً ورخاء كبيرين، وتحققت لصاحب الديوان من جراء ذلك شهرة وجاه وثروة كبيرة.١ أما ابنه بهاء الدين فكان رجلاً سريع الغضب قليل العفو شديد البطش، ولم يعرف أهل أصفهان في عهده الراحة والأمن، فكانوا يعيشون بين الخوف والقتل والسلب والنهب.

اختار أباقا مدينة تبريز عاصمة له، وكان يقضي فصل الشتاء في أران وبغداد وعلى ضفاف نهر

جغاتو والصيف في آلاتاغ وسياه كوه. وشهدت تبريز في عهده وفي ظل وزارة صاحب الديوان شمس الدين ازدهاراً كبيراً، خاصة أن هذه المدينة لم تتعرض لكثير من تخريب المغول كما رأينا، ولم تعان ما عانته سائر مدن إيران وما وراء النهر من غارات.

سياسة أباقا خان:

تربّى أباقا خان في كنف دوقوز خاتون؛ وعلى الرغم من اعتناقه للبوذية كان شديد الميل للديانة المسيحية. وكان والده هولاكو قد طلب في أواخر حياته يد إحدي بنات إمبراطور الروم الشرقية ميخائيل پاليولوجوس (٦٥٨هـ-٦٨١هـ) لابنه. وقد وافق إمبراطور الروم على هذه الزيجة وأرسل ابنته مريم بصحبة عدد من وصيفاتها وكثيراً من الهدايا من القسطنطينية إلى إيران. وما أن وصل الركب إلى مدينة قيسارية بالأناضول حتى قبض هولاكو؛ ونظراً لصعوبة العودة إلى القسطنطينية، فقد واصل الركب طريقه إلى إيران، وتزوج أباقا من تلك الفتاة. ويقال إن أباقا أدى مراسم التعميد واعتنق المسيحية قبل الزواج بناء على طلب من عروسه.

كان زواج أباقا من ابنة إمبراطور الروم ونشأته في كنف دوقوز خاتون سببين لتوثيق صلته بالمسيحيين. فحظي رجال الدين المسيحيون في بلاطه بكل اهتمام واحترام. واستغل المسيحيون تصاعد حدة العداء بين إيلخانات مغول إيران وسلاطين مصر والشام المسلمين بعد موقعة عين جالوت، فعملوا على دفع الإيلخانات ومساعدة الصليبيين أعداء مسلمي مصر والشام. وكان المغول يعتبرون وجودهم لازماً لهذا الغرض؛ وكان أباقا يعتبر هؤلاء المسيحيين أداة لتنفيذ سياسته في مواجهة مسلمي مصر والشام، وشرع بوساطة منهم عدة مرات لطرح مشروع اتحاد بينه وبين البابا وملوك أوربا المسيحية ضد ملوك المسلمين. وفي سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م)، وفي رده على رسالة وردت إليه بالخط الأويغوري من جانب أباقا، طلب البابا كليمان الرابع من أباقا مراسلته باللغة اللاتينية حتى يتسنى له فهم مضمون رسائله، وكتب له عما يفعله المسيحيون ضد أعدائهم ووعده بدعم ملوك أوربا المسيحية في حربهم ضد المسلمين.

وبعد عامين، التقى ممثلون لميخائيل باليولوجوس وأباقا خان مع ملك ولاية أراجون في مدينة

بلنسية بإسبانيا، وطلبوا منه أن يتعاون مع بقية الملوك المسيحيين وأن يعد جيشه لقتال المسلمين كما وعد البابا. ومع أن ملك أراجون كان مسناً، فقد صمم على القتال، إلا أنه رأى الصلاح في أن يصرف أمراء إسبانيا عن هذه الفكرة بعد ما علم من «خيانة» مسيحيي الشرق وبطش المغول.

وبعد عودة أباقا من حربه ضد براق والتي سيرد ذكرها بعد قليل، قرر إيلخان إيران الدخول في مفاوضات جديدة مع ملوك أوربا المسيحيين، وكانت خطوته هذه المرة بتحريض من ملك أرمينيا الصغرى الذي كان يريد انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين بأية طريقة. فأرسل أباقا في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) ستة عشر شخصاً من ممثليه إلى أوربا في الوقت الذي عقد فيه مؤتمر ديني بمدينة ليون الفرنسية بناء على أمر من البابا جزيجوار العاشر. وحضر ممثلو أباقا المؤتمر، وتم تعميد اثنين منهم كانا تتريين بأمر من البابا. وكانت هذه هي النتيجة الوحيدة التي أسفرت عنها تلك البعثة؛ ففي ضوء تقدم المسلمين يوماً بعد يوم وضعف عزم الصليبيين في حربهم ضدهم، لم يعد أحد يصغي لتوقعات حملة أباقا على مصر والشام. وكان أباقا قد أرسل رسالة إلى إدوارد الأول ملك انجلترا، إلا أن إدوارد لم يحرك ساكناً واعتذر بأنه لا يستطيع في ظل الأوضاع السائدة أن يجرد جيشاً لانتزاع بيت المقدس.

وبعد عامين، أي في عهد البابا جان الحادي والعشرين، أرسل أباقا اثنين آخرين من ممثليه إلى روما لدعوة المسيحيين إلى استرداد بيت المقدس وفلسطين من يد المسلمين، وبذل الوعد بمساعدتهم على ذلك. وأرسلهما البابا إلى ملكي فرنسا وانجلترا. وكان رسولا أباقا مسيحيين كرجيين، وقد أعربا للبابا عن ميل كل من أباقا وقوبيلاي قاآن للديانة المسيحية. فقرر البابا إيفاد خمسة من رجال الدين إلى الشرق لتحقيق مطلبهما والتبشير بالديانة المسيحية. إلا أن وفاته في سنة ٦٧٦هـ حالت دون تحقيق تلك المهمة، ولم تتمخض إلا عن رسالة كتبها البابا الجديد نيكولاي إلى كل من أباقا وقوبيلاي في السنة التالية يعرب فيها عن سعادته بما يبديانه من رعاية للمسيحيين.

كان أباقا خان يبدي رعاية واحتراماً بالغين ليوحنا دنها رئيس نصارى بغداد؛ لذا فقد كان لدنها في ذلك الوقت نفوذ كبير. وفي سنة ٦٧٨هـ، توجه اثنان من نصارى الأويغور من الصين إلى بيت

المقدس للحج بأمر من قوبيلاي، ووصلا إلى عراق العرب. فعين دنها أحدهما أسقفاً للصين ولقبه بـ «جَبَلاها». ونظراً لوفاة دنها في تلك الفترة، فقد عين أباقا جبلاها رئيساً لأساقفة بغداد، وعين جبلاها رفيق سفره ابن صوما أسقفاً لمملكة الأويغور وكلفه بأداء تلك المهمة.

كانت نتيجة تلك السياسة أن سعى أباقا خان طوال مدة حكمه إلى القضاء على الإسلام بعون من البابا وملوك أوربا المسيحية، وإلى طرد ملوك مصر والشام الذين كانوا يقفون حجر عثرة أمام تقدم الصليبيين وقواد المغول. ومن ناحية أخرى، كان مسلمو إيران والعراق قد سخطوا عليه ومالت قلوبهم إلى سلطان مصر الذي كان يدافع عن الإسلام. وكان لهذه النقطة الأخيرة دور كبير في فشله في تحقيق هدفه.

حرب أباقا خان وبَركاي (٦٦٤هـ):

في أوائل حكم أباقا خان، أرسل بركاي بن جوجي خان فرقة من جنوده بقيادة نوقاي عن طريق دربند بالقوقاز لمهاجمة ولايتي أران وأذربيجان. وكان أباقا خان في ذلك الوقت قد عاد لتوّه من مشتى مازندران إلى تبريز. وألحق يشموت شقيق أباقا الهزيمة بجيش نوقاي في ٢٠ صفر ٦٦٤هـ، وأصيبت إحدى عيني نوقاي. وحين بلغ هذا النبأ بركاي، عبر دربند على رأس ثلاثمئة ألف جندي ونزل على ضفاف نهر كورا، وأسرع أباقا لملاقاته. ولكنه حين أدرك قوة بركاي، شرع في إقامة استحكامات على ضفاف نهري أرس وكورا. وأخذت قوات بركاي تغير على أران وكرجستان واستولت عليهما وتقدمت حتى تفليس، ولكنه توفي بمرض القولون في تلك الفترة نفسها وعاد جيشه دون أن يخوض حرباً. وخشي أهالي المنطقة من تجدد حملات مغول صحراء قبچاق على بلادهم فاقاموا سداً في طريق عبورهم، وعينوا حراساً عليه من جند المغول والمسلمين.

حرب أباقا خان وبراق (٦٦٨هـ):

في سنة ٦٦٦هـ، خرج مسعود بيك ابن محمود يلواج الذي تولى حكم ما وراء النهر من قبل براق خان ملك أولوس جغتاي في سفارة من قبل براق إلى أباقا خان بهدف ظاهري هو الإعراب له

عن صداقة براق ووده؛ أما في الباطن فكان غرضه التجسس على تعداد قوات أباقا والتعرف على الطرق بين ما وراء النهر وخراسان. إذ كان براق قد قرر غزو خراسان وأذربيجان وانتزاعهما من يد أباقا.

عبر مسعود بيك نهر جيحون ووصل إلى خراسان، واستقبله الأمراء ومسؤولو الدولة بكل احترام بناء على أمر من أباقا، وترجل صاحب الديوان خواجة شمس الدين محمد عن جواده أمامه وقبّل قدميه. وتوجه مسعود بيك بحديثه باستخفاف إلى شمس الدين قائلاً: «لو كنتَ صاحب الديوان فإن لقبك أفضل من مظهرك». وكان شمس الدين رجلاً عاقلاً وحريصاً، فلم يرد عليه إهانته وانتظر أن تتاح الفرصة ليردها عليه بإهانة أكبر. وأكرم أباقا وفادة مسعود بيك وأجلسه في مكان أعلى من كل الأمراء وألبسه زي جنكيزخان واحتفى به تماماً. وأدى مسعود بيك مهمته على أكمل وجه وأوهم أباقا بعمق ود براق له؛ ولكنه ما أن رأى نظرة الشك في عيون بعض من المقربين لأباقا، استأذن في الرحيل على عجل وعاد إلى ما وراء النهر ووصل إلى جيحون في أربعة أيام.

وفي اليوم التالي من مغادرة مسعود بيك لخراسان، بلغ أباقا أن براق يعد العدة لغزو بلاده وأن مسعود بيك كان جاسوساً له. فأرسل أباقا بعض رجاله في أعقاب مسعود بيك، ولكنهم لم يوفقوا في اللحاق به. ووصل مسعود بيك سالماً إلى براق ونقل له ملاحظاته. وللقضاء على أباقا، قرر براق أن يتحالف مع أخيه تَجودار أغول الذي كان يعمل في خدمة أباقا ويقيم على أطراف آرارات وأرس وعلى حدود نخجوان لمهاجمة أباقا. ووافق تجودار على اقتراحه وهجمت قوات الشقيقين على ممالك أباقا من طرفي خراسان وأذربيجان، وأسقط في يد أباقا.

اتجه أباقا إلى أذربيجان وأرسل يشموت إلى خراسان، وأوفد الرسل إلى كل مكان لإعادة حشد قواته. وحين علم تجودار بتحركات أباقا تقهقر إلى كرجستان. وأرسل أباقا شيرامون نويان الذي كان من أشهر قواده لتعقب جنود جيشه. فألحق شيرامون الهزيمة بتجودار ولاذ بحمى داود ملك كرجستان وطلب يد ابنته بهدف جذبه إلى صفه؛ إلا أنه فطن إلى أن داود والكرج ينوون قتله، فأرسل الرسل إلى أباقا يطلب العفو. وتمكن أباقا من أسره في شوال ٦٦٧هـ وأعدم الأمراء الذين حرضوه ضده وانتهت فتنة تجودار. وبعد الخلاص من تجودار، أولى أباقا كل اهتمامه لمقاومة براق

الذي كان قد عبر معابر جيحون بجيش جرار وقواد محنكين وبدأ في مهاجمة خراسان.

واستولى براق على خراسان بسهولة وامتدت سيطرته من بدخشان حتى مرو ونيسابور. واستسلم له شمس الدين كرت لكي يضمن سلامة بلاده ومثل بين يدي براق الذي وعده بأن يضم حكم خراسان إلى ممتلكات ملوك كرت إذا انضمت قواته إلى صفوفه. فاضطر الملك شمس الدين للموافقة، ولكن ما أن بلغه أن أباقا يتقدم نحو خراسان حتى لاذ بقلعته وجلس ينتظر ليرى لأي الجانبين يكون النصر.

وفي سنة ٦٦٨هـ، اتجه براق من أذربيجان إلى خراسان وترك بها أربعين ألف جندي مغولي ومسلم للدفاع عن دربند بالقوقاز. وانضم إليه في الطريق السلطان مظفر الدين الحجاج أمير كرمان؛ واتجه أباقا وبصحبته أخوه يشموت وابنه الأكبر أرغون إلى بادغيس عن طريق باخرز وفارياب. وفي بادغيس عرض على براق الصلح، إلا أن براق بما تملكه من غرور توهم أن أباقا ينوي العودة إلى أذربيجان، فهاجم قواته ونشبت حرب شرسة بين الجانبين في ذي الحجة ٦٦٨هـ على مسافة خمسة فراسخ من هرات. وحلت الهزيمة بجيش براق الذي فر إلى ما وراء النهر مهزوماً. وهكذا تخلص أباقا من شر عدو قوي مثله واستعاد خراسان وولّى أخاه حاكماً عليها.

وبعد عودة براق إلى ما وراء النهر، أعلن إسلامه في بخارى واتخذ لنفسه لقب السلطان غياث الدين. وبعد ذلك بقليل، أصيب بالشلل. فلاذ بحمى قيدو حفيد أقطاي قاآن الذي استولى على ممالك تلك الضفة من نهر سيحون وادّعى زعامة المغول وبادر قوبيلاي قاآن العداء وساعد براق في حربه ضد أباقا. وهناك قتل بالسم. وانفصل مسعود بيك أيضاً عن براق بعد هزيمته وفر إلى معسكر قيدو.

حروب أباقا خان ضد مسلمي مصر والشام:

بعد وفاة هولاكو، اتجه الملك الظاهر بيبرس البندقداري ملك مصر إلى الشام بجيش جرار، واستولى عليه في سنة ٦٦٤هـ، ووصل حتى حدود أرمينيا الصغرى (كيليكيا والمناطق المجاورة) التي كانت آنذاك تحت حكم هيتوم. وكان هيتوم قد تمكن من تقوية جيشه بمساعدة المغول في

الوقت الذي كان المسلمون في حروب أهلية ويقاومون الغزو الصليبي، واستطاع أن يضم بعض المناطق التي يسكنها مسلمون حول بلاده، واتخذ من مدينة سيس المهمة عاصمة له.

وطلب بيبرس من هيتوم الجلاء عن بلاد المسلمين ودفع الخراج وفتح طريق التجارة بين أرمينيا الصغرى والشام. ولما كان هيتوم يستند إلى دعم أباقا خان ويعتبر نفسه عميلاً له، فقد رفض هذا الأمر، فهجمت قوات بيبرس على أرمينيا. فغادر هيتوم بلاده وأسرع إلى آسيا الصغرى للاستعانة بأمراء المغول فيها. وخرج أبناؤه وإخوته وأمراؤه لملاقاة جيش بيبرس. وأحجم أمراء المغول عن مساعدة هيتوم بدعوى أنهم ليس لديهم إذن من أباقا خان بذلك. فاضطر هيتوم إلى طلب العون من الإيلخان مباشرة. ولكن قبل أن يصله الرد على طلبه، كان جيش بيبرس بقيادة الملك المنصور ملك حماة وسيف الدين قلاوون قد استولى على كل ممالك هيتوم وقتلوا توروس بن هيتوم وأحد إخوته وأسروا ابنه الآخر ليون وقتلوا العديد من أقاربه وأبناء أخيه، وهدموا عاصمته سيس بكنيستها الكبرى وظلوا يغيرون على بلاد هيتوم لمدة عشرين يوماً، ثم عادوا إلى الشام.

بعد مشقة بالغة، تمكن هيتوم من حشد جيش من المغول وسلاجقة الروم وعاد إلى كيليكيا. ولكن كان جيش بيبرس قد رحل عنها بعد تخريبها وقتل أهله أو أسرهم. فلم يجد بداً من أن يتوسل لبيبرس أن يعيد إليه ابنه ليون. فأرسل بيبرس في رده على التماس هيتوم رسالة يقول فيها: «لم يكن غرضنا من مهاجمة أرمينيا جمع المال والغنائم؛ بل لأن هولاكو أسر أحد إخواننا وهو شمس الدين سنقر الأشقر السمرقندي في حلب. فلو أراد هيتوم منا أن نطلق سراح ابنه ليون فليطلب من المغول أن يطلقوا سراح سنقر حتى نترك ابنه في مقابله».

فذهب هيتوم بنفسه من أرمينيا إلى معسكر أباقا وبكى في حضرة الإيلخان ملتمساً منه إطلاق سراح سنقر. فأشفق أباقا على شيخوخته وأمره بالعودة إلى بلاده ووعده بالبحث عن سنقر في كل مكان وإرساله إليه.

كانت ممالك الروم، أي آسيا الصغرى، في ذلك الوقت تحت إدارة معين الدين سليمان بن علي پروانة الديلمي الذي كان في بادئ الأمر وزيراً لسلاطين سلاجقة الروم. وقد تولّى حكم هذه البلاد من قبل هولاكو بعد استسلامه للمغول.

وقبل أن يعود هيتوم من معسكر أباقا، وصل رسوله الذي كان قد أوفده من قبل إلى بلاط أباقا إلى نطاق حكم معين الدين پروانة. وكان پروانة يريد الزواج من ابنة هيتوم؛ فتحدث إلى رسوله في هذا الشأن. فطمأنه الرسول إلى أن هيتوم لن يرفض طلبه لو أنه أحسن استقباله في بلاده. فأحسن پروانة استقبال هيتوم واحتفى به وقدم له الهدايا مما أثار دهشة هيتوم. وحين علم بما يفكر فيه پروانة تظاهر بالموافقة ولكنه رهن تنفيذ مراسم الزواج بإطلاق سراح ابنه ليون، وعاد إلى أرمينيا.

وبعد قليل من عودة هيتوم، توفيت ابنته التي كان پروانة يريد الزواج منها. وغضب پروانة من تظاهر هيتوم بالموافقة وحنق عليه. ولكي يستقل بإدارة مملكته، قتل ركن الدين قليج أرسلان ابن غياث الدين كيخسرو في سنة ٦٦٦هـ بمساعدة أمراء المغول، واختار ابنه البالغ من العمر أربع سنوات لهذا المنصب.

وفي سنة ٦٦٩هـ، أرسل أباقا سنقر الأشقر الذي كان على أطراف سمرقند إلى هيتوم، فأعاده هيتوم بكل احترام إلى بيبرس ومعه الكثير من الهدايا النفيسة. فأرسل إليه بيبرس ابنه ليون كما وعده. وفي سنة ٦٦٩هـ، عرض هيتوم الصلح على بيبرس بعد إعادة سنقر الأشقر واستعادة ليون على أن يترك لبيبرس بعض القلاع التي في حوزته وأن يصبح نهر جيحان هو الحد الفاصل بين ممالك المسلمين وبلاد هيتوم. وبعد استعادة سنقر وإطلاق سراح ليون، قام هيتوم بتنفيذ اتفاقه. وذهب ليون إلى بلاط أباقا في بغداد بأمر أبيه حتى يقدم الشكر للإيلخان ويلتمس منه تنصيبه في مكان أبيه الشيخ الهرم. وقبل أباقا وولّى ليون مكان أبيه.

ألحق الملك الظاهر بيبرس العديد من الهزائم بالصليبيين في حملاته الحربية المتعددة إلى الشام بين عامي ٦٦٦هـ و٦٧١هـ واستولى على قلاع الإسماعيلية بالشام ولبنان واحدة بعد أخرى، وفعل فيها ما فعله هولاكو نفسه في إيران، وانتهت فتنة الباطنية في تلك المنطقة بجهوده. ونتيجة لجهاده هذا أصبح من أشهر سلاطين الإسلام وصارت له هيبة كبرى في قلوب كل ملوك الدول الأخرى ومن بينهم أباقا وإمبراطور القسطنطينية ومنجو ملك خوانين القبچاق. وحين كان بيبرس في دمشق في سنة ٦٦٨هـ، أرسل هؤلاء الملوك الثلاثة رسلاً إليه، وفي مراسلاته إلى بيبرس، وجه أباقا اللوم له لقتله قطز ولي نعمته وأخذ يرهبه بقوة بطشه. وفي رده على رسالته قال بيبرس إنه وإن كان قد قتل

قطز فإن ملكه قائم على إجماع المسلمين وإنه لا يخشى بطشه، وأبدى استعداده للقائه وأعرب عن أمله في استرداد ما أخذه التتار من المسلمين في ذلك اللقاء. وكان أباقا في ذلك الوقت يفكر في غزو الشام ومصر والثأر للهزيمة التي حاقت بالمغول في عين جالوت. إلا أن حركة براق لم تسمح له بتنفيذ تلك الخطة في ذلك الحين.

وفي سنة ٦٦٦هـ، شن بيبرس حملة بجيش جرار على أنطاكية التي كانت في أيدي مسيحيي طرابلس الشام، وفتح المدينة وقتل بعضاً من أهلها وأسر بعضاً. ولما كانت حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في ذلك الوقت قد انتهت بهزيمة الصليبيين، فقد اشتد عزم بيبرس على طرد الصليبيين من الشام. ودب اليأس في قلوب الصليبيين واضطروا إلى طلب العون من أباقا لصد بيبرس. فأمر أباقا كلاً من القائد المغولي لجند الروم ومعين الدين پروانة بتجريد حملة قوامها عشرة آلاف رجل على الشام، وأغاروا على شمال حلب في سنة ٦٦٩هـ. وكان بيبرس آنذاك في دمشق؛ فاستدعى الجيش من مصر. ولكن حين وصل الجيش، كان المغول قد انسحبوا. فأرسل بيبرس فرقة من جنوده إلى الرها وحران ولم تجد مشقة في الاستيلاء عليهما، وقتلت بعضاً من المغول الذين كانوا في حران وأسروا بعضاً آخر. إلا أن هذه المدينة لم تبق في يد المصريين طويلاً، فقد دخلها المغول في السنة التالية وذبحوا أهلها؛ ولم تعرف حران الاستقرار منذ ذلك الحين.

تمكن بيبرس من هزيمة جماعة المغول التي هاجمت الشام بعون من الصليبيين وتعقب المسيحيين في كل مكان. ونظراً لتصاعد قوته يوماً بعد يوم، فقد طلب معين الدين پروانة وقائد المغول في بلاد الروم عقد صلح معه. فأوفد إليهما بيبرس اثنين من أمرائه لعقد اتفاقية مصالحة فأخذوا المبعوثين إلى بلاط أباقا. وقد فهم أباقا من خلال المفاوضات التي أجراها مع مبعوثي بيبرس أن منجو تيمور بن بركاي خان ملك صحراء قبچاق الذي اعتنق الإسلام كأبيه قد تحالف مع بيبرس وأن كلا الملكين يعدان العدة لمنازلة أباقا. وكان هذا التحالف بين منجو تيمور وبيبرس يهدف إلى تقويض دعائم الصداقة القديمة بين إيلخانات إيران والصليبيين والأرمن وإمبراطور الروم الشرقية، خاصة أن منجو تيمور كان ينافس إيلخانات إيران من ناحية، وإمبراطور الروم الشرقية من ناحية أخرى؛ لذا فقد رأى الصلاح في عقد تحالف مع بيبرس أخيه في الدين وعدو الصليبيين وأباقا.

وأوفد أباقا السفراء إلى بيبرس وطلب منه إرسال سنقر الأشقر إلى بلاط الإيلخان؛ إلا أن السفراء غيروا مضمون رسالته وقالوا لبيبرس إن أباقا يستدعي إلى بلاطه سلطان مصر أو مقدم أمرائه للتفاوض معه حول شروط الصلح. فرد بيبرس بأنه طالما أن أباقا هو الذي يسعى إلى الصلح فمن الأولى به أن يأتي هو أو أحد إخوته إلى الشام للترتيب لذلك؛ وأمر بتعبئة الجنود المسلمين خارج دمشق وتجهيزهم لأداء مهام حربية.

موقعة البيرة (٦٧١هـ):

في سنة ٦٧١هـ، وصل جند المغول إلى ضفاف أعالي الفرات وضربوا حصاراً حول قلعتي البيرة والرحبة. فأبلغ أهالي البيرة الخبر إلى حمص وحماة عن طريق الحمام الزاجل وطلبوا العون. فتحرك بيبرس بعدد من القوارب نحو الفرات وأرسل عدداً من قادته ومعهم جنوده المدربون لصد المغول من عدة جهات. وكان عبور الفرات صعباً، إذ كان المغول قد سبق لهم أن دمروا المعابر وحصنوا تلك الضفة من النهر. فأنزل بيبرس القوارب إلى الماء وأنزل فيها عدداً من جنوده لعبور النهر. ونشبت معركة حامية بين جنوده وجيش المغول الذين أخذوا يرمون السهام من ضفة النهر. وفي النهاية، عبر سيف الدين قلاوون قائده الداهية النهر وأنزل الهزيمة بالمغول. وأسرعت بقية جيش بيبرس بالنزول بالجياد إلى النهر؛ فكان الجندي يمسك لجام جواده بيد ويقاتل العدو باليد الأخرى، وكان بيبرس في مقدمتهم.

استولى جند المسلمين على معسكر المغول واستردوا البيرة وأدوا صلاة الشكر على هذا الفتح المبين الذي أنقذ الشام من غزو المغول، وعادوا إلى الشام بغنائم وفيرة، وعاد بيبرس عودة الفاتحين إلى مصر، بينما لم يكف جنوده عن ملاحقة الأرمن، وهاجموا بلاد ليون وأغاروا على كيليكيا مرة أخرى وفر ليون أمامهم.

في الوقت الذي كان فيه جيش بيبرس في حملة على بلاد ليون وصلت أنباء بعزم أباقا شخصياً على تجريد حملة على الشام، مما أحدث اضطراباً بين أهل الشام وفر بعضهم من مدن الضفة اليمنى للفرات إلى دمشق وغيرها. وفي سنة ٦٧٣هـ، وصل بيبرس إلى الشام فلم يجد للمغول أثراً؛ فمضى

وثلاثين من أقاربه فقتلهم ومثل بجثة پروانة وطبخوها في قِدر وأكل كل منهم قطعة من لحمه لتهدئة غضبهم ونار حقدهم. وتناول أباقا نفسه قطعة من لحمه.

أما الملك الظاهر بيبرس البندقداري فبعد عودته من بلاد الروم في ٢٧ محرم ٦٧٦هـ وبعد سبع وعشرين سنة من الحكم والجهاد، قبض في دمشق فتخلص المغول من خصم قوي مثله. وقد أخفى أمراء بيبرس نبأ وفاته عن الناس في البداية، وجاءوا بجثمانه إلى مصر متظاهرين بانه لايزال حياً، ثم ولوا ابنه الملك السعيد بركة مكانه، ولكنه لم تكن له قدرة على مقاومة أمراء بيبرس الأقوياء، فذهب إلى الشام حيث سقط من فوق جواده ومات. وتحوَّل أخوه ذو السبع سنوات إلى أداة في يد الأمراء، خاصة أن أحدهم كان قد أصبح أشهر قواد بيبرس، وهو الأمير سيف الدين قلاوون الألفي. فقد قام قلاوون بعد سبعة أشهر بخلع ابن بيبرس الصغير عن العرش وتوَّج نفسه ملكاً على مصر في ٢٢ رجب ٦٧٨هـ ولقب بالملك المنصور. وكان قلاوون قد استشار أحد أحفاد المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين الذي كان قد تمَّ الاعتراف بخلافته في مصر وحصل على موافقته على ذلك. وهذا الحفيد هو أبو العباس أحمد حفيد أبي بكر الابن الأكبر للمستعصم بالله والذي كان قد جاء إلى مصر في سنة ٦٥٩هـ. وكان بيبرس قد اختاره للخلافة بلقب الحاكم بأمر الله في سنة ٦٦٠هـ بعد أن صدَّق على صحة نسبه وقرر أن يجري الخطبة باسمه منذ ذلك الحين؛ وظل هذا الخليفة حياً حتى سنة ٧٠١هـ، وآلت الخلافة لابنه من بعده.

بدأت ولاية السلطان قلاوون بإعلان شمس الدين سنقر الأشقر عصيانه على السلطان الجديد في دمشق؛ فقد كان سنقر يدعي أحقيته في الملك. وفي عام تتويج قلاوون نفسه ، جمع عدداً من الأتباع من حوله في دمشق واتخذ لقب الملك الكامل. وأنزل قلاوون الهزيمة به في سنة ٦٧٩ وفر سنقر إلى الصحراء. ولكنه راسل أباقا بعد قليل وحرضه على دخول الشام. واستولى بعد ذلك على مدن اللاذقية وأنطاكية وصهيون بشمال الشام، واعترف قلاوون بملكه لتلك المناطق في سنة ٦٨٠هـ.

إلى مدينة سيس عاصمة ليون واستولى على بعض الغنائم وعاد إلى دمشق. وفي سنة ٦٧٤هـ ضرب المغول حصاراً جديداً حول البيرة وأخذوا يرمونها بالحجارة والمجانيق. وكان بيبرس في دمشق فهرع إلى البيرة. إلا أن المغول كانوا قد انسحبوا قبل وصوله إليها. وعاد بيبرس إلى مصر.

كان معين الدين پروانة رجلاً حكيماً وذكياً وطموحاً؛ فكان يبدي الصداقة والأخوة في الدين لبيبرس من ناحية، ويظهر التحالف مع ليون ملك أرمينيا الصغرى خوفاً من المغول من ناحية أخرى. وحتى لا يشك المغول في أمره، ذهب بنفسه ومعه ابنة السلطان ركن الدين السلجوقي إلى معسكر أباقا وزوَّجها لأباقا حتى لا تذهب إلى بيبرس. وأخذ جيشاً بصحبة شقيق أباقا لقمع تمرد أحد أمراء السلاجقة كان يصطحب سلطان الروم ذا الأربع سنوات وذهب إلى بلاد الروم وهزم الأمير المتمرد وقتله، وأعاد السلطان الصغير الذي كان الأمير المتمرد يريد أخذه إلى مصر بادعاء پروانة. وأدى ذلك إلى ازدياد مكانة پروانة عند المغول.

موقعة أبلستين (٦٧٥هـ):

في سنة ٦٧٥هـ شن بيبرس حملة على بلاد الروم بدعوة من بعض الفارين منها واطمئنانه إلى تحالف پروانة؛ وتحرك بجيشه من مصر في ٢٠ رمضان من ذلك العام، ووصل إلى حدود الشام. فأبلغ ليون ملك أرمينيا نبأ وصول جيش مصر لمعين الدين پروانة؛ إلا أن پروانة كذّب ليون عند أمراء المغول ليبقيهم على غفلتهم إلى أن وصل نبأ وصول جيش بيبرس إلى منطقة أبلستين،[٢] فقام أمراء المغول وپروانة بتجهيز الجيش وأسرعوا لصد بيبرس وكانت قيادة الجيش في يد طوغون بن إيلكاي نويان وتودون نويان شقيق سونجاق.

وفي يوم الجمعة العاشر من ذي القعدة ٦٧٥هـ، ألحق بيبرس الهزيمة بجيش المغول والروم في صحراء أبلستين وقتل كلاً من طوغون وتودون وأغار على معسكر المغول واستولى على الكثير من الغنائم والأسرى ومنهم أحد أبناء پروانة وأحد أحفاده. ثم اتجه بيبرس إلى قيسارية وانتظر أن يأتيه پروانة، ولكنه لم يأت؛ فقد فرَّ يوم موقعة أبلستين إلى قيسارية ومنها إلى توقات وكان يفكر في طريقة لتبرير هزيمة أبلستين أمام أباقا.

موقعة حمص (٦٨٠هـ):

اتجه أباقا وأخوه منجو تيمور إلى الشام وآسيا الصغرى على رأس جيش قوامه ثمانون ألف جندي بدعوة من سنقر. فمضى منجو تيمور إلى عين تاب وحماة وحدود بلاد الروم، بينما اتخذ أباقا طريقه إلى حدود الشام. وكان قلاوون في ذلك الوقت في حمص، فطلب العون من كل أمراء الشام. وكان سنقر من بين من جاءوا لمساندته. وجاء المسلمون من كل مكان لصد المغول.

ودارت رحى الحرب في يوم الخميس ١٤ رجب ٦٨٠هـ بالقرب من مدينة حمص. ولحقت الهزيمة بميسرة جيش المسلمين وتعقبه المغول حتى أطراف حمص، وفر عدد من جنود المسلمين إلى دمشق. أما الميمنة والقلب فقد صمدا وأنزلا هزيمة فادحة بقوات منجو تيمور. ووصل نبأ هزيمته إلى أباقا الذي كان يحاصر قلعة الرحبة آنذاك. وكان منجو نفسه قد فر مع جنوده. وكانت موقعة حمص رابع فتوحات المسلمين بعد أبلستين والبيرة وعين جالوت.

أسرة الجويني ومجد الملك يزدي:

كان علو نجم صاحب الديوان شمس الدين محمد الجويني وأبنائه في حكومة أباقا خان وأخيه علاء الدين عطا ملك في حكومة بغداد والعراق وما حققوه من شهرة وثراء عريض سبباً في إثارة حسد جماعة من أعيان أباقا وعماله وكبار مسؤولي دولته، إذ لم يتمكنوا في ظل نفوذ أسرة الجويني من إطلاق العنان لسلطاتهم في الشؤون الملكية التي كانت جميعها بين يدي صاحب الديوان وأقاربه، أو من مشاركتهم في السلطة على الأقل. وقد سبقت الإشارة إلى تواطؤ قرابوغا ونائبه إسحق الأرمني للإطاحة بعطا ملك الجويني. ونقدم فيما يلي قصة تآمر مجد الملك يزدي وسعيه للإطاحة بهذه الأسرة، وهو ما يعد من أهم الأحداث الداخلية التي شهدتها ولاية أباقا خان.

كان مجد الملك في بادئ الأمر يتولى وزارة أتابكة يزد، ثم التحق بخدمة بهاء الدين محمد ابن صاحب الديوان حاكم أصفهان. وانضم تدريجياً إلى دائرة مساعدي صاحب الديوان. وقد رعاه شمس الدين وأولاه مهام جسيمة؛ إلا أن مجد الملك بدلاً من أن يبدي الوفاء لهذه الأسرة سعى للإطاحة بهم وأخذ يسعى للوصول إلى منصب صاحب الديوان إلى أن سمع يوماً من مجد الدين

وبعد شهر من البقاء ببلاد الروم، وبعد أن ضاق طريق الإمدادات لجنوده، عاد بيبرس إلى الشام. وقد أحسن معاملة أهالي بلاد الروم في فترة إقامته ولم يسمح بأي أذى من جيشه لمسلمي تلك البلاد؛ بل إنه وجَّه اللوم لقواد جيش السلاجقة لمساعدة الكفار وقال إن هدفه من الحملة على البلاد هو تحريرها من ربقة المغول وليس تخريب مدنها.

أدت هزيمة أبلستين إلى اضطرام نيران الغضب في قلب أباقا ؛ فقد كانت هذه ثالث هزيمة يلحقها الجيش المصري والشامي بالمغول في غضون عشرين سنة، مما زعزع مَن هيبتهم التي ظلت مصونة حتى ذلك الوقت. لذا تحرك بعد وصول خبر الهزيمة وأسرع بالذهاب بنفسه إلى بلاد الروم ونزل إلى أرض معركة أبلستين وأمر بإحصاء قتلى المغول. وحين وجد أن عدد قتلى جيش بيبرس لا يذكر بالمقارنة بعدد قتلى المغول، زاد غضبه فقتل عدداً من قادة جيش السلاجقة ووجَّه اللوم الشديد لمعين الدين پروانة حين مثل بين يديه. وتعلل پروانة بأن عساكر الشام باغتوهم ولم يتركوا لهم فرصة للاستعداد للحرب. فأرسل الإيلخان السفاح جنوده في كل اتجاه بين قيسارية وأرزن الروم وأمر بذبح مسلمي تلك البلاد انتقاماً لهزيمة أبلستين؛ ويقال إنهم قتلوا مئتي ألف من الأبرياء في أسبوع ويقال خمسمئة ألف، وخربوا العديد من المدن وذبحوا الأمراء والأعيان والقضاة والعلماء.

وفكر أباقا في تعقب بيبرس؛ إلا أن أمراءه لم يروا في ذلك صلاحاً. فاكتفى إيلخان المغول بإرسال رسالة تهديد يصف فيها انسحاب بيبرس من أمامه بأنه جبن وسبه بأنه لص وثعلب. وقد وصلت هذه الرسالة إلى بيبرس في دمشق قبل وفاته بقليل.

أبدى أباقا لپروانة احتراماً كبيراً في بادئ الأمر، ولم يظهر له غضبه واصطحبه معه إلى معسكر آلاتاغ وحاكمه في حضور قادته وأثبت عليه ثلاث اتهامات أولاها الفرار أمام العدو؛ والثانية عدم إبلاغه مسبقاً بحملة بيبرس؛ والثالثة عدم مثوله بين يدي أباقا بعد هزيمة أبلستين. وفي ذلك الوقت وصل مبعوثو أباقا الذين كانوا يحملون إلى بيبرس رسالة التهديد وقالوا إنهم سمعوا أن حملة بيبرس كانت في الأصل بتحريض من پروانة. فعزم أباقا على قتل پروانة، إلا أن أبناء تودون نويان وثكالى المغول أخذوا يحرضون الإيلخان على الثأر، إلى أن كلف أباقا أحد أمرائه بقتل پروانة وستة

بن الأثير شقيق عز الدين بن الأثير المؤرخ المعروف ونائب عطا ملك الجويني في حديث معه عن قوة جيش مصر وكثرة عدد جنده. فذهب إلى أحد قواد المغول وقال له إن عطا ملك متواطئ مع المصريين وإنه وأخاه في انتظار وصول جيش مصر إلى العراق لكي يسلموا بغداد للمصريين. وبلغ ذلك أسماع أباقا فأمر بجلد مجد الدين بن الأثير خمسمئة جلدة دون أن يصل إلى اعتراف منه يؤيد هذا الاتهام الكاذب، فتركه لصاحب الديوان.

وشرع شمس الدين في استمالة مجد الملك درءاً لشره؛ فعينه حاكماً لمدينة سيواس ورفع راتبه وأغدق عليه بالكثير، إلا أن مجد الملك لم يتخل عما يضمره وظل يتحين فرصة أخرى لتشتيت شمل أسرة الجويني الجليلة. وفي أواخر سنة ٦٧٧هـ، حين وصل أباقا إلى قزوين في طريقه من تبريز إلى خراسان سعى مجد الملك لمقابلته بوساطة من أحد المقربين للأمير أرغون بن أباقا خان، وقال لهذا الأمير إنه يحاول منذ سنة أن يعرض على الإيلخان أمراً في صالح الملك والدولة دون جدوى بسبب أهمية الموضوع وبسبب حيلولة صاحب الديوان دون وصوله إلى مسامع الإيلخان، ألا وهو أن صاحب الديوان متحالف سراً مع سلاطين مصر والشام وأن معين الدين پروانه قد اتفق مع بيبرس بتحريض منه وقتل أمراء المغول؛ ومع أن عوائد أملاكه التي حصل عليها من حكومة الإيلخان توازي عوائد الأملاك الديوانية فقد اختار طريق الجحود، وأخوه عطا ملك يتشبه بالملوك في بغداد ويضع على رأسه تاجاً مرصعاً بعد أن تجاوزت ثروته وثروات أسرته الحصر؛ وأن صاحب الديوان لما علم أني أعرف هذه الأسرار، أعطاني حكم سيواس وأغدق عليّ الأموال حتى لا أبوح بأي من هذه الأسرار وحتى يتمادى هو في جحوده. ونقل أرغون كل ذلك لأبيه فأوصاه الإيلخان بالصمت ووعد بالتحقيق في الأمر حين يفرغ من مشاغله.

وفي ربيع ٦٧٨هـ حين كان أباقا خان في منطقة سلطانية، مثل مجد الملك بين يديه بمساعدة الأمير تغار ونائبه صدر الدين زنجاني، وعرض عليه ما قاله للأمير أرغون بصورة أكثر تفصيلاً. وغضب أباقا مما سمعه وأمر بإرسال الموظفين والمبعوثين إلى مختلف الولايات وأن يستدعوا نواب صاحب الديوان بدفاترهم لمحاسبتهم والتثبت من صحة اتهامات مجد الملك لهم. فتوسل صاحب الديوان بأولجاي خاتون زوجة هولاكو خان ووالدة منجو تيمور فتوسطت له عند أباقا، فأمر بإعادة

نواب صاحب الديوان إلى مقار عملهم وألا يتعرض لهم أحد، وصدر العفو عن صاحب الديوان. وعندما وجد مجد الملك أن مسعاه قد خاب في هذه المرة أيضاً، خشي انتقام صاحب الديوان، وطلب حماية الإيلخان، فوضعه أباقا تحت حماية تغاجار وأمر بملازمته للمعسكر الإيلخاني.

ولم يكف مجد الملك أيضاً عن الكيد لأسرة الجويني. وتحالف هذه المرة مع صدر الدين زنجاني. وبلغت مكانته في بلاط أباقا أن أصدر الإيلخان مرسوماً خاصاً في سنة ٦٧٩هـ بتكليفه بالإشراف على الشؤون الإدارية لعموم ممالك أباقا، فصار بذلك زميلاً لصاحب الديوان بل منافساً له في عمله. وبعد فترة، أدرك مجد الملك أنه ليس نداً لصاحب الديوان، فشرع في إيذاء أخيه عطا ملك. ففي سنة ٦٨٠هـ حين كان عطا ملك قادماً من بغداد إلى تبريز، قام مجد الملك بتحريض معظم عمال الدولة والأعيان ضد عطا ملك ولجأ إلى الترغيب والترهيب مع نوابه ومساعديه لكي يسيئوا معاملته ويتهموه بالسرقة والاختلاس ويطالبوه بمبالغ مالية كبيرة كضرائب ومستحقات متبقية. ووافق عطا ملك على دفع كل المبالغ المفروضة عليه بنصيحة من أخيه، فدفع جزءاً منها و رد أباقا إليه الجزء المتبقي حين علم أنه أخذ من عطا ملك دون وجه حق، واسترضاه أباقا وأبقاه في منصبه.

وفي أثناء حملة أباقا على الشام في أواسط سنة ٦٨٠هـ، أعاد مجد الملك فتح حكاية بقايا الضرائب أمام أباقا الذي كان في بغداد آنذاك، وقال إن عطا ملك أخفى هذه الأموال بدفنها. فقام عمال المغول بأمر من أباقا وبتحريض من مجد الملك بمصادرة كل ممتلكات عطا ملك واستولوا حتى على ممتلكات ذويه وأبنائه. وحين رأى شمس الدين صعوبة الموقف ذهب بنفسه إلى بغداد لعله يتدبر مبلغاً من المال ويرسله إلى أباقا وينقذ أخاه من براثن أعدائه. وتمكن صاحب الديوان من تدبير بعض المال عن طريق بيع أواني منزله وأثاثه والاقتراض من هذا وذاك، وأرسله إلى أباقا. إلا أن ما تمكن من جمعه لم يبلغ عُشر المبلغ المطلوب. فاتهمه خصومه بأنه لا يريد أن يكشف عن ثروته الخفية. لذا فقد تم تكليف جماعة بالذهاب إلى بغداد برفقة تغاجار ومجد الملك والكشف عن الخزائن الخفية والكنوز المدفونة لأسرة الجويني. وأخذت هذه الجماعة في إيذاء أفراد أسرة الجويني وتعذيبهم وحبسهم وتقييدهم وتفتيش البيوت والأوقاف والمدارس ومنازل القوافل التي بناها عطا

ملك، وأخذوا محصلة ما وجدوه إلى أباقا. وقد تعرض كل من عطا ملك وصاحب الديوان لمتاعب جمة وإذلال بالغ في هذه المحنة. وفي النهاية، تشفع له أمراء المغول وخوانينهم ممن كانوا يعرفون خلق صاحب الديوان، فأنقذه أباقا من السجن في رمضان ٦٨٠هـ وأولاه عطفه، وباءت مساعي مجد الملك الخبيثة بالفشل هذه المرة أيضاً.

وكان خصوم أسرة الجويني يزدادون خوفاً من انتقام صاحب الديوان وأخيه كلما خاب مسعاهم وكيدهم لهما، وبدلاً من أن يكفوا أيديهم عن الكيد لهما كانوا يدبرون لهما مكيدة جديدة للإطاحة بتلك الأسرة حتى يتسنى لهم تحقيق أهدافهم الخبيثة. ولما كان التنافس بين سلاطين الشام ومصر المسلمين وإيلخان المغول قد بلغ أوجه في ذلك الوقت كما رأينا، فقد اتهموا أسرة الجويني بوجود علاقات ود بينهم وبين مسلمي الشام ومصر ويخططون معهم لتقويض دعائم دولة أباقا. ولكي يحققوا هدفهم كاملاً، أغروا جماعة من مسيحيي بغداد ورعاعها بالمال للشهادة بما يدعون؛ ثم عملوا على ألا يكون عطا ملك في بغداد حتى يتمكنوا من إحكام تنفيذ مخططهم في غيابه. وذهبت تلك الجماعة في أثر أباقا خان الذي كان في طريقه إلى إيران، وعرضوا عليه ما لديهم في خانقين. فأوفد الإيلخان أحد المقربين إليه إلى بغداد للتحقيق في الأمر واستدعى عطا ملك لمقابلته. وعمل خصوم عطا ملك على تعطيل مبعوث أباقا لمدة شهر في بغداد وأغروه بشتى المغريات؛ وأحضروا له الشهود بعد أن لقنوهم ادعاءاتهم الكاذبة؛ وكان من بينهم أعرابيان كان عطا ملك قد كلفهما من قبل بتقصي أحوال أمراء الشام وجاءوه بمعلومات عنهم.

تزامنت هذه الأحداث مع وفاة بيبرس وهزيمة سيف الدين قلاوون الألفي لسنقر الأشقر ونفيه إلى الصحراء. وكان عطا ملك قد أوفد هذين الأعرابيين إلى سنقر وأحد أمراء الشام العرب الآخرين يدعوهم لقبول تبعية المغول. ولما كان سنقر والأمير المذكور قد انهزما على يد قلاوون فقد قبلا دعوته، فقدمهما عطا ملك بكل احترام إلى أباقا. فشهد الأعرابيان بذلك وجاءت النتيجة عكس ما خطط له خصوم عطا ملك.

وبعد أن وصل عطا ملك مقيداً إلى أطراف همدان في ذي الحجة ٦٨٠هـ للقاء مبعوث الإيلخان، جاء نبأ وفاة أباقا في العشرين من الشهر نفسه وتنصيب أخيه تكودار على عرش

الإيلخانية مكانه. وأمر تكودار بإطلاق سراح عطا ملك وإرساله إليه. فمضى عطا ملك من همدان إلى أرمينيا ومضى بصحبة تكودار إلى آلاتاغ وشارك في مجلس تتويجه.

بعد جلوس تكودار مكان أخيه (في ٢٦ محرم ٦٨١هـ)، ترك حكومة خراسان ومازندران والعراق وأران وأذربيجان على استقلالها، وأسند حكومة بلاد الروم لشمس الدين بالمشاركة مع السلاطين السلاجقة، ودياربكر والموصل وأربيل لابنه خواجه هارون، وترك حكومة بغداد والعراق في يد عطا ملك كما كانت، وخلع عليهم بشتى الخلع وازدهرت أسرة الجويني من جديد.

ولاية السلطان أحمد تكودار (٦٨١-٦٨٣هـ):

كان أباقا خان يريد لابنه أرغون أن يخلفه على عرش الإيلخانية إلا أن هذا كان يتعارض مع الياسا الجنكيزية التي كانت تعطي حق الخلافة لأكبر الأمراء الأحياء سناً. لذا فقد قام أمراء المغول بتتويج أخيه تكودار إيلخاناً في ٢٦ محرم ٦٨١هـ.

تكودار هو سابع أبناء هولاكو؛ وكان في الصين في فترة غزو أبيه لإيران؛ وأرسله قوبيلاي قاآن إلى إيران في عهد أباقا. وتم تعميد تكودار في صباه على وفق التقاليد المسيحية؛ ولكن بعد اختلاطه بالمسلمين بدأ يميل إلى شريعة الإسلام وبدأ ارتباطه بأمراء المسلمين ورجالهم الذين أسموه أحمدَ. وفي أواخر عهد أباقا، انقسم أمراء المغول وخوانينهم إلى ثلاث فئات؛ فئة تريد تتويج الأمير أرغون خليفة لأباقا؛ وفئة أخرى تساند تكودار، بينما كانت أولجاي خاتون تسعى لتنصيب ابنها منجو تيمور في هذا المنصب، ولكن نظراً لوفاة منجو تيمور قبل وفاة أباقا بخمسة وعشرين يوماً فقد اتخذت أولجاي خاتون جانب أرغون؛ واشتد التنافس بين أنصار تكودار وأرغون يوماً بعد يوم، وتحول هذا التنافس إلى عداء سافر بعد تتويج تكودار باسم السلطان أحمد خان خليفة لأباقا. وانقسم أمراء المغول وقوادهم إلى فريق يؤيد تكودار وفريق يناصر أرغون.

أطلق تكودار بعد تتويجه إيلخاناً يد البذل والعطاء وأغدق الكثير من أموال خزائن أبيه على إخوته وأمرائه وقواد جيشه. واستدعى صاحب الديوان الذي كان في قبضة أرغون، فأكرمه وأغدق عليه؛ ثم بدأ يستميل الأمير أرغون الذي كان غاضباً من تكودار لأن مجلس التتويج لم ينتظر

وصوله للمشاركة فيه. ولم يلن قلب أرغون؛ وفي الوقت نفسه تواطأ مع قونغرتاي شقيق تكودار وقرر الخروج على طاعة الإيلخان الجديد.

كان أول ما فعله تكودار هو أن أشهر إسلامه وكتب لعلماء بغداد وأعيانها في هذا الشأن وأعلن نفسه مدافعاً عن الإسلام وعن شريعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وكان لذلك تأثير طيب للغاية لدى المسلمين؛ وتبعته جماعة من المغول في اعتناق الإسلام.

قتل مجد الملك (٨ جمادى الأولى ٦٨١هـ):

بعد أن جاء كل من عطا ملك ومجد الملك من همدان إلى آلاتاغ بناء على أمر من السلطان أحمد، سعى مجد الملك إلى إحياء دسائسه السابقة من خلال أحد أمراء المغول، فاحتكر لنفسه الإشراف على الشؤون الإدارية للدولة. واستند إلى الأمير أرغون في تنفيذه لهذا المخطط، وسلّمه رسالة يقول فيها: «إن صاحب الديوان دس السم لأبيك أباقا. ولما علمتُ بهذا السر أخذ يتعقبني. فليعلم الأمير بذلك إذا أصابني مكروه». فتوسل صاحب الديوان بزوجة السلطان أحمد وألّب جماعة من الناس على مجد الملك واتهموه عند تكودار باتهامات صحيحة وملفقة. وكان من بينهم ابن شقيقه الذي قال إن مجد الملك متواطئ مع أرغون وأرسل إليه رسولاً يعرب له عن إخلاصه له. فأصدر تكودار أمراً لسونجاق نويان القائد العام لجيوش المغول وأحد أمراء المغول الآخرين بمحاكمة مجد الملك، فطالباه بالأموال التي حصل عليها من أسرة الجويني ولم يودعها في خزانة الدولة؛ وأخذوا بذلك كل أمواله وأعطوها لعطا ملك بأمر من تكودار. فالتمس عطا ملك من الإيلخان توزيعها على العبيد، وكذلك فعل الإيلخان.

وفي أثناء التفتيش على أموال مجد الملك، تم العثور على بعض قصاصات الورق والرقاع والتعاويذ المدونة بالزعفران والحبر الأحمر باللغة العبرية، مما أوحى بأنها من قبيل السحر والشعوذة. وكان المغول يخشون السحر خشية بالغة كما سبقت الإشارة ويعتبرون من يمارسه عدواً لهم؛ فصدر الأمر بأن تُنقع تلك الكتابات في الماء وتُسقى عصارتها لمجد الملك حتى يزول تأثيره عن الآخرين ويعود إلى من صنعه. فامتنع مجد الملك عن شربها، مما دعم من اعتقاد المغول بكونها من

أعمال السحر؛ فأمر تكودار بمعاقبته.

وحين سمع المغول بنبأ اعتقال مجد الملك، هبوا للانتقام منه في كل مكان، وقرر عطا ملك أن يلتمس له العفو عند الإيلخان؛ إلا أن جمعاً من عمال الديوان وأمراء المغول لاموه على فكرته. وأخذ المحققان في التحقيق مع مجد الملك في خيمة عطا ملك من ظهر يوم ٧ جمادى الأولى حتى صلاة صبح اليوم التالي. ولما عجز مجد الملك عن تقديم إجابات صحيحة لأسئلة المحققين، أغلظوا في معاملته انتقاماً لسوء أفعاله مع عطا ملك وأخيه. وفي صباح الثامن من جمادى الأولى، قام أعداؤه الذين ظلوا ينتظرون على باب خيمة عطا ملك من المساء إلى الصباح يتحينون الفرصة للإمساك به بتمزيقه إرباً وشووا جثته ثم أرسلوا أوصاله كلاً إلى ناحية؛ فأرسلوا رأسه إلى بغداد فاشتراها أحد الناس بمئة دينار وأرسلها إلى تبريز؛ وأرسلوا رجليه إلى شيراز ويديه إلى العراق، وهو ما نظم عنه أحد الشعراء البيت التالي:

كان يريد أن يمد يده إلى العراق فلم تصل يده، بل وصلت يده

وبعد قتل مجد الملك، تم اعتقال أعوانه خاصة في بغداد، وقتلوا بعضهم ورجموا بعضاً آخر وأحرقوا جثثهم، ونامت فتنة ذلك الرجل الطموح الخبيث الطوية، ولقي عطا ملك عطف الإيلخان وتم تعيينه لحكومة بغداد كما كان. ومع أنه كان يفكر في الاعتزال، فقد ظل في منصبه بناء على إصرار من السلطان أحمد. فعاد هو إلى حكومة بغداد وعراق العرب، وعاد أخوه صاحب الديوان إلى إدارة شؤون الدولة مستقلين تماماً في عملهما.

وقام السلطان أحمد أيضاً بتعيين الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الرافعي شيخاً للإسلام لكل ممالك إيران والعراق ووضع كل أوقاف دولته تحت تصرفه حتى يشرف بنفسه على الإنفاق منها. وظلت للرافعي حرية التصرف المطلق في هذا المنصب خلال مدة ولاية السلطان أحمد القصيرة؛ فشطب رواتب النصارى واليهود من الدفاتر الإيلخانية وأحال المعابد البوذية والكنائس إلى مساجد وخصص مبلغاً من المال لحجاج بيت الله وأكره الكثير من النصارى على قبول الإسلام وقتل بعضاً منهم لامتناعهم عن ذلك، وأمر بتخريب كنيسة تبريز.

ولم يعمر عطا ملك طويلاً بعد إعدام مجد الملك؛ إذ وافته المنية بعد ذلك بستة أشهر، أي في

الرابع من ذي الحجة ٦٨١ . وكانت وفاته على النحو التالي. كان الأمير أرغون يعتبر عطا ملك وأخيه صاحب الديوان المقربين من السلطان أحمد من أعدائه بسبب التنافس بينه وبين تكودار. وفي سنة ٦٨١هـ، حين جاء أرغون من خراسان إلى بغداد، اشتبك مع عمال عطا ملك وطالبهم ببقية ضرائب عهد أبيه أباقا. ونظراً لعدم إمكانية اشتباكه مع صاحب الديوان بسبب حماية السلطان أحمد له، فقد اختطف عمال عطا ملك وعذبهم، ونبش قبر نائب عطا ملك الذي كان قد توفي حديثاً وأخرج جثته وألقى بها في الطريق. وحين علم عطا ملك بذلك وكان في أران، أفل عائداً. ومات كمداً في التاريخ المذكور، وتم حمل جثمانه إلى تبريز حيث أودع الثرى، وأسند السلطان منصبه إلى ابن أخيه خواجه هارون.

ثورة أرغون على السلطان أحمد:

كان اعتناق السلطان أحمد للإسلام وسعيه لنشر هذا الدين بين المغول وتحويل المعابد والكنائس إلى مساجد واحترامه لقضاة المسلمين وعلمائهم سبباً في إثارة حنق كثرة من أمراء المغول عليه، وشكوه حتى عند قوبيلاي قاآن الذي كان يُعتبر خاقان المغول الأكبر واعترف به إيلخانات إيران جميعاً منذ عهد هولاكو زعيماً لهم. وكان أشدهم سخطاً عليه الأمير أرغون بن أباقا الذي كان يدعي الحق في الإيلخانية وكان من البداية يعتبر نفسه أحق بخلافة أبيه من تكودار.

كان السلطان أحمد منذ أوائل عهد ولايته وإشهاره إسلامه قد أوفد عدداً من ممثليه إلى مختلف الأنحاء؛ فأوفد الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الرافعي شيخ الإسلام وقطب الدين الشيرازي قاضي مدينة سيواس برسالة إلى سيف الدين قلاوون سلطان مصر في أواخر جمادى الأولى ٦٨١هـ يبلغه فيها بإسلامه ويطلعه على الإجراءات التي اتخذها لإحياء شريعة الإسلام كإصلاح شؤون الأوقاف وتسليم عوائدها لمستحقيها وترتيب شؤون الحجيج، ويعرب فيها عن تخليه عن فكرة شن حملة على مصر والتي كان مجلس المغول قد عرضها، وتركه للخصومات القديمة وسعيه لإعمار البلاد، وتوقع أن يوفد سلطان مصر رسولاً إليه أيضاً حتى يزول التنافس والأحقاد التي دامت طويلاً بين إيلخانات إيران وسلاطين مصر والشام. وفي رده على السلطان أحمد، أثنى قلاوون على الإجراءات

التي اتخذها واعتبر اعتناقه للإسلام عين الخير والسعادة. ونشأت صداقة بين الملكين بهذه الرسائل المتبادلة وتم نسيان الأحقاد السابقة إلى حين.

كان تبادل المراسلات بين السلطان أحمد وسلطان مصر وتجاهل رأي مجلس المغول بشن حملة على مصر بمثابة ذريعة أخرى في يد خصومه. بل فكّر معارضوه بزعامة أرغون وقونغرتاي شقيق تكودار هذه المرة في قتله وأعلنوا عصيانهم للإيلخان. وحين علم السلطان أحمد بعصيان أرغون، أرسل أحد أمرائه وهو الأمير بوغا إليه وكان آنذاك في عراق العرب. وفي الفترة نفسها كان أرغون يسبب المتاعب لعمال عطا ملك كما سبقت الإشارة. وتمكن من استقطاب جماعة من حراس بوغا من المغول وولّى الأمير طغاجار قائداً لهم وأخضع كبار أمراء المغول ككيخاتو بن أباقا وبايدو ابن أخيه وجماعة من كبار قواد أباقا لسيطرته.

وكان السلطان أحمد بعد تتويجه قد أرسل أخاه قونغرتاي على رأس جيش للدفاع عن حدود الدولة مع الروم؛ وحين بلغه أنه قد تحالف هو أيضاً مع أرغون أوفد عدداً من جنوده إلى دياربكر للحيلولة دون اتصال عسكر قونغرتاي بجند أرغون. كما أوفد أليناق قائد الجيش الكرجي بدعوة لأرغون لحضور مجلس المغول. فتمكن أرغون من خداع أليناق وأعاده إلى السلطان أحمد. وبعد عودته سعى أليناق إلى تبرئة أرغون بالتماس الأعذار له. وعلم شمس الدين أن أليناق قد تحالف سراً مع أرغون بعد أن انخدع بوعوده، ولكي يمنعه من التمادي في هذا الطريق جعله موضع رعاية السلطان وحمله على تزويجه من ابنته حتى يستميله من جديد. وقد أفلحت هذه الطريقة وأصبح أليناق مرة أخرى أحد معاوني تكودار ومن أنصار سياسة صاحب الديوان، وهو ما أثار المزيد من حنق أرغون على شمس الدين.

بعد إعادة أليناق أوفد أرغون أحد أمرائه إلى تكودار باستدعاء لصاحب الديوان للمثول أمامه لتصفية حسابات عهد أباقا، وكان يهدف من ذلك إلى اتهام صاحب الديوان بقتل أبيه بالسم. إلا أن تكودار رفض إرساله إليه وخاب مسعى أرغون في هذا الصدد أيضاً. وفي أوائل سنة ٦٨٢هـ، وفي طريق عودته من بغداد إلى خراسان التي كانت نطاق حكمه أساء أرغون معاملة عمال تكودار ومعاوني صاحب الديوان.

وعلى الرغم من تزايد عدد أتباعه يوماً بعد يوم، فقد عانى المتاعب نتيجة لما واجهه من مصاعب مالية. لذا فقد عرض عليه بعض أعوانه أن وجيه الدين الزنكي الفرومدي وزير خراسان وتوابعها اختلس بعض الأموال الديوانية ولم يردَّها إلى الخزانة. فأمر أرغون بمعاقبته، وتم تحصيل المبالغ التي اتهمه المدعون باختلاسها. وكان وجيه الدين رجلاً كفؤاً وعالماً ومطمئناً إلى أمانته. فلم يلجأ لأحد في هذه المحنة وترفع عن التشفع بأمراء المغول وخوانينهم واكتفى برسالة للأمير بأن يستدعي المحاسبين ودفاتر حساباته وإذا ثبت أنه اختلس ديناراً واحداً كما يدعي خصومه سيدفع في مقابله ألفَ دينار. فأوفد أمراء أرغون إليه رسولاً ليطلعوه على أن غرض الأمير هو المال وليس التفتيش على حساباته، وأن الأصلح له أن يرد بالإيجاب. وبعد فترة من تبادل المبعوثين، وافق وجيه الدين على تحويل خمسمئة تومان (خمسة ملايين دينار) إلى خزانة أرغون، ثلاثمئة نقداً ومئتان في صورة ماشية وغلال وأقمشة وأدوات. ولكن في هذه الآونة أسر أحد خواص وجيه الدين إلى الأمير أرغون بأن وجيه الدين أرسل قائمة بنفائسه ومجوهراته ومدخراته إلى أحد الثقاة على سبيل الأمانة في تلك الفترة نفسها. فأوفد أرغون أحد أعوانه وحصل على تلك القائمة؛ وحين تأكد من كثرة ممتلكات وجيه الدين، استنكف من قبول مئتي تومان في صورة أشياء عينية وطلب المبلغ نقداً. فاضطر وجيه الدين للموافقة؛ وقدم له أكثر من ألف كيلو جرام من المسكوكات والباقي في صورة مجوهرات وأقمشة نفيسة من خزانة فيروزكوه ومرو وهرات. فسر أرغون بذلك وخلع على وجيه الدين وأبقى عليه في منصبه.

وبعد أن انتهى أرغون من ذلك، أوفد سفيراً إلى تكودار برسالة يقول فيها: «بما أنك قد أصبحت مالك تاج أبي حسب أمر المجلس وعن جدارة، فمن العدل أن تكون لي أنا أيضاً مملكة تكفيني معاش جنودي ومؤني. وخراسان غير كافية لذلك. فإن أمر السلطان بضم العراق وفارس إليها يظل طريق الود مفتوحاً، وإلا فلا سبيل سوى الثورة والعصيان». وأجابه تكودار قائلاً: «تركنا خراسان لأرغون تعطفاً منا. أما مسألة حكومة العراق وفارس فأمرها موكول للمجلس. ولعل أرغون يحضر المجلس؛ فإن استقر رأي الأمراء على ذلك فلا مانع من ضمهما إليه. أما إذا استمر الخلاف وشق عصا طاعتنا، فسيتم صده».

وبعد أن علم السلطان أحمد بتحالف أخيه قونغرتاي مع أرغون، دعاه إلى المجلس. فاتفق قونغرتاي مع عدد من الأمراء على قتل الإيلخان بمجرد الوصول إلى معسكره، فيتوّج المجلس قونغرتاي مكانه. وأفضى أحد الثقاة بتلك المؤامرة إلى السلطان. وفي صباح اليوم الذي تقرر فيه أن يقدم الأعوان على قتله تم اعتقال قونغرتاي وقتله على يد أليناق، وتم تقديم أعوانه للمحاكمة. وحين علم أرغون بذلك، حزن على موت عمه حزناً شديداً؛ ولما كان سفك دم أحد أمراء المغول بيد قريب له يخالف إلياسا الجنكيزية، فقد ازداد حقده على تكودار وتيقن أنه تخلى عن قوانين أجداده ولم يعد يولي احتراماً للياسا بعد اعتناقه للإسلام. ومنذ ذلك الوقت لم يعد للود مكان بين السلطان المسلم وبين أرغون حامي عادات المغول وقوانينهم. وأصبح لابد لأحدهما أن يقضي على خصمه ويفرض سياسته وفكره على رعايا الممالك الإيلخانية.

وفي أواخر سنة ٦٨٢هـ، أمر السلطان أحمد الجنود المقيمين على حدود دياربكر باعتقال قادة جيش أرغون المقيمين حول بغداد ومنهم الأمير طغاجار وتقييدهم بقيود من حديد. ففر كيخاتو وعدد آخر من أمراء أرغون من بغداد وانضموا إلى جيش أرغون في خراسان. فأمر السلطان أحمد الأتابك يوسف شاه له بتجهيز جيشه للدفاع عن حدود لرستان والعراق وأن ينتظر أمر الإيلخان في موقع القتال.

كان أكبر الحريصين على عون السلطان أحمد وإعداد جيشه هو خواجة شمس الدين صاحب الديوان؛ فقد كان يعلم من سابق عداء أرغون له أن السلطان أحمد وأعوانه إذا تعرضوا للهزيمة على يد أرغون، ستكون نهاية دولة أسرة الجويني ونهاية حياته هو شخصياً على يد هذا الأمير الحقود، وأنه بزوال دولة السلطان ستزول السياسة التي اتبعها السلطان أحمد وصاحب الديوان وسائر المسؤولين المسلمين في دعم الإسلام وإحياء شعائره وتؤول الأمور إلى أرغون وأمرائه المتعصبين. لذا فقد أعدَّ صاحب الديوان جيشاً جراراً من الجنود المدربين واتجه أليناق على رأس خمسة عشر ألف جندي كطليعة للجيش من موغان إلى الري وقزوين وخراسان.

وفي الري وقزوين اللتين كانتا ضمن نطاق حكم أرغون، شرع أليناق في التعرض لأعوانه. وحين علم أرغون بذلك، حشد جيشه وأسرع نحو أليناق. وفي صفر ٦٨٣هـ، نشب القتال بين الفريقين

بالقرب من قزوين، وكانت الهزيمة من نصيب جيش أرغون الذي فرَّ إلى بسطام وتفرق جيشه. وأغار جنود أليناق في أثناء تعقبه على القرى الواقعة بين قزوين ودامغان، وتعرض أهالي تلك المنطقة لكثير من الويلات في هذه الحملة.

بعد هذا النصر، أدرك السلطان أحمد أن أرغون خصم قوي ولن يتراجع عن الثأر. فأوفد إليه رسولاً ومعه رسالة بأن أليناق لم يكن لديه إذن بالحرب من الإيلخان؛ بل كان مكلفاً بدعوة الأمير إلى البلاط لحسم الخلاف وجهاً لوجه حتى يكف أرغون عن خصومته ويدخل في طاعة الإيلخان. فأوفد أرغون ممثلين عنه إلى السلطان أحمد للاعتذار عما بدر منه. إلا أن مساعدي السلطان أقنعوه بأنه ما لم يعجل بالقضاء على فتنة أرغون فقد يتمكن من حشد جيش جديد وتقوى شوكته فيستحيل درء خطره. فتحرك السلطان أحمد بجيش جرار (١٢ فرقة) نحو خراسان، وأنزلت قواته الكثيرة العدد خسائر جسيمة بين الأهالي في طريقها، مما آلم رعايا تلك المناطق من السلطان أحمد وكانت سبباً في تفاقم متاعبه.

ومضى أرغون من بسطام إلى قلعة كلات وأقام بها. ولما كان أليناق قد وعد السلطان أحمد بإحضار أرغون إليه فقد اتجه إلى كلات والتقى بأرغون وتمكن من إحضار الأمير إلى السلطان أحمد بقوة بيانه وجاذبية وعوده. وعندما وصل أرغون إلى السلطان في قوجان، أكرم السلطان وفادته وعانقه وأعد له خيمة خاصة وحثه على ترك حكومة خراسان، ولكنه أمر جيشه بمراقبة أرغون وكلف أربعة آلاف جندي بحراسة خيمته.

مصرع السلطان أحمد (٢٦ جمادى الأولى ٦٨٣هـ):

قرَّر السلطان أحمد بمشورة بعض الأمراء خاصة أليناق قتل أرغون، وكلف أليناق بتنفيذ تلك الخطة. ولكن قبل أن يقدم على تنفيذها، أكد الأمير بوغا الذي كانت تربطه علاقة خاصة بأسرة أرغون وكان يعتبر الكرج الموالين لأليناق والمسلمين أعداء له ولعدد آخر من أمراء المغول وأن السلطان أحمد وأليناق وصاحب الديوان قرروا الإطاحة بأسرة جنكيزخان وتسليط المسلمين والكرج على شؤون الدولة. فتأثر الأمراء بذلك وقرروا الإطاحة بالسلطان أحمد من الإيلخانية

وتتويج الأمير هولاجو بن هولاكو خان مكانه وإنقاذ الأمير أرغون من السجن والقتل.

وفي ليلة ١٨ ربيع الآخر ٦٨٣هـ وبينما كان السلطان منهمكاً في اللهو والشراب قام الأمراء من أعوان أرغون بإطلاق سراحه من السجن وقتلوا أليناق وعدداً كبيراً من أمراء السلطان، ففرَّ السلطان وأمراؤه من خراسان إلى أذربيجان بينما فرَّ صاحب الديوان إلى أصفهان. وبعد فرار السلطان أحمد، قام الأمراء بتنصيب أرغون إيلخاناً وأسرع أرغون لتعقب السلطان حتى يقضي عليه قضاء مبرماً. ولكن قبل أن يصل إلى أذربيجان، كانت جماعة من فرسان المغول ممن كانوا قد خضعوا لأرغون إبان إقامته على أطراف بغداد قد أطبقت على خيمة السلطان واعتقلته وخرجت لاستقبال أرغون.

وتظاهر أرغون في بادئ الأمر أنه لا ينوي قتل السلطان؛ ولكن نظراً لإصرار أقرباء قونغرتاي على ذلك، فقد سلمه لهم، فقتلوه في يوم الخميس ٢٦ جمادى الأولى ٦٨٣هـ انتقاماً لقتل قونغرتاي. وبمصرعه انكسرت شوكة المسلمين والفرس الذين قويت شوكتهم بصورة كبيرة بينما ضعف نفوذ العنصرين المسيحي والمغولي في عهده القصير، وسادت من جديد إلياسا الجنكيزية والتقاليد المغولية محل شريعة الإسلام.

ولاية أرغون خان (٦٨٣-٦٩٠هـ):

بعد مصرع السلطان أحمد، قام خوانين المغول وأمراؤهم، خاصة أولجاي خاتون والأمير طغاجار وبوغا، بتتويج الأمير أرغون بن أباقا لمنصب الإيلخان في السابع من جمادى الأخرى ٦٨٣هـ بمنطقة آبشور (من ضواحي هشترود بأذربيجان)، وأقيمت الاحتفالات لمدة شهر. ثم أصدر أرغون أمراً بالإغداق على الأمراء وقادة الجيش ممن ظلوا على ولائهم له. ونظراً لتغيب بعض أمراء المغول كهولاجو وبايدو وكيخاتو وخواجة شمس الدين صاحب الديوان عن حفل تتويج أرغون، فقد شرع الإيلخان الجديد في استمالتهم. فأوفد الأتابك يوسف شاه لُر وإمام الدين القزويني إلى صاحب الديوان من ناحية، ومن ناحية أخرى أرسل مظلة ثمينة إلى هولاجو الذي كان بعض أمراء المغول يميلون إلى تنصيبه إيلخاناً. وقد شارك كل من هولاجو وكيخاتو وغيرهما في مجلس المغول

الذي انعقد بعد ثلاثة أشهر من تتويج أرغون، وتم الاعتراف بأرغون إيلخاناً بتصديق من عامة أمراء المغول.

أسند أرغون لبايدو حفيد هولاكو خان حكومة بغداد، وسلم حكومة بلاد الروم لهولاجو وكيخاتو، وأسند إدارة شؤون خراسان والري ومازندران وقومس لابنه غازان، وعين الأمير نوروز بن أرغون آقا الحاكم المغولي الشهير نائباً لغازان، بينما وضع زمام الشؤون الملكية في يد الأمير بوغا.

مصرع صاحب الديوان (٤ شعبان ٦٨٣هـ):

بعد فرار خواجة شمس الدين من خراسان إلى أصفهان، بلغه في تلك المدينة نبأ مصرع السلطان أحمد وتتويج أرغون مكانه. وبعد يومين أو ثلاثة، قرّر الذهاب إلى شيراز وهرمز في طريقه إلى الهند ليقضي بها ما تبقى له من عمر. ولكن نظراً لعدم اطمئنانه على أسرته وأنصاره وعلمه بأن أرغون سيقضي عليهم بعد مغادرته إيران، فقد قرر الذهاب إلى الإيلخان والتوسل إليه عله يعفو عنه وعن بنيه وأقربائه متشفعاً بخدمته هو وأقاربه للإيلخان لمدة ثلاثين سنة. ومضى بصحبة إمام الدين القزويني وصهره الأتابك يوسف شاه لُر إلى مخيم أرغون. وفي ساوة، خرج أحد أمراء أرغون لاستقباله وعرض عليه فرماناً إيلخانياً بالعفو عن آثام الماضي وبإمكانية أن يشمله أرغون بعنايته. فأسرع صاحب الديوان إلى مخيم أرغون، وبلغه في يوم الجمعة العاشر من رجب ٦٨٣هـ ونزل بقصر الأمير بوغا. فاصطحبه بوغا إلى بلاط أرغون فأكرمه ووعده بالإبقاء عليه في منصب صاحب الديوان لمعاونة بوغا على إدارة شؤون الممالك الإيلخانية ويواصل تقديم خدماته.

قويت شوكة الأمير بوغا الذي كانت تتوقف عليه حياة أرغون خان وملكه وازداد نفوذه بشكل كبير في تلك الفترة. وقد لُقّبَ فيما بعد تشينج سانج أي الأمير الكبير، وتولّى إدارة شؤون الممالك الإيلخانية بمساعدة نائبه خواجة فخر الدين محمد مستوفي القزويني ابن عم المؤرخ المعروف حمد الله مستوفي. وكان خواجة شمس الدين الذي آلت شمس دولته للمغيب مستعداً للبقاء كمساعد للأمير بوغا؛ وقد بذل جهداً كبيراً لكي يقضي بقية عمره في أمان ويسد باب حسد الأمير بوغا وخصومه الآخرين عن طريق حسن المعاملة وتقديم الهدايا. إلا أن الأمير بوغا وغيره من

الخصوم الذين عرفوا كفاءته وكثرة أعوانه ورفاقه على مدى ثلاثين عاماً اعتبروا وجوده حجر عثرة في طريق استقلالهم. فقام عدد من موظفي الديوان ومنهم خواجة فخر الدين مستوفي وعلى تمغاجي وحسام الدين الحاجب بحثٌ الأمير بوغا على إبعاده عن شؤون الدولة، بل أن يضع حداً لحياته ويقضي على أسرة الجويني إن استطاع. وتحدث الأمير بوغا على الرغم من الصداقة القديمة التي جمعته بشمس الدين إلى الأمير أرغون قائلاً: «كيف ترجي الخدمة والأمانة ممن خان أبانا الإيلخان ودس له السم؟» وظل يلصق بشمس الدين افتراءات أخرى حتى أمر أرغون بمحاكمته. وأُخِذَ شمس الدين إلى المحكمة مقيد اليدين بينما تعالت أصوات الغوغاء بالاتهامات بتحريض من أعدائه. وقال شمس الدين: «قد أقر بكل الاتهامات التي ألصقها بي المفترون؛ أما اتهامي بقتل ولي نعمتي فلا أعرف عنه شيئاً». وفي النهاية تقرر أن يفتدي شمس الدين روحه بالمال. فطلب المسكين مهلة، وتمكن من جمع ما يقرب من أربعين توماناً (أربعمئة ألف) من الذهب عن طريق بيع أملاكه والاقتراض من أصدقائه وقومه وقال: «لا أستطيع أن أجمع أكثر من ذلك، وللإيلخان الاختيار في قبوله أو رده». إلا أن أرغون الذي كان يكنّ حقداً قديماً لشمس الدين لم يعف عن ذلك الوزير القدير الذي هيأ أسباب قوة دولة هولاكو وخلفائه، وصدر الحكم بإعدامه. وتم إعدامه في عصر يوم الاثنين الرابع من شعبان ٦٨٣هـ بالقرب من أهَر بأذربيجان، كما تم إعدام أبنائه الأربعة يحيى وفرج الله ومحمود وأتابك في السنة نفسها وحفيده على بن خواجة بهاء الدين محمد، ومنصور بن عطا ملك في سنة ٦٨٨هـ، وخواجة هارون في سنة ٦٨٥هـ، وبذلك آلت أسرة الجويني إلى هذه النهاية الأليمة.

كان خواجة شمس الدين محمد صاحب الديوان من أكفأ الوزراء والعمال والكتّاب الفرس. ولم يكن له نظير في عصره من حيث الكفاءة والجاه والثراء. وقد اشتهر بالحكمة والتواضع وحب العلم والشعر. وقد خلَّدهُ أفصح شعراء الفرس وهو سعدي الشيرازي هو وأخاه علاء الدين عطا ملك في قصائده، وقام عدد من العلماء والشعراء في ذلك العصر ومنهم خواجة نصير الدين الطوسي وصفي الدين أرموي وخواجة همام الدين التبريزي وبدر الدين الجاجرمي بوضع المؤلفات ونظم القصائد باسمه وباسم أفراد أسرة الجويني.

«وبعد إعدام صاحب الديوان تمت مصادرة كل أملاكه في كل الممالك وانهار أساس كل الخيرات. ثم تم إعدام أبنائه الأربعة يحيى وفرج الله ومحمود وأتابك الذين كانوا كنجوم الفلك الزاهرة وأغصان الروض اليانعة، ولم تأخذهم شفقة بهؤلاء الأطفال الأبرياء. وبعد فترة على هذا الحال، أقدم آروق على قتل خواجة هارون. وكان مجد الدين بن الأثير من أكابر عصره في النعمة والثراء والنجدة والشهامة؛ فقد صدق آروق الوشاية بأنه استولى على مبالغ مالية من أعمال بغداد، وتوهم آروق أن خواجة هارون شريكه في ذلك، فأعدمهما معاً دون حكم قضائي، ومقابر صاحب الديوان وأبنائه في جرنداب بتبريز. وفي شهور سنة ٦٩٢هـ زارها ناقل هذه الأخبار (أي وصاف). وقد نقشت أسماؤهم على شواهد القبور مع آيات من القرآن. فتحسر عليهم بعد مشاهدة مراقدهم وتعجب من شيم الزمان. وقد أنشأ أحد فضلاء العصر قصيدة في شرح أحداث حياتهم وألصقها على الجدار المواجه للقبور. وقد حفظ الناقل بعض أبياتها ويوردها فيما يلي:

يا جـــرنداب من مـــقـــابر تبـــريز ... ســـقـــاك الحـــيـــا الملث الهـــامي
فلقـــــد أطبـــــقـــــوا ثراك علـى ... غُـــر وجـــوه على حـــدود كـــرام
ضم شـــمـــســـاً مـــقـــرونة بعـــلاء ... ونجـــوم حكت بدور التـــمـــام
ســـبـــعـــة قـــد بكت عليـــهم نجـــوم ... ســـبـــعـــة في ضـــيـــائهـــا والظلام
وأراض ســـبـــع وســـبـــع ســـمـــوات ... طبـــاق وســـبـــعـــة الأيام
فـــرج الله ثم يحـــيى ومـــســـعـــود ... وهرون منجـــد المســـتـــضـــام
وأبوهم مـــحـــمـــد قـــد تقـــضـــوا ... وجـــمـــيع قـــتلى بحـــد الحـــســـام
حـــزنوني وزاد كـــربي أتابك ... من قـــبـــل كـــالنـــار ذات ضـــرام
وســـجـــاني مـــثـــوى عطا ملك صـــاحب ... ديـــوان مـــلـــك دار الســـــلام
فـــعلى تلكم القـــبـــور تحـــايا ... مـــردفـــات من ربنا بالســـلام

وحين شاء قاضي الأزل وخلت خراسان من الصناديد، وتبدل حال الإيلخان على خواجة وجيه الدين، علم أن الخلاص قد تعذر في هذه المرة. وكتب الأمراء وأركان الدولة رسائل ضراعة دون

جدوى. وفي مستهل رسالة أرسلها إلى القائد العسكري لقهستان يبالغ في تواضعه وتضرعه ويصف نفسه بالضعيف وجيه العاصي ويورد البيت التالي:

حـــزنت روحي من هجـــرك حـــزناً شـــديداً فـــارحـــمني أنا المضنى فـــالأمـــر جلل

وفي النهاية ضربت عنقه وانتقلت روحه من عنت الدنيا إلى أنس الأعالي» (تاريخ وصاف، ص١٤١-١٤٣)

وزارة سعد الدولة اليهودي:

بعد مقتل خواجة شمس الدين صاحب الديوان واستقلال الأمير بوغا، ذهب أرغون خان إلى موغان وأران. وفي أواسط خريف السنة نفسها، عقد مجلساً في مكان بين سراب وأردبيل وصائين قلعة؛ ثم مضى إلى تبريز. وفي الشتاء، عاد إلى مشتى أران مرة أخرى حيث حاكم آبش خاتون آخر ملكات أسرة أتابكة فارس السلغوريين وزوجة منجو تيمور كما سنرى فيما بعد. ومنذ ذلك الوقت وحتى سنة ٦٨٧هـ، لم تحدث أية واقعة مهمة في عهد ولايته، وظل الإيلخان يقضي أيامه بين المصايف والمشاتي في أران وعلى حدود بغداد.

وفي ربيع الثاني ٦٨٧هـ، وصلت أنباء بأن نوغان خان صحراء القبچاق قد خرج على رأس خمسة آلاف جندي في حملة على ممالك أرغون عن طريق دربند. فخرج الإيلخان وبوغا وسائر أمرائه لصده. ولم يستطع نوغان المقاومة فتقهقر. ولكنه جدد حملته بعد عامين؛ وفي هذه المرة هزمه أمراء أرغون، وأقام الإيلخان احتفالاً بهذا النصر في بيله سوار.

وفي تلك الآونة، كان نفوذ الأمير بوغا يزداد يوماً بعد يوم لدرجة أن الإيلخان أصدر أمراً بأن الأمير بوغا إذا ارتكب جرائم كبرى فلا حق لأحد في مساءلته سوى الإيلخان نفسه. فكان عمال الدولة ومعاونوه يطيعون أوامره دون فرمانات الإيلخان وكانت الفرمانات الرسمية الإيلخانية لا تُقبل إلا بخاتم منه. وقد أدت هذه السلطات الواسعة إلى تحويل استقلالية الأمير بوغا إلى استبداد، فلم يبق للإيلخان من الملك إلا الاسم والألقاب. إلى جانب أن الأمراء وأركان الدولة لم يستطيعوا تحمل انفراد شخص واحد بالسلطة، فسعوا إلى تقويض نفوذه وأخذوا يتحينون الفرصة للقضاء عليه.

أخذ خصوم الأمير بوغا وعلى رأسهم طوغان القائد العسكري الإقليمي لقهستان الذي يعد من أذكى أمراء المغول، في الكيد له عند الإيلخان نظراً لسابق عدائهم له. وحدث أن قص طوغان قصة خيانة بوغا للسلطان أحمد على مسامع أرغون وأخذ يخيفه من تصاعد قوة ذلك الوزير ومن تزايد نفوذه وقوته. وكان صدر الدين أحمد زنجاني نائب طغاجار نويان في عهد ولايته على إقليم فارس يذم بوغا الذي كان يطالبه ببقية أموال الإقليم علناً وكان يقول إن نفوذه قد بلغ حد إنفاق أموال الدولة حسب هواه ودون اعتبار للأوامر الإيلخانية وإن عمال الدولة لا يقبلون الفرمانات الرسمية الإيلخانية إلا إذا كانت ممهورة بخاتمه.

وكان أذكى خصوم بوغا طبيب يهودي من أهالي أبهر بزنجان ويدعى سعد الدولة. وسعد الدولة هذا هو ابن صفي الدولة؛ وقد انضم إلى فريق الأطباء الإيلخاني في عهد أرغون. وكان يعيش في بغداد، وكان كثير الاختلاط بالناس ويلم بعدة لغات. كما كان على دراية كاملة بأوضاع موظفي بغداد والعراق ومسؤوليها الماليين. وذات يوم تحدث الأطباء اليهود الآخرون المقيمون في البلاط الإيلخاني إلى أرغون بحديث يوحي في ظاهره بالكيد والوشاية ولكنهم في الحقيقة كانوا يهدفون إلى إدخال سعد الدولة إلى بلاط أرغون؛ فقالوا للإيلخان إن سعد الدولة قد ركن إلى حياة الدعة والراحة في بغداد وأدار ظهره لخدمة الدولة على الرغم مما يتلقاه من راتب من الديوان؛ فلو صدر الأمر الإيلخاني، فإن عليه أن يلازم الركب ويكون له نصيب مما نلقاه من عناء السفر والعمل. ووجدت هذه الوشاية أذناً صاغية من أرغون، فاستدعى سعد الدولة وأدرجه في سلك أطباء البلاط الإيلخاني.

وحدث أن أصيب أرغون في تلك الأيام بوعكة طفيفة شفي منها على يد سعد الدولة، فقرَّبه الإيلخان إليه. فأسر إليه سعد الدولة ذات مرة بمعلومات عن إسراف مسؤولي الدولة في بغداد، وقال له إن بوغا وأخاه آروق يحصِّلان الأموال الديوانية لحسابهما فلا يصل منها إلى الخزانة الإيلخانية شئ. فكلف أرغون سعد الدولة واثنين من أمراء المغول بالذهاب إلى بغداد وتحصيل بقية الضرائب وإصلاح أحوال الرعية فيها. وذهب سعد الدولة في أواخر سنة ٦٨٦هـ إلى بغداد وجمع في فترة قصيرة أموالاً طائلة من بقايا السنوات السابقة وحصيلة العام الجاري وأسرع بها إلى الإيلخان، مما

كان له تأثير شديد الإيجابية على تحسين صورته في عيني أرغون فأسند إليه مهمة تحصيل الضرائب والإنفاق في بغداد. وفي السنة التالية، جمع سعد الدولة مبالغ مالية أكبر وذهب بها إلى أرغون في مدينة سلطانية. فثبت للإيلخان أن آروق يجمع مبالغ مماثلة من بغداد في كل سنة ولا يودع خزانة الدولة سوى عُشرها، وأن سعد الدولة لو تولى مسؤولية جمع الضرائب والنفقات في الدولة كلها فإنه سيحصِّل نسبة مماثلة من سائر الممالك الإيلخانية. لذا فقد عينه وزيراً له وفوض له سلطة الحل والعقد في شؤون الدولة، وأمره بأن يعرض عليه كل ما يستجد من أمور بحرية كاملة دون الحاجة لمشورة من أحد.

كانت استقلالية سعد الدولة اليهودي تعد من ناحية دليلاً على تراجع كفاءة مسؤولي الدولة من المسلمين، ومن ناحية أخرى مؤشراً على أفول نجم بوغا وأخيه آروق، خاصة أن بوغا كان له الكثير من الأعداء كما سبقت الإشارة. وكان أرغون قد بدأ أيضاً في النظر إليه بعين الشك بسبب استبداده ونتيجة لوشايات خصومه. وفي تلك الآونة وفي مجلس للشراب حضره أرغون، احتدم النقاش بين بوغا واحد الأمراء الآخرين ولم يوجِّه أرغون اللوم إلى خصم بوغا، وهو ما أدى إلى غضب بوغا من الإيلخان. وحكم خصوم بوغا على نائبه حسام الدين القزويني في إقليم فارس بدفع مئة وخمسين توماناً. وكانت كل هذه الأمور قد حطَّتْ من شأن بوغا حتى أمر أرغون بعزل نوابه من مناصبهم. وفكر بوغا في مخالفة الأوامر الإيلخانية؛ فأرسل رسولاً إلى جوشكاب حفيد هولاكو المقيم على ضفاف الفرات واقترح عليه مساندته في شق عصا الطاعة على أرغون ووافاه بتعهد بخطه وإمضاء مساعديه. فأسرع جوشكاب إلى أرغون وأفضى إليه بمؤامرة بوغا وأعوانه. وبعد ثبوت التهمة على بوغا قام ذلك الأمير بضرب عنقه وقتل عدد من أعوانه بأمر من الإيلخان في أواخر ذي الحجة ٦٨٧هـ، وتم اعتقال أخيه آروق وأعدم في الشهر التالي. وفي السنة التالية، حامت شكوك أرغون حول جوشكاب أيضاً، فأمر بإعدامه.

وبمقتل الأمير بوغا، علا نجم سعد الدولة. وكان هذا الطبيب اليهودي الطموح وأرغون نفسه يبغضان المسلمين؛ وشرعا في تقليص دورهم في شؤون الدولة. فتقرر ألا يُعيَّن في الشؤون المالية وجمع الضرائب والنفاقات في الممالك الإيلخانية إلا المسيحيين واليهود. وقام سعد الدولة بزرع

قومه من اليهود في الشؤون الملكية المهمة وقسَّم بينهم عراق العرب والجزيرة وأذربيجان؛ ولولا أن خراسان وبلاد الروم كانتا في يد غازان بن أرغون وأخيه كيخاتو، لوقعتا في قبضة عمال الدولة من اليهود أيضاً.

كان سعد الدولة رجلاً ذكياً وكفؤاً؛ ولاستمالة قلوب الناس أمر في بادئ الأمر الأمراء والولاة بالفصل في الدعاوى القضائية على وفق الشريعة الإسلامية وأن يجدُّوا في استرداد حقوق المظلومين وإعانة العجزة، وأوعز إلى الإيلخان بأن السبب الأول لخراب البلاد هو كثرة أسفار المبعوثين المكلفين بتحصيل أموال الخزانة، وأن الحكام والملوك التابعين مكلفون بإرسال الأموال الديوانية في موعدها مع موظفين أمناء. ووافق الإيلخان أيضاً على ذلك وأصدر مرسوماً بتنفيذه. ونتيجة لمساعي سعد الدولة، تم رفع الكثير من المظالم السابقة التي تعرضت لها الرعية، وجرت الصدقات ونظم شعراء العرب والعجم المدائح باسمه، وعلا نجم اليهود في ظل وزارته وزاد نفوذهم، وأصبحوا يجالسون الإيلخان والأمراء بعد سنوات الهوان. وعمرت خزانة الدولة بتدبير سعد الدولة وتم إصلاح كثير من أوجه الخلل، وبلغت محصلة الموارد ألف تومان من الذهب. لذا فقد ازداد اهتمام أرغون به، فبدأ سعد الدولة في الميل إلى الاستبداد المطلق، مما أدى إلى تصاعد السخط بين أمراء أرغون على سعد الدولة وصمَّمَ معظمهم وبعون من طوغان على قتله وتحينوا الفرصة للحد من تدخل اليهود في شؤون الدولة وإنقاذ الناس من عار سطوتهم.

تم تفويض حكم خراسان كما سبقت الإشارة من قبل الإيلخان إلى ابنه غازان، وعين الأمير نوروز بن أرغون آقا حاكم خراسان المعروف نائباً لغازان. وكان الأمير نوروز قد أعلن إسلامه. وحين تم قتل بوغا بتحريض من سعد الدولة وآخرين ونظراً للصداقة التي جمعته به ترك نوروز غازان في مرو في ذي الحجة ٦٨٧هـ بدعوى تجهيز الجيش وإعداد حملة على ما وراء النهر ومضى إلى مشتاه في خراسان واستمال عدداً من أمراء تلك المنطقة وضمَّهم إلى صفه ضد غازان. وفي ٢٧ ربيع الأول، حين كان غازان يقيم في كَشَف رود، انقض عليه وهزمه على أطراف مازندران. وبعد إعادة حشد قوات في ربيع الآخر من السنة نفسها، عاد غازان لقتاله. إلا أنه انهزم في هذه المرة أيضاً على يد الأمير نوروز على أطراف رادكان ونجح نوروز في الاستيلاء على الكثير من الغنائم والأسرى.

وبعد وصول أنباء تمرد الأمير نوروز وهزيمة غازان، أرسل أرغون عدداً من أمرائه وقواده ومن بينهم الأمير بايدو لقمع تمرد الأمير نوروز. وحين عجز نوروز عن المقاومة، فرَّ إلى تركستان وذهب غازان إلى هرات، واستولى على خراسان في سنة ٦٨٩هـ.

وفي تركستان، ذهب نوروز إلى قيدوخان وحثَّهُ على الاستيلاء على خراسان. وحصل منه على قوات بلغ عددها ثلاثين ألف رجل، ووصل إلى خراسان في سنة ٦٩٠. فتقهقر غازان أمام هذا الجيش الجرار؛ ولكن نظراً لتعرض الأهالي لكثير من النكبات على يد جنود ذلك الجيش فقد قتلوا كثرة من جنوده، مما أدى إلى تكدر العلاقات بين الأمير نوروز وقواد هذا الجيش من المغول. وحين توفي أرغون أيضاً في تلك الآونة، رأى الأمير نوروز صلاحه في طلب العفو من غازان. فذهب إلى غازان وتلقى عفوه وأصبح موضع عطفه.

وتم تكليف الأمير طوغان القائد العسكري الإقليمي لقهستان السابق الذي كان من المقربين لبلاط أرغون ومن خصوم سعد الدولة بالذهاب من قبل الإيلخان إلى حدود خراسان إبان فتنة الأمير نوروز لقمع تمرده؛ إلا أن وصول طوغان إلى خراسان تزامن مع فرار نوروز فأفل طوغان عائداً.

واحتد سعد الدولة على طوغان بسبب أخذه عدداً من القوات أكبر من المقرر وأمر بمعاقبته بالضرب سبع عشرة عصا طبقاً للياسا الجنكيزية. وأدت هذه الإهانة من جانب سعد الدولة لطوغان في حضور عدد من الأمراء إلى حنق طوغان عليه فصمَّمَ أكثر من ذي قبل على الإطاحة به. ولكن نظراً لثقة الإيلخان التامة في وزيره لم يتمكن أحد من الحديث عنه أمام أرغون؛ فلم يجد خصوم الوزير بداً من تحين الفرصة والصبر على قسوته.

وعندما وجد سعد الدولة في النهاية أن العديد من الأمراء والعلماء المسلمين قد عزموا على قتله هو وأعوانه من اليهود، شرع في استغلال ثقة أرغون فيه ليقضي عليهم بخطة كان قد وضعها. كانت خطته أن قال لأرغون ذات يوم إن النبوة قد انتقلت بالتوارث من جنكيزخان إلى الإيلخان العادل وإن أرغون رسول من عند الله؛ ولما كانت نشأة أي دين ترتبط بقتال الأعداء واقتلاعهم من جذورهم فعلى الإيلخان أن يصدر أمراً بضرب عنق كل من يرفض اعتناق دينه الجديد. ولما كان أرغون يكن الحقد للمسلمين، فقد أمر بعدم تدخلهم في شؤون الدولة وبعدم الانضمام إلى

الجيش. ولكي يحقِّق سعد الدولة هدفه أعد محضراً وقع عليه جمع من علماء المسلمين وصدَّقوا على خطته.

وقرر سعد الدولة بتصديق من أرغون أن يحيل الكعبة إلى معبد وبدأ بمراسلة عرب الجزيرة العربية من اليهود. وأمر بحشد قوات وصنع سفن في بغداد لإرسالها إلى الجزيرة؛ وأوفد أحد أعوانه من اليهود ويدعى خوجة نجيب الدين الكحال إلى خراسان بقائمة تشمل أسماء مئتي شخص من أعيانها، وأرسل شمس الدولة بقائمة بأسماء سبعة عشر شخصاً إلى شيراز لقتلهم وتهيئة المناخ لنهج جديد فكَّر في فرضه على أهالي البلاد. إلا أن أرغون مرض في تلك الآونة وذهب إلى موغان للاستشفاء؛ فاشتد عليه المرض وعجز الأطباء عن مداواته. وأدرك سعد الدولة أن أرغون الذي كان أداة لتنفيذ أغراضه على وشك الرحيل وأن شمسه هو أيضاً قد أوشكت على المغيب برحيله. لذا فقد شرع في استمالة قلوب الناس وإصلاح ما فسد على يديه وأرسل الرسائل إلى كل مكان برفع المظالم والفساد وإطلاق سراح المسجونين وإجراء الصدقات. وكتب ضمن ذلك سبعين رسالة في يوم واحد وتصدق بثلاثين ألف دينار على أهل بغداد وبعشرة آلاف دينار على أهالي شيراز. وكانت هذه التصرفات تهدف في الباطن إلى اجتذاب قلوب الناس إليه، أما في الظاهر فكانت بهدف دفع البلاء عن الإيلخان وطلب شفائه؛ إلا أن أياً منهما لم تُجدِه نفعاً، وآلت شمس حياة كل من أرغون وسعد الدولة للمغيب.

كان أرغون يؤمن إيماناً راسخاً بالكيمياء والنجوم والسحر كغيره من سلاطين المغول. لذا فقد قرَّب إلى بلاطه السحرة من البخشيين والقاميين فصنعوا له مادة مركبة من الزئبق والكبريت ومواد أخرى لإطالة عمره. وكانت هذه المادة سبباً في مرض الإيلخان وإصابته بالشلل وموته.

وبعد أن اشتد المرض على أرغون، قال له السحرة إن السبب في اعتلال صحته يكمن في تعويذة من عظم الأنف، وعلقت هذه التهمة بإحدى زوجاته وتم تعذيبها. وتعقدت الأمور حين تقرر إطلاق سراح المسجونين لإنقاذ الإيلخان. وكانت نتيجة ذلك قتل عدد من الأمراء. فقال السحرة إن قتل هؤلاء الأمراء يؤدي إلى اشتداد المرض على أرغون؛ فأمر أرغون بقتل من تسبب في ذلك. ولم يكن مسموحاً بزيارة أرغون في خيمته في ذلك الوقت إلا لسعد الدولة وأحد الأمراء

الآخرين. فأسرع سعد الدولة بإرسال الرسل إلى غازان يطلب منه الحضور إلى أذربيجان عله ينجو بنفسه من الهلاك بوصوله قبل وفاة الإيلخان ويستعد بدفاعه في مواجهة خصومه. ولكن قبل وصول غازان من خراسان، اجتمع الأمراء في دار طغاجار وقرروا قتل كل من تسبب في ظهور الفتنة، فتم قتل تلك الجماعة وألقي القبض على سعد الدولة وأتوا به إلى دار طغاجار وقتلوه في آخر صفر ٦٩٠هـ. وبعد قليل، توفي أرغون في السادس من ربيع من السنة نفسها ، فذالت دولته ودولة سعد الدولة تباعاً.

نزل خبر قتل سعد الدولة بالمسرة والارتياح في الأقطار الإسلامية وبدأ الناس في تعقب اليهود ومصادرة أموالهم في كل مكان عدا شيراز حيث أحسن شمس الدولة معاملة الأهالي وكان يتظاهر بالميل إلى الإسلام، فأحبه الناس وأحسنوا معاملته. وبعد عام واحد، أي في عصر كيخاتو، تم تعيين شمس الدولة لتولي حكومة شيراز.

السياسة الخارجية لأرغون خان:

كانت العلاقات الخارجية بين أرغون خان وسائر الممالك الكبرى في الشرق والغرب مستقرة ولم تنشب أية حرب كبرى بينه وبينها. وكان أرغون خان كمن سبقه من الإيلخانات ينظر باحترام إلى قاآن المغول الأكبر أي قوبيلاي، وكان يعتبره أستاذه الأكبر. وفي أواخر عصر أرغون، توفيت إحدى زوجاته الأثيرات، وقرر الإيلخان أن يحترم وصيتها بألا يتخذ زوجة مكانها إلا من نساء أسرتها التي كانت تقيم في الخطا. لذا فقد أوفد ثلاثة من أمرائه إلى قوبيلاي قاآن يطلب منه إرسال أميرة من أسرة زوجته الراحلة. فأرسل قوبيلاي قاآن أميرة حسناء في السابعة عشر من عمرها بصحبة مبعوثيه إلى إيران. ورافق هؤلاء المبعوثين في طريق عودتهم الرحالة الفينيسيون المشهورون نيكو پولو ومافيو پولو وماركو پولو وقد سلك ركبهم طريق البحر إلى إيران. وقد عمل قوبيلاي قاآن على تسهيل سفرهم وسلّم هؤلاء التجار الفينيسيون الثلاثة رسائل إلى ملوك فرنسا وانجلترا وإسبانيا وغيرهم من الملوك المسيحيين. واتخذ هؤلاء التجار ورسل أرغون طريقهم إلى إيران على متن ثلاث عشرة سفينة وستمئة راكب آخرين.

وصل الرسل ومرافقوهم التجار إلى إيران بعد ثمانية عشر شهراً، في حين لم يتبق من سائر الركاب سوى سبعة عشر شخصاً أحياء. وفي هرمز سمع هؤلاء بنبأ وفاة أرغون خان؛ فاضطروا إلى إرسال رسالة إلى الإيلخان الجديد كيخاتو خان. فهداهم كيخاتو إلى غازان بن أرغون. وذهب التجار الثلاثة وأحد الأمراء المبعوثين من قبل أرغون إلى غازان في أبهر بزنجان وسلموه الأميرة، فتزوجها غازان. وكانت وفاة قوبيلاي قاآن في تلك الأيام أيضاً.

ولم تنشب حروب بين ملوك مصر والشام وإيلخان إيران في عهد ولاية أرغون؛ فكان أرغون يولي كل اهتمامه من ناحية إلى جمع المال ورعاية المسيحيين واليهود والاشتغال بالكيمياء وغير ذلك؛ ومن ناحية أخرى كان ملوك المسلمين منشغلين بأمور أخرى، خاصة قلاوون الذي كان منشغلاً في ذلك الوقت بالصراع ضد أنصار الملك الظاهر بيبرس وسنقر الأشقر والصليبيين الأرمن ولم يتمكن من نجدة المسلمين الذين كانوا يعيشون في عبودية للمسيحيين واليهود في بلاد الإيلخان أو أن يساعد من تولّوا شؤون الممالك الإيلخانية في عهد السلطان أحمد وانزووا في عهد أرغون.

كان أرغون يميل إلى المسيحيين وإلى ترميم الكنائس التي تهدّمت في عصر السلطان أحمد وانتزاع بيت المقدس من المسلمين وإعادتها إليهم؛ لذا فقد دخل في مراسلات مع البابا وملوك أوربا المسيحية. فراسل البابا هنريوس الرابع والبابا نيكولاي الرابع وأعرب عن نواياه في خدمة المسيحية، ونال ثناء البابوات وتشجيعهم، وأبلغوا رسائله إلى إدوارد الأول ملك انجلترا وفيليب لوبل ملك فرنسا. كما أرسل أرغون نفسه رسالة إلى فيليب لوبل ملك فرنسا، إلا أن هذه المراسلات لم تسفر عن تنفيذ المخطط الذي رسمه البابا وأرغون لشن حملة مشتركة على المسلمين، ولم تؤد إلا إلى توثيق الصلات بين بلاط الإيلخان والبابا وملوك أوربا، وبالتالي إلى زيادة نفوذ رجال الدين المسيحي في الأقطار الإيلخانية وازدهار الديانة المسيحية في الشرق.

ولاية كيخاتو خان (٦٩٠-٦٩٤هـ):

بعد وفاة أرغون، بعث معظم أمراء المغول رسلاً إلى بلاد الروم لإبلاغ شقيقه كيخاتو حاكم تلك

البلاد بوفاة الإيلخان ودعوته لخلافته. فأسرع كيخاتو إلى أذربيجان. إلا أن بعضاً من زعماء المغول كطغاجار وطوغان سعوا إلى تتويج بايدو بن طوغان وحفيد هولاكو حاكم بغداد بدلاً منه، وكتبوا إليه يدعونه لذلك، إلا أن بايدو لم يقبل دعوتهم.

لدى وصول كيخاتو إلى آلاتاغ، كان أمراء المغول وقوادهم في استقباله وعلى رأسهم أوروغ خاتون زوجة أرغون خان وحفيدة دوقوز خاتون التي كانت من طائفة الكرائيت وتدين بالمسيحية. وبعد وصول كيخاتو، تُوِّج إيلخاناً في ٢٣ رجب ٦٩٠هـ. وبعد انقضاء احتفالات التتويج، أنزل العقاب بالأمراء الذين اتبعوا طريق العصيان في أواخر عصر أرغون وقبل تتويجه هو وعين أمراء غيرهم في مناصبهم. أما طوغان فسلَّمه لأبناء أحد الأمراء من ضحاياه للقصاص لأبيهم منه. ثم أرسل أنبارجي بن منجو تيمور لإدارة شؤون خراسان وعين سنجتور نويان ولياً للعهد ومسؤولاً عن شؤون الجيش والدولة.

شهدت بداية عهد كيخاتو ثورة جماعية نشبت بين التركمان واليونانيين في بلاد الروم على جنود المغول المقيمين هناك وبدء حملة الإيلخان على تلك البلاد. فذهب إلى بلاد الروم في الرابع من رمضان ٦٩٠هـ، وتمكَّن من قمع الثوار بعون من الكرج، وعاد إلى إيران منتصراً في جمادى الأخرى ٦٩١هـ. واستغرق غياب الإيلخان قرابة عشرة أشهر. ونظراً لعدم قضائه التام على المتمردين، فقد أذاع الأمراء أخباراً كاذبة عن هزيمته أمام الروم، وفكر أنبارجي حاكم خراسان الجديد في العرش، وبدأت شؤون الدولة في التدهور نتيجة لعدم خبرة سنجتور نويان وظلم عمال الدولة. وفي تلك الآونة، انتشر في إيران نبأ عودة كيخاتو منتصراً، وألقى سنجتور نويان القبض على الأمير طغاجار ونائبه خوجة صدر الدين أحمد زنجاني اللذين كانا من مروجي الأخبار الكاذبة وأرسلهما إلى كيخاتو. إلا أن كيخاتو عفا عنهما وأكرمهما.

وفي طريق عودته من بلاد الروم، مرض كيخاتو واشتد عليه المرض. وتم استدعاء أئمة المسلمين وكهنة المسيحية وأحبار اليهود للدعاء للإيلخان بالشفاء وطول البقاء، وتم توزيع الصدقات، وتم له الشفاء، فأقام احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة وقام بتوزيع النفائس التي كان أرغون وسعد الدولة قد جمعاها من الناس ظلماً على أمراء المغول وخوانينهم وأصدر عفواً عاماً عن المسجونين وأعفى

العلماء والأشراف والأئمة من الضرائب. وعلى الرغم مما توحي به هذه التصرفات من جود وعطاء، فقد أدت إلى تقويض دعائم دولته بسبب خواء الخزانة ونقص العوائد، وبالتالي إلى شقاء الناس.

وزارة صدر جهان الزنجاني:

بعد انتهاء مراسم الاحتفال وقع اختيار كيخاتو على الأمير آق بوغا لمنصب أمير الأمراء، وأمر بأن يكون كل من سنجتور نويان وطغاجار نائبين له، وعين خوجه صدر الدين أحمد خالدي الزنجاني – الذي تحالف في سنة ٦٧٩هـ مع مجد الملك يزدي ضد أسرة الجويني ثم تولَّى بعد ذلك مهام أخرى من قبل الأمير طغاجار في إقليم فارس – صاحب ديوان عموم الممالك الإيلخانية ووزيراً له ولقبه بصدر جهان وفوَّضه سلطات كاملة. واستقبل الأمراء تنصيب صدر جهان بالترحاب، وأصبح هذا الوزير صاحب السلطة المطلقة والشخصية الأولى في الممالك الإيلخانية. وقام صدر جهان بتعيين شقيقه قطب الدين الذي لُقِّب فيما بعد بقطب جهان في منصب قاضي قضاة الممالك الإيلخانية، وكان قطب جهان يعمل قبل ذلك في خدمة الأمير أنبارجي.

وفي ذي القعدة ٦٩٢هـ، شرع جمع من موظفي المالية في الكيد لصدر جهان، فأبلغوا الإيلخان بأنه يستولي لنفسه على معظم الأموال الديوانية ولا يمد الجيش بالرواتب والعلف، وأنه يحصل لنفسه على ثلاثين توماناً من ضرائب تبريز وتوابعها والتي يبلغ مجموعها ثمانين توماناً. ومع أن معظم هذه الاتهامات كان صحيحاً فإنها لم تجد أذناً صاغية من قبل الإيلخان الذي أطلع وزيره على مكائد موظفيه وسلمه إياهم. وبعد إنزال عقاب مخفف بهم عفا صدر جهان عنهم وقبل اعتذارهم.

ثم أصدر كيخاتو مرسوماً بعزل كل الأمراء والولاة والموظفين والكتبة من ضفاف جيحون حتى حدود مصر وتفويض صدر جهان في الإبقاء على من يشاء منهم في منصبه وبعدم قيام الأمراء بصرف الرواتب والإقطاعات إلا بأمر من صدر جهان. وكان هذا إيذاناً بإطلاق يد صدر جهان في شؤون الدولة وتعظيم نفوذه وقوته في البلاد.

طبع العملة الورقية «چاو» (٦٩٣هـ):

كان كيخاتو رجلاً مبذراً ومحباً للهو، وكان يبدد الذهب والفضة والجواهر والنفائس باعتبارها

زينة للنساء، وكان يتشبه في عطائه وبذله بإقطاي قاآن. وسرعان ما خوت الخزانة. وبدلاً من أن يعمل صدر جهان على وقف هذا الإسراف، اتبع هو أيضاً طريق التبذير والإفراط لاجتذاب قلوب الناس خاصة الزهاد منهم. وفي غضون عامين، بلغت ديون الوزارة قرابة خمسمئة تومان. إلى جانب أن وباء قد تفشى بين قطعان أغنام المغول في مستهل ولاية كيخاتو ونفقت معظم الأغنام في الدولة خاصة في دياربكر والموصل وبغداد وخراسان، ولم تكن في خزانة الحكومة أموال تكفي لمساعدة كبار أمراء المغول لتدارك الأمر، مما أدى إلى زيادة فقر المغول وتدهور أوضاع الجيش. وبلغ مقدار العوائد السنوية للخزانة في عهد صدر جهان وكيخاتو ١٨٠٠ تومان، يتم إنفاق ٧٠٠ منها على نفقات الديوان ورواتب موظفيه، ولم يكن الباقي يفي بالنفقات الملكية وتبذير الإيلخان. وفي حين لم تكن نفقات الغذاء ومطبخ الأمراء والخوانين في عهدي أباقا والسلطان أحمد تزيد عن ٤٠ توماناً، بلغت هذه النفقات نفسها في عهد كيخاتو ١٦٥ تومان؛ ومع ذلك كان الجميع يتذمرون ولا يعتبرون ذلك كافياً. وبلغ الفقر المالي حد عدم توفر المال اللازم لشراء رأس من الأغنام لمطبخ الإيلخان. فكلّف صدر جهان شخصاً يهودياً يُدعى رشيد الدولة بإعداد لوازم المطبخ الإيلخاني وأسند إليه إدارته. فاشترى رشيد الدولة عدداً كبيراً من الأبقار والأغنام من جيبه الخاص، وعين عدداً من الطباخين، وتقرر إعادة ما أنفقه من ماله الخاص إليه من الخزانة. ولكن نظراً لخواء الخزانة من المال وعجز موظفي الدولة في الولايات عن دفع حوالات صدر جهان لعدم توفر المخصصات المالية، فقد آثر رشيد الدولة الفرار بعد أن أنفق كل ما يملك ولم يعد في استطاعته مواصلة عمله، فاختل وضع المطبخ الإيلخاني.

وفي هذه الأثناء، كان هناك شخص يدعى عز الدين محمد بن مظفر بن عميد على دراية تامة بأوضاع الصين والممالك الإيلخانية تقرَّب إلى صدر جهان وأصبح مستشاراً له وعرض عليه اقتراحاً بتداول العملة الورقية المعروفة في الصين في كل أنحاء الدولة الإيلخانية بدلاً من الذهب والفضة، مما يساعد على القضاء على الأزمة المالية في البلاد. ولقي اقتراح عز الدين ترحيباً كبيراً لدى كل من صدر جهان وكيخاتو. وعلى الرغم من معارضة سنجتور نويان، قرر صدر جهان بعد التشاور مع پولاد تشينج سانج سفير القاآن إعداد العملة الورقية وتداولها بدلاً من المسكوكات الذهبية

والفضية، وصدر مرسوم إيلخاني في جمادى الأخرى ٦٩٣هـ بوقف التعامل بالذهب والفضة ومنع نسج الأقمشة بخيوط الذهب إلا فيما يختص بالإيلخان والأمراء، ومنع صنع الأواني من الذهب والفضة ووقف كل ما من شأنه استهلاك الذهب والفضة. وكُتبت الرسائل إلى أمراء الولايات لإعداد العملات الورقية ونشر التعامل بها، وأنشئت في كل مدينة إدارة وجهاز حكومي يُسمى چاوخانه لهذا الغرض. ففي تبريز، انشغل كل من الأمير طغاجار وآق بوغا وصدر جهان بإعداد العملات الورقية وتم إجبار الناس قسراً على التعامل بها.

كانت العملة الورقية في البداية تسمى « چاو مبارك »، وكانت عبارة عن قطعة مستطيلة من الورق دونت على حوافها كلمات بالخط الخطائي والشهادتين على طرفيها من أعلى؛ وتحت الشهادتين كتبت كلمتا « ايرنجين تورجي » وهو اللقب المغولي لكيخاتو؛ وفي وسطها رسمت دائرة. وتراوحت قيمتها بين نصف درهم وعشرة دنانير. وقد كتبت عليها العبارة التالية:

« بأمر من ملك العالم في سنة ٦٩٣هـ تم تداول هذه العملة الورقية المباركة في البلاد.
ومن يغير فيها أو يبدل يقع تحت طائلة الياسا هو وامرأته وأولاده
ومصادرة أمواله لصالح الديوان »

« وجئ بالعملة الورقية إلى شيراز. وكانت خلاصة ما قيل إن العملة الورقية المباركة ستؤدي إلى القضاء على الفقر والضر والمسكنة بين الناس وإلى رخص أسعار الغلال والحبوب وإلى المساواة بين الغني والفقير. وأعمل الشعراء قريحتهم في امتداحها لإرضاء الملك وصاحب الديوان. ومن الأبيات التي نظمت في هذا الصدد قول شاعر: إذا راجت العملة الورقية في الدنيا لخلد أزهار الملك فيها. وتخلى أرباب الحرف عن الذهب والفضة في صناعاتهم وتم تعويضهم من جانب إدارة العملات الورقية (چاوخانه) بصرف رواتب لهم. وإذا تقادمت العملة الورقية يتم تقديمها إلى هذه الإدارة، وفي مقابل كل عشرة دنانير يتم تحصيل تسعة دنانير جديدة. وتقرر أن يقوم التجار في ملك فارس والمسافرون في البلاد بتقديم ما لديهم من ذهب إلى الخزانة والحصول بدلاً منه على عملات ورقية مع الحفاظ على حق الاختيار واشتراط السماح لهم بحمل الذهب بموافقة النواب والنظار » (تاريخ وصاف، ص٢٧٣)

وفي شوال ٦٩٣هـ[٤] تم تداول العملات الورقية لأول مرة في تبريز. وواجه تداولها مشكلات كبرى منذ البداية، فقد امتنع الناس عن قبولها. ولكن نظراً لإجبارهم على قبولها فقد هاجر بعض الناس من المدينة وأغلق التجار حوانيتهم حتى لا يفقدوا بضائعهم في مقابل العملات الورقية التي كانت تعد بلا قيمة. فتعطلت التجارة وبدأ الأهالي في التذمر وأخذوا يلعنون من وضعها وكادوا يقتلون عز الدين مظفر الذي ابتدعها. وحدث الشئ نفسه في شيراز أيضاً حيث جأر الأهالي بالشكوى. فأشار الأمراء وصدر جهان على كيخاتو بأن الأوضاع لو استمرت على ذلك قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ويتحول تذمر الناس إلى ثورة عامة. فأصدر كيخاتو مرسوماً إيلخانياً بإلغاء العملة الورقية، فاستراح الناس وأطلقوا على العملة الورقية التي تسببت في هذه الكارثة وتركت أسوأ ذكرى في نفوسهم «العملة الورقية غير المباركة» وأطلقوا على صدر جهان لقب چاويان.

«في يوم الجمعة ٢٧ شعبان، ذهب كل من أق بوغا وطغاجار وصدر الدين وتماجي إيناق إلى تبريز لطبع العملة الورقية، ووصلوا في ١٩ رمضان وأعلنوا مرسوماً ملكياً وطبعوا الكثير من العملات الورقية. وفي يوم السبت ١٩ شوال ٦٩٣هـ ظهرت هذه العملات في تبريز وتم تداولها. وتقرر معاقبة كل من لا يقبلها. فقبلها الناس لمدة أسبوع خوفاً من العقاب. فاضطر معظم أهالي تبريز للهجرة وأخذوا الأغذية والأقمشة من السوق فلم يعد هناك شيء. وكان الأهالي يلجؤون إلى البساتين لتناول الفاكهة، وخلت المدينة المزدحمة من الناس تماماً. وكان الرعاع يجردون كل من يجدونه في الحارات من ملابسه، وانقطعت القوافل وأخذ الأوباش يتربصون بالأهالي في الليل على نواصي الحارات؛ فإن وجدوا مسكيناً حصل لداره بالحيلة على بعض الغلة أو قفصاً من الفاكهة أخذوه منه، وإن امتنع قالوا خذ العملة الورقية ثمناً له ودلنا من أين اشتريته. وضاق الناس ذرعاً بهذا الأمر ورفع الفقراء أكفَّهم بالدعاء. وحدث أن كان كيخاتو يمر بالأسواق فرأى الحوانيت خاوية. فسأل عن سبب ذلك فأجابه صدر جهان بأن شرف الدين لاكوشي مقدم السوق رحل. وكانت عادة أهل تبريز أن يخلوا الأسواق لعزاء علية القوم. ونشبت ثورة هائلة في الجامع على قطب الدين (أي قطب جهان شقيق صدر جهان) حتى حصل الناس على إذن ببيع الأطعمة بالذهب في الخفاء. وقُتل عدد من الناس لذلك وتوقفت التعاملات تماماً. وذات يوم أمسك أحد

الدراويش بخناق صدر الدين في السوق وقال له: رائحة أكباد الناس المحترقة زكمت أنوف الدنيا، فأنعم بأنفك. فتأثر صدر الدين بهذا الكلام وأصدر مرسوماً بالتعامل بالذهب. فتشجع الناس وبدؤوا في التعامل علناً بالذهب، وبذلك عاد الأهالي إلى المدينة وعاد إليها العمران من جديد. ولم تصل العملة الورقية إلى نتيجة حيث تركها الناس وتخلصوا من متاعبها» (جامع التواريخ لرشيدي)

مقتل كيخاتو (٦٩٤هـ):

كان كيخاتو بالإضافة إلى ضعف إرادته وإسرافه سكيراً وعابثاً. وقد أدخل الرعب في قلوب الكل نتيجة لانتهاك مسؤوليه لحرمات الناس في مدة ولايته القصيرة. كما ضاق الأمراء ذرعاً بظلمه وتجاوزاته، ومن بين هؤلاء الأمراء كان بايدو أغول بن طوغان وحفيد هولاكو الذي تولى حكم بغداد والعراق يتطلع أكثر من غيره إلى زوال دولة كيخاتو وتولي منصبه، وكان عدد من الأمراء يشجعه على ذلك. ففي أحد مجالس اللهو في آلاتاغ وفي أواخر عهده ثار كيخاتو وهو في حالة سكر ثورة عارمة على بايدو وسبه. وفي الصباح ندم كيخاتو وشرع في استرضائه. فتظاهر بايدو بالرضا وعزم على الذهاب إلى بغداد؛ أما في الحقيقة فقد اتفق مع الأمراء على القضاء على كيخاتو في السنة التالية حين يأتي من مقر حكمه إلى المعسكر. وعلم كيخاتو بهذه المؤامرة وأمر باعتقال معظم الأمراء الضالعين فيها. وحثه بعض خواصه بقتلهم، ولكنه لم يفعل ووافق على رأي طغاجار الذي كان متواطئاً في الخفاء مع هذه الجماعة بحبس المتآمرين واستدعاء بايدو. وقام الأمير طغاجار الذي تم تكليفه بالمحافظة على الأمراء المتآمرين بإرسال رسول إلى بايدو في الخفاء ومعه رسالة يحثه فيها على الزحف بجيشه إلى المعسكر بغرض الحرب حتى يسارع بالانضمام إليه مع سائر الأمراء المقيدين بعد فراغه من أمر كيخاتو.

وبعد وصول نبأ تحرك جيش بايدو، قام كيخاتو وصدر جهان بعد الاقتراض من هذا وذاك بتجهيز جيش طليعته خمسة آلاف جندي ويسلك طريق همدان، وأرسل عشرين ألف جندي آخرين في أعقابهم بقيادة آقبوغا وطغاجار. وخرج الإيلخان نفسه من آلاتاغ إلى تبريز في الثالث

من جمادى الأولى ٦٩٤هـ. ونشب القتال بين طليعة جيش الإيلخان وقوات بايدو وقتلت عدداً منهم وتوقفوا في انتظار وصول الإمدادات. فرفع جنود طغاجار راية العصيان بدعوة منه واعتبر طغاجار نفسه مدافعاً عن بايدو وخرج على طاعة آقبوغا. فاتخذ جنود آقبوغا جانبه وفر آقبوغا وعدد من جنوده إلى الإيلخان. وعندما ذاع النبأ تفرّق الجنود من حول كيخاتو وتم إطلاق سراح الأمراء المسجونين بأمر من طغاجار، ولاذ كيخاتو بالفرار إلى موغان حيث أمسك به الأمراء المتمردون وقتلوه في يوم الخميس السادس من جمادى الأولى ٦٩٤هـ.

ولاية بايدو خان (جمادى الأولى ٦٩٤- ذو القعدة ٦٩٤هـ):

بعد مقتل كيخاتو خان، أعلن الأمير طغاجار وسائر الأمراء تأييدهم لبايدو لتولي منصب الإيلخان، وتم تتويجه مكان كيخاتو في جمادى الأولى ٦٩٤هـ بالقرب من همدان. وبعد قتل جمع من خواص كيخاتو وانتهاء احتفالات التتويج، أرسل بايدو بعض المراسيم مع الرسل إلى أطراف الدولة يقول فيها «إن كيخاتو كان لاهياً عن شؤون الدولة دون اعتبار للياسا الجنكيزية، فاقصيناه بالاتفاق مع آقا وايني والخوانين والأمراء وقررنا إعادة الخيرات التي أقرها أجدادنا إلى مستحقيها وإعفاء الأوقاف الإسلامية من الضرائب». ثم عين الأمير طغاجار أميراً للأمراء ومسؤولاً عن شؤون الجيش، ونصب جمال الدين دستجرداني وزيراً له. ثم سلّم بايدو حكم كل من الممالك وإدارتها لأحد الأمراء كما كان الحال في عهد آباقا. فسلم بلاد الروم لطغاجار، وعين خوجة صدر الدين أحمد الزنجاني أو صدر جهان نائباً له.

تمرد غازان:

في أثناء تتويج كيخاتو في سنة ٦٩٠هـ، هُزم غازان على يد الأمير نوروز، وكان يقيم في سمنان. وحين بلغه نبأ وفاة أرغون وتتويج كيخاتو، ذهب إلى دماوند وأرسل أحد أمرائه إلى كيخاتو لإطلاع الإيلخان الجديد على تدهور الأوضاع في خراسان ويطلب منه العون. فأرسل كيخاتو الأمير أنبارجي وعدد آخر من الأمراء لمساعدة غازان. واستقرت الأوضاع في خراسان نتيجة

لمجيئهم.

وفي سنة ٦٩٢هـ، عزم غازان على الذهاب إلى أذربيجان للقاء كيخاتو وإبلاغه بأوضاع خراسان. ولكن نظراً لأن كيخاتو وجد أن قدومه إلى المعسكر في غير صالحه، فقد أرسل عدداً من الأمراء لمنعه. فأعادوا غازان إلى خراسان. وفي سنة ٦٩٣هـ كما رأينا أنزل غازان الهزيمة بالأمير نوروز. وبعد قليل جاء نوروز إلى غازان وأصبح من خواصه من جديد.

وبعد وصول نبأ مقتل كيخاتو وتتويج بايدو مكانه، تظاهر غازان بعدم الاهتمام بالأمر؛ وعين الأمير نوروز حاكماً لخراسان وخرج للصيد. وفي تلك الأثناء، لجأ إليه عدد من جنود كيخاتو المقيمين في مازندران. وبعد التشاور مع الأمير نوروز، أرسل رسالة إلى بايدو بعزمه على زيارته. وخرج غازان من خراسان متجهاً إلى دامغان. لذا فإنه لم يكن معه أكثر من ستة آلاف رجل؛ إلا أن الأمير نوروز أوعز إليه بأن أمراء بايدو يخشون بأسه ولذلك فقد رفعوا بايدو الضعيف إلى الإيلخانية حتى يتسنى لهم إدارة شؤون الدولة على هواهم، وأشار عليه بإرسال مبعوثين إلى بايدو بطلب لقائه لإبلاغه بحسن نواياه وتذكيره بأن قتل أمراء الأسرة الملكية بيد الغير يستوجب العقاب طبقاً للياسا الجنكيزية، وأنه ينبغي على بايدو أن يلقي القبض على قتلة كيخاتو ومعاقبتهم جزاء لما اقترفوا من إثم.

والتقى رسل غازان بالمبعوثين الذين أوفدهم بايدو إليه لإبلاغه بأن بايدو لا يرغب في الإيلخانية ولكن نظراً لغياب غازان بعد مصرع كيخاتو فقد أجمع الأمراء والخوانين على توليته العرش للحيلولة دون وقوع الفوضى في البلاد؛ وبالتالي فمصلحة غازان تقتضي ألا ينهك جيشه دون فائدة وأن يعود إلى خراسان. فصمم غازان على العودة بالعدد القليل ممن كانوا معه، إلا أن الأمير نوروز منعه من ذلك قائلاً إن الموت قدر مقدور ومن الأفضل للمرء أن يبيع روحه فداء للمجد والشرف. ونتيجة لتشجيع الأمير نوروز تجاسر غازان وقسّم جنوده الستة آلاف بين قواده ووعد كلاً منهم بتوليته حكم إحدى الولايات إذا ثبتوا وانتصروا، ثم زحف بكل جرأة إلى أذربيجان.

سمع بايدو بنبأ زحف غازان للقتال في هشترود بأذربيجان فلم يجد بداً من إرسال طغاجار وغيره من الأمراء على رأس جيش لصده. والتقى الجمعان في يوم الخميس الخامس من رجب

٦٩٤هـ على أطراف قربان شيره بالقرب من نهر قرية شيرجيران.(٥) ولما قرأ بايدو آثار الهزيمة على جباه قادة جيشه أرسل إلى غازان رسالة يطلب فيها الصلح حتى لا تقع مذبحة بين أفراد الأسر الواحدة. فوافق غازان على هذا العرض وتقرر عقد لقاء بينهما دون وساطة من أحد وعرض كل طرف لمطالبه بصورة مباشرة. وأسرع كل من بايدو وغازان كل وسط جمع من قواده وجنوده للقاء في الساعة المحددة، وتعانقا واتفقا على الا يقدم أي منهما على حشد الجيش ضد الآخر. وتبادلا الأنخاب وأذابا قدراً من الذهب في الشراب على عادة المغول، وشرب الجميع عدا الأمير نوروز الذي اعتذر عن عدم الشرب بسبب عقيدته الإسلامية. وتقرر في هذا اللقاء أن يترك بايدو لغازان كرمان والعراق وإقليم فارس التي كانت تقع في نطاق حكمه منذ عهد أرغون خان، وأن يرسل الموظفون عوائد أملاك تلك الأقاليم إلى غازان، وأن يتم تتويج بايدو مرة أخرى في اليوم التالي وإعلان زوال الغمة على الملأ في احتفال ضخم.

على الرغم من هذا الاتفاق، فإن أياً من جنود الطرفين وأمرائهم لم يشعر بارتياح وأخذ كل طرف يتربص بالآخر للخروج من هذا الموقف المائع. وبينما كان كل من غازان وبايدو منهمكين في توزيع الممالك بينهما، وصلت جماعة من القوات التي تعسكر في بغداد وموغان لمساندة بايدو، ورأى أمراؤه الفرصة مهياة للهجوم على غازان ورفاقه، وحرضوا بايدو على ذلك، ولكنه لم يوافق على هذا الغدر. أما غازان فتملكه الخوف من كثرة عدد قوات بايدو، فقرر العودة إلى خراسان ليلاً. ودعاه بايدو للنزول ضيفاً عليه مرة أخرى فتعلل ببعض الحجج واتخذ طريقه إلى زنجان ليلاً عن طريق وادي قزل أوزن تاركاً الأمير نوروز وعدد من أمرائه في مخيم بايدو للحصول على مرسوم حكومتي العراق وفارس. وأرسل في الطريق رسولاً إلى بايدو برسالة يقول فيها إن أمراء الإيلخان بدأوا بالعصيان وكان عليه أن يعود دون إذن من بايدو، وإنه يود أن يظل طريق السلم مفتوحاً دائماً بينهما، وعلى الإيلخان أن يفي بوعده ويرسل مرسوم حكومة الولايات المذكورة مع الأمير نوروز. فأمر بايدو في رده عليه بإرسال عائد أملاك إقليم فارس إلى خزانته، ولكنه لم يأذن للأمير نوروز وسائر أمراء غازان بالعودة وذهب معهم إلى ولاية شَرّوياز (سلطانية حالياً) حيث أودعهم السجن. ولكنه لم يتمكن لا بالوعد ولا بالوعيد من تأليبهم على غازان؛ بل إن الأمير نوروز وسائر أمراء

غازان تمكنوا من استمالة طغاجار بعد أن ثبت لهم ضعف ولائه لمخدوميه وتواطؤوا معه على تقويض دعائم دولة بايدو والانضمام إلى غازان تمهيداً لتوليته عرش المملكة. فوافق طغاجار على ذلك فوراً. وأقسم الأمير نوروز لبايدو بأن يحضر له غازان مقيداً لو سمح له بالعودة. فوافق بايدو وبذلك تمكن الأمير نوروز من النجاة وأسرع إلى غازان وقص عليه الواقعة وأبلغه بما اتفق عليه مع طغاجار.

اعتناق غازان للإسلام:

نشأ غازان في كنف الأمير نوروز بن أرغون آقا؛ وقد أبدى ميلاً إلى الإسلام نتيجة لتشجيع هذا الأمير له على ذلك، خاصة أن غازان كان يريد أن يتفوق على بايدو والأمراء الأقوياء وأن يكتسب الكثير من الأعوان لهذا الغرض. وأوعز إليه الأمير نوروز بأن كل المسلمين سيتخذون جانبه وتزداد قوته لو اعتنق الإسلام.

وفي المجلس الذي عقده غازان، قال الأمير نوروز إن المنجمين والعلماء وأهل الزهد والورع يتنبؤون بأن سلطاناً سيظهر في سنة ٦٩٠هـ ويسترد الإسلام في كنفه ما كان له من مجد في سالف الأيام وتنعم الرعية في ظله بالأمن والرخاء وتدوم دولته مع الأيام. فإذا قبل غازان الإسلام فإنه يستقر على عرش إيران ويتخلص المسلمون في ظل دولته مما حاق بهم من هوان فيستريحون من التبعية للكفار التتار ويُنعِمُ الله على جنوده بالنصر والظفر جزاء ما قدَّم من خير.

ولقيت هذه العبارات قبولاً في نفس غازان، ولما كان قد وعد الأمير نوروز من قبل باعتناق الإسلام فقد قرر الوفاء بوعده. وفي الرابع من شعبان ٦٩٤هـ في لار بدماوند اغتسل وارتدى حلة جديدة وأعلن إسلامه بين يدي الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن العارف المعروف الشيخ سعد الدين محمد بن حموية الجويني والذي كان زوجاً لإحدي بنات عطا ملك الجويني، وتبعه في إسلامه ما يقرب من مئة ألف من المغول، وأصبح غازان منذ ذلك الحين يعرف بمحمود.

وفي غمرة فرحته باعتناقه الإسلام، أغدق محمود غازان الذي كان يدين من قبل بالبوذية الكثير من المال على العلماء والأئمة والشيوخ والأشراف وذهب لزيارة المساجد والأماكن المقدسة، وأوفد

الرسل لإعلان إسلامه إلى خراسان والعراق، وظل يستقبل العلماء والأشراف في مخيمه ويتناول الطعام معهم، وبدأ في صوم رمضان وبذل كل جهد لتطبيق شرائع الدين الحنيف.

ومع أن اعتناق غازان للإسلام كان لمصلحة في بادئ الأمر وتنفيذاً لسياسة مرسومة، فقد عاد إسلامه بفائدة كبرى ألا وهي إعادة العمال الكفاة من رجال المسلمين إلى وظائفهم بعد أن تم إقصاؤهم منذ انقضاء عهد السلطان أحمد وزوال دولة أسرة الجويني وتسلط المتعصبين من التتار والنصارى واليهود على زمام الدولة، وانتهى التنافس بين العنصر المسلم والفارسي من ناحية والتتار والنصارى من ناحية أخرى والذي شهد تحولات كثيرة منذ عهد هولاكو بانتصار سياسة العنصر المسلم والفارسي؛ ولم يتوقف الأمر عند اعتناق إيلخانات إيران للإسلام وحسب، بل إنهم ازداد ميلهم إلى التشيع وهو مذهب معظم الفرس، منذ عهد خليفة غازان كما سنرى فيما بعد، وبدؤوا في نشر العادات الإسلامية.

مقتل بايدو خان (٦٩٤هـ):

في أواخر سنة ٦٩٤هـ، علم غازان بأن مسؤولي إقليم فارس امتنعوا عن أداء عوائد تلك المملكة لمبعوثيه على الرغم من أوامر بايدو في هذا الصدد. وكانت هذه الواقعة سبباً في إثارة غضب غازان وزادت من إصراره على مهاجمة أذربيجان. ولما كان يعلم بفساد أمر بايدو ومعارضة الأمراء له في الخفاء فقد زاد إصراره على ذلك.

غضب صدر الدين الزنجاني من بايدو لعزله من الوزارة وتعيين جمال الدين دستجرداني بدلاً منه وإرساله إلى بلاد الروم نائباً لطغاجار، وعزم على الانتقام من بايدو. وعندما أدرك اختلال أحوال الإيلخان وعلم بميل طغاجار لغازان، تحالف مع طغاجار في مساعدته لغازان وأرسل في الخفاء رسالة إلى غازان يقول له فيها إنه لو تحرك صوب أذربيجان فإن أغلب الأمراء الأقوياء سيساندونه في القضاء على بايدو؛ وفي ٧ شوال ٦٩٤هـ، انضم إلى جيش غازان في جيلان. وبعد أن وعده غازان بالوزارة، اصطحب الأمير نوروز وعدداً من جنوده كطليعة للجيش الغازاني وتحرك نحو أذربيجان في يوم الجمعة ١٥ شوال، ولحق بهم غازان.

وبوصول الأمير نوروز، بدأ طغاجار وسائر أمراء بايدو ممن كانوا يؤيدون غازان في التخلي عن الإيلخان. وحين علم بايدو بما حدث، اتخذ طريقه على ضفاف نهر قزل أوزن وهو مكان مخيمه واتجه إلى أوجان ومرند وفر منها إلى كرجستان؛ إلا أن الأمير نوروز أسرع وراءه وألقى القبض عليه بالقرب من نخجوان وأرسله إلى غازان الذي كان في تلك الأيام في أوجان، فقتله غازان في ٢٣ ذي القعدة ٦٩٤هـ.

امتدت فترة ولاية بايدو ثمانية أشهر. ومع أنه كان ميالاً للهو والفجور ككيخاتو، فإنه لم يتمكن من إدارة دفة الأمور بسبب ضعفه ونفوذ الأمراء الخونة. وكان بايدو يدين بالمسيحية وسعى لإحياء تعاليمها؛ ولكنه لم يكن يعادي الإسلام؛ ولكي يستميل قلوب المسلمين، كان يوفد ابنه لأداء الصلاة معهم.

الهوامش :

١- ورد أن عوائد أملاكه كانت عشرة آلاف دينار يومياً (تاريخ گزيده، ص٥٨٤).

٢- أبلستان (البستان) تقع إلى الشرق من قيسارية بين جبل توروس وأعالي نهر جيحان.

٣ -كان خوجة شرف الدين هارون ابن صاحب الديوان شاعراً ومن رعاة أهل العلم والأدب. وقد تزوج ابنة أبي العباس أحمد بن المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وتم تعيينه لحكومة العراق بعد عطا ملك، وكان نائباً للأمير آروق شقيق بوغا في هذا المنصب في عهد أرغون. وقد دفع هارون الأمير آروق إلى قتل خوجة سعد الدين مستوفي القزويني شقيق خوجة فخر الدين محمد. وحين أفل نجم صاحب الديوان، اتهمه خوجة فخر الدين عند آروق بقتل شقيقه انتقاماً. فقتله آروق بتحريض من خوجة فخر الدين مستوفي ومجد الدين بن الأثير في جمادى الأخرى ٦٨٥هـ.

٤- في شهر ذي القعدة كما ورد في تاريخ وصاف.

٥ - إلى الغرب من منبع نهر قزل أوزن داخل ولاية مراغة.

الفصل السابع
إيلخانات إيران

ظل الإسلام هو الدين الرسمي لإيران منذ جلوس غازان وحتى زوال دولة الإيلخانات فيها، وقامت حكومة الإيلخانات على أساس الشريعة الإسلامية وزالت الطاعة التي ظل إيلخانات إيران يبدونها لقاآن خانباليغ حتى ذلك الوقت وبدأت الصلة بين خانباليغ والبلاط الإيلخاني في الانقطاع.

قام غازان ببناء العديد من المنشآت الخيرية في نطاق عاصمته من مساجد ورباطات ومدارس؛ وكان يولي للمنتسبين إلى آل البيت وأهل العلم احتراماً بالغاً لدرجة أن الموظفين الديوانيين في عصره كانوا يقدّمون أسماء الأشراف على اسم الإيلخان والأمراء في بعض المراسيم الحكومية، وجعلوا العمامة ضمن الزي الرسمي للبلاط. وظلت هذه التقاليد مرعية من قبل خلفائه، وهي إحدى النقاط التي تميِّز الحكم والحضارة في أواخر عصر الإيلخانات منذ عهد غازان خان عن عهد حكم الإيلخانات السابقين عليه.

ولاية السلطان محمود غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ):

دخل غازان تبريز في العاشر من ذي الحجة ٦٩٤هـ، وكان في استقباله صدر الدين الزنجاني الذي كان قد اكتسب نفوذاً غير عادي في تلك الفترة، وخرج وراءه العديد من أشراف المدينة وعلمائها وأئمتها. وفي آخر أيام سنة ٦٩٤هـ أي في يوم عيد النوروز، جلس غازان على عرش الإيلخانية في تلك المدينة وورث عرش هولاكو ومملكته.

كان أول مرسوم يصدره غازان في يوم جلوسه عن ضرورة اعتناق المغول للدين الإسلامي وتطبيق الشرائع الدينية ونشر العدل وكف أيدي الأمراء والأعيان عن ظلم الرعية. وأمر غازان بتخريب الكنائس ومعابد اليهود والبوذيين والزردشت في كل أنحاء الدولة؛ وفي تبريز تم تحطيم أوثان الكفار والمشركين ونشر حطامها في الحارات وتم تحويل الكنائس إلى مساجد.

لم يكن المسيحيون يستطيعون الظهور في الكنائس في تلك الفترة إلا وهم يرتدون الزنار أو يضعون شارة على ملابسهم. وكان اليهود أيضاً يضعون على رؤوسهم قلنسوة خاصة تميزهم عن المسلمين. وكان المسلمون قد تعرضوا لإهانات بالغة من النصارى في بغداد وتبريز، فتبدَّلَ الحال وألحقوا بهم الكثير من الويلات، خاصة في بغداد التي كان تعداد النصارى فيها أكبر؛ فلم يكن أحد من أفراد تلك الطائفة تواتيه الجرأة على الخروج من داره بل كانت نساؤهم بملابسهن التي لا يميِّزها شيء عن ملابس نساء المسلمين هن اللائي يخرجن للأسواق؛ وإذا تعرف أحد عليهن كن يتعرضن للسباب والأذى. وكان هذا هو حال اليهود والمغول البوذيين أيضاً، خاصة المغول الذين كانوا يشغلون مناصب مهمة في عهود الإيلخانات السابقين، فقد سخطوا بشدة على هذه الإهانات، فاضطروا للتظاهر باعتناق الإسلام ولكنهم ظلوا في باطنهم على دين آبائهم نفسه.

وبعد فترة، أرسل غازان مبعوثيه بمرسوم آخر إلى الأقاليم يأمر فيه ولاتها بتخريب الكنائس والصوامع. وكان هذا التصريح بمثابة فرصة اغتنمتها جماعة من المغرضين لتحصيل إتاوات من غير المسلمين وتخريب معابدهم ونهب ممتلكاتهم، خاصة في أربيل والموصل وبغداد ومراغة ومدن أرمينيا. وكان نصيب النصارى من الأذى كبيراً.

وبعد أن قضى غازان فترة قصيرة في تبريز، ذهب إلى قراباغ (أران) حيث عقد مجلساً حصل فيه على مبايعة من أمراء المغول وخوانينهم لملكه وتم تتويجه مرة أخرى واتخذ لقب سلطان وأقام احتفالاً ضخماً لذلك على عادة المغول. ثم طلب من الأمير نوروز أن يتمنى عليه شيئاً. فجثا نوروز على الأرض والتمس من السلطان كتابة الشهادتين على التمغة التي كانت مربعة الشكل حتى ذلك الوقت ثم تحولت إلى الشكل المستدير. فوافق غازان وتقرر استهلال المراسيم والمراسلات بعبارة: بسم الله الرحمن الرحيم. وروعي ذلك أيضاً في المسكوكات التي ضربت باسم السلطان محمود غازان؛ ونقشت عليها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة اقتداء بالخلفاء العباسيين.

وفي هذا المجلس المغولي نفسه، عيَّن غازان خان صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني وزيراً له أي صاحباً للديوان؛ وعين شرف الدين سمناني في منصب رئاسة ديوان التمغة، والأمير نوروز أميراً للأمراء. وبعد قليل أرسل طغاجار نويان قائداً للجيش المقيم ببلاد الروم بغرض إبعاده عن الجيش

والحيلولة دون تدخله. ثم أرسل وراءه من يقتله. ثم شرع في تأديب معارضيه، ومنهم الافَرَنج أكبر أبناء كيخاتو الذي اعتقله ثم عفا عنه وتوكان بن بايدو الذي ازداد نفوذه في كرجستان فقضى عليه، وقتل هو والأمراء الذين سعوا لقتل كيخاتو.

وفي صفر ٦٩٥هـ، تردد أن مغول ما وراء النهر الذين كانوا آنذاك تحت إمرة أوجاي بن براق خان قد استغلوا ثورات خراسان وعدم وجود قوات هناك، فأغاروا على المنطقة بعد عبور نهر جيحون ووصلوا بغاراتهم حتى مازندران. فأمر غازان الجيش بالتوجه من كل المناطق إلى الأقاليم الشرقية، وعين الأمير نوروز قائداً لهم. ولكن نظراً لتغير عرش الإيلخانية ثلاث مرات في أقل من سنة واحدة وحصول الجنود على الكثير من أموال الناس لم يكن بالخزانة ما يكفي لدفع رواتب الجيش الجديد. فتمكن الأمير نوروز من اقتراض عدة تومانات من الذهب من هنا وهناك في تبريز وخرج لقتال جنود أوجاي.

فر المغول التورانيون أمام جنود الأمير نوروز الذي لحق بهم بالقرب من هرات حيث قتل عدداً منهم وتعقب فلول جيشهم حتى ضفاف جيحون. وبعد أن خلّص خراسان من اعتداءاتهم، قام بتعيين نائب في كل منطقة وعاد إلى غازان منتصراً.

وبعد عودة الأمير نوروز من خراسان، قام بعزل صدر الدين الزنجاني من الوزارة بتهمة الاستيلاء على الأموال الديوانية دون إذن وإصدار مراسيم من قبله، وعين جمال الدين دستجرداني مكانه، وأسند إدارة شؤون الديوان وإمدادات الجيش لأخيه حاجي بيك، وترك التصديق على المراسيم وتوقيعها لأخيه الآخر ناصر الدين ساتلمش. وأحكم بذلك قبضته على زمام المناصب المهمة بالجيش والدولة.

تمرد بعض أمراء غازان:

نظراً لعدم انتظام الأمور في خراسان في غياب الأمير نوروز، فقد أمر غازان الأمير نوروز بالذهاب إلى هناك ومعه عدد من الأمراء. وكان من بين مرافقيه الأمير سوكاي بن يشموت وحفيد هولاكو الذي تحالف مع اثنين من قواد الجيش هما برلا وأرسلان أوغول (حفيد جوجي بن جنكيز).

وقررت هذه الجماعة الساخطة على اعتناق الأمير نوروز وغازان للإسلام القضاء على دولة غازان ونوروز وتجديد المعابد البوذية وإضعاف المسلمين.

أراد أمراء سوكاي وبرلا الذين اتجهوا إلى خراسان في طليعة جيش الأمير نوروز أن يقطعوا الطريق على نوروز ويقتلوه. وقبل الإقدام على ذلك، أوفدوا رسولاً إلى الأمير طايجو بن منجو تيمور يدعونه للانضمام إليهم. فتظاهر طايجو بالموافقة وأسرع إلى الأمير نوروز وأخبره بمؤامرة سوكاي وبرلا. وكانت خطة الأمراء المتمردين تتلخص في قيام سوكاي وبرلا بقتل الأمير نوروز في خراسان.

وبعد أن علم الأمير نوروز بالمؤامرة، غادر خيمته ليلاً وتربص في كمين. وبعد أن أطبق المتآمرون على خيمته، خرج من مكمنه وهجم عليهم فقتل برلا ولاذ سوكاي بالفرار، ولكنه سرعان ما وقع في يد هرقُداق أحد قواد غازان وقُتل. وحلت الهزيمة بأرسلان ورفاقه الذين كانوا قد حشدوا جيشاً ضد غازان. وألقى غازان والأمير نوروز القبض على كل المتمردين وقتلاهم ونفوا خمسة أمراء وسبعة وثلاثين من أعوانهم من البلاد في غضون شهر واحد. وبذلك خمدت هذه الثورة المعادية للإسلام.

وفي أثناء تمرد أمراء غازان، وجَّه بعض خصوم صدر جهان الاتهام إليه بالتواطؤ مع المتمردين وشهد عدد من مسؤولي الديوان بذلك؛ وصدر الحكم باعتقاله وقتله بعد تعذيبه بدون محاكمة. وتم تكليف شخصين بتقييده وأخذه إلى إحدى الغابات وقتله. وتصادف أن كان صدر جهان قد أكرم هذين الشخصين؛ فأبقوا عليه في الغابة حتى جن الليل ولم يبادروا بقتله. وفي هذه الأثناء، كان الأمير هرقداق قد فرغ من أمر سوكاي وعاد إلى المخيم وسأل عن صدر جهان، فرووا له ما حدث. فأرسل فارسين على الفور وأمر بتأجيل قتله إلى الصباح. وفي الصباح، عرضت على غازان قائمة بأسماء المتمردين ولم يكن اسم صدر جهان بينهم. وسرعان ما صدر العفو عنه من قبل غازان وتقرر أن يقيم بالقرب من المخيم.

بعد حسم الأمير هرقداق لمسألة سوكاي، عينه غازان في حكومة فارس؛ ودخلها في ٧ جمادى الأخرى ٦٩٥هـ وشرع في إصلاح أوجه الخلل وجمع الضرائب. وفي السادس من ذي الحجة، أمر

غازان بقتل خواجه جمال الدين دستجرداني صاحب الديوان، وفي أول محرم ٦٩٦هـ، قرر إعادة أحمد الزنجاني صدر جهان إلى منصب صاحب الديوان. وكان قتل جمال الدين وإعادة صدر جهان إلى منصبه ضد رغبة الأمير نوروز ونذيراً بزوال دولته وعزم الإيلخان على التخلص منه ومن أعوانه في الديوان.

قتل الأمير نوروز (٢٢ ذو القعدة ٦٩٦هـ):

بعد أن تولى صدر جهان الوزارة مرة أخرى، شرع في الانتقام لنفسه من الأمير نوروز الذي سبق أن سعى لعزله. فتآمر مع خصومه وبدؤوا في العمل على تقويض دعائم دولة الأمير نوروز بشتى السبل. وكان الأمير نوروز قبل اعتناق غازان للإسلام قد سعى لرفع هذا الأمير الذي كان في حمايته إلى منصب الإيلخانية وحمله على اعتناق الإسلام. وكلف تاجراً من بغداد يدعى عالم الدين قيصر كان دائم التردد على بغداد والشام ومصر بمأمورية لدى سلطان مصر يدعوه للتحالف معه في الدفاع عن غازان. وتزامنت عودة عالم الدين قيصر من هذه المأمورية مع مقتل بايدو وجلوس غازان. ولما جاء رد سلطان مصر على غير هوى الأمير نوروز، فقد أحجم نوروز عن عرضه على غازان، وأجبر جمال الدين دستجرداني على تزوير رد باسم سلطان مصر وعرضه على غازان.

حين علم خصوم الأمير نوروز بإجهاض مأمورية قيصر، اتهموه بإقامة علاقات سرية مع سلطان مصر. وحين كان نوروز في خراسان، أوفد غازان شخصاً كان يقيم في المخيم كممثل للأمير نوروز إلى بغداد ودعا عالم الدين قيصر إلى مجلس للشراب، واعتقله هو ورفاقه وقيدهم وهم سكارى.

وراسل صدر جهان وشقيقه قطب جهان سلطان مصر على لسان الأمير نوروز وأخيه حاجي بيك بما يفيد بأنه على الرغم من اعتناق غازان للإسلام فإن أمراءه لم ينالوا هذا الشرف بعد، وأن الفرصة مواتية لكي يشن السلطان حملة على إيران لاجتثاث جذور الكفر وأن الأمير نوروز وأخويه حاجي بيك ولكزي مستعدان لمساعدة الجيش المصري. وقاما بدس تلك المراسلات المزورة مع سبعين ثوباً هدية ضمن متاع عالم الدين قيصر في أثناء سكره. وحين تم اعتقال قيصر ورفاقه، تم العثور على هذه الأشياء وقامت ضجة كبرى حول ذلك.

كان تكشف خيوط هذه المؤامرة سبباً في إثارة غضب غازان خان الذي أسرع بالعودة من همذان إلى شهروان وبذل جهداً كبيراً لتقصي أحوال عالم الدين قيصر حتى إنه قطع ثلاثين فرسخاً في يوم واحد. وفي ٢١ جمادى الأولى ٦٩٦هـ، وصل إلى شهروان وجاءوا إليه بقيصر وفتشوا متاعه، وقالوا إن إحدى الرسائل التي تمَّ العثور عليها بخط حاجي بيك شقيق الأمير نوروز. فأمر غازان وهو في فورة الغضب بضرب قيصر والثلاثة الذين كانوا معه بالعصي وقتل حاجي ولكزي وساتلمش أشقاء الأمير نوروز بدون محاكمة أو تحقيق، كما أمر بمعاقبة أقرباء الأمير نوروز وأبنائه وإخوته الثمانية أينما كانوا، واستدعى أخاه خدابنده الذي كان في طريقه إلى خراسان على رأس جيش، والأمير سونتاي وهرقداق على رأس كتيبتين من الجيش والأمير چوپان وپولادقيا وقُتلُغشاه من مناطق مختلفة وأمرهم جميعاً بالتوجه إلى خراسان وإلقاء القبض على الأمير نوروز.

وعلم الأمير نوروز في نيسابور بالأحداث؛ وعلى الرغم من معارضة قواد الجيش له وانفصالهم عنه، فقد فرَّ إلى هرات مع أربعمئة من جنوده ليحتمي بالملك فخر الدين كرت عم زوجته وكانت لنوروز أفضال عليه، ويطلب منه إمدادات. فأنزله الملك فخر الدين في قلعة اختيار الدين. ولكن بعد أربعة أيام وصل إلى هرات الأمير قتلغشاه ومعه سبعون ألف فارس وحاصر المدينة. ولما كان فتح حصن المدينة صعباً فقد دعا فخر الدين لتسليم الأمير نوروز. وقرر فخر الدين والغوريون خيانة الأمير نوروز واعتقاله. فبدأ بإبعاد أقرباء نوروز الذين صمدوا أمام جنود قتلغشاه عنه بدعوى الدفاع عن بوابات المدينة، ثم أرسل عدداً من أمرائه لاعتقاله فاعتقلوه وأرسلوه مقيد اليدين إلى قتلغشاه الذي ضرب عنقه بيده في ٢٢ ذي القعدة ٦٩٦هـ وأرسل رأسه إلى غازان فأمر بتعليقها على المقصلة.[١]

مقتل صدر جهان (٢٢ رجب ٦٩٧هـ):

بعد مقتل الأمير نوروز، قام غازان خان بقتل الأمير تايجور الذي حاول الاستيلاء على الحكم بغواية من أحد المنجمين وكان في انتظار الجلوس مكان غازان بعد مرور أربعين يوماً وفي جمادى الآخرى ٦٩٧هـ، وجه بعض موظفي الديوان وأمراء غازان اتهاماً لصدر جهان بالاختلاس، ففقد

صدر جهان عطف غازان. وظن صدر جهان أن رشيد الدين فضل الله الطبيب الهمداني، وهو أحد مساعديه، يشارك في هذه المؤامرة بالكيد له عند غازان، فشكا للخان فقال له إن رشيد الدين لم يقل شيئاً ضده.

وفي تلك الأثناء، عاد الأمير قتلغشاه من كرجستان التي ذهب إليها للإطاحة بملك الكرج، وجاء إلى مخيم غازان في منطقة دالان ناور بالقرب من نهر كورا وبلغه أن صدر جهان أسرَّ للإيلخان بما يسيئ لأقربائه واعتدى عليهم، وعندما عاتبه غازان سأل صدر جهان عن سبب قسوة الإيلخان وعمن ذكره بسوء عنده. وقد بدأ عداء صدر جهان لرشيد الدين فضل الله بسعي من بعض موظفي الديوان، فألصق به تهمتي التحريض والتقصير في تلك القضية عند قتلغشاه. فتكدر قتلغشاه تجاه رشيد الدين. وعندما وجد رشيد الدين نفسه موضع اتهام شكا لغازان الذي استدعى قتلغشاه وعرف منه أن صدر جهان هو الذي اتهم رشيد الدين بذلك. فغضب على صدر جهان وأمر بتقييده في ١٧ رجب ٦٩٧هـ وبتسليمه لقتلغشاه لمعاقبته بعد محاكمته. فشطر قتلغشاه جسده إلى نصفين في ٢٢ رجب. كما قُتل أخوه قطب جهان في تبريز في ٢١ شعبان من السنة نفسها، وقتل بعض أقربائه ولاذ بعض آخر منهم بالفرار. وبذلك انتهت حياة صدر جهان الذي كان إلى جانب ذكائه وكرمه وأدبه رجلاً طموحاً يهوى الفتن والدسائس.

وفي أواخر ٦٩٧هـ وفي أوجان حيث كان غازان في طريقه من تبريز إلى مشتاه في بغداد، قلد سعد الدين محمد المستوفي الساوجي منصب الوزارة، وأسند نيابة الوزارة لرشيد الدين فضل الله الطبيب الهمداني. وتعاون كلا الرجلين معاً على إدارة شؤون ممالك غازان.

معارك غازان مع مسلمي الشام ومصر:

ذكرنا من قبل أن الحرب والعداء بين المغول ومسلمي الشام ومصر تحولت إلى سلام ومودة في عهد السلطان أحمد تكودار بعد اعتناقه الإسلام. واستفاد الملك المنصور سيف الدين قلاوون من ذلك بتوجيه كل اهتمامه إلى طرد الصليبيين من سواحل الشام وقمع أعدائه في الداخل؛ وتمكن من انتزاع قلعة مَرقب معقل الصليبيين في الشام، وظل يطبق خطة بيبرس في هذا الصدد حتى آخر

حياته في ٦ ذي القعدة ٦٨٩هـ. وبعد وفاة قلاوون، خلفه ابنه صلاح الدين خليل بلقب الملك الأشرف واتبع خطى أبيه في الجهاد ضد الصليبيين. وسرعان ما انتزع مدن وقلاع عكا وصيدا وصور وبيروت من أيديهم. وبتلك الفتوحات التي حقّقها في سنة ٦٩٠هـ، استعاد آخر معاقل الصليبيين وطهّر سواحل الشام بعد مصر من وجودهم ثم عاد إلى مصر.

وفي السنة التالية، تولّى الخلافة في مصر أبو العباس أحمد الملقب بالحاكم بأمر الله في سنة ٦٩٠هـ، وانشغل بدعوة المسلمين للجهاد ضد المغول. وكان هدفه تقديم المسلمين يد العون للملك الأشرف لطرد المغول من بغداد بعد طرد الصليبيين، وإعادة الخلافة العباسية من جديد.

ونتيجة للدعاية المكثفة التي قام بها الحاكم بأمر الله في مصر والشام، زحف الملك الأشرف باتجاه الفرات في سنة ٦٩١هـ وضرب حصاراً حول قلعة الروم التي كانت تقع على الضفة اليمنى لهذا النهر بشمال البيرة وكانت تحرسها جماعة من المغول والأرمن. ودانت قلعة الروم للمسلمين في جمادى الأخرى ٦٩١هـ بعد مقاومة استمرت شهراً، وأمر الملك الأشرف بقتل كل قواتها وعدد من سكانها وغيَّر اسمها إلى قلعة المسلمين وأحرق كنيستها التي كانت حتى ذلك الوقت مقراً لأسقف الأرمن؛ فاضطر الأرمن بعد ذلك إلى اتخاذ مدينة سيس عاصمة كيليكيا مقراً لأسقفهم.

بلغت أنباء حصار قلعة الروم من جانب الملك الأشرف خليل إلى إيران في وقت كان كيخاتو عائداً لتوه من بلاد الروم وكان قد شفي من مرض ألم به، وكان الناس يحتفلون بذلك. فأرسل كيخاتو عدداً من جنود المغول لمؤازرة القوات المرابطة بها، ولكن قبل أن يصلوا كان المسلمون قد فتحوا القلعة.

وبعد هذه الواقعة بعدة أشهر، أوفد كيخاتو سفيراً إلى مصر برسالة إلى الملك الأشرف يخبره بتفكيره في اتخاذ حلب التي فتحها هولاكو عاصمة له وهدده بأنه إذا لم يسلم تلك المدينة فإنه سيستولي على الشام كله. فقال له الملك الأشرف في رده: «أنا أيضاً أفكر في استعادة بغداد من أيدي المغول وجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية كما كانت فيما مضى، وسنرى من منا سيكون أسرع من الآخر في تنفيذ فكرته». ولم تسمح المشاغل الداخلية إبان عهد كيخاتو وولاية بايدو القصيرة للإيلخانات بالانتقام لفتح قلعة الروم من سلطان مصر. وتأخر ذلك إلى عهد غازان خان.

وفي سنة ٦٩٣هـ، قُتل الملك الأشرف على يد ثلاثة عشر من أمرائه وزعماء مماليك أبيه وأشهرهم قرا سنقر الذي سبق أن كان نائباً للملك الأشرف في الحكم ثم تمَّ عزلُهُ، وبَيدرا ولاتشين اللذان عزلهما الملك الأشرف أيضاً من نيابة حكمه. وبعد مقتل الملك الأشرف بايع الأمراء القتلة بيدرا سلطاناً بلقب الملك الظاهر؛ إلا أن مماليك الملك الأشرف بقيادة زين الدين كتبُغا ثاروا وقتلوا بيدرا وبايعوا محمداً شقيق الملك الأشرف البالغ من العمر تسع سنوات سلطاناً بلقب الملك الناصر. واختفى كل من قرا سنقر ولاتشين خوفاً من البطش بهما. وتم تعيين كتبغا نائباً للسلطان وتولى وزارة الملك الناصر أمير آخر من أمراء الملك الأشرف يدعى علم الدين سنجر الشجاعي. ولكن سرعان ما استنكف الأمراء تبعيتهم لطفل في التاسعة واتفقوا على قتل سنجر الشجاعي بيد كتبغا. وانزوى الملك الناصر في إحدى القلاع، وتمت مبايعة كتبغا سلطاناً بلقب الملك العادل في التاسع من محرم ٦٩٤هـ. وعفا كتبغا عن كل من قرا سنقر ولاتشين بعد عودتهما للظهور والتماس العفو، وعين لاتشين نائباً له في الحكم.

كان كتبغا من أسرى المغول الذين وقعوا في أيدي المسلمين في موقعة حمص. وقد رباه السلطان قلاوون وأعتقه بعد فترة. وقد استمر حكمه عامين. وفي النهاية، انشغل بمعارضة لاتشين الذي فكَّر في قتله ففرَّ إلى دمشق. واستولى لاتشين الذي كان من الغلمان الصقالبة (السلاف) على العرش بلقب الملك المنصور في محرم ٦٩٦هـ. وعين الملك المنصور لاتشين غلامه منجو تيمور نائباً له. وفي سنة ٦٩٧هـ، زحف من مصر إلى حلب على رأس جيش كبيَر. وكان هدفه من تلك الحملة غزو كيليكيا وعاصمتها سيس. وفي تلك الحملة رافقه معظم أمراء الشام والجزيرة. وأغاروا مرة أخرى على مدينة سيس وحصلوا على غنائم وفيرة وعدد كبير من الأسرى.

كان حكم كيليكيا كما كان فيما مضى في يد الأرمن وأبناء هيتوم. وفي سنة ٦٦٤هـ كان ليون بن هيتوم كما سبقت الإشارة أيضاً قد سقط أسيراً في يد الملك الظاهر بيبرس البندقداري وتمَّ إطلاق سراحه على النحو الذي رأينا، وتولّى الحكم بعد وفاة أبيه. وبعد وفاة ليون، آل عرش كيليكيا إلى ابنه هيتوم الثاني الذي ظل في الحكم حتى السنة الأولى من ولاية غازان خان. وفي التاريخ نفسه، ذهب لزيارة غازان، وبعد عودته إلى سيس، عزم على زيارة أخته مريم زوجة

ميخائيل إمبراطور الروم الشرقية؛ فمضى بصحبة أخيه توروس إلى القسطنطينية تاركاً أخاه الآخر سنباد (سنباط) نائباً له في سيس. وفي غياب الملك، تحالف سنباد مع أعيان بلاده في سنة ٦٩٦هـ وادعى ملك أرمينيا الصغرى وكيليكيا ووضع مملكته تحت حماية البابا بتشجيع من أسقف بلاده. كما اعترف غازان بولايته وزوجه إحدى المنتسبات إلى الأسرة الإيلخانية.

وبعد عودة هيتوم الثاني وأخيه توروس من القسطنطينية رأوا ما حدث، فعادا إلى القسطنطينية لطلب العون من إمبراطورها. ولم تسفر الرحلة إلا عن مبلغ من المال. فاضطرا إلى التوجه إلى بلاط الإيلخان، إلا أن الزيارة لم تسفر عن شيء كذلك. واعتقلهما عمال الإيلخان في قيسارية ببلاد الروم؛ وبعد فترة قُتل توروس وسملت عينا هيتوم بأمر من غازان. وبعد مدة شفيت إحدى عيني هيتوم وصمم على الانتقام من أخيه سنباد. وأدى هذا العداء إلى تصاعد الفرقة بين أمراء أرمينيا وأعيانها. وفي ذلك الوقت، بدأ جنود الملك المنصور لاتشين هجومهم على كيليكيا وأرمينيا الصغرى في سنة ٦٩٧هـ.

وأسفرت هذه الحملة عن فتح المسلمين لسيس ومعظم بلاد سنباد الذي تم عزله وتعيين أخيه ملكاً لأرمينيا بالنيابة من قبل حسام الدين لاتشين، وأصبح نهر جيحان هو الحد بين ممالكه وبلاد المسلمين. وقام لاتشين بتجديد عمارة البلاد التي فتحها وتركها لأمرائه إذ كان هدف لاتشين من هذه الحملة إلهاء أمرائه وإيجاد بلاد جديدة يوليهم عليها فينصرفوا عن إعداد مملوكه منجو تيمور لتولي العرش. ولكي يستريح لاتشين من شر أمرائه الأقوياء أعلن أن المغول يعتزمون غزو الشام. وبذلك فقد أمر قبجق والي دمشق بالذهاب إلى حلب وأمر والي حلب باعتقال بعض أمرائه ودس السم لقتلهم. وعلم هؤلاء الأمراء بنية والي حلب فلاذوا بالفرار ولحقوا بقبجق الذي فطن إلى مخطط لاتشين. وسعى قبجق إلى حمل لاتشين على العفو عن الأمراء، إلا أن لاتشين أبى. فعبر قبجق بصحبة الأمراء الفارين نهر الفرات في أواخر ذي القعدة ٦٩٧هـ وذهب إلى غازان خان يطلب حمايته. فأكرم الحاكمان المغوليان لديار بكر وماردين وفادتهم وأرسلوهم إلى بغداد. ولدى دخولهم بغداد، كان عمال غازان في استقبالهم وجاء الإيلخان إليهم بنفسه. وبعد إكرامهم وضيافتهم أغدق عليهم بإنعام كبير. ووعد الأمراء غازان بالقتال في صفوفه إذا جرد حملة على

الشام ومصر.

تجدَّدَ العداء بين سلاطين مصر وإيلخانات إيران في عهد غازان الملك القوي الطموح كما سبقت الإشارة؛ وكان غازان يبحث منذ مدة عن ذريعة لتجريد حملة على الشام ومصر. وقد حدثت واقعتان أو ثلاث شدَّدتْ عزمه على تنفيذ خطته.

وفي سنة ٦٩٥هـ، لجأ أكثر من عشرة آلاف من طائفة أويرات بزعامة طرغاي إلى المسلمين خوفاً من بطش غازان. وكان طرغاي كما ذكرنا من قبل قد تحالف مع بايدو لقتل كيخاتو. وعندما اعتلى غازان العرش، صمم على الانتقام منه لقتل كيخاتو. ونزل طرغاي ومغول أويرات الشام وطلبوا حماية الملك العادل كتبغا. فأكرمهم كتبغا وخلع عليهم وأغدق عليهم المال وأسكنهم بلاده.

وفي سنة ٦٩٧هـ، أعلن أحد أمراء المغول ويدعى سُلامش تمرده في بلاد الروم. وعندما أرسل غازان عدداً من أمرائه لقمعه، طلب سلامش العون من لاتشين. فأرسل لاتشين أحد قواده لمساندته، إلا أن أمراء غازان قتلوا قائد لاتشين وعدداً من جنوده المصريين وألحقوا الهزيمة بسلامش واعتقلوه بعد قليل ثم قتلوه.

أدت هاتان الواقعتان ولجوء أمراء لاتشين إلى غازان وتحريضه على شن حرب على الشام ومصر إلى تصميم الإيلخان على غزو تلك البلاد. وفي أثناء انشغاله بالإعداد لتلك الحملة، بلغه أن أربعة آلاف من مسلمي الشام هاجموا دياربكر واستولوا على قلعة ماردين وتقدموا حتى رأس عين وارتكبوا كثيراً من الفظائع (٦٩٨هـ).

أدت هذه الأنباء إلى غضب غازان. وسأل العلماء والأئمة المشورة، فأشاروا عليه جميعاً بضرورة حماية البلاد الإسلامية من اعتداء المعتدين وحثوه على صد الغزاة، فلم يبق هناك ما يحول بين غازان وبين أمنيته القديمة بغزو البلاد الإسلامية في الشام ومصر.

تم قتل الملك المنصور لاتشين على يد عدد من غلمانه في ١١ ربيع الآخر ٦٩٨هـ، واعتقلوا مملوكه منجو تيمور وضربوا عنقه بعد فترة قضاها في السجن؛ وأعاد قواد الجيش للملك الناصر محمد بن سيف الدين قلاوون الألفي الذي كان قد طرد من العرش منذ فترة واختص كل منهم نفسه بإحدى المهام الملكية.

وفي خريف ٦٩٩هـ، تحرك غازان ومعه ثلاثة ألوية بقادتهم من تبريز إلى الشام، وعين قتلغشاه قائداً لحراسه. ووصل إلى ضفاف الفرات عن طريق مراغة وأربيل والموصل وماردين. وقدم إليه الأمراء والقادة العسكريون الإمدادات من كل مكان وهو في الطريق إلى أن بلغ عدد مرافقيه حين وصل إلى الفرات تسعين ألف رجل.

موقعة مجمع المروج (٢٧ ربيع الأول ٦٩٩هـ):

بعد وصول خبر زحف غازان على الشام، قام الملك الناصر وأمراؤه في الشام ومصر بتعبئة قواتهم وتحركوا نحو دمشق واتخذوا منها مقراً لجيشهم، ومنح الملك الناصر تفويضاً كاملاً لكبير حجابه بيبرس الجوشنجير في كل شؤون الدولة والجيش، وكان سيف الدين سلار نائبه في الحكم. ولكن نظراً لجشع الأمراء وسوء التدبير، لم يتمكنا من تعبئة الجيش وتجهيز القوات لمواجهة غازان بالصورة المطلوبة.

بعد عبور الفرات عن طريق عين تاب وحلب، انحرفت قوات الإيلخان في اتجاه دمشق؛ فهجر أهالي المدن الواقعة على الطريق بلادهم خوفاً منهم ولاذوا بالفرار؛ حتى بلبان الطباخي والي حلب وقرا سنقر والي حماة فرا إلى حمص. وكان غازان مصمِّماً قبل كل شئ على إلحاق الهزيمة بجيش الملك الناصر؛ فلم يحاصر قلعتي حلب وحماة وأسرع إلى مدينة سلمية الواقعة إلى الشرق من نهر العاصي وعلى مسافة يوم من حمص، وهنا وقعت أول مواجهة بين قواته والقوات المصرية التي وصلت إلى تلك الحدود.

لم تكن أوضاع جيش الملك الناصر مستقرة، وذلك بسبب تناحر الأمراء والمماليك وسخط مغول الأويرات لترقية بعض العسكريين من المماليك وعزمهم على قتل الملك الناصر في ميناء غزة لدى تحركه من مصر إلى الشام وإقصاء كل من بيبرس وسلار عن شؤون الدولة وإعادة الأمير كتبغا الذي كان قد تم إقصاؤه من منصبه مكانهم. وعلى الرغم من تكشف مؤامرة مغول الأويرات وقتل عدد منهم بتهمة خيانة سيدهم، فقد أدى ذلك إلى تفاقم الشقاق والخلاف في صفوف مسلمي مصر والشام وإضعافهم في مواجهة العدو. في حين أن وصول تلك الأخبار إلى معسكر غازان كان من

شأنه تقوية عزمه فادرك أن أوضاع جيش مصر والشام حينئذ كانت تختلف كثيراً عما كانت عليه أيام قطز وبيبرس وقلاوون وأن خصمه لا يداني هؤلاء المحاربين في قدراته القتالية.

بدأ القتال بين قوات الإيلخان وقوات الملك الناصر في عصر يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الأول ٦٩٩هـ في شرق حمص في مكان يعرف بمجمع المروج. واتخذ غازان ومعه تسعة آلاف من قواته موقع القلب من جيشه وكان معه أيضاً الأمير چوپان وأحد أمراء المغول الآخرين. وكانت الميمنة لقتلغشاه ومولاي وأمير آخر، والميسرة لكربوغا بهادر وأربعة آخرين من قواد جيشه. أما في الجيش المصري الذي تراوح عدد قواته بين خمسة وعشرين ألفاً وأربعين ألفاً فقد اتخذ الملك الناصر وسلار وبيبرس موقع القلب، وكان كل من عيسى بن مهنا أمير أعراب البادية وبلبان الطباخي والي حلب في الميمنة، وبدر الدين بكتاش وبعض الأمراء الآخرون في الميسرة. ووقع الاضطراب في ميمنة الجيش المصري نتيجة لهجوم رماة المغول وحلت بها الهزيمة. أما الميسرة فقد صمدت وكادت توقع الهزيمة بغازان، إلا أن غازان استطاع الصمود نظراً لجد قبجق وثباته. وبعد جمع قواته التي وقعت بينها الفرقة هجم على قلب الجيش المصري وأوقع الاضطراب بين قواته، مما أدى بالتالي إلى خلخلة ميسرة جيش الملك الناصر وتقهقر جنودها بسرعة دفعت غازان إلى الظن بأنها خدعة؛ مما أدى أيضاً إلى أن صرف النظر عن تعقبهم ففر المصريون بأمان.

لحقت الهزيمة بالقوات المصرية والملك الناصر في دمشق، ولم يبق الملك فيها، بل عاد أدراجه إلى القاهرة، وتعقبت القوات المغولية المهزومين واستولت على دمشق وبيت المقدس وغزة؛ وعادت بعد الحصول على غنائم وفيرة، وأحجم قبجق عن نهب دمشق وقتل أهلها بعد أن حصل من غازان على عهد أمان لهم.

وبعد هزيمة مجمع المروج بقليل، شرع الملك الناصر في تعبئة جيش آخر في مصر، وبدأ كل من سلار وبيبرس في تعويض الخسائر التي لحقت بقواتهما وتجهيزها للحرب. وأدت هذه التطورات إلى خوف المغول، خاصة أن غازان كان قد عاد إلى إيران لصد هجوم الأتراك الجغتائيين على حدود خراسان. فغادرت قواته الشام وعادت إلى الشرق، فأعاد سلار وبيبرس الشام إلى سلطة الملك الناصر من جديد وسلموا دمشق وحلب وحماة لبعض أمراء السلطان كجمال الدين آغوش وقرا سنقر

وكتبغا وغيرهم.

«بعد عودة غازان خان، شرع قتلغشاه نويان في محاصرة قلعة دمشق، وادعى أحد رماة المجانيق المهرة قدرته على فتح القلعة بضربها بالحجارة، فأمر قتلغشاه بإمداده بما يحتاج إليه. وأدرك قائد القلعة أن الرامي الماهر للمجانيق يستطيع أن يدك الجبل لو وجد الفرصة. لذا فقد وعد بمنح ألف دينار لمن يكفيه شر هذا الرامي. فقبل أحد مشاهير العيارين تلك المهمة. فغير ملابسه وخرج من القلعة ومضى إلى دار رامي المجانيق الذي كان من أصدقائه وكان غائباً. فدخل داره وقبع في ركن منه في الظلام. وحين عاد الرامي فصل العيار عنقه عن جسده، وخرج يجري من الدار والسكين مشرعة في يده وهرع إلى القلعة حيث قوبل بالثناء كله. وهكذا تعطل فتح دمشق. وكان أهالي القلعة يختفون بالنهار ويخرجون خلسة في الليل ويستولون على جياد المغول ويقتلون كل من يجدونه منهم. لذا فقد آثر قتلغشاه العودة ومعه سائر الأمراء وحكام الشام. وعند عبور الفرات غرقت كثرة منهم، وعاد الأمراء يوم الأحد الخامس من رجب إلى غازان خان في ولاية الموصل وهم في غاية التعب» (حبيب السير، ج٣)

وفي ١٥ رمضان ٦٩٩هـ، وصل غازان خان من الشام إلى مراغة، وبعد زيارة مرصد المدينة والإعراب عن رغبته في إنشاء مرصد جديد بالقرب من تبريز، مضى إلى أوجان حيث عقد مجلساً أعلى. ودخل تبريز في ذي الحجة. ومع أنه كان يفكر في فتح الشام مرة أخرى، فإنه آثر أن يلتفت إلى الإصلاحات الداخلية وتنظيم شؤون الدولة إلى أن يحين الوقت المناسب لذلك. فوجه اهتمامه إلى إقامة المراسم الدينية وإنشاء المدارس وقام بترميم قلعة تبريز وأنشأ عمارات جديدة وشق العديد من القنوات واستن القواعد والقوانين التي تساعد على تنظيم حياة الناس وعلى راحتهم، مما سنتطرق إليه بعد قليل.

وفي غرة المحرم ٧٠٠هـ، عزم غازان على غزو الشام مرة أخرى؛ وفي هذه المرة اختار فصل الشتاء لتنفيذ تلك المهمة. وقبل أن يغادر تبريز، أرسل قتلغشاه إلى الشام في طليعة جيشه. ووصل هو إلى حلب عن طريق الموصل، فأخلى الأهالي المدينة وفرّ واليها قرا سنقر إلى حماة، بينما ظل كتبغا يقاوم في دمشق.

وبمجرد ذيوع نبأ وصول المغول إلى الشام، شرع الملك الناصر في جمع المال والجند، وأعد القوات على عجل وتحرك إلى الشام. ولكن نظراً لهطول الأمطار دون انقطاع وتراكم الطين على الأرض، فقد تعرض جنوده لخسائر جسيمة بعد أن سدت الطرق وشحت المؤن. وحين ضاقت الأمور على السلطان عاد إلى مصر. وتعرَّضَ جيش المغول للمتاعب نفسها فلقيت كثرة من جنوده وجياده حتفهم مما اضطر غازان إلى العودة حيث وصل إلى أوجان في ٢٤ رمضان.

وبعد ثلاثة أشهر من الانسحاب من الشام، أوفد غازان نصير الدين التبريزي والقاضي قطب الدين الموصلي برسالة إلى الملك الناصر في مصر يقول له فيها إنه لو أجرى المسلمون في مصر والشام الخطبة وضربوا السكة باسم غازان وقبلوا أداء الخراج فإنهم يأمنون اعتداء جند المغول، أما إذا اختاروا خلاف ذلك فسيحل بهم ما حل بالخوارزميين على يد جنكيزخان وجنوده. فخلع الملك الناصر على سفيري غازان وأنعم عليهما وأجَّلَ الردَّ على غازان إلى وقت آخر يرسل فيه سفراء من قبله إلى مخيمه. وسبق سفيرا غازان الملك الناصر إلى الشام، وعرضا على غازان ما أسفرت عنه سفارتهما. وفي جمادى الأولى من السنة نفسها، جاءه رسل الملك الناصر بردِّه على رسالته. كان اسم الملك الناصر مدوناً على الرسالة بماء الذهب ولم يرعَ احترام غازان في رده بصورة كافية وقال إن خراج الشام ومصر وقف على الجهاد والدفاع عن حدود الممالك الإسلامية وثغورها ولا يتبقى منه شيء يتعهد بأدائه. أما فيما يتعلق بالسكة فلا مانع من كتابة اسم الخليفة أمير المؤمنين والسلطان محمود غازان خان على أحد وجهي العملة المتداولة في مصر والشام، وعلى الوجه الآخر اسم الملك الناصر بعد عبارة لا إله إلا الله. ومع الرد أرسل الملك الناصر لغازان صندوق أسلحة. واستنتج غازان من ذلك أن سلطان مصر يعلن برده هذا عن استعداده لقتاله وصده؛ لذا فقد غضب وأمر بتجهيز جيشه وقادته للزحف على الشام.

وفي جمادى الأولى من سنة ٧٠٢هـ، عبر غازان الفرات بالقرب من الحلة، وبعد زيارة ضريح الإمام الحسين بكربلاء وتقديم بعض المال كنذر للضريح. وفي شهر رجب من السنة نفسها وصل إلى منزل عانة للقوافل، وهو المكان الذي جاءه فيه الأديب عبدالله وصاف الحضرة الشيرازي مؤلف تاريخ وصاف المعروف ولم يكن عمره يزيد عن الأربعين وعرض عليه كتابه في يوم الأحد ١٣

رجب ٧٠٢هـ بتوسط سعد الدين الساوجي ورشيد الدين فضل الله، حيث أنعم عليه الإيلخان.

وبعد أن أقام جيش غازان عدة أيام في عانة، نقل غازان مقر جيشه إلى قلعة الرحبة (على الضفة اليمنى للفرات بين عانة والرقة) وحاصر جوانب تلك القلعة. ودعا أمراء الإيلخان وخواجه سعد الدين ورشيد الدين فضل الله قائد قلعة الرحبة ويدعى الأمير علم الدين سنجر للتسليم. فأرسل قائد القلعة بعض المؤن لجيش الإيلخان وامتنع عن التسليم بدعوى أن الرحبة هي حد الشام وأن تسليمها يؤدي إلى حدوث فجوة في حدود المسلمين وأن من يسلمها يتهم بالخيانة، ووعد غازان بأنه لن يمتنع عن التسليم إذا وُفِّقَ في فتح الشام. فقبل غازان عذره وترك الرحبة ومضى إلى حلب في السادس من شعبان، واتجه كل من الأمير چوپان والأمير مولاي وقتلغشاه إلى تلك المدينة أيضاً عن طريق الرقة.

وعندما بلغ خبر وصول المغول إلى الشام إلى الملك الناصر قام بإرسال بيبرس الجوشنجير بقواته لمساندة جنود حدود الشام، فأسرع الجوشنجير للقاء قتلغشاه على رأس قوات تتراوح بين أربعين ألفاً وثمانين ألفاً. ولكنه حين وجد أن قوات المغول تفوق قواته عدداً، كتب رسالة إلى الملك الناصر يطلب منه المجئ بنفسه إلى الشام.

اتخذت قوات الشام من حماة مقراً لقيادتها، واحتشدت قوات الحدود بطرابلس وحمص والقوات المرابطة بدمشق في تلك النقطة حول الأمير كتبغا الذي كان مريضاً. فأرسل الأمير كتبغا جمعاً من جنوده مع أسندَمر الكرجي قائد حرس حدود الفرات والملك المؤيد عماد الدين أبي الفدا المؤرخ المعروف ووالى حماة لصد زحف المغول. وأنزل هذا الجيش الهزيمة بالمغول في العاشر من شعبان، وبعد أسر عدد من قوات المغول وهزيمة طليعة جيشهم، عادوا إلى معسكرهم. وكان هذا الفتح مقدمة لفتح كبير تحقق بعد قليل.

موقعة مرج الصفر (٢ رمضان ٧٠٢هـ):

في الثالث من شعبان، خرج الملك الناصر مع الخليفة أبي الربيع سليمان المستكفي بالله وعلى رأس جيش جرار من القاهرة باتجاه الشام، وكان الجوشنجير قد سبقه كما ذكرنا من قبل. واتجه

المغول بعد الهزيمة التي لحقت بهم في العاشر من شعبان بقيادة قتلغشاه إلى حماة. وكان الأمير كتبغا مريضاً دائماً ويتحرك على محفة؛ لذا فقد ترك أبا الفداء في حماة ومضى هو إلى دمشق. ووقعت الفوضى في دمشق ولم يكن الأهالي يعلمون هل يخرجون فراراً من المغول أم ينتظرون عساكر السلطان. فترك جمع من الأهالي المدينة ونساءهم وأطفالهم واحتموا بالحصون ووهنت عزيمتهم. واستفاد المغول من ذلك فدخلوا المدينة وعسكروا في غوطة دمشق بالقرب من مرج الصفر. وقد تزامن وصول المغول إلى هذا الموضع مع وصول الجوشنجير وطلائع عساكر الملك الناصر.

بلغ تعداد جند الإيلخان خمسين ألف رجل بقيادة قتلغشاه وبصحبته الأمراء چوپان وتيتاق ومولاي وسونتاي وغيرهم؛ وقد اصطفوا في مرج الصفر الذي اشتهر بعد النصر المبين الذي تحقق للمسلمين فيه على جند الروم في سنة ١٣ هجرية. وكان يرافق الملك الناصر الخليفة وحسام الدين حاجب سالار وسيف الدين سلار وجمال الدين آغوش وبيبرس الجوشنجير والأمير قبچق وولاة الشام. واستعد الطرفان ونشب القتال في ثاني أيام رمضان ٧٠٢هـ.

دب الخوف في البداية في قلب قتلغشاه من كثرة عدد الجنود المصريين والشوام، فقرر العودة إلا أن الأمير چوپان منعه من ذلك. وغامر جند المغول وهاجموا جيش الملك الناصر. فوقعت الفرقة في صفوف ميمنة الجيش السلطاني على يد چوپان وتيتاق ولقي قائدها حسام الدين مصرعه ووقع الأمير قبچق وكل جنوده أسرى في أيدي المغول. أما قلب جيش الملك الناصر وميسرته فقد انتصرا وأنزلا بجيش المغول هزيمة فادحة، وتم أسر تيتاق ولاذ چوپان بالفرار. واستفاد قتلغشاه وغيره من الأمراء من حلول الليل فاحتمى بالجبل المطل على مرج الصفر، وأمر الملك الناصر بمحاصرتهم. وحين طلع الصبح ورأى المغول كثرة عدد الجيش المصري والشامي، لاذوا بالفرار وفي أعقابهم جنود الجيش السلطاني. وتصادف عبور جيش غازان إلى مستنقع فغرق عدد كبير من جنده في الطين. وتعقب سيف الدين سلار فلولهم بأمر من الملك الناصر حتى ضفة الفرات. ولما كان الفرات في موسم الفيضان ويصعب عبوره، فقد غرق عدد من جند المغول بينما تعرض جمع آخر منهم لغارات أعراب البادية، فلم يعد إلى غازان في بغداد من هذا الجيش الكبير سوى عددٍ قليل من

الجنود الجوعى المهزومين في ١٩ رمضان.

كان انتصار مرج الصفر بمثابة تعويض لهزيمة مجمع المروج حيث أسر الجنود المصريون والشوام عشرة آلاف من المغول وغنموا عشرين ألف جواد من جيش غازان، وأسروا الأمراء سونتاي وكين جو وتيتاق وعدد آخر من أمراء المغول. وأرسل المصريون والشوام بشرى هذا الفتح المبين مع الحمام الزاجل إلى كل الأطراف، ودخل الملك الناصر دمشق دخول الفاتحين وأغدق على أمرائه وقواد جيشه؛ ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل.

نزل نبأ الهزيمة على غازان بحزن شديد حتى نزفت أنفه من شدة الغضب. وعندما وصل إلى أوجان في ذي القعدة، عقد مجلساً أعلى لمحاكمة قتلغشاه والأمير چوپان وغيره من قواد جيش المغول؛ وبعد يومين من المحاكمة، أعدم اثنان من قواد تلك الموقعة، وحكم على كل من مولاي وقتلغشاه وچوپان بالضرب المهين بالعصا ولم يُسمح لأي منهم بدخول المعسكر لعدة أيام. وظل غازان يفكر في تعويض تلك الهزيمة حتى مات.

وفاة غازان خان (١١ شوال ٧٠٣هـ):

كانت الخزانة عند جلوس غازان خاوية كما سبقت الإشارة نتيجة لتبديد ثروات هولاكو والفتوحات وإهمال الإيلخانات الذين جاءوا بعده وإسراف كيخاتو ووزيره صدر جهان. وبلغ الإفلاس حد عدم توفر اعتمادات لتقديم الهدايا للسفراء. فورث غازان دولة يسودها الخراب وغير قادرة على دفع أي نوع من الضرائب على حد وصف غازان نفسه.

وفي العامين الأولين من ولايته وبعد إصلاح أوضاع الجيش وقمع المعارضة وتأمين الحدود والثغور، شرع غازان في إصلاح الشؤون الإدارية وجمع الخراج في بلاده. وعلى الرغم مما تعرض له الناس من تعديات وظلم في هذه السنوات، فقد نظمت الإدارة والنفقات وتوفَّرتْ الاعتمادات في الخزانة؛ وقام غازان في البداية بتوزيع مئتين إلى ثلاثمئة تومان منها على الجيش بأفرعه حتى يضمن ولاءه وحدد المخصَّصات الديوانية لكل فرع منه حتى لا يطالب بأكثر منه.

وفي المجلس الذي عقده غازان في أعقاب هزيمة مرج الصفر في أوجان وبعد معاقبة قادة الجيش،

بسط غازان يده بالبذل والعطاء وأغدق على كل من قواده؛ وظل لمدة خمسة عشر يوماً في خيمته يبدد أموال الخزانة ومحصلة ضرائب الولايات التي تم جمعها قسراً من الناس بدعوى حاجة الجيش للمال. وفي تلك الفترة القصيرة منح غازان لقواده ثلاثمئة تومان من العملات الذهبية وعشرين الف خلعة وخمسين منطقة مرصعة وثلاثمئة منطقة ذهبية، وهو ما لم يسبقه إليه أي من حكام المغول. وبعد انتهاء مجلس أوجان، ذهب غازان إلى تبريز لتفقد تجهيز الجيش للتحرك نحو الشام لتعويض هزيمة مرج الصفر؛ إلا أنه أصيب فجأة برمد في العين وشرع الأطباء الصينيون في معالجته. وعاد إلى أوجان بعد قليل وعزم على التوجه إلى بغداد لقضاء فصل الشتاء، إلا أن الثلوج والأمطار حالت دون ذلك، فقرر قضاء الشتاء على ضفاف نهر قزل أوزن (آخر ربيع الآخر ٧٠٣هـ).

وفي أثناء إقامته بجوار قزل أوزن، جاءت أنباء إلى خواجه سعد الدين ساوجي صاحب الديوان بأن أحد مغامري تبريز ويدعى پير يعقوب الداغستاني جمع حوله عدداً من أهل تبريز وبشّر الأهالي بتولي آلافَرنك الابن الأكبر لكيخاتو للعرش، وأرسل أحد أعوانه إلى المخيم سراً ليدعو مرافقي ركاب غازان للانضمام إليه. فعرض صاحب الديوان الأمر على غازان، فأوفد الإيلخان رسولاً إلى تبريز. واعتقل رسوله پير يعقوب وآلافرنك وعدداً آخر من الوجهاء الذين التفوا حولهما وساقهم إلى المخيم. وقام الإيلخان بنفسه بمحاكمتهم. وتبين أن پير يعقوب وأتباعه يؤمنون ببعض العقائد المزدكية. لذا فقد أعدمهم جميعاً عدا آلافرنك، ومنح سعد الدين رتبة الإمارة بالإضافة إلى منصب الوزارة، ووضع تحت تصرفه ألف فارس مغولي.

ظل غازان في حالة حزن دائم بعد هزيمة جيشه في مرج الصفر، ثم سقط مريضاً في آخر رحلاته الشتوية ولم يؤد علاجه إلى أية نتيجة؛ فاضطر للانتقال من قزل أوزن إلى ساوة حيث كان في استقباله في تلك البلدة التي كانت مسقط رأسه خواجه سعد الدين. وفي ساوة، تحسنت صحة غازان إلى حد ما، ولكنه حين انتقل إلى الري اشتد عليه المرض فاضطر للبقاء لعدة أيام في الري. وحين عزم على التحرك من الري إلى قزوين، وافته المنية في يوم الأحد ١١ شوال ٧٠٣هـ في سن الثالثة والثلاثين بعد ما يقرب من تسع سنوات في السلطة. وتم نقل جثمانه إلى تبريز ودفن في ضريح في شنب غازان (شام غازان) التي كان قد بناها على أطراف تبريز.

«أراد غازان أن يتم بناء العدل الذي وضع أسسه وأن يذكِّر من يخلفونه بضرورة تقوية شوكة الإسلام بعد أن بذل عمره في سبيله. فاستدعى كل خوانين الدولة وأركانها وقتلغشاه والأمراء العظام چوپان وبايدو وپولاد وسنتاي والسلطان وملاي ورمضان والغو وجورتيمور وتارمتاز وصاحبي الديوان خواجه رشيد الدين وخواجه سعد الدين وغيرهما من المقربين وقال لهم: تأكد لنا أننا راحلون عن دار الفناء إلى دار البقاء. وكان كل همنا في الحكم الفاني في الأيام القليلة التي قضيناها فيه أن نجري العدل والإنصاف اللذين لا يقوم الملك بدونهما، وألا ندع مجالاً لظلم الظالمين الذي يجب دفعه شرعاً وعقلاً وأن نعمل على تقوية دين سيد المرسلين وخاتم النبيين ... وطوال مدة حكمنا التي استمرت ثماني سنوات وعدة أشهر استطعنا بعون من الله تعالى أن نطبِّق بعضاً منها كالحكم بالعدل وقمع المتمردين على الدين والدولة وسن القوانين العادلة ورفع المظالم والبدع. وكنا نود أن نواصل ذلك لولا أن العمر لم يسمح ولم يُمهلْنا الأجل، فحملناها معنا في ثنايا صدورنا. والآن عليكم من بعدنا ألا تزيغوا عن النهج وأن تولوا عليكم شقيقي ملك العالم خداي بنده محمد الذي لا يزيد عمره عن الثالثة أو الرابعة فقد أوليناه ولاية العهد. فأطيعوه وانصاعوا لأمره ولا تحيدوا عما استننت من قواعد وسنن ولا تحدثوا البدع، واعملوا على تثبيت الصدقات والأوقاف التي أجريناها والعمارات التي بنيناها. وإن حالفكم توفيق السماء فلا تسمحوا بالتقصير أو الإهمال في أداء الواجب» (من تاريخ وصاف، ص٤٥٧-٤٥٨)

على الرغم من قصر عمره وقصر مدة ولايته، فإن غازان يعد من سلاطين الشرق العظام نظراً لما قام به من إصلاحات وإنشاءات وقوانين. ومع أنه لا يصح مقارنته بحكام كقورش الأكبر وداريوش الأول وسلاطين الساسانيين العظام، يمكن اعتبار غازان أعظم سلاطين أسرة الإيلخانات في إيران من ناحية إدارة شؤون الحكم والدولة. ولكن ينبغي أن نتذكر أن الفضل الأكبر في مكانته هذه يعود إلى وجود وزير في كفاءة خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي وُفِّقَ في إدارة ممالك غازان المترامية الأطراف بكل حكمة وتدبير وسياسة وعمل مع غازان على رفاهية الرعايا وإصلاح الشؤون المالية للدولة وإنشاء المؤسسات الخيرية من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد خلَّد محامده وأعماله الحسنة ووقائع أيامه على صفحات الزمان وجمع العلماء وأهل الفضل في بلاط الإيلخان بحيث

يمكن القول إن عهود غازان وخليفتيه أولجايتو والسلطان أبي سعيد خان كانت من أزهى عصور الأدب في تاريخ إيران بفضل جهود خواجه رشيد الدين فضل الله وأبنائه.

علاقات غازان بالدول الأجنبية:

كانت هناك مراسلات وسفارات بين غازان وخاقان الصين وملوك أوربا المسيحية. وفي سنة ٦٩٩هـ، أوفد غازان رسولين ومعهما الكثير من الهدايا الثمينة إلى بلاط تيمور خاقان خليفة قوبيلاي قاآن في الصين. وقد قبلها الخاقان بكل سرور؛ وفي ردِّه على هذه الخطوة الودية أعرب عن صداقته لإيلخان إيران على الرغم من اعتناقه للإسلام وسعيه لنشره.

أدت فتوحات غازان الأولى في الشام والنصر الذي حققه في مجمع المروج إلى إجبار أعداء المسلمين على إيفاد الرسل إلى غازان لتهنئته بهذه الفتوحات، خاصة ملوك أوربا المسيحية والأرمن الذين فرحوا بهذه الانتصارات بعد أن طردوا من تلك البلاد نتيجة لجهود المماليك والمجاهدين المصريين والشوام، ولم يفلحوا في الاحتفاظ ببيت المقدس وموانئ الشام حيث اعتبروا انتصار جيش الإيلخان على المماليك بمثابة ثأر لما حل بهم من هزائم على أيديهم، وشجعوا غازان في تلك المرحلة عله يتمكن من انتزاع الشام ومصر من أيدي المماليك وغيرهم من الأمراء.

وعلى أثر هذا الفرح الذي ساد أوربا المسيحية، أرسل جيمس الثاني ملك آراجون وهي إحدى ممالك أسبانيا رسالة إلى غازان في رمضان ٧٠٠هـ. وقد وصف جيمس غازان في هذه الرسالة بأنه أعظم سلاطين المغول وملك ملوك الشرق، وأبلغه بأن كافة رعاياه ممن يرغبون في الحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين مستعدون للانضمام إلى جيش الإيلخان وطلب منه السماح لحجاج آراجون بحرية الحج إلى بيت المقدس بدون دفع خراج أو ضرائب وأن يترك خمس الأراضي المقدسة التي انتزعها من أيدي المسلمين للمسيحيين. وفي رواية لبعض المؤرخين المسيحيين، كان غازان مستعداً للتنازل عن بعض المناطق التي استولى عليها في فلسطين في مقابل تجديد التحالف الذي كان قائماً بين الملوك المسيحيين وإيلخانات إيران. لذا فقد أوفد السفراء لأوربا، والتقى سفراؤه بإدوارد الأول ملك انجلترا؛ وأرسل إدوارد رسالة رداً على غازان، وأرسل رسالة أخرى في هذا الشأن نفسه وصفه

فيها بأنه حامي المسيحيين في الشرق. إلا أن هذه المراسلات لم تتجاوز نطاق المجاملات الرسمية وذلك بسبب بعد المسافة وعدم تطابق وجهات نظر المسيحيين وغازان الذي كان يعتبر نفسه ناشراً للإسلام وبسبب الهزائم التي حلّتْ بجيشه على يد مسلمي مصر والشام؛ إلى جانب استيلاء الملك الناصر النهائي على الشام وسواحله إلى إحباط أماني المسيحيين القديمة.

أخلاقيات غازان خان:

بعد اعتناق غازان خان للإسلام أصبح من المؤمنين الجادين بهذا الدين وسعى طوال عمره إلى إقامة شعائر الدين الحنيف، وظل يسعى لنشر الإسلام بين جنوده من البوذيين والوثنيين، وكان يناقشهم بنفسه في هذا الأمر. وقد تحدثنا من قبل عن دوره في نشر الإسلام وسنتطرق إلى المزيد من ذلك بعد قليل.

كان غازان نفسه محارباً محنكاً وحكيماً، خاصة قبل توليه لعرش الإيلخانية أي في عهد ولايته على خراسان وفي حملات المغول المتوالية على ما وراء النهر حيث اكتسب مهارة فائقة في فنون القتال وتعبئة الجيوش ومنازلة العدو. ولم يكن غازان يهاب الموت، وظل طوال عمره يحض جنوده على عدم الخوف من العدو وعلى الفداء واحتقار الحياة، وكان يستدعي قواد جيشه ويعطيهم التعليمات كما كان يفعل جنكيزخان، وكان يحثهم على استغلال المسالك والأدلة والعارفين بالدروب في فتوحاتهم وتأمين المؤن والحصول على المعلومات عن طريق الجواسيس قبل التحرك. وكان يبذل كل جهده للحفاظ على النظام والانضباط في جيشه، وكان في ذلك أيضاً يتبع خطى جنكيزخان، وكان يقول إن معظم الهزائم التي تحل بالجيوش تنجم عن انعدام النظام وتفكك الصفوف في الهجوم على العدو وتُبعد الانتصار عليه.

وإلى جانب اللغة المغولية والفارسية، كان غازان ملماً بشئ من العربية والصينية والتبتية واللاتينية، وكان ميالاً للتاريخ والتعرف على أخلاق الملوك خاصة المعاصرين له. وكان كلما التقى أحداً من رعايا الدول الأجنبية يستوضحه عن هذه الأشياء. ولكنه كان يعشق التعرف على تاريخ آبائه وأجداده المغول، ولم يكن من أمرائه من هو أعلم بتاريخ المغول وأحداثهم من پولاد آقا، وبعض

المعلومات الثمينة التي سجلها رشيد الدين فضل الله في كتابه جامع التواريخ حصل عليها شفاهة من غازان خان.

كما كان غازان مهتماً بالفنون وببعض الصناعات اليدوية وعلى دراية ببعض الحرف كالبناء والرسم والحدادة وصناعة الأسلحة، وانشغل لفترة من حياته بالكيمياء والتنجيم وجمع النباتات الغريبة كعادة المغول. وكان يفكر في إنشاء مرصد بالقرب من تبريز، وأنشأ نموذجاً له في الشام.

كان زمام الأمور في عهد غازان في أيدي الأمراء والوزراء، بينما كان الإيلخان يقضي معظم وقته في الصيد. وكان يترك مهمة استقبال السفراء الأجانب وإجراء المباحثات معهم للوزراء، وهو ما أوقع الخلاف والحسد بين الأمراء والوزراء؛ فتولى غازان هذه المهام بنفسه وأخضع كل عماله صغيراً وكبيراً لأمره وقيدهم بأحكامه الشخصية. فأضفى طابعاً مركزياً على الأمور بحيث أصبح رأيه هو الفيصل ومقدماً على كل الآراء. وكلما زار البلاد مبعوث من الخارج كان يتجه إلى غازان مباشرة؛ وبدلاً من أن يكلف أحد وزرائه بالتباحث معه كان يقوم باستقباله شخصياً ويتحدث إليهم عن تاريخ بلاده وأحداث بلادهم بدرجة بهرت الجميع بفصاحته ومعارفه.

كان غازان محباً للأدب والحكمة وكان يحب مجالسة أهل الفضل ويطرح عليهم التساؤلات. وكانت لديه معلومات كافية عن الأديان والمذاهب والملل والنحل، وكان يقيم المناظرات مع مختلف الفرق المذهبية. كما كان خبيراً بقياس كفاءة الأفراد ولياقتهم ويختار كلاً من مساعديه لما يتناسب مع كفاءته، وقليلاً ما كان يصغي لسعي الواشين والمغرضين. وكان شديد البطش في عقابه للمقصرين. وحين كان يرى من عماله ومساعديه وقادته العسكريين ظلماً أو تجاوزاً، كان ينزل بهم عقاباً مشدداً. وكان مالكاً لزمام نفسه تماماً ولم تكن تصدر عنه أية تصرفات تنم عن انقياده لأهوائه؛ بل إنه كان يبطش بمن يرتكب جرائم مخلة بالشرف. وكان لا يتهاون في تنفيذ أحكامه وقواعده التي سنتطرق إليها بعد قليل. ولم يكن عهده يختلف عن سائر العهود من حيث سفك الدماء والمذابح.

الأحكام والقوانين الغازانية:

استن غازان قواعد وأحكاماً لتنظيم شؤون الرعية وجمع الضرائب ورفع المظالم وحسن الإدارة،

وقام بإلغاء كثير من الأحكام والقواعد التي كانت سائدة قبل عصره ولم تلق قبولاً عنده باعتبارها تخالف العدل والنظام. ونشير فيما يلي إلى هذه القواعد بصورة مختصرة.

١ – كانت مهمة جمع ضرائب الولايات قبل عهد غازان تسند للولاة وحكام الأقاليم بالمقاولة بحيث يوجه جزء منها للنفقات الضرورية ورواتب رجال الدين، ويسلم الباقي للمبعوثين المكلفين بذلك من قبل الديوان بإيصالات بتوقيعهم. وكان هؤلاء الولاة والحكام غالباً ما يتصفون بالظلم والجشع، وكان منهم من يطالب رعاياه بالضرائب عشر مرات أو عشرين في السنة الواحدة. فكلما جاء أحد المبعوثين من مخيم الإيلخان لتحصيل الضرائب أو لأداء مهمة أخرى، كان الوالي يتذرع بذلك ليطالب الأهالي بضرائب جديدة لسداد نفقات سفر المبعوث وتكاليف إقامته. لذا فقد كانت غاية أماني كل والٍ هو أن يأتيه مبعوث من قبل الإيلخان في أية مأمورية لكي يحصِّل المزيد من الضرائب من الأهالي بدعوى تأمين نفقات المبعوث والهدايا للإيلخان. وبعد تحصيل ما يمكن تحصيله من الناس، يحتفظ الوالى بالجزء الأكبر منها لنفسه ويوزع الباقي على القائد العسكري الإقليمي ومحصلي الضرائب حتى يتستروا على هذه التعديات ولا يدرجوا الأموال المحصلة من الناس بهذه الصورة في الدفاتر الديوانية.

وكان يفترض أن توجه حصيلة ضرائب الولايات للنفقات الجارية بإيصالات من قبل ديوان حوالة الولايات، إلا أن الولاة كانوا يبدِّدون معظم هذه العوائد على نفقات وهمية. ولم يكن عمال الديوان يفتشون على عوائد الولايات ولم يكن لديهم علم بمقدار ما وصل منها، وكانوا يصدرون الحوالات للولاة مباشرة بدون إبداء أية ملحوظات. وكان هناك رموز وعلامات خاصة بين الولاة وصاحب الديوان، فإن لم يضع صاحب الديوان هذه العلامة على الحوالة كان الولاة يمتنعون عن سدادها.

ولم يكن حكام الولايات يدفعون مالاً للخزانة الحكومية ولا كانوا يدفعون الرواتب؛ بل كانوا في بداية كل سنة يحيلون أصحاب الرواتب للتقاعد بدعوى ضرورة البدء بسداد نفقات الخزانة ومبعوثي الديوان؛ ومن هذه السنة إلى تلك، يظل أصحاب الرواتب على بؤسهم وفقرهم. ومن الولاة من كانوا أذكى من ذلك؛ فكانوا يجبرون الدائنين على التصالح على نصف مبلغ الدين

ويسلمونهم إيصالات بالسداد، ويحصِّلون هذا النصف في صورة سلع بضعف ثمنها الحقيقي. لذا فإن الدائن الذي كان يحصل على ربع دينه بعد قبول العرض المذكور، كان يعتبر نفسه من المجدودين ويتباهى على من لم يفلحوا في تحصيل شئ من ديونهم.

وإن استطاع أحد من أصحاب الرواتب أن يتحمل مشقة السفر إلى مخيم الإيلخان لتقديم شكوى ضد الوالي لعدم إعطائه حقه، فبعد التحقيق في الأمر وإثبات أحقية الشاكي ومساءلة الوالي، كان الشاكي يتلقى الرد بأن سبب حصوله على حقه هو عدم وصول الضرائب كاملة وأن حصوله على حقه مرهون بتلقي بقية الضرائب. وكانت هذه البقية في الحقيقة هي بقية الأموال التي طالب بها الأهالي بغير حق؛ لأنه كان يحصِّل معدل الضرائب الحقيقي من الرعايا عدة مرات ولم يتبق عليهم شئ من الديون حتى يحسب ضمن بقية الضرائب.

وكان الأهالي يضجون من ظلم الولاة فيهجرون أوطانهم وبلادهم فيعم الخراب المدن والقرى. وكان عمال الديوان على علم تام بهذه الأوضاع؛ ولكن نظراً لتحالفهم مع الولاة فإنهم لم يكونوا يقدمون على رفع المظالم. وهكذا فإن أصحاب الديوان والوزراء عامة كانوا ضالعين في هذا الظلم ومسؤولين عن هذه الأوضاع في قليل أو كثير. ولكن كانت مسؤولية صدر الدين خالدي الزنجاني أكبر منهم جميعاً، لأنه بلغ في هذا الشأن إلى حد غير مسبوق نتيجة لسفهه في الإسراف والعطايا، وبلغت مسألة الحوالات وعدم وصولها في عهده إلى غاية السوء. فكان صدر الدين يعطف على الدراويش والشيوخ ويمنحهم حوالة بمبلغ خمسمئة دينار على إحدى الولايات. وكان من يتلقى هذا الإنعام يفرح فيقترض على هذه الحوالة مئة دينار لسداد نفقات تحصيل الحوالة ورحلة موظف التحصيل. ولما كانت الحوالة بلا قيمة تقابلها أو يمتنع الولاة عن دفع قيمتها، كان الدرويش أو الشيخ يتنازل عن الخانقاه ويدور على الأبواب كمحصل للضرائب، وفي النهاية لا يجد سبيلاً للخلاص من شر الدائنين.

وكان الأهالي ممن يعجزون عن سداد الضرائب التعسفية يتركون بيوتهم وأسرهم؛ إلا أن المسؤولين الحكوميين كانوا يلاحقونهم بالأذى ويعيدونهم من نصف الطريق. ومن يبقى منهم في مدينته أو قريته يسد باب داره بالحجارة خوفاً من موظفي الديوان. وكان موظفو تحصيل الضرائب

نسخ من ديون الناس من واقع الدفاتر لرعايا كل قرية ومزرعة بمقتضى القانون والفرمان في حضور الأشراف والقضاة والأئمة والعدول والأعيان وإلزامهم بنقش تلك النسخ على لوح في غضون عشرين يوماً ونصبه في موضع محدد بغرض حفظه من أي تغيير أو تبديل.

«وعلى كل فرد أن يقدم شيئاً من السلع حسب المقرر للديوان الأعلى في موعد محدد، ونقش مقررات الفرمان على لوح، وأن يذهب كل فترة محصل للمدينة أو القصبة ونصب خيمة له في وسطها ليقدم له كل فرد من الرعايا ما عليه من نقد أو سلع منذ أول يوم وحتى آخر موعد محدد لذلك» (جامع التواريخ لرشيدي وحبيب السير)

٢- كان المعمول به قبل غازان أن يتم إيفاد مبعوثين لإنجاز المهام الحكومية وإبلاغ الأخبار للمدن. وقد بدأ العمل بهذا التقليد منذ عهد جنكيزخان، وأسيئ استخدامه في عصر الإيلخانات. فكان كل أميرات المغول وأمراؤهم وقوادهم يعطون خدامهم لقب مبعوثين ويوفدونهم للولايات؛ وكل من كانت له خصومة مع أحد ولم يبت فيها الوالي كان يأخذ مبعوثاً من أحد المقربين إليه. ومع أنه كان بكل محطة بريد خمسمئة حصان للركوب، لم يكن المبعوثون يجدون منها ما يكفي لأسفارهم؛ فكانوا يستولون على جياد أي شخص يتصادف وصوله إلى المحطة، ولم يستثن من ذلك القضاة والعلماء والأشراف المسافرون إلى مخيم الإيلخان؛ فكان المبعوثون يستولون على جيادهم دون رحمة. وبلغت سطوة المبعوثين إلى الحد الذي جعل قطاع الطرق يطلقون على أنفسهم لقب مبعوثين ويستولون على جياد الأهالي بهذه الصفة؛ بل زادوا على ذلك أن كانوا يستولون على كل ما يشاؤون باسم العلف من أهالي القرى التي يمرون بها على الطريق. وكان كل مبعوث يصطحب معه عدداً كبيراً من المرافقين باعتبارهم خداماً يساعدونه على سرعة إنجاز أعماله. وكان يحدث في بعض الأحيان أن يوضع في الديوان مئتا مقعد لجلوس المبعوثين. وكان من المتعارف عليه أن الإيلخان يُعجِّل باستقبال المبعوث المكلَّف بمهمة عاجلة قبل غيره من المبعوثين. لذا فقد كان المبعوثون يتشاجرون فيما بينهم على إثبات أهمية مأموريته، وتكون الأولوية لمن تكون له الغلبة.

ولدى مرور المبعوثين بالولايات، كان ولاتها يستضيفونهم في بيوت الأهالي وأصحاب الحرف؛

وكان المبعوثون ينهبون كل ما تطاله أيديهم في بيوت الأهالي؛ وكانت تصدر عن بعضهم تصرفات أخرى غير لائقة.

ولإبطال هذا التقليد الذميم، أمر غازان بإنشاء محطة بريد خاصة لمبعوثي الإيلخان المكلفين بمهام حكومية كل ثلاثة فراسخ، وبتخصيص خمسة عشر جواداً في كل محطة؛ وكل مبعوث معه وثيقة مدموغة يحصل من المحطة على حمار. وعهد بإدارة كل محطة لأحد كبار الأمراء. وأعطى لولاة الحدود مقداراً من الورق الأبيض الممهور ليعطوه لمبعوثيهم في حالة الضرورة، وأمر بعدم إعطاء كل مبعوث أكثر من أربعة حمر. وإذا كان أحدهم يحمل أخباراً عاجلة، يقوم الوالي بختم رسالته وتسليمها لعامل المحطة لكي يركب أحد خيول المحطة ويوصلها إلى المحطة التالية، وهكذا إلى أن تصل الرسالة إلى المخيم. وبذلك كان عمال المحطة يقطعون ستين فرسخاً كل يوم؛ فيقطعون المسافة من خراسان إلى تبريز مثلاً في ثلاثة أيام أو أربعة في حين أن المبعوث نفسه لم يكن يستطيع أن يقطع أكثر من أربعين فرسخاً في اليوم.

«ونفذ حكم الفرمان بتأكيد بليغ بقطع ستين فرسخاً في اليوم والليلة وكل مسرع أربعين فرسخاً، وكل رسالة يكلفون بتوصيلها يمهرونها بالخاتم المسكي ويترك في أعلاها بياض وتلصق عليها تمغة عليها صورة فارس أو محارب بدرع ويكتبون عليها أن المبعوث فلان غادر المكان في تاريخ كذا في الساعة كذا حتى يتمكن عمال محطة البريد من تجهيز الجياد الاحتياطية بعد وصوله. وإذا وصل في الموعد المحدد ووفّى بشروط السرعة والعجلة يتم رسم دائرة في أسفل الرسالة يمر قطرها من القمة إلى الوسط ويصل إلى أسفلها. وإذا تكاسل وتأخر ساعة ترسم دائرة قطرها أفقي من الشرق إلى الغرب. وحين يقف عمال المحطة على تهاونه وإهماله يبلغون الولاة ليعاقبوه ويعينوا بديلاً له على الفور. وإذا أهمل الولاة في تنفيذ حكم إلياسا تتم معاقبتهم بمقتضاها أيضاً» (تاريخ وصاف، ص٣٨٧)

وإلى جانب هذا النظام، أمر غازان بإعطاء المبعوث نفقات الطريق وبإنشاء منازل تعرف باسم بيت المبعوثين «إيلچي خانه» في كل مدينة ليقيموا بها وبعدم أحقية أي شخص عدا الإيلخان ونواب بلاطه في إيفاد المبعوثين. وفي كل محطة بريد يعين عاملان مكلفان بنقل أخبار محطات

يستعينون بالرعاع والأوباش لملاحقة الفارين، فكانوا يجرون المدينين بكل أشكال السفالة والبطش من مكامنهم، وإن لم يتوصلوا إليهم يأخذون نساءهم وأطفالهم ويطوفون بهم في الحارات والطرقات كقطعان الأغنام أو يعلقونهم من أرجلهم. وفي بعض المدن، كان الناس يفرون أو يختبؤون في السراديب بمجرد وصول موظفي التحصيل.

وقد تأثر غازان بهذه الأوضاع تأثراً شديداً وشرع في ترتيب نظام تحصيل الضرائب وكف أيدي الموظفين والولاة عن الظلم وعمل على تخليص الناس من هذا العسف. لذا فقد أمر بعدم مقاولة أية ولاية وألا يطالب الناس بالضرائب إلا مرة واحدة في السنة، وأرسل إلى كل ولاية محصلاً خاصاً لإعداد قائمة بعوائد كل القرى والقصاب التابعة لها طبقاً لآخر تقدير تمَّ عليها لإرسالها إلى غازان، ولحصر الأملاك الخاصة والأوقاف وتحديد أسماء المستفيدين من عوائدها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، واستن لكل ولاية ما يعرف بقانون الأموال. وبعد وصول هذه القوائم إلى الديوان وتنقيحها، يقوم موظفو الديوان بتحديد العوائد السنوية المفروضة وتثبيتها في الديوان، ويقوم كبار موظفي الديوان بختم قائمة ضرائب كل ولاية ووضع التمغة عليها.

كما أمر غازان بعدم قيام الولاة والمحصلين من بعد بكتابة حوالات على الرعايا، ومن يخالف ذلك من الولاة يعاقب، وتقطع يد كاتبها.

ونتيجة لهذا النظام الجديد ورفع هذه المظالم عن الرعايا وتحديد الضرائب المستحقة عن كل قرية وقصبة طبقاً لقانون محدد وثابت، بدأ العمران والرخاء يعود إلى الولايات بعد عامين أو ثلاثة وآلت أموال الخزانة كاملة إلى الديوان وتمَّ كفُّ أيدي الولاة والمحصلين والمبعوثين تماماً عن الظلم والفساد.

ولكي تظل هذه القوانين ثابتة وسارية ولا تتم مطالبة الأهالي بأعباء إضافية، أمر غازان بحفظ قوائم الضرائب والأملاك والأوقاف وأسماء المستفيدين منها في المكتبة التي أنشئت في تبريز وتسليمها للموظفين المكلفين لنقش قانون كل قطاع من قطاعات الممالك الإيلخانية على قطعة حجر أو لوح معدني والنص على لعن كل من يغير أو يبدل هذا القانون، وأمر بحفظ نسخة من هذا اللوح بمكتبة تبريز حتى يتسنى للرعايا مراجعة المكتبة في حالة فقدان الأصل. وأصدر غازان فرماناً في هذا الشأن وأرسل صورة منه لكل الولايات وينص فيه على ضرورة قيام الولاة والشرطة بإعطاء

البريد من محطة إلى أخرى عند الضرورة؛ وكان هؤلاء العمال يقطعون ثلاثين فرسخاً في اليوم.

٣- في شعبان ٦٩٨هـ، أرسل غازان مرسوماً إلى كل الأقاليم الإيلخانية يشدّد على منع إعطاء فائدة على المال، وأمر بمجازاة رجال الشرطة والولاة الذين يخالفون المرسوم. وقد دفعه لإصدار هذا المرسوم أن عدداً من التجار في عهد أباقا خان أحضروا أسلحة تشمل السهام والأقواس والدروع والسيوف إلى أحد الأمراء ليتوسط له للحصول على موافقة الإيلخان على شرائها، ودفع أباقا ثمنها للتاجر بفائدة باهظة.

وقامت جماعة من المفلسين الطامعين باقتراض قدر من الذهب من هذا وذاك على أن يسددوه بفائدة. وشيئاً فشيئاً وصل حجم مبيعاتهم من الأسلحة لأباقا درجة دفعت الإيلخان لإصدار أمر بإعطاء حوالة مالية لتجار الأسلحة الذين يبيعون الأسلحة للديوان. وأدّى ذلك إلى قيام عدد كبير من الناس باقتراض الذهب بفائدة وتصنيع الأسلحة وتسليمهالعمال مخازن الأسلحة ويحصلون منهم على صكوك بعد دفع رشوة لهم، ثم يرسلونها إلى عمال الديوان للحصول على الحوالات المالية. وكان عمال الديوان أيضاً على علم بسير الأمور فلم يكونوا يصدرون الحوالات إلا بعد الحصول على رشوة. وشيئاً فشيئاً وصل الأمر إلى حد قيام عمال مخازن الأسلحة بتزييف الصكوك باسم أمراء مخازن السلاح نظير مبلغ من المال، ثم يحررون الحوالات المالية طبقاً لها، مما أدى في النهاية إلى أن تجمعت في أيدي الناس في مدة قصيرة حوالات مالية لا تكفي كل عوائد الممالك الإيلخانية لتسديد قيمتها. وحين أدت هذه المسألة إلى متاعب خطيرة في عهد وزارة شمس الدين الجويني، تمكن الجويني بصعوبة من إقناع حملة الحوالات المالية على التصالح بمئتي دينار عن كل ألف دينار، يحصل منها مئة دينار عمولة لصاحب الديوان. وتمكن بهذه الحيلة من جمع الحوالات المالية.

وفي عهد كيخاتو ووزارة صدر جهان الزنجاني، انتشر التعامل بالفائدة بسبب شح الأموال حتى أن عمال الولايات الذين كانوا يقاولون على العوائد أبلغوا صدر جهان بعدم توفر المال اللازم لسداد ضرائب أقاليمهم. ولما كانت الخزانة في أمس الاحتياج للمال فقد أعربوا عن إمكانية الاقتراض النقدي والسلعي بالفائدة من أصحاب رؤوس الأموال والتجار بشرط أن يتحمل الديوان الخسارة في

بعض آيات القرآن وأسماء الأئمة الاثني عشر. وكان غازان يُنْعِمُ بهذا النوع من المسكوكات التي عرفت بجمالها ونقائها على من يحظون برضاه.

٥- كانت الأوزان ومعايير الكيل قبل عهد غازان تختلف من ولاية إلى أخرى بل من قصبة إلى أخرى؛ فكان وزن العشر يختلف اختلافاً كبيراً من بلدة إلى أخرى، وهو ما أدى إلى نشأة الخلافات دائماً بين حملة الحوالات المالية ومحصلي الضرائب والرعايا، وكانت ذريعة في أيدي الموظفين الفاسدين لتحصيل مبالغ أكبر من المبالغ المقررة ظلماً وعدواناً، فكانوا يسلبون من أموال الرعايا كل ما يريدون عن طريق التعذيب بدعوى اختلاف الموازين والمكاييل. وإلى جانب العيوب المذكورة كان هذا التفاوت سبباً في انكماش التجارة وإحجام الناس عن نقل رؤوس أموالهم إلى الولايات الأخرى، حيث نشأ الخلاف بين البائع والمشتري حول الوزن، وكان التعامل دائماً في غير صالح البائع؛ مما أدى إلى شح الأموال في معظم الولايات.

ولتوحيد الأوزان والمكاييل، أصدر غازان مرسوماً وأرسل نسخاً منه إلى كافة الأقاليم، وعين اثنين مكلفين بتوحيد معايير أثقال وزن الذهب والفضة والمكاييل في كل مكان على أن تصنع من الحديد وتختم. وأمر بتنفيذ الأوامر التالية:

أن تكون أثقال وزن الذهب والفضة مساوية للوزن الرسمي المعمول به في تبريز وأن يكون مثمن الشكل، وأن يعين في كل ولاية اثنين من الثقاة بحيث يقوم أحد الأشخاص الأمناء بمطابقة الثقل مع نظيره في تبريز في حضور المحتسب ثم يقوم الثقاة بختمه ولا يسمح لأي شخص آخر بصنع أثقال الوزن. وعلى الثقاة أن يسجلوا اسم من يسلمونه هذه الأثقال للتعامل بها حتى لا يتمكن من صنع أثقال زائفة واستخدامها. ويتم جمع كل الأثقال مرة كل شهر لمراجعتها ومعاقبة من يثبت عليه العمل بغيرها.

وفي وزن الأحمال أيضاً، تقرر قيام الثقاة بصنع أثقال مثمنة الشكل من الحديد تطابق أوزان تبريز وختمها، وتم صنع أحد عشر فئة من الأوزان على النحو التالي: ١٠ منات، ٥ منات، منان. نصف من، ربع من، ثمن من، ١٠ دراهم، ٥ دراهم، درهمان، درهم واحد. أما الأحمال الثقيلة التي يزيد وزنها عن عشر منات ولا يمكن وزنها بالموازين العادية فكان يتم وزنها بالموازين القباني

فئة مئة من.

وفي المكاييل أيضاً أمر غازان بإلغاء كافة المكاييل السابقة التي تعرف بالكيل والقفيز والتغار وغير ذلك، وعدم الإبقاء إلا على المكاييل المطابقة لمكاييل تبريز فئة المنين أو ٢٦٠ درهماً. وأمر بوضع نظام خاص لكل من الحبوب والغلال كالقمح والشعير والأرز والحمص والفول والسمسم، وتحديد اسم الغلة التي توزن بها بنقشه على جوانب الكيل الأربعة وختمه بخاتم الثقاة ومراجعته مرة كل شهر وتسليم المخالف للشرطة لمعاقبته بقطع يده. وتم وضع مكاييل خاصة لكل من اللبن والخل والزيت أيضاً.

٦- نظراً لما حل بالقرى والقِصاب من خراب وما حل بالزرع من بوار نتيجة للاحتلال المغولي والحروب التي نشبت في عهد الإيلخانات وظلم عمال الديوان، أصدر غازان مرسوماً يهدف إلى إعمار ما تخرَّب واستصلاح الأراضي البور حتى يتسنى تحديد أسلوب التعامل مع الديوان بالنسبة لمن يجددون منشأة أو يستصلحون أرضاً بوراً. فمن يستزرع أرضاً تتصل بنهر جارٍ دون أن يتحمل مشقة يعفى من الضرائب في السنة الأولى، وفي السنة الثانية يدفع نسبة مخفضة من الضرائب وتصل هذه النسبة إلى النصف إذا تحمل المستصلح نفقات لصعوبة الري من الأنهار وهكذا. ويتم تمليك الأرض لمن يستصلحها فلا يمنعه أحد من بيعها إن أراد.

وكانت الأراضي الإيلخانية الخاصة قد خربت تماماً قبل عهد غازان ونهبها الولاة. فأمر غازان بترك مبلغ من ضرائب كل ولاية للولاة يخصص لنفقات الزراعة على أن يطالبوا بالنتائج في السنة التالية. وفي السنة الأولى حاول بعض الولاة التهرب من سداد ذلك المبلغ بدعوى الإصابة بالآفات وفساد المحصول. فقام الديوان بأمر من غازان بمصادرة أملاكهم؛ وكانت نتيجة ذلك بدء استصلاح كل الأراضي البور وتسلم محاصيلها كاملة.

٧- كانت الطرق التجارية قبل عهد غازان غير آمنة بسبب نهب قطاع الطرق وأدلة القوافل الذين كانوا يتواطؤون مع اللصوص. فكانت أموال المسافرين وتجار القوافل تتعرض دائماً للخطر والنهب، وكان قطاع الطرق يتواطؤون مع أدلة الطريق. فكانوا يهبطون على القوافل بعد أن يتجسسوا على حركتها عن طريق بعض أهالي المدن والقرى. فيبدؤون بتحصيل مبلغ من كل قافلة

ذلك. ووافق صدر الدين على ذلك. وكانت نتيجة ذلك أن قام مقاولو الولايات بإقراض السلعة التي تساوي عشرة دنانير بثلاثين ديناراً ويسجلونها في حسابات الديوان بأربعين ديناراً، بينما كان عمال الديوان يبيعون السلعة التي تساوي عشرة دنانير بالمبلغ نفسه، يخصمون منها أربعة دنانير لأنفسهم ويعطون صدر جهان ستة الدنانير الباقية ويدعون أنها لم تساو أكثر من ذلك. وهكذا كان يصل إلى الخزانة من كل أربعين ديناراً ستة دنانير، مما أدى في النهاية إلى تداعي الأوضاع المالية لحكومة كيخاتو وانتهت بإصدار العملات الورقية واختلال الأوضاع في عهد ولايته ووزارة صدر جهان.

وقام غازان بالقضاء على كل هذه الاختلالات وألغى هذا النوع من التعاملات بموجب المرسوم الذي أصدره.

٤ـ كان ولاة كل من بلاد الروم وأذربيجان وفارس وكرمان وكرجستان ومازندران يضربون المسكوكات قبل عهد غازان بمعايير مختلفة. ولما كان عيار المسكوكات غير موحد في كل أقاليم المملكة، فقد اختلت التعاملات وتضرر التجار. وأصدر أرغون خان في عهد حكمه مرسوماً بجعل عيار الذهب والفضة في كل أقاليم الدولة تسعة أعشار، وطبق غازان هذا المرسوم نفسه، ولكن نظراً لعدم كفاءة الإيلخانات فإن أحداً منهم لم يطبقه ولم يتجاوز عيار الذهب والفضة ثمانية أعشار.

وتم جمع كل المسكوكات الزائفة في كل أقاليم الدولة بأمر من غازان وعدم تداول أية مسكوكات عدا تلك التي ضربت بأمره. وكان عمال الدولة يصادرون المسكوكات الأخرى ويرسلونها إلى دار المسكوكات لضبط عيارها.

وانتشرت المسكوكات الغازانية التي كان ينقش عليها اسم غازان والشهادتان واسم المدينة التي ضربت فيها في كل الأقاليم واختفت كل المسكوكات الزائفة. وكانت ثمرة جهوده في هذا الصدد ونتيجة لنقاء المسكوكات الغازانية أن توفَّر الذهب والفضة بعد أن شحا من أيدي الناس لمدة في إيران بسبب حملهما إلى الهند واستهلاكهما في المنسوجات النفيسة.

وإلى جانب المسكوكات المتداولة، ضرب غازان مسكوكات خاصة تعرف بالذهب الخالص ويبلغ وزنها مئة مثقال في مختلف الأقاليم، ونقش عليها اسمه واسم المدينة التي ضربت فيها مع

بدعوى رسم الطريق؛ ثم يعطلون القوافل بزعم وجود لص أو قاطع طريق حتى يصل شركاؤهم من اللصوص وينهبون أموال المسافرين والركاب. فأمَّن غازان الطرق واعتقل قطاعها وعاقبهم، وعين حراساً أمناء في المنازل المعرضة للخطر، وقرر تحصيل رسم محدد عن كل دابة وعهد إلى الحراس بمسؤولية الطرق. وإذا حدثت سرقة على الطريق فعلى حارس النقطة إما أن يلقي القبض على اللص أو أن يسدد قيمة الأموال المسروقة. وأمر بنصب أعمدة من الحجارة أو الجص على الطرق وعليها لوحات مدون عليها عدد عمال الطريق والرسم المقرر على كل دابة.

٨- كان مرافقو الإيلخانات والأمراء وجمَّالتهم وحماروهم وحمالوهم يحصلون على مبلغ مالي لنفقاتهم من الأثرياء في كل نقطة ينزلون فيها قبل عهد غازان. وكان ثلاث أو أربع مجموعات من هذه الفئة من الناس يهبطون على أثرياء المسافرين كل يوم وينهبون ما معهم قسراً. فأمر غازان بأن ينادي المنادي في أسواق كل مدينة بالا يدفع أحد منذ ذلك التاريخ ديناراً واحداً لمرافقي الركب وحماليهم وجمَّالتهم تحت أي مسمى، وأنه إذا بلغه أن أحداً قد أخذ من أحد شيئاً بالقهر والظلم فإنه سيسترده منه بعد عقابه. وكان غازان نفسه وجيشه حيثما نزلوا كانوا يشترون ما يحتاجونه بثمن عادل ولم يكن هناك من يتعرض للرعايا والعامة.

٩- ومن إصلاحات غازان الأخرى إصلاح نظام إصدار المراسيم والفرمانات والذي كان قد ساء لدرجة كبيرة في عهد من سبقه من الإيلخانات بحيث إن كل من أراد تسهيل أعماله كان عليه الرجوع إلى أحد الأمراء أو الوزراء للحصول على توصية بما يريد. لذا فإن الأمراء والأعيان في تلك العهود كانوا يتسلمون الكثير من المراسيم المتناقضة. فأمر غازان أولاً بالا يقوم أي من الأمراء والوزراء والحاشية بعرض أي من المهام الملكية عليه في مجالس الشراب؛ ثانياً، كل حكم يصدر يتم الاحتفاظ بنسخة منه، ثم يتم عرضه عليه ليصدر المرسوم وفقاً له. وكان غازان على خلاف سابقيه يحتفظ معه بمفتاح الصندوق الذي يضم الختم الأعظم. وعندما كان يتجمع له عدد من المراسيم الجاهزة للختم، كان يسلمه لأحد مساعديه المعتمدين ليخرج الختم ويمهرها، ثم يعيده إلى الصندوق ويعيد مفتاحه إلى غازان ويدون ملحوظات عن المراسيم وعمن كتبها وتاريخها وفحواها ومن قام بعرضها؛ وتم تخصيص دفتر لذلك يتم تجديده سنوياً.

وكان نظام ختم الحوالات المالية والمراسيم يتلخص في أن يقوم غازان بختمها على الظهر بالخاتم الأكبر (قرا تمغا) الذي كان منقوشاً عليه شكل رؤوس أربعة حراس، ويسلمه لموظفي الديوان ليمهروها بخاتم الديوان. وكل مرسوم أو حوالة مالية لا تتوفر فيه هذه المواصفات لا يكون له أي اعتبار. وكان لدى غازان عدة أختام على النحو التالي: الختم الأكبر وكان مصنوعاً من اليشب ويستخدم لختم مراسيم تولية السلاطين والملوك والأمراء. أما فرمانات تعيين القضاة والعلماء والمشايخ فكانت تمهر بخاتم آخر مصنوع من اليشب أيضاً ولكنه أصغر حجماً. وكانت الأوراق الحكومية المتوسطة الأهمية تمهر بخاتم كبير من الذهب (آلتون تمغا)، والأوراق الأقل أهمية بخاتم صغير من اليشب، وأوراق الجيش بخاتم من الذهب نقشت عليه صورة قوس وهراوة وسيف. وكان أفراد الجيش لا ينحنون لأحد ولا يتبعون أحداً ما لم يروا هذا الخاتم الأخير على مرسوم معه.

وكان كتبة الديوان يسجلون في دفاترهم نسخاً من الأحكام والفرامين والمراسيم الصادرة بأمر إيلخاني ليعرضوها عليه في موعدها فيمهرها بالخاتم الذهبي. وبعد مدة أدرك غازان استحالة عرض كل هذه النسخ نظراً لكثرة المهام واختلاف أقسام العمل، أمر الكتبة بإعداد نسخة من كل مهمة، وبعرضها عليه بعد أن يقوم الوزراء والأمراء بتعديلها؛ وبإعداد دفتر لمجموع هذه النسخ. فتم إعداد دفتر رسمي خاص يعرف باسم «قانون المهام» يرجع إليه المساعدون وقت الحاجة لمراجعة حكم القانون فيستنبطون منه الحكم اللازم. وإذا دعت الحاجة إلى إجراء تغييرات في نص الحكم، كان يتم تدوين التعديلات على ورقة مستقلة تعرض على الإيلخان؛ وبعد تصديقه عليها يتم إدخالها في صلب الحكم، مما أدى إلى توحيد نصوص الأحكام ورفع اختلاف العبارات والنصوص.

وكانت الأختام التي تعطى للولاة لا تسترد منهم بعد عزلهم. لذا فقد كان الحكام المعزولون يستخدمونها لمدة بعد عزلهم. فأمر غازان بجمع كل الأختام السابقة وإعطاء السلاطين والملوك والولاة وقواد الجيش خاتماً كبيراً نقشت عليه رأس أسد واسم الشخص الذي تسلمه، وبتسجيل أسماء حملة هذه الأختام في دفتر، وتسترد منهم هذه الأختام بعد عزلهم. وتم إعداد أختام أصغر لصغار الحكام. وكان يعهد بمهمة صنع الخاتم لصائغ أمين لديه ختم خاص يمهر به الخاتم في حضور نواب غازان حتى لا يقوم أحد بتزويره. كما تم إعداد خاتم خاص للمبعوثين يحتفظون به طوال مدة

مأموريتهم، ويسترد منهم بعد عودتهم.

١٠- قرر غازان بموجب حكم أصدره حظر معاقرة الخمر والسكر في الطريق العام، وأمر بتجريس المخالف وتعليقه على شجرة.[٢] وأرسل مراسيم متواترة إلى الولايات بهذا الشأن. كما أمر بعدم التجديف في الكلام. وأمر بألا ينسب أحد ما يتحقق لشخصه أو لجيشه من توفيق لكفاءته وخبرته، بل ينسب كل توفيق إلى الله؛ أما كل شر يصدر عن المرء فلا ينسب إلا إلى الشخص نفسه. وأمر بخفض معدل صداق العروس في عقود الزواج إلى تسعة عشر ديناراً ونصف الدينار حتى لا يتحول الطلاق إلى مشكلة إذا لم يحدث وفاق بين العروسين.

١١- ومن أكبر إصلاحات غازان تنظيم عملية المرافعات واختيار القضاة والشهود والتعاملات العرفية حيث ازدهرت عمليات التزوير قبل عهده بسبب عدم التدقيق في اختيار القضاة وارتشائهم. فكان القضاة يؤجرون مناصبهم، وانتشرت شهادات الزور وتزوير الصكوك والحجج والرشاوي وتقليد الخطوط. ولإلغاء هذه المفاسد وإصلاح التعاملات والمرافعات، أصدر غازان أربعة مراسيم على النحو التالي: المرسوم الأول بخصوص منصب القضاء؛ والثاني بشأن انقضاء الدعوة إذا مر عليها أكثر من ثلاثين سنة؛ والثالث بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع؛ والرابع فيما يتعلق بتأكيد المراسيم الثلاثة الأولى وتكميلها.

«وخلاصة أحكام غازان خان كما يلي: على القاضي ألا يستدعي أحداً من الأمراء والولاة والوزراء إلى داره، وعلى الجميع أن يلجأ إلى المحكمة للفصل في القضايا. وليس للقاضي أن يأخذ من الناس شيئاً تحت أي مسمى، وحين يكتب حجة جديدة يقوم ببل المستند القديم في إناء العدل. وكل مستند يعود تاريخه إلى أكثر من ثلاثين سنة يتم إعدامه في هذا الإناء نفسه. وكل من يرتكب تزويراً تحلق لحيته ويوضع على ظهر ثور ويطاف به في المدينة. وعلى القاضي أن يمنع الناس من كتابة المحاضر؛ وإذا استدعى المدعى عليه جماعة من الناس إلى دار القضاء للدفاع عنه فعلى القاضي ألا يبدأ في نظر قضيته إلا بعد خروجهم من المحكمة. وفي القضايا التي يكون طرفاها اثنين من المغول أو تركي وعربي، يجتمع الحكام والقضاة والعلماء بالمسجد الجامع يومين في الشهر ويجلسون في ديوان المظالم للفصل في هذه القضايا. وعليهم أن يوقعوا على كل الدعاوى

ويسجلوا كيفيتها. وكل ملكية متنازع عليها لا يشتريها أمهات المغول وأحفادهم وخوانينهم وأبناؤهم وبناتهم وأصهارهم وأمراؤهم والمشايخ والعلماء ورجال الديوان. وعلى القاضي أن يحرص كل الحرص على كتابة الصكوك لكل الطوائف؛ وإذا علم بوجود شخص آخر يكتبها فعليه أن يمنعه. وعلى القاضي أن يعين من أهل الثقة شخصاً متديناً لكتابة تاريخ الصكوك وحفظ سجل اليوميات، وإذا باع شخص ملكاً له مرة أو رهنه عليه الا يبيعه مرة أخرى أو يرهنه. وإذا ثبت أن شخصاً فعل ذلك تحلق لحيته ويطاف به في المدينة. وإذا ثبت علم مساعد القاضي بذلك وإخفاؤه له فإنه يجرم ويستحق القتل والسلام على من اتبع الهدى.

ومضمون المرسوم الثاني كما يلي: لما كان همنا منصرفاً تماماً إلى الفصل في شؤون الناس بالعدل ورفع أسباب النزاع بينهم وسد أبواب التزوير فقد أمرنا قضاتنا مرات ومرات بأن يفصلوا في قضايا الخلق وفقاً للشريعة الغراء، فلا ينظروا في الصكوك التي مر عليها ثلاثون سنة أو ثبت فيها الباطل بحماية أحد الأقوياء. وعليهم الا يدعوا الفرصة لأحد للتمرد. وإذا الح عليهم أحد من أهل السلطة لمخالفة المرسوم فعليهم أن يعرضوا علينا ذلك حتى نعاقبه فيكون عبرة للعالمين. وقد ختم غازان خان هذا المرسوم في منزل الكشاف على حدود الموصل في الثالث من رجب سنة تسع وتسعين وستمئة وأمر بإرسال نسخ منه إلى كل القضاة في أنحاء البلاد والحصول على وثيقة بتوقيعهم وخطهم بأن يجتنبوا الهوى والنفاق والتزوير في فصلهم في القضايا الشرعية وألا يخالفوا مضمون الفرامين المطاعة. وإذا خالفوا ونظروا في قضايا مر عليها ثلاثون سنة فإنهم يستحقون العقاب والتعذيب والتأديب والعزل.

وفحوى المرسوم الثالث أنه من بين عظائم الأمور التي تقع بين العالمين الدعوى بالباطل بناء على مستندات قديمة. فقد ينسخ بعض المزورين صكوك ملكيتهم أو ينسخون مستندات مكررة باسم أولادهم، وبعد بيعه يعطون للمشتري صكاً ويحتفظون بالآخر. وبعد أن تنتقل الملكية لعدد من الناس يقوم أحد ورثة البائع الأصلي بإظهار الصك الآخر ويثبت ملكيته له بشهادة شهود الزور. فيحكم القاضي بصحة تلك القضية حسب المثل الذي يقول إن القاضي يقف عاجزاً أمام شاهدين. وقد أمرنا بالهمة في مثل هذه القضايا الباطلة، فإذا جاء إلى المحكمة شخص لبيع ملك له ويثبت

ملكيته له بناء على شهادة شهود عدول فعليه أن يقر أمام القاضي أن أي صك آخر يظهر بعد ذلك يكون باطلاً . فيسجل القاضي هذه المرافعة ويشرحها تفصيلاً . وليس لأي كاتب أن يكتب الصكوك غير كاتب المحكمة وعلى القاضي ألا يسمح لغيره بذلك . وكل كاتب يكتب حجة قيمتها مئة دينار يحصل على درهم واحد أجراً له، وإن زادت القيمة على مئة دينار يأخذ ديناراً واحداً أجراً له ولا يطلب المزيد . وإذا جلس القاضي في المحكمة فعليه أن يضع أمامه طاساً به ماء يغمر فيه الصكوك القديمة بعد الفصل فيها في ذلك الطاس الذي يعرف بطاس العدل . وإذا تبين حصول أحد المحامين على شيء من المتخاصمين، تحلق لحيته ويجرس ويشهر به . وكل قاض يخالف هذا الفرمان يعاقب بالعزل .

أما المرسوم الرابع فيشتمل على تأكيد للأحكام المشار إليها في الفرامين الثلاثة الأولى وعلى عدة أحكام أخرى . فقضاة الممالك من ضفاف نهر آموية وحتى حدود مصر يولون أهمية غير معهودة للشهود ولا يقنعون بالشخص الذي تثبت براءته دون شهود . وفيما يتصل بختم السجلات والحجج، فعليهم ألا يختموا الصحائف بأختامهم إلا بعد ثبوت خلوها من البطلان والتزوير . وإذا عرضت عليهم وثيقتان تناقض إحداهما الأخرى بيد شخصين متنازعين فعلى أئمة دار العدل وعلمائها أن يحققوا في القضية ويغمروا الوثيقة الباطلة في طاس العدل . وإن لم يتم الفصل في القضية في جلسة واحدة يتم تسليم كلتا الوثيقتين لأحد الأمناء ولا يردها للمتخاصمين إلا بعد رفع الالتباس تماماً وعودة الحق لصاحبه . وإذا ثبت أن شخصاً باع ملكاً له ثم أظهر حجة تثبت ملكيته له وادعى بذلك فعلى القضاة ألا ينظروا في القضية أصلاً وذلك حسب ما حكم به السلطان ملكشاه السلجوقي؛ بل عليهم أن يتركوا ذلك الملك في حوزة الشخص المتصرف نفسه فيه .

وحين وصل هذا المرسوم إلى الخاتم الملكي، أمر غازان خان بنسخه وإرسال نسخه إلى أنحاء البلاد حتى تزدهر شريعة خير الأنام عليه الصلاة والسلام وينقش أهل المناصب الشرعية نقش الأمانة والدين على ألواح قلوبهم» (حبيب السير، ج٣، ص٩٣)

١٢- لم يكن لتعيينات الجنود وقواد الجيش نظام ثابت قبل غازان خان؛ بل كان بعض القادة

يحصلون على كمية محددة من الغلال. فحدد غازان خان رواتب للجنود يزيد معدلها سنوياً. وكان غلال الجنود قبل عهده يُصرفُ بناء على حوالات تكتب للولايات، ولم تكن هذه الحوالات تصل غالباً مما كان يسبب المتاعب للرعايا والجنود. فأمر غازان خان بتشوين الغلال الديوانية في موقع محدد بكل ولاية تحت إشراف القائد العسكري للمنطقة بحيث يتم صرفها بمجرد وصول الحوالة حتى لا تنشأ المتاعب للرعايا. وفي سنة ٧٠٣هـ، صدر مرسوم بتحديد إقطاعات للجنود. وكان مضمون هذا المرسوم يقضي أولاً بسريان القاعدة السابقة فيما يتعلق بالأملاك الديوانية، وأن يدفع الرعايا الأموال المفروضة عليهم للجنود. ثانياً، إذا وجدت في المعسكر أراض ديوانية بور فعلى الجنود أن يستزرعوها ويوجهوا حاصلها لنفقاتهم. ثالثاً، لا ينبغي لهم التصرف في الأملاك والأراضي والمياه الوقف ولا يطلبون أموالاً منها. رابعاً، إذا قام الجنود باستصلاح أرض بور وأثبت أحد الناس ملكيته لها أو وقفها فعلى مالكها أو متوليها أن يدفع عشر محصولها للديوان ويقسم الباقي مناصفة مع زارعيها. خامساً، يجب على الجنود أن يعيدوا رعايا الأراضي البور إلى أراضيهم لاستصلاحها وألا يتركوا أرضهم لهم، وألا يتدخلوا في القرى والمزارع المجاورة لهم وألا يتصرفوا في الأراضي المخصصة للعلف ورعي الماشية. سادساً، ينبغي تقسيم الأراضي المخصصة للجنود على يد جماعة من أهل الخبرة معهم موظف ديواني بالقرعة بين كتائب الجيش، ثم يقوم الموظف الديواني بتسجيل السهم المخصص لكل كتيبة في دفتر خاص ويرسل نسخة منه للديوان ويسلم الدفاتر لأمير الكتيبة ومراجعة أحوال الكتائب سنوياً وفقاً للدفاتر ومعاقبة المخالف منها. سابعاً، ليس لأحد الحق في بيع سهمه أو التنازل عنه، وعقاب المخالف هو القتل. وإذا توفي صاحب السهم يؤول سهمه لأحد أبنائه أو إخوته. وفي حالة عدم وجود ابن أو أخ له، يؤول سهمه لغلامه؛ وإن لم يكن له غلام يؤول إلى أحد أفراد الكتيبة من ذوي الكفاءة. ثامناً، إذا قام أحد بتحريف الأحكام الغازانية أو خالفها يصادر سهمه بعد تصديق أمراء الكتيبة. تاسعاً، لما كان سهم كل من أمراء الكتائب محدداً، فليس لأحد من الأمراء الحق في التصرف في سهم كتيبته أو كتابة حوالة بها. وعلى أفراد كل كتيبة أن يمتنعوا عن التعدي على رعاياهم، ويعاقب المخالف.

وبعد إبلاغ هذه الأحكام، قام غازان خان باستعراض جيشه، وبعد زيادة عددهم أرسل جمعاً

منهم لحماية الحدود، وقرر استعراض جيشه مرة كل سنة والتفتيش على أسلحته ومؤنه وأفراده.

«يُروى أنه في أواسط عهد ذلك الملك الهمام، بلغه أن هناك نزاعاً بين أولوس جوجي خان وجغطاي وأقطاي، فأخذ كل منهم يعتدي على اسطبلات الآخر ويأسر عياله ويبيعهم للتجار. فغضب وقال كيف يجوز لذرية المغول أن يباعوا كخدم، وأمر كل طفل مغولي يعرض للبيع يتم شراؤه لحساب الإيلخان وإعادته لخدمة العتبات الملكية. وفي غضون عامين، تم شراء ما يقرب من ألف مغولي وتم تعيين كتيبة لهؤلاء العبيد في ولاية مراغة وعهد بها إلى پولاد تشينج سانج» (حبيب السير، ج٣، ص١٠٣)

١٣- كانت هناك جماعة من صناع الأسلحة قبل عهد غازان خان تحصل على أعلاف وتعيينات سنوية لتوريد أسلحة لجيش الإيلخان. وتوقفت هذه الجماعة عن توريد الأسلحة بسبب اضطراب الأمور. فأمر غازان بقطع تعييناتهم جميعاً وأمر بتسلم مئة طاقم من الأسلحة سنوياً من صناع الأقواس والسهام والسيوف بأسعار اليوم وبتعيين موظف أمين يتسلم هذه الأسلحة منهم، وبتخصيص ضرائب إحدى الولايات لسداد قيمة هذه الأسلحة. وبذلك تم تجهيز عشرة آلاف رجل بالأسلحة كل سنة، في حين أن ضعف هذا المبلغ كان ينفق كل سنة دون أن يزيد عدد المسلحين على الألفين.

١٤- ومن إصلاحات غازان وضع التقويم الإيلخاني أو التقويم الغازاني. وقد وضعه لمطابقة التقويم القمري على التقويم الشمسي. فنظراً لتراجع يوم النيروز ووجود فارق قدره ثلاث عشرة سنة بين التقويمين القمري والشمسي، أمر غازان خان في ١٣ رجب ٧٠١هـ ببدء تطابق السنة القمرية والشمسية الذي ظل متوقفاً منذ عهد الخليفة العباسي المعتضد والديالمة. إلا أن هذا التقويم لم يستمر وسرعان ما توارى.

العمارة الغازانية:

كان غازان خان من الملوك المحبين للعمارة والبناء. وكانت عادة إيلخانات المغول أن يواروا جثمانهم في مواضع سرية بعيدة عن العمران والزراعة؛ ممنوع دخولها. فأراد غازان خان بعد إسلامه

أن يتشبه بملوك المسلمين، فبنى مقبرة له في حياته وخصص لها الأوقاف ليتعيش منها الزهاد وأهل التقوى ويذكرونه بالخير بعد وفاته. لذا فقد أنشأ قبة تعد من عجائب العمارة الإسلامية بموضع في تبريز سمي فيما بعد بشنب غازان أو شام غازان على مسافة ربع فرسخ إلى الجنوب من تبريز. وبلغ سمك جدرانها ثلاثة وثلاثين طوبة متجاورة يبلغ وزن كل منها عشرة منات(٣) وشارك في بنائها أربعة عشر ألف عامل، ثلاثة عشر ألفاً منهم كانوا ثابتين وألف من العمال المؤقتين. وبلغ ارتفاع القبة ١٢٠ ذراعاً وطول جدرانها ٨٠ ذراعاً وشرفاتها عشرة أذرع وقطرها ١٥٣٠ ذراعاً، وكان لها اثنا عشر ضلعاً نقشت على كل منها صورة برج. وزينت القبة من الداخل والخارج بنقوش وخطوط جميلة ولم يستخدم في طلاء سقفها سوى ثلاثمئة مَنٍ من اللازورد. وعُلِّق في داخل القبة ثمانون قنديلاً من الذهب والفضة يبلغ وزن كل منها خمسة عشر مناً، وبلغ وزن أحدها ألف مثقال من الذهب.

وبعد إتمام بناء القبة، أمر غازان خان بوقف أملاكه الخاصة في كل من إيران والعراق لهذه القبة وعهد بها إلى خواجه سعد الدين الساوجي وخواجه رشيد الدين فضل الله. ثم أمر بإنشاء المباني التالية حول القبة:

١- مسجد جامع ٢- المدرسة الشافعية ٣- المدرسة الحنفية ٤- خانقاه للمتصوفة ٥- دار السيادة لإقامة الأشراف ٦- مرصد ٧- مستشفى ٨- دار للكتب ٩- دار القانون لحفظ الدفاتر والقوانين التي استنها غازان خان ١٠- دار المتولي حيث تم تكليف متولٍ لتنظيم شؤون الناس وإقامتهم ١١- حكمتية لإقامة الحكماء وتعليم الحكمة ١٢- بستان وقصر العادلية ١٣- حمَّام. وعيَّن غازان خان عدداً من حفظة القرآن لخدمة مقبرته ودار السيادة والخانقاه والحمَّام، وعدداً من أمناء المكتبات لدار الكتب ومعلمين للمدرستين والحكمتية والمرصد، وأطباء وكحالين للمستشفى وأجرى لهم رواتب ثابتة على أن يواظبوا على أعمالهم. كما أمر بتقديم الطعام للفقراء والمساكين في الخانقاه ليل نهار وأن يجتمع المتصوفة مرتين في الشهر لإقامة حلقات الذكر.

بلغت عوائد الأوقاف التي وقفها غازان خان على الأبنية المذكورة مئة تومان مغولي في السنة. ونظم عملية تسليم هذه العوائد وعهد بإدارتها إلى اثنين من كبار أمرائه هما قور تيمور وترنغاي.

وكانت شروط الوقفية على النحو التالي:

«وتم توظيف جماعة من الأشراف والعلماء والحكماء من أفاضل العصر في المواضع المذكورة وتم توطينهم فيها على ألا يتغيبوا عنها إلا للضرورات الشرعية. وبعد وفاة صاحب الوقف يقوم كل من أمراء المغول والأشراف بزيارة ضريحه فيصطحبهم خدام الضريح إلى قصر العادلية القريب منه ويستضيفهم من عوائد الأوقاف. وفي الذكرى السنوية لصاحب الوقف تقام وليمة كبرى يجتمع حولها علماء تبريز وأعيانها لختم القرآن. وفي ليالي الجمعة، تصنع الحلوى في المسجد الجامع والمدرستين والخانقاه لسكان تلك المواضع، وكذلك في العيدين وسائر الأيام والليالي المباركة، حيث توزع الحلوى اللذيذة على المجاورين والزوار. كما عينَّ خمسة معلمين يقيمون في الكتّاب لتحفيظ القرآن لمئة طفل يتيم وإجراء الرواتب للمعلمين والأطفال من الوقف. وقرر تقديم مبلغ لكل معلم عن كل طفلٍ يتِمُّ حفظ القرآن وصرف مبلغ لختان الطفل. وأمر بشراء مئة مصحف هدية للكتّاب كل سنة وتعيين خمسة نساء لرعاية الصبية. وقرر شراء ألفي ثوب من جلود الأغنام وتقديمها للمحتاجين. وأمر بإيواء الأطفال الذين تتركهم بعض النسوة على الأبواب وعلى قارعة الطريق وتعيين حاضنة لرعايتهم وصرف كل ما يحتاجه الطفل حتى يبلغ سن الرشد. وكل غريب توافيه المنية في تبريز ولا يملك من المال شيئاً يتمُّ تكفينه ودفنه. وأمر بنثر عدة أحمال من القمح والذرة على أسطح الأبنية المذكورة لتلتقطها الطيور طوال أشهر الشتاء الستة، وألا يصيد أحد هذه الطيور. وأمر بتقديم ألفي مَنٍ من القطن المحلوج لخمسمئة من النساء العجزة كل سنة بحيث يبلغ نصيب كل منهن أربعة منان. وأمر بتعيين متولٍ أمينٍ في تبريز بحيث إنَّه إذا جاء غلام أو خادمة بوعاء لملء الماء فكسره وخاف من سيده يقوم المتولي بتعويض صاحبه بشراء صحن بديل عنه. وأمر بتنظيف الطرق المحيطة بتبريز من الأحجار حتى مسافة ثمانية فراسخ وبإقامة الجسور على الترع حتى يتمكن الفقراء من عبورها بسهولة. ونسخ سبع نسخ من الوقفية بالشروط المذكورة بخط العلماء والقضاة على أن يحتفظ متولي الوقف بنسخة منها وإرسال نسخة إلى مكة زادها الله تعظيماً، ويحتفظ بنسخة ثالثة في دار القضاة بتبريز؛ ونسخة رابعة لقاضي بغداد، والنسخ الثلاث الأخرى للأشراف ليحفظوها بحيث يمكن الرجوع إلى إحداها إذا ضاعت الأخرى أو تقادمت. وأمر بمراجعة

قضاة بغداد وتبريز للوقف وصحة شروطه كل حين ويجددوا شهوده. وقرر أن كل من يعين بمنصب القاضي منذ ذلك الحين تكون أولى مهامه القضائية تسجيل تلك الوقفية، ثم يشرع في الفصل في سائر القضايا» (حبيب السير، ج٣، ص١٠٨)

وإلى جانب الأبنية المذكورة، أعاد غازان خان بناء مدينة أوجان كاملة في سنة ٦٩٨هـ وأنشأ فيها أسواقاً وحمّامات جديدة، وأنشأ خانقاه جديدة في همدان وأنشأ الحصون حول تبريز وشيراز، وأمر بترميم قلعة تبريز في سنة ٧٠٢هـ. وبلغ طول حصن تبريز أربعة وخمسين ألف قدم (قرابة أربعة فراسخ ونصف الفرسخ) وعرضه عشرة أذرع ونصف الذراع، وكانت له خمس بوابات كبيرة وثماني بوابات صغيرة.

السلطان محمد خدابنده أولجايتو (٧٠٣-٧١٦هـ):

عين غازان خان في حياته أخاه محمد ولياً للعهد وخليفة له كما سبقت الإشارة، إلا أن محمداً لم يكن موجوداً في المخيم حين وفاة غازان، بل كان في خراسان التي تولّى حكمها وإدارة شؤونها. وكان الأمير مولاي أحد أمراء غازان يبلّغ محمداً سراً بأوضاع المخيم وما يخطط له الأمراء المتمردون، وكان يطلعه بصفة خاصة بما يخطط له دعاة ولاية آلافرنك بن كيخاتو، وأوعز إليه أن هذا الأمير يفكّر في تولّي العرش بمساندة هرقداق قائد جيش خراسان الذي كانت زوجته ابنة قتلغشاه ابن أخت آلافرنك، وأن محمداً لو شاء أن يعتلي العرش في سلام لمواصلة الإصلاحات التي بدأها أخوه، فعليه بداية أن يؤمّن نفسه من ناحية آلافرنك وهرقداق. وفي مجلس المغول الأعلى الذي عقد بعد وصول نبأ وفاة غازان رأى محمد أنه من الأصلح له أن يفرغ من أمر آلافرنك وهرقداق قبل انتشار الخبر. لذا فقد عهد بهذه المهمة لثلاثة من أمرائه. فاختلوا بآلافرنك قبل أن يعلم بخبر وفاة غازان وانقض أحدهم عليه بالسيف ففصل رأسه عن جسده. وتمكّن هرقداق من الفرار ولكنهم سرعان ما أمسكوا به وقتلوه مع اثنين من إخوته وأبنائه الثلاثة، وبذلك تخلّص محمد من عقبة كبرى في أول خطوة له.

وبعد إخماد فتنة آلافرنك وهرقداق والاطمئنان إلى طاعة جنوده وتهدئة الأوضاع في خراسان،

اتجه محمد إلى تبريز العاصمة، ورافقه في رحلته جمع من قواده وكبار أمرائه منهم مولاي وسونج وإيسن قتلُغ وعلي قوشچي وحسين بيك. وفي الخامس من ذي الحجة ٧٠٣هـ، وصل محمد وركبه إلى أوجان حيث أقام عزاء أخيه. وفي ١٥ ذي الحجة، ارتقى عرش الإيلخانية بينما وقف قتلغشاه والأمراء چوپان وفولادقيا وسونج وإيسن قتلغ إلى يمين عرشه وأميرات أسرة جنكيز إلى يساره وسائر الأمراء أمامه، واصطف جنده وراء خيمة الإيلخان الخاصة.

اختار محمد بعد جلوسه على العرش لنفسه لقب السلطان أولجايتو أي السلطان المغفور له، وكان في الثالثة والعشرين من عمره. وكان محمد هو الابن الثالث لأرغون خان، وهو حفيد شقيق دوقوز خاتون من ناحية الأم. ونظراً لميل محمد إلى المذهب الشيعي، فقد لقبه الشيعة بخدابنده؛٤ في حين حرَّف أهل السنّة هذا اللقب إلى «خربنده».(٥) لذا فإنه يذكر في كتب الأقدمين بكلا اللقبين.

وبعد ثلاثة أيام من ارتقائه عرش الإيلخانية، أصدر أولجايتو مرسوماً بإقامة شعائر الإسلام واحترام الأحكام الغازانية وخلع على الأمراء وقادة الجيش، وعين قتلغشاه قائداً عاماً للجيش ورفعه إلى صدارة رجال الدولة، ووضع كلاً من الأمراء چوپان وفولادقيا وحسين بيك وسونج وإيسن قتلغ تحت إمرته؛ وأبقى على رشيد الدين فضل الله الطبيب الهمداني وزيراً له كما كان في عهد أخيه، وعين خواجه سعد الدين محمد الساوجي مساعداً له لشؤون الديوان والوزارة، وعهد بالأوقاف إلى كل من قتلغ قيا وبهاء الدين يعقوب، وأطلق سراح رسولي سلطان مصر وأبقاهما في خدمته، وكانا قد وفدا إلى إيران في آخر سنوات حكم غازان وتم احتجازهما بأمر منه.

وبعد دخوله تبريز، استقبل أولجايتو سفراء تيمور قاآن (٦٩٤-٧٠٦هـ) خليفة قوبيلاي قاآن وأولوس أقطاي وجغتاي. وأسفر هذا اللقاء عن توطيد أواصر الصداقة بين إيلخان إيران وامبراطور الصين وخلفاء أقطاي وجغتاي. وبعد قليل، ذهب أولجايتو إلى مراغة وزار المرصد وعين أصيل الدين بن نصير الدين الطوسي لإدارته. وبعد عودته إلى تبريز، اتجه إلى صحراء موغان لقضاء الشتاء بها. ومن مراغة أعاد أولجايتو رسولي سلطان مصر اللذين كان قد أطلق سراحهما إلى بلادهما بصحبة رسل من قبله كلَّفهم بمطالبة سلطان مصر في المقابل بإطلاق سراح إيرنجين شقيق سونج

الذي كان قد أسر في آخر المعارك التي نشبت بين غازان ومسلمي مصر والشام، وتسليمه رسالة مودة.

وفي سنة ٧٠٥هـ أي في السنة الثانية من ولاية أولجايتو، وجه تاج الدين كورسُرخي تهمة اختلاس أموال الديوان إلى نائب الأمير هرقداق وبعض عمال رشيد الدين وسعد الدين؛ فكلّف أولجايتو الأمير قتلغ بالتحقيق في القضية. وحين ثبتت مكيدة تاج الدين والآخرين أمر أولجايتو بمعاقبتهم، فتم إعدام تاج الدين كورسُرخي.

بناء مدينة سلطانية (٧٠٤هـ):

كان غازان خان في أواخر سنوات حياته يفكّر في بناء مدينة بموضع بستان سلطانية وهو مكان ينبع منه نهرا أبهر وزنجان الصغيران، حيث يتجه الأول إلى قزوين والآخر إلى قزل أوزن. وشرع في تنفيذ ذلك بالفعل لولا أن وافاه الأجل فلم يكمله. فواصل أولجايتو تنفيذ فكرة أخيه.

كان المغول يطلقون على موضع سلطانية الحالي اسم قنغور آلانك، وكانت أرضه مرعى لأغنامهم. وكان إيلخانات المغول وقوادهم ينزلون به في طريقهم من العراق إلى أذربيجان والعكس. فوضع غازان أساس المدينة في هذا الموضع الذي كان خلواً من أي عمران. ثم جاء أولجايتو وشرع في سنة ٧٠٤ هـ في إكمال ما بدأه غازان وسماه سلطانية على بعد خمسة فراسخ من نهر زنجان وتسعة فراسخ من نهر أبهر، وأتم بناءها في عشر سنوات، فأحال موضع قنغور آلانك الذي كان مجرد مرعى إلى إحدى أعظم مدن المشرق الإسلامي وأنشأ فيها العديد من العمائر والمدارس والمساجد والحمامات والأسواق، وسكنها جمع كبير من الناس من كل الطبقات.

وأنشأ أولجايتو حصناً مربع الشكل حول المدينة بلغ طوله ثلاثين ألف قدم وكان سمك جدرانه يسمح لأربعة فرسان بالتحرك فوقها جنباً إلى جنب. وأنشأ في منتصفه قلعة ضخمة تشبه المدينة في ضخامتها؛ وبنى فيها ضريحاً لنفسه يُعرف (بقبة شاه خدابنده)، وقد دفن فيه بعد وفاته. ويُعَدُّ هذا الضريح من أهم نماذج العمارة في العصر المغولي، وسنتطرق إلى وصفه تفصيلاً في فصل آخر من الكتاب.

اتبع أولجايتو في بنائه لمدينة سلطانية النهج نفسه الذي اتبعه غازان في إنشائه لشام غازان بتبريز؛ فبعد بناء المدينة، أمر ببناء سبعة مساجد حول الضريح، وأنشأ أحد هذه المساجد من المرمر والخزف على نفقته الخاصة. وأقام العديد من المباني الأخرى في المدينة كالمستشفى والصيدلية ودار للأشراف والخانقاه. وبالإضافة إلى القصر الذي بناه لإقامته، أنشأ مدرسة كبرى على غرار المدرسة المستنصرية ببغداد، وأتى إليها بالمعلمين والباحثين من كل مكان. وشارك أمراء أولجايتو ووزراؤه في بناء العاصمة الجديدة، وكان من بينهم خواجه رشيد الدين الذي أنشأ حياً كاملاً في المدينة يشتمل على ألف دار، ومدرسة ومستشفى وخانقاه على نفقته الخاصة.

«بنى أولجايتو ضريحاً شديد الارتفاع تعلوه ثماني مآذن ليدفن فيه، وأمر ببناء منشآت خيرية حوله كالجامع والخانقاه والمدارس ودار الأشراف، وهي منشآت ليس لها مثيل في العالم، ووقف عليها العديد من الأملاك التي بلغ عائدها في حياته مئة تومان. ولما كان كل هذا قد تم بإرشاد من وزيره العالم رشيد الدين فقد ولاّه نيابته وعيّن فيها عشرة معلمين وعشرين عابداً ومئة من طلاب العلم وعشرين متصوفاً واثني عشر حافظاً وثمانية مؤذنين وأربعة مدرسين، وحدد لكل مدرس ألفاً وخمسمئة دينار، ولكل عابد سبعمئة وخمسين دينار، ولكل طالب علم ومتصوف وحافظ ومؤذن ومعلم مئة وعشرين ديناراً. وحدَّد لدار الضيافة ثلاثمئة دينار في اليوم للإنفاق على استضافة الزوار. وخصَّص ما يزيد عن مئة ألف دينار للأمراء المقيمين والمجاورين والسعاة وخدام الخانقاه ونفقات الأيتام ودار الأشراف والمستشفى» (نفايس الفنون، ص٢٩٥-٢٩٦)

وبعد بناء مدينة سلطانية، جلب إليها أولجايتو جماعة من أهل الحرف من تبريز وكلّفهم بالترويج للصناعات اليدوية وسعى لزيادة ازدهار المدينة حتى غدت سلطانية أولى مدن الممالك الإيلخانية بعد تبريز في مدة وجيزة. إلا أن هذه المكانة لم يكتب لها الدوام؛ فقد فقدت أهميتها بعد أولجايتو وأبي سعيد خان وآلت إلى الخراب بالسرعة نفسها التي ازدهرت بها. ثم جاء الأمير تيمور الذي كان ماهراً في تخريب البلاد فسوى ما بقي قائماً من المدينة بالأرض، ولم تبعث فيها الروح منذ ذلك الوقت ولاتزال أطلالها باقية إلى اليوم.

فتح جيلان (٧٠٦هـ):

ظلت ولاية جيلان الصغيرة من أردبيل وخلخال حتى صحراء كلار ومازندران طوال عصر سيطرة المغول آمنة من نهب قادة جنكيز وهولاكو ومن خلفهم من الإيلخانات، فلم يتمكّن المغول من الاستيلاء عليها بسبب وجود المعابر الوعرة والغابات الكثيفة. وفي سنة ٧٠٥هـ، جاء أحد أبناء الأمير أرغون آقا الحاكم المغولي الشهير إلى بلاط أولجايتو لإبلاغ نبأ وفاة أولوس جغتاي قال للملك: كيف عجز إيلخانات إيران على الرغم من كل فتوحاتهم عن غزو ولاية صغيرة مجاورة لمقرّهم كجيلان وعن السيطرة على الأمراء المحليين الذين لم يدخلوا في طاعة المغول حتى ذلك الوقت؟! فتأثر أولجايتو بذلك وصمَّم على انتزاع جيلان من أيدي الأمراء المحليين وينال ذلك الشرف الذي لم ينله أي من خوانين المغول السابقين. فأرسل في سنة ٧٠٦هـ أربعة فرق من الجيش نحو معابر جيلان الوعرة من الجهات الأربع على النحو التالي: الأمير چوپان من طريق أردبيل وطالش؛ الأمير قتلغشاه من ناحية خلخال؛ وطوغان ومؤمن من طريق قزوين وصحراء كلار؛ واتجه هو نفسه مع الفرقة الرابعة من طريق لاهيجان.

كانت جيلان وخلخال في ذلك الوقت خاضعتين لحكم الأمراء المحليين وكان كل قطاع منها خاضعاً لسيطرة أحدهم؛ فكان قطاع خلخال خاضعاً لشرف الدين الخلخالي، وكانت قطاعات كسكر وفومن وبيه پس (جيلان الغربية أي الضفة اليسرى من نهر سفيد) تخضع لامرأة من أسرة إسحاقوَند أو أمراء الدبَّاج. وكانت هذه السيدة تعرف بأميرة الدباج وهي التي اشتهرت بتدوين قطب الدين العلامة محمود بن مسعود الشيرازي لكتابه درة التاج لغرة الدباج باسمها تعد أشهر أمراء جيلان في ذلك العهد.

وقبل بدء الغزو، كان أولجايتو قد أوفد السفراء إلى الأمراء المحليين في جيلان يدعوهم لطاعته. فأرسلت إليه أميرة الدباج الهدايا وقبلت طاعته بل أتت بنفسها إلى بلاط خدابنده حيث قوبلت بكل احترام وإكرام. ثم تبعها سائر أمراء جيلان، لكنهم سرعان ما أدركوا أن أمراء أولجايتو طامعون في ولايتهم لثرائها وشهرة منتجاتها خاصة الحرير. وكانت لكل من الأمراء المحليين توقعات غير محدودة؛ لذا فقد بدؤوا تدريجياً في التمرد وشرعوا في الدفاع عن أملاكهم الموروثة وعن أموالهم

وجاههم. فمضت أميرة الدُّباج إلى مقرِّها في فومن دون استئذان أولجايتو، مما أثار غضبه، فصمَّم على حشد الجيش وتقسيمه إلى أربعة فرق والاستيلاء على جيلان من الجهات الأربع.

كان فتح جيلان يبدو للوهلة الأولى سهلاً نظراً لصغرها وقربها وضعف أمرائها المحليين؛ ولكن سرعان ما تبين أنه أمر صعب للغاية. فمن ناحية، أدَّتْ وعورة الطرق والموانع التي لا تحصى من غابات وجبال وأمطار وطين إلى تعريض جيش أولجايتو للمتاعب والمخاطر في كل خطوة. كما أن الدفاع الباسل للأهالي عن أرواحهم وأموالهم أدَّى إلى إلحاق خسائر جسيمة بجنود خدابنده. ومع أن أولجايتو تمكَّن في النهاية من فتح جيلان وإخضاع أمرائها وإجبارهم على دفع الخراج، فإنها أدَّت إلى خسائر في الأرواح وإلى مصرع قائد جيشه قتلغشاه الذي كان الشخصية الأولى في الدولة.

وفي الهجوم على جيلان، أغار الأمير چوپان بسهولة على حدود كسكر ثم انضم إلى جيش أولجايتو في لاهيجان. أما الأمير قتلغشاه فمع أن شرف الدين الخلخالي حاكم خلخال منعه من عبور مضائق طالش الجبلية الوعرة فقد نجح في إخضاع شرف الدين، ولكنَّهُ اغتر بقوته وأغار على الأهالي طمعاً في أموالهم. وجاء كبير حراس أميرة الدُّباج إلى الأمير فولادقيا يطلب الصلح بعد أن هزم جيش الأميرة ثلاث مرات، إلا أن قتلغشاه رفض طلب الصلح بتحريض من ابنه وتوغَّل إلى الداخل، وأرسل ابنه بصحبة الأمير فولاد. فهزم جنود الأميرة ابن قتلغشاه وغرق جيشه في الأوحال. وعندما تقدم قتلغشاه للانتقام، أرداه أحد الجيلانيين ففر جنوده من المعركة تاركين الكثير من الغنائم لأهالي الولاية.

واتجه كل من الأميرين طغان ومؤمن إلى جيلان من ناحية صحراء كلار وتمكنا من الاستيلاء على الحدود الشرقية للولاية دون عناء، ثم ذهبا إلى أولجايتو في لاهيجان. وكان أولجايتو أيضاً قد أخضع حاكم لاهيجان وأدى صلاة الشكر على هذا الفتح؛ وكان الأمراء جميعاً في حالة سرور حين بلغهم نبأ وفاة قتلغشاه. فحزن أولجايتو حزناً شديداً وأمر الأمير شيخ بهلول والأمير أبا بكر بالخروج على رأس ثلاثة آلاف جندي لإخضاع أهالي جيلان الغربية، وأرسل خلفهم الأمير حسين بيك والأمير سونج أيضاً. فأغار هؤلاء الأمراء على رشت وفومن وتولم بعد معارك طاحنة مع الأهالي، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وعادوا إلى أولجايتو.

وبعد إخضاع جيلان وأمرائها، فرض أولجايتو على كل منهم تقديم كمية سنوية من الحرير كخراج للجيش الإيلخاني وأن يعتبروا أنفسهم عمالاً له. ثم عاقب ابن قتلغشاه بالضرب بالعصا لفراره من المعركة، وأسند منصب قتلغشاه كقائد عام للجيش للأمير چوپان، وعاد إلى سلطانية وبصحبته كل أمراء جيلان الذين أخضعهم.

أولجايتو والتشيع:

كانت والدة أولجايتو من قبيلة الكرائيت المسيحية. وقد أطلقت على ولدها في البدء اسم نيكولا وفقاً لمراسم التعميد المسيحية. وظل أولجايتو يعايش هذه الديانة إلى أن توفيت والدته واختار لنفسه زوجة مسلمة. فشجعته زوجته هذه على اعتناق الإسلام فاعتنقه على المذهب الحنفي تأثُّراً بنفوذ علماء الحنفية بخراسان، وأعلن إسلامه رسمياً وضرب اسم الخليفة الأول على المسكوكات بتشجيع من علماء مذهبه.

أدى اهتمام أولجايتو بالمذهب الحنفي تدريجياً إلى تشجيع علماء المذهب على إظهار تعصبهم وبغضهم لسائر المذاهب وإيذاء أتباعها، في حين أن أولجايتو نفسه لم يكن متعصباً وقد عيَّن نظام الدين عبدالملك المراغي الشافعي قاضي قضاة إيران العام بتشجيع من رشيد الدين فضل الله ووضع أهل المذاهب كلها تحت إمرته. وبعد تعيينه في هذا المنصب الرفيع، انشغل نظام الدين الشافعي بنقض عقائد المذاهب الأخرى والردِّ على آرائها الدينية، فازدهرت المناظرات بل المواجهات المذهبية خاصة في سنة ٧٠٧هـ وقبيل شن حملة جيلان حيث جاء صدر الدين جهان البخاري إلى أولجايتو ودخل في نقاش حاد مع قاضي القضاة الشافعي. وحمي النقاش بين الحنفي والشافعي حين أخذ كل منهما في ذم عقائد مذهب الآخر، مما أدى إلى غضب كبار رجال المغول، ونهض أولجايتو وغادر مجلس المناظرة وظل أمراء المغول في حيرة من أمرهم. وفي النهاية تحدَّثَ إليهما قتلغشاه قائلاً: «أهذا اللغو هو الذي تركْنا دين آبائنا وقوانين جنكيزخان من أجله؟! من الأفضل لنا أن نعود إلى دين أسلافنا وأن نحيي إلياسا الجنكيزية». وذاع الخبر بين صفوف الجيش المغولي وازداد نفور المغول من الإسلام حتى أصبح أي شيخ معمَّم يسير في الطرقات يتعرض للاستهزاء والذم، وحاد

المغول عن عقد الزواج طبقاً للشريعة الإسلامية.

وحدث ذات مرة في تلك الفترة نفسها حين كان أولجايتو عائداً من أران إلى أذربيجان أن هبّتْ عاصفة لدى وصوله إلى قرية جلستان، وهلك بعض رفاقه بالصواعق، فخاف أولجايتو واتخذ طريقه نحو سلطانية. فقالت جماعة من المغول إن على السلطان أن يخطو فوق النار على عادة المغول حتى لا تكون عاقبته وخيمة. ووافق أولجايتو وأمر بالإعداد لذلك. فقيل له إن البلاء الذي حل كان من شؤم المسلمين والإسلام، فإذا رجع السلطان عن هذا الدين يتبدل النحس سعداً. وظل أولجايتو في حالة تردد وحيرة لمدة ثلاثة أشهر دون أن يتمكن من التوصل إلى قرار؛ فكان قد قضى ردحاً من عمره مخلصاً في تطبيق أحكام الإسلام ولم يكن يستطيع أن يحيد عن ميوله وعن وصية أخيه. فقال له أحد الأمراء ويدعى طَرمطاز إن غازان خان الذي يعد أكثر أهل عصره تعقلاً وكمالاً كان قد اختار التشيع مذهباً له، وإنه من الأفضل لخليفته أن يسلك الطريق نفسه. وكان أولجايتو يرهب المذهب الشيعي أو مذهب «الرافضة» حسب وصف المعارضين. فاحتد على طرمطاز وقال له: «أيها التعس؛ أتريد لي أن أكون من الرافضة؟!». فأخذ طرمطاز يثني لأولجايتو على التشيع ويكشف له سوءات غيره من المذاهب. وقال له من بين ما قال إن التشيع يقضي بقصر ولاية العرش على ذرية جنكيزخان دون غيرهم، في حين أن عقائد أهل السنّة تقضي بأحقية أي مسلم من رعايا جنكيزخان في تولي هذا المنصب الرفيع. فمال قلب أولجايتو إلى أهل التشيع نتيجة لهذا البيان. وتصادف في ذلك الوقت أن جاء إلى المدينة عدد من الأشراف والعلويين وأخذوا يذمون عقائد أهل السنّة في حضرة السلطان؛ إلا أن قاضي القضاة كان رجلاً فاضلاً فصيح اللسان، فبين للسلطان أن أقوالهم تنطوي على الهوى والغرض. فأشاحوا بوجوههم عن محاورته حين عجزوا عن مقارعة حججه.

وفي سنة ٧٠٩هـ، اتجه القاضي نظام الدين المراغي إلى أذربيجان لتنظيم شؤون الأوقاف بها وتخلّفَ عن مصاحبة الجيش. فاغتنم الشيعة الفرصة وحثوا السلطان على دعم مذهبهم. وذهب أولجايتو في تلك الفترة إلى عراق العرب وزار أضرحة النجف ورأى مناماً يحثّه على نصرة الإسلام. وفسر له أمراء الشيعة المنام بضرورة أن يختار السلطان التشيع مذهباً له. فاعتنق أولجايتو التشيع

وتبعه في ذلك الأمراء والأعيان عدا الأمير چوپان والأمير إيسن قتلغ اللذين بقيا على مذهب أهل السنّة.

وأمر أولجايتو في سنة ٧٠٩هـ بحذف أسماء الخلفاء الثلاثة من الخطبة والسكة وذكر اسم الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وثاني أئمة الشيعة وثالثهم وأن تقتصر الخطبة على اسم علي، وأمر أهل إيران باتباع مذهب التشيع. ولنشر عقائد الشيعة، أمر أولجايتو باستقدام علماء الشيعة من كل مكان وإنشاء مدارس خاصة لتعليم أسس التشيع ومعتقداته. وأنشأ بجوار ضريح سلطانية مدرسة قام فيها ستون معلماً بهذه المهمة والتحق بها مئتا طالب لتلقي علوم مذهب التشيع. وأقام مدرسة أخرى من خيمة وقماش تعرف بالمدرسة السيارة وترافق الجيش بصورة دائمة ويتحرك معها جمع من العلماء لتعليم الطلاب.

أدى اهتمام أولجايتو بالتشيع إلى اجتذاب علماء هذا المذهب إلى المعسكر من كل مكان وعملوا على زيادة ارتباط السلطان بالتشيع وسد الطريق أمام أئمة أهل السنّة. وكان من هؤلاء العلامة جمال الدين حسن بن مطهر الحلي (٦٤٨-٧٢٦هـ) وابنه فخر المحققين فخر الدين محمد (٦٨٢-٧٧١هـ) وكلاهما من علماء الشيعة المعروفين. وكان العلامة الحلي من أشهر مؤلفي فرقة الإمامية الاثني عشرية ومن علماء المعقول والمنقول ومن تلامذة خواجه نصير الدين الطوسي. وقد وضع كتابين في أسس عقائد الشيعة وأهداهما لأولجايتو، أحدهما بعنوان نهج الحق وكشف الصدق في الكلام، والآخر بعنوان منهاج الكرامة في باب الإمامة. فأكرم أولجايتو العلامة الحلي وابنه فأقاما بالمعسكر؛ وعقدت مناظرات بين العلامة الحلي وقاضي القضاة نظام الدين المراغي حول التشيع والتسنن. ولما كان كلاهما من كبار علماء المعقول، فقد خلت مناظراتهما من التعصب ولم تتعد حدود الجدل العلمي. ورسخت أقدام أولجايتو في التشيع على أثر محاوراته مع العلامة الحلي ونقيب طوس وغيرهما من علماء الشيعة. وقد باءت محاولات أهل السنّة لإعادته عن هذا الطريق بالفشل والحد من نفوذ الشيعة. بل ازدهر التشيع وخرج إلى النور شيعة عراق العرب والبحرين ممن كانوا قد تواروا، وتم وضع العديد من المؤلفات في ردّ عقائد المعارضين وشعائر الشيعة، وهيؤوا بذلك أرضية قوية للعهود التالية. وكان دور العلامة الحلي في ذلك أكبر من غيره.

«كان ملك العراق أي السلطان محمد خدابنده يتحدث في الكفر إلى فقيه من فقهاء الشيعة الإمامية يدعى جلال الدين بن مطهر (أي العلامة الحلي). وعندما اعتنق السلطان الإسلام وتبعه في ذلك جمع كبير من التتار، زيَّنَ له هذا الفقيه مذهب التشيع وقصَّ عليه أخبار الصحابة والخلافة وقال له إن أبا بكر الصديق وعمر كانا وزيري نبي الإسلام وإن الإمام علي على الرغم من كفره في بداية حياته فقد ورث أجداده بالحق. وقد اجتذبت هذه العبارات السلطان إلى التشيع، فأرسل الرسائل في هذا الصدد إلى العراقين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان. وكانت أولى المدن التي وصل إليها رسل السلطان هي بغداد وشيراز وأصفهان. وفي بغداد، امتنع أهالي حي باب الأزج الذين كانوا من أهسل السنّة وأغلبهم من أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل عن تنفيذ أوامر خدابنده وفي يوم الجمعة احتشدوا بالأسلحة بالمسجد الجامع، وكان عددهم يناهز الاثني عشر ألفاً من المسلحين وتعهدوا بالدفاع عن بغداد. وعندما اعتلى الخطيب المنبر أقسموا أمامه بأنهم سيقتلونه هو ورسول السلطان إذا أحدث أي تبديل في الخطبة المعتادة. فقد كان السلطان قد أمر بحذف أسماء الخلفاء والصحابة من الخطبة وألا يذكروا إلا اسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والصحابة الذين اتبعوه (عمار).[٦] فتلا الخطيب الخطبة بصورتها المعتادة خوفاً من الناس، وكذلك فعل أهالي شيراز وأصفهان. وأبلغ الرسل السلطان بما حدث بعد عودتهم. فأمر خدابنده باستدعاء قضاة بغداد وشيراز وأصفهان. وكذلك فعل رسله، حيث اصطحبوا هؤلاء القضاة الثلاثة وكان أحدهم مجد الدين قاضي شيراز إلى السلطان في قراباغ (أي أران). وأمر خدابنده بإلقائهم للكلاب الوحشية في الصحراء. وكانت هذه الكلاب المهيأة لذلك مقيدة بسلاسل، وكلما أرادوا إلقاء عدد من الناس إليها يطلقونها من قيودها ويسلطونها عليهم. وكان المساكين المحكوم عليهم بذلك يفرون أمام هذه الكلاب. ولكن لما لم يكن ثم مفر فقد كانوا في النهاية يصيرون طعاماً للكلاب. فألقوا القاضي مجد الدين للكلاب، إلا أن الكلاب وعلى خلاف المألوف لم تهاجم القاضي، بل أخذت تهز ذيولها أمامه. وحين بلغ الخبر إلى خدابنده أسرع إلى القاضي وارتمى تحت قدميه وأخذ يقبِّلُها، ثم خلع رداءه وألقاه على القاضي. وكانت عادة المغول أن السلطان إذا منح رداءه لشخص كان ذلك يعد أعظم تشريف له ويعد فخراً تتوارثه أسرته. وكان

أشرف أثواب السلطان سرواله. ثم اصطحب السلطان القاضي مجد الدين إلى المعسكر وأمر نساء الحرم بإكرامه. لذا فقد تراجع عن مذهب التشيع وكتب إلى أقاليمه بأن يظل الناس على تسننهم، ثم أغدق على القاضي وأعاده إلى بلاده» (من رحلة ابن بطوطة، ص١٥١-١٥٣)

كان السلطان خدابنده سليم الطبع قليل التعصب. وبعد اعتناقه للتشيع وإصداره أوامره بنشره بتشجيع من علماء الإمامية، وجد أن الأهالي في معظم أقاليم إيران خاصة قزوين وشيراز وأصفهان لم ينصاعوا لأوامره، وأصرَّ بعض أمرائه على البقاء على مذهب أهل السنّة. ففتر حماسه الأول للتشيع، وأمر في أواخر حياته بإعادة أسماء الخلفاء الراشدين إلى السكة والخطبة.

مقتل سعد الدين الساوجي (٧١١هـ):

شارك خواجه سعد الدين محمد الساوجي خواجه رشيد الدين فضل الله في إدارة شؤون الدولة في الجزء الأعظم من عهد كل من غازان وأولجايتو؛ إلا انه أخذ يفقد عطف أولجايتو بالتدريج. وتزامن أفول نجمه مع صعود نجم رجل آخر ذكي وطموح شقَّ طريقه إلى البلاط الإيلخاني ويدعى تاج الدين علي شاه جيلان التبريزي. كان تاج الدين في الأصل دلال مجوهرات وأحجار كريمة، وكان أمياً ولكنَّهُ كان ذكياً. وكان في تعاملاته التجارية يتردد على معظم الأمراء والأعيان، وكانت هذه هي الوسيلة التي توصَّل بها إلى حضرة السلطان نفسه وأصبح موضع عطف خدابنده.

وأدى ازدياد نفوذ تاج الدين علي شاه في بلاط خدابنده إلى زيادة مخاوف سعد الدين؛ لذا فقد سعى جهده لإقصاء علي شاه من خدمة أولجايتو. فأرسله إلى بغداد لإدارة مصانع النسيج بها. فذهب علي شاه إلى بغداد، وسرعان ما تمكن من تنظيم شؤون المصانع وصنع أقمشة نفيسة لم تصنع قبله. وحين ذهب السلطان إلى بغداد، قدم له بعضاً من هذه الأقمشة التي بهرت السلطان، فزاد اهتمامه بعلي شاه أكثر من ذي قبل. فأصبح من ملازمي الجيش. وعندما وصل الجيش إلى سلطانية، أنشأ علي شاه عمارات جميلة على نفقته وأعد سوقاً بالمدينة. ونظراً لاهتمام أولجايتو الخاص بهذه المدينة، فقد أسعده ما فعله علي شاه فزاد عطفه عليه. وأدت هذه التطورات إلى زيادة قلق سعد الدين ولم يطق رؤية صعود نجم علي شاه بهذه الصورة؛ فأخذ يحقِّرهُ وكان يمتنع عن

الوقوف أمامه. أما رشيد الدين فكان يوليه احتراماً كبيراً. وأخذ التوتر بين الوزيرين يزداد يوماً بعد يوم حول هذه المسألة، إلى أن شرع سعد الدين في إيقاع الأذى برشيد الدين. فدفع بعضاً من أقاربه إلى اعتراض طريق رشيد الدين. وفي مجلس أقامه علي شاه للسلطان والوزراء، أغلظ سعد الدين في معاملة رشيد الدين وهو في حالة سكر، بينما التزم رشيد الدين الصمت إزاءه، مما زاد من كدر السلطان على سعد الدين. وشرع رشيد الدين في الانتقام منه وأعد العدة لذلك. فإلى جانب ازدياد غضب السلطان على سعد الدين، كان عماله الكثيرون يتقاضون ما يقرب من ثلاثين مليون درهم من عوائد الخزانة لنفقاتهم الشخصية. وكان رشيد الدين على علم بذلك؛ فقبْلَ ذلك بقليل، كان اثنان من عمال سعد الدين قد نشب بينهما نزاع واتهم كل منهما الآخر باختلاس أموال الديوان. ومع أن سعد الدين أصلح بينهما وأخذ منهما وعداً بألا يتفوها بكلمة في هذا الصدد من بعد، فقد ذهبا إلى رشيد الدين وأبلغاه بما حدث. فقام رشيد الدين بإبلاغ خدابنده عندما كان في بغداد. فأمر أولجايتو بمحاكمة الوزيرين ومحاسبتهما. وثبتت التهمة على سعد الدين وتم قتله هو وعدد من أعوانه وعماله بقرية محول على بعد فرسخ من بغداد في العاشر من شوال ٧١١هـ. وبعد مقتل سعد الدين، قام أولجايتو بمشورة رشيد الدين بتعيين علي شاه مكان الوزير المقتول، وتقرر إسناد شؤون المعاملات الديوانية لتاج الدين علي شاه وتكليف رشيد الدين بالقيام بالشئون الاستشارية للبلاط وبأن يطيع علي شاه أوامر رشيد الدين.

وشرع رشيد الدين في إصلاح ما خرب في عهد ولاية خواجه سعد الدين وأعوانه وفي سن القوانين الجديدة، وسلَّمَ كل ولاية لحاكم مؤتَمَّن. فعهد بقزوين وأبهر وزنجان وطارم العليا والسفلى للمؤرِّخ والكاتب المعروف حمد الله المستوفي القزويني، وولَّى ابنه جلال الدين حكم أصفهان وابنه الآخر الأمير عبداللطيف وزيراً لأبي سعيد ولي عهد السلطان وأرسله حاكماً على خراسان في سنة ٧١٣هـ.

حملة أولجايتو على الشام (٧١٢هـ):

في أوائل سنة ٧١٢هـ، خشي عدد من أمراء الملك الناصر محمد سلطان مصر وقواده وأشهرهم قرا سنقر والي دمشق وآغوش أفرم صاحب حلب من بطش السلطان فذهبوا مع جماعة من فرسانهم

إلى أولجايتو وحثوه على شن حملة على الشام. وكان أولجايتو يفكّر في ذلك حتى قبل فتح جيلان، فقرر تنفيذ فكرته وزحف بجيشه من الموصل باتجاه نهر الفرات، وفي السادس من رمضان ضرب حصاراً حول قلعة الرحبة التي كانت أول قلاع حدود الشام وتقع بجوار الفرات. ورافقه في حملته هذه كل من قرا سنقر وأفرم.

ونظراً للصداقة التي جمعت بين أفرم وبدر الدين قائد قلعة الرحبة، فقد طمأن أولجايتو إلى أنه سيقنع بدر الدين بتسليم القلعة. إلا أن بدر الدين امتنع عن التسليم فاضطر أولجايتو إلى تسخير القلعة بالاستعانة بالمجانيق القاذفة للحجارة والعجلات الحارقة وإحداث الثقوب. وأبدى المدافعون عن القلعة مقاومة مستميتة حالت دون سقوط القلعة في أيدي جنود الإيلخان. فضاق أولجايتو بمواصلة الحصار بسبب نقص المؤن وصعوبة الأمر، وانتهت المسألة بالصلح بوساطة من رشيد الدين وقاضي الرحبة، وفك أولجايتو الحصار عن القلعة في ٢٦ رمضان وعاد إلى إيران واقلع عن فكرة غزو الشام تماماً.

وفي السنة نفسها، أعلن ابن قونغرتاي التمرد في بلاد الروم، وتمكّن الأمير طرمطاز من اعتقاله دون عناء وقتله وأربعة من أبنائه. وفي سنة ٧١٤هـ، أعلن محمود بيك وهو أحد أمراء الروم المحليين الثورة واستولى على مدينة قونية. فأرسل أولجايتو الأمير چوپان قائد الجيش إليه على رأس ثلاث كتائب من الجيش. وتمكّن الأمير چوپان بعون من ملك كرجستان من إخضاع محمود بيك وأبناء معين الدين پروانه وثورتهم. وبعد إقامة دامت سنة في بلاد الروم عاد إلى إيران بأمر من أولجايتو.

ولاية أبي سعيد على خراسان (٧١٣-٧١٦هـ):

.بعد عودته من الشام في سنة ٧١٣، قام أولجايتو بتعيين ابنه أبي سعيد الذي ولد في سنة ٧٠٤هـ ولم يتعد التاسعة من عمره آنذاك حاكماً لخراسان، وعيّن الأمير سونج أتابكاً له وعبداللطيف بن رشيد الدين وزيراً له، وأرسل معه عدداً آخر من الأمراء.

وقبل تنصيب أبي سعيد، كان مغول أولوس جغتاي قد هاجموا خراسان عدة مرات وهزموا الأمير يساول والأمير علي قوشجي. وتزامن دخول أبي سعيد إلى خراسان مع هجوم آخر من

جانبهم. ولم يتمكّن الأمير يساول والأمير علي قوشجي من مقاومتهم، فانضموا إلى جيش أبي سعيد. وقضى أبو سعيد مدة ولايته على خراسان التي تزيد عن ثلاث السنوات في صد هجماتهم.

وفي سنة ٧١٥هـ، أي قبل سنة واحدة من وفاة أولجايتو، زاد احتياج أبي سعيد للمال لسد نفقات الجيش. ورجع إلى الخزانة أي إلى تاج الدين علي شاه ورشيد الدين مراراً للحصول عليه. وكان كل من هذين الوزيرين يحسد الآخر على منصبه ويريد أن يستقل عن الآخر؛ فأخذ كل منهما يحيله إلى الآخر. وكان رشيد الدين يقول إن المسألة ليست في يدي ولا أوقع بإمضائي على أية حوالة وإن المسؤول عن صرف المال هو علي شاه. وكان علي شاه يقول: «أنا لا أملك إلا ردائي الذي أرتديه وليس في يدي دينار واحد. ورشيد الدين شريكي في إدارة شؤون الدولة؛ فلماذا يلجؤون إليَّ وحدي ولا يلجؤون إلي شريكي؟». وكان رشيد الدين يعتبر علي شاه هو المسؤول عن صرف الأموال نظراً لثقة الإيلخان الكاملة فيه ولأنه حامل الختم الأكبر.

وفي النهاية، قام أولجايتو بتقسيم أقاليم الدولة بين الوزيرين حسماً للنزاع بينهما؛ فوضع عراق العجم وخوزستان وولايات اللر وفارس وكرمان في عهدة رشيد الدين، وعراق العرب ودياربكر وأران وبلاد الروم تحت إدارة علي شاه. إلا أن الأخير طلب من السلطان أن يجعلهما شريكين في إدارة الأقاليم كلها وأن يكون توقيع كل منهما على الأحكام والفرامين. فأمر أولجايتو في سنة ٧١٥هـ بإشراك كل من رشيد الدين وعلي شاه في الوزارة حتى يكون لكل منهما حق التصرف في أموال الوزارة ومهامها. فحتى ذلك الوقت لم يكن لرشيد الدين حق التدخل في صرف الأموال ووضع الأختام والوزارة. فتقرر منذ ذلك التاريخ أن يتعاون كلا الوزيرين في الشؤون الوزارية. وبعد إضفاء الصفة الرسمية على هذا النظام، أصيب رشيد الدين بمرض النقرس فلزم داره طوال شتاء ذلك العام ولم يدخل الديوان لمدة أربعة أشهر كاملة. وفي تلك الفترة، ظل أبو سعيد يرسل الرسل تباعاً لطلب إمداده بالمال، وكان علي شاه يردُّ عليه بأن الخزانة ليس فيها أموال وأن كل الأموال الحكومية عند رشيد الدين. فكلف أولجايتو الأمير چوپان بالتحقيق في القضية. فقام الأمير بالتعاون مع معاوني الوزراء بمحاكمة موظفي نقل العوائد، وتبين أنهم قاموا بتبديد الأموال الأميرية

وحُكِم عليهم بدفع ثلاثمئة تومان (ثلاثون مليون دينار من الذهب).

أدى الحكم على هؤلاء الموظفين إلى خوف كل الموظفين الديوانيين. ولجأ الموظفون المدانون إلى علي شاه وقالوا له إنه إن لم يستصدر فرماناً بنسخه من أولجايتو فستحل الكارثة على الجميع. فمضى علي شاه ليلاً إلى أولجايتو وقال له: «ليس لهؤلاء العمال ذنب في تبديد المال، بل أنا الذي أنفقت هذه الأموال بيدي»، وأخذ يبكي ويلح إلى أن أمر أولجايتو بوقف التحقيق في القضية. وفي الصباح قال للأمير إيرنجين المكلَّفَ بالقضية إن علي شاه تسلَّم هذه الأموال ولكنه لا يذكر على أي وجه أنفقها، وأعرب عن رغبته في صرف النظر عن مطاردته هو وأقربائه. فكتم إيرنجين قلقه وشكا للأمير چوپان وأعرب له عن ضيقه من دخول شخص إيراني في مباحثات مباشرة مع الإيلخان دون استشارة الأمراء أولاً. فتكدر الأمير چوپان أيضاً؛ إلا أن علي شاه تمكن من إسكاته بالرشوة والهدايا.

وبعد قليل، قال علي شاه لأولجايتو: «إن رشيد الدين تمارض ولزم داره؛ ومع ذلك فإنه لا يكف عن السعي للقضاء عليَّ كما فعل مع سعد الدين. فإن أذن الإيلخان أن أستدعيه وأحقق». فوافق أولجايتو واستدعى علي شاه ابني رشيد الدين، ولكنه لم يتمكن من إثبات أي تقصير عليهما؛ فاتهم رشيد بالاستيلاء لنفسه على ربع عوائد الأوقاف وأموال الخزانة ونفقات الأميرات، وذلك لكي يسقطه من نظر أولجايتو وفي الوقت نفسه يعزِّز من مكانته هو لديه. ولكن نظراً للصداقة التي جمعت بين رشيد وبعض الأمراء فقد تمكَّن من اتقاء شر علي شاه إلى حين. وأمر أولجايتو بالتصافي بين الوزيرين وإدارة شؤون الدولة بالمشاركة بينهما كما كانا.

وفاة أولجايتو (٢٨ رمضان ٧١٦هـ):

كان أولجايتو كأغلب الإيلخانات مفرطاً في الشراب ومغرقاً في الملذات. لذا فقد اعتراه الوهن. وفي رمضان ٧١٦هـ، حين كان مشغولاً بالصيد على أطراف مدينة سلطانية، أصيب بآلام شديدة في ساقيه وسقط مريضاً. وفي اليوم الذي يذهب فيه للحمّام أفرط في تناول الطعام، مما أدى إلى اشتداد المرض عليه. وفي ٢٨ رمضان من السنة نفسها وافته المنية وأودع الثرى في ضريحه في

المدينة نفسها وهو لايزال في الأربعين من عمره [على الأرجح] بعد اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر في الحكم.

وأصدر أولجايتو وهو على فراش الموت مرسومين يتعلق أحدهما بإعادة ذكر أسماء الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة؛ والآخر برد نصف أموال خواجه سعد الدين الساوجي لأبنائه.

ويمكن القول بصفة عامة إن أولجايتو كان من إيلخانات إيران الأخيار؛ فقد عاش الناس في عهده في رفاهية وقليلاً ما تعرضوا للظلم والقسوة على يديه. وقد تبلور المذهب الشيعي في عهده وازدهر العلم والأدب. كما كان ملكاً محباً للعمران؛ فإلى جانب إتمام بناء مدينة سلطانية وإنشاء ضريح له فيها، فقد أنشأ على سفح جبل بيستون مدينة أخرى تسمى «سلطان آباد چم چمال» أو بغداد الصغيرة، ومدينة ثالثة على حدود موغان بجوار نهر أرس تسمى «سلطان آباد أولجايتو». وكانت له صلات بملوك أوربا المسيحية والروم الشرقية. وفي سنة ٧٠٤هـ، أوفد رسله إلى فرنسا وانجلترا وإيطاليا برسالة من أولجايتو إلى ملك فرنسا بالخط الأويغوري يذكِّرهُ فيها بالصلات السابقة بين الإيلخانات وملوك الفرنجة وبضرورة الاتحاد بينهما لصد الأعداء. وبعد سنتين، قابل رسله إدوارد الثاني ملك انجلترا، ثم قابلوا البابا كليمان الخامس. وربما كان هدف أولجايتو من إيفاد هؤلاء السفراء كَسْبَ حلفاء للحملة على الشام ومصر وهي فكرة راودته قبل فتح جيلان وشجعه عليها بعض مسيحيي جزيرة قبرص وأرمينيا. إلا أن هذه الصلات كما رأينا في عهود الإيلخانات السابقين لم تتجاوز حد التعارف ولم تسفر قط عن إرسال أحد الجانبين جيشاً لمساعدة الآخر وذلك بسبب الموانع الأساسية والتنافس السياسي.

ولاية السلطان أبي سعيد بهادُر خان (٧١٦-٧٣٤هـ):

ولد أبو سعيد في ذي القعدة ٧٠٤هـ. وبعد سبعة أيام من مولده، وضعه أولجايتو تحت أتابكية الأمير سونج. وفي سنة ٧١٣هـ، حين بلغ أبو سعيد التاسعة، أرسله الإيلخان حاكماً لخراسان، وظل أبو سعيد في هذا المنصب لمدة تزيد قليلاً على ثلاث السنوات بأتابكية الأمير سونج.

وحين كان أولجايتو على فراش الموت، أرسل الأمراء والوزراء الرسل تترى إلى أبي سعيد الذي

كان آنذاك في مازندران يستدعونه إلى سلطانية لتولي العرش قبل وفاة أولجايتو. وكان غرض الأمراء والوزراء الذين كانوا خاضعين لنفوذ الأمير چوپان من تلك العجلة جعل ولي العهد الشاب طوع إرادتهم قبل أن يتحرك وصيه القوي الأمير سونج من طوس إلى سلطانية. إلا أن أبا سعيد وحاشيته الأوفياء للأمير سونج لم يخرجوا عن طاعته فلم يتحركوا من أماكنهم إلى أن بلغهم نبأ وفاة أولجايتو. وجاء الأمير سونج من خراسان. فتحرك أبو سعيد بصحبة أتابكه إلى سلطانية، وخرج لاستقباله الأمير چوپان وسائر الأمراء والوزراء. ودخل أبو سعيد العاصمة، وفي غرة صفر ٧١٧هـ، جلس على عرش الإيلخانية رسمياً، وإلى يمينه الأمير چوپان وإلى يساره الأمير سونج.

وقبل دخول أبي سعيد إلى سلطانية، أراد الأمير الشاب أن يمنح الأمير سونج منصب أمير الأمراء؛ إلا أن سونج أبى وقال إن قبول هذا المنصب يستلزم البعد عن العاصمة وعن رعاية السلطان، في حين أنه يريد مواصلة خدمة أبي سعيد ولا يريد منافسة الأمير چوپان على هذه المكانة. وبعد جلوسه على العرش، أبقى أبو سعيد على الأمير چوپان في هذا المنصب كما كان في عهد أبيه، بل إنه عين تيمورتاش ابن الأمير چوپان أيضاً حاكماً على ولاية الروم، وعين جلال الدين أكبر أبناء رشيد الدين فضل الله وزيراً لبلاد الروم ومستوفياً لها.

وحين دخل أبو سعيد مدينة سلطانية أوفد رشيد الدين ابنه غياث الدين محمد لاستقباله. ولما كانت بينه وبين الأمير سونج مشادة سابقة، وكان يعلم أن سونج يكن له ضغينة، فقد شرع في التقرب إلى الأمير چوپان غريم الأمير سونج بغرض اكتساب نصير قوي الشكيمة في مواجهته. وللغرض نفسه تحالف سراً مع علي شاه وسائر الأمراء، وسعوا إلى احتفاظ الأمير چوپان بمنصب أمير الأمراء.

ونتيجة لهذا الترتيب، ترك أبو سعيد والأمير چوپان كلاً من رشيد الدين وعلي شاه في منصب الوزارة، مع انفراد علي شاه بعظائم الأمور. وكان رشيد الدين في ذلك الوقت قد أصبح شيخاً هرماً ولم يكن يفكر إلا في اتقاء شر أعدائه وقضاء بقية عمره في سلام.

وكان من أول الأحداث التي حدثت في عهد السلطان الجديد تهمة التآمر التي وجهت لقتلغشاه خاتون زوجة أولجايتو والأمير تَغماق ضد أبي سعيد. فالقى الأمير چوپان القبض على

تَغماق وبعد مصادرة أمواله اختاره نائباً له، وعين الأمير إيسن قتلغ حاكماً لخراسان وكلَّفه بصد مغول أولوس جغتاي.

مقتل رشيد الدين (١٧ جمادى الأولى ٧١٨هـ):

تعاظم نفوذ الأمير چوپان إلى درجة فائقة وأمسك في قبضته بزمام الجيش والدولة فلم يتبق للسلطان من الملك سوى الاسم. وكان هذا الأمير متحالفاً مع رشيد الدين، مما أثار حسد علي شاه وغضبه، فسعى الأخير إلى إحداث وقيعة بينهما، بل إنه يريد أن يقضي على غريمه القوي قضاء مبرماً فيخلي الساحة من وجوده كليةً.

وبلغ التنافس القديم بين الوزيرين إلى ذروته في ذلك الوقت، واشتد الأمر على موظفي الديوان؛ فإذا أسدى أحدهم خدمة لأحد الوزيرين كان ذلك بمثابة استعداء للآخر، مما أدى إلى اضطراب شؤون الديوان. وذات يوم، جاء إلى رشيد الدين ثلاثة من موظفي الديوان وأعربوا عن استعدادهم لإفشاء خيانة علي شاه إن أذن لهم. ففكر رشيد الدين ثم قال لهم «إن علي شاه رجل عظيم له احترامه ولا يجوز اتهامه؛ وسأوصيه باسترضائكم». فتشاور الثلاثة فيما بينهم وأعربوا عن خشيتهم من أن يفضي رشيد الدين بحديثهم لعلي شاه ويثير عداءه ضدهم. فذهبوا إلى علي شاه وحرضوه على رشيد الدين، وكان علي شاه في ذلك الوقت قد جمع معظم الأمراء حوله ببريق الذهب وتمكَّن من استمالة جماعة من أنصار رشيد.

ونتيجة لمساعي هذه الجماعة تم عزل رشيد الدين من الوزارة في أواخر رجب ٧١٧هـ، وغادر رشيد سلطانية ومضى إلى تبريز للاستجمام. ولم يرض الأمير سونج عن عزل رشيد على الرغم مما كان بينهما من كدر. ونظراً لاشتداد المرض على الأمير سونج في ذلك الوقت، فإنه لم يتمكن من التدخل في الأمور بشكل مباشر، واكتفى بوعده بإعادة رشيد إلى الوزارة بمجرد أن يتعافى. إلا أن الأمير سونج ذهب في الفترة نفسها إلى بغداد بصحبة أبي سعيد وقُبِضَ في ذي القعدة ٧١٧هـ على بعد فرسخ من تلك المدينة.

كان الأمير چوپان في ذلك الوقت في أذربيجان؛ فاستدعى خواجه رشيد الدين وقال له: «إن

وجودك في بلاط الملك أمر لا غنى عنه، ولا تستقيم الأمور إلا برأيك وتدبيرك». فردَّ رشيد بقوله: «إن أيامي في الوزارة طالت، ولي ثلاثة عشر من الأبناء يعملون في خدمة الملك، ومن الأفضل أن يواصلوا هم عملهم في خدمته وأقضي ما تبقى لي من عمر في الاستعداد للآخرة». إلا أن الأمير جوپان أصرَّ وتمكَّن في النهاية من إقناعه بقبول الوزارة؛ إلا أن هذه الموافقة كانت بمثابة توقيع على حكم بإعدامه. فالأمير جوپان على الرغم من إصراره على إعادة رشيد وإيمانه الحقيقي بضرورة وجود رشيد لإصلاح ما حلَّ بالدولة من خراب لم يدافع عنه حين تكالب عليه أعداؤه على الرغم من كل نفوذه وقدرته، وترك دماء هذا الوزير الكفء تهدر بأيديهم ظلماً. وأدت إعادة رشيد الدين إلى الوزارة بدعم من الأمير جوپان إلى إثارة مخاوف علي شاه وسائر أعداء رشيد. لذا فقد بدؤوا بتحريض أبي بكر وهو أحد المقربين للأمير جوپان وسبق أن اشترك مع علي شاه في عزل رشيد، ووعد أبو بكر بإحداث الوقيعة بين رشيد والأمير جوپان.

وفي هذه المرة، اتهم المتآمرون رشيداً عند أبي سعيد بدسِّ السم لأولجايتو عن طريق ابنه عز الدين إبراهيم ساقي الإيلخان السابق، وهو ما أثار غضب السلطان أبي سعيد. والغريب أن الأمير جوپان هو الذي أبلغ أبا سعيد بذلك وشهد اثنان من الأمراء بصحة الواقعة بعد أن اشتراهما علي شاه بالمال. وصدر الحكم بإعدام رشيد وابنه عز الدين إبراهيم. وبدأ السيافون بإعدام عز الدين الذي كان في السادسة عشرة من عمره أمام والده الشيخ في ١٧ جمادى الأولى ٧١٨هـ؛ ثم شطروا جسد الوزير الفاضل إلى نصفين بالقرب من تبريز وكان في الثالثة والسبعين من عمره. وبذلك أنهوا حياة أحد كبار الحكماء والكتّاب والمؤرخين الفرس.

وبعد قتل خواجه رشيد الدين، قام أعداؤه بمصادرة كل أمواله وأموال أبنائه، وأغاروا على حي الربع الرشيدي الذي بناه رشيد في تبريز؛ واستولوا حتى على الأملاك التي كان قد وقفها، واتهموا هذا المسكين الذي كان ابن أبي الخير بن علي الهمداني بأنه كان يهودياً بسبب تجنيده في شبابه مع يهود همدان وبسبب اطلاعه التام على عادات اليهود وتقاليدهم وهو اتهام حرم جثمان هذا الرجل الفاضل الراحة حتى وهو تحت التراب. فبعد قرن من الزمان، أصيب أميرانشاه بن الأمير تيمور بحالة من الجنون على أثر سقوطه عن جواده وأمر باستخراج رفات رشيد الدين من المسجد الذي دفن به

في الربع الرشيدي بتبريز ودفنها في مقابر اليهود.

وبعد ثلاثة أيام من إعدام رشيد الدين، وصل الأمير إيسن قتلغ من خراسان إلى المعسكر وحزن لدى سماعه بالخبر، ولام الأمراء على ما اقترفوه وعنَّفهم على قتل رجل كان يطرق أبواب الفناء. وبعد مقتل رشيد الدين، شاءت الأقدار أن يلقى كل من تآمروا عليه مصيره نفسه واحداً تلو الآخر باستثناء علي شاه؛ ولم ينجُ منهم أحد حتى الأمير چوپان. فقتل كل منهم بيد الآخر أو بيد السلطان. أما تاج الدين علي شاه الذي كان في غاية السعادة لمقتل غريمه القوي، فقد وزَّعَ الهدايا وبسط يده بالعطايا فرحاً بما تحقَّق له من نجاح، وكان من بين ما وهبه حلقتان من الذهب زنة كل منهما ألف مثقال أرسلهما إلى الكعبة ليتمَّ تعليقُهما في بيت الله في ذكرى النصر الذي أحرزه.

ظل علي شاه في وزارة أبي سعيد لمدة ست سنوات بعد مقتل رشيد الدين. وكانت مكانته تزداد في عيني الإيلخان يوماً بعد يوم حتى إن الإيلخان كان يعوده بنفسه حين مرض وكلف أطباءه بالعناية به إلى أن وافته المنية في جمادى الأخرى ٧٢٤هـ ودفن في تبريز.

أدى مقتل رشيد الدين واستقلال علي شاه الذي كان على الرغم من ذكائه رجلاً عادياً لا فضل له بالوزارة لمدة ست سنوات إلى اضطراب الشؤون الديوانية وسياسة الدولة. وحين توفي علي شاه وعُيِّن أبناؤه بأمر من الإيلخان للعمل بالوزارة عرفاناً لأبيهم، ازداد الاضطراب والخلل؛ وهنا ندم أبو سعيد على قتل رشيد الدين وأدرك خطأه حين أصغى لوشاية الأمراء وعلي شاه. وحين دعى لاختيار خواجه غياث الدين محمد ابن خواجه رشيد الدين لمنصب الوزارة قال إن الشؤون الديوانية بدأت في الاضطراب والضعف منذ مقتل رشيد وإن أحداً من خلفائه لم تتوفر فيه الكفاءة الكافية لإدارة شؤون الدولة. وفي النهاية، استقر رأي السلطان على غياث الدين محمد بن رشيد الدين لمنصب الوزارة كما سنرى فيما بعد.

ثورات أوائل عهد أبي سعيد:

تعرض السلطان أبو سعيد خان في بداية عهده لمشكلات معقدة؛ فقد استغل الأعداء الخارجيون للأسرة الإيلخانية التي صمدت نتيجة لسياسات غازان وأولجايتو وقوة قوادهم صغر سن

أبي سعيد وعدم خبرته وشرعوا في مهاجمة ممالكه وتعويض ما لاقوه في الماضي. وقد ساعدت هذه الهجمات على إضعاف دولته.

كان الأمير يَسور وهو من أولوس جغتاي قد عبر جيحون في عهد أولجايتو واقترب من حدود بادغيس بهرات ونجح في الحصول على بعض الأراضي من قبل الإيلخان السابق. وبعد وفاة أولجايتو، أعلن الثورة. وكانت حكومة خراسان وقيادتها في ذلك الوقت في يد الأمير يساول وهو من أمراء أبي سعيد؛ وكان رجلاً ظالماً ينهب أموال أهالي خراسان وهرات بالظلم والتعذيب. وفي أواخر ٧١٦هـ، لم يتمكن من مقاومة أعوان الأمير يسور، ففر إلى العراق؛ ولكنه قتل في منتصف الطريق في محرم ٧١٧هـ، واستولى يسور على خراسان وعزم على مهاجمة مازندران.

أثار نبأ مقتل الأمير يساول وزحف جنود يسور على مازندران مخاوف السلطان فأسرع بإرسال الأمير إيسن قتلغ إلى خراسان. فشرع إيسن قتلغ بكل سذاجة في استمالة أعوان يسور، وتظاهر يسور بالخضوع لطاعة الإيلخان. وقنع قتلغ بهذه الطاعة الظاهرية وعاد إلى سلطانية وتولى حكم أران بأمر الإيلخان. إلا أنه توفي فجأة وهو في الطريق.

بعد عودة إيسن قتلغ من خراسان، بدأ الأمير يسور في إخضاع خراسان وسيستان وهرات إلا أنه أخفق في هرات حيث لم يخضع له الملك غياث الدين كرت؛ بل جافاه وفضح نواياه السيئة عند أمراء الإيلخان الذين كانوا في طوس. وفي أواسط جمادى الأولى ٧١٨هـ، عاد يسور من سيستان وهرات إلى خراسان وعزم على مهاجمة مازندران. وتمكن في البداية من هزيمة أمراء الإيلخان في طوس؛ ثم توغل حتى أواسط أراضي مازندران وشن غارات متوالية وأعمل القتل في الأهالي.

وبعد وصول نبأ ثورة يسور، أمر الإيلخان الأمير حسين جوركان بن آقبوغا جلاير وهو من أمرائه المعروفين بصد الأمير يسور. فزلزل زحف الأمير حسين كيان الأمير الجغتائي واضطره إلى العودة إلى طوس، وتمكّن الملك غياث الدين كرت من إيقاع الفرقة بين أعوانه. وفر يسور من خراسان، وانتهى الأمر بوقوعه بين جنود الأمير حسين وكپك خان الذي كان من أسرته وكانت بينهما عداوة قديمة وقتله، فهدأت الأحوال في خراسان.

عندما ثار المغول الجغتائيون في خراسان وتقدموا إلى مازندران، كان عددهم يبدو كبيراً، فعزم

الأمير چوپان على التحرك إلى خراسان لمساندة الأمير حسين؛ فمضى من قراباغ إلى بيلقان، ولكن بلغه في تلك الأثناء أن أوزبك خان ملك صحراء القبچاق قد خرج إلى أران وأذربيجان على رأس جيش جرار وأن جيش سلطان مصر قد هاجم حدود دياربكر.

وفي المجلس الذي عقد بين قواد جيش الإيلخان، تقرر تكليف الأمير إيرنجين بالدفاع عن دياربكر والأمير حسين بقمع يسور وخروج الإيلخان وسائر القادة لصد زحف أوزبك خان. ولما كان الأمير طرمطاز قد تقهقر أمام ملك صحراء القبچاق وكان الجيش المرافق للإيلخان قليل العدد، فقد انصرف الأمير چوپان عن الزحف إلى خراسان وأسرع لمساندة الإيلخان وصد أوزبك خان؛ ولكن قبل وصوله كان جنود أوزبك خان قد تقهقروا إلى دربند. فعبر الأمير چوپان نهر كورا وتعقبهم وأسر عدداً منهم وأفل عائداً. وبعد عودته حاكم بعض الأمراء الذين فروا من المعركة، فعزل بعضاً وعاقب بعضاً آخر؛ وهو ما أدى إلى حقد أولئك الأمراء والقادة العسكريين على الأمير چوپان.

وبعد القضاء على فتنة أوزبك خان، عاد أبو سعيد إلى سلطانية، وترك الأمير چوپان ابنه الأمير حسن في قيادة الجيش وعزم على التوجه إلى المصيف بكرجستان. وتحالف الأمراء الذين حاكمهم الأمير چوپان على قتله. وكان من أقوى هؤلاء الأمراء قورميشي بن أليناق الذي كان أشدهم سعياً لقتل الأمير چوپان. وزحفت تلك الفئة من الأمراء وراء الأمير چوپان. وأطلع أحد الجواسيس الأمير چوپان على المؤامرة، إلا أنه لم يصدقْهُ؛ وأوفد اثنين من خواصه من الأمراء لتقصي الأمر؛ فأمسك بهما المتآمرون وقتلوهما. فأسرع الأمير چوپان إلى ابنه الأمير حسن. وبعد أن أغار المتآمرون على جيش الأمير چوپان، اتجهوا إلى جيش الأمير حسن وأنزلوا الهزيمة بكل من چوپان وحسن بالقرب من بحيرة كوكچه، إلا أن چوپان وابنه نجيا بروحيهما وفرا إلى تبريز حيث أكرم علي شاه وفادة أمير الأمراء وعزم على اصطحابه إلى معسكر الإيلخان بمدينة سلطانية. إلا أن الأمير چوپان تردد في الذهاب حيث أوعز إليه المتآمرون بأنهم مكلفون بقتله من قبل الإيلخان نفسه. فطمأنه علي شاه إلى عطف الإيلخان واصطحبه إليه، حيث أطلعه الأمير چوپان على مؤامرة الأمراء.



معارضة بعض الأمراء لأبي سعيد:

بعد هزيمة الأمير چوپان، اتجه قورميشي الذي كان قد تحالف مع الأمير إيرنجين حاكم دياربكر من حدود نخجوان إلى سلطانية برفقة الأمراء المعارضين الآخرين لاجتذاب الإيلخان إلى صفوفهم لصد الأمير چوپان. إلا أن الإيلخان أدرك من نصائح علي شاه وغيره أن مصلحته في حماية الأمير چوپان وعدم مسايرة المتمردين. لذا فقد خرج مع الأمير چوپان وغيره من الأمراء من سلطانية لصدهم. وفي زنجان، طلبت قتلغشاه خاتون زوجة الإيلخان أبي سعيد وهي ابنة الأمير إيرنجين من الإيلخان أن يكفَّ عن القتال علها تمنع أبيها من سفك الدماء عن طريق رسالة ترسلها إليه. فلبّي السلطان مطلب زوجته وتوقف في زنجان. إلا أن الأمير إيرنجين لم يستجب لالتماس ابنته وتقدم حتى ميانج. وواصلت قتلغشاه خاتون مراسلاتها ومبعوثيها إلى والدها. وفي النهاية، ردَّ بأن يظهر السلطان عطفه بإصدار أمر قواته برفع الرايات البيضاء. فوافق أبو سعيد على هذا العرض ورفعت الرايات البيضاء. إلا أن هذا التصرف أدى إلى زيادة جرأة المتمردين حيث فسروه بأنه نابع من خوف الإيلخان. فتجاسروا وهاجموا قوات الإيلخان والأمير چوپان. ونشب القتال بين قوات المتمردين وجنود الإيلخان والأمير چوپان في جمادى الأولى ٧١٩هـ بالقرب من ميانج. وفي البداية، أمر أبو سعيد بفصل رأس الشيخ علي بن إيرنجين عن بدنه وتعليقها على سن رمح أمام قوات إيرنجين، مما أثار حنق الأمير إيرنجين فحمل حملة شديدة على جيش الإيلخان وكاد يوقع الفرقة بين صفوفه إلا أن السلطان أبدى صموداً فائقاً وتبعه في ذلك الأمراء؛ فثبتوا الأقدام حتى أجهضوا هجوم المتمردين وقتلوا عدداً كبيراً من قوادهم وأمسكوا بالأمير إيرنجين وقورميشي وقتلوهما فنامت فتنة كبرى كادت تقوض دعائم حكم أبي سعيد. ولُقِّبَ السلطان منذ ذلك الحين بلقب بهادُر خان وأضاف لقبه هذا إلى لقب إيلخان في الفرامين.

أدت هزيمة الأمراء المعارضين ومقتل كبارهم إلى دعم نفوذ الأمير چوپان أكثر من ذي قبل لدرجة أن كان أبو سعيد يناديه بالوالد والسيد وأطلق يده ويد أبنائه في السلطة. ففي غياب أبيه الذي كان منشغلاً بإخماد حركات تمرد جيوش الولايات والدفاع عن الحدود والثغور، لازم دمشق خواجه ابن الأمير چوپان العاصمة وأصبح نائباً عاماً لشؤون الدولة. وفي تلك الفترة نفسها حين جاء أبو

سعيد من زنجان إلى أران، توفيت دولُندي زوجة الأمير چوپان وشقيقة الإيلخان. فزوّج أبو سعيد شقيقته الأخرى ساتي بيك للأمير چوپان في ٢٠ رجب ٧١٩هـ وأوصله إلى قمة قوته. وكان الأمير چوپان بدوره متفانياً في خدمة الإيلخان؛ ففي محرم ٧٢٠هـ، حين أعلن الأمير تيمورتاش حاكم بلاد الروم العصيان وأجرى الخطبة والسكة باسمه، ذهب إليه بنفسه وأخضعه بحسن تدبيره وأتى به طائعاً إلى الإيلخان؛ وبعد فترة أكرمه وأعاده مرة أخرى إلى منصبه السابق.

«في أواخر عهد أولجايتو السلطان السابق، حصل شخص يدعى محمداً كان خطيب همدان ولغرض في نفسه على صك قديم باسم ناز خاتون بنت أمير كردستان، وذهب بها إلى الأمير چوپان وقال له إن أباك الملك بهادر بن تودان نويان كان قد أسر ناز خاتون في عهد هولاكوخان؛ وبحكم القانون آلت أملاك ناز خاتون للملك بهادر، وبالتالي فهي إرث لك الآن. وضياع ناز خاتون وأملاكها في العراق كثيرة. فانطبع هذا الكلام على لوح قلب چوپان كالنقش على الحجر؛ فأوفد عدداً من خدامه بصحبة ذلك القاضي المتدين إلى الولايات فوضعوا أيديهم على عدة مواضع في قزوين وخرقان وهمدان. وذاع هذا الحديث الغريب بين أهالي المدينة؛ وكان كل مزارع يكره صاحب حقله يدعي أن الحقل من أملاك ناز خاتون. فضج الأهالي. فبذل الأمير إيسن قتلغ ورشيد الدين النصح للأمير چوپان لكي يقنع بما وضع يده عليه من أملاك. وفي عهد السلطان أبي سعيد بهادرخان حيث بلغت مكانة الأمير چوپان إلى الذروة، جاء القاضي محمد مع شخص آخر معه خريطة قديمة تشتمل على أملاك أخرى في ولايتين أو ثلاث وقالا له إننا نبني داراً في موضع كذا وعثرنا تحته على هذه الوثائق باسم ناز خاتون؛ فاعتبر الأمير چوپان هذه المواضع حلالاً له فوضع وكلاؤه أيديهم على مزارع الرعايا وأملاكهم؛ ووصل الأمر إلى درجة أن ما كان يقدر بألفي دينار أو ثلاثة آلاف أصبح يباع نظير دينارين أو ثلاثة دنانير خشية أن يقال إنه ضمن أملاك ناز خاتون. واضطربت أحوال ملاك المزارع، وتحدث علي شاه جيلان في هذا الأمر وأخذ من السلطان ولاية في بلاد الروم عوضاً عن أملاك ناز خاتون ووضعها تحت تصرف وكلاء الأمير چوپان وأعطاه من جيبه الخاص عشرين ألف دينار نقداً حتى يكف الأمير چوپان عن المطالبة بتلك الأملاك وأقسم يميناً مغلظاً برفع هذه الغائلة عن المسلمين» (حبيب السير، ج٣، ص١١٨)

وزارة خواجه غياث الدين محمد:

رأينا أن خواجه تاج الدين علي شاه جيلان التبريزي بعد أن تعاظمت سلطته لدرجة بعيدة على أثر إعدام رشيد الدين توفي في جمادى الأخرى ٧٢٤هـ بمدينة أوجان، وكان الوزير الوحيد في بلاط المغول الذي مات ميتة طبيعية. وبعد وفاته، عين السلطان أبو سعيد غياث الدين محمد بن علي شاه في منصب الوزارة تكريماً لأبيه. إلا أن ابنه الأصغر خليفة الذي كان شريكاً له في المنصب قد عارضه، فانقسم موظفو الديوان إلى فريقين مما أدى إلى اختلال الأعمال واضطراب الأحوال. فاضطر أبو سعيد إلى مصادرة أموالهما وإسناد منصب الوزارة لأحد نواب الأمير چوپان ويدعى نصرة الدين عادل النسَوي ومنحه لقب صاين الوزير. إلا أن هذا الرجل كانت تنقصه الكفاءة أيضاً. ومع أنه كان صنيع عطف الأمير چوپان وأبنائه فقد كان دائم الكيد لهم عند الإيلخان. وعندما علم الأمير چوپان بذلك، حث الإيلخان على عزله في سنة ٧٢٥هـ وآل منصب الوزارة والإمارة إلى دمشق خواجه بن الأمير چوپان، وأصبحت شؤون الجيش والدولة في أيدي الأمير چوپان وأبنائه الأقوياء تماماً. وظل دمشق خواجه في منصب الوزارة إلى أن تداعى أمر الأمير چوپان وأبنائه وأسند أبو سعيد منصب الوزارة لغياث الدين محمد تكريماً لوالده رشيد الدين. وجعل خواجه علاء الدين محمد شريكاً لأخيه في هذا المنصب؛ ولكنه بعد ثمانية أشهر أعطى غياث الدين الاستقلال التام بشؤون الوزارة والديوان، وأرسل علاء الدين وزيراً لخراسان. وظل غياث الدين في وزارة أبي سعيد حتى نهاية حكمه.

اضطراب أحوال الأمير چوپان وأبنائه:

كانت للأمير چوپان ابنة جميلة تدعى بغداد خاتون، وقد تزوجها في سنة ٧٢٣هـ الأمير شيخ حسن ابن الأمير حسين جوركان جلاير الذي عرف فيما بعد بالشيخ حسن الأكبر والشيخ حسن الإيلكاني. وقد انبهر السلطان أبو سعيد الذي كان آنذاك في حوالي العشرين من عمره بحسنها وأراد أن يتزوجها؛ وظل طوال فترة هيامه بها بعيداً عن شؤون السياسة والدولة تماماً ويقضي أيامه في التغزل في وصف حسنها وحرقة فراقها.(٧)

وكانت إلياسا الجنكيزية تقضي بأن كل زوجة يضع الخان عينه عليها يتحتم على زوجها أن يطلقها ويرسلها إليه. ولكي يصل السلطان إلى مبتغاه، أوفد شخصاً سراً إلى الأمير چوپان وأفضى إليه بسره. فتكدر الأمير چوپان حين علم بذلك وأرسل بغداد خاتون مع الأمير شيخ حسن إلى قراباغ في محاولة لصرف نظر السلطان عنها. إلا أن السلطان لم يقلع عن حبها؛ ولكنه حين أحس بإعراض الأمير چوپان عن الاقتراح الذي أوحى إليه به، فقد تغير تجاه الأمير، وسعى ركن صاين الوزير إلى إضرام نيران هذه الخصومة، وجعل دمشق خواجه الذي تولى المهام الإيلخانية الخاصة يبدو في نظر السلطان مستبداً ومنفرداً بالسلطة.

وذات يوم سأل الأمير چوپان الإيلخان عن سبب تغيُّره نحوه. فشكا الإيلخان له من استبداد دمشق خواجه وتسلطه واعتبر تفرده بالسلطة مخالفاً لأصول الحكم. فوجَّهَ الأمير چوپان اللوم لابنه وسأله عن السبب في ذلك. فقال له دمشق خواجه: «أنا لا أراني مذنباً ولا أعرف لتغير السلطان عليّ من سبب سوى كيد صاين الوزير. فاصطحب الأمير چوپان صاين الوزير إلى خراسان ووضع زمام شؤون الوزارة في يده كما سبقت الإشارة. وهنا أيضاً بلغت سطوته حداً لم يبق معه للإيلخان سوى السلطة الاسمية، مما أدى بالإضافة إلى ضيق السلطان إلى إثارة حسد الأمراء الآخرين فظلوا يكيدون لدمشق خواجه لدى السلطان وكادوا يقضون عليه.

واغتنم خصوم دمشق خواجه فرصة انشغال الأمير چوپان في خراسان وانشغال أبنائه بالحكم أو قمع المعارضين في بلاد الروم وكرجستان وهرات وأبلغوا الإيلخان بأن دمشق خواجه على علاقة بإحدى حريم السلطان بقلعة سلطانية وبأنه شق عصا الطاعة عليه. فعيَّن السلطان جماعة للتحقيق في الأمر. وفي الليلة التي ذهب دمشق خواجه فيها للقاء عشيقته في القلعة أبلغوا السلطان فأمر بقتله ونشر خبر مقتل الأمير چوپان في المدينة والطواف برؤوس مجموعة من اللصوص الأكراد كان قد جئ بهم آنذاك إلى سلطانية بدلاً من رؤوس الأمير چوپان وأعوانه. وكان دمشق خواجه فارساً مغواراً، ففر من القلعة وتعقبه الأمراء إلى أن ألقوا القبض عليه وتم قتله في الخامس من شوال ٧٢٧هـ بأمر من الإيلخان، وعُلِّقَ رأسُه على بوابة القلعة وتمَّ نهب أمواله.

حين علم الأمير چوپان بمقتل ابنه، أرسل رسالة إلى السلطان يقول فيها: «لو كان ابني قد شق

عصيا الطاعة فقد نال جزاءه. وأنا لازلت على ولائي لكم». إلا أن الأمراء أدخلوا الخوف في قلب السلطان من انتقام الأمير چوپان. فاستدعاه على عجل إلى العاصمة وأمر الأمراء المرافقين له سراً باعتقاله. إلا أن هؤلاء الأمراء لم يطيعوا السلطان لولائهم لچوپان، وأطلعوا الأمير على الأمر. فتشاور الأمير چوپان مع ابنه والأمير حسن وسائر أمرائه؛ فقال الأمير حسن: «إن خراسان في أيدينا؛ وعوائد فارس وكرمان أيضاً تصل إلينا؛ وتيمورتاش يسيطر على بلاد الروم؛ ويسيطر الأمير محمود أخونا الثالث على كرجستان. والأصلح أن نطلب العون من أولوس جغتاي لنثأر من السلطان أبي سعيد». فلم يوافق الأمير چوپان على هذه الفكرة واغتر بشجاعته وقال: «ليس في العراق من يستطيع أن يقف في طريقي. سأذهب إلى العاصمة وأنهي الأمر». ثم أمر بقتل صاين الوزير الذي اعتبره أصل كل الفساد، ومضى هو وسبع فرق من الجيش نحو العراق.

كان أبو سعيد يرتعش خوفاً من أنصار چوپان؛ لذا فقد أصدر أوامره بصد أبنائه والقضاء عليهم قضاء مبرماً، وخرج بنفسه من سلطانية على رأس جيش ونزل في قزوين؛ وتقدم أمراء الحدود بجيش لدعم قواته. وجعل الأمير چوپان أمراءه يُقسِمون على الولاء له في ضريح طوس وخرج معهم إلى سمنان حيث زاروا العارف الشهير الشيخ ركن الدين علاء الدولة السمناني حيث جدَّدَ عهده مع أمرائه المرافقين له في حضوره، والتمس من علاء الدولة أن يقابل الإيلخان وينصحه ويهدئ من غضبه ويبلغه بعمق ولائه له ويطلب منه أن يسلمه المحرضين على قتل دمشق خواجه حتى تخمد الفتنة بمعاقبتهم. وقبل علاء الدولة التماس الأمير چوپان ومضى إلى السلطان وبذل مساعي حميدة حتى يصلح بين السلطان وأمير الأمراء؛ إلا أن الإيلخان لم يلبِّ لعلاء الدولة مطلبه على ما يكنه له من احترام. كما نقض الأمراء المرافقون للأمير چوپان عهدهم معه وانضموا للمعسكر الإيلخاني. فاستسمح الأمير چوپان زوجته ساتي بيك وفر إلى الصحراء ثم إلى ضفاف مرغاب عن طريق طبس. وفكر في البداية في اللجوء إلى ما وراء النهر وتركستان؛ إلا أنه خجل من ذلك، ولجأ إلى ملوك كرت الخونة وذهب عند غياث الدين. فأكرم غياث الدين وفادته في البداية؛ ثم تلقى من الإيلخان أمراً بقتل الأمير چوپان، فاعتقله وابنه الصغير جلاوخان من شقيقة أبي سعيد الأولى وقرر قتلهما. فعتب الأمير چوپان على غياث الدين، وحين تيقن من قتله له التمس منه

ثلاثة أشياء، أولها ألا يفصل رأسه عن جسده، وإن أراد أن يرسل إلى معسكر الإيلخان دليلاً على قتله فليرسل إصبعه ذا الرأسين؛ والثاني ألا يقتل ابنه جلاوخان وأن يرسله إلى السلطان لعله يرحم صباه فلا يقتله؛ والثالث أن يرسل جثمانه إلى مدينة طيبة. فوافق الملك غياث الدين على هذه المطالب وقتل الأمير چوپان وأرسل إصبعه دليلاً إلى أبي سعيد ووصل إليه في محرم ٧٢٨هـ في قراباغ وتم تعليقه على قمة الخيمة بأمر إيلخاني.

وفي فترة اضطراب أحوال الأمير چوپان وأبنائه، لم ينس الإيلخان حبه لبغداد خاتون؛ بل إنه أوفد قاضي القضاة إلى الأمير شيخ حسن جلاير وأجبره على تطليق بغداد خاتون؛ وتزوجها بعد انقضاء العدة الشرعية وحقَّقَ أمنيته القديمة ومنح زوجته لقب خداوندگار.(٨) وبعد أن فرغ الملك غياث الدين من المهمة المشينة التي اعتبرها خدمة يسديها للسلطان، ذهب إلى المعسكر الإيلخاني في شتاء ٧٢٨هـ؛ وفي الري بلغه أن بغداد خاتون تزوَّجت من الإيلخان وأصبحت لها سيطرة مطلقة عليه. فدب الخوف في قلبه وأوفد رسولاً من قبله إلى هرات لقتل جلاوخان بخراسان ومضى هو إلى قراباغ. وكان يظن أن السلطان سيكافئه ويزوجه إحدى أميرات الأسرة الإيلخانية كما وعده ويمنحه التصرف في أملاك أتابكة فارس. إلا أن بغداد خاتون دفعت السلطان إلى اعتقاله وصدر الأمر بإحضار جثماني الأمير چوپان وجلاوخان من خراسان بكل احترام، وبعد جلبهما، قامت بغداد خاتون بغسلهما من جديد وأقامت لهما المراسم الدينية ثم أرسلت نعشي أبيها وأخيها مع قافلة خاصة إلى الحجاز. ودفع أبو سعيد من جيبه أربعين ألف دينار نفقات تلك القافلة. وتمَّ الطواف بنعشيهما حول الكعبة في عيد الأضحى وصلَّى الحجيج عليهما ثم أودعا الثرى في المدينة بالقرب من قبر الخليفة الثالث والإمام الحسن.

كان الأمير چوپان رجلاً مسلماً عادلاً وخيراً وأنشأ العديد من المنشآت الخيرية على طريق مصر والشام، وقضى جُلَّ وقته في خدمة أولجايتو وأبي سعيد بكل إخلاص وولاء. وكان ازدهار عهد هذين الإيلخانين يُعزى في جزء منه إلى كفاءته هو وأبنائه. إلا أن السذاجة كانت غالبة على طبعه؛ وتجلت هذه النقيصة واضحة عندما اتُهم رشيد الدين فضل الله.

وكان للأمير چوپان تسعة أبناء أكبرهم الأمير حسن الذي كان يتولى حكم خراسان ومازندران

إبان مقتل والده. وتولّى أحد أبناء الأمير حسن الثلاثة وهو تالش خان حكم أصفهان وفارس من قبل أبيه. وبعد ذيوع نبأ مقتل الأمير چوپان، مضى كل من الأمير حسن وتالش خان إلى مازندران وفرا منها إلى خوارزم حيث لجآ إلى أوزبك خان ملك صحراء القبچاق. فاكرم أوزبك خان وفادتهما وبقيا عنده إلى أن أصيب الأمير حسن في القتال ضد قبيلة الشركس ومات متأثراً بجروحه. كما مات تالش خان ميتة طبيعية؛ وأقدم الأمير حسن الأصغر ابن أخي الأمير حسن على قتل ابنيه الآخرين.

والابن الثاني للأمير چوپان هو تيمورتاش الذي تولى حكومة بلاد الروم؛ وظل يحارب أرامنة كيليكيا وغيرهم من المتمردين طوال مدة ولايته ووصل بحدود الدولة الإيلخانية إلى سواحل المتوسط. وقد اشتهر تيمورتاش بشدة بطشه وقسوته، إلا أنه كان صديقاً للملك الناصر سلطان مصر وكانا يتبادلان السفراء بصورة مستمرة. وبعد أن علم تيمورتاش بمصرع والده تحصن بإحدى قلاع الروم لعل السلطان يعفو عن دمه. وأوفد رسولاً إلى سلطان مصر يطلب حمايته. فرد الملك الناصر بأن الجيش والخزانة والدولة كلها تحت أمر الأمير تيمورتاش. فجمع تيمورتاش ضرائب باهظة من أهالي الروم واتخذ طريقه إلى مصر حيث استقبله الولاة على طول طريق الشام بكل حفاوة إلى أن دخل مصر في النصف الأول من ربيع الأول ٧٢٨هـ. وقبّل الأرض ثلاث مرات بين يدي سلطان مصر فشرَّفَهُ السلطان بأن خلع عليه وأجلسه بجواره وبالغ في الحفاوة به، وأمر بإحضار أهل تيمورتاش الذين تحصنوا بإحدى قلاع الروم إلى مصر، إلا أنهم لم يرغبوا في الذهاب إلى مصر. وأوعز البعض للسلطان بأن عدم مجيئهم إلى مصر كان بناء على أمر من تيمورتاش لأنه يفكر في العودة إلى بلاد الروم واسترداد حكومته السابقة بها. كما أبلغ حاكم إحدى قلاع الروم الملك الناصر بأن تيمورتاش قتل أباه ولاذ بحمى السلطان. فكلَّف الملك الناصر بعض أمرائه بتقصي الأمر. وعلى الرغم من اعتراض تيمورتاش على هذه الاتهامات فإن سوء ظن السلطان به لم ينمح.

وبعد شهر من دخول تيمورتاش إلى مصر، وصلت رسالة من الإيلخان إلى سلطان مصر يشرح له فيها تفاصيل مصرع الأمير چوپان، وقال الرسل الذين جاءوا بالرسالة لسلطان مصر إنهم لم يعلموا شيئاً عن مصير تيمورتاش قبل دخولهم دمشق. وكانت هناك علاقات ودية بين الإيلخان

وسلطان مصر بعد أن زالت الضغينة بين إيلخانات إيران وسلاطين مصر والتي نجمت عن مكائد تاج الدين علي شاه. وقد أطلع الملك الناصر الإيلخان في رسائله الودية بلجوء تيمورتاش إليه. وبعد تبادل السفارات بين السلطانين مرتين أو ثلاث مرات، أرسل الملك الناصر الذي كان يخشى من تعاظم قوة تيمورتاش في مصر رسالة للإيلخان يبلغه فيها سراً بأن تيمورتاش رهن إشارته وسيفعل به ما يشير عليه به. فأوفد أبو سعيد رسولاً إلى مصر ليعيد تيمورتاش إلى إيران. فقام سلطان مصر في البداية بإلقاء تيمورتاش في السجن مع رفاقه ووجَّهَ إليه اللوم في حضور رسول الإيلخان وقال له: «إنك لم تسلك معنا طريق الصفاء»؛ فلم يُحرِ تيمورتاش جواباً. وكان رسول الإيلخان قد طلب من السلطان أن يعيده وحده إلى إيران؛ فخشى الملك الناصر أن يتمكن تيمورتاش بعد وصوله إلى إيران من النجاة بنفسه بوساطة من بغداد خاتون وغياث الدين محمد اللذين كانا صديقين قديمين له فيشرع في الانتقام من السلطان. فكلَّف جماعة من الأكراد سراً بالتربص على الطريق إلى إيران وقتلوا ذلك الرجل الشجاع بأمر من السلطان في الرابع من شوال ٧٢٨هـ وقدموا رأسه إلى الإيلخان في أوجان كهدية.

وبعد قتل تيمورتاش، أرسل الملك الناصر رسالة إلى الإيلخان يقول فيها: «لقد تبينت لنا خبايا نفس تيمورتاش. وكان وجوده سبباً في تعكير صفو الصداقة بيننا فقتلناه». وطلب الملك الناصر من الإيلخان تسليم قرا سنقر الذي كان قد لجأ إلى إيران في عهد أولجايتو؛ إلا أن الإيلخان أحجم عن تلبية مطلبه، إلا أنه قتله قبل وصول تيمورتاش إلى مراغة واحتفظ بصداقة سلطان مصر حتى آخر مدة ولايته.

وكان الابن الرابع للأمير چوپان هو الأمير محمود الذي تولى حكم أرمينيا وكرجستان. وقد تم اعتقال هذا الابن أيضاً بأمر من الإيلخان، وتم إعدامه في تبريز في سنة ٧٢٨هـ. وكان هؤلاء الأبناء الأربعة وبغداد خاتون من أم واحدة. أما الابن الخامس للأمير چوپان وهو جلاوخان فكانت أمه دولُندي خاتون ابنة أولجايتو. وكان للأمير چوپان ابن آخر من ساتي بيك ابنة أولجايتو الأخرى لم تكن له أهمية كبيرة بالمقارنة بأبنائه الثلاثة الآخرين. وسيرد ذكر بعضهم ضمن أحداث عصر أبي سعيد.

أحداث السنوات الأخيرة من عهد أبي سعيد:

في سنة ٧٢٩هـ، أعلن ناري طُغاي حاكم خراسان تمرده. وكان هذا الشخص يحظى بمنزلة خاصة عند أبي سعيد أيام ولايته على خراسان، ثم ابتعد عن خدمة أبي سعيد على أثر مكائد دمشق خواجه، ولجأ إلى الأمير چوپان والتحق بوساطة منه ببلاط أبي سعيد مرة أخرى. ولما كان يخشى جانب دمشق خواجه، فقد عزم على قتله وكان من العوامل الرئيسة للقضاء عليه إلى أن قُتل هو وتمكن ناري طغاي من جمع ثروة هائلة من نهب أمواله. وأصبح صاحب نفوذ وسطوة كبيرة في معسكر أبي سعيد إلى أن أصبح غروره موضع بغض السلطان الذي سعى لإقصائه عنه فأرسله إلى خراسان. فقرر ناري طغاي الذي ادعى منصب نائب الأمير چوپان ضم هرات أيضاً إلى سيطرته وقد كانت أسرة آل كرت تتوارث حكومتها لسنوات طويلة. إلا أن غياث الدين الذي كان آنذاك في معسكر أبي سعيد استصدر من الإيلخان فرماناً بألا يتدخل ناري طغاي أو يتصرف فيما تحت يده من متعلقات آل كرت. فتكدر ناري طغاي تجاه غياث الدين لدى سماعه بهذه الواقعة، فأوفد شخصاً إلى هرات لاستدعاء الملك شمس الدين الابن الأكبر لغياث الدين، إلا أنه رفض الحضور إليه. فأرسل ناري طغاي اثنين من أمرائه إلى هرات ولكنهما لم يفعلا شيئاً. وذهب الملك غياث الدين في ذلك الوقت إلى هرات وأدرك ناري طغاي ألا فائدة ترجى من ملوك آل كرت.

وبعد انتشار نبأ ثورات خراسان واحتمال هجوم المغول الجغتائيين، أرسل أبو سعيد خاله علي پادشاه الذي كان قائد حرس حدود أربيل مع عدد من الأمراء إلى خراسان. وحين علم ناري طغاي بتحرك الأمراء، أوفد العديد من الرسل إلى معسكر الإيلخان قائلاً إنه نظراً لعدم وجود خطر هجوم على خراسان فلا داعي لمجئ الأمراء إلى هناك. فتوقف الأمراء في سلطانية حيث امتنع علي پادشاه عن الذهاب متعللاً بأن ناري طغاي لا يرى ضرورة لوجوده في خراسان. وأرسل أبو سعيد إليهم بالتعجيل بالذهاب فاعتذروا واتجهوا بتحريض من علي پادشاه إلى أوجان حيث معسكر الإيلخان. فغضب أبو سعيد لذلك غضباً شديداً وأوفد إليهم أحد أمرائه بأمر منه بعودتهم. كما أرسلت حاجي خاتون والدة الإيلخان رسالة إلى أخيها تقول له فيها إنه لو أراد أن يتقي غضب الإيلخان فعليه أن يعود. إلا أن الأمراء رفضوا الانصياع وقالوا إنهم يريدون تقبيل قدمي الإيلخان ويقابلوه

شخصياً. إلا أن عدداً منهم أسرعوا إلى بلاط السلطان حين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط معسكره وأفشوا أسرار علي پادشاه ورفاقه. وعفا أبو سعيد عن علي پادشاه بشفاعة من والدته وأمره بالذهاب إلى حدود بغداد وتسليم طاشتيمور الذي كان من أعوانه للوزير غياث الدين وسائر الأمراء لمحاكمته. إلا أن غياث الدين بسلامة طبعه قرر أن يحسن إلى كل خصومه وخصوم والده مع أنه كان على يقين من أن عصيان الأمراء كان موجهاً ضده، وحصل من الإيلخان على عفو عن طاشتيمور وأرسله إلى خراسان. وبالقرب من أبهر بزنجان، التقى طاشتيمور بناري طغاي الذي كان في طريقه إلى المعسكر الإيلخاني؛ وتحالف الأميران وقررا القضاء على أعدائهما واعتبرا غياث الدين الذي كان هو وبغداد خاتون يقبضان على زمام شؤون الدولة في أيديهما في ذلك الوقت ألد أعدائهما، وفكرا في قتل ذلك الوزير العالم، ودعيا علي پادشاه سراً للانضمام إليهما. وبقي طاشتيمور في قزوين في انتظار تنفيذ خطة ناري طغاي. وذهب ناري طغاي إلى سلطانية للإمساك بزمام الأمور بأية وسيلة ممكنة، إلا أن الإيلخان لم يمكنه من ذلك، وظلت بغداد خاتون تزيد من غضب السلطان عليه حيث كانت تعتبره السبب الأول لقتل أبيها وأخيها.

وشرع ناري طغاي في ضم الأمراء المقيمين في المعسكر الإيلخاني إليه وأطلعهم على قصة الاتفاق بين پادشاه وطاشتيمور على معارضة السلطان، إلا أن السلطان الذي لم يكن راضياً عن ظلمه واستبداده في خراسان لم يعره التفاتاً، ولم يلبِّ الأمراء الآخرون دعوته؛ فاضطر إلى وضع خطة لقتل غياث الدين، فطلب لقاءه، إلا أنه لم يُسمح له بمقابلة غياث الدين بسلاحه. فلجأ إلى المسكنة حيث طلب من الوزير أن يتشفع له عند السلطان. فوعده غياث الدين بذلك وقرر لقاء الإيلخان للوفاء بما وعد. فخرج ناري طغاي وتربَّصَ بالوزير خارج داره. إلا أن غياث الدين مثل بين يدي الإيلخان وعرض عليه التماس ناري طغاي. فاندهش الإيلخان لسذاجة الوزير وأطلعه على ما يدبره ناري طغاي لغياث الدين، وأمر باعتقال ناري طغاي. وحين علم ناري طغاي بهذه القصة، فر إلى جبال أبهر وذهب إلى الري في طريقه إلى خراسان إلا أنه تمَّ اعتقاله في تلك المنطقة وألقي القبض على طاشتيمور في قزوين. وفي أول أيام عيد الأضحي لسنة ٧٢٩هـ، تم إعدامهما بأمر من الإيلخان في مدينة سلطانية، وعُلِّقَتْ رؤوسُهما على بوابة قلعة المدينة بدلاً من رأس دمشق

خواجه.

وفي سنة ٧٣٠هـ، أرسل أبو سعيد الأمير شيخ علي ابن الأمير علي قوشجي حاكماً لخراسان، ووهبه خواجه علاء الدين محمد الذي كان أحد المتهمين في قضية ناري طغاي بعد أن عفا عنه بشفاعة من خواجه غياث الدين وأرسله مع الأمير شيخ علي إلى خراسان مرة أخرى لإصلاح ما تخرَّب فيها بعد مقتل الأمير چوپان.

وفي سنة ٧٣١هـ، أبلغ بعض المغرضين الإيلخان بأن الأمير شيخ حسن جلاير يراسل مطلقته بغداد خاتون في الخفاء بهدف قتل السلطان. فاصدر أبو سعيد أمراً باعتقال الأمير شيخ حسن وحكماً بقتله؛ إلا ان عمة الإيلخان وهي والدة الأمير شيخ حسن توسطت عنده فعفا عن دمه، ولكنه حكم بالا يبقى أمام عينيه وأن يتمَّ حبسه في مكان بعيد. فتم سجن الأمير شيخ حسن ووالدته بقلعة كماخ وهي إحدى قلاع الروم على مسافة يوم من زنجان، وسقطت بغداد خاتون من اعتبار الإيلخان. ولكن سرعان ما ثبتت براءتها، فأمر بقتل المغرضين وحظيت بغداد خاتون باهتمامه من جديد. وبعد عامين، تزوَّجَ أبو سعيد دلشاد خاتون ابنة دمشق خواجه.

وفي سنة ٧٣٢هـ، توفي الحاكم الجديد الذي تمَّ تعيينه لبلاد الروم وهو الأمير دولتشاه وهو في الطريق، فأطلق الإيلخان سراح الأمير شيخ حسن جلاير من سجنه في مطلع سنة ٧٣٣هـ وأرسله حاكماً على بلاد الروم وظل الأمير في هذا المنصب حتى وفاة الإيلخان.

وفي سنة ٧٣٤هـ، قام أبو سعيد بعزل الأمير شرف الدين محمودشاه إينجو وهو أحد أتباع الأمير چوپان وكان قد عين حاكماً لإقليم فارس منذ مدة طويلة ثم جمع بين فارس وكرمان والبحرين وكيش وأصفهان وحقق ثروة طائلة ونفوذاً كبيراً واصبح من أقوى رجال عصره بسبب صلته بخواجه غياث الدين، وعيَّن مكانه أميراً آخر يدعى مسافر إيناق. فتحالف محمودشاه الذي كان يعتبر نفسه أحق بالمنصب مع عددٍ من الأمراء وهاجم مسافر إيناق، فلجأ إيناق إلى القصر الملكي وتعقبه خصومه وطالبوا السلطان بتسليمه. وتصادف وصول الأمير سيورغان سادس أبناء الأمير چوپان مع فرسانه وأمير آخر، ففرَّقوا الأمراء المعتدين. وأصدر أبو سعيد حكماً بقتلهم لولا ان توسط غياث الدين وحصل من السلطان على إذن بإبعادهم وسجنهم. فتمَّ حبس كل منهم في

مكان ومنهم شرف الدين محمودشاه إينجو الذي تمَّ سجنه في قلعة طبرك بأصفهان، وأرسل ابنه جلال الدين مسعودشاه إلى بلاد الروم عند الأمير شيخ حسن.

وفاة أبي سعيد (١٣ ربيع الثاني ٧٣٦هـ):

في أواخر سنة ٧٣٥هـ، عزم أوزبك خان ملك صحراء القبچاق على غزو أران وأذربيجان عن طريق دربند. ونظراً لعدم وجود أي من كبار الأمراء في البلاط آنذاك، فقد أجَّل أبو سعيد رحلته التي كان يعتزم القيام بها إلى بغداد وأمر وزيره غياث الدين بصد أوزبك خان. فخرج غياث الدين إلى قراباغ، وسرعان ما لحق به السلطان على رأس جيش جرار؛ إلا أنه سقط مريضاً في أران في سنة ٧٣٦هـ بسبب حرارة الجو وفساده وأسلم الروح على أطراف شروان في ١٣ ربيع الثاني من السنة نفسها، وتمَّ حمل جثمانه إلى سلطانية حيث تمَّ دفنه في ضواحيها في ضريح كان قد بناه لنفسه.

وفي أثناء احتضاره، استشعر أطباؤه وجود آثار للسم في بدنه. ويرى معظم المؤرخين أن بغداد خاتون بعد أن أهملها السلطان وتزوج من دلشاد خاتون دسَّتْ له السم لما كانت تكنه له من حقد لقتله أبيها وإخوتها، وأن أحد خصيان السلطان أبي سعيد ممن علموا بهذه الواقعة قتل بغداد خاتون بعد وفاة أبي سعيد بأمر من خليفته.

كان أبو سعيد آخر إيلخانات أسرته الأقوياء. وكان ملكاً كريماً وحكيماً ومحباً للعلم؛ فازدهرت في عهده العلوم والآداب وظهر العديد من الشعراء والمؤرخين. إلا أن الفضل في ذلك يرجع في جانب كبير منه إلى وجود وزيره الفاضل غياث الدين محمد. وكانت لديه هو نفسه ميول للشعر وكان حسن الخط وعازفاً موسيقياً. وعلى الرغم من عدم مغالاته في التعصب فقد أغلق عدداً من الكنائس بإيعاز من مستشاريه؛ وبعد القحط والإعصار اللذين ألما بمعظم البلاد في سنة ٧١٩هـ حيث اعتبره المقدسون نتيجة لسوء أعمال الناس أمر بإغلاق الحانات في كل مكان وهدم المواخير ولم يبق سوى حانة واحدة في كل ولاية للأجانب.

علاقات أبي سعيد الخارجية:

بعد جلوسه على عرش الإيلخانية، أبلغ أبو سعيد سلطان مصر بعزمه على الاحتفاظ بعلاقاته

الودية معه، وتلقى من السلطان رسالة بالمعنى نفسه. وسبق أن أشرنا إلى أن قراسنقر وهو أحد أمراء الملك الناصر كان قد لجأ إلى إيران في عهد أولجايتو وعاش في حمى إيلخاناتها، وكان الملك الناصر يريد استعادته أو القضاء عليه بأية وسيلة ممكنة؛ فأرسل في سنة ٧٢٠هـ ما يقرب من ثلاثين من الفدائيين الإسماعيليين الشوام سراً إلى تبريز لقتل قرا سنقر؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من تنفيذ المهمة وتم إلقاء القبض على معظمهم وقتلوا. وكان لهذا الحادث تأثير سلبي في إيران؛ فقد شاع بين الناس أن الفدائيين لا يهدفون إلى قتل قرا سنقر وحده، بل إلى قتل أبي سعيد والأمير چوپان وخواجه علي شاه وكبار الأمراء الإيلخانيين أيضاً. فغضب الأمير چوپان لذلك غضباً شديداً وأراد قتل رسول سلطان مصر الذي كان قد جاء إلى معسكر الإيلخان لوضع أسس السلام بين الدولتين؛ إلا أن خواجه علي شاه لم يدعه يقتله، وتقرر سفر سفير من إيران لإبرام معاهدة مع مصر. واستقبل عمال سلطان مصر في كل من حلب ودمشق سفير الإيلخان بكل احترام، حتى وصل السفير إلى مصر، وتم عقد معاهدة صداقة بين الدولتين في سنة ٧٢١هـ وكانت أهم بنودها على النحو التالي:

١- ألا يكلف سلطان مصر الفدائيين الإسماعيليين بأية مهام في الممالك الإيلخان.

٢- ألا يطالب أي من الجانبين بترحيل رعاياه ممن يلجؤون إلى أرضه.

٣- ألا يحرض سلطان مصر أعراب البادية والتركمان على مهاجمة الممالك الإيلخانية.

٤- ترسيخ علاقات الود بين الدولتين وتمكين تجار البلدين من حرية التجارة والحركة.

٥- حرية حركة قوافل الحجيج السنوية من العراق إلى مكة على أن ترفع علمين أحدهما باسم سلطان مصر والآخر باسم إيلخان إيران.

٦- أن يصرف سلطان مصر النظر عن تسلم قرا سنقر.

وتم توقيع المعاهدة بين الجانبين. وكان الملك الناصر الذي كان رجلاً مسلماً غيوراً على دينه قد أمر بحظر بيع المسكرات وإغلاق المواخير قد سر باتخاذ أبي سعيد لإجراءات مماثلة في بلاده وأصر على ترسيخ أسس الصداقة معه، وقد ظلت هذه العلاقات الودية قائمة حتى نهاية عهد أبي سعيد، فتبادل الملكان السفارات والهدايا النفيسة بينهما.

وفي سنة ٧٢٠هـ، أمر الملك الناصر عدداً من قواده بشن حملة على أرمينيا الصغرى والإغارة

على سيس عاصمة كيليكيا. فظلوا يغيرون على سيس منذ أواسط ربيع الآخر من ذلك العام. ثم عبروا نهر جيحان وهاجموا كل أنحاء أرمينيا، فاضطر ملكها الصغير ليون الخامس الذي لم يتجاوز العاشرة ووصيه الأرمني إلى طلب العون من البابا جان الثاني والعشرين ومن العالم المسيحي. فقال البابا في رده إن ملوك أوربا منشغلون بالحروب فيما بينهم ولا يستطيعون نجدته، ولكنه سيرسل جيشاً لمساندة أرمينيا. وأدى ذيوع ذلك الخبر إلى غضب الملك الناصر، فجدد غاراته على أرمينيا وحرض تيمورتاش حاكم بلاد الروم على مهاجمة الدول المسيحية الأخرى. ودخل تيمورتاش سيس فجأة وتقدم حتى ساحل البحر وحصل على الكثير من الأسرى والغنائم وأضرم المصريون النيران في مدينة أضنة وأسروا قرابة عشرين ألفاً من الأرمن.

ودفعت هذه الأنباء البابا إلى التفكير مرة أخرى في نجدة أرمينيا؛ وفي هذه المرة، وبالإضافة إلى الإعانات التي جمعها وأرسلها لملك أرمينيا، كتب رسالة بتاريخ ١٣ يوليو ١٣٢٢م (٢٧ جمادى الأخرى ٧٢٢هـ) إلى أبي سعيد من مدينة أفينيون يذكره فيها بالسياسة السابقة التي انتهجها إيلخانات إيران وأجداده ودعاه إلى مد يد العون لأرمينيا، وكتب رسالة أخرى خاصة إلى الإيلخان يدعوه فيها إلى قبول الدين المسيحي.

وبعد بناء مدينة سلطانية بعدة سنوات، وفي سنة ٧١٨هـ، افتتح البابا كنيسة فيها بمقتضى مرسوم إيلخاني، وأوفد أحد القساوسة ويدعى فرانسوا دو پيروز لتولي أسقفية الرعايا المسيحيين في إيران والدول المجاورة. وظل هذا القس في منصبه حتى عام ٧٢٤هـ، وخلفه قس آخر. ولكن باعتناق إيلخانات إيران للإسلام، لم يعد للمسيحيين ما كان لهم من نفوذ وقوة في عهد هولاكو وأباقا وأرغون.

وطلب ليون ملك أرمينيا العون من أبي سعيد أيضاً، فأرسل أبو سعيد عشرين ألف جندي لنجدته على الرغم من المعاهدة المبرمة بينه وبين سلطان مصر، وواصل سياسة أجداده في رعاية الأرمن؛ وفي الوقت نفسه دعا سلطان مصر لإبرام اتفاقية صلح مع ملك أرمينيا. ولكن قبل وصول قوات أبي سعيد، كان الجيش المصري قد سحق الأرمن لدرجة دفعت أسقف أرمينيا للذهاب للقاء الملك الناصر وعقد معه معاهدة لمدة خمس عشرة سنة بوقف الحرب مع أرمينيا، وفي سنة ٧٢٩هـ،

قبل ليون التبعية للملك الناصر رسمياً وارتدى خلعته، وبذلك تخلص الأرمن من حملات الجيش المصري.

وتوثقت الصلات التجارية بين إيران وأوربا في عهد كل من أولجايتو وأبي سعيد. وجاء إلى إيران بين عامي ٧١٦ و٧١٨هـ أحد رجال الدين المسيحي ويدعى أودوريك للتفتيش على الكنائس، ومن إيران زار الهند والصين أيضاً وبقي منه كتاب رحلات يعد من المصادر المهمة لفهم الأوضاع في ولايات إيران في ذلك العصر. كما اتصل بأولجايتو في أواخر عهده تجار ڤينيسيا الذين كانوا يسيطرون في ذلك العصر على التجارة في كل بلاد الشرق المطلة على المتوسط وكانوا يتطلعون إلى آسيا. وفي سنة ١٣٠٥م (٧٠٥هـ) تم إبرام اتفاقية تجارية بين ممثل ڤينيسيا وأولجايتو الذي منح تجار ڤينيسيا امتيازات، وأوفد مجلس شيوخ مدينة ڤينيسيا سفيراً إلى أبي سعيد في سنة ٧٢٠هـ واستصدر منه مرسوماً بمنح امتيازات أخرى لتجار بلاده، وتم إيفاد قناصل إلى عدة مدن من الممالك الإيلخانية للفصل في الدعاوى بين تجار ڤينيسيا وأهالي إيران؛ ودخل أول هؤلاء القناصل تبريز في سنة ٧٢٤هـ، وأخذت هذه الصلات في الازدياد يوماً بعد يوم.

آخر الإيلخانات:

كان أبو سعيد آخر الإيلخانات الكبار من هذه الأسرة؛ فبعد وفاته المفاجئة، أخذت أسرة الإيلخانات في التدهور بسرعة شديدة وصار منصب الإيلخان موضع نزاع بين عدد من الأمراء غير الأكفاء من الأسرة الجنكيزية والأمراء المتحاربين، وانقسمت الممالك الإيلخانية إلى عدة أجزاء، فتهيأت الساحة لظهور الأمير تيمور جوركان الذي تصادف مولده في العام نفسه الذي توفي فيه أبو سعيد، فسقطت دولتهم العابرة في يد ذلك الأمير الجبار.

لم ينجب أبو سعيد خان أبناء من الذكور. ولما كان غازان خان في عهد ولايته قد قتل أمراء أسرة هولاكو أو أسقطهم تماماً من الاعتبار، فلم يكن هناك بعد وفاة أبي سعيد من يستطيع أن يمسك بزمام الأمور بيده. فقام غياث الدين محمد بعد شد وجذب مع أمراء أبي سعيد وخوانينه بتعيين أحد أحفاد أريق بوكا شقيق هولاكو ويدعى أرپاجاون في منصب الإيلخان وكان أبو سعيد

قد رشحه لخلافته أيضاً. فسارع كبار رجال المغول بتعيينه في هذا المنصب بعد تشييع جنازة أبي سعيد مباشرة.

ومن بين خواتين أبي سعيد، رفضت بغداد خاتون التصديق على تنصيب أرپاجاون. وكانت بغداد خاتون قد اتُّهمتْ بدس السم لأبي سعيد وتحريض أوزبك خان على مهاجمة إيران؛ فأمر أرپاجاون بقتلها بيد أحد خصيانه في الحمّام؛ بينما لاذت دلشاد خاتون التي كانت حاملاً بالفرار إلى العراق خوفاً منه واحتمت بعلي پادشاه حاكمها.

ولاية أرپاجاون (١٣ ربيع الثاني - ٤ شوال ٧٣٦هـ):

بعد تنصيب أرپاجاون، سارع بشن حملة على دربند لصد ملك القبچاق الذي تقدَّم إلى حدود نهر كورا. وبعد مناوشات بينهما، انتصر عليه أرپاجاون ثم عاد إلى تبريز وتزوَّج ساتي بيك أخت أبي سعيد وأرملة الأمير چوپان. وفي منتصف رجب، قتل الأمير شرف الدين محمودشاه إينجو بتهمة إيواء أحد أحفاد هولاكو في داره بهدف تنصيبه إيلخاناً على البلاد؛ وفرَّ الأمير جلال الدين مسعودشاه ابن محمودشاه والأمير شيخ أبو إسحق من تبريز، فذهب مسعودشاه إلى بلاد الروم في حمى الأمير شيخ حسن، بينما ذهب شيخ أبو إسحق إلى دياربكر في كنف علي پادشاه.

وفي الفترة التي لم تكن حكومة أرپاجاون قد تبلورت بعد، تجمعت دلشاد خاتون وحاجي خاتون والدة أبي سعيد وعدد من أمراء أبي سعيد المتمردين حول الأمير علي پادشاه وحرضوه على عصيان أرپاجاون، فقام الأمير علي پادشاه بترشيح موسى خان حفيد بايدو خان للإيلخانية وتحرك من دياربكر إلى أذربيجان وألحق الهزيمة بجيش أرپاجاون وغياث الدين في معركة نشبت بجوار نهر جغاتو في ١٧ رمضان ٧٣٦هـ، وتمكن من أسر الإيلخان ووزيره وقتلهما.

قتل غياث الدين (٢١ رمضان ٧٣٦هـ):

كان غياث الدين محمد بن رشيد الدين فضل الله رجلاً خيِّراً سليم الطوية، وسعى في عهد وزارته إلى الإحسان إلى كل خصوم والده وأعدائه هو. كما اتسمت سياسته بالغرور، فلم يوافق

على القضاء على الأمراء الموالين لعلي پادشاه كما نصحه محبوه؛ ومن ناحية أخرى لم يوافق على اقتراح الأمراء المعارضين بتسليم قيادة الجيش لعلي پادشاه. لذا فإنه بعد تشتت جيش أرپاجاون في جغاتو وأسر غياث الدين في إحدى قرى مراغة، لم يوافق علي پادشاه على قتله، إلا أن الأمراء المعادين لغياث الدين دفعوه إلى قتله. وكان هذا الوزير من أكبر رعاة أهل العلم والأدب بعد والده. وتمَّ قتله على يد علي پادشاه في ٢١ رمضان ٧٣٦هـ.(٩) وفي الفترة نفسها، تم أسر أرپاجاون أيضاً في سُجاس بزنجان وتم تسليمه لأقرباء محمودشاه بأمر من علي پادشاه فقتلوه في الثالث من شعبان من السنة نفسها ثأراً لمحمودشاه.

كان غياث الدين محمد الرشيدي كأبيه من الوزراء الذين حفروا أسماءهم في تاريخ إيران؛ فإلى جانب كفاءته وخبرته، كان كاتباً بليغاً ومن فضلاء عصره؛ وكان يجلُّ أهل العلم والأدب ويغدق عليهم من عطاياه. ووضع عددٌ من كبار العلماء والأدباء الكتب باسمه ونظم الشعراء القصائد في مديحه، ومن هؤلاء حمد الله المستوفي القزويني الذي ألّف كتابه تاريخ گزيده في سنة ٧٣٠هـ باسمه، وخواجه سلمان الساوجي الذي نظم عدة قصائد في مدحه، والقاضي عضد الدين الإيجي الذي وضع ثلاثة كتب هي متن مواقف و فوائد غياثيه و شرح مختصر ابن حاجب باسمه، وقطب الدين البويهي الرازي الذي ألّف كتابيه شرح مطالع و شرح شمسيه باسم ذلك الوزير، والأوحدي المراغي الذي وضع كتابه جام جم باسمه، وخواجوي الكرماني الذي قدَّم منظومتيه هماي و همايون باسم غياث الدين، وغيرهم.

وبعد مقتل غياث الدين، شرع خصومه ورعاع تبريز في الإغارة على دياره وأتباعه وأعوانه، وأغاروا على الربع الرشيدي مرة أخرى ونهبوا الكثير من المخطوطات النفيسة والمال والمتاع.

يقول حمد الله المستوفي عن غياث الدين:

«بذل هذا الوزير الشهير مساعيه الحميدة كأبيه في ضبط شؤون الدنيا، ومع أن العفو عند المقدرة هو غاية الكمال الإنساني، وقد ذكر كبارنا كل من سلك هذا السبيل بكل إكبار وإجلال، فقد زاد هذا الوزير الملائكي على ذلك بالعفو عمن أجرموا في حقه وقابل إثمهم بالحسنى وأبلغهم أعلى المراتب وعيَّنهم في خطير المناصب وحقَّق لهم ما يتمنون، فيقول الزمان بلسان الحال: يفعل

الكبار ما ينبغي أن يفعلوا» (تاريخ گزيده، ص٦١١)

«ومن ناحية الجود والسخاء ورعاية العلماء، روى ثقاة الرواة حكايات عن ذلك الوزير الفاضل، منها أنه حين جلس الملك العالي الجبين الأمير شيخ أبو إسحق على مسند الحكم في شيراز، جاء إلى مجلسه الشريف ذات يوم قدوة المحققين القاضي عضد الدين. وفي أثناء المحاورة سأله الأمير شيخ: في أي العهدين وجد أهل العلم والأدب رعاية أكبر، في عهد أبي سعيد أم في عهدي؟ فابتسم القاضي وقال: في حالتي أنا حدث ذات مرة أن أغدق عليّ خواجه غياث الدين محمد رشيد وزير ذلك الملك السعيد ثلاث مرات بعطاياه في جلسة واحدة فحصلت بذلك على متاع وأملاك يحصل عمال ديوانك الآن على ثلاثين ألف دينار عراقي هي عشر عائدها. فسأله الأمير شيخ أبو إسحق عن التفاصيل فقال القاضي: إن من عادات ذلك الوزير أنه كان في ليلة الجمعة يجلس لمحاورة العلماء على أربع صفَّات تنبئ عن صفاء جوهره. وكان يوسع في مجلسه مكاناً لتلك الجماعة على اختلاف مراتبهم. وبعد التباحث في العلم كان ينصت إلى حديث كل منهم ويقرّبُهُ إليه. وفي أول مرة شاركت في هذا المجمع أشار هذا المربي الفاضل عليّ بأن أجلس على صفّة أعلى من الباقين. وبعد طرح مبحثي أشار مرة أخرى بأن أجلس على الصفة المجاورة له. وعندما تفوقت على العلماء في النقاش لثالث مرة أشار بأن أجلس بجواره دون فاصل بيننا، وأنعم عليّ بالسجاد والأواني الموجودة. وبعد أن سمع الأمير شيخ أبو إسحق هذا الكلام أمر بإعفائي من الثلاثين ألف دينار عراقي التي كان عمال ديوانه يحصلون عليها مني كضرائب» (حبيب السير، ج٣، ص١٢٧-١٢٨)

ولاية موسى خان (من شوال إلى ١٤ ذي الحجة ٧٣٦هـ):

بعد مقتل خواجه غياث الدين وأرپاجاون، قام الأمير علي پادشاه بتنصيب موسى خان حفيد بايدو على عرش الإيلخانية في أوجان وعين خواجه جمال الدين بن تاج الدين علي شرواني وزيراً له. ولكن نظراً لعجزه هو وموسى خان عن إخضاع كبار الأمراء ونظراً لتزايد الضغائن بين علي پادشاه وقبيلة الأويرات وسائر الأمراء، فسرعان ما انتشرت الثورات في بعض الولايات. وثار اثنان

من كبار أمراء أبي سعيد ولم يعترفا بإيلخانية موسى خان وسيطرة علي پادشاه وتحركوا من معاقلهما إلى أذربيجان؛ وكان أحدهما الأمير شيخ حسن الإيلكاني ابن الأمير حسن جوركان حاكم بلاد الروم وزوج بغداد خاتون الأول والذي كان من أحفاد أرغون خان من ناحية الأم، ولذا فقد لقب أرغون والده الأمير حسين بلقب جوركان أي «الصهر»؛ والآخر حاجي طغاي بن الأمير سونتاي الذي تولّى حكم أرمينيا ودياربكر منذ سنة ٧٣٢هـ بعد أبيه وكان عدواً لقبيلة الأويرات. وقد أرسل حاجي طغاي رسولاً إلى الأمير شيخ حسن الإيلكاني في بلاد الروم يدعوه للذهاب إلى إيران والاستيلاء على زمام الأمور فيها. فقام الأمير شيخ حسن وكان أميراً ذا كفاءة وطموح بترشيح أحد أحفاد منجو تيمور بن هولاكو وهو محمد خان لتولي منصب الإيلخان واتخذ طريقه إلى أذربيجان، وعين خواجه محمد زكريّا ابن أخت رشيد الدين فضل الله الهمداني وزيراً له.

وقبل أن يصل الأمير شيخ حسن إلى إيران، عرض على الأمير علي پادشاه أن يختاروا شخصاً لتولي عرش الإيلخانية وأن يمضي كل منهما إلى ولايته. فوافق پادشاه على عرضه إلا أن أمراءه لم يوافقوا، وانتهى الأمر بالقتال. وفي ١٤ ذي الحجة ٧٣٦هـ اصطف جيشا الفريقين على مشارف الاتاغ، واتفق على حسم الخلاف بمعركة بين موسى خان ومحمد خان. فانهزم محمد خان وفكّر في الهرب إلا أن الأمير شيخ حسن انقض على الأمير علي پادشاه وقتله وفرَّ موسى خان من المعركة واتجه مهزوماً إلى بغداد، ودخل الأمير شيخ حسن تبريز مع محمد خان، ودالت دولة الأمير علي وموسى خان.

ولاية محمد خان (من ذي الحجة ٧٣٦ إلى ذي الحجة ٧٣٨هـ):

بعد دخول تبريز، قام الأمير شيخ حسن الإيلكاني بتنصيب محمد خان على العرش رسمياً وتزوَّج من دلشاد خاتون انتقاماً مما فعله به أبو سعيد فيما يتعلق ببغداد خاتون. وكان غرضه من الزواج بدلشاد خاتون بالإضافة إلى الانتقام هو أنه إذا أنجبت دلشاد خاتون التي كانت حاملاً من أبي سعيد ولداً ألا يتخذه أحد أداة للمطالبة بالعرش ضد الأمير شيخ حسن.

وشمل الأمير شيخ حسن من بقي من أسرة خواجه رشيد بعطفه فعين صهر رشيد وهو الأمير

جلال الدين مسعودشاه إينجو وزيراً للإيلخان؛ ثم عاقب قتلة بغداد خاتون، ونفى ساتي بيك زوجة الأمير چوپان وأرپاجاون مع سيورغان سادس أبناء الأمير چوپان من هذه الخاتون إلى صحراء موغان.

ولاية طغا تيمور خان (٧٣٧-٧٥٤هـ):

بعد استيلاء الأمير شيخ حسن على أذربيجان، بادره عدد من أمراء أبي سعيد العداء وفروا من أذربيجان والعراق إلى خراسان وحرضوا واليها الأمير شيخ علي قوشچي ضد الأمير شيخ حسن. وكان من أقوى هؤلاء المعارضين الأمير پير حسن ابن الأمير محمود ابن الأمير چوپان، والأمير أرغونشاه ابن الأمير نوروز، والأمير عبدالله ابن الأمير مولاي، والأمير علي جعفر. فقاموا بعون من الأمير شيخ علي وهو من أمراء أسرة جنكيز ويقيم بمازندران باختيار واحد من أحفاد أحد إخوة جنكيز ويُدعى طغا تيمور للإيلخانية، واتخذوا منه أداة لتنفيذ أغراضهم في مقابل محمد خان والأمير شيخ حسن.

وبعد إعلان الإيلخانية، اصطحب طغا تيمور أمراءه المتمردين وذهب إلى أذربيجان؛ وعلى مشارفها لحق بهم موسى خان أداة الأمير علي پادشاه الذي كان قد فرَّ من قبضة الأمير شيخ حسن الإيلكاني؛ وقرر أنصار طغا تيمور وموسى أنه بعد صد الأمير شيخ حسن تُصبِحُ خراسان من نصيب طغا تيمور، والعراق وأذربيجان من نصيب موسى خان.

ونشب القتال بين جيش الحلفاء وقوات الأمير شيخ حسن في منتصف ذي القعدة ٧٣٧هـ بالقرب من مراغة. ولاذ طغا تيمور بالفرار وسقط موسى خان في قبضة الأمير شيخ حسن وقُتِلَ في العاشر من ذي الحجة من العام نفسه. وتصادف أن قام الأمير أرغونشاه في اليوم نفسه بقتل الأمير شيخ علي في خراسان، فاختفى بذلك خصما الأمير شيخ حسن في يوم واحد. واستولى الأمير شيخ حسن على أذربيجان والعراق لنفسه، وجاء طغا تيمور إلى خراسان وتولى عرش الإيلخانية بعون من فلول أمرائه.

خروج الأمير شيخ حسن الصغير (٧٣٨هـ):

بعد مقتل موسى خان وفرار طغا تيمور إلى خراسان، بقي شخصان يطالبان بالعرش، أحدهما طغا تيمور الذي أخضع جرجان وخراسان لطاعته، والآخر محمد خان أداة الأمير شيخ حسن الكبير.

وبعد عدة أشهر من مقتل موسى خان، ظهر دعيٌّ آخر في بلاد الروم وكان أحد أبناء الأمير تيمورتاش ابن الأمير چوپان سلدوز وكان يُلقَّب بالشيخ حسن؛ ولكي يميِّز نفسه عن شيخ حسن الكبير أطلق على نفسه الأمير شيخ حسن الصغير أو الأمير شيخ حسن الچوپاني.

وبعد مقتل تيمورتاش بيد أقرباء الملك الناصر، اختفى ابنه شيخ حسن في بلاد الروم وظل مختفياً بها حتى سنة ٧٣٨هـ. وفي ذلك العام، خرج يطالب بالعرش؛ فدفع بأحد الغلمان ويدعى قراجَري وكان يشبه أباه تيمورتاش إلى حد ما وأعلن أن الأمير تيمورتاش فرَّ من سجن القاهرة وظل مختبئاً حتى ذلك الوقت ثم ظهر. ولإحكام هذا المخطط، قام بتزويج أمه لهذا الغلام وسار على قدميه في ركابه.

أدى انتشار نبأ عودة تيمورتاش من ناحية إلى إثارة أمراء قبيلة أويرات وأنصار الأمير علي پادشاه وأسرة چوپان الذين كانت بينهم وبين الأمير شيخ حسن عداوة مريرة ضده وإلى انضمامهم إلى جيش تيمورتاش المزيَّف، ومن ناحية أخرى إلى إثارة خوف الملك الناصر سلطان مصر.

ظن الملك الناصر أن تيمورتاش لم يُقْتَلْ وأن رسله المكلَّفين بهذه المهمة خدعوه، فأحس بالخوف وأدرك أن تيمورتاش قد استعاد قوته وسرعان ما يصبح أكبر أعدائه في المستقبل. فأوفد رسولاً إلى حاجي طغاي حاكم دياربكر لطلب يد إحدى بناته للزواج من ابنه والتحالف معه ضد أنصار تيمورتاش. فأرسل حاجي طغاي رسالة إلى السلطان يقول له فيها إن نبأ ظهور تيمورتاش ليس له أي أساس من الصحة وإنه على أية حال كان قد اتفق مسبقاً مع الأمير شيخ حسن الكبير على تعقب المدعين الجدد. وفي الليلة نفسها التي جاء فيها رسول الملك الناصر إلى حاجي طغاي، جاءت قوات الأمير شيخ حسن الچوپاني وفرَّ حاجي طغاي إلى بغداد كما فرَّ رسول سلطان مصر إلى حلب وأبلغ السلطان بالأحداث التي وقعت على مشارف أذربيجان. وبعد قليل، أوفد سلطان

مصر الرسول نفسه مرة أخرى إلى حاجي طغاي وجدَّدَ عروضه السابقة. فرد عليه حاجي طغاي بأن الوقت ليس مناسباً لقبول عرض الزواج وأنه سيسارع إلى تجديد أواصر الصداقة مع السلطان بمجرد أن يتخلص من عدوه. وأخذ الملك الناصر الذي ظل قلقاً لعودة تيمورتاش إلى الظهور في تحريض حاجي طغاي على معاداة الچوپانيين والتحالف مع الأمير شيخ حسن الإيلكاني ولم يقلع عن هذه الفكرة طوال ما تبقى من حياته.

وفي ٢٠ ذي الحجة ٧٣٨هـ، حدثت مواجهة بين شيخ حسن الكبير وشيخ حسن الصغير على حدود آلاتاغ بنخجوان؛ وقبل أن ينشب القتال بينهما، ترك الأمير پير حسين ابن الأمير محمود ابن الأمير چوپان الذي كان من قواد الأمير شيخ حسن الإيلكاني جيشه ومضى إلى قوات ابن عمه الأمير شيخ حسن الچوپاني، واضطر شيخ حسن الكبير للفرار فاتخذ طريق تبريز وتحالف مع محمد خان الإيلخان، إلا أنه سقط في قبضة شيخ حسن الچوپاني وقُتِلَ، ووقعت أذربيجان والعراق تحت سيطرة الچوپانيين الذين أخذوا ينهبون أموال الناس ويعتدون عليهم.

وفي تلك الآونة، فكَّر قراجَري أو تيمورتاش المزيَّف في قتل شيخ حسن الچوپاني، وباغته بطعنة سكين ولكنه لم يتمكن من قتله. وفرَّ شيخ حسن إلى كرجستان عند ساتي بيك زوجة الأمير چوپان وابنها الأمير سيورغان وعمه الذي كان سادس أبناء الأمير چوپان. وبعد مدة بلغه أن قراجَري ينوي مواجهته، فمضى إلى مشارف تبريز وألحق الهزيمة بتيمورتاش الزائف ودخل تبريز.

ولاية ساتي بيك (٧٣٩ - أوائل ٧٤١هـ):

بعد دخول تبريز، جاء ستة عشر شخصاً ممن تبقوا من أسرة چوپان إلى الأمير شيخ حسن يطلبون منه اختيار أحد أفراد أسرة هولاكو لعرش الإيلخانية. ولم يكن قد بقي من هذه الأسرة رجل معروف يمكن تنصيبه في هذا المنصب؛ فوقع اختيار الأمراء والچوپانيين على ساتي بيك ابنة أولجايتو وشقيقة أبي سعيد التي كان الود مفقوداً بينها وبين الأمير شيخ حسن الكبير، وتم إدراج اسمها في الخطبة والسكة بأمر من شيخ حسن الچوپاني، وعينوا لوزارتها ركن الدين شيخي من أسرة خواجه رشيد الدين فضل الله وغياث الدين محمد من أبناء خواجه علي شاه. ودخلت

أذربيجان وأران تحت سيطرة ساتي بيك وشيخ حسن الصغير، في حين أن كل جزء من إيران والعراق ظل تحت سيطرة أحد أمراء أولجايتو وأبي سعيد السابقين أو إحدى الأسر التابعة لهما. ومن تلك الأجزاء ظلت سلطانية وعراق العجم تحت سيطرة الأمير شيخ حسن الكبير، ودياربكر تحت حكم حاجي طغاي، وبغداد وعراق العرب في يد قبيلة أويرات وقراجري أو تيمورتاش الزائف؛ أما بلاد الروم فآل جزء منها للأمير أرتيا نائب شيخ حسن الكبير وجزء آخر للملك أشرف أحد أبناء الأمير تيمورتاش، وفارس تحت سيطرة أسرة إينجو، ويزد تحت سيطرة الأمير مبارز الدين محمد مظفري، وقهستان تحت سيطرة عبدالله ابن الأمير مولاي، وهرات وجزء من خراسان في حوزة آل كرت وبقيتها مع جرجان تحت سيطرة طغا تيمور، وسيطر على كرمان وأصفهان عدد من الأمراء المحليين.

وبعد استقرار ساتي بيك على عرش الإيلخانية، تحرّك الأمير شيخ حسن الچوپاني إلى قزوين بهدف سحق الأمير شيخ حسن الإيلكاني. وسعى شيخ حسن الكبير إلى طلب الصلح واعترف بإيلخانية ساتي بيك رسمياً وتعانق الغريمان شيخ حسن وشيخ حسن وتقرر أن يقضي شيخ حسن الكبير الشتاء في سلطانية وأن يذهب شيخ حسن الصغير وساتي بيك إلى أران وأن يتم عقد مجلس أعلى في الربيع لترتيب أوضاع المستقبل. وذهب شيخ حسن الصغير وساتي بيك إلى أران وعاد شيخ حسن الكبير إلى العراق.

لو قُدِّر لهذه المصالحة أن تدوم لما بقي لشيخ حسن الكبير أي اعتبار ولكان هذا تصديقاً على سيادة الأمير شيخ حسن الصغير والأسرة الچوپانية. لذا فقد أرسل شيخ حسن الكبير أحد خواصه إلى خراسان لحث طغا تيمور خان على المجئ إلى العراق. فتحرك طغا تيمور خان بصحبة الأمير أرغونشاه ووزيره خواجه علاء الدين محمد من خراسان ووصلا إلى ساوة في رجب ٧٣٩هـ. وجاءه هناك شيخ حسن الكبير وأقام مراسم الاستقبال له، ولكنه سرعان ما أدرك خطأه حيث وجد أن أمراء خراسان جميعاً يطيعون الوزير علاء الدين ولا يولونه أي اعتبار. ولكنه اضطر إلى التحمل. وفي تلك الآونة، بلغته أنباء زحف شيخ حسن الچوپاني وساتي بيك والأمير سيورغان من أران لسحق طغا تيمور خان.

وبعد وصول جيش ساتي بيك من أران إلى أذربيجان، ألقى جمع من قبيلة أويرات القبض على قراجري أو تيمورتاش الزائف وأرسلوه إلى ساتي بيك وتم إعدامه بأمر الخاتون.

ولتفريق جيش طغا تيمور وشيخ حسن الكبير، فكَّر الأمير شيخ حسن الچوپاني في حيلة، فتظاهر بطلب الصلح. وذكره طغا تيمور بالصداقة القديمة التي جمعت بين أبيه والأمير چوپان. وتقرر التصالح من كلا الجانبين، وأرسل شيخ حسن الصغير رسالة إلى طغا تيمور يقول له فيها إنه لو شارك في سحق شيخ حسن الكبير، فإنه سيتزوج من ساتي بيك وسيكون كل الچوپانيين طوع أمره. فوافق طغا تيمور بكل سذاجة على عرض شيخ حسن الصغير المخادع وكتب وثيقة بخط يده بهذا الشأن وأرسلها إلى شيخ حسن الچوپاني. فأرسل شيخ حسن الصغير الرسالة إلى شيخ حسن الكبير وأطلعه على أوهام طغا تيمور. فتحير الأمير الإيلكاني وأبلغ طغا تيمور بالأمر. فخجل طغا تيمور وعاد إلى خراسان. ومضى شيخ حسن الإيلكاني إلى ساتي بيك وقبَّل يدها؛ وبعد الاعتذار جاء إلى المعسكر في أوجان.

ولاية شاه جهان تيمور خان (ذو الحجة ٧٣٩-ذو الحجة ٧٤٠هـ):

بعد وصول الجيش إلى أوجان، أغار الأمير شيخ حسن الصغير على خيمة ساتي بيك بدعوى أن الإيلخانية لا تناسب المرأة، وقام بتنصيب أحد أحفاد يشموت بن هولاكو وهو سليمان خان على عرش الإيلخانية وزوجه ساتي بيك بالإكراه. وعندما سمع شيخ حسن الكبير بالنبأ، أعلن من جانبه تتويج عز الدين بن آلافرنك بن كيخاتو إيلخاناً ولقَّبَهُ بشاه جهان تيمور خان، وعين خواجه شمس الدين زكريا وزيراً له، ثم ذهب إلى عراق العرب واستولى على بغداد ودياربكر وخوزستان.

والتقى الغريمان القويان شيخ حسن وشيخ حسن مع الإيلخانين الجديدين وجهاً لوجه في أواخر ذي الحجة من سنة ٧٤٠هـ حول نهر جغاتو بمراغة ودارت الدوائر على جيش شيخ حسن الكبير وشاه جهان تيمور. وعاد شيخ حسن الإيلكاني مهزوماً إلى بغداد وعزل شاه جهان تيمور واستقل بنفسه ووضع في العام نفسه أساس أسرة الأمراء الإيلكانيين أو الجلايريين.

ولاية سليمان خان (أوائل ٧٤١ - ٧٤٥هـ):

بعد قيام شيخ حسن الجوباني بتنصيب سليمان خان، أخضع أذربيجان وأران وكرجستان وعراق العجم لسيطرته وأخذ يعزز سيطرته على المنطقة. أما شيخ حسن الكبير فلم يقلع عن فكرة الثأر من غريمه وسميه؛ وفي سنة ٧٤٠هـ، أوفد رسولا إلى الملك الناصر في مصر يطلب منه إرسال جيش بصحبة أحد أبنائه لمساعدة شيخ حسن الكبير. فردَّ عليه الملك الناصر بأن أبناءه صغار السن وأنه هو نفسه مستعد للذهاب إلى عراق العرب شريطة أن يقبل كل من شيخ حسن الكبير وحاجي طغاي والأمير حافظ شقيق الأمير علي پادشاه التبعية لسلطان مصر أولاً. فوافق كل من شيخ حسن وحاجي طغاي على هذا العرض وأجَروا الخطبة وضربوا السكة باسم السلطان وأرسل كمية من هذه المسكوكات بصحبة الرسول إلى القاهرة فعزم الملك الناصر على التحرك نحو عراق العرب.

أدى التحالف بين حاجي طغاي وشيخ حسن الكبير إلى غضب شيخ حسن الصغير فشنَّ حملة من أذربيجان إلى دياربكر بهدف سحق هذا التحالف؛ وألحق الهزيمة بحاجي طغاي. وحين علم الملك الناصر أن شيخ حسن الكبير تصالح مع غريمه تراجع عن حملته. واتجه الأمير شيخ حسن الجوپاني إلى ولاية موش في أعقاب حاجي طغاي. وقتل حاجي طغاي هناك على يد الأمير إبراهيم شقيق الأمير علي پادشاه في سنة ٧٤٣هـ أو ٧٤٤هـ.

وأغار شيخ حسن الصغير على ولاية موش وخرج أمير ماردين لاستقباله ونال عطف الأمير الجوپاني وسليمان خان. ومن هناك اتجه جيش المهاجرين إلى العراق لسحق شيخ حسن الكبير. وأرسل شيخ حسن الإيلكاني الأمير علي جعفر وأحد قواده الآخرين لصد جيش شيخ حسن الصغير وتمكن القائدان من هزيمة الجوپانيين. واتجه شيخ حسن الصغير من دياربكر إلى بلاد الروم. وفي أرزنة الروم أضرم النار في المحراب والمنبر اللذين أنشأهما حاجي طغاي في تلك الفترة ونبش قبر ابن حاجي طغاي وأخرج رفاته، وبعد إحداث الكثير من التخريب، عاد مع سليمان خان إلى تبريز في جمادى الأولى ٧٤١هـ وقضى الشتاء فيها.

وفي صيف ٧٤٢هـ، أرسل شيخ حسن الصغير الوزير خواجه غياث الدين محمد عليشاهي إلى سلطانية لاعتقال الأمير سيورغان ابن كل من ساتي بيك والأمير چوپان الذي كان متواطئاً في الخفاء

مع أعوان طغا تيمور وإحضاره إلى تبريز. وبعد معاقبة أعوانه سجنه بإحدى قلاع الروم، ثم أنشأ مسجداً ومدرسة وخانقاه وقضى بقية السنة في منتجع يملكه حاجي طغاي.

وفي سنة ٧٤٠هـ بعد أن قام حسن الصغير بتنصيب سليمان خان على عرش الإيلخانية، أرسل الأمير پير حسين ابن الأمير محمود بن چوپان ابن عمه إلى فارس التي كانت آنذاك تحت سيطرة أبناء الأمير محمودشاه إينجو. فاستقبلوا الأمير حسين، إلا أنه أقدم على قتل أحد أفراد أسرة إينجو من باب الغرور، فثار أهالي شيراز وطردوا الأمير پير حسين من المدينة، فانضم إلى معسكر ابن عمه الچوپاني قبل نشوب الحرب في الرابع من ذي الحجة ٧٤٠هـ بين شيخ حسن وشيخ حسن.

وبعد انتهاء هذه الحرب بانتصار شيخ حسن الچوپاني وظهور أمارات الحكمة على الأمير پير حسين، أرسله شيخ حسن الصغير من قبل سليمان خان على رأس جيش جرار إلى إقليم فارس، وولأه أيضاً على يزد وكرمان اللتين كانتا آنذاك تحت سيطرة الأمير مبارز الدين محمد مظفري. وكانت هناك صداقة قديمة بين الأمير مبارز الدين محمد والأمير پير حسين؛ فسارع مبارز لاستقباله وإمداد جيشه بمجرد انتشار نبأ تحركه، والتقى به في اصطخر واتجها معاً إلى شيراز. وعندما وجد مسعودشاه إينجو أنه لا طاقة له على المقاومة لاذ بالفرار إلى كازرون، وحين بلغه أن الأمير مبارز الدين قادم في أعقابه اتخذ طريقه إلى بغداد واحتمى بشيخ حسن الكبير. فعاد الأمير مبارز الدين إلى شيراز وضرب مع الأمير پير حسين حصاراً حولها. وعلى الرغم من المذابح التي حدثت على الجانبين، لم يفلح أي منهما في فتح شيراز، وانتهى الأمر بالتصالح بينهما ودخل الأمير پير حسين المدينة وترك حكومة كرمان ويزد للأمير مبارز الدين. وقام الأمير مبارز الدين بالاستيلاء على المدينة بعون من قوات الأمير پير حسين وأخضع حاكمها الذي استغاث بملوك آل كرت (٧٤١هـ).

وفي العام نفسه، وجه الأمير علي جاون اللوم لأخيه طغا تيمور على حملتيه على العراق وهزيمته في كل منهما. ولتعويض هذه الهزيمة جاء بنفسه إلى العراق وتواطأ في الخفاء مع سيورغان ابن ساتي بيك. فأرسل شيخ حسن الصغير أخاه الأمير ملك أشرف لِصدِّه. وأنزل ملك أشرف الهزيمة بقوات الأمير علي جاون على مشارف أبهر بزنجان وفرَّتْ قوات شقيق طغا تيمور إلى مازندران.

وفي سنة ٧٤٢هـ، وبعد أن فتح الأمير پير حسين كلاً من فارس وأصفهان وترك حكومة كرمان

ويزد للأمير مبارز الدين، سلَّمَ حكومة إصفهان لشقيق مسعودشاه إينجو الذي كان قد فرَّ إلى بغداد، أي لشيخ أبي إسحق، لعله بذلك يبقي على الود مع أفراد أسرة إينجو؛ إلا أن شيخ أبا إسحق حين جاء ملك أشرف إلى العراق حرَّضَهُ على الاستيلاء على فارس فمضى ملك أشرف إلى فارس. وأقدم أعوان پير حسين على خيانته فاضطر پير حسين إلى الجلاء عن فارس. ونظراً للخوف الذي انتشر في تلك الآونة من الأمير مبارز الدين، فقد اتجه إلى الأمير شيخ حسن الصغير؛ إلا أن شيخ حسن الذي عانى استبداده دس له السم بعد استقباله في سلطانية ودالت دولته القصيرة الأجل.

أما ملك أشرف فاتجه إلى شيراز وسبقه شيخ أبو إسحق إينجو إليها بدعوى ترتيب مراسم استقباله وجمع حوله عدداً من رعاع شيراز هاجموا أتباع ملك أشرف فور دخولهم المدينة وفرَّقوا شملهم وفرَّ ملك أشرف هارباً، واستولى شيخ أبو إسحق على شيراز.

وفي سنة ٧٤٣هـ، وبعد أن ذهب مسعودشاه إينجو إلى بغداد لدى شيخ حسن الكبير وعلت مكانته بزواجه من سلطان بخت ابنة دمشق خواجه وشقيقة دلشاد خاتون وتعيينه مع الأمير ياغي باستي ثامن أبناء الأمير چوپان في حكومة فارس، اتجه إلى شيراز. وكان أهالي شيراز وعلى الرغم من سيطرة أبي إسحق يعتبرون أن حكومة مدينتهم من حق شقيقه مسعودشاه. لذا فقد وقع الخلاف بين أنصار الشقيقين. وحين وجد ياغي باستي أنه لا ذكر له، أقدم فجاة على قتل مسعودشاه حقداً عليه. وما أن علم شيخ أبو إسحق بمقتل أخيه عاد إلى المدينة ونشبت حرب حامية بين قوات أبي إسحق وياغي باستي. وحلت الهزيمة بابن الأمير چوپان وذهب إلى ملك أشرف في العراق. ولما كان كلاهما لا يثق في شيخ حسن الصغير، فقد ذهبا معاً إلى شيخ حسن الكبير في بغداد واحتميا به.

وبعد قليل، اتجه كل من ملك أشرف وياغي باستي مرة أخرى إلى فارس، وشرعا في الإغارة على الولاية بما حصلوا عليه من إمدادات من الأمير مبارز الدين. وما إن وصلت قوات أبي إسحق لقتالهما، حتى تخليا عن فكرة الاستيلاء على فارس بعد وصول نبأ مقتل شيخ حسن الصغير، واتجها إلى تبريز.

مقتل حسن الچوپاني (٢٧ رجب ٧٤٤هـ):

في سنة ٧٤٤هـ، قام شيخ حسن الصغير بتجريد حملة مع سليمان خان والأمير يعقوب شاه وهو من أمراء بلاد الروم لفتح تلك البلاد، وعادا بالهزيمة، فألقى شيخ حسن بيعقوب شاه في السجن. وكانت عِزَّتْ ملك زوجة شيخ حسن الصغير على علاقة مع الأمير يعقوب؛ فظنت أن زوجها ألقى بيعقوب في السجن بعد علمه بتلك العلاقة؛ فاتفقت مع امرأتين من حريم الحرم وقتلت زوجها في وضع مخجل في ليلة الثلاثاء ٢٧ رجب ٧٤٤هـ. وبعد عدة أيام، وبعد تكشف الطريقة التي قتل بها شيخ حسن الچوپاني، ألقى أعوانه القبض على عزت ملك وقتلوها وقطعوا جثتها إلى أجزاء وأكلوها.

وبعد مقتل رأس أسرة الأمراء الچوپانيين، أي شيخ حسن الصغير، قام سليمان خان بتوزيع أمواله التي لا تحصى على أمرائه. ونظراً لعدم كفاءته وضعفه فقد ذهب إلى قراباغ، واستدعى الأمراء كلاً من ملك أشرف وياغي باستي من فارس إلى تبريز كما سبقت الإشارة.

وجاء ملك أشرف وياغي باستي إلى أذربيجان، وتخلَّص الأمير سيورغان من سجنه في بلاد الروم وانضم إليهما على سواحل بحيرة كوكچة. وقام الأمراء الچوپانيين الثلاثة بحشد عدد كبير من القوات ودخلوا تبريز.

ولاية أنوشيروان العادل (٧٤٤ - ٧٥٦هـ):

بعد دخول الأمراء الچوپانيين الثلاثة إلى تبريز، دبَّ الخلاف بينهم، لأن أهالي تبريز كانوا يكنون لسيورغان وياغي باستي ولدي الأمير چوپان احتراماً أكبر مما يكنونه لحفيده ملك أشرف، مما آلم الأخير فنزح بقواته إلى سفح سهند وذهب كل من سيورغان وياغي باستي إلى حدود نخجوان؛ فأسرع ملك أشرف في أعقابهما وأنزل بهما الهزيمة في معمورة القريبة من ولاية نخجوان وأعلن أنو شيروان وهو شخص يعتبره البعض من القبچاق ويعتبره بعض آخر من نسل هولاكو ويرى بعض ثالث أنه من نسل كاوياني إيلخاناً ولقَّبَهُ بالعادل. وكان هذا الأنو شيروان العادل آخر من جلس على عرش الإيلخانية من قبل الأمراء وفي تلك الفترة نفسها اختفى سليمان خان صنيعة شيخ حسن الصغير.

وبعد تنصيب أنو شيروان، ذهب ملك أشرف الذي يعد ثاني أمراء الأسرة الجوبانية إلى مدينة كنجة وفتحها. وفي تلك المدينة أوفد ياغي باستي وسيورغان رسولاً إليه يطلبان الصلح. فوافق ملك أشرف وسارع إليه ياغي باستي. أما سيورغان فلم يثق في كلمته ومضى إلى إيلكان ابن الأمير شيخ حسن الكبير. وبعد أن استقبله إيلكان استقبالاً حاراً قتله. واصطحب ملك أشرف ياغي باستي معه إلى تبريز، وبعد فترة وجيزة قتله وأعلن أنه فرَّ هارباً. ومنذ ذلك الحين أي في سنة ٧٤٤هـ، استقل ملك أشرف تماماً وظل يحكم بالظلم ويجمع المال قرابة أربع عشرة سنة (٧٤٤هـ-٧٥٩هـ) إلى أن جاء إلى تبريز جاني بيك ملك صحراء القبجاق في سنة ٧٥٩هـ بدعوة من أهالي المدينة وقتله. وبمقتله انتهت دولة الأمراء الجوبانيين. وسنتطرق إلى تفاصيل هذه السنوات الأربع عشرة لملك أشرف فيما بعد. أما المصير الذي آل إليه أنو شيروان الزائف صنيعة ملك أشرف فلم يكن معلوماً كمصير سليمان خان. وقد بقيت مسكوكات باسمه حتى سنة ٧٥٦هـ. ونحن نعتبر تلك السنة أي بعد عشرين سنة من وفاة أبي سعيد بهادر خان آخر الإيلخانات الأقوياء وبعد ثلاث سنوات من مقتل طغا تيمور، آخر سنوات حكم أسرة الإيلخانات، وبها نختتم تاريخ حكم المغول أو أبناء جنكيز.

قائمة بأسماء إيلخانات إيران (٦٥١هـ-٧٥٦هـ)

١- هولاكو خان بن تولوي بن جنكيز	من ٦٥١هـ إلى ٦٦٣هـ
٢- أباقا بن هولاكو	من ٦٦٣هـ إلى ٦٨٠هـ
٣- السلطان أحمد تكودار بن هولاكو	من ٦٨٠هـ إلى ٦٨٣هـ
٤- أرغون خان بن أباقا	من ٦٨٣هـ إلى ٦٩٠هـ
٥- كيخاتو بن أباقا	من ٦٩٠هـ إلى ٦٩٤هـ
٦- بايدوخان بن طوغاي بن هولاكو	من ج١ ٦٩٤ - ذق ٦٩٤هـ
٧- غازان خان بن أرغون	من ٦٩٤هـ إلى ٧٠٣هـ
٨- أولجايتو خدابنده بن أرغون	من ٧٠٣هـ إلى ٧١٦هـ

٩- أبو سعيد بهادر خان بن أولجايتو — من ٧١٦هـ إلى ٧٣٦هـ

١٠- أرپاجاون بن أرتوبوكا بن تولوي — من ٧٣٦هـ إلى

١١- موسى خان بن علي بن بايدو — شوال إلى ١٤ ذح ٧٣٦هـ

١٢- محمد خان بن منجو تيمور بن هولاكو — ذح ٧٣٦هـ إلى

١٣- ساتي بيك ابنة أولجايتو — من ٧٣٩هـ إلى ٧٤١هـ

١٤- شاه جهان تيمور بن آلافرنك بن كيخاتو — من ٧٣٩هـ إلى ٧٤٠هـ

١٥- سليمان خان بن يشموت بن هولاكو — من ٧٤١هـ إلى ٧٤٥هـ

١٦- طغا تيمور خان — من ٧٣٦هـ إلى ٧٥٣هـ

١٧- أنوشيروان العادل — من ٧٤٤هـ إلى ٧٥٦هـ

الهوامش:

١- يقول أحد الشعراء في مدح غازان:

فليمتزج طبعك بالسرور — ولينزف دم عدوك بخنجرك
كل رأس لا توافق هواك — تعلق كرأس نوروز

٢- كان العامة في شيراز يطلقون على هذه الشجرة اسم «شجرة السكارى» (وصاف، ص٣٨٧).

٣- أي قرابة خمسة وعشرين كيلوجراماً، حيث يساوي المن قرابة كيلوجرامين ونصف الكيلوجرام (المترجم).

٤- أي عبدالله (المترجم).

٥- أي عبد الحمار (المترجم).

٦- هو أبو سالم ميثم تمار وكان من صحابة علي وقد قتل بالكوفة على يد عبيد الله بن زياد والي الكوفة قبل عشرة أيام من دخول الإمام الحسين إلى العراق.

٧- والبيت التالي من إحدى غزليات السلطان أبي سعيد في هذا الصدد:

وتعالى إلى مصر يا قلبي فتري روحي بدمشق   فقلبي يهوى بغداد

٨- أي « السيدة » أو ما يوازي لقب lady في الإنجليزية (المترجم) .

٩- يقول أحد الشعراء في رثاء غياث الدين :

بدلاً من أن تحشو النجوم اليوم   التراب على رأسها من أفعال القدر

مزق المتألمون من شدة المهم   رداءهم من فوق أجسادهم

يصيحون الغياث الغياث   وهم يبكون من شدة الألم

إذ كيف يقتل وزير عزيز   كهذا بهذه الذلة

كما نظم القاضي عضد الدين الإيجي الذي كان من تلاميذ غياث الدين مرثية بالعربية عنه .

الفصل الثامن
الفترة بين العهدين الإيلخاني والتيموري

بعد وفاة أبي سعيد بهادرخان، تفتتت الممالك الإيلخانية إلى عدة أجزاء. وفي العشرين سنة التي فصلت بين وفاته وسقوط آخر المرشحين للإيلخانية، ظهرت خمس أسرات في مناطق مختلفة من إيران، وبيانها كالتالي:

١- أسرة الأمراء الإيلكانيين أو آل جلاير ومؤسسها شيخ حسن الكبير ابن الأمير حسين بن أقبوغا بن إيلكان نويان جلاير؛ وقد استقل بنفسه في سنة ٧٤٠هـ بعد عزل شاه جهان تيمور وأسس أسرة حكمت بغداد وعراق العرب من بعده وحتى سنة ٨١٣هـ.

٢- أسرة الأمراء الچوپانيين أي أبناء الأمير تيمورتاش ابن الأمير چوپان سلدوز. وهما اثنان لا أكثر، أحدهما الأمير شيخ حسن الصغير أو الأمير شيخ حسن الچوپاني وقد استقل بآذربيجان وأران لمدة أربع سنوات ونصف السنة؛ والآخر هو شقيقه الأمير الملك أشرف وقد حكم آذربيجان لمدة أربع عشرة سنة (٧٤٤-٧٥٩هـ) وقتل في أوائل ٧٥٩هـ بيد جاني بيك ملك صحراء القبچاق، وبمقتله انتهت الأسرة الچوپانية.

٣- أسرة آل مظفر وهم أبناء الأمير مظفر الذين استقلوا بيزد وكرمان بعد وفاة أبي سعيد. وقد ثار الأمير مبارز الدين محمد ابن الأمير مظفر في سنة ٧٤٠هـ وأسس منذ ذلك العام أسرة ضمت فيما بعد إقليم فارس أيضاً، واحتفظوا بقوتهم ونفوذهم حتى سنة ٧٩٥هـ.

٤- أسرة إينجو أي أبناء الأمير شرف الدين محمودشاه. ومع أنهم كانوا يحكمون في فارس وتوابعها قبل وفاة أبي سعيد، فإن استقلالهم بدأ منذ سنة ٧٤٢هـ أي منذ أن قام شيخ أبو إسحق بطرد الملك أشرف الچوپاني من تلك المدينة واستقل بنفسه. وانتهت هذه الأسرة أيضاً بمقتل شيخ أبي إسحق في سنة ٧٥٨هـ.

٥- السربداريون الذين رفعوا راية الاستقلال في سنة ٧٣٨هـ في سبزوار وظلوا يحكمون تلك المنطقة منذ ذلك العام حتى ٧٨٨هـ.

وإلى جانب هذه الأسرات الخمس التي ظهرت في إيران بعد وفاة أبي سعيد خان، كان هناك عدد من الأمراء الآخرين في هرات وفارس وكرمان ويزد ولرستان لهم حكومات محلية شبه مستقلة منذ ما قبل الغزو المغولي ولم يقض المغول عليهم لاستسلامهم لإيلخانات أسرة جنكيز؛ وقد بادت بعض هذه الأسرات في عصر الإيلخانات في حين بقي بعضها الآخر إلى ما بعد أبي سعيد. وأشهر هذه الأسرات:

١- الأتابكة السلغوريون أو أتابكة فارس.

٢- أتابكة لرستان.

٣- أتابكة يزد.

٤- قراخطائيو كرمان.

٥- آل كرت في هرات.

وفي هذا الفصل، نجمل ذكر أوضاع هذه الأسرات. وينبغي أن نعلم أن هذه الأسرات لم يكن لأي منها أهمية سياسية كبيرة وإذا وجهنا إليها بعض اهتمامنا فإن هذا لما لها من صلة بتاريخ إيران وآدابها ونشأة أهل العلم والأدب فيها، ولولا كتابات الأدباء والشعراء لاندثرت أسماء معظمها. وقد زالت هذه الأسرات إما بقضاء كل منها على الأخرى أو بقضاء الأمير تيمور جوركان على دولها.

١- ملوك آل كرت:

كان ملوك آل كرت من ملوك إيران الشرقية ممن حكموا منذ أواسط القرن السابع الهجري حتى أواخر القرن الثامن، وكانت عاصمتهم الدائمة هرات. ومع أنه لم تتألق أسماء عديدة في التاريخ السياسي لهذه المملكة، فقد اشتهر عدد من أفرادها بالغدر.

وأول من تردد اسمه من أفراد هذه الأسرة تاج الدين عثمان المرغيني الذي كان هو وشقيقه عز الدين عمر المرغيني من بني أعمام السلطان غياث الدين محمد بن سام الغوري (٥٥٨-٥٩٩هـ)، وكان عز الدين عمر وزيراً لهذا السلطان. ويرجع المؤرخون والشعراء الذين عاشوا في كنف هذه

الأسرة بنسب تاج الدين عثمان وعز الدين عمر إلى السلطان سنجر السلجوقي،[1] إلا أن صحة هذا النسب غير مؤكدة.

ترقَّى عز الدين عمر تدريجياً في بلاط السلطان غياث الدين محمود الغوري وعُيِّن في حكومة هرات، وقام هو بتعيين شقيقه تاج الدين عثمان قائداً لقلعة خيسار وهي إحدى القلاع الحدودية بين هرات وغور، وظل تاج الدين في هذا المنصب حتى آخر حياته. وبعد مماته، آلت قيادة القلعة وحكومة بعض بلاد غور من قبل غياث الدين لابن تاج الدين ويدعى الملك ركن الدين. وقد علا نجم الملك ركن الدين هذا بزواجه من ابنة غياث الدين الذي جعل من حفيده شمس الدين محمد كرت ولياً لعهده. ويعد شمس الدين هذا في الحقيقة رأس أسرة آل كرت.[2]

وتزامنت ولاية الملك ركن الدين على خيسار وجزء من غور مع هجوم التتار واستيلاء قوات جنكيز على خراسان. فرأى ركن الدين أن المصلحة تستدعي الخضوع لجنكيز فأبدى الاحترام لرسله. وفي مقابل ذلك، أصدر جنكيزخان مرسوماً باسم الملك ركن الدين بالإبقاء عليه في خيسار وغور وتوابعها. وأوفد ركن الدين حفيده شمس الدين محمد كرت لصحبة جنكيز وحاز شمس الدين على مكانة مرموقة بين قواد جيش التتار وأصبح محل ثقتهم.

ولاية الملك شمس الدين محمد (٦٤٣-٦٧٦هـ):

توفي الملك ركن الدين في سنة ٦٤٣هـ وآلت خلافته لشمس الدين محمد بن أبي بكر كرت الذي شارك في السنة التالية في حملة على ولاية السند بصحبة أحد قواد المغول ودخل من جانبه في مفاوضات مع حاكمي لاهور وملتان حول فرض الخراج عليهم. وعندما نجح تماماً في هذه المفاوضات ووافق الحاكمان المذكوران على طاعة المغول ودفع الخراج لهم، عُيِّن من جانبهم في حكومة لاهور، إلا أن قادة الجيش المغول حقدوا عليه واتهموه بالتعاون مع مسلمي الهند. إلا أن الملك شمس الدين لاذ بحمى طاير بهادر القائد العام لقوات المغول في إيران الشرقية. وبعد وفاة طاير بهادر في سنة ٦٤٥هـ، أرسل زعماء المغول الملك شمس الدين إلى جغتاي لكي يوليه بمرسوم ملكي. إلا أن جغتاي توفي في تلك الفترة وذهب الملك شمس الدين بصحبة ابن جغتاي إلى

معسكر خان المغول، وتزامن وصوله مع انعقاد مجلس المغول الأعلى لتنصيب منجو قاآن.

وقامت جماعة من زعماء المغول بتحسين صورة الملك شمس الدين لدى منجو قاآن وأثنوا عند الخان على خدماته التي أسداها هو وأسرته للمغول. فكافأه منجو قاآن بأن ترك له حكومة هرات وجام وباخرز وپوشنج وغور وخيسار وفيروزكوه وغرجستان ومرغاب ومرو الروذ وفارياب وحتى ضفاف سيحون وأسفزار وفراه وسيستان وكابل وجزء من أفغانستان الشرقية وحتى ضفاف نهر السند، وأصبح الملك شمس الدين منذ عام ٦٤٨هـ هجرية حاكماً مستقلاً لممالك مترامية الأطراف. وإلى جانب هذا السخاء، أصدر منجو قاآن له مرسوماً ملكياً وخلع عليه وأوفده إلى أرغون آقا حاكم خراسان العام لمساعدته وإعطائه خمسين توماناً نقداً. فذهب الملك شمس الدين من قراقروم إلى خراسان وعرض على أرغون آقا المرسوم الخاني ولقي منه هو أيضاً كل عطف ولبّى طلبه وعاد الملك شمس الدين إلى هرات.

وبعد اطمئنان الملك شمس الدين من ناحية المغول، شرع في سحق خصومه الداخليين. فبدأ في سنة ٦٤٧هـ بهزيمة الملك سيف الدين حاكم غرجستان الذي استنكف الاعتراف بسلطته عليه. وحين لجأ سيف الدين إلى أرغون آقا في خراسان، أرسله مقيداً إلى الملك شمس الدين فقتله. كما قضى على الملك نصير الدين حاكم سيستان وأخضع تلك المنطقة لسيطرته التامة، وظل يسيطر على الممالك التي تركها له منجو قاآن حتى الفترة التي شن فيها هولاكو حملته على الإسماعيلية في خراسان؛ وتمكن بالتالي من ترسيخ دعائم حكم المغول غير المباشر لتلك البلاد.

وحين زحف هولاكو على إيران كما سبقت الإشارة، كان الملك شمس الدين من أوائل من سارعوا لاستقباله، فلقيه بالقرب من سمرقند. وعند إخضاع قلاع الإسماعيلية بقهستان، أوفده هولاكو من طوس إلى حاكم تلك الولاية ناصر الدين عبدالرحيم لدعوته للاستسلام؛ وتمكن الملك شمس الدين من إحضار عبدالرحيم إلى هولاكو كما سبقت الإشارة واستولى قائد المغول بعون منه على قلاع قهستان دون عناء.

وظل الملك شمس الدين في خدمة المغول حتى وفاة هولاكو. وبعد هولاكو حين تولّى أباقا خان عرش الإيلخانية، احتفظ الملك شمس الدين بمكانته نفسها حتى سنة ٦٦٧هـ حين شن براق خان

هجماته على خراسان. فرحب الملك شمس الدين بمقدم براق وانضم إلى صفوفه، ولكنه سرعان ما رأى مصلحته في التخلي عنه، فتحصن بقلعة خيسار وظل بها إلى أن هزمت قوات براق من جانب جيش أباقا. وبعد هزيمة براق، اعتبر بعض خصوم الملك شمس الدين أن له دخلاً في تقدم المغول الجغتائيين، فصمّم أباقا على تخريب هرات، إلا أن خواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان وبعض آخر صرفوا أباقا عن هذه الفكرة وقالوا «إن الأصلح أن يتم القبض على الملك شمس الدين أولاً ثم نفكر في أمر هرات». فقبل أباقا هذا الرأي وعين بعضاً من قواته للدفاع عن هرات. وفي تلك الفترة، كتب خواجه شمس الدين صاحب الديوان رسالة إلى الملك شمس الدين يستدعيه إلى المعسكر؛ إلا أن شمس الدين امتنع عن الذهاب خوفاً من خصومه وانزوى بقلعة خيسار إلى أن أصدر أباقا مرسوماً جديداً باسمه في سنة ٦٧٤هـ بتولي حكومة الولايات السابقة وحذره. فغادر الملك شمس الدين القلعة واستقر في هرات؛ وبعد قليل، ذهب من هرات إلى أصفهان بناء على دعوة بعض الأمراء الإيلخانيين وأسرع إلى تبريز لمقابلة أباقا خان بصحبة خواجه بهاء الدين الجويني، إلا أنه لم يحظ بعطف أباقا الذي أبقاه في تلك المدينة وأرسل ابنه وأخاه إلى شروان ودربند. وظل الملك شمس الدين محمد بن أبي بكر كرت في تبريز حتى قتل مسموماً شعبان ٦٧٦هـ.

الملك ركن الدين (٦٧٧-٧٠٥هـ):

بعد وفاة الملك شمس الدين، كان ابنه ركن الدين في تبريز. ونظراً لاضطراب الأوضاع في تلك المدينة في غياب ملوك كرت، فقد أرسل أباقا ركن الدين لتولي حكومة هرات في سنة ٦٧٧هـ، وأمر بمنحه لقب أبيه، فسمي بالملك شمس الدين الصغير. وبعد عودته إلى هرات، قام الملك ركن الدين بإعمار تلك المدينة، وفي سنة ٦٧٩هـ، قام بإخضاع العديد من قلاع غور، وفي سنة ٦٨٠هـ فتح مدينة قندهار وظل يقضي معظم أيامه بقلعة خيسار خاصة بعد وفاة أباقا حيث اختار الاعتكاف بتلك القلعة. وقد أقدم على قتل أحد أمراء المغول من معارضي أرغون خان، مما أغضب أمراء التتار فظلوا يكيدون له عند الإيلخان. ومنذ ذلك الحين لم ينزل الملك ركن الدين من قلعة خيسار وظل مقيماً فيها حتى توفي في العاشر من صفر ٧٠٥هـ.

ولاية الملك فخر الدين (٧٠٥ - ٧٠٦هـ):

كان للملك ركن الدين ابن يدعى فخر الدين. كان فخر الدين يتسم بالرشد وكان ذا علم وأدب؛ لذا فنادراً ما كان يطيع أباه، وهو ما آلم الملك ركن الدين. وفي الفترة التي كان ركن الدين منزوياً فيها بقلعة خيسار، قيَّد ابنه وأبقاه في السجن لمدة سبع سنوات من ٦٨٦هـ إلى ٦٩٣هـ. وفي تلك السنة الأخيرة تمكَّن من فك قيوده ومضى إلى إحدى القلاع وتحصَّن فيها ولم يستجب لدعوة أبيه بمغادرتها حيث لم يكن يثق بوعد أبيه. وفي النهاية، قام نوروز الذي كان في تلك الفترة قائد جيش المغول في خراسان بالتشفع لفخر الدين عند أبيه ركن الدين، وطلب منه إرسال ابنه إلى خراسان. ولم يقبل ركن الدين هذه الشفاعة في البداية. ولكن حين أصر الأمير نوروز، طمأن ركن الدين ابنه وأرسله إلى خراسان حيث استقبله نوروز استقبالاً حاراً وزوَّجه ابنة أخيه ووجَّهَ انتباه غازان خان إليه حتى عيَّنه هذا الإيلخان وبسعي من الأمير نوروز حاكماً لهرات في سنة ٦٩٥هـ في حياة أبيه الذي كان متحصِّناً بقلعة خيسار. إلا أن هذا الأمير الجاحد حين فر نوروز أمام قوات غازان في سنة ٦٩٦هـ ولجأ إليه في هرات ليحتمي به اعتماداً على ما سبق أن أسداه إليه من صنيع، ألقى الملك فخر الدين القبض عليه وسلمه لقتلغشاه فضرب قتلغشاه عنقه في ذي الحجة ٦٩٦هـ.

وبعد ثلاث سنوات من تلك الواقعة، أثار الملك فخر الدين غضب الإيلخان عليه بعدم إرسال الأموال السنوية المعتادة إلى معسكر قتلغشاه وبانحيازه لبعض عشائر قطاع الطرق بسيستان، فأرسل غازان أخاه أولجايتو على رأس جيش مازندران وخراسان إلى هرات لتأديبه. وأراد أولجايتو في البداية أن يقنع الملك فخر الدين بالوفاء بتعهداته السابقة وقبول طاعة غازان، إلا أن الملك فخر الدين الذي كان قد اكتسب قوة فائقة وأصبح تحت إمرته جيش جرار لم يرضخ لطلب أولجايتو وغازان واتبع معهما سبيل الاحتيال والتزوير.

وكانت هناك جماعة من العشائر المقيمة في سيستان وتعرف بقبيلة نكودري، وكانت ترحل صيفاً وشتاء في المنطقة بين سيستان وعراق العجم. ونظراً لمهاجمة هذه العشائر للناس على الطرق في أواخر عهد غازان خان، فقد أخذ الإيلخان عليهم عهداً بمصادرة أموالهم وأرواحهم إذا قاموا بقطع الطرق مرة أخرى. ولهذا فقد دأب عمال الإيلخان على مضايقة زعماء قبيلة نكودري. وحين

ضاق زعماء القبيلة بهذه المضايقات، هاجروا من عراق العجم دون إذن من غازان وذهبوا إلى هرات عن طريق قهستان، واحتموا بالملك فخر الدين. فاستغل الملك فخر الدين قوة تلك القبيلة وقَبِلَهُم في خدمته وقدَّم لهم المال والسلاح، واستخدمهم في مهاجمة خراسان وإيذاء أهلها. وفي سنة ٦٩٩هـ، استنجد أهالي خراسان بغازان، فأرسل غازان أخاه خدابنده إلى حدود هرات لصد هذه الاعتداءات وتأديب الملك فخر الدين.

وصل خدابنده إلى نيسابور وأوفد رسولاً من قبله إلى الملك فخر الدين يطلب منه التخلي عن حماية النكودريين وإذا تمرَّد على طاعة غازان فسوف يزحف على هرات. وانتهى الأمر بموافقة الملك فخر الدين بمشورة من أحد علماء الدين على دفع ألف دينار سنوياً لأولجايتو وإنهاء القضية بالتصالح. ولما كان أولجايتو غير واثق من إمكانية فتح قلعة هرات، فقد قبل العرض؛ ولكنه لم يستطع أن ينسى حقده على الملك فخر الدين الذي اشتهر بالخديعة والغدر.

وبعد أن ارتقى أولجايتو عرش الإيلخانية، لم يذهب الملك فخر الدين لتهنئته بالجلوس ولم يغادر هرات. فأرسل أولجايتو أحد قواده ويدعى دانشمند بهادر على رأس عشرة آلاف فارس إلى هرات للإطاحة بالملك فخر الدين. ووصل هذا الجيش إلى حدود هرات في سنة ٧٠٦هـ وضرب حصاراً حول المدينة بعد أن فشلت المفاوضات بين الملك فخر الدين ودانشمند بهادر. وعم القحط هرات، مما اضطر الملك فخر الدين إلى طلب الصلح. وتقرر أن يذهب الملك فخر الدين إلى قلعة أمان كوه وأن يدخل دانشمند بهادر إلى هرات. وعين الملك فخر الدين أحد خدامه ويدعى جمال الدين محمد سام محافظاً لقلعة اختيار الدين، ومضى هو إلى قلعة أمان كوه. وبعد دخول دانشمند بهادر إلى هرات وردم الخندق وهدم برج المدينة الحصين، أراد أن يخرج محمد سام من قلعة اختيار الدين؛ فأبدى قدراً من العنف في البداية، ثم تقرَّر أن يرسل الملك فخر الدين رسالة إلى محمد سام لتسليم تلك القلعة للأمير دانشمند. ودخل الأمير دانشمند القلعة برسالة الملك فخر الدين، ولكنه وقع في فخ الغوريين وقُتِلَ على يد أتباع محمد سام في صفر ٧٠٦هـ، وهُزِمَ جيشُهُ على يد أهالي هرات وفرَّت فلولُهُ إلى خراسان واشتعلت نار الفتنة في هرات.

وأدَّى نبأ هذه الواقعة إلى زيادة حدة غضب أولجايتو، فأوفد الأمير يساول وابن الأمير دانشمند

مرة أخرى إلى هرات على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف رجل. ووصلوا إلى هرات وضربوا حصاراً حولها. وفي تلك الآونة، توفي الملك فخر الدين ودب الخلاف بين محمد سام وسائر القواد الغوريين، كما أضعف القحط من قدرة الأهالي على المقاومة. وفي النهاية استسلم محمد سام لابن دانشمند الذي فتح هرات في ٢١ ذي الحجة ٧٠٦هـ وأرسل محمد سام إلى خراسان. ومع أنه أعطاه الأمان في بادئ الأمر، فقد قتله في النهاية بأمر من الأمير يساول.

«أرسل أولجايتو دانشمند بهادر على رأس عشرة آلاف فارس مسلح إلى هرات لإحضار الملك فخر الدين والنكودريين سواء باللين أو بالعنف إلى بلاط الملك. ونزل دانشمند بهادر بوادي هرات، ولم يقبل فخر الدين الصلح واستدعى حكام فراه وأروق وقلعة كاه وأسفزار وسائر الولايات القريبة وأسرع إلى ظاهر المدينة. وقبل وصول الأمير دانشمند، كان مولانا وجيه الدين النسفي قاضي بلدة هرات قد مضى إلى خراسان في مهمة. وفي تلك البلدة انضم إلى دانشمند سواء بإرادته أو عن اضطرار، وأخبره أن فتح هرات أمر يسير في تلك الأيام شريطة أن يتم التحكم في الطرقات بحيث لا يستطيع أحد أن يدخل المدينة بالغلال. فقام دانشمند بتعيين فرسان يقظين على كل الجوانب بمشورة القاضي. ولما كان المحصول القديم في المدينة قد نفد تماماً ولم ينبت غيره فقد وقع قحط عظيم. وبعد عشرة أيام من القتال بين الجانبين، تمهد طريق المصالحة بين الأمير دانشمند والملك فخر الدين بوساطة الشيخ قطب الدين الچشتي. وتقرر أن يذهب الملك فخر الدين إلى قلعة أشكلجة التي تعرف بأمان كوه وألا يُلحِقَ المغول به الأذى في الطريق؛ ويرافقه في الطريق لاغري أحد أبناء دانشمند، ويدخل طغاي بلدة هرات الزاهرة. وحين يصل الملك إلى الحصن، يعيد لاغري بن دانشمند. وتم عقد الاتفاق على هذا الأساس وتأكد بالأيمان المغلظة. حينئذ دخل المدينة مع عدد من رفاقه. وقام الملك فخر الدين بتسليم قلعة اختيار الدين لجمال الدين محمد سام الذي كان من خدمه القدامى وكان يتسم بالشجاعة والإقدام، وأمره بالدفاع عن هذه القلعة وأعطاه سيفه لكي يقتل به كل من يتمرد على طاعته من سكان القلعة. فقبَّل جمال الدين الأرض بين قدميه وقال: سأضحي بروحي في هذا السبيل. ووزَّع الملك ألف درع وسيف وقوس على جنود القلعة، ومضى مع مئتين وخمسين فارساً والأمير لاغري الذي كان يرافقه عشرة فرسان إلى قلعة أمان كوه. وبعد

مضي ثلثي الليل، دخل القلعة. وفي اليوم التالي أعاد لاغري بعد الإنعام والإكرام وأرسل رسالة لدانشمند بهادر يقول فيها: وفينا بعهدنا، ولا ينبغي لكم أن تتعدوا مضمون الاتفاق. وحين وصل لاغري إلى أبيه اتجه دانشمند إلى المدينة. وأمر بنفخ البوق الذهبي ورفع راية الأفعوان ومضى نحو المدينة. وبعد وصوله إليها أمر بهدم السور وسلَّم البوابات لحراسه الثقاة، وفي اليوم التالي أرسل رسولاً إلى محمد سام برسالة يطلب منه الالتزام بما تمَّ الاتفاق عليه. وردَّ عليه سام بكلمات قاسية فعزم دانشمند على محاصرة القلعة، إلا أنه بمشورة من مولانا وجيه الدين النسفي شيخ الإسلام أرسل خواجه قطب الدين الچشتي إلى فخر الدين بقلعة أمان كوه ليبلغ الملك على لسانه بقوله: رأيت أن أرسل ابني لاغري إلى المعسكر الهمايوني ليقول إن الملك أطاع الأمر الملكي وأعاد بلدة هرات إلى الديوان الأعلى وأفكِّر في سؤال الملك عما إذا كان قد سلم قلعة اختيار الدين أم لا. وهذا كلام لا يستطيع لاغري أن يقوله. والأصلح الآن أن يكتب الملك رقعة إلى محمد سام بأن يسمح لي بدخول القلعة للحظة لأرى بنفسي ثم أخرج وأطلع السلطان على أن الملك قد سلم المدينة والقلعة لخدام السلطان. وحين يعلم السلطان بأن المرسوم الملكي قد تم تنفيذه سيعيد حكومة هذه المملكة للملك. وقام حضرة شيخ الإسلام وطوطك بلا بإبلاغ هذه الرسالة للملك فخر الدين فغضب وقال كنت أعلم أن هذا المغولي لا يفي بعهده. فنصحه خواجه قطب الدين الچشتي وطوطك بلا، وفي النهاية كتب الملك رقعة إلى محمد سام مضمونها أن والدي الأمير دانشمند سيدخل القلعة لمشاهدتها وعليك أن تسترضيه. وقام قطب الدين بإبلاغ تلك الرسالة لجمال الدين محمد سام، فقال سام سأعمل بمقتضى أمر ولي النعم. ويقول بعض المؤرخين إن الملك فخر الدين أرسل في الخفاء رسالة أخرى إلى محمد سام يأمره بالحزم في الدفاع عن القلعة. موجز القول: إنه حين بلغ خبر إذعان محمد سام للأمير دانشمند اتجه إلى القلعة وأسرَّ إلى ولديه طغاي ولاغري: انتظروني في القلعة وعندما أطلب قوسي من حارسي اقبضوا على محمد سام وأتباعه. ثم استدعى هندوي المنجم وقال له: اضرب الرمل وانظر ما إذا كان صلاحنا في الذهاب إلى القلعة أم لا. فضرب هندوي الرمل وقال الأولى ألا يذهب الأمير إلى القلعة لأن رائحة الدم تفوح من مشكلة تتعلق بالدولة. فتأمل دانشمند هذا الكلام. وفي النهاية قرر الذهاب إلى قلعة اختيار الدين بتجشيع من

مولانا وجيه الدين. وبدأ بإيفاد ابنه لاغري مع عشرين شخصاً إلى هناك واستقبل جمال الدين محمد سام ابن الأمير وأنزله في خيمة الملك فخر الدين وأعد له مجلساً في غاية الفخامة، وبدأ ثقاة دانشمند يتوافدون فرادى وجماعات على القلعة إلى أن بلغ عددهم الثمانين. حينئذ، وضع الأمير مئة وثمانين رجلاً على باب القلعة وسارع إليه محمد سام وقبل الأرض بين قدميه. فقال الأمير دانشمند: أيها العربي الذميم، كيف تجرؤ على مخالفة طاعتي وتنازع السلطان أولجايتو؟ يمكنني أن آمر بضرب عنقك على الفور وأسوي هذه القلعة بالأرض. فقال محمد سام: لا يخفى على ضمير الأمير المنير أن خادمك مطيع لأوامر مخدومه ولا يخالف عهده ولا يحنث بيمينه. وتأخري في استقبالكم كان مرجعه أن الملك أمرني ألا أغادر القلعة بدون إذن وألا أرافق أي أحد. فقبل دانشمند عذر محمد سام وعانقه وقال قبلتك ابناً لي وعفوت عن جسارتك. ثم ظل راكباً حتى ساحة القلعة ثم ترجل ووضع قدمه على الدرج. فتقدم منه تاج الدين وهو أحد قواد الغور وقبل يده. فقال دانشمند تقدم وكن دليلاً لنا إلى أن نصل إلى بلاط فخر الدين. فقال يلدز: المسافة قريبة وليس هناك ظلام. فضحك الأمير دانشمند وسار. وإذا بيلدز يمسك بخناقه بيد واحدة ويضربه بهراوة على رأسه. وأسرع إليه أبو بكر سديد وهو أحد خواص فخر الدين وعاجل دانشمند بضربة سيف على عنقه فسقطت رأسه في ساحة القلعة. وحين رأى أتباع الأمير دانشمند ذلك حاولوا الخروج من القلعة، إلا أن بواباتها وطرق النجاة كانت مسدودة وبدأ الغوريون يعملون سيوفهم وقتلوا من المغول عدداً جعل ساحة القلعة تموج بدمائهم. وغنم جمال الدين محمد سام وخدمه غنائم لا حصر لها، وضربت الفوضى أرجاء المدينة. وخرج جمال الدين محمد سام والغوريون من القلعة وأعملوا سيوف الانتقام في المغول من الصبح حتى العشاء. ثم أغمدت السيوف وبدأ تحصين البرج والبوابات. وهرب كل من أفلت من سيوف الهرويين من حكام خراسان وجنود أولجايتو وولوا الأدبار نحو معسكرهم. ويقول أحد الأفاضل في تاريخ تلك الواقعة:

في سنة سبعمئة في السادس من صفر بهرات

وبحكم من الخالق الذي لا شبيه له

وبيد القضاء وكف محمد سام

ذاق الأمير دانشمند كأس الشهادة

وحين بلغ خبر هذه الواقعة إلى مسامع الملك فخر الدين، تظاهر باستنكار ما فعله محمد سام وبدأ في لومه وتقريعه بينما كان مبتهجاً في داخله وكتب رسالة إلى محمد سام يقول له فيها: ما كان ينبغي أن تصدر عنك مثل هذه الفعلة الجريئة؛ ولكن بما أن القضاء قد نفذ فعليك ألا تهمل في الدفاع عن القلعة ولا تلق عليّ تبعة هذه الفتنة. ثم أرسل مئة من مقاتلي أمان كوه إلى هرات بأسلحتهم وأوصاهم بتنفيذ أوامر محمد سام. وحين علم أولجايتو بذلك استشاط غضباً وأمر بإرسال بوجاي بن دانشمند على رأس جيش كبير إلى هرات للثأر من قتلة أبيه، وسلم حكم ولاية خراسان للأمير يساول. وأسرع بوجاي إلى خراسان ووصل إلى طوس، وانضم إليه أخوه طوغان وفلول جيش دانشمند. وأرسل بوجاي مبعوثاً إلى قلعة أمان كوه لتسليم رسالة إلى الملك فخر الدين يقول له فيها: لو كان أبي وأقربائي وكبار قادة الجيش قد قتلوا بأمر منك فلتعلن ذلك، وإلا فلتكتب رسالة إلى أهالي هرات لكي يسلموني قتلتهم. فاقسم الملك فخر الدين وقال لم آمر محمد سام أو غيره بقتل الأمير دانشمند، ولا أستطيع أن آمر أهالي هرات بتسليمك محمد سام، لأن هناك ألفي رجل منقادين لمحمد سام ومعظم القادة شركاء له في هذه القضية. حين وصل هذا الرد إلى بوجاي غضب وقرر محاصرة القلعة. وفي غرة شعبان من سنة ست وسبعمئة أسرع إلى هرات على رأس ثلاثين ألف رجل من جند العراق وآذربيجان وخراسان واصطف بجنوده أمام برج خاك بر سر الذي يعرف حالياً باسم خاكستر. وخرج من المدينة ألف وسبعمئة رجل كالأسود الغاضبة. ونشب القتال بين الجانبين لمدة ثلاثة أيام وقتل كثير من الناس وسدت منافذ المدينة حتى لم يستطع أحد أن يدخلها بحمل. وفي خضم هذه الأحداث، سقط الملك فخر الدين مريضاً ووافته المنية. وعلم بوجاي بهذا الخبر وسُرَّ به وعاد من جديد إلى القتال بظاهر هرات. وفي تلك الآونة، اتفق پهلون يار أحمد الذي كان قد ترقى في رتبته بيمن تربية الملك فخر الدين وكان تحت يده مئتا خادم، مع محمود فهاد ونيك پي تيركر وفكّر في قتل محمد سام. ولكن قبل تنفيذ هذه الفكرة ندم نيك پي تيركر على هذا الاتفاق وأفضى به إلى محمد سام، فأمسك محمد سام بيارأحمد ومحمود فهاد وأمر بضرب عنقيهما وألقى بجثث خدمه المئتين من أعلى البرج لبوجاي.

وعندما طال أمد الحصار، عم القحط المدينة ووقع الغلاء العظيم، ومات ما يقرب من مئة ألف شخص من قلة الخبز وتساقطوا في الشوارع وعلا الأنين والنواح إلى عنان السماء. وفي يوم الجمعة، صعدت جماعة من الجوعى فوق مقاعد المقرئين وقالوا: اتق الله الجبار يا محمد سام وارحم العاجزين وافتح البوابات. فطلب محمد سام الصلح وأرسل الملك قطب الدين توكلي الذي كان قد ألقي القبض عليه إبان مقتل دانشمند بهادر إلى بوجاي للتمهيد لإبرام العهد. فذهب الملك قطب الدين إلى بوجاي وتفاوض في الأمر. وحين علم بوجاي بقرب وصول الأمير يساول إلى حدود خراسان وهرات ولما كان يريد أن ينتهي من فتح القلعة قبل وصوله، فقد وافق على طلب الصلح وكتب عهداً في هذا الشأن وأرسله إلى القلعة. فمضى محمد سام مع مئتين من خواصه إلى القلعة وغادر المدينة، وفي يوم الأحد ٢١ ذي الحجة من سنة ست وسبعمئة دخل جنود بوجاي هرات وأخذوا يهدمون البرج والسور ويطردون الأهالي من المدينة. وفي اليوم التالي ذهب محمد سام إلى بوجاي مع عشرة أشخاص فعانقه بوجاي وقال له عفوت عنك وعليك أن تفتح بوابة القلعة ليدخلها خدمي، فوافق محمد سام فخلع بوجاي عليه خلعة فاخرة وسمح له بالانصراف. ومضى محمد سام إلى القلعة عند صلاة العشاء. وفي اليوم التالي أسرع شاه إسماعيل مع عشرة من زعماء سيستان إلى بوجاي وعاد كما عاد محمد سام. وفي اليوم الثالث جاء إليه تاج الدين يلدز ولقي كل ترحاب وعاد. وظل بوجاي لمدة ثلاثة عشر يوماً يستقبل القادة فرادى فيحصلون على الخيل وما يحتاجون إليه ويعودون. وفي تلك الآونة، نزل الأمير يساول الذي أطلق له العنان في خراسان بأمر من السلطان أولجايتو في سواد هرات وأوفد رسولاً إلى محمد سام يقول له: كن معي لتأمن شر بوجاي. ووثق محمد سام فيه ومضى هو وكل سكان القلعة إليه. فاصطحبهم يساول وسلمهم لبوجاي وقال: أمرك أولجايتو بقتل قتلة أبيك ثم تخرج من هرات. فضرب بوجاي أعناق تاج الدين يلدز وعشرين من مقاتلي الغور وأرسل محمد سام إلى معسكر أولجايتو ومضى نحو مرغاب. وسمع الأمير يساول بذلك فأرسل جماعة للقبض على محمد سام وإعادته فقيده حتى عاد بوجاي من مرغاب فأمره بقتله. ودخل يساول هرات وشجع الناس على الزراعة والعمارة وظل بها حتى عين السلطان أولجايتو غياث الدين محمد في حكومتها» (حبيب السير، ج٣، ص٧٣٧)

كان الملك فخر الدين[٣] ملكاً فاضلاً وذواقة للأدب والشعر وكان يقرض الشعر أيضاً، وكان لديه أربعون شاعراً لمدحه وأشهرهم صدر الدين الخطيب البوشنكي المتخلص بربيعي الذي نظم تاريخ ملوك الغور في كتاب بعنوان كرت نامه على غرار الشاهنامة[٤] بأمر من الملك فخر الدين.

الملك غياث الدين (٧٠٧ - ٧٢٩هـ):

بعد الملك فخر الدين ومقتل محمد سام، عهد أولجايتو بحكم هرات وأسفزار وفراه وسيستان وغور وغرجستان إلى الملك غياث الدين ابن الملك فخر الدين الذي كان قد لجأ إليه ليحتمي من شر إخوته ضمن حملة دانشمند بهادر. ولكن سرعان ما دب الخلاف بينه وبين أخيه علاء الدين وذهب إلى المعسكر للاحتماء بأولجايتو، فأحسن خدابنده استقباله وأعاده في سنة ٧٠٧هـ إلى هرات. وفي طريق عودته، أخضع غور وخيسار وأسفزار. وخشي أمراء خراسان من فرض سطوته فاتهموه عند خدابنده بالعصيان فاستدعاه الإيلخان إلى المعسكر ولم يأذن له بالعودة إلى هرات حتى سنة ٧١٥هـ. وحين عاد إلى هرات، شرع في محاربة قبيلة النكودريين وغيرهم من معارضيه، وفتح عدداً من قلاع خراسان وسيستان. وفي سنة ٧٢١هـ، ترك ابنه الملك شمس الدين محمد في هرات وذهب إلى مكة للحج. وهذا هو الملك غياث الدين نفسه الذي قتل الأمير چوپان في سنة ٧٢٧هـ كما فصلنا في الفصل السابق. وفي سنة ٧٢٨هـ، ذهب إلى بلاط السلطان أبي سعيد، ولكنه لم يحظ بعنايته نظراً لنفوذ بغداد خاتون، فعاد إلى هرات، وتوفي في العام التالي. وكان أمير حسيني من الشعراء والعارفين المعروفين المعاصرين للملك غياث الدين.

وبعد وفاة الملك غياث الدين، آلت خلافته بالترتيب إلى أبنائه الثلاثة الملك شمس الدين محمد (٧٢٩-٧٣٠هـ) والملك حافظ (٧٣٠-٧٣٢هـ) والملك معز الدين حسين (٧٣٢- ٧٧١هـ)، وكان الأخير من أشهر ملوك آل كرت ومن كبار رعاة أهل الفضل والأدب. وقد ألّف مولانا سعد الدين التفتازاني المتكلم والعالم الكبير كتابه الشهير المطوّل باسمه.

تزامن جلوس الملك معز الدين مع ظهور أسرة السربداريين في سبزوار وامتداد نفوذهم إلى خراسان وعلو نجم الأمير قزغن بتركستان. وللملك معز الدين مع السربداريين والأمير قزغن وقائع

سنتطرق إليها فيما بعد ضمن حديثنا عن السربدارية والتيموريين.

وبعد تسع وثلاثين سنة في الحكم، توفي الملك معز الدين في سنة ٧٧١هـ وخلفه ابنه الملك غياث الدين (٧٧١-٧٨٣هـ)، إلا أنه في النهاية واجه غزو الأمير تيمور جوركان في خراسان حيث استولى تيمور على هرات في سنة ٧٨٣هـ واعتقل الملك غياث الدين وأرسله هو وابنه وأخيه إلى ما وراء النهر وقتلهم في سنة ٧٨٧هـ، وأجهز بذلك على أسرة ملوك آل كرت.

آل كرت:

١- الملك شمس الدين بن أبي بكر كرت	من ٦٤٣هـ إلى ٦٧٦هـ
٢- الملك ركن الدين بن الملك شمس الدين	من ٦٧٧هـ إلى ٧٠٥هـ
٣- الملك فخر الدين بن الملك ركن الدين	من ٧٠٥هـ إلى ٧٠٦هـ
٤- الملك غياث الدين بن الملك فخر الدين	من ٧٠٦هـ إلى ٧٢٩هـ
٥- الملك شمس الدين بن الملك غياث الدين	من ٧٢٩هـ إلى ٧٣٠هـ
٦- الملك حافظ بن غياث الدين	من ٧٣٠هـ إلى ٧٣٢هـ
٧- الملك معز الدين بن غياث الدين	من ٧٣٢هـ إلى ٧٧١هـ
٨- الملك غياث الدين بن معز الدين	من ٧٧١هـ إلى ٧٨٣هـ

٢- أتابكة فارس وملوك شبانكاره:

بعد أن انتزع السلاطين السلاجقة إقليم فارس من أيدي الديالمة، حكموه من خلال ولاة أرسلوهم من قبلهم. وقد استمر ذلك قرابة خمس وثمانين سنة. وفي تلك الفترة، تعاقب على حكم فارس خمسة ولاة من قبل السلاجقة منذ عهد ألب أرسلان حتى عهد ملكشاه الثاني أي حتى ٥٤٣هـ. وكان هؤلاء الحكام الذين كانوا جميعاً من عبيد السلاطين السلاجقة أو من ذرية عبيدهم يلقبون بلقب أتابك.

ومن أواخر هؤلاء الأتابكة الذين حكموا فارس من قبل السلاجقة بوزابه أو الأتابك محمد بن

محمود ابن شقيق السلطان مسعود السلجوقي. وقد هاجم السلطان في سنة ٥٤١هـ، وقتل في العام نفسه بيد السلطان مسعود في أصفهان. وكان لبوزابه ابن أخ يدعى سنغُر بن مودود سعى للثأر لعمه؛ وكان بوزابه قد ترك أباه مودود في شيراز في أثناء غيابه حين خرج لقتال السلطان مسعود. وحين قتل بوزابه، اختفى مودود وسنغر. وفي ذلك الوقت، استولى محمد بن محمود السلجوقي على فارس. وفي سنة ٥٤٣هـ، عاد سنغر إلى فارس وطرد محمداً منها وفرض سيطرته عليها.

يعرف أبناء سنغر بأتابكة فارس أو الأتابكة السلغوريين؛ وهم أصلاً من قبائل التركمان ومن نسل شخص يدعى سلغور. وقد حكموا فارس من ٥٤٣هـ إلى ٦٦٣هـ. وكانوا دائماً خاضعين لحكام إيران الأقوياء، الخوارزمشاهيين أولاً ثم المغول ثم الإيلخانات. وقد أدى خضوعهم لكبار الملوك وأداء الخراج لهم إلى الحفاظ على فارس من الغزو والتخريب. ومع أن أتابكة فارس لم تكن لهم قدرات سياسية مهمة، فقد بقي ذكرهم في تاريخ الأدب الفارسي، حيث كان أستاذ الشعر الفارسي أي سعدي(٥) مداحهم. وإلى جانب سعدي، كان بلاط السلغوريين يضم عدداً آخر من الشعراء والأدباء سنشير إليهم فيما بعد.

الأتابك سُنغُر (٥٤٣-٥٥٨هـ):

بعد مقتل بوزابه في سنة ٥٤١هـ، تولى حكومة فارس ملكشاه بن محمود بن محمد السلجوقي. وفي عهد ملكشاه، حين فطن التركمان الذين كانوا خاضعين للسلاجقة لتدني أحوال هذه الأسرة بدؤوا في العصيان؛ فثارت بعض القبائل بزعامة سنغر بن مودود حول جبل جيلوية على ملكشاه. وفي سنة ٥٤٣هـ، ألحق سنغر الهزيمة بقوات ملكشاه واستولى على شيراز ونصب نفسه أتابكاً لفارس بلقب مظفر الدين وأسس الأسرة السلغورية.

وفي فترة استيلاء الأتابكة السلغوريين على فارس، علا نجم أسرة أخرى في الجزء الشرقي من هذه الولاية أي في المنطقة الفاصلة بين فارس وكرمان والخليج وتضم دارابجرد ونيريز وإيج وفُرك وطارم وإصطهبانات واستولوا على الولايات التي كانت تعرف آنذاك باسم شبانكاره. وكان ملوك

هذه الناحية يعرفون بملوك شبانكاره أو أمراء إيج؛ وهم طائفة من الفرس القدماء يرجعون نسبهم إلى أردشير بابكان، وكان أسلافهم يحكمون فارس قبل فتحها من قبل المسلمين. وعندما دالت دولة الساسانيين، لجأ أبناء حكامها إلى أصفهان وعاشوا متخفين لمدة من الزمن خوفاً من العرب.

وفي أواخر دولة الديالمة، زادت قوة هذه الطائفة وقدمت المساعدات لعز الدولة بختيار (٣٥٦هـ-٣٦٧هـ) في حربه ضد معارضيه. وفي عهد عز الملوك أبي كاليجار مرزبان (٤١٥-٤٤٠هـ)، انحازوا لهذا الملك في الاستيلاء على بعض الأراضي وطردوا تاش الفراش الذي تولّى حكم أصفهان من قبل السلطان مسعود بن محمود الغزنوي من حدود تلك المدينة في سنة ٤٣٠هـ، وفي أواخر عهد أبي كاليجار استقروا حول دارابجرد بعد مدة من الترحال.

وفي عهد السلاجقة وإبان استيلاء أتابكة هذه الطائفة على فارس، استقر أفرادها في شبانكاره، وازدادوا عدداً وعدة حتى ثار أحد زعمائهم في سنة ٤٤٨هـ ويدعى فضل بن علي بن حسن بن أيوب ويشتهر باسم فضلوية حسنوية على الملك أبي منصور (٤٤٠هـ-٤٤٨هـ) ابن عز الملوك أبي كاليجار آخر ملوك البويهيين وألقى به في السجن وأخضع فارس لحكمه، وكان هذا العام بداية نشأة دولة ملوك شبانكاره.

وفي سنة ٤٥٥هـ، جاء قاورد بن جغري بيك شقيق السلطان ألب أرسلان السلجوقي من كرمان إلى فارس واستولى على شيراز وهزم فضلوية الذي لجأ إلى ألب أرسلان وبعد تقديم الهدايا اقتطع فارس وشبانكاره من الديوان السلجوقي في مقابل سبعة وعشرين مليون درهم سنوياً. فغادر قاورد فارس وعاد إلى كرمان واستقل فضلوية وأخضع سائر زعماء شبانكاره واتخذ من مدينة جُشناباد الواقعة بين نيريز وداراب وفسا (جنوب مدينة خير وشمال شرقي مدينة فسا وجنوب غربي نيريز) عاصمة له. وسرعان ما تمرّد على طاعة السلاجقة وتحصن بإحدى قلاع شبانكاره. وخرج خواجه نظام الملك لسحق تمرده فاسره وسجنه بقلعة اصطخر. وبعد مدة، قام قائد القلعة بقتل فضلوية بأمر من نظام الملك. وتم تنصيب خمارتكين اتابكاً لفارس من قبل السلاجقة (٤٥٦هـ).

وبعد خمارتكين آلت أتابكية فارس من قبل السلاجقة إلى الأتابك جلال الدين چاولي وظل في هذا المنصب حتى سنة ٥١٠هـ، ودخل هو أيضاً في حروب مع من تبقي من ملوك شبانكاره ومنهم

نظام الدين يحيى بن حسنوية وأبنائه؛ وفي سنة ٥١٠هـ، في أثناء اشتباكه مع نظام الدين محمود بن نظام الدين يحيى، سقط مريضاً وأسلم الروح.

كان نظام الدين يحيى وريث فضلوية معاصراً للأتابك سنغر السلغوري وحدثت بينهما مناوشات عدة مرات حول السيطرة الحاسمة على فارس، إلا أن ملك شبانكاره لم يتمكن من الأتابك السلغوري وظل سنغر أتابكاً في شيراز لمدة أربع عشرة سنة يحكم بالعدل وينشر العمار حتى وافته المنية في سنة ٥٥٨هـ.

الأتابك مظفر الدين زنكي بن مودود (٥٥٨هـ- ٥٧١هـ):

آلت الأتابكية بعد سنغر إلى أخيه زنكي. وعندما ثارت فئة من أبناء الأتابكة السلاجقة وأقربائهم، قام زنكي بسحقهم ولقب بمظفر الدين.

وبعد وفاة نظام الدين يحيى ملك شبانكاره، آلت خلافته لولده قطب الدين مبارز. وبسط مبارز نفوذه على ممالك أسلافه واستولى على نيريز ونال شهرة ونفوذاً كبيرين.

ظل الأتابك زنكي السلغوري طوال مدة حكمه في اشتباك مع ملوك شبانكاره، ولكنه لم يتمكن من التغلب عليهم، خاصة أن قوة قطب الدين مبارز في تلك الفترة زادت لدرجة كبيرة ولم يعد من الممكن القضاء عليهم. ولكي يدعم الأتابك زنكي سطوته في الحكم، ذهب إلى السلطان أرسلان بن طغرل السلجوقي (٥٦٦-٥٧١هـ) سلطان العراق وحصل منه على مرسوم ملكي بالأتابكية وظل في سدة الحكم لمدة أربعة عشر عاماً حتى توفي في سنة ٥٧١هـ.

الأتابك تكلة (٥٧١هـ- ٥٩١هـ):

كان الأتابك تكلة ابن الأتابك زنكي، وقد حكم فارس لمدة عشرين سنة، وكان حاكماً عادلاً ومسالماً؛ واشتهر وزيره أمين الدولة كازروني بالسخاء والجود. وانتهى الأمر بين تكلة وابن عمه قطب الدين سنغر بن طغرل بالقتال، وقام طغرل بقتل الأتابك تكلة وكان قد خرج بنفسه لقتاله وأصبح هو الأتابك (٥٩١هـ).

الأتابك طغرل بن سنغر (٥٩١هـ-٥٩٩هـ):

في أواخر عهد أتابكية طغرل التي دامت تسع سنوات قضاها في الصراع ضد ابن عمه سعد بن زنكي وانتهت بخراب فارس، انتزع قطب الدين مبارز الشبانكاري كرمان من أيدي الغز وولّى أخويه نظام الدين محمود وسيف الدين محمد في تلك المدينة؛ إلا أن الغز استغلوا انشغال نظام الدين محمود باللهو والعبث وظلم عماله وثاروا عليه في سنة ٦٠٠هـ. وأرسل نظام الدين محمود أخاه سيف الدين محمد إلى قطب الدين مبارز بشبانكاره يطلب منه العون، إلا أن قطب الدين كان منهمكاً في الصراع مع الأتابك سعد ولم يتمكن من نجدة أخويه. وتكتل الغز وأهالي كرمان واعتقلوا نظام الدين محمود ولكنهم لم يجرؤوا على قتله خوفاً من بطش مبارز؛ بل حبسوه في بئر وولوا ابن الملك دينار ملكاً عليهم بلقب عجمشاه.

الأتابك سعد بن زنكي (٥٩٩هـ-٦٢٣هـ):

تمكن سعد بن زنكي في النهاية من التغلب على الأتابك طغرل في سنة ٥٩٩هـ واعتقله وتولّى هو أتابكية فارس. ولكن سرعان ما واجه غريماً قوياً كقطب الدين مبارز الشبانكاري. ولما كان أهالي كرمان وقبيلة الغز رافضين لطاعته ورأى أوضاع الولاية في اضطراب، أوفد إلى كرمان رسولاً لمطالبة عجمشاه بتسليم نظام الدين محمود. فأرسله عجمشاه إلى شيراز، واستولى الأتابك سعد على كرمان وحدّ من نفوذ ملوك شبانكاره فيها واستبقى نظام الدين محمود عنده.

وفي سنة ٦٠٠هـ، اتجه الأتابك سعد إلى أصفهان. فانتهز قطب الدين مبارز فرصة غيابه وشن حملة على كرمان، ولكنه لم يتمكن من فتح القلاع الواقعة على الطريق، وأمضى عاماً في هذه الحملة وعاد إلى شبانكاره صفر اليدين. وأخضع جيش الأتابك سعد كرمان لحكم السلغوريين مرة أخرى في سنة ٦٠٢هـ.

أدّى امتداد نفوذ الأتابك سعد إلى ملك العراق ورغبته في إخضاع أصفهان وهمدان إلى إثارة غضب أتابكة آذربيجان الذين كانوا يفرضون سيطرتهم آنذاك على تلك المناطق لدرجة أن شن الأتابك أوزبك بن جهان پهلوان حملة على شيراز وأغار على المدينة وأعمل القتل في أهلها. وبعد

عامين، قام السلطان غياث الدين ابن السلطان محمد خوارزمشاه الذي تولّى حكم العراق من قبل أبيه بمهاجمة شيراز وذهب منها إلى خوزستان. ولم يتمكن الأتابك من مواجهته لعجزه عن المقاومة. وبعد عودة غياث الدين، عادت فارس إلى سيطرته من جديد.

وفي سنة ٦٠٧هـ، أعلن الحاكم الذي كان الأتابك سعد قد أوفده إلى كرمان عصيانه له فاضطربت الأوضاع في تلك الولاية. وفي ذلك الوقت، تمكن السلطان محمد خوارزمشاه من إخضاع تلك الولاية لسيطرته وانتزع كرمان من أيدي أتابكة فارس.

وفي سنة ٦١٤هـ، عزم الأتابك سعد على التوجه إلى العراق، وواصل زحفه إلى حدود الري وواجه ملكاً قوياً كالسلطان محمد خوارزمشاه الذي أخضع معظم البلاد الإسلامية إلى الشرق من دار الخلافة وهو يسعى للإطاحة بالخليفة العباسي، وهاجم جيش خوارزمشاه ظناً منه أنه ند له، إلا أنه وقع في الأسر وأراد خوارزمشاه أن يقتله ولكنه عفا عنه بشفاعة من أحد أعوانه وانتهى الأمر بالتصالح على أن يترك الأتابك سعد قلعتي اصطخر وأشكنوان(٦) وربع محصول فارس لخوارزمشاه وأن يزوج ابنته ملكه خاتون للسلطان جلال الدين منكبرني ابن خوارزمشاه وأن يبقي ابنه الأكبر زنكي لدى خوارزمشاه كرهينة. ثم أكرم الأتابك سعد وأرسله إلى فارس وعاد هو إلى شيراز.

وحين علم الابن الآخر للأتابك سعد بنبأ تصالح أبيه مع خوارزمشاه، لم يرض بالاتفاق وبتزويج أخته لجلال الدين، وثار على أبيه وخرج لصده. ووقعت المواجهة بين الأب وابنه بالقرب من قلعة اصطخر وأصاب كل منهما الآخر بجروح ووقع أبو بكر في الأسر وتم سجنه في قلعة اصطخر، وعاد الأتابك سعد إلى فارس وأوفى بعهده لخوارزمشاه.

وفي سنة ٦٢١هـ وبعد مناوشات مع السلطان غياث الدين ابن خوارزمشاه كما سبقت الإشارة في الفصل الرابع، تصالح الأتابك سعد معه واقتسما إقليم فارس بينهما. وعندما عاد جلال الدين منكبرني في الفترة نفسها من الهند وكرمان، أوفد الأتابك سعد ابنه سلغورشاه لاستقباله رغم إرادة غياث الدين.

بعد عودة السلطان جلال الدين منكبرني إلى إيران وبعد هجومه على العراق، لم يقدم الأتابك سعد مرة أخرى على تعبئة جيشه أو خوض الحروب حتى توفي في سنة ٦٢٣هـ؛ بل أمضى وقته في

بناء المنشآت الخيرية من أسواق ومساجد ورباطات وحمّامات وحفر قنوات وقلاع حول شيراز ورعاية أهل العلم والأدب. وقد مدحه عدد من مشاهير شعراء الفارسية. إلا أن ما يشاع عن أن سعدي الشيرازي قد اتخذ تخلصه من اسمه ليس صحيحاً ؛ لأن سعدي كان لايزال صغيراً في عهد هذا الأتابك. وتولّى وزارته خواجه عميد الدين أسعد الفارسي وهو من شعراء الفارسية والعربية. وكان هذا الوزير قد ذهب في سفارة من قبل الأتابك في سنة ٦٠٦هـ إلى السلطان محمد خوارزمشاه بخوارزم ولقي في بلاطه كل ترحاب بسبب فضله ومكانته الأدبية.(٧) وقد قتل هذا الوزير في سنة ٦٢٤هـ على يد الأتابك أبي بكر.

الأتابك أبو بكر بن سعد (٦٢٣هـ-٦٥٨هـ):

آلت أتابكية فارس بعد الأتابك سعد إلى ابنه أبي بكر الذي يعد أشهر الأتابكة السلغوريين وبلغت قوة هذه الأسرة إلى ذروتها في عهده وازدهرت فارس. وفي سنة ٦٢٤هـ، أي في السنة الثانية من حكمه، توفي قطب الدين الشبانكاري وآلت إمارة شبانكاره لابنه الملك مظفر الدين محمد الذي مد حدود شبانكاره جنوباً إلى ولاية هرمز وساحل البحر. وكان هذا الملك محباً للأدب والشعر،(٨) وكان ينافس أتابكة فارس في هذا المجال.

كان الملك مظفر الدين الشبانكاري معاصراً لأتابكية أبي بكر بن سعد كلها. وتوفي كل من هذين الملكين الراعيين للأدب في سنة ٦٥٨هـ. وفي عهده وعهد أتابكية أبي بكر، كانت هناك جماعة من أهالي شبانكاره دائمة الاعتداء على فسا وسائر قلاع فارس الحدودية التي كانت تحت حكم السلغوريين وكانوا يقتلعون نخيل الأهالي ومزروعاتهم. وظل هذا الأمر موضع نزاع بين ملوك شبانكاره وأتابكة فارس طوال مدة أتابكية أبي بكر، واستمر هذا النزاع حتى فتح هولاكو لإيران.

كان الأتابك أبو بكر رجلاً عاقلاً بعيد النظر. وقد أصلح ما تخرب في عهد الأتابكة السلاجقة ونتيجة لحملات السلطان غياث الدين وملوك شبانكاره على فارس، ورأى أنه من الأصلح أن يقبل تبعية أقطاي خليفة جنكيز لإنقاذ إقليم فارس من غزو التتار الذين سووا أصفهان آخر أكبر مدن العراق في تلك الفترة (٦٣٣هـ) بالأرض. وأوفد ابن أخيه إلى أقطاي وتعهد بدفع الخراج عن

فارس، فأبقاه أقطاي في حكم فارس ولقّبه بقتلغ خان. وبهذا التدبير الحكيم، أنقذ جنوب إيران من تخريب جند المغول. ولكي لا يدع للمغول مجالاً لغزو فارس التي كانت آنذاك من أغنى ولايات إيران بسبب التجارة الخارجية، كان كل سنة يوفد ابنه سعداً أو أحد أبناء إخوته إلى الخان بالخراج السنوي، وكانت إقامة قادة التتار العسكريين الإقليميين خارج شيراز بأمر منه، وكان يهيئ لهم كل سبل الراحة ويمنع العامة من الاقتراب منهم. موجز القول: إن فارس في عهده عرفت الأمن والاستقرار والعمران وصارت مركزاً للشعراء وأهل العلم ممن فرّوا أمام طوفان المغول. ولما كان الأتابك أبو بكر يرعى أمثالهم ويهيئ لهم سبل الاطمئنان، فقد تجمعوا حوله وسجلوا اسمه في أشعارهم ومؤلفاتهم بالخير؛ وكان أشهرهم سعدي الذي نظم كتابه بوستان[9] في سنة ٦٥٥هـ باسمه، ومجد الدين همكر الشاعر، وشمس الدين محمد الرازي مؤلف كتاب المعجم.

قام الأتابك أبو بكر كأبيه ببناء العديد من المنشآت الخيرية في شيراز، ومنها مستشفى كبير لعلاج المرضى ويقدم لهم الطعام والدواء دون مقابل. كما كان رجلاً متديناً زاهداً وراعياً للصالحين والزهاد، ووقف عليهم العديد من الأوقاف. إلا أنه كان ينفر من الحكمة والعلوم المعقولة؛ لذا فقد طرد جماعة من علمائها من شيراز.

وفي سنة ٦٢٨هـ، أي في خامس سنوات أتابكيته، شن أبو بكر حملة على الخليج العربي وعُمان والبحرين وكيش واستولى على ساحل الخليج من حدود البصرة حتى سواحل الهند وامتدت شهرة قوته إلى الهند وتليت الخطبة باسمه في بعض مناطقها؛ ولقب الأتابك أبو بكر منذ ذلك الوقت بسلطان البر والبحر.

وفي بداية سنة ٦٥٨هـ، علم هولاكو خان بالظلم الذي عاناه رعايا شبانكاره، فأرسل أحد أمراء جيشه لفتح قلعة إيج معقل ملوك شبانكاره، فلجأ الملك مظفر الدين محمد إلى هذه القلعة وتحصّن فيها وشرع في قتال المغول، إلا أنه لقي مصرعه في هذا القتال بضربة سهم واستسلم أهالي القلعة للتتار. وبعد تخريب بعض قلاع شبانكاره، ولّى المغول قطب الدين مبارز ابن الملك مظفر الدين حاكماً على شبانكاره.

وأوفد أبو بكر ابنه سعد إلى هولاكو من باب الاحتياط، فأكرم خان المغول وفادته وجدد مرسوم

حكم آل سلغور لإقليم فارس. وبعد عودة سعد، توفي أبوه أبو بكر. وكانت وزارة أبي بكر للأمير فخر الدين أبي بكر وكان رجلاً كريماً ومتديناً وخيراً، وهو الشخص نفسه الذي أشار إليه سعدي في مقدمته لكتابه گلستان.(١٠)

يصف شمس الدين محمد بن قيس الرازي الأتابك أبا بكر في مقدمة كتابه المعجم كما يلي:

«ترك المنكرات والنواهي وأعرض عن اللهو وقدم رضا الله على اتباع أهواء الملك ورجح أخلاق الأولياء على التأسي بسيرة ملوك الدنيا حتى كسد سوق الفجور والفسق وقل رواج التهتك والفساد وشاع الأمر بالمعروف وراجت العفة والصلاح واتبع أهل البلاد من أمراء وكبراء وحشم وخدم وجنود ورعية سبيل أولي الأمر واتجهوا إلى التوبة والإنابة وأعرضوا عما حرمه الشرع، وصارت مثوبة تلك الأيام ذخيرة لاستقرار تلك الدولة القاهرة. كما أنه اعتاد الإصغاء لكلام الملهوفين وكان يأنس بكشف الغمة عن المظلومين وكان يقضي أيامه المباركة في تنظيم أحوال الدين وتيسير شؤون الملك وشغل باله بمعرفة أقدار العلماء والصالحين ورفاهية الرعية وفتح أبواب الخيرات والمبرات على عامة الناس وسد طريق الحاجة غير الملحة والعوارض غير الواجبة على كل الممالك، وألغى العادات المحدثة لدى عمال الولايات ومحا البدع القديمة من صحائف الشؤون الديوانية ولم يكن يسمح بالتبذير من الخزانة إلا برخصة شرعية. وأعاد ما يقرب من مئة ألف دينار من الأملاك من قرى زاهرة ومزارع مثمرة وقصور شاهقة إلى أصحابها بعد أن ظلت لسنوات في حيازة الديوان الملكي، فخفف بذلك من ذنوب أسلافه، وأنفق أضعاف ذلك على عمارة المساجد والمعابد والأربطة(١١) والمدارس والقناطر والمصانع والأضرحة المباركة والبقاع المقدسة وأرسل الخيرات للعاكفين في كل ولاية ولمشايخ كل منطقة ولسبل مكة ومساكين الحرمين ووقف الأوقاف على عامة الأشراف والمتصوفة المقيمين والمسافرين وأنفق ريع الأوقاف في مصارفها وأوجه استحقاقها ومنعها عن المستغلين وأوجه الإنفاق الباطلة، وعمل على توصيلها يوماً بيوم وشهراً بشهر إلى العلماء والصالحين والأشراف والكبراء وأهل الحديث وحملة القرآن وغيرهم من المستحقين سواء الغرباء أو أهل البلاد وسواء الرجال أو النساء والأطفال. فكانت محامده بلا نهاية وخصال كماله لا تقاس» (المعجم، ص١٠-١٢)

«يُحكى أن جاهلاً أتى إلى بلاطه ذات يوم في لباس المتصوفة. وبعد أن أكرمه ورحب به استمع

إلى نصائحه وتودد إليه. وجاء وقت صلاة العشاء، فلم يعرف هذا المسكين مخارج الحروف وتلا الآية اهدنا الصراط المستقيم بصورة غير مستقيمة كطبعه. وبعد الفراغ من أداء الصلاة رسخت عقيدة الأتابك وأنعم عليه بصلة ثمينة. وهناك حكاية مماثلة تُروى عن السلطان محمد خوارزمشاه حيث كان يتناقش دائماً مع الإمام فخر الدين عمر الرازي عن ترجيح طوائف الزهاد والمتصوفة على العلماء والأئمة وكان يصر على أن هذه الجماعة التي ترضى بأقل لقمة وتقنع بأحقر ملبس وتنأى بنفسها عن الخلاف والاختلاط وتنشغل بالكرامات والترقي إلى أعلى المقامات ويقضون السنوات في السعي والكدح. وكلما كان الإمام يورد الآيات والأحاديث كان السلطان يزداد إصراراً على الإنكار. وذات يوم أمر تلاميذه باستدعاء شخصين من اسطبله الخاص. وبعد أن ألزمهما بالاستحمام والنظافة أجلسهما على السجادة ليصبحا من أهل طريق التصوف. فتجمع حشد من المتبلدين حولهما والحقيقة أنهما حبسا العفريت في الزجاجة ووضعوا الحلقة حول رقبة الجن وأقنعا السلطان بتمكنهما بحسن التدبير ولطف الحيل حتى تقرب إلى هذين الشيخين مستجابي الدعاء. وتجشم السلطان عناء زيارة هذين الشيخين الزائفين وكان يجالسهما بكل تواضع ليلتمس منهما البركات ويغدق عليهما من عطاياه الوافرة. وعندما كشف الإمام قناعيهما وأقنع السلطان بأنهما كانا بالأمس في مرابط الخيول والمزابل يأتنسان بصهيل الخيول ونهيق الحمر، وقال إن مجرد الحلق وارتداء زي المشيخة يمكن أن يغير الخلق والسيرة في أعين الناس وارتداء الأزرق يخلص الشخص من رق الأهواء أو يجعله أهلاً للكرامات، فكيف يتفق هذا مع المساعي التي يبذلها طالب العلم الذي يقضي السنوات في تحصيل الكمال ومعارف اليقين ومعالم الدين. فاعترف السلطان ولكنه لم يكف عن الجدل» (تاريخ وصاف، ص١٥٩-١٦٠ بتصرف)

وكان الأتابك أبو بكر كما سبقت الإشارة يحتفظ بصلات ودية مع المغول؛ فحين جاء هولاكو إلى إيران أوفد بعض القادة إلى مخيمه، وحين فتح هولاكو بغداد، أوفد ابنه سعد لتهنئته. وعزم سعد على العودة إلى شيراز بعد أن استأذن هولاكو، إلا أن خبر وفاة والده بلغه وهو في الطريق.

امتد حكم الأتابك مظفر الدين أبي بكر الملقب بوارث ملك سليمان وسلطان البر والبحر لمدة أربع وثلاثين سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً من ٢٤ ذي الحجة ٦٢٣هـ إلى ٥ جمادى الأولى

٦٥٨هـ. وقد أنشأ العديد من المنشآت الخيرية عرفت جميعاً بالمنشآت المظفرية.

وبعد أن وصل نبأ وفاة الأتابك أبي بكر إلى ابنه سعد وهو في الطريق كان سعد مريضاً. وكان قد أوفد رسولاً إلى شيراز لقتل خواجه فخر الدين أبي بكر وزير أبيه ومدبر شؤونه حيث كان يبغضه لسبب ما. وتزامن وصول الرسول مع وفاة سعد، فتأجل قتل خواجه فخر الدين. وقد توفي سعد بعد أبيه باثني عشر يوماً، أي في ١٧ جمادى الأولى؛ وكان في حياة أبيه أيضاً من رعاة أهل العلم والأدب، وكان سعدي من خواصه واستمد تخلصه من اسمه ودوَّنَ مقدّمةَ كتابه گلستان باسم سعد.(١٢)

الأتابك محمد بن سعد بن أبي بكر (٦٥٨-٦٦٠هـ):

بعد إحضار نعش أبي سعد إلى شيراز، عيَّن ابنه الصغير محمد أتابكاً. ونظراً لحداثة سنه فقد قامت والدته تركان خاتون شقيقة علاء الدين أتابك يزد بإدارة شؤون ملك السلغوريين بكل كفاءة وأوفدت الرسل بالهدايا إلى هولاكو وقدَّمتْ له فروض الطاعة. فأصدر هولاكو مرسوماً بتعيين ابنها محمد حاكماً لفارس. وقد ذهب إليه خواجه فخر الدين أبو بكر وعرض عليه خدماته، إلا أنه قتل سراً بأمر من تركان خاتون. وبعد عامين وسبعة أشهر، وفي ذي الحجة ٦٦٠هـ، سقط الأتابك محمد من فوق السطح وفاضت روحه وهو لايزال صغيراً.

الأتابك محمد بن سلغور بن سعد (٦٦٠هـ- ٦٦١هـ)

بعد وفاة محمد بن سعد، قام أمراء الدولة وتركان خاتون بتنصيب محمد بن سلغور بن سعد بن زنكي الذي أسرع إلى هولاكو من قبل الأتابك أبي بكر بعد فتح بغداد وأبدى حكمة في تصرفاته أتابكاً. إلا أنه بمجرد وصوله إلى الحكم، انغمس في اللهو واتبع طريق الظلم فنفر الناس منه. وبعد أن زوجته تركان خاتون ابنتها تواطأت مع الأمراء وألقت القبض عليه في العاشر من رمضان ٦٦١هـ وأرسلته إلى هولاكو ومعه رسالة تقول فيها إنها أرسلته إلى الإيلخان بعد أن تمادى في سفك دماء الأبرياء. ولم تدم دولة الأتابك محمد شاه بن سلغور سوى ثمانية أشهر.

الأتابك سلجوق شاه بن سلغور (٦٦١هـ-٦٦٢هـ):

كان سلجوق شاه هو الأخ الأكبر للأتابك محمد شاه. وكان الأتابك أبو بكر قد حبسه بقلعة اصطخر. وفي عهد الأتابك محمد شاه، توسل سلجوقشاه لأخيه أن يطلق سراحه؛ إلا أن الأتابك محمد لم يستجب لتوسلاته. وبعد أن ثارت تركان خاتون على محمد شاه، أرسلت الأمراء لإحضار سلجوق شاه، فأخذوه إلى شيراز بكل إجلال ونصبوه أتابكاً، وتزوج تركان خاتون وانغمس في حياة اللهو والشراب. وكلف أحد غلمانه وهو في حالة سكر بقتل تركان خاتون التي كانت تعتزم الغدر به فقتلها الغلام. وتعقب الحكام المغول المعينين من قبل هولاكو في شيراز وقتل أحدهم وأضرم النار في ديارهم. وعلم هولاكو بنبأ هذه الواقعة، وتقدم الأتابك علاء الدين إلى الإيلخان بمظلمة للقصاص لقتل أخته تركان خاتون. وبدأ هولاكو بمحاكمة الأتابك محمد شاه الذي حضر إلى بلاط الإيلخان، ثم أرسل جيشاً بقيادة ألتاجو إلى شيراز للإطاحة بسلجوقشاه. وانضم لهذا الجيش علاء الدين أتابك يزد ونظام الدين حسن[١٣] (٦٥٩-٦٦٢هـ) ملك شبانكاره وإيج لسحق سلجوقشاه. وفي سنة ٦٦٢هـ نشب القتال بين الفريقين في كازرون. وفي هذه الحرب، قتل سلجوقشاه نظام الدين حسن ملك شبانكاره، ولكنه لم يتمكن من المقاومة فلاذ بالفرار ولجأ إلى أحد المساجد، فحاصره المغول. وتجاسر الأتابك علاء الدين وتقدم لإلقاء القبض على سلجوقشاه، إلا أنه سقط صريعاً على أثر ضربة سهم من أحد أمراء الأتابك السلغوري. وفي النهاية، وقع سلجوق شاه في أيدي المغول فقتلوه. وهكذا شهدت موقعة كازرون هذه مصرع ثلاثة من ملوك جنوب إيران وهم نظام الدين حسن ملك شبانكاره وعلاء الدين أتابك يزد وسلجوق شاه أتابك فارس.

الأتابك أبش خاتون (٦٦٢-٦٦٣هـ):

بمقتل سلجوقشاه، لم يبق من نسل الأتابكة السلغوريين من يرث أتابكية فارس سوى ابنتي الأتابك سعد بن أبي بكر شقيقتي الأتابك محمد وهما أبش خاتون وأختها. فنصب أهالي شيراز أبش خاتون أتابكاً وصدّقَ التاجو على أتابكيتها، وتزوّج يوسف شاه أتابك يزد أختها.

ومنذ ذلك الوقت، أصبح إقليم فارس مطمعاً للتتار بعد أن ظل بمأمن من غزوهم قرابة نصف قرن بفضل حكمة الأتابكة. فبعد أقل من سنة تمَّ ضم فارس رسمياً إلى الديوان الإيلخاني وسقطت أسرة أتابكة فارس التي أصبحت تحت الحكم المباشر للمغول.

وفي سنة ٦٦٣هـ، ظهر أحد أشراف شيراز المقيمين بخراسان ويدعى سيد شرف الدين إبراهيم وادعى أنه المهدي المنتظر؛ وجمع حوله عدداً من التركمان وغيرهم وذهب بهم إلى حدود شبانكاره ثم إلى شيراز بهدف الاستيلاء عليها وطرد المغول منها. فأرسل حاكم المدينة المغولي جيشاً لصد أتباع سيد شرف الدين وتمَّ قتلُهُ في رجب من العام نفسه.

أدَّى نبأ ثورة سيد شرف الدين إلى غضب هولاكو فحكم على أولجايتو بالضرب سبع عشرة عصا لتوانيه عن إعمال القتل العام في شيراز، وأرسل فرقة من الجيش لأداء هذه المهمة. ولكن حين بلغه نبأ إخماد فتنة سيد شرف الدين واستسلام أهالي شيراز، تراجع عن إرسال تلك الفرقة وأمِنَ أهالي شيراز شر كارثة مخيفة. وفي سنة ٦٦٣هـ، خطب هولاكو أبش خاتون لابنه منجو تيمور وضم فارس للممالك الإيلخانية رسمياً.

الحكم المغولي لإقليم فارس:

بعد هذه الأحداث، تم تكليف موظفين من الديوان الإيلخاني بحصر أموال الخزانة وجمع الضرائب في شيراز والتحكم في عوائدها ونفقاتها. ولكن لما لم يكن لشيراز حاكم مستقل، فإن الأمور فيها لم تسر على النحو المطلوب. فقام أباقا خان خليفة هولاكو في سنة ٦٦٧هـ بإيفاد أنكيانو حاكماً لإقليم فارس. وكان أنكيانو تركياً عاقلاً وعادلاً، فضبط شؤون الإقليم في مدة حكمه التي استمرت ثلاث سنوات (٦٦٧-٦٧٠هـ) ونشر العدل ورعى العلماء والشعراء وبذل جهوده لضبط ضرائب الإقليم وسحق المتمردين وحقَّقَ عوائد وفيرة من تلك المملكة التي كانت آنذاك من أغنى ممالك المشرق الإسلامي. ثم قامت أبش خاتون وعدد آخر من خصوم أنكيانو باتهامه عند الإيلخان بالاختلاس والعصيان. فعزله أباقا من حكومة فارس، ولكنه لم يعاقبه، بل اكتفى بإلحاقه بخدمة منجو قاآن وعهد بحكم فارس للقائد المغولي الشهير سوغنجاق (سونجاق).

وذهب سونجاق إلى شيراز في سنة ٦٧٠هـ، وقسم الإقليم إلى مقاطعات يتولى إدارتها عمال من قبله، وأرسل قادته إلى كل نواحيها.

ومع وصول سونجاق إلى فارس، ثار الحاكم الذي كان الأتابك أبو بكر قد عيَّنَهُ على الجزر ويدعى محمود وهو من أهالي جزيرة قلهات (من جزر ساحل عمان على مسافة يومين من هرمز) وفرض سيطرته على جزيرة كيش وبعض سواحل الخليج. فخرج سونجاق بعدة سفن لسحقه فهزم المتمردين وفرض سيطرته على كيش وجمع من أهلها ضرائب عامين ثم عاد إلى شيراز.

وبعد عودته من رحلته البحرية، ذهب سونجاق بصحبة الأتابك أبش خاتون إلى معسكر أباقا، ووقع إقليم فارس في أيدي المقاولين وموظفي الديوان وتجاوزوا الحد في الظلم والإجحاف، مما أدى إلى اضطراب أوضاع تلك المملكة العامرة وهجرها أهلها بسبب تعدي عمال الدولة دون أن يجدوا من ينقذ بلادهم منهم.

وفي سنة ٦٧٧هـ، زحفت قبيلة نكودري من سيستان على فارس لنهبها، فأسرع أمراء الإقليم لصدهم، إلا أنهم هزموا في كرمان ودخل النكودريون شيراز ونهبوها ثم عادوا إلى سيستان.

وفي سنة ٦٧٨هـ، عاد سونجاق إلى شيراز بأمر من أباقا وشرع مرة أخرى في إصلاح ما أفسده عمال الديوان. فأوقف نظام جمع الضرائب بالمقاولة واختار أحد المقاولين وهو خواجه نظام الدين نائباً له، وعهد بقضاء فارس للقاضي ناصر الدين عبدالله البيضاوي المفسر المعروف والقاضي ركن الدين يحيى، وعاد هو إلى معسكر أباقا.

وكان من مقاولي فارس شخص يدعى الشريف عماد الدين كان يحقد على خواجه نظام الدين لجاهه ومنصبه؛ فتمرَّدَ على خدماته لسونجاق فأمر سونجاق نائبه بحبس الشريف وأن يقسو في معاقبته. وبعد أن تخلَّصَ الشريف من سجنه، تحالف مع معارضي سونجاق ونائبه وذهبوا معاً إلى المعسكر وأبلغوا الأمير بوغا الذي كان من عمال الخزانة والديوان آنذاك بتجاوزات سونجاق في أموال فارس. وكان بوغا يسعى بالتواطؤ مع مجد الملك للقضاء على صاحب الديوان خواجه شمس الدين؛ فاصطحب الشريف عماد الدين إلى أباقا حيث أفضى عماد الدين بين يدي الإيلخان باختلاسات سونجاق وتعهد بزيادة مئتي تومان على عوائد فارس السنوية المقررة للديوان. فكلَّفَ

أباقا طغاجار نويان بالذهاب برفقة عماد الدين إلى شيراز ومحاسبة عمال سونجاق وجمع المبلغ الذي تعهد عماد الدين بتحصيله.

ذهب طغاجار ونائبه صدر الدين أحمد خالدي الزنجاني بصحبة الشريف عماد الدين إلى شيراز وشرعوا في مراجعة حسابات عمال فارس خاصة خواجه نظام الدين، ونتيجة للقسوة التي اتبعوها، جمعوا مبلغاً كبيراً من المال. وحين جاءهم نبأ وفاة أباقا وجلوس السلطان أحمد، حمل طغاجار والشريف عماد الدين ما جمعوه من مال وسارعوا إلى المعسكر الإيلخاني. وقام السلطان أحمد بتقسيم فارس إلى عدة مناطق وعهد بوزارة المملكة للشريف عماد الدين وبإدارة شؤونها لأربعة من الأمراء الذين ذهبوا معهما إلى المعسكر. إلا أن حاكم المدينة المغولي وجماعة من الأمراء الساخطين على الأوضاع في الإقليم ظلوا على عصيانهم لمبعوثي السلطان أحمد لمدة عام وامتنعوا عن دفع الضرائب وتحالفوا مع الأمير أرغون حاكم خراسان الذي كان يطالب بالعرش ضد السلطان أحمد؛ وأسبغ عليهم أرغون حمايته إلى أن أوفد شمس الدين صاحب الديوان مرسوماً بتنصيب حاكم جديد لشيراز باسم السلطان وتوعد المعارضين. وفرَّ الحاكم المغولي السابق إلى خراسان واستولى الحاكم الجديد على شيراز بعون من الأتابك يوسف شاه لر، وخمدت الفتنة.

وبعد مرور سنة، أصدر السلطان أحمد مرسوماً بحكم شيراز باسم الأتابك أبش خاتون. ودخلت أبش خاتون شيراز بكل إجلال واستقبلها الأهالي بكل ترحاب لما حظي به الأتابكة السلغوريون من حسن السيرة بينهم، وأقيمت الاحتفالات لمدة شهر. وتولّى نيابتها في الأتابكية بأمر السلطان أحد أحفاد الأتابك زنكي ووزارتها خواجه نظام الدين أبو بكر. وصادرت أبش خاتون معظم الأملاك الديوانية كأملاك خاصة للأتابكية وأنفقت عائدها؛ لذا فقد بدأت عوائد إقليم فارس للديوان في النقصان. وأسرع عماد الدين الذي كان يطالب بمنصب نظام الدين إلى المعسكر، وكان أرغون قد استولى آنذاك على عرش الإيلخانية؛ فاتفق عماد الدين مع الأمير بوغا وأبلغ أرغون بما آلت إليه الأوضاع في الإقليم، فعهد أرغون بحكم فارس للشريف عماد الدين وأمر باستدعاء أبش خاتون إلى المعسكر بعد الاطلاع على المرسوم الإيلخاني.

وعاد الشريف عماد الدين إلى شيراز في رمضان ٦٨٣هـ وشرع في سحق معارضيه ومعاقبتهم،

واتخذ لنفسه صورة الملوك دون أن يولي أي اعتبار لأبش خاتون التي كانت موضع احترام شديد من قبل أهالي شيراز. فغضبت أبش خاتون من تعديات عماد الدين الذي كان يعد من عبيد الأتابكة، وحصلت من أعيان المدينة على تقرير يفيد بضرورة قتل الشريف عماد الدين لمصلحة الملك لأنه يضمر الشر للأهالي. ولم يبد الشريف عماد الدين أي اهتمام بالأمر لشدة غروره. وعندما بلغه أن قبيلة نكودري في طريقها من سيستان إلى فارس، طلب من الأتابك أبش أن تذهب إلى قلعة اصطخر حتى يخرج بالجيش إلى كرمان مرتاح البال. ولم توافق أبش خاتون على طلبه. وفي تلك الأثناء، أقدم أقرباء الأتابك أبش على قتله ونهب داره (٢١ شوال ٦٨٣هـ) لما أبداه من قسوة تجاهها، وأرسلوا رأسه إلى بلاط الأتابك أبش خاتون وقبضت أبش على زمام الأمور من جديد.

فرَّ ابن الشريف عماد الدين الصغير وبعض نوابه إلى المعسكر وأبلغوا الأمير بوغا بما حدث. فأوعز بوغا إلى الإيلخان بضرورة الانتقام لمقتل الشريف وعقاب المتمردين واستدعاء أبش خاتون وقتلة الشريف إلى البلاط الإيلخاني. فأرسل الإيلخان مرسوماً بهذا المعنى إلى شيراز. وكانت أبش خاتون قد ضمَّتْ إلى صفها عدداً من الأمراء بتقديم الهدايا إليهم وأرسلت إلى أرغون خان الشكاوى التي كانت قد أعدتها؛ إلا أن ذلك لم يطفئ غضب الإيلخان، فأوفد موظفيه للتحقيق في القضية وجمع بقايا ضرائب فارس. وشرع الموظفون في جمع بقايا الضرائب ولكنهم رعوا جانب الاحترام لأبش خاتون إلى أن جاء إلى الإقليم موظفون آخرون من قبل الإيلخان ومعهم حكم مؤكد باستدعاء أبش. وتمَّ أخذ أبش إلى تبريز وحوكمت هي ونوابها وصدر الحكم عليها وعلى عمالها بغرامة مالية باهظة قدرها خمسون توماناً لورثة الشريف عماد الدين وأقربائه. فمرضت أبش خاتون وتوفيت بعد عام واحد من تلك المحاكمة أي في ٦٨٤هـ بتبريز، وبذلك اختفت آخر من تبقى من أتابكة فارس السلغوريين.(١٤)

وتوسل أمراء فارس بعد مدة من العصيان بطوغان القائد العسكري الإقليمي المغولي السابق لقهستان والذي كان له نفوذ كبير آنذاك في بلاط الإيلخان وتعهدوا بسداد مبلغ خمسمئة تومان كبقايا لضرائب فارس إلى الخزانة. فأصدر أرغون مرسوماً بحكم فارس باسمهم وتم إيفاد محصلين

من قبل الإيلخان ونائب من قبل طوغان معهم. ولم يكن جمع هذا المبلغ من أهالي فارس أمراً ممكناً بعد ما عانوه من قحط وظلم من عمال الديوان. فعذَّبَ المحصلان الأهالي تعذيباً شديداً؛ وفي النهاية تركا نائب طوغان في فارس وعادا بما جمعاه من مال إلى المعسكر. وتزامنت عودتهما مع تعيين سعد الدولة اليهودي وزيراً لأرغون. وقام سعد الدولة بإيفاد جوشي المحصل السابق لضرائب فارس مع شمس الدولة اليهودي وعز الدين مظفر بن عميد إلى الإقليم وأضرموا نار الفتنة فيه وأعملوا القتل في معظم أعيانه وأمرائه؛ وصدرت معظم هذه التصرفات عن جوشي نفسه. أما شمس الدولة فاتبع سبيل الحسنى مع الأهالي وكان رجلاً حكيماً ومحباً للعلم وعادلاً؛ لذا فإن أهالي شيراز لم يمسوه بأذى في واقعة قتل سعد الدولة وأعوانه من اليهود.

وفي عهدي كيخاتو وبايدو، أوشكت الأوضاع في فارس على الانهيار؛ فامتنع معظم الأعيان المحليون عن دفع الأموال الديوانية ومنعوا مبعوثي الإيلخان من دخول المدينة إلى أن تولى غازان العرش. ولما أحس الإيلخان الجديد بالقلق من اضطراب الأوضاع في فارس أوفد الأمير هرقداق لإصلاح الأمور فيه.

وبداية من عام ٦٩٢هـ، أعطى كيخاتو خان إقليم فارس براً وبحراً مقاولة لشيخ الإسلام جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبي لمدة أربع سنوات نظير مبلغ ألف تومان، ولقبه بملك الإسلام وأوفده إلى شيراز. وقام الشيخ جمال الدين بسداد مبلغ المقاولة نقداً في السنة الأولى. وأمر الإيلخان حكام فارس من المغول بألا يرسلوا عمالاً ونواباً من قبلهم إلى أطراف الإقليم. ولم يكن عز الدين مظفر عميد وهو أحد عمال صدر جهان الزنجاني وكان له نفوذ غير عادي على الوزير ودفعه في النهاية إلى استحداث العملات الورقية كما سبقت الإشارة راضياً عن استقلال شيخ الإسلام في إقليم فارس وكان دائم السعي للإطاحة به ولم يكف عن الكيد له عند الإيلخان وصاحب الديوان إلى أن عهد إليه في أواخر عهد كيخاتو بجمع ضرائب فارس، وذهب شيخ الإسلام إلى المعسكر.

بعد مقتل كيخاتو، أبقى بايدو على مقاولة عوائد فارس للشيخ جمال الدين كما كانت في عهد الإيلخان السابق، وعيَّن الشيخ أخاه فخر الدين أحمد لجمع ضرائب السواحل، وتمكَّن في مدة وجيزة من جمع أموال طائلة من التجارة البحرية وإدارة فارس، وأنقذ تلك المناطق من تعديات العمال وظلمهم لمدة من الزمن.

بعد أن ألحق سوغنجاق الهزيمة بمحمود القلهاني والي هرمز في سنة ٦٧٠هـ، ظلت جزر الخليج تحت سيطرة ابنه نصرت لعدة سنوات. وأقدم ركن الدين مسعود شقيق نصرت على قتل أخيه وزوجته واستولى على هرمز. وثار أحد غلمان زوجة ركن الدين مسعود ويدعى بهاء الدين إياز من فعلة ركن الدين وأعلن عصيانه وهزم ركن الدين وفرض سيطرته على هرمز. فلجأ مسعود إلى ملك كرمان وتمكن بمساعدته من طرد إياز من هرمز. وتوسل إياز بالشيخ جمال الدين ملك الإسلام وتمكن بمساعدته من هزيمة مسعود. وأغار مسعود في طريق هروبه على جزيرتي لارك وجرون (جزيرة هرمز الحالية) واستولى في البحر على ما يقدر بمئتي تومان من الذهب والحرير والأقمشة النفيسة الخاصة بملك الإسلام فاسترد اعتباره من جديد وأخذ يُعدُّ العدة لمنازلة إياز. وجاءت قوات إياز وملك الإسلام من ناحية هرمز وكيش وأنزلت الهزيمة بمسعود، واستقر بهاء الدين إياز في هرمز وتلا الخطبة وضرب السكة باسم الملك فخر الدين أحمد شقيق ملك الإسلام.

وفي سنة ٦٩٥هـ، عزم ملك الإسلام على الذهاب إلى السواحل والجزر، إلا أن نزاعاً قد دبَّ بين قوات فخر الدين أحمد وبهاء الدين إياز، إلا أن إياز لم يجحد فضل ملك الإسلام فاسرع إليه واعتذر عن تصرفات قواته وعاد إلى منصبه السابق.

وفي أثناء سفر ملك الإسلام إلى هرمز، جاء الأمير هرقداق بأمر من غازان خان وتحريض عز الدين مظفر إلى شيراز لتصفية حسابات مع ملك الإسلام. وبدأ بالقسوة في التعامل مع عماله، إلا أنه سرعان ما تذكَّر أمر الإيلخان باستمالة ملك الإسلام وإحضاره إلى المعسكر. وبمجرد عودته من هرمز، أسرع ملك الإسلام إلى بلاط غازان وقدم له الهدايا الثمينة، فحظى مرة أخرى بعطف الإيلخان الذي أعاده في سنة ٦٩٦هـ إلى شيراز وسلمه عز الدين مظفر. فحاكمه ملك الإسلام في حضور غازان وصادر أمواله وأملاكه ثم قتله بحكم إيلخاني.

وبعد دفع شر عز الدين مظفر شرع ملك الإسلام في تسوية حساباته في حضور صاحب الديوان وقام بسداد مبلغ قدره مئة وسبعين توماناً، مما زاد من عطف الإيلخان عليه وحصل ملك الإسلام على مقاولة بضرائب بلاد العراق والبصرة وواسط لمدة ثلاث سنوات (من بداية ٦٩٦هـ إلى ٦٩٨هـ).

وبعد عودة ملك الإسلام إلى شيراز، أمر غازان بكف يد إياز عن هرمز. وسر ركن الدين مسعود بهذا الخبر وذهب إلى ملك الإسلام بغرض الانتقام من إياز وتكفل بأداء هذه المهمة. وأرسل إياز الرسل إلى ملك الإسلام لتقديم فروض الطاعة، إلا أن سعيه لم يحظ بالقبول، وخرج ركن الدين مع قوات من المغول وقبائل إقليم فارس لسحق إياز. فاستجمع إياز شجاعته وألحق الهزيمة بجيش ركن الدين وملك الإسلام بالقرب من جزيرة كيش، مما اضطر ملك الإسلام إلى إيفاد رسول إلى إياز بطلب الصلح.

وفي فترة تعاقد ملك الإسلام، وصلت العلاقات التجارية بين سواحل فارس والممالك الإسلامية في السند وغرب الهند والتي كانت قد زادت في عهد الأتابكة إلى درجة بعيدة من الازدهار خاصة حين تولى تقي الدين عبدالرحمن شقيق ملك الإسلام الآخر وزارة ملوك هذه المناطق. ونشأت تجارة مهمة بين إقليم فارس والسواحل الغربية للهند؛ وكانت أهم سلعة يتم تصديرها من فارس إلى الهند هي الخيول. ففي عهد الأتابك أبي بكر، كان يتم تصدير عشرة آلاف رأس من الخيول سنوياً إلى الهند بعائد قدره قرابة مليونين ومئتي ألف دينار لإقليم فارس. وفي عهد ملك الإسلام، ازدادت هذه التجارة ازدهاراً، وكان عمال ملك الإسلام يجهزون الخيل من فارس وجزر الخليج وعمان وهرمز وقلهات وقطيف والأحساء ويبيعون الرأس بمئتين وعشرين ديناراً، وكان يباع لحساب ملك الإسلام وحده ألف وأربعمئة رأس سنوياً، فجمع ثروة طائلة من هذه التجارة.

وفي سنة ٦٩٨هـ، تعرض إقليم فارس للجفاف والقحط والوباء وحُصِدَتْ أرواحُ كثير من الناس في تلك الكارثة. فهلك في شيراز وحدها ما يقرب من خمسين ألف نسمة. وانحسر القحط في العام التالي ونما محصول جديد؛ وجاء عمال الديوان الغلاظ الشداد إلى فارس لجمع الضرائب المتأخرة، وساموا نصف أهليه العذاب وأجبروا ملك الإسلام على دفع تسعة وثلاثين توماناً عن عامي ٦٩٧هـ و٦٩٨هـ. وبدأت أوضاع الإقليم في التدهور نتيجة للقحط والأوبئة وظلم عمال الديوان.

وفي السنة التالية أي ٦٩٩هـ، حين انشغل غازان في الحملة على الشام، زحفت على إقليم فارس جماعة من المغول الجغتائيين الذين كانوا قد استولوا من قبل على غور وغرجستان وأطراف

هرات وسيستان. وأغارت هذه الجماعة على المدن الواقعة على طريق كرمان ووصلت إلى شيراز، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، واضطروا للمضي نحو كازرون وقلبوا منطقة ساحل البحر وضواحي شوشتر رأساً على عقب وعادوا إلى هرمز بغنائم وفيرة. ولكنهم هزموا على يد بهاء الدين إياز فعادوا إلى مواطنهم الأولى. وبعد عودة غازان من الشام، أرسل أولجايتو على رأس جيش كبير لسحق المغول الجغتائيين، فأطبق عليهم على حدود بلخ.

أما ملوك شبانكاره فظلوا يحكمون ولايات أسلافهم بالتوارث حتى سنة ٧٥٦هـ، وكان آخرهم الملك أردشير الذي هزم في سنة ٧٥٦هـ على يد آل مظفر، فاندثر ملوك شبانكاره بذلك.

أتابكة إقليم فارس:

١- الأتابك سنغر بن مودود	من ٥٤٣هـ إلى ٥٥٨هـ
٢- الأتابك زنكي بن مودود	من ٥٥٨هـ إلى ٥٧١هـ
٣- الأتابك تكلة بن زنكي	من ٥٧١هـ إلى ٥٩٠هـ
٤- الأتابك طغرل بن سنغر بن مودو د	من ٥٩٠هـ إلى ٥٩٩هـ
٥- الأتابك سعد بن زنكي	من ٥٩٩هـ إلى ٦٢٣هـ
٦- الأتابك أبو بكر بن سعد	من ٦٢٣هـ إلى ٦٥٨هـ
٧- الأتابك سعد بن أبي بكر	في ٦٥٨هـ (١٢ يوماً)
٨- الأتابك محمد بن سعد	من ٦٥٨هـ إلى ٦٦٠هـ
٩- الأتابك محمدشاه بن سلغور بن سعد	من ٦٦٠هـ إلى ٦٦١هـ
١٠- الأتابك سلجوقشاه بن سلغور	من ٦٦١هـ إلى ٦٦٢هـ
١١- الأتابك أبش بنت سعد بن أبي بكر	من ٦٦٢هـ إلى ٦٦٣هـ



ملوك شبانكاره:

١– فضلوية	من ٤٤٨هـ إلى ٤٥٩هـ
٢– نظام الدين يحيي بن حسن	من ٤٥٩هـ
٣– نظام الدين محمود بن نظام الدين يحيى	
٤– قطب الدين مبارز	إلى ٦٢٤هـ
٥– الملك مظفر الدين محمد بن المبارز	من ٦٢٤ إلى ٦٥٨هـ
٦– قطب الدين مبارز بن الملك مظفر الدين	من ٦٥٨هـ إلى ٦٥٩هـ
٧. نظام الدين حسن بن محمد بن مظفر الدين	من ٦٥٩هـ إلى ٦٦٢هـ
٨– نصرة الدين إبراهيم شقيق نظام الدين حسن	من ٦٦٢هـ إلى ٦٦٤هـ
٩– جلال الدين طيب شاه	من ٦٦٤هـ إلى ٦٨١هـ
١٠– بهاء الدين إسماعيل شقيق طيب شاه	من ٦٨١هـ إلى ٦٨٨هـ
١١– نظام الدين حسن بن طيب شاه	من ٦٨٨هـ إلى ٧٢٥هـ
١٢– نصرة الدين إبراهيم بن إسماعيل	من ٧٢٥هـ إلى
١٣– الملك ركن الدين حسن	
١٤– تاج الدين جمشيد بن إسماعيل	من ٧٣٥هـ إلى ٧٤٢هـ
١٥– الملك أردشير	من ٧٤٢هـ إلى ٧٥٦هـ

٣– أتابكة يزد:

أتابكة يزد فرع من ديالمة كاكويه. وكان جد هؤلاء الديالمة هو أبو جعفر عضد الدين علاء الدولة محمد بن دشمنزيار رستم بن مرزبان الديلمي ابن خال سيدة خاتون والدة مجد الدولة الديلمي. والخال باللغة الديلمية يقال له «كاكويه»؛ لذا فقد اشتهر الأمير علاء الدولة بعلاء الدولة كاكويه وتعرف أسرة أبنائه بديالمة كاكويه.

تم تنصيب أبي جعفر عضد الدين محمد أو علاء الدولة كاكويه في سنة ٣٩٨هـ حاكماً

لأصفهان من قبل سيدة خاتون ابنة عمه. وكان رجلاً ذا فضل ومحباً للأدب، وحكم أصفهان وهمدان لمدة خمسة وثلاثين عاماً، وعمل ابن سينا لمدة في بلاطه وألف كتابه دانشنامه علائي باسمه.

وبعد علاء الدولة كاكويه، دب النزاع بين أبنائه أبي كاليجار علاء الدين جرشاسف وأبي حرب وظهير الدين أبي منصور فرامرز. ولكي يكف أبو حرب يد أخيه الأكبر ظهير الدين، توسل تارة بطغرل الأول السلجوقي وتارة أخرى بديالمة آل بويه إلى أن انتزع طغرل أصفهان من ظهير الدين في سنة ٤٤٢هـ؛ وفي محرم ٤٤٣هـ، ترك له يزد وأبرقو عوضاً عنها. ومنذ ذلك الوقت عرف الديالمة الذين حكموا يزد بأتابكة يزد.

كان أبو كاليجار جرشاسف حاكماً لهمدان في عهد أبيه، وطرده السلاجقة منها في سنة ٤٣٧هـ، فلجأ إلى ديالمة آل بويه في فارس وعين حاكماً للأهواز من قبل فولاد ستون وظل في هذا المنصب حتى توفي في ٤٤٣هـ.

وبعد ظهير الدين أبي منصور فرامرز، آلت أتابكية يزد إلى ابنه الأمير علاء الدولة علي. وتزوّج علاء الدولة في سنة ٤٦٩هـ من ابنة جغري بيك ابنة عم السلطان ملكشاه التي كانت زوجة للخليفة العباسي القائم بأمر الله. وكان علاء الدولة هذا ثاني ممدوحي أمير الشعراء معزي النيسابوري.[١٥] ووالده هو برهاني. وقد قتل في سنة ٤٨٨هـ في الحرب بين بركيارق وعمه تُتش.

وبعد علاء الدولة علي، آلت أتابكية يزد إلى الأمير فرامرز ابنه من ابنة جغري بيك. وكان يعيش في كنف السلطان سنجر ويقاتل في صفوف جيشه إلى أن قتل في سنة ٥٣٦هـ في موقعة قطوان ضد القراخطائيين، فترك سنجر أتابكية يزد لابنتي الأمير فرامرز، وعين شخصاً من ملازميه الديالمة ويدعى ركن الدين سام الذي كانت أمه ابنة الأمير علاء الدولة علي وأخاه عز الدين نائبين لهاتين البنتين، فحكموا يزد من قبل السلاجقة وبالنيابة عن ابنتي الأمير فرامرز.

تزامن غزو المغول للعراق مع أتابكية علاء الدولة ابن الأتابك سام في يزد؛ وكان قد تولى هذا المنصب منذ سنة ٥٧٦هـ، وكان السلطان جلال الدين منكبرني يناديه بالوالد ويوليه احتراماً بالغاً. وحين اشتبك جلال الدين مع المغول قرب أصفهان، كان هذا الأتابك في ركابه وقتل في هذه

الموقعة في سنة ٦٢٥هـ.

وبعد الأتابك علاء الدولة بن سام، آلت أتابكية يزد إلى قطب الدين محمود ابن الأمير عز الدين. وكان قطب الدين معاصراً لبراق الحاجب مؤسس أسرة قراخطائيي كرمان، وتزوج براق إحدى بناته.

وبعد الأتابك قطب الدين، آلت أتابكية يزد إلى ابنه شاه علاء الدين حفيد براق الحاجب. وكان هذا الأتابك شقيق تركان خاتون زوجة الأتابك سعد بن زنكي السلغوري الذي استنجد بهولاكو بعد مقتل أخته وخاض المغول الحرب ضد الأتابك سلجوق شاه ثأراً لمقتلها.

وبعد الأتابك علاء الدين، آلت أتابكية يزد إلى ابنه يوسف شاه، وكان معاصراً لأرغون خان (٦٨٣-٦٩٠هـ) والأتابك أفراسياب أتابك لرستان. وكان هذا الأتابك قد امتنع في أواخر عهد أرغون عن سداد الخراج المقرر للديوان وقتل رسل أرغون؛ وتزامنت هذه الواقعة مع وفاة أرغون. وأرسل الأمراء الإيلخانيون قواتهم لسحق يوسف شاه والأتابك أفراسياب اللري وكانا قد أعلنا عصيانهما في وقت واحد. وقبل وصول جند المغول، غادر يوسف شاه يزد خوفاً ولجأ إلى الأمير نوروز بخراسان. ووصل المغول إلى يزد وضربوا حصاراً حولها واشتبكوا في قتال مع أحد عمال الأتابك يوسف شاه الذي تركه نائباً عنه في يزد. وبعد ثلاثة أيام من الحصار، استولوا على المدينة وأقاموا مذبحة لأهلها وأسروا عدداً كبيراً منهم وتم ضم يزد من الناحية المالية للممالك الإيلخانية، وأعطى بايدو مقاولة ولاية يزد في سنة ٦٩٤هـ لسلطان شاه ابن الأمير نوروز نظير عشرة آلاف دينار سنوياً؛ إلا أن الحكومة الاسمية لأتابكة يزد كانت قد زالت.

وآخر أتابكة يزد هو حاجي شاه بن يوسف شاه الذي هزم في سنة ٧١٨هـ كما سنرى فيما بعد على يد الأمير مبارز الدين محمد بن مظفر مؤسس أسرة آل مظفر، ودالت دولة أسرة أتابكة يزد التي حكمت هذه الولاية قرابة ثلاثمئة سنة.

أتابكة يزد:

١- ظهير الدين أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة كاكويه	من ٤٣٣هـ إلى
٢- علاء الدولة علي بن فرامرز	إلى ٤٨٨هـ
٣- الأمير فرامرز بن علاء الدولة علي	من ٤٤٨هـ إلى ٥٣٦هـ
٤- الأتابك سام وشقيقه عز الدين	من ٥٣٦ هـ إلى ٥٧٦هـ
٥- علاء الدولة بن سام	من ٥٧٦ هـ إلى ٦٢٥هـ
٦- قطب الدين محمود شاه بن عز الدين	من ٦٢٥هـ إلى
٧- شاه علاء الدين بن قطب الدين	من ٦١٦هـ إلى ٦٦٢هـ
٨- يوسف شاه بن علاء الدين	من ٦٦٢ إلى ٦٩٠هـ
٩- حاجي شاه بن يوسف شاه	من ٦٩٠ إلى ٧١٨هـ

٤- قراخطائيو كرمان:

تحدثنا من قبل عن تأسيس أسرة القراخطائيين في كرمان وعن أحوال مؤسسها براق الحاجب الملقب بقتلغ خان وذكرنا انّ هذه الأسرة كانت تعرف أيضاً باسم القتلغ خانية.

كان براق الحاجب كما سبقت الإشارة من كبار أمراء السلطان غياث الدين ابن السلطان محمد خوارزمشاه. وعندما وصلت طلائع جيش جنكيز إلى العراق، استأذن براق السلطان غياث الدين للذهاب بحشمه إلى الهند عن طريق كرمان. وعندما وصل إلى كرمان، قام شجاع الدين أبو القاسم الأعور الزوزني قائد قلعة جواشير من قبل السلطان غياث الدين بقطع الطريق عليه، إلا أنه انهزم على يد براق ورفاقه، واستولى براق على كرمان في سنة ٦١٩هـ، وأسس منذ ذلك الوقت الأسرة القراخطائية بكرمان. وقد سبقت الإشارة إلى علاقته بالسلطان جلال الدين منكبرني وشقيقه غياث الدين ضمن حديثنا عن هذا السلطان.

توفي براق في سنة ٦٣٢هـ؛ وكان طوال مدة حكمه مطيعاً لآل جنكيز، وقد أبقى عليه كل من جنكيزخان وأقطاي حاكماً لكرمان بلقب قتلغ خان.

قطب الدين وركن الدين (٦٣٢-٦٥٦هـ):

كان لبراق الحاجب ولد وأربع بنات. وقد تزوج إحدى بناته قطب الدين محمودشاه أتابك يزد كما سبقت الإشارة. وكان ابنه ركن الدين مبارك خواجه قد ذهب لمقابلة اقطاي لتقديم فروض الطاعة من قِبَلَ براق في السنة التي توفي فيها والده. وعندما توفي براق في غياب ركن الدين عن كرمان، استولى ابن عمه قطب الدين محمد علي حكم كرمان؛ إلا أن اقطاي أصدر مرسوم حكمها باسم ركن الدين، واستدعى إليه قطب الدين وأوفده إلى محمود يلواج بالصين. ودخل ركن الدين كرمان في ٢٨ شعبان ٦٣٣هـ وتولى خلافة أبيه.

عاش قطب الدين في بلاط محمود يلواج حتى وفاة جيوك. وعندما تولّى منجو قاآن العرش (٦٤٨هـ)، حصل محمود يلواج على مرسوم ولاية كرمان من الخان الجديد باسم قطب الدين؛ واضطر ركن الدين إلى اللجوء إلى الأتابك علاء الدين زوج أخته بيزد في سنة ٦٥٠هـ، ومنها عزم على المضي إلى بغداد ثم لرستان؛ ولكن قبل وصوله إلى بغداد ذهب إلى بلاط منجو قاآن بناء على مشورة من أحد أمراء المغول؛ وأرسله منجو قاآن إلى قطب الدين، فقتله قطب الدين في سنة ٦٥١هـ وأصبح ملك كرمان خالصاً له.

اتسمت فترة حكم قطب الدين لكرمان بالهدوء. وفي عهده، ظهر من يدعي أنه جلال الدين منكبرني وجمع حوله عدد من الناس وقامت فتنة. وأخمد قطب الدين هذه الفتنة وسحق قطاع الطرق في بلوچ، وقدم لهولاكو فروض الطاعة إبان غزوه لإيران. وتوفي في سنة ٦٥٦هـ.

السلطان حجاج (٦٥٦-٦٦٦هـ):

بعد أربعة أشهر من استيلاء قطب الدين على كرمان، تزوّج بقتلغ تركان زوجة عمه براق الحاجب. وكانت امرأة حكيمة شاركت زوجها إدارة شؤون الحكم. وعندما توفي قطب الدين، أوفدت قتلغ تركان رسولاً إلى هولاكو تبلغه بوفاة زوجها؛ فأصدر هولاكو مرسوم حكم كرمان لأبنائه الصغار تكريماً لقطب الدين، وعين قتلغ تركان نائبة لهم. فولت قتلغ تركان ابن زوجها الصغير حجاج ملكاً وتولت إدارة شؤون الحكم باسمه وقامت بتزويج إحدى ابنتيها وهي پادشاه

خاتون لأباقا خان فعززت بذلك من مكانتها.

وظلت قتلغ تركان تحكم كرمان باسم ابن زوجها لمدة خمس عشرة سنة. وعملت طوال تلك الفترة على نشر العدل ورفاهية الرعية ورعاية أهل العلم والأدب وبناء المنشآت الخيرية وخلَّدت ذكراها بأعمالها الحسنة؛ وكانت ثابتة على طاعتها لإيلخان إيران؛ ففي سنة ٦٦٨هـ، حين شن أباقا خان حملة لسحق براق، أرسلت إليه ابن زوجها السلطان حجاج على رأس جيش، فحظي حجاج باهتمام أباقا وعنايته. إلا أن حجاج بعد عودته إلى كرمان، أهان الخاتون وأجبرها على الرقص أمام الحاضرين في مجلس للشراب؛ وقد أطاعته قتلغ تركان حين أدركت شدة سكره، إلا أنها تألمت من هذه الواقعة وذهبت إلى ابنتها پادشاه خاتون في مخيم أباقا. فأمر الإيلخان بعدم تدخل حجاج في شؤون الحكم. وكان حجاج قد أعرب عن عدائه لأباقا في غياب الملكة؛ فغادر كرمان خوفاً منه وذهب إلى الهند في سنة ٦٦٦هـ، وعادت قتلغ تركان إلى حكم كرمان مرة أخرى من قبل أباقا. واستمد حجاج العون العسكري من ملوك الهند واتجه إلى كرمان لانتزاع ملكها. إلا أنه سقط مريضاً في الطريق وتوفي في سنة ٦٧٠هـ.

ظلت قتلغ تركان تحكم كرمان بلا منازع حتى سنة ٦٨١هـ. وفي تلك السنة، ذهب جلال الدين سيورغتمش ابن قطب الدين الآخر وشقيق السلطان حجاج إلى بلاط السلطان أحمد خان وحصل منه على مرسوم بحكم كرمان؛ ولكن قبل وصوله إلى كرمان، كانت قتلغ تركان قد عزمت على الذهاب إلى معسكر الإيلخان سعياً لإلغاء المرسوم الإيلخاني. والتقى بها جلال الدين وسط الطريق وعرض عليها المرسوم الإيلخاني، فسقطت قتلغ تركان مغشياً عليها لدى اطلاعها على المرسوم. وحين أفاقت، أسرعت إلى السلطان أحمد خان، إلا أنه لم يُلَبِّ طلبها. فماتت كمداً في تبريز.

سيورغتمش (٦٨١-٦٩١هـ):

لم يكن جلال الدين سيورغتمش وشقيقه حجاج ابني قتلغ تركان. وقد استقل سيورغتمش بحكم كرمان منذ سنة ٦٨١هـ. ونظراً لعناية السلطان أحمد الفائقة به، فقد خاف على نفسه من

أرغون خان بعد توليه العرش؛ إلا أنه اضطر لطاعة أمر أرغون بالحضور إلى المعسكر. وحاكمه أرغون وحكّم بينه وبين شقيقته پادشاه خاتون زوجة أباقا وابنة قتلغ تركان والتي كانت تعتبر نفسها أحق بحكم كرمان. وفي النهاية، توسط پولاد چينك سانك وزوّج پادشاه خاتون للأمير كيخاتو وأرسلها معه إلى بلاد الروم، وزوّج كردوجين (كردوجين) ابنة منجو تيمور بن هولاكو والأتابك أبش خاتون لجلال الدين سيورغتمش؛ كما زوّج سيورغتمش ابنته شاه عالم للأمير بايدو. ثم دخل جلال الدين وكردوجين كرمان بكل إجلال وأمسكا بزمام الحكم فيها، وظلا يحكمان معاً طوال مدة إيلخانية أرغون. وكان سيورغتمش في تلك الفترة قد فتح مكران. وعندما أعلن الأتابك يوسف شاه والأتابك أفراسياب العصيان، امتنع هو أيضاً عن سداد خراج كرمان.

وعندما آل عرش الإيلخانية لكيخاتو، تعللت پادشاه خاتون بشوقها لوطنها، واستأذنت زوجها وذهبت إلى كرمان. وفي سنة ٦٩١هـ أطبقت على أخيها سيورغتمش واعتقلته وألقت به في سجن إحدي القلاع. وتمكنت كردوجين وبعض أعوان سيورغتمش من مساعدته على الهرب من سجنه؛ ولكن سرعان ما اعتقله كيخاتو وأرسله إلى پادشاه خاتون فقتلته في رمضان ٦٩٣هـ.

پادشاه خاتون (٦٩١-٦٩٤هـ):

كانت پادشاه خاتون ابنة قطب الدين محمد وقتلغ خاتون امرأة مدبرة وفاضلة وجميلة. وبعد إلقاء سيورغتمش في السجن، تولت إدارة شؤون الحكم في كرمان بمقتضى مرسوم من كيخاتو، وحكمت باسم حسن شاه. وظلت مستقلة في حكم تلك الولاية طوال حياة زوجها كيخاتو. ولكن حين آل عرش الإيلخانية لبايدو وتزوّج بشاه عالم ابنة سيورغتمش، أوعزت إلى بايدو بتنحية پادشاه خاتون ثأراً لدم أبيها بايدو؛ كما ظهرت كردوجين زوجة سيورغتمش تطالب بالقصاص لزوجها. فأمر بايدو بإرسال جيش من فارس وشبانكاره لسحق پادشاه خاتون. ورافقت كردوجين هذا الجيش في زحفه على كرمان. فحاصرت كردوجين المدينة. ولما وجدت پادشاه خاتون ألا قدرة لها على المقاومة، فتحت بوابات المدينة أمام زوجة أخيها. فدخلت كردوجين كرمان واعتلت العرش وألقت القبض على پادشاه خاتون وأمرت بقتلها انتقاماً لقتل زوجها في شعبان ٦٩٤هـ بإصرار من

شاه عالم وبأمر من بايدو.

«استباحت پادشاه خاتون قتال أخيها سيورغتمش بتحريض من حساده؛ ومع ذلك كانت پادشاه خاتون امرأة عالمة وعادلة وتحمل العديد من الخواص المميزة. وكانت محبة للفنون وتجيد الخط وتقرض الشعر وترعى العلماء والأدباء وكان بلاطها مجمعاً للفضلاء والبلغاء وازدهر الشعر في عهدها. وأجرت معاشاً لأهل الفضل وأنشأت المدارس وأمرت بترميم العديد من المنشآت وأوقفت عليها أوقافاً عديدة. وكان بلاطها دائماً يشهد المناقشات حول العلم والشعر. وكانت شاعرة فصيحة. وقد أوردنا هنا بعض أبيات لها حتى يعرف العالم فضلها:

مع أني ابنة سلطان — وفاكهة بستان قلوب الأتراك
فإني أضحك من السعادة — ولكني أبكي من غربة لا تنتهي

وتلت الرباعية التالية في حضور كيخاتو:

في اليوم الذي عرضوه في الأزل — أراحوا قلوب المحبين
شجار الشفاه حين نبت السكر منك — وضعه في مصر ثلاثة شيوخ في فمها

ونظمت الرباعية التالية في التفاح:

التفاحة التي تصلني من يدك خفية — تمد روحي بحياة خالدة
حين يضحك قلبي من الفرح — تصل شفتاك إلى روحي

ونظمت القطعة التالية عن نفسها:

أنا امرأة كل أفعالها حسنة — تحت حجابي كثير من الشاكين
كل من أعطيها حجاباً تبوح بسري — فمكان الحجاب تاج بألف دينار
قلب العصمة متكاي — ويصعب العبور على المسافرين في ريح الصبا
ليست كل امرأة سيدة بحجابها — وليست كل رأس فوقها قلنسوة تصلح للقيادة
أنا حسن شاه من نسل قرا الغ سلطان — منا القيادة لو كانت في الدنيا قيادة

وكانت هذه السيدة الفاضلة زوجة لملك الدنيا أباقا خان لمدة خمس عشرة سنة، وكانت زوجة لأخيه كيخاتو لمدة من الزمن، وتعلمت منهما أصول الملك وتقاليده. كما وضعت أسس العدل في

كرمان وأحييت تقاليد أنوشروان وأسرت كل فئات الناس بفضلها ومنها وخصّتْ أرباب العمائم بصِلاتها السخية» (مجمع الأنساب شبانكاره اي)

مظفر الدين محمد (٦٩٤-٧٠٢هـ):

عندما اعتلى غازان خان عرش الإيلخانية، أرسل مظفر الدين محمد شاه ابن السلطان حجاج حاكماً لكرمان، وذهب محمد إلى كرمان في ذي الحجة ٦٩٤هـ. وأرسل غازان بصحبته القاضي فخر الدين عبدالله قاضي هرات وزيراً له. وكان مظفر الدين محمد رجلاً ذا همة وكريماً، ولكنه كان سكيراً ويقضي معظم أوقاته في الصيد أو في خيمته. وقد صمم القاضي فخر الدين على أثر الخلاف الذي دبَّ بينه وبين محمد شاه أن يولّي قطب الدين شاه جهان ابن جلال الدين سيورغتمش مكانه ملكاً على كرمان. ونظراً لإخلاص رشيد الدين فضل الله وخواجه سعد الدين آوجي للقاضي فخر الدين، فقد استدعيا محمد شاه إلى المعسكر وأرسلاه بصحبة غازان إلى الشام ووليا القاضي فخر الدين حاكماً على كرمان في سنة ٦٩٩هـ.

وضاق محمود شاه شقيق محمد شاه ذرعاً بتحكم القاضي فخر الدين، فتحالف مع فئة من التركمان السلاجقة يُعْرَفون بالجغراتيين واستولى على كرمان بعون منهم وقتل القاضي فخر الدين في ٢٧ ربيع الآخر ٦٩٩هـ وفرض سيطرته على المدينة.[١٧]

وبعد وصول نبأ عصيان محمود شاه، أصدر غازان وهو في طريقه إلى الشام أمره لقائد أصفهان المغولي وأتابك لرستان وملك شبانكاره وجيش فارس بالتوجه إلى كرمان لسحق تمرده. فتوجه نصرة الدين أحمد أتابك لرستان ونظام الدين حسن بن جلال الدين طيب شاه ملك شبانكاره وساداق نويان قائد فارس المغولي وجيشا يزد وأصفهان إلى كرمان وحاصروها. وظل محمود شاه يقاوم لمدة عشرة أشهر؛ ولكن نظراً لوقوع القحط في المدينة فقد اضطر للتسليم،[١٨] واعتقله ساداق بيك وأرسله بكل إذلال إلى المعسكر؛ إلا أن محمود شاه تناول السم في الطريق وتوفي بالقرب من همدان في سنة ٦٩٩هـ.

وبعد تمرد محمود شاه، أعاد غازان خان محمد شاه حاكماً لكرمان من جديد. وكان محمد

شاه سيئ الظن وساخطاً، فقتل كثيراً من الناس بعد عودته، وكان يفرط في الشراب، لذا فإنه لم يعمِّر طويلاً، وتوفي في سنة ٧٠٢هـ عن تسع وثلاثين سنة. ولم يجد غازان من هذه الأسرة سوى قطب الدين شاه جهان بن جلال الدين سيورغتمش، فولاه على كرمان. إلا أن قطب الدين كان يفتقر إلى التجربة ويميل إلى العزلة، فعزله أولجايتو بعد تتويجه إيلخاناً، فبادت بذلك أسرة قراخطائيي كرمان.

وكانت لقطب الدين شاه جهان ابنة تدعى مخدومشاه خان قتلغ تزوجها الأمير مبارز الدين محمد بن مظفر، وهي والدة معظم ملوك آل مظفر. وبعد عامين ونصف العام في الملك تمَّ عزله من الحكم، ذهب قطب الدين إلى شيراز والتحق بخدمة كردوجين زوجة أبيه وانزوى عن الناس إلى أن وافته المنية.

قراخطائيو كرمان:

١- براق الحاجب بن كلدوز	من ٦١٩هـ إلى ٦٣٢هـ
٢- ركن الدين مبارك خواجه بن براق	من ٦٣٢هـ إلى ٦٥٠هـ
٣- قطب الدين محمد ابن شقيق براق	من ٦٥٠هـ إلى ٦٥٥هـ
٤- السلطان حجاج ابن قطب الدين وأمه عصمة الدين قتلغ تركان زوجة قطب الدين	من ٦٥٥هـ إلى ٦٨١هـ
٥- جلال الدين سيورغتمش بن قطب الدين	من ٦٨١هـ إلى ٦٩١هـ
٦- صفوة الدين پادشاه خاتون ابنة قطب الدين	من ٦٩١هـ إلى ٦٩٤هـ
٧- مظفر الدين محمد شاه بن السلطان حجاج	من ٦٩٤هـ إلى ٧٠٢هـ
٨- قطب الدين شاه جهان بن سيورغتمش	من ٧٠٢هـ إلى ٧٠٣هـ

أسرتا إينجو وآل مظفر:

بعد أن اعتلى أبو سعيد خان عرش الإيلخانية، أولى عنايته للأميرة كردوجين ابنة أبش خاتون ومنجو تيمور وزوجة سيورغتمش القراخطائي لما أبدته من إخلاص وكفاءة في إدارة شؤون الحكم

بعد وفاة أولجايتو وحتى مجئ أبي سعيد إلى سلطانية؛ فعيَّنَها في مستهل سنة ٧١٩هـ حاكمة لفارس. ونظراً لما كانت تتمتع به من حكمة وتدبير وحب للخير، فقد عملت على نشر العدل وإنشاء المنشآت الخيرية، فبنت اثنتي عشرة مدرسة ورباطاً وبيمارستاناً ومسجداً وأقامت سداً وأجرت عليها الأوقاف. وفي مقابل ما أرسلته من هدايا نفيسة لأبي سعيد أعفاها الإيلخان من دفع الضرائب بمقتضى فرمان أيلخاني.

ولا نعلم متى توفيت كردوجين؛ وكل ما نعلمه هو أنها في تلك الفترة من حكمها تزوجت القائد العسكري المغولي لشيراز ثم تزوَّجتْ بالأمير چوپان، وكانت في سنة ٧٢٩هـ لاتزال تحكم في شيراز. ففي ذلك العام، جاء إليها مبارز الدين محمد بن مظفر من يزد إلى كرمان وتزوج مخدومشاه ابنة قطب الدين وعاد بها إلى يزد.

وفي فترة حكم كردوجين لإقليم فارس، أوفد الأمير چوپان أحد ملازميه ويدعى شرف الدين محمود وهو وكيل الأملاك الخاصة الإيلخانية وزيراً لفارس وكرمان ويزد وكيش والبحرين. وأسرع شرف الدين محمود الذي كان يدَّعي انتسابه إلى خواجه عبدالله الأنصاري بوضع ممالك إيران الجنوبية من أصفهان وحتى جزر الخليج تحت إدارته المالية وأصبح يعرف بالأمير شرف الدين محمود شاه إينجو. وجمع من هذا الطريق ثروة طائلة حتى بلغ عائد أملاكه الخاصة في أواخر عهد أبي سعيد مئة تومان سنوياً. وقد استقل محمود شاه بتلك المناطق بعد كردوجين؛ ونظراً لكفاءته وذكائه فقد كان يتحدث بجرأة في حضور أبي سعيد. وقد عزله أبو سعيد من حكم فارس في سنة ٧٣٤هـ كما رأينا، إلا أن محمود شاه لم يذعن لهذا الأمر وأعلن عصيانه وعفا أبو سعيد عن دمه بوساطة من خواجه غياث الدين الرشيدي وسجنه بقلعة طبرك باصفهان؛ إلا أن غياث الدين سرعان ما أنقذه من سجنه بلفت السلطان إليه، وأقام محمود شاه بالمعسكر الإيلخاني إلا أن ابنه جلال الدين مسعود شاه أُرْسِلَ إلى بلاد الروم لدى حاكمها الأمير شيخ حسن الچوپاني وعاش في تلك البلاد طوال حياة أبي سعيد.

وأسبغ خواجه غياث الدين عطفه على أسرة إينجو أي على محمود شاه وأبنائه جلال الدين مسعود شاه وغياث الدين كيخسرو وجمال الدين أبي إسحاق حسن وأشركهم في الشؤون

الديوانية، خاصة أن محمود شاه كان يقيم معظم الوقت في المعسكر، وكان قبل أن يعلن عصيانه مستشاراً لخواجه غياث الدين.

وقد سبق لنا أن تناولنا تفاصيل مقتل شرف الدين محمود شاه على يد أرپاجاون وفرار أبنائه ومصرع أرپاجاون على يد أبناء محمود شاه؛ لذا فلا داعي للتكرار هنا ونكتفي بالقول إن علي پادشاه بعد انتصاره على أرپاجاون، أرسل مسعود شاه إينجو إلى شيراز بصحبة الأمير پير حسين ابن الأمير محمود ابن الأمير چوپان في سنة ٧٤٠هـ ووضع حكومة فارس ويزد وكرمان تحت تصرف الأمير پير حسين. وعهد پير حسين بوزارته إلى سلطان شاه شقيق مسعود شاه، إلا أنه أقدم على قتل سلطان شاه بعد قليل. وعندما قام الأمير پير حسين باستدعاء الأمير مبارز الدين محمد من يزد، غادر مسعود شاه إينجو شيراز خوفاً من پير حسين ومبارز الدين وسلك طريق كازرون ومضى إلى شيخ حسن الكبير في بغداد.

وفي سنة ٧٤٢هـ، عهد الأمير پير حسين بحكومة أصفهان إلى شيخ أبي إسحاق شقيق كل من مسعود شاه وسلطان شاه. ودعا شيخ أبو إسحاق كما سبقت الإشارة تفصيلاً الملك أشرف شقيق شيخ حسن الصغير لمعاداة پير حسين وإخضاع فارس ثأراً لدم شقيقه. واستولى الملك أشرف على شيراز دون عناء وسحق پير حسين؛ إلا أن شيخ أبا إسحاق خرج بعد قليل وانتزع شيراز من يده بمساعدة أهلها في السنة نفسها ونصب نفسه حاكماً عليها.

واتجه الأمير مسعود شاه شقيق شيخ أبي إسحاق والذي كان قد فرَّ إلى بغداد نحو شيراز مع الأمير ياغي باستي ابن الأمير چوپان بأمر من شيخ حسن الكبير وقبل العلم بقضية پير حسين والملك أشرف، ووصلوا إلى شيراز إبان سيطرة شيخ أبي إسحاق، أي في سنة ٧٤٣هـ.

وقام ياغي باستي بقتل مسعود شاه حقداً عليه بعد ذهاب شيخ أبي إسحاق إلى كازرون، ولكن ما أن عاد شيخ أبو إسحاق إلى شيراز بعد نجدة أهالي كازرون حتى مضى ياغي باستي إلى الملك أشرف بالعراق لعدم قدرته على المقاومة، وبعد فرار ياغي باستي، استقر شيخ أبو إسحاق في شيراز وضرب السكة وأجرى الخطبة باسمه ونصب من نفسه ملكاً على تلك البلاد رسمياً.

أصل آل مظفر ونسبهم:

كان آل مظفر، أي أبناء الأمير مبارز الدين محمد بن مظفر من نسل شخص من أهالي خاف بخراسان يدعى غياث الدين حاجي. وكان غياث الدين حاجي هذا قد هاجر من بلاده إبان غزو المغول لخراسان وذهب إلى يزد واستقر فيها. وكان لغياث الدين حاجي ثلاثة أبناء هم أبو بكر ومحمد ومنصور. وكان كل من أبي بكر ومحمد قد التحقا ببلاط الأتابك علاء الدين بن قطب الدين محمود شاه (توفي في ٧٦٢هـ) أتابك يزد. وفي سنة ٦٥٥هـ، عندما عزم هولاكو على غزو بغداد، أرسل الأتابك كلاً من أبي بكر ومحمد ومعهما ثلاثمئة فارس إلى معسكر هولاكو للمشاركة في غزو بغداد. واتجه أبو بكر مع جيش المغول نحو حدود الشام ومصر، وقُتل في الطريق في معركة مع أعراب البادية، وعاد محمد إلى يزد وظل في بلاط الأتابك إلى أن توفي. ولم ينجب أي من ابني غياث الدين هذين أي أبناء.

أما ابنه الثالث منصور فظل عند أبيه بيزد، وأنجب ثلاثة أبناء هم محمد وعلي ومظفر. وتوفي علي دون أن يترك ولداً؛ بينما أنجب أخواه محمد ومظفر، وكل ملوك آل مظفرمن ذرية هذين الأخوين.

وكان الابن الثالث لمنصور بن غياث الدين حاجي رجلاً رشيداً وشجاعاً؛ وقد التحق بخدمة الأتابك يوسف شاه ابن الأتابك علاء الدين (٦٦٢-٦٩٠هـ)، وولاه الأتابك حكم ميبد. وعندما رحل يوسف شاه عن يزد خوفاً من جيش المغول واتجه إلى سيستان للاحتماء بالأمير نوروز، أخذ معه مظفر الذي كان يُلَقَبُ بالأمير شرف الدين؛ إلا أن الأخير أحس في الطريق بأن بعض أمراء الأتابكية ينوون قتله، فلجأ إلى كرمان وانضم إلى جلال الدين سيورغتمش القراخطائي؛ فرعاه سيورغتمش. وبعد مدة عاد مظفر إلى يزد ومنها إلى المعسكر حيث قدم نفسه لأرغون خان ونال رتبة عسكرية عنده وظل يقيم بالمعسكر حتى آخر عهدي كيخاتو وغازان. وكان الأتابك افراسياب لر قد أعلن عصيانه إبان جلوس كيخاتو، وأراد كيخاتو أن يسحق حركته. فتطوع الأمير مظفر بأداء تلك المهمة. فمضى الأمير مظفر إلى لرستان. ونظراً للصداقة التي جمعت بينه وبين الأتابك أفراسياب، فقد انتهت المهمة سلمياً وقام الأمير مظفر بإحضار افراسياب إلى المعسكر حيث حظي

كلاهما بعناية الإيلخان، وخمدت فتنة لرستان.

وبعد وفاة كيخاتو، التحق الأمير مظفر ببلاط غازان خان في سنة ٦٩٤هـ، وعاش معززاً عنده وعند خليفته أولجايتو. وقد تدرَّجَ في المناصب المهمة إلى أن أصدر أولجايتو مرسوم حراسة طرق الولايات الواقعة بين كرمانشاه ولرستان وحتى هرات ومرو وأبرقو ومعها حكومة ميبد باسمه. ومع أن الأمير مظفر كان يقيم من حين لآخر في ميبد، فقد كان يقضي معظم أيامه في المعسكر الإيلخاني إلى أن عاد في سنة ٧٠٧هـ إلى مسقط رأسه يزد؛ وفي سنة ٧١١هـ حين عزم أولجايتو على الذهاب إلى بغداد، أسرع إليه الأمير مظفر وابنه مبارز الدين عن طريق شيراز وجبل جيلوية ولحقا بالجيش في بغداد. وبعد مدة من مرافقة الجيش الإيلخاني، سُمح له بالعودة. وتم تكليف الأمير مظفر بسحق متمردي حدود شبانكاره في طريق العودة. وحين انتهى من تهدئة الأوضاع في تلك المنطقة، سقط مريضاً في شبانكاره وأسلم الروح في ١٣ ذي القعدة ٧١٣هـ ونقل جثمانه إلى ميبد.

بقي من الأمير شرف الدين مظفر بن منصور بن غياث الدين حاجي الخراساني ولد وبنتان. وابنه هو الأمير مبارز الدين محمد الذي يعد أول أمراء آل مظفر. وتزوَّج ابنُ أخيه الأمير بدر الدين أبو بكر بن محمد إحدى ابنتيه، وكان سلطان شاه هو ابن الأمير بدر الدين منها.

الأمير مبارز الدين محمد (٧١٨-٧٦٥هـ):

كان مبارز الدين حين توفي أبوه في الثالثة عشرة من عمره. لذا فقد اشتكى خصوم أسرتهم من ظلم أبيه لدى خواجه رشيد الدين فضل الله وطالبوا بالأملاك التي كان قد حصل عليها. فاتجه الأمير بدر الدين أبو بكر ابن شقيق الأمير مظفر وصهره إلى بلاط أولجايتو بصحبة مبارز الدين محمد وشقيقته الكبرى التي كانت زوجة الأمير بدر الدين لعرض حال أسرتهم. وفي الطريق، تغلبوا على جماعة من قطاع الطرق النكودريين كانوا قد هاجموهم، وأخذوا رؤوسهم إلى أولجايتو. فأولاهم الإيلخان عنايته وعهد إلى مبارز الدين محمد بحكومة ميبد وحراسة الطرق فيها، وظل مبارز الدين محمد مقيماً بالمعسكر حتى نهاية إيلخانية أولجايتو. وعندما تولَّى أبو سعيد عرش أبيه، استبقاه في منصبه، وأرسله إلى ميبد في سنة ٧١٧هـ.

وتولّى قيادة إقليم فارس العسكرية في ذلك الوقت الأمير سيد عضد الدين محمد اليزدي والد جلال عضد الشاعر المعروف. وغادر سيد عضد الدين فارس في ذلك العام وعاد إلى مسقط رأسه يزد وقرر الا يعود مرة أخرى إلى ذلك الإقليم. فاعتبر أبو سعيد تصرفه هذا بمثابة عصيان له؛ فكلَّفَ حاجي شاه بن يوسف شاه أتابك يزد والأمير مبارز الدين بتأديب سيد عضد. ولم يجد سيد عضد في نفسه القدرة على المقاومة، فقصد معسكر أبي سعيد وأراد أن يلقي اللوم على مبارز الدين ولكنه لم يفلح في ذلك؛ حيث ثبت تقصيره هو وعاد مبارز الدين إلى منصبه السابق وكان هذا الفتح مقدمة لعلو نجمه.

وفي سنة ٧١٨هـ، جاء الأمير غياث الدين كيخسرو شقيق شيخ أبي إسحاق إينجو إلى يزد عن طريق شبانكاره وعقد صداقة مع الأتابك حاجي شاه، ثم أسرع منها إلى ميبد، وعقدت أواصر الود بينه وبين الأمير مبارز الدين أيضاً، ولكن سرعان ما دبَّ الخلاف بين نائب الأمير كيخسرو والأتابك حاجي شاه حول أمر تافه، فاقدم الأتابك الذي كان رجلاً قاسياً لا يرحم على قتل نائب الأمير كيخسرو. وبعد استئذان أبي سعيد شن كل من كيخسرو ومبارز الدين هجوماً على الأتابك وهزماه في ذلك العام. وبذلك بادت دولة أتابكة يزد وأسرتهم في سنة ٧١٨هـ، وآل حكمها من قبل الإيلخان إلى الأمير مبارز الدين بعد لقائه بأبي سعيد.

وبعد عودته إلى يزد، خاض الأمير مبارز الدين حرباً مع قطاع الطرق النكودريين وقتل عدداً منهم وأرسل رؤوسهم إلى أبي سعيد في تبريز، وظل منذ ذلك الوقت في صراع مع هذه القبيلة ولمدة ثلاث عشرة سنة خاض فيها إحدى وعشرين معركة إلى أن خمدت فتنتهم.

وفي سنة ٧٢٩هـ، تزوَّج الأمير مبارز الدين خان قتلغ مخدومشاه ابنة قطب الدين شاه جهان ملك قراخطائيي كرمان كما سبق أن ذكرنا، وهذه السيدة هي والدة شاه شجاع وشاه محمود والسلطان أحمد. وفي سنة ٧٣٤هـ، التحق الأمير مبارز الدين ببلاط أبي سعيد، وقد خلع عليه الإيلخان وأنعم عليه بقلنسوة ومنطقة خاصة وراية ومئة ألف دينار. وعندما ذهب أبو سعيد في ذلك العام إلى مشتى بغداد، أسرع الأمير مبارز الدين في ركابه للحج إلى النجف الأشرف ومنها توجه إلى يزد.

وبعد وفاة السلطان أبي سعيد خان حيث هب في كل ركن من أركان الدولة الإيلخانية من يطالب بالاستقلال، أعد الأمير مبارز الدين العدة للغرض نفسه وكانت الفرصة سانحة أيضاً لذلك، إذ لم يعد في الأسرة الإيلخانية حاكم قوي تصد هيبته المعارضين؛ وكان خواجه غياث الدين الرشيدي قد قتل. ولما كان كل فرد يطالب بنصيب من تلك الدولة المترامية الأطراف، فقد طالب الأمير مبارز الدين أيضاً بنصيبه منها بعد أن أمضى وقته منذ سنة ٧١٣هـ في إخماد فتن جنوب إيران وتأمين طرقها، وطالب بخلافة مستقلة لأتابكة يزد.

وكانت فارس في تلك الفترة وكما سبقت الإشارة تحت سيطرة شيخ أبي إسحاق وإخوته ولم يكن الأمير المذكور غافلاً عن يزد أيضاً. لذا فقد ذهب شيخ أبو إسحاق في سنة ٧٣٧هـ إلى يزد بأمر من أخيه جلال الدين مسعود شاه. وبعد ما لقيه من ترحيب واحترام من جانب الأمير مبارز الدين، غادر المدينة إلى كرمان، ولكنه سرعان ما عاد إلى يزد بنية فتحها وبدعوى العودة إلى شيراز، إلا أنه لم يكن نداً للأمير مبارز الدين. وفي النهاية، رفع يده عن يزد بوساطة من أحد العلماء وعاد إلى شيراز.

وفي سنة ٧٤٠هـ وكما رأينا، جاء الأمير پير حسين چوپاني إلى إقليم فارس يطلب العون من الأمير مبارز الدين. واتفقا على الذهاب إلى شيراز، ففر مسعود شاه إلى كازرون. وفرض الأمير پير حسين سيطرته على فارس وتنازل عن مرسوم حكم كرمان التي كانت قد ضُمت إليه للأمير مبارز الدين محمد.

وبعد سقوط الأسرة القراخطائية، عهد أولجايتو بحكم كرمان للملك ناصر الدين محمد بن برهان الغوري النائب السابق لمحمد شاه القراخطائي، وظلت هذه المملكة منذ جلوس أولجايتو وحتى تكليف الأمير مبارز الدين تحت حكم ناصر الدين وساداق بيك الأويغوري وقطب الدين نيكروز بن الملك ناصر الدين وأسرة إينجو، وظلت تحت حكم الملك قطب الدين نيكروز بن الملك ناصر الدين الغوري حتى سنة ٧٤٠هـ حين ذهب إليها الأمير مظفر.

واستولى الأمير مبارز الدين على كرمان في سنة ٧٤١هـ بعون من جنود شيراز، وذهب قطب الدين الغوري إلى هرات مهزوماً. ثم مضى الأمير المنتصر لتحرير قلعة يم، ولكنه لم يتمكن من

ذلك بسبب شدة استحكامها. فاضطر لترك ابنه حول يم والعودة إلى كرمان. وفي السنة التالية خرج للغرض نفسه ففتح القلعة والمدينة ثم عاد إلى مقر حكمه.

وبعد عودة الأمير مبارز الدين إلى كرمان، أخذت العلاقات بينه وبين الأمير پير حسين الچوپاني تسوء تدريجياً؛ ودعاه پير حسين إلى فارس، إلا أن الأمير مبارز الدين امتنع عن الذهاب إلى شيراز بسبب الجفاء الذي ظهر بينهما.

وفي سنة ٧٢٤هـ، عهد الأمير پير حسين بحكم أصفهان إلى شيخ أبي إسحاق إينجو وأولاه عناية خاصة؛ إلا أن شيخ أبا إسحاق كان يضمر الحقد للأمير پير حسين، بل يسعى للقضاء عليه لأنه قتل أخاه وكان يعتبر حكم فارس حقاً لأسرته. لذا فعندما جاء الملك أشرف شقيق شيخ حسن الچوپاني الصغير لفتح العراق، زاره أبو إسحاق ضد إرادة الأمير پير حسين الذي كان ابن عم الملك أشرف. وعندما خرج الأمير پير حسين من شيراز لصدهما تعرض للهزيمة وفر إلى سلطانية حيث مات مسموماً بيد ابن عمه شيخ حسن الصغير.

واتجه الملك أشرف وشيخ أبو إسحاق إلى شيراز إلا أن شيخ أبا إسحاق حرض أهالي المدينة ضد الملك أشرف كما سبقت الإشارة، واستولى دون عناء على كرسي حكم أبيه وجده في سنة ٧٤٢هـ وفر الملك أشرف إلى يزد، وأغار على البلاد الواقعة على الطريق. ومن بينها بعض بلدان يزد، ووصل إلى نائين، إلا انه هزم على يد أقرباء الأمير مبارز الدين فمضى إلى تبريز حيث حشد جماعة من الجند لاستعادة شيراز. وذهب في سنة ٧٤٣هـ إلى عمه ياغي بستي في فارس، وطلب العون من الأمير مبارز الدين أيضاً؛ إلا أن مبارز الدين لم يطمئنه، بل أرسل صهره مع ثلاثة آلاف فارس إلى إقليم فارس. إلا أن الملك أشرف وياغي باستي قبل أن يسحقا جنود شيخ أبي إسحاق تماماً تخليا عن فكرة فتح شيراز بعد علمهما بمقتل شيخ حسن الچوپاني وعادا إلى تبريز وظل إقليم فارس تحت سيطرة شيخ أبي إسحاق.

وبعد أن اطمأن خاطر شيخ أبي إسحاق إينجو من ناحية فارس، اتخذ قراراً بفتح كرمان. وبعد أن خضعت أصفهان وهرمز لطاعته وتليت الخطبة وضربت السكة باسمه فيهما، بدأ يطالب بكرمان التي كان يعتبرها ضمن أملاك أبائه. فاعد جيشاً كبيراً وذهب إلى سيرجان إلا أنه لم يفلح

في فتح قلعتها، فاضطر إلى الجلاء عنها وتقدم إلى مسافة خمسة عشر فرسخاً من كرمان. ولكن عندما بلغه أن الأمير مبارز الدين قد خرج بجيشه لصده، أشار عليه بعض رفاقه بالعودة إلى شيراز.

وبعد عودة شيخ أبي إسحاق، قام الأمير مبارز الدين بقمع حركة عصيان عشيرتي أوغاني وجرمائي وهما من عشائر المغول كانتا قد وفدتا إلى كرمان منذ عهد سيورغتمش وإيلخانية أرغون لحراسة حدود الولاية. ثم تعاهد مع شيخ أبي إسحاق على عدم السماح لأمير الأوغانيين بدخول شيراز. إلا أن شيخ أبا إسحاق لم يكن قد تخلى عن فكرة الاستيلاء على كرمان ويزد. وفي سنة ٧٤٧هـ، انتهز فرصة انشغال الأمير مبارز الدين فنقض عهده ولكنه أرسل في الظاهر خمسة آلاف جندي إلى كرمان لدعم الأمير مبارز الدين. وأمر هؤلاء الجنود بالانضمام إلى أعداء مبارز الدين بمجرد نشوب الحرب. وتحرك هو نفسه إلى يزد. ومع أنه استولى على يزد، فإنه لم يستطع الصمود أمام شاه مظفر ابن الأمير مبارز الدين، وعلم أن جنوده والأوغانيين لم يتمكنوا من فتح كرمان على الرغم من انتصارهم على الأمير مبارز الدين وحصارهم للمدينة؛ فاضطر إلى التصالح والعودة إلى شيراز.

وعندما وجد المتمردون أنهم أصبحوا وحدهم، طلبوا العفو، فعفا الأمير مبارز الدين عن زعمائهم وخلع عليهم. إلا أن جماعة منهم تمرَّدَتْ بعد عدة أيام، فقتل الأمير مبارز الدين عدداً كبيراً منهم.

وفي سنة ٧٤٩هـ، أرسل الأمير مبارز الدين ابنه شاه شجاع الذي كان في السادسة عشر من عمره بسحق الأوغانيين والجرمائيين، وانتصر شاه شجاع على هاتين القبيلتين في كرمسيرات بكرمان. وعندما وصل نبأ تمرد هاتين القبيلتين إلى فارس، أرسل شيخ أبو إسحاق أحد قادته ويدعى سلطان شاه جاندار إلى حدود هرمز ومكران لجمع الضرائب من هاتين المنطقتين ثم التوجه لمساندة المتمردين ضد آل مظفر؛ إلا أن سلطانشاه خان أبا إسحاق وانضم إلى آل مظفر، مما أدّى إلى دعم موقفهم وضعف موقف شيخ أبي إسحاق.

وفي سنة ٧٥١هـ، شن شيخ أبو إسحاق حملة أخرى على يزد، إلا أنه لم يحقق تقدماً وعاد إلى شيراز. وبعد عامين، أرسل أحد أمراء الروم كان قد فرَّ من الملك أشرف وانضم إلى شيخ أبي إسحاق

لفتح كرمان؛ إلا أنه هو أيضاً لم يصل إلى نتيجة وهزمه الأمير مبارز الدين وعاد بهزيمته إلى فارس.

مقتل شيخ أبي إسحاق (٧٥٨هـ):

أحس الأمير مبارز الدين بالقلق من الاعتداءات المتوالية لشيخ أبي إسحاق وأقربائه على كرمان ويزد، وفي النهاية قرر فتح شيراز والقضاء على الأمير شيخ أبي إسحاق. وفي سنة ٧٥٤هـ، نصَّبَ ابنه شاه شجاع ولياً للعهد وخرج معه إلى شيراز. وعندما بلغت أنباء حملته إلى فارس، قام شيخ أبو إسحاق بإيفاد العالم الكبير عضد الدين إيجي إلى الأمير مبارز الدين في شيراز لطلب الصلح. فأبدى الأمير مبارز الدين احتراماً كبيراً لعضد الدين وقدم خمسة آلاف دينار لنفقات إقامته وعشرة آلاف لمرافقيه. وانشغل شاه شجاع بمناقشة القاضي في المسائل العلمية؛ إلا أن الأمير مبارز الدين لم يوافق على طلب أبي إسحاق وقال: إن الأمير شيخ نقض عهده سبع مرات حتى ذلك الوقت؛ وإنه لا يثق في عهوده. فعاد القاضي عضد الدين إلى شيراز دون التوصل إلى نتيجة. واتجه الأمير مبارز الدين إلى شيراز أيضاً عن طريق فرك رطارم ونزل على أطرافها في صفر ٧٥٤هـ وحاصر المدينة. واستمر حصار شيراز ستة أشهر. وعلى الرغم من مرض الأمير مبارز الدين في تلك الأثناء ووفاة ابنه شرف الدين مظفر فإنه لم يتراجع إلى أن تمكن من فتح شيراز في الثالث من شوال. وكان أبو إسحاق يقضي معظم وقته في فترة الحصار في معاقرة الخمر واللهو؛ وضاق بعض الأهالي ذرعاً بتصرفاته، فاتفقوا مع الأمير مبارز الدين في الخفاء وفتحوا إحدى بوابات المدينة أمام قواته. وفرَّ أبو إسحاق من شيراز وطلب العون من شيخ حسن إيلكاني فأرسل له ألفي جندي من بغداد، إلا أنهم هزموا أيضاً على يد شاه شجاع، فاضطر أبو إسحاق إلى اللجوء إلى أصفهان بعد أن وقع ابنه البالغ من العمر العاشرة وعدد من قواده العسكريين في أسر آل مظفر فقتلوهم ودان لهم إقليم فارس. وأرسل الأمير مبارز الدين شاه شجاع حاكماً لكرمان وظل هو في شيراز بهدف فتح سائر مناطق فارس من ناحية، ولصد أبي إسحاق لو عاد بغرض الانتقام من ناحية أخرى.

وفي سنة ٧٥٥هـ، ترك الأمير مبارز الدين ابن أخته شاه سلطان نائباً له في شيراز واتجه إلى أصفهان بغرض الإجهاز على أبي إسحاق، واستدعى شاه شجاع أيضاً من كرمان. وفي غياب الأمير

مبارز الدين، شرع بعض أهالي شيراز وأقرباء أبي إسحاق في دعوة قبيلتي أوغان وجرمائي للثورة على عمال آل مظفر، إلا أن شاه شجاع تمكن من قمعهم وتأمين فارس، ثم أسرع إلى الأمير مبارز الدين وضربا معاً حصاراً حول أصفهان.

وقع كل من أبي إسحاق وسيد جلال ميرميران رئيس شرطة أصفهان الذي زاد نفوذه وقوته في تلك المدينة منذ وفاة أبي سعيد في الحصار وطلبا العون مِنْ كل مَنْ يعرفان. وقام أبو إسحاق بإيفاد سلطان شاه جاندار - قائده السابق الذي اشتهر بالخيانة والغدر ونقض العهود وسبق له أن غدر به وانضم إلى صفوف الأمير مبارز الدين - إلى الأوغانيين لطلب العون؛ إلا أن هذا الخائن ذهب إلى لرستان وانضم بعد قليل إلى جيش شاه شجاع.

ونظراً لعجز الأمير مبارز الدين وشاه شجاع عن فتح أصفهان ولحلول الشتاء، فقد اضطرا لفك الحصار والعودة إلى شيراز. واغتنم أبو إسحاق هذه الفرصة ومضى إلى لرستان بهدف الحصول على دعم. وأمده أتابك لرستان بالعون وعاد أبو إسحاق إلى أصفهان إلا أنه لم يفلح في الوصول إلى أطرافها حيث كان شاه شجاع قد ضرب حولها الحصار من جديد وكانت قوات الأمير مبارز الدين تشغل المسافة بينه وبين قوات الحصار. فعاد الأتابك إلى لرستان وذهب أبو إسحاق إلى شوشتر. وخضع سيد جلال ميرميران رئيس شرطة أصفهان لآل مظفر ونال عفوهم.

وفي سنة ٧٥٦هـ، شن الأمير مبارز الدين حملة على أراضي شبانكاره وأرسل ابنه الآخر قطب الدين محمود لصد الملك أردشير آخر من تبقى من ملوك شبانكاره الذي كان قد فرض سيطرته في ذلك العام على كل أراضي شبانكاره وإيج، فالحق الهزيمة بالملك أردشير، وبفراره تشتت شمل ملوك شبانكاره.

وفي سنة ٧٥٧هـ، عاد أبو إسحاق إلى أصفهان وحشد فيها قوات جديدة بعون من ميرميران واستقر على كرسي الإمارة. وأسرع الأمير مبارز الدين مرة أخرى لمحاصرة المدينة، ولكن حين طال أمد الحصار، فقد عين شاه سلطان لفتح المدينة واتجه إلى لرستان لسحق أتابكها. وتعرض المحاصرون في فصل الشتاء لنقص المؤن ولمتاعب جمة؛ لذا فقد وهنت مقاومتهم ولاذ بعضهم بالفرار بينما انضم بعضهم الآخر إلى صفوف شاه سلطان. وفر ميرميران إلى كاشان واختبأ أبو إسحاق في دار

مفتي المدينة. ودانت المدينة لآل مظفر في ربيع ٧٥٧هـ.

وسارع شاه سلطان باعتقال أبي إسحاق وسجنه في البداية بقلعة طبرك، ثم أرسله إلى شيراز بأمر من الأمير مبارز الدين وسلمه الأمير المظفري شيخ بلندنام إينجو إلى ابن أحد أعيان شيراز كان قد قُتل على يد أبي إسحاق فقتله في يوم الجمعة ٢١ جمادى الأولى من سنة ٧٥٨هـ بميدان سعادت بشيراز والذي كان قد بناه أبو إسحاق.(١٩)

«كان شيخ أبو إسحاق رجلاً كريماً وفاضلاً وذواقة للشعر وشاعراً، وقد نظم الرباعية التالية لحظة وفاته:

أسفاً فطائر العمر لا يبقى في عشّه ... فلا يبقى ثم أمل في قريب أو غريب

يا حسرة فطوال هذا العمر ... لم يبق شئ مما قلناه سوى الأساطير

وقال أيضاً:

لا تنازع الفلك الشرس وامضِ ... ولا تتعلق بدوران الفلك واذهب

كأس سم يسمونها الموت ... فتجرعها وصب رشفة على الدنيا وامضِ

كان الملك شيخ أبو إسحاق إينجو ملكاً بهي الطلعة حسن الخلق كريماً، وحقّق في السنوات الأربع عشرة التي قضاها في حكم شيراز وأصفهان نفوذاً كبيراً وشهرة عظيمة، وكان له جيش قوامه خمسون ألفاً من فرسان الترك والفرس. ولكن لما كان بعض الفرس قد اشتهروا بالقوة والعصيان، فقد افتقد الطمأنينة فعين عدداً من أهل أصفهان لحراسته وفضلهم على الفرس. ولم يكن يسمح لأهالي فارس بحمل السلاح إلا في أضيق نطاق. وأعد لنفسه جهاز حكم عظيماً في شيراز؛ لذا فقد فكَّر في إقامة إيوان شبيه بإيوان المدائن لنفسه، وأنفق أموالاً طائلة من ضرائب فارس في هذا الصدد. ولكن دالت دولته قبل إتمام هذا الصرح. ومع ذلك كان أبو إسحاق رجلاً قاسياً مغروراً وظالماً وعابثاً. ولم يكن يكف عن عبثه ولهوه حتى أمام خطر زحف الأعداء، كما حدث إبان حصار شيراز من قبل الأمير مبارز الدين، حيث كان يقضي معظم أوقاته في معاقرة الخمر. ولدى دخول مبارز الدين إلى شيراز، لم يُفِقْهُ من سكره سوى ضجيج الجنود، فسأل ما هذا الضجيج،

فقالوا له إنه وقع طبول الأمير مبارز الدين. فقال: ألم يرحل هذا المشاغب بعد؟! وذات مرة، قال الشيخ أمين الدين الجهرمي نديم الملك المقرب للملك: هيا بنا نصعد إلى السطح نتنشق نسيم الربيع ونشاهد البراعم، واصطحب الملك بهذه الحجة إلى سطح القصر. فرأى الملك بحراً من الجنود خارج المدينة، فسأل: ماذا يحدث. فقال له الوزير إنه جيش محمد المظفر. فابتسم الملك وقال: يا له من أبله هذا المظفر إذ ينتزع نفسه وينتزعنا من العيش والسرور في مثل هذا الربيع، وتلا هذا البيت من الشاهنامه ونزل عن السطح:

تعال نتنزه الليلة وحين يأتي الغد نفكر في الغد»

(تذكره دولتشاه، ص٢٩٣)

«على الرغم من كل ذلك شهد إقليم فارس في عهده وعهد سائر أفراد أسرة إينجو ازدهاراً وعمراناً، وكان يضارع في ثروته ورخائه عصر الأتابكة السلغوريين. ونظراً لرعاية الأمير شيخ لأهل العلم والأدب، فقد تجمع حوله جمع من الشعراء والعلماء ومن أشهرهم خواجه شمس الدين محمد حافظ شاعر شيراز وفيلسوفها ونظام الدين عبيد الله زاكاني وشمس فخري الأصفهاني مؤلف كتاب معيار جمالي ومفتاح أبو إسحقي، وقد نظموا في مديحه أشعاراً وبعد قتله مراث.

ويوجز حافظ أوضاع إقليم فارس في عهد شيخ أبي إسحاق في الأبيات التالية:

في عهد ملك الملك أبي إسحاق ازدهر ملك فارس بفضل خمسة أشخاص
أولهم ملك جليل مثله أحيا أرواح الناس ومنحهم لذة العيش
وثانيهم آخر الأبدال شيخ أمين الدين(٢٠) الذي حل يمن همته الأمور المغلقة
وثالثهم ملك العلوم عضد(٢١) الذي وضع أسس العمل باسم الملك
ورابعهم رجل كريم كحاجي قوام(٢٢) كبير القلب الذي اشتهر بالعلم والعدل
وخامسهم راعي الإسلام مجد الدولة الذي لاتذكر السماء قاضياً أفضل منه
كانوا مثله ومضوا غفر الله لهم جميعاً

وبعد فتح فارس والعراق عزم الأمير مبارز الدين على فتح آذربيجان. فذهب إلى أصفهان لهذا الغرض في مطلع عام ٧٥٨هـ. وقد استقبل سلطان شاه والي أصفهان موكبه بكل ترحاب واحترام.

إلا أن البعض أوعزوا للأمير مبارز الدين بأن سلطان شاه قد اختلس من مال العراق، فأساء مبارز الدين معاملته وأغضبه؛ ثم جاءه مبعوثون من تبريز وأخبروه بأن جاني بيك قد جاء إلى تبريز وقتل الملك أشرف الچوپاني وطلب استدعاء الأمير مبارز الدين إلى تبريز وتعيينه قائداً لحراس الخان. فرد الأمير مبارز الدين على مبعوثي جاني بيك بقسوة. وفي تلك الأثناء بلغه أن جاني بيك قد توفي وأن أخي جوق أصبح والياً على تبريز وأن الخلاف قد دبَّ بين أبناء جاني بيك. فاسرع الأمير مبارز الدين إلى آذربيجان وحين بلغ نبأ زحفه لأخي جوق، خرج بثلاثين ألف فارس لصده. والتقى الفريقان في ميانج، واشتبك الأمير مبارز الدين وولداه شاه شجاع وشاه محمود وحفيده شاه يحيى مع قوات أخي جوق، وتمكن الأمير مبارز الدين وشاه يحيى ذو الخمس عشرة سنة من هزيمة قوات العدو، إلا أن فرقة منهم تمكنت من التغلب على جنود شاه محمود وأغارت على مؤنهم. وانتهى الأمر بهزيمة جيش أخي جوق، وتعقبهم شاه محمود وشاه شجاع بأمر أبيهما حتى نخجوان، ثم ركنا إلى الراحة في تلك المنطقة وانغمسا في اللهو، مما دعا الأمير مبارز الدين إلى لومهما وإرسال رسالة النصر إلى الولايات باسم شاه يحيى. وكان ذلك مقدمة للعداء بين الولدين وأبيهما.

وبعد أن أقام الأمير مبارز الدين فترة في تبريز، بلغه أن السلطان أويس الجلايري في طريقه إلى تبريز؛ فرأى أن الأصلح له أن يعود إلى شيراز. ولم يكف مبارز عن تقريع ولديه بل أخذ يهددهما بالعقاب وسمل الأعين، فخاف شاه محمود وشاه شجاع وتحالفا مع شاه سلطان الذي كان ناقماً على الأمير أيضاً وقرر ثلاثتهم اعتقال الأمير مبارز الدين بمجرد وصولهم إلى أصفهان وتقييده. وفي ١٥ رمضان ٧٥٩هـ، شرع المتآمرون في تنفيذ خطتهم، وتمكنوا في النهاية من اعتقال الأمير مبارز الدين وحبسوه أولاً بقلعة طبرك. وفي ١٩ رمضان قام شاه سلطان بسمل عيني الأمير بأمر من شاه شجاع، ثم أرسلوه[٢٤] إلى قلعة سفيد[٢٥] بفارس.

وبعد فترة، تصالح الأمير مبارز الدين الأعمى مع ولديه عن طريق المراسلة وجاء إلى شيراز وتليت الخطبة وضربت السكة باسمه وأديرت شؤون الحكم بامره. ولكن بعد ثلاثة أشهر أدرك شاه شجاع أنه لايزال ناقماً عليه، فقيده مرة أخرى وأرسله إلى قلعة بم بكرمان. إلا أن الأمير مبارز الدين سقط مريضاً وتوفي في الطريق في ربيع الأول ٧٦٥هـ وحمل جثمانه إلى ميبد حيث دفن بالمدرسة

المظفرية التي كانت من عمائره.

حكم الأمير مبارز الدين محمد في يزد وكرمان والعراق وفارس لمدة أربعين سنة، وتوفي في سن الخامسة والستين. وقد بذل في حياته كل جهد لتأسيس أسرة عرفت باسم أبيه وآل مظفر. وكان تقياً وغيوراً على دينه؛ وفي سنة ٧٥٢هـ أخذ يستغفر الله مما بدر منه من ذنوب وانشغل بتلاوة القرآن والعبادات وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل في هذا السبيل أيضاً جهوداً كبيرة. فأنشأ في شيراز داراً للسيادة لرعاية الأشراف وعلماء الدين وبنى مسجداً في تبريز وعين أوقافاً للإنفاق على هذه الأمور. وفي فترة حصار أصفهان في سنة ٧٥٥هـ، أرسل بيعته لأبي بكر المعتضد بالله المعتصمي الذي ادعى انه خليفة الخلفاء العباسيين كما فعل شيخ أبو إسحاق من قبله وذكر اسم هذا الخليفة في الخطبة وعلى السكة وحمل علماء العراق وفارس ويزد على مبايعته. إلا أنه كان في الوقت نفسه سريع الغضب حاد الطبع وكان ينزل العقاب بالناس في أغلب الأحيان بيده، وكان يتجاوز الحد في نهيه عن المنكر. لذا فإن بعض أهالي شيراز لم يذكروه بالحسنى وكانوا يطلقون عليه «الملك المحتسب».(٢٦)

شاه شجاع (٧٦٠-٧٨٦هـ):

بعد واقعة سمل عيني الأمير مبارز الدين، أمسك ابنه الأكبر جلال الدين شاه شجاع من خان قتلغ مخدومشاه ابنة قطب الدين شاه جهان القراخطائي بزمام الامور في يده وعهد بحكم ابرقو وعراق العجم لأخيه شاه محمود، وكرمان لأخيه الآخر السلطان عماد الدين أحمد، واتخذ من خواجه قوام الدين محمد صاحب عيار وزيراً له.

وكان للأمير مبارز الدين خمسة أبناء هم شاه شجاع وشاه مظفر وشاه محمود والسلطان أحمد وأبو يزيد. توفي شاه مظفر في حياة أبيه في سنة ٧٥٤هـ في أثناء محاصرة شيراز، وله بنتان وأربعة أبناء هم شاه يحيى وشاه منصور وشاه حسين وشاه علي. وكان شاه يحيى أكبرهم وكان أحبهم بالنسبة للأمير مبارز الدين. وقد أشرنا إلى أن مبارز الدين قدم شاه يحيى على أبنائه في حملته على آذربيجان وفي الحرب ضد جيش أخي جوق، وهو ما أدى إلى بغض أبناء الأمير مبارز الدين

لشاه يحيى بعد أن بدأ عداؤهم لأبيهم؛ وبعد أن تولّى الإمارة وتسليم أصفهان لشاه محمود وكرمان للسلطان أحمد، ألقى شاه شجاع القبض على شاه يحيى وسجنه بقلعة قهندز بشيراز.

وفي بداية جلوس شاه شجاع، أعلنت قبيلتا أوغاني وجرمائي العصيان؛ وقام شاه شجاع بقمع عصيانهما ثم قبل اعتذار زعمائهما وتحصّنَ في تلك القلعة. وعلى الرغم من الحرب والنزاع، لم يتمكن شاه شجاع من الإمساك بابن أخيه. وانتهى الأمر بالتصالح بين الطرفين بشرط أن ينزل شاه يحيى من القلعة ويمضي إلى يزد كحاكم لها من قبل عمه ويضع قلعة قهندز تحت تصرف شاه شجاع. ووافق شاه يحيى على هذا العرض وذهب إلى يزد، إلا أنه نقض عهده وبمجرد أن وطأت قدمه أرض المدينة أعلن تمرده على شاه شجاع وعلى حكمه فخرج شاه شجاع مع وزيره خواجه قوام الدين وجيش جرار من شيراز واتجه إلى يزد. وظل هو في أبرقو وأرسل قوام الدين لمحاصرة يزد. فضرب وزيره حصاراً حول المدينة. وحين ضاق الحال على أهلها، أرسل شاه يحيى رسائل إلى عمه في أبرقو يعتذر له ويلح في الاعتذار. فعفا عنه شاه شجاع واستدعى قوام الدين وعاد إلى شيراز. وفي طريق عودته إلى شيراز، اتُّهم قوام الدين من جانب بعض خصومه ممن كانوا يحقدون عليه بالنفاق، فقتله شاه شجاع وأسند منصبه إلى الأمير كمال الدين الرشيدي.

وفي سنة ٧٦٤هـ، أعلن شاه محمود الذي كان يتولى حكم أبرقو وأصفهان من قبل أخيه العصيان على شاه شجاع وأعد العدة للاستيلاء على العراق. وكانت ذريعته للتمرد على أخيه أن بعض عمال شاه شجاع اختلسوا أموال أبرقو. وشن شاه محمود حملة على يزد وألغى اسم شاه شجاع من الخطبة واستولى على المدينة. فشن شاه شجاع حملة على أصفهان ونشبت الحرب بين الشقيقين. وحوصر شاه محمود في أصفهان ونشبت عدة معارك بين شاه شجاع وشاه سلطان إلى أن أطبق عدد من جند شاه محمود فجاة على أتباع شاه سلطان وهزموهم وعادوا بشاه سلطان إلى شاه محمود وعوقب بالعقوبة نفسها التي تسبب هو نفسه فيها للأمير مبارز الدين، أي بسمل العينين.(٢٧)

وفي النهاية، تصالح شاه شجاع مع أخيه وتقرر أن يظل شاه محمود حاكماً لأصفهان كما كان وأن تجري الخطبة باسمه. وعلى الرغم من قبول شاه محمود لهذا الشرط، فإن قلبه لم يصفُ لأخيه

في الحقيقة، وأخذ يسعى بشتى السبل للقضاء عليه والاستيلاء على ملك أبيه. لذا فقد تبادل المراسلات مع السلطان أويس الجلايري ملك آذربيجان وأدخل في روعه أن شاه شجاع ينوي غزو تبريز وحرضه ضد أخيه. فأرسل السلطان أويس عدداً من أمرائه لدعم شاه محمود. وتمادى شاه محمود في عصيانه استناداً إلى دعمهم وإلى دعم بعض أمراء شاه شيخ أبي إسحاق إينجو. كما انضم شاه يحيى إلى فريق المتمردين؛ وجاء المدد إليه من لرستان وقم وكاشان وساوة وآوة. وفي سنة ٧٦٥هـ، خرجوا من أصفهان في الطريق إلى شيراز.

وخرج شاه شجاع من شيراز لصد أخيه الأصغر السلطان أحمد وابنه السلطان أويس. وقبل أن يصل إلى القوات المصاحبة لشاه محمود، غضب السلطان أحمد على شاه شجاع وانضم إلى جيش شاه محمود. كما انشق عليه بعض من جنوده وأنصاره، وضاق الحال بشاه شجاع؛ إلا أن كل ذلك لم يفت في عضده ولم يفقد ثباته وواجه أعداءه بعزيمة قوية، ولكنه لم يتمكن من مقاومة أعوان أخيه وعاد إلى شيراز مهزوماً وتحصن بالمدينة وضرب جنود شاه محمود حصاراً حولها. ومع طول أمد الحصار، خارت مقاومة شاه شجاع وتناقص أعوانه. وفي النهاية، أوفد شاه شجاع مولانا معين الدين اليزدي وهو أحد منشئيه ومؤلف كتاب تاريخ آل مظفر إلى أخيه لطلب الصلح. إلا أن شاه محمود اشترط لقبول الصلح أن يذهب شاه شجاع إلى أبرقو وأن يظل بها لمدة شهر إلى أن يعيد أمراء تبريز، ثم يقوم الأخوان باقتسام ملك أبيهما. وكان شاه شجاع رجلاً فصيحاً وشاعراً؛ فكتب رقعة لأخيه يطلب لقاءه. فوافق شاه محمود والتقى الشقيقان أسفل قلعة قهندز، وبعد إعداد قرار الصلح، مضى شاه شجاع إلى أبرقو ودخل شاه محمود شيراز في أبهة وجلال.

«وعندما عزم شاه شجاع على الهجرة، كتب هذه الرقعة بخطه الشريف: أخي الأعز الأكرم المنتصر في الحرب محمود، جعلك الله سنداً وعوناً. يعلم الله أني أكن لك أضعاف ما أعربت عنه، فنحن كما كنا والمحبة بيننا باقية. ولا أدري ما حدث لأواصر الأخوّة بيننا فانفصمت عراها بهذه الصورة وماذا جرى لعلاقة الدم بيننا. إن كنتَ قد وجهت قلبك لغيرنا فإننا لانزال على الوفاء. ولاشك أن تاليف القلوب يتأتى بغير الإرادة. إنشاء الله تعالى نلتقي غداً تحت قلعة قهندز ونرى ما فيه الصالح العام» (من تاريخ آل مظفر لمعين الدين اليزدي)

وظل شاه شجاع في أبرقو لمدة ثلاثة أشهر ثم اتجه إلى كرمان بعد أن تدهورت الأوضاع فيها.

وعندما كان شاه شجاع يقاتل أعوان شاه محمود خارج شيراز، كان ابنه سلطان شبلي منشغلاً مع سيورغتمش أحد أمراء قبيلة أوغاني في تعبئة الجيش لإرساله لدعم شاه شجاع. وكان دولتشاه وهو أحد عمال قوام الدين قد أوفد من قبل شاه شجاع إلى كرمان لإحضار خزانتها قد خدع الأتابك سلطان شبلي ومنعه من الذهاب إلى شيراز، ثم سجنه في إحدي القلاع وأعلن استقلاله بالحكم.

وفي ربيع ٧٦٦هـ، ذهب شاه شجاع إلى كرمان وهزم دولتشاه المتمرد واستعاد المدينة. فخضع له دولتشاه، ولكنه سرعان ما لقي جزاء غدره ونيته لقتل الملك، فدانت كرمان لشاه شجاع. وبعد استعادته لكرمان، مضى شاه شجاع لتاديب قبيلتي أوغاني وجرمائي، ومع أنه لم يتمكن من تعقب فلولهم بسبب الألم الذي أصابه في قدميه، فقد ضيّق الخناق عليهما حتى استنجدتا بشاه محمود. فارسل شاه محمود شاه يحيى لمساندتهما، إلا أن شاه يحيى سرعان ما انضم إلى صفوف عمه، وتمكن شاه شجاع من إخضاع زعماء القبيلتين. وأدى تجدد عظمته إلى التفاف كثير من أهل شيراز وأنصار شاه محمود حوله من جديد بعد أن ضاقوا ذرعاً بجنود آذربيجان التابعين للسلطان أويس الجلايري. كما جاء شاه منصور بن شاه مظفر وشقيق شاه يحيى من يزد لمساندة عمه، فانتعشت آمال شاه شجاع في استعادة شيراز وطرد شاه محمود منها، فزحف نحو مقره السابق.

فتح شيراز (ذو القعدة ٧٦٧هـ):

نشب القتال بين قوات شاه شجاع وشاه محمود في السادس عشر من ذي القعدة ٧٦٧هـ بالقرب من جسر فسا على طريق شيراز، وكان النصر من نصيب شاه شجاع. وفرّ شاه محمود وأتباعه إلى شيراز؛ وعندما وجدوا أهالي المدينة قد انضموا في الخفاء إلى شاه شجاع، اضطروا لمغادرة المدينة والفرار إلى العراق. فخرج شاه محمود من شيراز في ٢٤ ذي القعدة ودخل شاه شجاع مقره السابق. وفي تلك الأثناء، أعرض السلطان أحمد أيضاً عن شاه محمود وعاد إلى خدمة شاه شجاع، واضطر شاه محمود إلى اللجوء إلى أصفهان.

وبعد عودته إلى شيراز، عمل شاه شجاع على ترسيخ قواعد المذهب السني وترغيب علماء الدين وشرع في إنشاء المنشآت الخيرية، وبايع الخلفاء العباسيين المقيمين بمصر اقتداء بأسرة إينجو وأبيه الأمير مبارز الدين، وفي سنة ٧٧٠هـ حمل العلماء على كتابة رسائل بقبول بيعة القاهر بالله محمد بن أبي بكر وأدرج اسم هذا الخليفة في الخطبة.

وبعد تسليم شيراز، جاء شاه محمود إلى أصفهان؛ ولما كان لايزال يفكر في الانتقام من أخيه، فقد لازم السلطان أويس وقرر الزواج من ابنته. وفي سنة ٧٦٨هـ، اتجه شاه شجاع إلى أصفهان لطرده منها، ولكن حين أعلن شاه محمود تبعيته لأخيه فقد ترك له أصفهان وعاد إلى شيراز.

وكان شاه محمود متزوجاً من خان سلطان ابنة الأمير غياث الدين كيخسرو إينجو. وعندما علمت بنية شاه محمود الزواج من ابنة السلطان أويس الجلايري، كتبت رسالة وأرسلتها من أصفهان سراً لشاه شجاع ضد زوجها وبهدف الثأر لدم عمها شيخ أبي إسحاق ووعدته بتقييد زوجها وتسليمه له وبفتح بوابات المدينة أمام قواته إذا ما زحف بجيشه على أصفهان، وأوعزت إليه بنية السلطان أويس غزو العراق. ووصل شاه شجاع إلى أصفهان في سنة ٧٦٨هـ وعسكر خارجها. وحاولت خان سلطان بالتحريض والدسيسة أن تشعل الحرب بين الطرفين ولكنها لم تفلح في مسعاها لأن شاه محمود يخشى أخاه ويحس بالانكسار تجاهه. كما أن شاه شجاع كان قد ترك أصفهان في يد أخيه من جديد بعد اللقاء الذي تم بينهما وعاد إلى شيراز.

وكان يتولى وزارة شاه شجاع آنذاك خواجه قطب الدين سليمان شاه بن خواجه محمود كمال. وبعد عودته من أصفهان، أمر شاه شجاع بسجن وزيره وسمل عيني ابنه الأمير غياث الدين ونفاه إلى كرمان. وبعد فترة وجيزة في السجن فر قطب الدين ولجأ إلى شاه محمود بأصفهان وعينه محمود وزيراً له.

ولم تكف خان سلطان عن سعيها إلى القضاء على آل مظفر والانتقام لأسرة إينجو؛ فعادت إلى مراسلة شاه شجاع وبذلت في هذا السبيل كل جهدها حتى جاء شاه شجاع مرة أخرى إلى أصفهان بغرض الإطاحة بأخيه. وتذرع في هذه المرة بالمطالبة بجزء من عوائد المدينة. وعندما أدرك شاه محمود أن السبب الأول لحملة شاه شجاع هي زوجته خان سلطان إينجو قتلها وأوفد السفراء إلى

تبريز وتزوج ابنة السلطان أويس وأتى بها إلى أصفهان ودعم من موقفه في مواجهة أخيه بقوات الجلايريين.

وبعد هذه المصاهرة، أرسل السلطان أويس بعض قواته إلى أصفهان لمساندة صهره؛ وزحف شاه محمود بهذه القوات إلى شيراز بهدف فتحها. وخرج شاه شجاع أيضاً ومعه شاه منصور والسلطان أحمد لصده، ونشب القتال على أطراف شيراز. وحلت الهزيمة بكل من ميسرة جيش شاه شجاع وميمنة جيش شاه محمود، ولم تحسم المعركة لصالح أي من الطرفين. فاضطر شاه شجاع إلى العودة إلى داخل شيراز. وكتب وزيره سيد شاه ركن الدين حسن إليزدي رسالة إلى شاه محمود على لسان اثنين من الأمراء الملكيين من خصومه يعربون له فيها عن استعدادهم لفتح بوابات المدينة أمامه إذا كان هذا هو مقصده. فدون شاه محمود موعد دخوله المدينة على ظهر هذه الرسالة وأعادها. فعرضها شاه ركن الدين على شاه شجاع. فغضب شاه شجاع لدى اطلاعه على الرسالة وعزم على قتل الأمراء المتآمرين، إلا أنه علم ببراءتهم وفطن إلى مكيدة وزيره فقتله وأسند وزارته إلى أحد هؤلاء الأمراء وهو خواجه جلال الدين تورانشاه.

وعندما أدرك شاه محمود عجزه عن فرض سيطرته على شيراز بالقوة وعرف بزيف رسالة الأمراء، اضطر إلى مغادرة أطراف شيراز والعودة إلى أصفهان.

كان شاه شجاع قد عهد بحكومة كرمان لأحد خواصه من أهل خراسان يدعى پهلوان أسد بن طغانشاه. وشرع هذا الرجل بتحريض من سيورغتمش الأوغاني وشاه يحيى في تهيئة سبل استقلاله. وطالما ظلت مخدومشاه والدة شاه شجاع في كرمان، لم يكن يستطيع أن يجهر بعصيانه. ولكن ما أن غضبت هذه الخاتون على أتباع پهلوان أسد وذهبت إلى شيراز، تهيأت الفرصة لپهلوان أسد لتحقيق أطماعه في الملك.

وفي تلك الآونة خاف قطب الدين أويس بن شاه شجاع من أبيه وذهب إلى كرمان وأراد أن ينتزعها من پهلوان أسد بالحيلة، إلا أن پهلوان أسد لم يسمح له بدخول المدينة، فمضى أويس إلى شاه محمود بأصفهان، وازداد پهلوان أسد غروراً بقوته.

وفي سنة ٧٧٥هـ، اتجه شاه شجاع إلى كرمان وضرب حصاراً حولها. وفي تلك الأثناء، قام شاه

تمرد پهلوان أسد. وعندما وجد شاه يحيى نفسه في مأزق، خدع قوات شاه شجاع واستمهلهم حتى يرسل رسولاً إلى شيراز وتلبية مطالب شاه شجاع. وفي تلك الأثناء، شن هجوماً على هذه القوات وأنزل الهزيمة بمعظمهم. فأرسل إليه شاه شجاع شاه منصور شقيق شاه يحيى مرة أخرى إلى يزد للقضاء عليه. وفي هذه المرة، أوفد شاه يحيى أمه لاستمالة شاه منصور، فأصلحت الأم بين ولديها، ولكن نظراً لتشتت جيش شاه منصور، فقد خشي أخاه ومضى إلى مازندران، وجاء شاه شجاع بنفسه إلى يزد. وفي هذه المرة طلب العفو بشفاعة من أسرته، فعفا عنه شاه شجاع ولكنه أقسم ألا يعود من يزد إلا بعد الانتقام منه إذا أقدم على عصيانه مرة أخرى. وبعد هذا الاتفاق، عاد إلى شيراز في سنة ٧٨٠هـ.

وفاة شاه شجاع (٧٨٦هـ):

في سنة ٧٨٦هـ، ثار شخص يدعى عادل آقا في سلطانية تأييداً للسلطان حسين الجلايري ودعم موقفه وعزم على مهاجمة ممالك آل مظفر. فاتجه شاه شجاع إلى سلطانية لسحق عصيانه. ونشبت معركة شرسة بينه وبين قوات عادل آقا. ومع أن جيشه قد انهزم في البداية فقد انتهى الأمر باستيلائه على سلطانية نتيجة لثباته ووصول الإمدادات، وعفا عن أخطاء عادل آقا ثم عاد إلى شيراز.

وزاد نفوذ عادل آقا تدريجياً في سلطانية. وفي سنة ٧٨٤هـ، ثار السلطان أحمد الابن الآخر للسلطان أويس على أخيه السلطان حسين وقتل أخاه. وعندئذ، رفع عادل آقا راية الملك للابن الثالث لأويس ويدعى السلطان أبا يزيد وخاض الحرب ضد السلطان أحمد. ولما كان قد أعلن أنه صنيعة شاه شجاع، فقد طلب منه العون فجاء شاه شجاع إلى سلطانية في سنة ٧٨٥هـ.

وقبل وصوله إلى سلطانية، غضب شاه شجاع على ابنه شبلي ظناً منه أنه بصدد التمرد عليه، فاعتقله بالقرب من إقليد بإقليم فارس وسجنه في إحدى القلاع وسمل عينيه في شعبان ٧٨٥هـ. وفي أثناء رحلته هذه، توفيت والدة شاه شجاع وإخوته خان قتلغ مخدومشاه وشاه حسين شقيق شاه يحيى وشاه منصور. وكان لهذه الأحداث تأثير بالغ على نفس شاه شجاع. وبعد وصوله إلى

سلطانية، أصلح بين ولدَي السلطان أويس وخرج مع عادل آقا من سلطانية وانتهى النزاع بين السلطان أبي يزيد وشقيقه السلطان أحمد بالتصالح بوساطة منه.

واتجه شاه شجاع من قزوين إلى خرّم آباد وشوشتر، وعانت قواته الويلات في هاتين الولايتين بسبب الشتاء والأمطار ووعورة الطرق. وجاء إليه شاه منصور والي لرستان واتجه بعد مقابلته إلى شيراز، إلا أن شاه شجاع أفرط في الشراب في الطريق إلى درجة ألزمته الفراش. وعندما أحس بدنو الأجل، شرع في تقديم الصدقات والعطايا، واستدعى السلطان عماد الدين أحمد والسلطان مجاهد الدين زين العابدين اللذين كان لكل منهما أنصاره وكان يخشى أن يحتدم النزاع بينهما بعد وفاته؛ وللحيلولة دون ذلك بذل لهما النصح وأوصاهما باحترام العهد. ونصب السلطان زين العابدين ولياً للعهد وعهد بأصفهان إلى شقيقه الأصغرالسلطان أبي يزيد، وعين السلطان أحمد والياً على كرمان، ثم كتب رسالتين إحداهما للأمير تيمور جوركان والأخرى للسلطان أحمد الجلايري يوصيهما برعاية أولاده. وفي يوم الأحد ٢٢ شعبان ٧٨٦هـ، أسلم الروح ودفن في شيراز.

مضمون رسالة شاه شجاع إلى الأمير تيمور جوركان:

«... بعد الدعاء بصالح الأدعية وهي وسيلة المخلصين، ننهي إليكم أنه قد ثبت رأي أولي الألباب بأن الدنيا مكان الحادثات والمكاره وأن أصحاب العقول لا يلتفتون إلى زخرفها الزائف ويفضلون النعيم الباقي على الدنيا الفانية ويدركون أن الفناء حق على كل مخلوق. وقبل عدة أيام من المضي إلى عرش المهيمن تقدس اسمه وتعالى تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير، فقد وضع الله أعنة جمع من عباده في يد الفقير إلى الله فسعيت قدر الإمكان إلى رفع رايات الدين وإجراء الأحكام المبينة واتباع أوامر سيد المرسلين ووضع استقامة أحوال الرعايا نصب عينيه خالصة لوجه الله وبعون الله هيأ أسباب المعاش لكل الخلق. ونظراً للصداقة التي جمعت بيني وبين جنابكم فقد اعتبرنا ذلك من فتوح الزمان وبقينا بأقدام راسخة على العهد الذي عقدناه معك حتى لا تقول إننا غادرون، وهو ما نباهي به باعتباره من الصفات المستحسنة عند العالمين. والآن وقد بلغ إلى مشام روحنا نسيم دعوة الحق وجاءنا داعي قوله تعالى ولا نجد لسنتنا تحويلاً والله يدعو إلى دار السلام وطرق بابنا وقال عشك عند العرش فلا تخف وستقيم في دولة

يحيى الذي لم يكن يملك الجرأة للمشاركة المباشرة في تمرد على شاه شجاع بتحريض نائب شاه شجاع في شيراز بالثورة عليه. وحين علم شاه شجاع بذلك، ترك السلطان أحمد وابنه زين العابدين في قيادة الحصار حول كرمان وعاد إلى شيراز.

وبذل السلطان أحمد كل جهده لسد طريق المؤن على أهالي كرمان إلى أن ضاق الخناق عليهم وعلى پهلوان أسد، وكادت المدينة تسقط في يده. وكان يريد بعد الاستيلاء على كرمان أن يتركها له شاه شجاع، إلا أن أخاه شاه شجاع لم يكن يوافق على ذلك؛ لذا فقد عمد إلى التهاون في فتح كرمان. فاستدعاه شاه شجاع إلى شيراز وأرسل اثنين من قواده لمواصلة حصار كرمان، فتمكنا من فتحها بمساعدة الأهالي بعد حصار دام تسعة أشهر وعشرين يوماً، ومزق الأهالي جسد پهلوان أسد (٧٧٦هـ).

وفاة شاه محمود (شوال ٧٧٦هـ):

بعد فتح كرمان، علم شاه شجاع أن شاه محمود توفي في ١٤ شوال ٧٧٦هـ وأن النزاع قد دب بين أنصاره حول تحديد خليفته. فطالب بعضهم بتولية أويس بن شاه شجاع؛ بينما كان بعض آخر منهم موالون لشاه شجاع نفسه. واغتنم الأمير المظفري الفرصة واتجه إلى أصفهان واستولى عليها دون عناء. وجاء أويس إلى أبيه وحظي بعنايته.

وبوفاة السلطان أويس، تهيأت الساحة أمام شاه شجاع لغزو تبريز. واتجه بعد الاستيلاء على أصفهان إلى آذربيجان حيث تغلب على قوات السلطان حسين بن أويس الجلايري ودخل تبريز، وأرسل شاه منصور وعدداً آخر من أمرائه إلى حدود نخجوان وقراباغ؛ إلا أن شاه شجاع تراجع إلى فارس بعد شهر أو شهرين بعد حملة اثنين من أمراء مراغة الخاضعين للجلايريين على فرقة من جيشه في أوجان وبسبب حلول الشتاء وازدياد ألم ساقه. وبعد عودته جاء السلطان حسين إلى تبريز وفتح باب التصالح مع شاه شجاع، وتصالح الطرفان على تبادل الأسرى وزواج ابنة السلطان حسين من زين العابدين بن شاه شجاع، وترك شاه شجاع حكم أصفهان لابنه هذا.

وبعد عودته من آذربيجان، أرسل شاه شجاع جيشاً إليها بغرض تأديب شاه يحيى لدوره في

الثري. ونحمد الله تعالى أن لم يبق في خاطرنا مكان للحسرة والقلق على الرغم من كل الآثام والخطايا الملازمة لوجود الإنسان فالأمل في الإحسان: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ومضت السنوات الثلاث والخمسون: متى زدت تقصيراً تزدني تفضلاً كأني بالتقصير أستوجب الفضل، فقلنا لبيك اللهم لبيك وقلنا للنفس الأمارة ارجعي إلى ربك. واستراحت روحي بهذه البشرى، فكيف لا تحلّق الروح حين يوافيها نداء الحق أن تعال والق عن كاهلك أثقال الطمع والأمل فولينا وجه التضرع إلى ذي العزة. تعاليت يا من سلامك سكينة الروح وعز كلامك مفتاح كنوز الفتوح والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً. بارك الله في عمر دولتك وأدام عدلك على العباد. وبناء على خلوص النية وصفاء الطوية الذي هو أصفى من الماء الزلال أودع ابني زين العابدين أطال الله عمره عند الله وفي ظل عنايتكم وأوصي جنابكم بسائر أبنائي الصغار وإخوتي فدولتكم ذخر للأخلاق وهذا حري بسجاياكم الكريمة ولطفكم العميم بمقتضى أن حسن العهد من الإيمان. فلتشملهم بظلك المبارك ولتمتد عليهم ظلال عطفك حتى يشهد بذلك صغار إيران وتوران وكبارهما ويبقى ذكرها عبر القرون ويتمنى الحساد فلا يجدون مجالاً للشماتة. وهو ما له ذكر طيب للصديق المخلص الذي نال القربى بالعهد والميثاق والسعادة ويبقى ذكره بالفاتحة والدعاء بالخير بمقتضى يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين إن شاء الله تعالى وحده العزيز»

أمضى شاه شجاع معظم مدة حكمه التي استمرت ستاً وعشرين سنة كما رأينا في صد المتمردين وكان يخرج من معاركه منتصراً في الغالب. وكان رجلاً شجاعاً ومتديناً كأبيه؛ فحفظ القرآن في التاسعة وسعى جاهداً لإقامة شعائر الدين. وكان ملكاً فاضلاً وشاعراً وأديباً تتلمذ على القاضي عضد الدين الإيجي وغيره من علماء عصره، وكانت لديه ذاكرة عجيبة فكان يحفظ سبعة أبيات أو ثمانية من أشعار العرب بعد سماعها مرة واحدة؛ وكان يقرض الشعر بالعربية والفارسية وبقيت منه عدة رباعيات وقصائد بالفارسية؛[٢٨] وازدهر في عهده الشعر الفارسي. فكان حافظ الشيرازي وعماد فقيه الكرماني من شعراء عصره ومن مداحيه.

السلطان زين العابدين (٧٨٦-٧٨٩هـ):

كان لشاه شجاع أربعة أبناء هم مجاهد الدين زين العابدين وهو ولي العهد والخليفة بناء على وصية أبيه، ومظفر الدين شبلي الذي سمل شاه شجاع عينيه قبل وفاته، وقطب الدين أويس وقد روينا قصة ثورته على أبيه وعفوه عنه، ومعز الدين جهانكير.

وبعد وفاة شاه شجاع، تولى مجاهد الدين زين العابدين مكان أبيه، ولكنه في المرحلة الأولى واجه معارضة من جانب أعيان آل مظفر؛ فمن ناحية، ذهب شاه يحيى إلى أصفهان بدعوة من أهلها واستولى عليها وشن حملة على شيراز عاصمة السلطان زين العابدين بغرض فتحها، ومن ناحية أخرى تخلى أبو يزيد ابن الأمير مبارز الدين وأقاربه عن السلطان زين العابدين وانضموا إلى قوات شاه يحيى. وعندما وجد السلطان زين العابدين أنه أضعف من شاه يحيى، تصالح معه وترك حكومة أبرقو لأبي يزيد. وحين بلغه أن شاه منصور بن شاه مظفر قد هاجم حدود شوشتر، خرج إلى كازرون، إلا أن شاه منصور فر أمامه.

أما أهالي أصفهان فقد طردوا شاه يحيى من مدينتهم بعد عودته إليها لأنه كان رجلاً مقتراً. فعاد شاه يحيى إلى يزد ودان أهالي أصفهان لطاعة السلطان زين العابدين. وبعد فتح أصفهان، ولّى السلطان خاله الأمير مظفر الدين الكاشي حاكماً عليها ومضى هو إلى نطنز وانتصر على أبي يزيد الذي كان والياً عليها من قبل شاه يحيى وفر أبو يزيد إلى لرستان، وعاد السلطان زين العابدين إلى شيراز.

كان شاه شجاع قبل وفاته وكما سبقت الإشارة قد ولّى أخاه عماد الدين أحمد على حكومة كرمان ووصل عماد الدين إلى أرض كرمان قبل وفاة شاه شجاع باثني عشر يوماً واستقر فيها.

وبعد وفاة شاه شجاع، قام زين العابدين بتعيين الأمير سيورغتمش الأوغاني رئيساً لقبيلتي أوغاني وجرمائي. وشرع هذا الأمير المتمرد في عصيان السلطان أحمد وثار عليه ونشب القتال بين الطرفين عدة مرات إلى أن قتله السلطان أحمد في سنة ٧٨٧هـ وتخلص من شره.

وفي سنة ٧٨٨هـ، جمع السلطان أبو يزيد الذي كان قد أفلت من يد السلطان زين العابدين وفر إلى لرستان جماعة حوله وأتى إلى كرمان. وكان السلطان أحمد بصدد استدعائه لبلاطه،

ولكنه حين بلغه أن أتباعه الجوعى أغاروا على القرى وتعدوا على الأهالي لم يسمح له بدخول كرمان، فتوجه أبو يزيد إلى شاه يحيى بيزد.

وفي السنة نفسها، أوفد الأمير تيمور جوركان الذي كان قد فتح كل ما وراء النهر وتركستان وجزءاً من إيران رسولاً إلى السلطان زين العابدين بشيراز يطلب منه التعجيل بالذهاب إليه حيث كان أبوه قد ائتمن الأمير عليه. فلم يرد السلطان زين العابدين على رسالة تيمور ولم يسمح لرسوله بالعودة؛ فجاء الأمير الجوركاني من همدان إلى أصفهان في سنة ٧٨٩هـ وأخضع واليها الأمير مظفر الدين الكاشي لطاعته. ففرَّ السلطان زين العابدين وأمراؤه إلى بغداد. أما شاه يحيى فقبل بالتسليم. وانشغل عمال الأمير تيمور في أصفهان بجمع الأموال التي وافق الأهالي على دفعها لجنود الأمير؛ ولكن نظراً لتعدي هؤلاء الجنود على الناس وأموالهم وعيالهم فقد قتلهم أهالي أصفهان. فغضب الأمير تيمور من هذه الواقعة وأصدر أمراً بإعمال القتل العام في المدينة، ولقي سبعون ألفاً من أهالي أصفهان مصرعهم على يد جنود الأمير السفاح.

وبعد مذبحة أصفهان، اتجه الأمير تيمور إلى شيراز. وأوفد السلطان أحمد الذي كان قد أعلن استسلامه للأمير تيمور أحد أمرائه إلى الأمير. ونظراً لعناية الأمير تيمور بالسلطان أحمد، فقد أسرع السلطان أحمد بالذهاب إليه؛ وبذلك تمكن الأمير تيمور من فرض هيمنته على ممالك آل مظفر دون عناء، وقسمها بين شاه يحيى والسلطان أحمد والسلطان أبي إسحاق بن السلطان أويس بن شاه شجاع، ثم عاد إلى ما وراء النهر على أثر ما بلغه من أنباء سيئة منها.

أما السلطان زين العابدين الذي فر إلى بغداد فقد انخدع بوعود شاه منصور والي شوشتر بمساندته ووقع في أسره وسجنه شاه منصور بقلعة سلاسل بشوشتر.

شاه يحيى (٧٨٩هـ-٧٩٥هـ):

أسند الأمير تيمور حكومة شيراز لشاه نصرة الدين يحيى، وسيرجان للسلطان أبي إسحاق بن أويس بن شاه شجاع، وكرمان للسلطان عماد الدين أحمد. وبعد تنفيذ هذا التقسيم، جاء شاه يحيى إلى شيراز وحقق أمنيته القديمة وجلس على كرسي إمارة آل مظفر مكان شاه شجاع

والسلطان زين العابدين.

وما أن سمع السلطان أبو يزيد الذي كان في يزد ويفكر في اللجوء إلى الهند بنبأ تقسيم ممالك آل مظفر ووجد نفسه خارج هذه القسمة حتى جاء إلى كرمان واتفق مع جماعة من الأوغانيين وأعلنوا العصيان ضد السلطان أحمد. فهزمهم السلطان أحمد وألقى القبض على أخيه أبي يزيد ثم عفا عنه وأرسله إلى هرمز. فجمع أبو يزيد الضرائب المتبقية فيها وعاد إلى كرمان، وظل في خدمة أخيه حتى وفاته في سنة ٧٩٢هـ.

أما أبو منصور فبعد تقييده للسلطان زين العابدين وعلمه بعودة الأمير تيمور، خرج من شوشتر إلى شيراز. ووجد شاه يحيى ألا طاقة له على مواجهة أخيه الأصغر، فغادر شيراز واتجه إلى يزد، واستولى شاه منصور على شيراز دون عناء.[٢٩]

وفي طريق عودته إلى يزد، استطاع شاه يحيى بالخديعة والترغيب أن يجتذب السلطان أبا إسحاق إلى صفه وأوقع بوالي أبرقو أيضاً في شراك مكره وقتله واستقر بتلك المناطق من جديد، وشرع في الاستيلاء على كرمان من السلطان أحمد أيضاً. ونشبت الحرب بين قوات السلطان أحمد من ناحية وجنود السلطان أبي إسحاق وشاه يحيى من ناحية أخرى في السابع من جمادى الأولى من سنة ٧٩٢هـ بصحراء بافت، وكان النصر من نصيب السلطان أحمد، بينما لاذ كل من شاه يحيى وأبو إسحاق بالفرار.

أما السلطان زين العابدين الذي كان مسجوناً بقلعة سلاسل، فقد تمكن بعد استقرار شاه منصور في شيراز وبعون من عدد من حراسه من الهروب من سجنه واتجه إلى أصفهان. وفي الطريق، التقى بخاله الأمير مظفر الدين الكاشي واتجها معاً إلى أصفهان وفرضا سيطرتهما عليها.

شاه منصور (٧٩٠هـ-٧٩٥هـ):

حين بلغ شاه منصور نبأ استيلاء زين العابدين على أصفهان، اتجه إلى شيراز بغرض فتحها. فاستولى أولاً على أبرقو ثم مضى إلى أصفهان. ولكن لما كان فتح تلك المدينة أمراً عسيراً فقد عاد إلى شيراز ومنها إلى لرستان فأخضعها لطاعته وولّى عليها أحد أحفاد أتابكة اللر من قبله، واتجه إلى

شيراز للإعداد للاستيلاء على أصفهان.

عقد شاه يحيى والسلطان زين العابدين والسلطان أحمد والسلطان أبو إسحاق حلفاً وعزموا على التوجه إلى كرمان ويزد وأصفهان بغرض الإطاحة بشاه منصور واتفقوا على اللقاء في شهر صفر ٧٩٣هـ بسيرجان لشن حملة جماعية على شاه منصور. ولكن بمجرد أن تحرك شاه منصور إلى سيرجان حتى أخلف شاه يحيى كعادته بوعده لحلفائه. وانتهى الأمر بانتصار شاه منصور على قوات السلطان أحمد والسلطان زين العابدين في فسا. وعاد زين العابدين إلى أصفهان وأحمد إلى كرمان بالهزيمة، بينما ظل أبو إسحاق في سيرجان.

وبعد هذا الفتح، عاد شاه منصور إلى شيراز وأعد العدة واتجه إلى أصفهان لانتزاعها من يد السلطان زين العابدين. ولما كان معظم قوات زين العابدين قد انضم إلى شاه منصور، فقد غادر زين العابدين أصفهان بدون حرب واتجه صوب خراسان، واستولى شاه منصور على المدينة.

وما أن وصل زين العابدين إلى الري حتى اعتقله واليها وأرسله إلى شاه منصور فسمل عينيه ثم مضى إلى يزد وأعمل التخريب في معظم الولاية. وبعد التصالح مع شاه يحيى اتجه إلى كرمان، وأرسل إلى السلطان أحمد برسالة يخيره فيها بين تحالفه معه وتخليهما عن صداقة الأمير تيمور وتقديم كل منهما جيشاً لصد زحف شاه منصور الذي ذهب إلى خراسان وبين الاستعداد للحرب. ولم يكن السلطان أحمد يمتلك الجرأة الكافية لمحاربة الأمير تيمور، لذا فقد رفض هذا العرض. وأعمل شاه منصور التخريب في معظم قرى يزد وكرمان ثم عاد إلى شيراز، وحرض السلطان أبا إسحاق ضد السلطان أحمد ومهاجمة ولاياته. وانشغل أبو إسحاق لمدة بالعدوان على الأراضي الخاضعة للسلطان أحمد إلى أن قتله السلطان أحمد إبان غزو الأمير تيمور للعراق وإقليم فارس.

نهاية آل مظفر (٧٩٥هـ):

غضب الأمير تيمور من جراءة شاه منصور وتجاوزاته، فغادر شوشتر في أوائل سنة ٧٩٥هـ متجهاً إلى شيراز، وبعد فتح قلعة سفيد الحصينة أطلق سراح السلطان زين العابدين الأعمى الذي كان سجيناً بها بامر من شاه منصور ووعده بالانتقام له من شاه منصور. وكان شاه منصور حينذاك في

أصفهان وجاء إلى شيراز، وبدلاً من الاستعداد للدفاع، انغمس في الشراب واللهو فلم يره أحد لمدة أربعين يوماً. وما أن بلغه نبأ فتح الأمير تيمور لقلعة سفيد وفي طريقه إلى شيراز حتى فرّ من المدينة. وفي فسا، سأل عدداً من الفارين من شيراز ممن جاؤوا في أعقابه عما يقوله الناس عنهم؛ فقيل له إنهم يسخرون ويقولون إن المغرورين فروا كالنعاج. فغضب شاه منصور لدى سماعه لذلك الكلام وعاد من فوره إلى شيراز وحشد ما يقرب من خمسة آلاف من المشاة والفرسان وهاجم قوات الأمير تيمور التي بلغ عددها ثلاثين ألف جندي على بعد ثلاثة فراسخ من شيراز. وعلى الرغم من وقوع الاضطراب في جناحي جيشه فقد ظل يقاتل بنفسه ببسالة وهجم عدة مرات على قلب جيش تيمور إلى أن انكسرت مقاومتهم فلم يبق منهم سوى الأمير تيمور وخمسة من رفاقه. وانقض شاه منصور مرة واحدة على قلنسوة الأمير تيمور نفسه ولم ينقذ تيمور من ضربة سيفه سوى الدرع الذي تلقاها به أحد أمرائه. وعاد شاه منصور إلى شيراز مصاباً بثلاثة جروح، إلا أن أحد أتباع الأمير تيمور لم يعرفه فجذبه من فوق جواده وقتله.

بعد مقتل شاه منصور، أسرع سائر أفراد أسرة آل مظفر أي السلطان أحمد والسلطان مهدي بن شاه شجاع وصهر السلطان أحمد والسلطان أبو إسحاق وشاه نصرة الدين يحيى وأبناؤه السلطان جهانكير والسلطان محمد إلى الأمير تيمور الجوركاني، فقيدهم جميعاً. وبدأ بإرسال السلطان شبلي الذي كانت عيناه قد سملتا بأمر من أبيه شاه شجاع والسلطان زين العابدين الذي كان شاه منصور قد سمل عينيه إلى سمرقند، ثم عهد بإقليم فارس إلى ابنه عمر شيخ، واصطحب أمراء آل مظفر معه إلى أصفهان. ولكنه قبل أن يصل إلى تلك المدينة أمر بقتل كل أفراد آل مظفر كبيرهم وصغيرهم في العاشر من رجب من سنة ٧٩٥هـ بقرية ماهيار بولاية قمشة، وقام ولاة تيمور في الولايات بقتل من تبقى منهم. وقد ورد أن عدد من قتلوا من هذه الأسرة على يد عمال تيمور بلغ السبعين قتيلاً. وهكذا آلت هذه الأسرة الكبيرة إلى هذه النهاية المفجعة وبقي اسمها خالداً في تاريخ الأدب الفارسي بفضل معاصرة الشاعر الكبير حافظ الشيرازي لها ولم يبق منها سوى هذا الذكر الطيب.[٣٠] يقول أحد شعراء ذلك العهد عن سقوط آل مظفر:

انظر إلى آل مظفر واعتبر — كانوا ملوكاً اختطفوا الكرة من السلاطين
في سنة خمس وتسعين وسبعمئة — في ليلة العاشر من رجب جاءهم الموت
نبتوا في الأزمان كالنخيل — وزالوا في لحظة كالكراث

وعلى الرغم من تعقل آل مظفر وبسالتهم ونشرهم للعلم والأدب فقد غلب عليهم التعصب والبطش والنفاق والتناحر بين الإخوة وسمل الأعين. وحتى شاه شجاع بكل علمه وفضله لم يخل من هذه النقائص. وهي سمات أدت إلى زوال دولتهم. وقد امتد حكم هذه الأسرة اثنتين وسبعين سنة من ٧٢٣هـ إلى ٧٩٥هـ، وكانت منطقة حكمهم تشمل إقليم فارس وكرمان ويزد وأصفهان وبعض أجزاء من خوزستان.

آل مظفر:

١- الأمير مبارز الدين محمد بن غياث الدين حاجي	من ٧٢٣ إلى ٧٦٠
٢- *شاه محمود ابن الأمير مبارز الدين محمد*	من ٧٦٠ إلى ٧٧٧
٣- السلطان عماد الدين أحمد ابن الأمير مبارز الدين محمد	من ٧٦٠ إلى ٧٩٥
٤- شاه نصرة الدين يحيى ابن الأمير مبارز الدين محمد	من ٧٦٠ إلى ٧٨٦
٥-شاه شجاع ابن الأمير مبارز الدين محمد	من ٧٦٠ إلى ٧٨٦
٦- السلطان زين العابدين بن شاه شجاع	من ٧٨٦ إلى ٧٩٠
٧- شاه منصور بن شاه مظفر ابن الأمير مبارز الدين محمد	من ٧٩٠ إلى ٧٩٥

٥- أمراء لرستان

لرستان هي الأراضي التي سكنتها قبائل اللر إبان الاجتياح المغولي؛ وهي تنقسم إلى قسمين: اللر الكبير واللر الصغير؛ وفيما بين أراضي اللر وشيراز، هناك منطقة ثالثة يقطنها اللر وتعرف بشولستان. وكانت شولستان تقع مكان مَمَسّني الحالية واللر الكبير مكان جبل جيلوية وبختياري، واللر الصغير هي ما يعرف حالياً باسم لرستان. والهدف من هذا التقسيم الأخير هو أن ما يعرف باللر الصغير آنذاك كان يشمل أطراف خرم آباد والأراضي الواقعة خلف الجبل.

وكان كل من هذين القسمين أي اللر الكبير واللر الصغير يحكمه أمراء شبه مستقلين منذ فترة ما قبل الاجتياح المغولي وبعد مدة من سقوط الإيلخانات؛ وقد اشتهر بعض هؤلاء الأمراء في التاريخ إما بسبب دورهم في الأدب الفارسي أو بسبب الصراع مع الأُسَرِ الأخرى.

ولقبائل اللر الكبير وأمرائه شهرة أكبر في التاريخ من اللر الصغير، لأن هذه القبائل كانت تقطن المنطقة الواقعة بين إقليم فارس وعراق العجم وعراق العرب وشولستان، وكانت لهم علاقات بأتابكة فارس وخلفاء بغداد. والأهم من ذلك أن مساكنهم كانت تقع على طريق عراق العرب ووديان كارون وكرخه بإقليم فارس وسواحل البحر، وكان لابد لمعظم الحملات والرحلات من جنوب غرب إيران إلى الغرب وعراق العرب أن تمر عن طريق مساكن تلك القبائل. وقد أدت أهمية الموقع الجغرافي لبلاد اللر الكبير إلى أهمية دورهم في حياة جيرانهم، في حين أن أراضي اللر الصغير كانت بعيدة نسبياً وكانت مدنه وقراه تقع على طرق أقل أهمية.

وكانت الأسرة التي سيطرت على اللر الكبير منذ قرابة منتصف القرن السادس الهجري وتعرف بأمراء الفضلوية أو أتابكة لرستان تجاوزاً، في الأصل من أكراد الشام كانوا قد نزحوا إلى إيران عن طريق ميافارقين و آذربيجان، واستقر بهم الحال في أوائل القرن السادس الهجرى على حدود جبل أشتران ووديانه الشمالية.

وكان زعيم هذه القبيلة الكردية المهاجرة يدعى أبا طاهر بن علي بن محمد. ولما كان جده التاسع يكنى بفضلوية، فقد اشتهرت ذريته بالأمراء الفضلوية. وكان أبو طاهر وأخوه محمد يخضعان للخلفاء العباسيين؛ وكان أبو طاهر يقيم في دار الخلافة إبان تولي أخيه الزعامة، وكان الخليفة يقطعه بعض أراضي اللر الكبير. وبعد عودته إلى اللر الكبير، أصبح أبو طاهر تابعاً لبلاط الأتابك سنغر السلغوري (٥٤٣هـ-٥٥٦هـ) بسبب مجاورته لفارس، وكان يدعمه في حملاته على أراضي شبانكاره، وفي مقابل هذه الخدمات، ترك له الأتابك سنغر حكم جبل جيلوية ومنحه لقب أتابك، وهو ما أدى إلى اشتهار أبنائه بأتابكة لرستان، إذ لم يحدث أن خضع هؤلاء الأتابكة للسلاجقة، وبالتالي فإنهم لم يحصلوا على هذا اللقب منهم كسائر الأتابكة.

تولى أبو طاهر الحكم لمدة أربع وثلاثين سنة. وفي المرحلة الأولى من فترة إمارته، دخل في صراع

مع الأتابك سنغر ثم استقل تدريجياً وأسس أسرة أتابكة لرستان أو أمراء الفضلوية. وبعد أبي طاهر، آلت الإمارة إلى ابنه الملك هزار أسب الذي ظل في سدة الحكم حتى سنة ٦٢٦هـ. وقد شهدت مدن اللر الكبير في عهده حركة عمرانية كبيرة، ونزحت إليها قبائل شتى من أصول عربية وفارسية.

وقام هزار أسب بطرد من تبقى من قبائل شول من أرضه وهاجم لرستان الأصلية أي بلاد اللر الصغير ودخل في صراع مع أتابكة فارس حول قلعة منجشت (جنوب غرب مال أمير الحالية) ووسع منطقة نفوذه حتى منطقة قريبة من أصفهان. وقد شمل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥هـ-٦٢٢هـ) الملك هزار أسب بعطفه ومنحه لقب أتابك. كما أحسن السلطان محمد خوارزمشاه معاملته حين جاء إلى العراق وخطب ابنته لابنه غياث الدين. وحين فرّ خوارزمشاه أمام المغول ولجأ إلى بروجرد، جاء الملك هزار أسب إليه لمساندته، إلا أنه سرعان ما عاد بجيشه إلى بلاده على أثر مكيدة أمراء السلطان ضده.

وكان للملك هزار أسب ولدان، هما عماد الدين پهلوان ونصرة الدين كلجة. وقد تولّى عماد الدين الحكم بعد أبيه، وتوفي في سنة ٦٤٦هـ، وخلفه شقيقه كلجة إلا أن دولته لم يكتب لها البقاء، حيث وافته المنية بعد عامين ونصف العام.

أتابكة تكلة (٦٤٩هـ-٦٥٦هـ):

كان الأتابك مظفر الدين تكلة أحد أشهر أتابكة لرستان؛ وكان في صراع مع أتابكة فارس وأمراء اللر الصغير وشول والمغول، وأمضى معظم سنوات حياته في صراعات. وفي عهد تكلة، احتدم الصراع بين أتابكة فارس وأتابكة لرستان الذي بدأ منذ عهد هزار أسب، حيث شن سعد بن زنكي ثلاث حملات على الأراضي التابعة لتكلة بهدف استئصال شأفة أمراء الفضلوية والسيطرة على بلاد اللر الكبير، إلا أنه لم يكتب له النصر في أي من هذه الحملات، بل كان من نصيب تكلة مما زاد من مكانته واعتباره.

وفي سنة ٦٥٥هـ حين وصل جيش هولاكو إلى هذه المنطقة في طريقه لغزو بغداد والعراق، قدم

تكلة فروض الطاعة لهولاكو وشارك في حملته على بغداد. ولكنه بعد أن رأى الفظائع التي ارتكبها التتار في هذه الحملة، تأثر لمقتل الخليفة ونكبة المسلمين وعزم على العودة إلى لرستان. وحين أبلغ أمراء المغول هولاكو بذلك، أمر بإلقاء القبض عليه لولا أنه عاد إلى لرستان بدون إبلاغه. فارسل هولاكو قائده الشهير كيتو بوغا وعدداً آخر من قواده إلى بلاد اللر لاعتقال تكلة. وألقى الأمراء القبض على ألب أرغو شقيق تكلة في الطريق، ولكنهم لم يفلحوا في الإمساك بتكلة نفسه حيث تحصن بقلعة منجشت. وفي النهاية وجه هولاكو تحذيراً لتكلة. وحين جاء تكلة إلى الإيلخان، اصطحبه معه إلى تبريز وقتله في ذي القعدة ٦٥٦هـ وولّى شقيقه شمس الدين ألب أرغو على بلاد اللر.

استمرت إمارة شمس الدين ألب أرغو لمدة خمس عشرة سنة ولم تشهد أية أحداث مهمة؛ فقد أمضى فترة حكمه في سلام بين المشاتي والمصايف وبين عاصمة أمراء الفضلوية أي إيذج (مال أمير الحالية) ومشاتي خوزستان. وتوفي في سنة ٦٧٢هـ.

يوسف شاه (٦٧٢هـ-٦٨٨هـ):

بعد ألب أرغو، خلفه ابنه يوسف شاه الذي قضى فترة شبابه في بلاط أباقا خان. لذا فقد ظل ملازماً لمعسكر المغول بعد توليه الأتابكية وترك إدارة شؤون إمارة اللر لنوابه.

وقد أدّى يوسف شاه خدمات كثيرة لإيلخان المغول، ومنها مشاركته في الحرب ضد براق خان وفي الحملة التي شنها أباقا على جيلان أنقذ أباقا من الهلاك. لذا فقد منحه الإيلخان لقب بهادر وضم إلى نطاق حكمه خوزستان وجبل جيلوية ومدينة فيروزان (على بعد سبعة فراسخ من أصفهان) وجلبايجان. ودخل الأتابك في صراع مع قبائل شول على الحدود الشرقية لجبل جيلوية وانتصر عليهم.

وبعد وفاة أباقا وجلوس السلطان أحمد تكودار و بدء الصراع بين أحمد وأرغون خان، اتجه على رأس ألفي فارس وعشرة آلاف من المشاة لدعم أحمد إكراماً لذكرى أباقا. وعندما انهزم السلطان أحمد أمام أرغون في سنة ٦٨٣هـ عاد أتباع الأتابك إلى نطنز عن طريق طبس وهلك كثير منهم في

الطريق بسبب العطش وحلت بقوات الأتابك كارثة مُروِّعة.

وبعد جلوس أرغون، قدم الأتابك يوسفشاه فروض الطاعة للإيلخان الجديد، وكلفه أرغون بإحضار شمس الدين الجويني صاحب الديوان. فجاءه يوسف شاه به، وأعطى شمس الدين ابنته للأتابك لتصبح زوجة له. وبعد مقتل شمس الدين، عاد الأتابك يوسف شاه إلى بلاد اللر بأمر من أرغون وظل بها حتى توفي في سنة ٦٨٨هـ.

الأتابك أفراسياب (٦٨٨هـ-٦٩٥هـ):

كان للأتابك يوسف شاه ولدان هما أفراسياب وأحمد. وقد تولّى أفراسياب الأتابكية خلفاً لوالده وأوفد أخاه أحمد لملازمة الإيلخان. وكان أفراسياب حاكماً مستبداً وجائراً؛ فبدأ باعتقال أفراد أسرة وزير أبيه وقتلهم بصور شنيعة، ولجأ بعض أقاربهم إلى أصفهان خوفاً من بطشه، وأرسل أفراسياب أحد أقربائه للإمساك بهم. وقد تزامنت هذه الواقعة مع وفاة أرغون (٦٩٠هـ) وتدهور أوضاع البلاط الإيلخاني. ووجد أفراسياب الفرصة مهيأة لإعلان العصيان ضد المغول؛ فأمر أتباعه بقتل المغول المقيمين في أصفهان، وأوفد ولاة من قبله إلى همدان وفارس وحتى ساحل البحر وقرر شن حملة على تبريز، وجاء بنفسه إلى العراق، وألحق الهزيمة بأحد قادة المغول بالقرب من قهرود بكاشان وحصل على غنائم وفيرة وأساء معاملة أسرى المغول إساءة بالغة.

واستاء الإيلخان الجديد كيخاتو من تصرفات أفراسياب وجرأته، وأرسل جيشاً كبيراً للقضاء عليه وسحق قبائل اللر الكبير. وأخذ المغول يذبحون اللر ولجأ أفراسياب الذي عجز عن المقاومة إلى قلعة منجشت. وعندما ادرك انه ليس نداً للمغول، ذهب إلى معسكر كيخاتو لطلب العفو، ونال عطف الإيلخان. وترك أفراسياب أخاه أحمد في المعسكر ومضى إلى لرستان حيث أقدم على قتل عدد من أمراء بلاده وأعيانها بذرائع شتى إلى أن استقل تماماً.

وفي عهد غازان خان، نال أفراسياب عطفه في البداية وتولّى إمارة بلاد اللر من قبله. وفي سنة ٦٩٥هـ حين جاء غازان إلى همدان، مَثُلَ أفراسياب بين يديه لتقديم فروض الطاعة ثم استأذن للعودة. وفي طريق عودته، التقى بالأمير هرقداق والي فارس الذي كان في طريقه إلى معسكر

الإيلخان، فاصطحب الأتابك معه إلى غازان. وفي حضرة الإيلخان قدم تقريراً عن سوء سيرته فقتله غازان في ٢٠ ذي الحجة ٦٩٥هـ.

نصرة الدين أحمد (٦٩٥هـ-٧٣٠هـ)

بعد أفراسياب، تولّى أتابكية لرستان أخوه نصرة الدين أحمد الذي يعد أحد أشهر أمراء الفضلوية؛ فإلى جانب حسن سلوكه، كان محباً لمجالسة العلماء والأدباء والشعراء وترك ذكرى طيبة.

نشر الأتابك نصرة الدين أحمد عادات المغول في لرستان، وبذل جهوداً كبيرة لإصلاح ما تخرَّبَ في عهد أخيه وأنشأ المدارس والرباطات ومهَّدَ الطرق، وأنشأ قرابة مئة وستين زاوية أو خانقاه في مختلف المدن والبلدان منها أربع وثلاثون زاوية في عاصمته إيذج. وكان يقسم عوائد مملكته إلى ثلاثة أسهم متساوية، وخصَّصَ ثلثاً لمعاشه ومعاش أقربائه؛ وثلثاً آخر لرعاية الجنود، والثلث الأخير للزوايا والمدارس. كما كان رجلاً ورعاً، وكان يرتدي تحت عباءته رداء من الصوف، وكان يطعم الفقراء ويمنحهم المال. وترك نصرة الدين أحمد ذكرى طيبة في تاريخ الأدب الفارسي أيضاً، فقد تمّ وضع ثلاثة كتب بالفارسية باسمه، أولها المعجم في آثار ملوك العجم في التاريخ تأليف شرف الدين فضل الله الحسيني القزويني، والثاني معيار نصرتي في فن العروض والقوافي وقد وضعه شمس فخري الأصفهاني في قرابة عام ٧١٣هـ باسم الأتابك نصرة الدين أحمد؛ والأخير بعنوان تجارب السلف وهو ترجمة لكتاب الفخري لابن طقطقي مع إضافات، تأليف هندوشاه بن سنجر النخجواني.

وبعد نصرة الدين أحمد، تولّى الإمارة ابنه الأتابك يوسف شاه الثاني (٧٣٠هـ-٧٤٠هـ)، ثم ابنه الآخر أفراسياب الثاني. ونظراً لزيادة نفوذ أسرة إينجو وآل مظفر في فارس في تلك الفترة إلى جانب تزايد نفوذهم في لرستان، فقد بدأت الأوضاع في بلاد اللر في التدهور، خاصة في عهد الأمير مبارز الدين حيث تحالف الأتابك نور الورد بن سليمان شاه ابن الأتابك أحمد مع شيخ أبي إسحاق وخرج للقضاء عليه، فأسر نور الورد وسمل عينيه وولّى الأتابك پشنك بن سلغرشاه ابن

الأتابك أحمد وابن عم نور الورد وصهره حكم اللر، وذهب لمساندة شاه شجاع في حصاره لأصفهان.

وبقي أتابكة اللر الكبير حتى أواسط القرن التاسع، وكان آخرهم غياث الدين كاوس الذي أطاح به السلطان إبراهيم بن شاهرخ التيموري فزالت أسرتهم.

أتابكة اللر الكبير

١- أبو طاهر	قرابة ٥٥٠
٢- الأتابك هزار أسب بن أبي طاهر	إلى ٦٢٦
٣- عماد الدين پهلوان بن هزار أسب	من ٦٢٦ إلى ٦٤٦
٤- نصرة الدين كلجة بن هزار أسب	من ٦٤٦ إلى ٦٤٩
٥- تكلة بن هزار أسب	من ٦٤٩ إلى ٦٥٦
٦- شمس الدين ألب أرغو بن هزار أسب	من ٦٥٦ إلى ٦٧٢
٧- يوسف شاه بن ألب أرغو	من ٦٧٢ إلى ٦٨٨
٨- أفراسياب بن يوسف شاه	من ٦٨٨ إلى ٦٩٥
٩- نصرة الدين أحمد بن يوسف شاه	من ٦٩٥ إلى ٧٣٠
١٠- يوسف شاه الثاني بن نصرة الدين أحمد	من ٧٣٠ إلى ٧٤٠
١١- أفراسياب الثاني بن نصرة الدين أحمد	من ٧٤٠
١٢- نور الدين بن سليمان شاه بن الأتابك أحمد	إلى ٧٥٧
١٣- الأتابك پشنك بن سلغرشاه بن الأتابك أحمد	من ٧٥٧ إلى ٧٩٢
١٤- پير أحمد بن الأتابك پشنك	من ٧٩٢ إلى ٧٩٨
١٥- أبو سعيد بن پير أحمد	إلى ٨٢٠
١٦- شاه حسين بن أبي سعيد	من ٨٢٠ إلى ٨٢٧
١٧- غياث الدين كاوس بن هوشنك	

أما فرع اللر الصغير، فعلى الرغم من ظهور عدد من الأمراء المهمين من بينهم وبقاء إمارتهم لمدة أطول، فإنهم لم ينالوا ما ناله أمراء اللر الكبير من شأن وصيت. وكانت قبائل اللر الصغير خليط من أكراد آسيا الصغرى واللر الفرس الذين كانوا يترددون بين مناطق حدود عراق العجم وعراق العرب في الصيف والشتاء؛ وكانوا يؤدون الخراج لديوان بغداد ونادراً ما كان لهم حاكم يحكمهم. وفي سنة ٥٨٠هـ، قام أحد زعمائهم ويدعى شجاع الدين خورشيد بفرض سيطرته على قبائل اللر الصغير واستولى على حصن مانرود وهو أحد قلاع لرستان الحصينة. وأدى ازدياد نفوذ شجاع الدين خورشيد وأتباعه إلى قلق الخليفة العباسي الناصر لدين الله، فاستدعاه هو وأخاه نور الدين محمد إلى بغداد وطلب منهما تسليم قلعة مانرود فرفضا فسجنهما الناصر. وتوفي نور الدين في سجنه واضطر شجاع الدين إلى تسليم القلعة، وعوضه الخليفة بتنصيبه والياً على ولاية طرازك وهي إحدى ولايات خوزستان. وظل شجاع الدين يحكم تلك الولاية قرابة ثلاثين سنة إلى أن توفى في سنة ٦٢١هـ وقد تجاوز سنه المئة.

قام شجاع الدين خورشيد في أواخر حياته بتفويض ابنه بدر وابن أخيه سيف الدين رستم في إدارة شؤون القبائل الخاضعة له، وأعطى ولاية العهد لبدر ثم لسيف الدين من بعده. إلا أن سيف الدين استغل شيخوخة شجاع الدين واتهم بدراً بخيانة أبيه وحمل الأب على قتل ابنه وتولّى الإمارة بعد عمه.

وظل سيف الدين يحكم في لرستان بالعدل. وفي النهاية، تمرد عليه أخوه شرف الدين أبو بكر والأمير علي بن بدر شجاع الدين محمد وقتلاه وتولّى شرف الدين أبو بكر مكانه وقام أخوه عز الدين كرشاسف بقتل الأمير علي بن بدر انتقاماً لأخيه الآخر سيف الدين رستم. وأرسل الخليفة حسام الدين خليل الابن الآخر لبدر بن خورشيد والذي كان يقيم في بغداد منذ قتل أبيه؛ إلا أن حسام الدين خليل عاد إلى دار الخلافة حين وجد أن شرف الدين ينوي قتله. وبعد أن لقي شرف الدين حتفه في تلك الفترة، تولّى عز الدين كرشاسف الإمارة.

وجاء حسام الدين خليل مرة أخرى إلى لرستان وخاض الحرب ضد عز الدين كرشاسف الذي كان متزوجاً من شقيقة شهاب الدين سليمان شاه الإيوائي أحد كبار زعماء الأكراد، وتمكن من

هزيمة عز الدين، إلا أنه انشغل بقتال سليمان شاه حيث نشبت حروب عديدة بين هذين الأميرين. وفي البداية، انتصر حسام الدين خليل على سليمان شاه وانتزع منه جزءاً من كردستان. ولكن لما كان سليمان شاه يحظى بحماية المستعصم بالله الخليفة العباسي وكان من أمراء جيش دار الخلافة، فقد هزم حسام الدين خليل بمساعدة القوات التي أمده بها الخليفة. فاستعان حسام الدين خليل بالمغول ضد كل من الخليفة وسليمان شاه فشمله المغول بحمايتهم وعينوه قائداً عسكرياً للر الصغير. وشن سليمان شاه هجوماً جديداً بجيش قوامه تسعة وستون ألفاً من جند الخليفة على حسام الدين خليل وقتله في سنة ٦٤٠هـ بصحراء شاپورخواست (بين أصفهان وخوزستان على مسافة اثنين وعشرين فرسخاً من نهاوند) وأحرق جثمانه.(٣١)

وعندما علم المغول بهذه الواقعة وهم في آذربيجان، غضبوا لتجاسر سليمان شاه وقتله لأحد قوادهم، ووجهوا قرابة عشرة آلاف من فرسانهم من تبريز إلى همدان وبغداد حيث أطبقوا على جماعة من فرسان سليمان شاه على أطراف خانقين. وفي ربيع الآخر ٦٤٣هـ، اقتربوا من قلاع بغداد. فأرسل الخليفة شرف الدين إقبال شرابي لصدهم فهزمهم وأنقذ بغداد في ذلك الوقت من اجتياحهم.

وبعد مقتل حسام الدين خليل بن بدر، خلفه ابنه بدر الدين مسعود ومضى إلى معسكر منجو قاآن للاستعانة بخان المغول للانتقام لمقتل أبيه. فأرسله منجو قاآن إلى أخيه هولاكو في إيران، وقاتل بدر الدين جيش سليمان شاه في ركاب هولاكو في غزوه لبغداد. وعندما قتل سليمان شاه في غزو دار الخلافة، سلم المغول أفراد أسرة سليمان شاه لبدر الدين فأخذهم معه إلى لرستان، وأعاد بعضهم إلى بغداد بعد إعمارها.

كان بدر الدين مسعود حاكماً تقياً شديد التدين وكان يحفظ أربعة آلاف مسألة فقهية على مذهب الإمام الشافعي؛ وقد عاش عامين بعد غزو بغداد، أي حتى ٦٥٨هـ. وحين توفي نشبت الحرب بين ولديه، فحاكمهما أباقا خان وعهد بإمارة اللر إلى تاج الدين شاه بن حسام الدين خليل الذي اشتهر بالعدل وحسن الخط. وقد قتل بدوره بأمر من أباقا في سنة ٦٧٧هـ.

وقام أباقاخان بتقسيم مناطق اللر الصغير بين فلك الدين حسن وعز الدين حسين ولدي بدر

الدين مسعود. وقد انشغل هذان الشقيقان اللذان امتد حكمهما لمدة خمس عشرة سنة (٦٧٧هـ-٦٩٢هـ) بالحرب مع جيرانهما المتمردين، وامتدت حدود أراضي اللر الصغير في عهدهما من همدان إلى شوشتر ومن أصفهان إلى عراق العرب. وقد خرج الأخوان منتصرين من معظم المعارك التي خاضاها بجيشهما البالغ سبعة عشر ألف رجل. وكان حسن رجلاً عاقلاً وورعاً، في حين غلب على حسين العنف والبطش. وقد توفي كلاهما في سنة ٦٩٢هـ.

وبعد وفاة فلك الدين حسن وعز الدين حسين، وعلى الرغم من أن كلاً منهما كان له ولد، عهد كيخاتو بحكومة اللر الصغير إلى ابن تاج الدين شاه ويدعى جمال الدين خضر. إلا أن خضر كان له كثير من الخصوم وانتهى الأمر بقتله في سنة ٦٩٣هـ، وبقتله زالت ذرية حسام الدين خليل بن بدر.

كانت على رأس خصوم جمال الدين خضر أحد أحفاد شجاع الدين خورشيد ويدعى حسام الدين عمر. وقد أراد هذا الشخص أن يتولى كرسي الإمارة مكان جمال الدين خضر إلا أن سائر الأمراء كانوا يعتبرونه غير أهل لهذا المنصب، وولّوا بدلاً منه صمصام الدين محمود بن نور الدين بن عز الدين كرشاسف أميراً عليهم، وأعطوا حسام الدين عمر دوراً في إدارة شؤون الحكم أيضاً، ولكن نظراً لسعيهما لقتل أبناء أعمامهما، فقد قتلهما غازان خان في سنة ٦٩٥هـ وعهد بحكومة اللر إلى عز الدين محمد بن عز الدين حسين.

ظلت سلسلة أمراء اللر الصغير باقية حتى أواسط القرن العاشر الهجري أي حتى عهد شاه طهماسب الأول الصفوي، وكان آخر من بقيت ذكراه شاه رستم بن جهانكير الملقب برستم خان تولّى بالإضافة إلى حكم لرستان مهمة تعليم إحدى بنات شاه طهماسب.

أمراء اللر الصغير:

١– شجاع الدين خورشيد بن أبي بكر عاش	من ٥٨٠هـ إلى ٦٢١هـ
٢– سيف الدين رستم ابن أخيه	
٣– أبو بكر بن محمد شقيق سيف الدين رستم	
٤– عز الدين كرشاسف بن محمد شقيق أبي بكر	
٥– حسام الدين خليل بن بدر بن شجاع الدين خورشيد	إلى ٦٤٠هـ
٦– بدر الدين مسعود بن حسام الدين خليل	من ٦٤٠هـ إلى ٦٥٨هـ
٧– تاج الدين شاه بن حسام الدين خليل	من ٦٥٨هـ إلى ٦٧٧هـ
٨– فلك الدين حسن وعز الدين حسين ولدا بدر الدين مسعود	من ٦٧٧هـ إلى ٦٩٢هـ
٩– جمال الدين خضر بن تاج الدين شاه	من ٦٩٢هـ إلى ٦٩٣هـ
١٠– حسام الدين عمر وصمصام الدين محمود	من ٦٩٣هـ إلى ٦٩٥هـ
١١– عز الدين محمد بن عز الدين حسين	من ٦٩٥هـ إلى ٧٠٦هـ
١٢– دولت خاتون زوجة عز الدين محمد وشقيقه عز الدين حسين	من ٧٠٦هـ إلى ٧٢٠هـ
١٣– شجاع الدين محمود بن عز الدين حسين	من ٧٢٠هـ إلى ٧٥٠هـ
١٤– الملك عز الدين بن شجاع الدين محمود	من ٧٥٠هـ إلى ٨٠٤هـ
١٥– سيدي أحمد بن عز الدين	من ٨٠٤هـ إلى ٨١٥هـ
١٦– شاه حسين العباسي	من ٨١٥هـ إلى ٨٧٣هـ
١٧– شاه رستم العباسي	من ٨٧٣هـ
١٨– أغور بن شاه رستم	
١٩– جهانكير بن أغور	إلى ٩٤٩هـ
٢٠– رستم خان بن جهانكير	من ٩٤٩هـ إلى ٩٧٨هـ

٦- الچوپانيون:

لم يكن الأمراء الچوپانيون أكثر من اثنين كما سبقت الإشارة، وهما الأمير شيخ حسن ابن الأمير تيمورتاش ابن الأمير چوپان سلدوز الذي أوردنا تفاصيل حياته من قبل، وشقيقه الملك أشرف الذي كان منشغلاً إبان مقتل أخيه بتعبئة الجيش إلى شيراز، وحين علم بمقتل أخيه في سنة ٧٤٤هـ، ذهب إلى تبريز وتولّى مكانه.

حكم الملك أشرف آذربيجان لمدة أربع عشرة سنة (٧٤٤هـ-٧٥٨هـ) مارَسَ فيها كل ألوان القتل وسفك الدماء والظلم والبطش. ولم تكد تمر ثلاث أو أربع سنوات على فترة إمارته حتى ضج الناس بجوره وهجروا بلادهم. وبعد تفشي أحد الأوبئة في تبريز في سنة ٧٤٧هـ، فقدت هذه المدينة رونقها وازدهارها؛ ومع ذلك ظل جمع المال وإيذاء الناس هو الشغل الشاغل للملك أشرف.

وفي سنة ٧٤٨هـ، عزم الملك أشرف على انتزاع بغداد من يد الأمير شيخ حسن الكبير الإيلكاني، وشن حملة لهذا الغرض. وخاف الأمير شيخ حسن من زحف قوات الملك أشرف المفاجئ وقرر الذهاب إلى بلاد الروم والاحتماء بحصن كماخ؛ إلا أن دلشاد خاتون زوجته منعته من ذلك، فقام بإحكام تحصين قلعة بغداد وأعد العدة لصد الملك أشرف. وأمام صموده لم تتمكن قوات الملك أشرف من تحقيق أية نتيجة؛ بل عجزت عن مقاومة هجمات القوات الإيلكانية وعادت إلى أذربيجان بالهزيمة.

وبعد عودة الملك أشرف إلى تبريز قسم مملكته التي كانت تشمل عراق العجم وأذربيجان وأران وموغان وبعض مناطق كرجستان وكردستان بين أمرائه لكي يجمعوا الأموال منها ويرسلوها إليه. وكان يقوم من حين لآخر بتقييد هؤلاء الأمراء ثم يعيدهم إلى مناصبهم بعد تجريدهم من أملاكهم. وكان كلما سمع عن شخص لديه ثروة لم يكن يستريح إلا بعد مصادرتها. وكان هدفه من معظم حملاته القتل والنهب؛ فقد شن عدة حملات على شيروان، ولما عجز عن الاستيلاء على قلاعها، شرع في نهب مدنها وقراها حتى حدود كرجستان.

وفي سنة ٧٥١هـ، اتجه الملك أشرف إلى آذربيجان للاستيلاء عليها؛ فقاومه الأهالي. وعندما أيقن أنه لا يستطيع غزوها، اكتفى بحمل الأهالي في أصفهان على تلاوة الخطبة وضرب السكة

باسمه ثم عاد إلى تبريز وقتل عدداً من الأمراء الذين كانوا في سجونه ثم مضى إلى قراباغ.

وضج أهالي تبريز بظلم الملك أشرف وبطشه، ولم يتحمل علماء المدينة وزهادها مظالمه فهاجروا من المدينة، ومنهم القاضي محيي الدين البردَعي الذي ذهب إلى جاني بيك خان أوزبك ملك صحراء قبچاق المغولي المسلم بمدينة غازان (سراي) وكان رجلاً ورعاً ومحباً للعلم، وعمل بالوعظ في تلك المدينة. وذات يوم، تحدَّثَ عن مظالم الملك أشرف حديثاً مؤثِّراً في مجلس للوعظ حضره جاني بيك، فتألم جاني بيك والحاضرون حتى أنهم قرروا القضاء على الملك أشرف وإنقاذ الأهالي من بطشه. وفي غضون شهر، أعد جاني بيك جيشاً وأرسله إلى أذربيجان عن طريق دربند في سنة ٧٥٨هـ.

وعندما علم الملك أشرف بزحف قوات جاني بيك، أنفق الأموال الطائلة التي جمعها بالظلم على أربعمئة بغل وألف جمل واتجه إلى خوي وعسكر في أوجان. وتمكنت قوات جاني بيك من تفريق جيش الملك أشرف بكل سهولة؛ وأسرع الملك أشرف وراء خزائنه إلا أنه أسر في خوي وتم إحضاره إلى تبريز حيث أعدم بناء على إصرار حاكم شيروان والقاضي محيي الدين، وآلت معظم خزائنه ونفائسه للمنتصرين[٣٢] وقضي على الأمراء الچوپانيين.

الأمراء الچوپانيون:

١ـ الأمير شيخ حسن الصغير بن تيمورتاش ابن الأمير چوپان — من ٧٣٨هـ إلى ٧٤٤هـ

٢ـ الملك أشرف شقيق شيخ حسن — من ٧٤٤هـ إلى ٧٥٨هـ

٧ـ الأمراء الإيلكانيون أو آل جلاير:

كانت أشهر الأسرات التي ظهرت في الفترة الفاصلة بين زوال إيلخانات إيران وظهور الأمير تيمور الجوركاني ونشأت من تفتت الدولة الإيلخانية الكبرى هي أسرة آل جلاير أو الإيلكانيون الذين سبقت الإشارة إلى حياة مؤسسها شيخ حسن ابن الأمير حسين بن آقبوغا المعروف بشيخ حسن الكبير وقدمنا نبذة عن أبيه الأمير حسين جوركان (زوج ابنة أرغون خان) وجده آقبوغا.

وكان جد آقبوغا يدعى إيلكا نويان، وهو من قبيلة آل جلاير ومن القواد الذين جاءوا في ركاب هولاكو لغزو إيران. وتعود تسمية هذه الأسرة بالإيلكانيين أو آل جلاير لهذا السبب ولا ينبغي الخلط بين الأسرة الإيلكانية والإيلخانات من خلفاء هولاكو في إيران.

كان أول أمراء هذه الأسرة هو شيخ حسن الكبير الذي كان من نسل الإيلخانات من ناحية الأم، وسبقت الإشارة إلى دوره في عزل وتنصيب عدد من الإيلخانات وغزو عراق العرب واتخاذ بغداد عاصمة وفي القتال ضد شيخ حسن الصغير وعزل شاه جهان تيمور وإعلان استقلاله في سنة ٧٤٠هـ في نهاية حديثنا عن تاريخ الإيلخانات ولا حاجة بنا إلى التكرار.

ظل شيخ حسن الكبير يحكم عراق العرب لمدة سبع عشرة سنة (٧٤٠-٧٥٧هـ) مستقلاً؛ وعندما تزوج دلشاد خاتون أرملة أبي سعيد، وكانت أصلاً من قبيلة آل جلاير المغولية أيضاً ومن نسل الإيلخانات من ناحية الأم كذلك، فقد اعتبر نفسه أحق بمكانهم من غيره. ومع أنه وضع أساس دولة لها اعتبارها نسبياً، فإن أبناءه لم تكن لهم أية مكانة سياسية أو اعتبار عسكري؛ بل كانت شهرتهم تقوم على رعاية الشعراء كحافظ الشيرازي ومحمد عصار وشرف الدين رامي وسلمان الساوجي وعبيد الزاكاني؛[٣٣] وكانت مدائح جمال الدين سلمان الساوجي بصفة خاصة هي التي صنعت لهم اسماً في التاريخ.

وفي فترة استقلال شيخ حسن الكبير بالحكم في العراق والتي امتدت سبع عشرة سنة، كانت معظم شؤون البلاد بيد زوجته المدبرة دلشاد خاتون. وقد صرفت هذه السيدة التي توفيت قبل وفاة زوجها بعامين جهودها إلى رعاية الشعراء وإعمار البلاد ونشر الخير والبر؛ ويتركز جزء كبير من ديوان سلمان الساوجي على مديح هذه الخاتون. وقد توفي الأمير شيخ حسن الكبير في سنة ٧٥٧هـ.

معز الدين أويس (٧٥٧هـ-٧٧٦هـ):

بعد وفاة شيخ حسن الكبير، تولّى الإمارة معز الدين أويس ابنه الذي أنجبه من دلشاد خاتون في سنة ٧٣٩هـ وكان في التاسعة عشرة من عمره تقريباً حين توفي والده. وكان هذا الأمير الشاب

أشهر أمراء آل جلاير بعد أبيه، فقد كان يرعى الشعراء وينظم الشعر وتتلمذ على سلمان الساوجي وتعلق به وكان يصطحبه معه في معظم أسفاره، وقد تناول سلمان فتوحات السلطان في قصائده.

فتح تبريز (٧٥٩هـ):

في ربيع ٧٥٩هـ، اتجه السلطان أويس إلى تبريز بجيش جرار لطرد أخي جوق نائب بردي بيك أوزبك من أذربيجان والاستيلاء على تلك المدينة التي كانت عاصمة المغول ومصيفاً لجيشهم. وأسرع أخي جوق وعدد من أمراء جيش الأمير أشرف الجوپاني لصد السلطان أويس، ونشبت الحرب بين الفريقين في المعابر الضيقة بين كردستان وآذربيجان. ولم ترجح كفة أي من الجانبين في اليوم الأول. أما في اليوم الثاني، فقد فر أخي جوق إلى تبريز وتعقبه السلطان أويس، فغادر أخي جوق تبريز وواصل فراره إلى نخجوان، ودخل السلطان أويس تبريز في رمضان ٧٥٩هـ وأقام في الربع الرشيدي وقتل قرابة سبعة وأربعين من أمراء الملك أشرف المنافقين ولاذ بقيتهم بالفرار ولجؤوا إلى أخي جوق.

وأرسل السلطان أويس أحد أمرائه لتعقب أخي جوق والأمراء الفارين؛ إلا أن هذا الأمير تعلل بالنفقات وتهاون في القتال فحلت الهزيمة بجيشه واضطر السلطان أويس إلى العودة إلى بغداد في الشتاء وترك آذربيجان اضطراراً لأخي جوق.

وفي السنة التالية كما سبقت الإشارة، شن الأمير مبارز الدين محمد المظفري حملة على آذربيجان واستولى على تبريز؛ ولكن ما أن بلغه أن السلطان أويس في طريقه من بغداد إلى تبريز حتى غادر آذربيجان عائداً إلى شيراز، واستعاد السلطان أويس تبريز، وصارت آذربيجان وأران وموغان منذ ذلك الوقت ضمن ممالك أمراء آل جلاير واتسع نطاق حكمهم من الشرق حتى سلطانية وساحل بحر الخزر.

وفي سنة ٧٦٢هـ، توجه تيمورتاش الثاني ابن الملك أشرف - الذي كان جاني بيك قد أخذه إلى خوارزم - إلى حاكم خلاط. وعندما علم السلطان أويس بذلك، أوعز إلى حاكم خلاط بقتل تيمورتاش حتى لا يظهر من ينازعه الحكم في المستقبل، واطمأن خاطره من هذه الناحية.

وفي سنة ٧٦٥هـ، حصل شاه محمود المظفري على إمدادات من السلطان أويس كما سبقت الإشارة وفرض سيطرته على إقليم فارس بعد أن طرد شاه شجاع منه. وقد أضاف هذا الفتح الذي تم في الحقيقة بمساعدة قوات آل جلاير وأمرائهم الكثير إلى مكانة السلطان أويس وبلغ صيته حتى حدود كرمان وهرمز والخليج العربي.

كان حكم شروان ومنطقة كشتاسفي في ذلك الوقت بيد كاوس بن كيقباد وهو أحد أحفاد الشروانشاهيين القدامى؛ وقد عاش حتى سنة ٧٧٤هـ وتنازع مع السلطان أويس على السيطرة على آذربيجان، وهو نفس ما فعله مع الملك أشرف الچوپاني. وفي سنة ٧٦٦هـ، اتجه السلطان أويس إلى قراباغ للإطاحة به؛ إلا أنه بلغه أن خواجه مرجان حاكم بغداد أعلن عصيانه. فاضطر إلى التراجع عن فكرة القضاء على الأمير كاوس، وبعد أن وصل إلى بغداد في برودة الشتاء وبعد عناء شديد، وجد أن خواجه مرجان قد فتح سدود دجلة وسد الطريق إلى بغداد؛ فلم يتمكن من الاستيلاء على المدينة. وجاءه أحد رجال حاشيته ويدعى قرا محمد وكان والياً على مدينة واسط في عهده بخمسمئة سفينة فعبر السلطان النهر واستولى على المدينة واعتقل خواجه مرجان ولكنه عفا عن دمه بشفاعة من الأشراف والقضاة.

وبعد أحد عشر شهراً قضاها السلطان أويس ببغداد، ترك سلطان شاه الخازن في بغداد واتجه إلى الموصل وموش عن طريق تكريت واستولى على تلك المنطقة التي كانت تحت سيطرة بيرام خواجه شقيق قرا محمد والتركمان التابعين له، ثم اتجه من هناك إلى تبريز. وبعد قضاء الشتاء، عاد إلى بغداد. وفي تلك الآونة، أمسك أمراؤه بكاوس أمير شروان وقيدوه وجاءوا به إلى أويس. وبعد ثلاثة أشهر عفا عنه أويس وأعاده إلى مملكته.

فتح الري (٧٧٢هـ):

في عامي ٧٧٠هـ و٧٧١هـ أرسل كل من شاه شجاع وأخوه شاه محمود رسلاً إلى السلطان أويس لطلب يد ابنته سعياً إلى كسب دعمه ومساندته. وقد نجح شاه محمود كما سبقت الإشارة في الزواج من ابنة أويس في سنة ٧٧١هـ وتغلب بذلك على أخيه وغريمه شاه شجاع. ونتيجة لهذه

المصاهرة، قوي ظهر شاه محمود بآل جلاير وأحبطت خطة شاه شجاع لقطع الخصومة بينهم وبينه.

وفي سنة ٧٧٢هـ، أعلن الأمير ولي وهو من أمراء طغا تيمورخان الاستيلاء على جرجان (بعد قتله) وبَسَطَ نفوذه حتى حدود الري عصيانه للسلطان أويس، فاتجه أويس إلى الري لسحق تمرده. وألحق السلطان أويس الهزيمة بالأمير ولي وولّى أحد أمرائه وهو قتلغشاه حاكماً على الري. وتوفي قتلغشاه بعد عامين وآل منصبه إلى عادل آقا. وكان عادل هذا قائداً عسكرياً لبغداد ثم ارتقى تدريجياً في بلاط الإيلكانيين وأصبح من مشاهير أمرائهم.

وكان السلطان أويس قد عهد بحكم بغداد مرة أخرى إلى خواجه مرجان في سنة ٧٦٩هـ بعد وفاة سلطان شاه الخازن. وعندما توفي مرجان في سنة ٧٧٤هـ عهد السلطان بحكومة بغداد لأحد أمرائه وهو خواجه سرور. وقد مات سرور كمداً على أثر فيضان دجلة وهلاك أربعين ألفاً من الأهالي. فعيَّنَ السلطان أويس الأمير وجيه الدين إسماعيل الرشيدي ابن الأمير شمس الدين زكريا وهو حفيد أخت الوزير غياث الدين محمد حاكماً على عاصمته. وتولّى خواجه نجيب الدين شقيق الأمير زكريا هذا وزارة السلطان أويس.

وفاة أويس (غرة جمادى الأولى ٧٧٦هـ):

في سنة ٧٧٤هـ، شن الأمير ولي هجوماً جديداً على عراق العجم واستولى على ساوة ثم عاد إلى جرجان. فانتقل السلطان أويس في ربيع الآخر ٧٧٦هـ من تبريز إلى حي الربع الرشيدي بهدف القضاء عليه، إلا أنه سقط مريضاً في تلك الأثناء وأسلم الروح في غرة جمادى الأولى بعد تسع عشرة سنة في الحكم.

كان السلطان أويس بهادر خان من الأمراء المحبين للعمران والشعر، وكان هو نفسه كما سبقت الإشارة يقرض الشعر. وقد تطورت في عهده العلاقات السياسية والتجارية بين بغداد وتبريز من ناحية ومع مصر وميناء فينيسيا من ناحية أخرى. وعندما كان النزاع مشتعلاً بين أويس وخواجه مرجان أرسل كل منهما رسائل ورسلاً إلى سلطان مصر وأخذ خواجه مرجان يحرضه على غزو بغداد بينما كان أويس يحذره من مساندة خواجه مرجان.

وبذل السلطان أويس جهوده لفتح الطريق التجاري القديم بين تبريز وطرابوزان وڤينيسيا وكتب رسالتين إلى أمير طرابوزان وتجار ڤينيسيا يدعوهم للتجارة مع أذربيجان ويطمئنهم إلى أن الطرق لا تقل أمناً عما كانت عليه في عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان؛ إلا أن تجار ڤينيسيا لم يطمئنوا إلى ذلك بعد أن وقع عدد منهم في أيدي قطاع الطرق في طريقهم إلى تبريز. وعلى الرغم من معاقبة أويس لقطاع الطرق، فقد ثبت أن طرق القوافل كانت تفتقر إلى الأمن.

أنشأ السلطان أويس في تبريز عمارات عالية، ومن بين منشآته نُزُلاً يسمى دولتخانه كان يضم حسب قول أحد الرحالة الأوربيين المعاصرين له عشرين ألف غرفة. ومن الشعراء الذين امتدحوا السلطان أويس وعاشوا في بلاطه خواجه سلمان الساوجي وخواجه محمد عصار وعبيد زاكاني وخواجه شرف الدين رامي.

السلطان حسين (٧٧٦-٧٨٤هـ):

أوصى السلطان أويس قبيل وفاته بتنصيب ابنه الأكبر شيخ حسن حاكماً لبغداد، وابنه الأصغر حسين ولياً للعهد. فقال الأمراء إن شيخ حسن هو الأكبر ولن يطيع وصية أبيه. فقال أويس أنتم أدرى. وما أن سمع الأمراء هذا التصريح منه حتى قاموا بتقييد شيخ حسن وقتلوه بمجرد أن فاضت روح أبيه وأجلسوا حسين مكان أبيه.

ازداد نفوذ التركمان على اختلاف قبائلهم والمقيمين على الحدود الجنوبية لبحيرة وان وحول سنجار وموش والموصل في عهد السلطان أويس؛ وكان أحد زعمائهم وهو قرا محمد من حاشية السلطان أويس كما رأينا من قبل. وبعد وفاة السلطان أويس قام قرا محمد وأخوه بيرام خواجه بتوحيد التركمان الخاضعين لهما والذين يعرفون بالقرا قويونلو تحت إدارة موحدة واستوليا على القلاع المحيطة بمخيمات قبيلتهما وشكلوا تهديداً للمملكتين الخاضعتين للإيلكانيين وهما العراق وأذربيجان.

وفي سنة ٧٧٧هـ، اتجه السلطان حسين نحو غرب بحيرة وان بهدف سحق تركمان القرا قويونلو، واستولى على بعض قلاعهم. وطلب الأمير قرا محمد الصلح وجاء لمقابلة السلطان حسين

وقدم له فروض الطاعة وقدم له ألف رأس من الأغنام كهدية، وعاد السلطان حسين إلى آذربيجان.

وفي العام نفسه، اتجه شاه شجاع إلى آذربيجان بدعوة من أهالي تبريز بعد أن تضرروا من لهو السلطان حسين ولامبالاته، وألحق الهزيمة بحسين ودخل تبريز، إلا أنه سرعان ما عاد إلى فارس بعد علمه بعصيان شاه يحيى، واستعاد السلطان حسين تبريز من جديد.

وفي سنة ٧٧٨هـ، اتجه السلطان حسين إلى رياض أوجان لقضاء الربيع، وسارع عادل آقا إليه من سلطانية. وفي هذه الآونة، اتفق عدد من أمراء السلطان على قتل عادل آقا بعد أن ازداد نفوذه. فعاد عادل آقا إلى سلطانية ونصب شاه منصور بن شاه مظفر المظفري الذي كان قد لجأ إليه حاكماً لهمدان واتجه إلى معسكره لسحق الأمراء المتمردين. ولم يكن هؤلاء الأمراء المتمردون يكنون الولاء للسلطان حسين أيضاً. فغادر السلطان أوجان إلى تبريز خوفاً منهم وأغار الأمراء على المعسكر السلطاني واتخذوا طريقهم إلى بغداد. فأبلغ السلطان عادل آقا بما حدث. وألحق شاه منصور الهزيمة بالأمراء العصاة واعتقلهم على حدود كردستان وأمَّنهم على حياتهم؛ إلا أن السلطان حسين أمر عادل آقا بقتلهم، فقتلهم جميعاً مما زاد من مكانته لدى السلطان حسين.

وفي العام نفسه ٧٧٨هـ، قام الأمير شيخ علي شقيق السلطان حسين الذي لم يكن راضياً عن نفوذ الأمير إسماعيل ابن الأمير زكريا حاكم بغداد بتحريض جماعة من رعاع بغداد فقتل أحدهم الأمير وجيه الدين إسماعيل؛ كما قتلت هذه الجماعة الأمير مسعود الرشيدي عم الأمير إسماعيل حين جاء لمساندة ابن أخيه. وحين بلغ هذا النبأ تبريز بكى خواجه زكريا الذي كان يعيش مراحل الشيخوخة لقتل ابنه وأخيه. وبدلاً من تعنيف أخيه، قام السلطان حسين بتعيينه حاكماً لبغداد. وقد سر شيخ علي بهذه الأحداث وأكرم قتلة الأمير إسماعيل والأمير مسعود؛ ونظراً لعدم كفاءته في الإدارة، قام باستدعاء پير علي بادك والي شوشتر من قبل شاه شجاع إلى بغداد وأسند إليه إدارة شؤون البلاد. ولم يمض وقت طويل حتى رفع كل من الأمير شيخ علي وخواجه پير علي راية العصيان وادعيا حقهما في عراق العرب وخرجا على طاعة السلطان حسين.

وفي سنة ٧٨٢هـ، حشد السلطان حسين جيشاً كبيراً في تبريز واتجه به صوب بغداد. وحين أدرك المتمردون عدم قدرتهم على المقاومة فروا إلى شوشتر. وبقي السلطان حسين في بغداد وخرج

عادل آقا لتعقب الأمير شيخ علي وپير علي إلى خوزستان. فأعلن شيخ علي طاعته وتقرر أن يكتفي بشوشتر وألا يتدخل مرة أخرى في شؤون عراق العرب. وبعد سحق شيخ علي، عاد عادل آقا إلى سلطانية لغضبه من السلطان حسين. وبعد قليل، عاد السلطان حسين إلى تبريز حيث لم يجد في نفسه القدرة على مواجهة تأييد بعض أهالي بغداد لشيخ علي ودعوتهم له بالعودة، وأخضع شيخ علي بغداد لسيطرته.

قتل السلطان حسين (٧٨٤هـ):

بعد عودته إلى تبريز، أرسل السلطان حسين معظم قواته إلى سلطانية لاسترضاء عادل آقا لكي يشارك في استرداد بعض قلاع الري من قبضة الأمير ولي. ولما لم يعد في تبريز آنذاك أي من أمراء السلطان حسين وجنوده، غادر أخوه أحمد المدينة فجأة ومضى إلى أردبيل وموغان وأران وحشد جيشاً وعاد به إلى تبريز، وانقض فجأة على أخيه وأمسك به وقتله في الحادي عشر من صفر ٧٨٤هـ وجلس مكانه باسم السلطان أحمد.

السلطان أحمد (٧٨٤-٨١٣هـ):

بعد مقتل السلطان حسين، فر أخوه الآخر أبو يزيد من تبريز ولجأ إلى عادل آقا في سلطانية، ونصبه عادل آقا ملكاً ومضى معه إلى تبريز للقضاء على السلطان أحمد. واستطاع السلطان أحمد في البداية أن يجتذب بعض الأمراء المرافقين لعادل آقا إلى صفه، مما أضعف من موقف عادل آقا واضطره إلى العودة إلى سلطانية. ودفع شيخ علي حاكم بغداد وخواجه علي بادك لعصيان السلطان أحمد، فحشدا قواتهما إلى آذربيجان. وألحقت قوات بغداد الهزيمة بالسلطان أحمد، ففر السلطان أحمد إلى نخجوان عن طريق خوي، وذهب لمقابلة قرا محمد التركماني طلباً للإمدادات.

وكان قرا محمد مستعداً لمساعدة السلطان أحمد بشرطين؛ أولهما ألا يتدخل السلطان في شؤون الحرب؛ والآخر ألا يطمع في الغنائم بعد النصر. وقبل السلطان أحمد هذين الشرطين فأرسل قرا محمد خمسة آلاف فارس لمساعدته. وفي الحرب، قتل التركمان كلاً من شيخ علي وخواجه

علي وحصلوا على الكثير من الغنائم. وعاد السلطان أحمد إلى تبريز وبعد مدة قصيرة بدأ في التصالح مع عادل آقا؛ إلا أن عادل آقا لم يكترث واقترب من تبريز وانضم أمراء بغداد إليه. واضطر السلطان أحمد إلى الفرار إلى موغان وأران. وفي النهاية، توسط أمير الأبخاز للصلح بينهما وتقرَّرَ أن توضع آذربيجان تحت تصرف السلطان أحمد مستقلاً وأن يتولى السلطان بايزيد عراق العجم تحت وصاية عادل آقا واشتراك السلطان أحمد وعادل آقا في إدارة عراق العرب. وعاد عادل آقا إلى سلطانية وأرسل أحد قواده لمرافقة أمراء بغداد إلى بلادهم وللإشراف على إدارة شؤونها من قِبَلِهِ. وما إن دخل عامل عادل آقا إلى بغداد، حتى قتل قَتَلَةِ الأمير إسماعيل وغيرهم من المتمردين واشتعلت الفتنة في بغداد وأغار الثائرون على الخزانة التي كانت قد أعدَّتْ لكي تُرسَل إلى عادل آقا. وعندما وصلت هذه الأنباء إلى تبريز، اتجه السلطان أحمد إلى بغداد وألقى القبض على عامل عادل آقا الذي كان قد لاذ بالفرار وقتله وعين شاه منصور المظفري الذي كان قد فرَّ من سجن عادل آقا حاكماً لشوشتر من قبله، وعاد إلى تبريز في سنة ٧٨٥هـ.

لم يكن عادل آقا راضياً عن استبداد السلطان أحمد وسفكه للدماء؛ فعاد بقواته إلى آذربيجان. وواجه جيش السلطان أحمد بالقرب من مراغة. وكانت الغلبة للسلطان. وعاد عادل آقا إلى سلطانية ومنها إلى همدان خوفاً من السلطان أحمد، وأرسل من هناك رسالة إلى شاه شجاع يحرِّضُهُ على فتح آذربيجان. فاتجه شاه شجاع إلى تبريز وخرج عادل آقا والسلطان بايزيد لاستقباله والتقوا به في جلبايجان ورافقوه إلى همدان. وأرسل السلطان أحمد إلى شاه شجاع رسالة احترام وصف عادل آقا فيها بالعبد العاصي. لذا فقد ترك شاه شجاع سلطانية لبعض أمرائه ونصَّبَ السلطان بايزيد ملكاً صورياً عليها وحدَّ من تدخُّل عادل آقا في شؤون الحكم ومضى إلى خوزستان. ولم يسمح أمراء أبي يزيد بدخول أمراء شاه شجاع إلى سلطانية واستولوا عليها؛ ولكن نظراً لضعفهم، فقد جاء السلطان أحمد إلى سلطانية على وجه السرعة وفرض سيطرته عليها، وأخذ أبا يزيد إلى تبريز وسلم قلعة سلطانية لشيخ محمود جاندار باسم ولده البالغ من العمر عامين.

وفي تلك الفترة نفسها شاع نبأ وصول قوات الأمير تيمور الجوركاني من بلاد ما وراء النهر إلى

خراسان ومنها إلى قومس والري ومجئ عدد من مبعوثيه للقاء السلطان أحمد في تبريز. فأرسل السلطان أحمد مبعوثي الأمير تيمور إلى بغداد ومضى في أعقابهم لإجراء مفاوضات معهم في تلك المدينة. فاستغل عادل آقا فرصة غياب السلطان أحمد وذهب إلى سلطانية وانتزعها من أيدي عمال السلطان أحمد وأعلن عصيانه له، وظل يفرض سيطرته عليها حتى فتْحِ الأمير تيمور لها ولقلعتها.

ومنذ سنة ٧٨٨هـ وحتى ٨١٣هـ وهو تاريخ مقتل السلطان أحمد بيد قرا يوسف التركماني، ظل السلطان أحمد يعيش متنقلاً من مكان لآخر في يأس وصدام مع خصومه ومعارضيه. وفي سنة ٧٨٨هـ، استولى الأمير تيمور على آذربيجان فخرجت من قبضة آل جلاير تماماً وأصبح مُلْكُ السلطان أحمد ينحصر في عراق العرب. وبعد سبع سنوات من هذه الواقعة، فرض الأمير الجوركاني سطوته على بغداد أيضاً، وفر السلطان أحمد إلى مصر ولم يجرؤ على الظهور طالما ظل تيمور حياً. وما أن بلغه نبأ وفاة تيمور حتى عاد إلى ممالكه السابقة واستولى على عراق العرب وظل يحكم في بغداد لمدة خمس سنوات أخر، إلا أن عداء قد نشب بينه وبين قرا يوسف التركماني، ونشب القتال بينهما في تبريز وقُتِلَ السلطان أحمد في سنة ٨١٣هـ، وكان في الحقيقة آخر أمراء الأسرة الإيلكانية وسنتطرق إلى صراعاته مع الأمير تيمور وآخر مراحل حكمه في الفصول التالية.

كان السلطان أحمد رجلاً دموياً؛ لذا فقد كان معظم الأمراء يرهبونه ويسعون للقضاء عليه بتحريض خصومه على غزو آذربيجان. ومع ذلك فقد كان محباً للشعر وكان يقرضه وكان يعرف الموسيقا ومدحه حافظ الشيرازي في غزليتين. كما اهتم بالعمران، ورمَّمَ بعضاً مما خرب في بغداد بعد وفاة تيمور وعودته إليها، ومن بين ما أصلحه حصن المدينة.

الأمراء الإيلكانيون الآخرون:

بعد مقتل السلطان أحمد، اضطربت الأوضاع في بغداد. فمن ناحية، أرسل قرا يوسف التركماني ابنه للاستيلاء عليها؛ ومن ناحية أخرى فرض أحد مماليك سلطان ولد بن شيخ علي ابن السلطان أويس سيطرته عليها باسم سلطان ولد، إلا أنه سرعان ما قتل بيد مملوك آخر زعم أن

السلطان أحمد لايزال حياً. وقد قُتِلَ هذا القاتل أيضاً وأصبحت بغداد خاضعة رسمياً لسلطان ولد. وفي النهاية، استولى قرا يوسف التركماني على بغداد وقضى على سلطان ولد ومن زعموا أن السلطان أحمد لايزال حياً.

وفرض ابن سلطان ولد المعروف بالسلطان أويس الثاني سيطرته على خوزستان والبصرة وواسط، وفي سنة ٨٢٤هـ جاء إلى بغداد، إلا أنه قتل في العام نفسه بيد أحد عمال أخيه سلطان محمود.

وبعد أويس الثاني، استولى أخوه السلطان محمود على خوزستان. وجاء السلطان إبراهيم الجوركاني ابن ميرزا شاهرخ إلى خوزستان لصدِّه وضرب حصاراً حول شوشتر، إلا أنه لم يوفق في فتحها بسبب البرودة الشديدة. وفي سنة ٨٢٥هـ، عزم السلطان إبراهيم من جديد على فتح شوشتر. وفي هذه المرة، غادر محمود خوزستان وذهب إلى عراق العرب حيث سقط مريضاً. وحين دنَتْ منيَّتُهُ، عيَّنَ السلطان حسين ابن علاء الدولة ابن السلطان أحمد ولياً لعهده. وعندما توفى السلطان محمود في سنة ٨٢٧هـ، جلس السلطان حسين مكانه واستقر في الحلة إلا أن أمير أصفهان بن قرا يوسف حاصر الحلة وقتل السلطان حسين في سنة ٨٣٦هـ. وبمقتله سقطت أسرتهم وحل الأمراء التركمان محلَّهم في عراق العرب.

الأمراء الإيلكانيون أو آل جلاير:

١- الأمير شيخ حسن الكبير ابن الأمير حسين بن آقبوغا بن إيلكان	من ٧٤٠هـ إلى ٧٥٧هـ
٢- السلطان شيخ أويس بن شيخ حسن	من٧٥٧هـ إلى ٧٧٦هـ
٣- السلطان حسين بن شيخ أويس	من ٧٧٦هـ إلى ٧٨٤هـ
٤- السلطان أحمد بن شيخ أويس	من ٧٨٤هـ إلى ٨١٣هـ
٥- شاه ولد بن شيخ علي بن شيخ أويس	من ٨١٣هـ إلى ٨١٤هـ
٦- السلطان أويس بن شاه ولد	من ٨١٤هـ إلى ٨٢٤هـ
٧- السلطان محمود بن شاه ولد	من ٨٢٤هـ إلى ٨٢٧هـ
٨- السلطان حسين بن علاء الدولة ابن السلطان أحمد	من ٨٢٧هـ إلى ٨٣٦هـ

٨- السربداريون والطغاتيمورية:

من بين أسرات الأمراء التي حكمت مختلف ولايات إيران لفترة بعد سقوط الإيلخانات لم يكن السربداريون يُقارَنون بغيرهم من الأمراء لا من ناحية اتساع نفوذهم ورقعة أراضيهم ولا من حيث مدة بقاء دولتهم وعظمة آثارهم. إذ كانت لهم مكانة خاصة في تاريخ إيران قبل تأسيس الأسرة الصفوية. فبقيامهم كمعارضة لأهل السنّة ورفعهم لراية التشيع وسعيهم لنشره وبداية ظهوره كدعوة لفرقة من الفرق وترسيخ العلاقة بين مريد ومراد، يمكن اعتبارهم أول مريدي الشيخ صفي الدين الأردبيلي وأبنائه.

اتخذ أمراء هذه الأسرة من مدينة سبزوار التي اشتهر أهلها بالتشيع منذ القدم مقراً لهم وأقاموا صلات وثيقة مع الدراويش الذين عرفوا بحبهم لآل علي. فشجعوا الشعراء على مدح آل البيت الأطهار وراسلوا بعض علماء الشيعة المقيمين خارج إيران خاصة في جبل عامِل معقل الشيعة آنذاك، ودعوهم إلى خراسان لهداية الناس وإقامة شعائر المذهب الشيعي. ونتيجة لهذه الدعوة، وضع الفقيه المعروف الشهيد الأول الشيخ شمس الدين محمد المكي (قتل في سنة ٧٨٦هـ) كتابه المعروف اللمعة الدمشقية باسم السلطان علي مؤيد السربداري وأرسله إلى خراسان حتى يعمل أهلها وفقاً للفتاوى التي ضمَّنها إياه. ويُعَدُّ هذا الكتاب كما سيرد فيما بعد من أشهر كتب فقه الإمامية أي الشيعة الاثنى عشرية، ولايزال شرح اللمعة من الكتب الدراسية القيمة.

بدء دعوة السربدارية:

في أواخر عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان، ازداد عدد العرفاء والمتصوفة والدراويش في آذربيجان وجيلان ومازندران حتى أصبح في كل منطقة شيخ يجمع من حوله جماعة من المريدين. وكان السلطان أبو سعيد يعارض إيذاء هؤلاء الدراويش؛ لذا فإن أحداً لم يجرؤ على التعرض لهم، وبالتالي فقد زادوا عدداً يوماً بعد يوم. واندرج عدد كبير من هؤلاء المريدين في سلك أهل الفتوة أو أهل الأخوّة. وكان الفتيان أو الإخوان جماعة من العوام المتصوفة الساعين لنشر مبادئ العرفان والتصوف بين العامة. وقد تفرَّقَتْ هذه الجماعة التي كانت لها زوايا وخانقاوات ونزل في كل أنحاء

البلاد الإسلامية منذ عهد خلافة الناصر لدين الله بسبب ميله إلى هذه الطائفة. وكانوا يعتبرون الإمام علي بن أبي طالب فتى الجماعة ومولاها وحاميها، وكانوا يتجنّبون التعصب المذهبي وإيذاء بعضهم البعض والنهب والسرقة؛ بل كانوا يتحلّون بمجموعة من الأخلاقيات الإيجابية كفرسان الجاهلية العرب أو فرسان أوربا في العصور الوسطى.

ومَنْ كانوا يعيشون في إيران من هذه الجماعة اعتبروا فرقتهم حامية الطائفة الشيعية في بعض الولايات خاصة جيلان ومازندران وبعض مناطق خراسان بسبب أسبقية تشيعهم. وبعد أن اشتد تعصُّبُ أهل السنّة ضد الشيعة في أواخر عصر الإيلخانات في شرق إيران وتعرُّضَ الشيعة في هرات وخراسان للأذى والاضطهاد نتيجة لاستبداد بعض سلاطين آل كرت من أهل السنّة، ولّى المضطَهَدون وجوهَهَم شطر هذه الفرقة التي كان زعماؤها يعتبرون الدفاع عن المظلومين أول مبادئهم.

وفي أواخر عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان جاء أحد دراويش مازندران ويدعى الشيخ خليفة إلى سمنان واندرج في سلك العارف المعروف ركن الدين علاء الدولة السمناني، ثم ذهب إلى قرية بحرآباد من توابع جوين وهي مقر عرفاء الأسرة الحموية وانضم إلى أحدهم وهو خواجه غياث الدين هبة الله الحموي؛ ثم اتجه إلى سبزوار وأقام في أحد جوامعها. ولما كان من حفظة القرآن ويرتله بصوت حسن، فقد اجتمعت حوله جماعة من الناس وأصبح له الكثير من المريدين وتوافد عليه الناس من كل صوب لسماع ترتيله للقرآن وأحاديثه العذبة. واعتبر فقهاء سبزوار وجوده خطراً عليهم وأفتوا بقتله بدعوى أن تصرفاته تخالف الدين وأرسلوها إلى أبي سعيد خان. وردَّ أبو سعيد بأنه لا يتعرض للدراويش وأن حكام خراسان مفوضون في عمل ما فيه المصلحة. فسعى فقهاء سبزوار إلى تفريق أتباع الشيخ خليفة وتعقب مريديه.

وسمع أحد وعاظ سبزوار بقرية جور ويدعى الشيخ حسن ويشتهر بحبه الشديد لآل علي بأوصاف الشيخ خليفة من تلاميذه، فجاء لزيارته واعتبر طريق الشيخ هو طريقه نفسه وصار من أتباعه. وفي ٢٢ ربيع الأول من سنة ٧٣٦هـ قُتل الشيخ خليفة ليلاً في الجامع الذي كان يقيم فيه، وانضم مريدوه إلى الشيخ حسن الجوري. وفي اليوم التالي غادر الشيخ سبزوار واتجه إلى نيسابور،

وعاش لفترة متخفياً في نيسابور ومشهد وأبيورد وقوچان خوفاً من خصومه. ولكن على الرغم من كل ذلك ظل مريدوه الذين أصبحوا يُعْرَفون باسم الدراويش الجورية يترددون عليه. وكان الشيخ حسن يوصي أتباعه بالثبات والتحمل والحيطة وانتظار الفرصة المواتية لكف يد الظلمة وإعلاء كلمة الحق. وكان للشيخ دفتر يسجل فيه أسماء المريدين، وكان يوصيهم بإعداد العدة للحرب وبإخفاء سِّرهم حتى تحين الفرصة للتحرك. وبعد عدة أشهر، غادر الشيخ حسن خراسان إلى العراق واستمر بُعدُهُ عن خراسان لمدة عامين ونصف العام زاد خلالها عدد مريديه إلى أن عاد في أواخر سنة ٧٣٨هـ إلى خراسان، ولم تزد إقامته فيها عن شهرين أو ثلاثة حيث خاف من كثرة عدد مريديه. وفي مستهل سنة ٧٣٩هـ، ذهب إلى تركستان. وبعد عدة أشهر من الترحال بين بلخ وترمذ وهرات وخاف وقهستان وكرمان، عاد إلى مشهد وذهب منها إلى نيسابور. وفي هذه المدينة التفَّ حوله كثير من الناس وشكَوْا إليه بؤسهم نتيجة لظلم عمال طغا تيمور خان وسطوتهم في خراسان وطلبوا منه إيجاد طريق للخلاص. وعلا شأن دراويش الجورية فثار عليهم فقهاء نيسابور، واضطر الشيخ حسن إلى الرحيل إلى قهستان. وحين ذهب مرة أخرى إلى مشهد، أراد أرغونشاه نائب طغا تيمور خان أن يلقي القبض عليه وتعرض بالأذى لمريدي الشيخ بتحريض من فقهاء نيسابور وطوس، فقرر الشيخ الذهاب إلى العراق، إلا أنه تلقى دعوة من أتباعه للذهاب إلى سبزوار حيث التفَّ حوله أهالي المدينة من الثائرين على ظلم الحكام ويسعون إلى القضاء عليهم ونشر المذهب الشيعي.

وكان أحد الأعيان الأثرياء بقرية باشتين من أعمال سبزوار ويدعى خواجه فضل الله وينتسب من ناحية الأب للإمام الحسين ومن ناحية الأم ليحيى بن خالد البرمكي يقيم بباشتين إبان ازدهار طائفة الجورية فيها؛ وكان أحد أبنائه ويدعى أمين الدين عبد الرزاق يعيش في بلاط أبي سعيد خان. وكان أبو سعيد قبيل وفاته قد أوفد عبد الرزاق إلى كرمان في مهمة ديوانية لجمع ما تبقى من عوائد تلك الولاية وتسليمه إلى الديوان. فجمع عبد الرزاق أموال كرمان ولكنه كان رجلاً ماجناً ومبذراً، فبدَّدَ تلك الأموال. وبينما كان يفكر فيما يمكن التعلل به عند السلطان، بلغه نبأ وفاة أبي سعيد، فنفخت فيه تلك البشرى روحاً جديدة وعاد إلى سبزوار فوجد أن إخوته قتلوا مبعوث وزير خراسان خواجه علاء الدين محمد، وذلك لأن هذا المبعوث طلب منهم خمراً وامرأة،

فلم يطيقوا جرأته وقتلوه. وقام عبد الرزاق بتسوية مسألة قتل إخوته للمبعوث، حيث تحالف مع جماعة من شباب بيهق اتفقوا فيما بينهم وقالوا: «إذا كتب لنا الفلاح نكون قد دفعنا ظلم الظالمين، وإلا سنجد رقابنا على أعواد المشانق؛ فلم نعد نتحمل التعدي والظلم». لذا فقد أطلق عليهم اسم «سَر بداران» (المعلقة رؤوسهم على المشانق).

وبايع السربدارية أمين الدين عبد الرزاق زعيماً لهم في ١٢ شعبان ٧٣٧هـ. وفي البداية حيث لم يكونوا قد حققوا القوة العددية أو النفوذ، بدؤوا بنهب القوافل وأموال مَن عُرِفُوا بالظلم؛ وجمعوا من هذا الطريق ما احتاجوه من أموال لتنفيذ عمليات أكبر. وازداد أتباع عبد الرزاق ونفوذهم تدريجياً لدرجة أنهم هزموا وزير خراسان خواجه علاء الدين محمد وقتلوه؛ وفي سنة ٧٣٨هـ فرضوا سيطرتهم على مدينة سبزوار وأعلنوا استقلالهم.

وبعد هذا النجاح الذي حققه عبد الرزاق، داخله الغرور والكبر وأراد الزواج قسراً من ابنة أحد أعيان خراسان. ولم ترضَ الفتاة وفرت من سبزوار إلى نيسابور. فأرسل الأمير عبد الرزاق أخاه الأمير وجيه الدين مسعود إلى نيسابور لإحضارها. وذهب وجيه الدين مسعود إلى الفتاة في نيسابور وأراد أن يعيدها قسراً إلى سبزوار؛ فتضرعت إليه الفتاة أن يعف عنها، فتركها وجيه الدين مسعود وعاد إلى سبزوار. فعنفه الأمير عبد الرزاق وأهانه. فلم يتحمل وجيه الدين هذا الهوان فاستل خنجراً وقتل أخاه في ١٢ ذي الحجة ٧٣٨هـ، وآلت إليه زعامة السربدارية. وقد استمرت ولاية الأمير عبد الرزاق عامين وشهراً واحداً.

وجيه الدين مسعود (٧٣٨هـ-٧٤٥هـ):

كان الأمير وجيه الدين مسعود الباشتيني يتميز عن أخيه بحسن الخلق والشجاعة والجود والشهامة؛ لذا فقد ذاع صيته. ولما كان يريد تقويم أسس دولته، فقد عاهد الشيخ حسن الجوري على الولاء. وفي الفترة التي تعقَّبَ فيها أرغونشاه الشيخ حسن وأتباعه من دراويش الجورية، أرسل عدداً من مريدي الشيخ إليه يدعونه إلى سبزوار وولَّوه زعيماً لهم في ثورتهم على الظالمين، وتولَّى الزعامة الدنيوية لطائفة الجورية، كما التفَّ حوله عدد من أئمة سبزوار ومشايخها وأشرافها.

وتحالف الأمير والشيخ وانتزعوا نيسابور أيضاً من يد أرغونشاه في سنة ٧٣٩هـ، وزرعوا الرعب في قلب طغا تيمور خان ملك خراسان وجرجان والملك معز الدين كرت حاكم هرات والجبال، خاصة أن حركتهم كانت ضد أهل السنّة، وكان هذان الملكان يعتبران أنفسهما حاميي هذا المذهب ووجدا في زيادة نفوذ إحدى طوائف الشيعة تهديداً لرعاياهما.

بعد الهزائم التي لحقت به وبأخيه الأمير علي كاون في العراق، قنع طغا تيمور خان الذي سبق الحديث عنه بجرجان وخراسان، وظل يحكم خراسان من خلال عماله حتى قيام السربدارية، واستقر أرغونشاه جاني من قبله في نيسابور. وبعد مقتل أرغونشاه على يد السربدارية وازدياد نفوذ هذه الفرقة في خراسان، حشد طغا تيمور خان جيشاً أرسله بصحبة أخيه الأمير علي من جرجان إلى سبزوار. وهرع كل من الأمير مسعود والشيخ حسن الجوري لصد ذلك الجيش في سنة ٧٤١هـ. وقتل السربدارية الأمير علي شقيق طغا تيمور خان في المعركة وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بجيش طغا تيمور بعد قتال شرس وعادوا إلى سبزوار بغنائم وفيرة. وأدّى هذا الفتح إلى ازدياد سطوتهم في خراسان وعدد أتباع السربدارية فيها.

وبعد مقتل الأمير علي كاون وهزيمة جيش جرجان، اتجه الأمير وجيه الدين مسعود والشيخ حسن الجوري لنزال طغا تيمور خان؛ وعلى ضفاف آب أترك ألحقوا به الهزيمة ففر إلى لار وروبار قصران وخرجت خراسان وجرجان من سيطرته تماماً.

حرب الأمير مسعود مع الملك حسين كرت (٧٤٣هـ):

بعد فتح خراسان وجرجان، خرج الأمير مسعود والشيخ حسن الجوري لفتح هرات وانتزاع بلاد غرجستان والجبل من يد الملك معز الدين حسين كرت. وكان هدفهم من هذه الحملة الإطاحة بالملك حسين لجهوده الكبيرة في سبيل دعم المذهب السني ونشره. والتقت قوات السربدارية وقوات الملك حسين بين خاف وزاوة وعلى مسافة فرسخين من الأخيرة؛ وكانت الغلبة في البداية للسربدارية حيث هلك عدد كبير من قوات الملك حسين إلا أن الشيخ حسن الجوري لقي مصرعه على يد أحد أتباع السربدارية في أثناء القتال. وقد أدى مقتله الذي لا نعلم ما إذا كان قد تم

بتحريض من الأمير مسعود أم لسبب آخر إلى توقف السربدارية عن القتال وعودتهم إلى سبزوار. أما الملك حسين الذي لم يكن لديه أي أمل في النصر، فقد وجد نفسه منتصراً بعد أن انتهت هذه الموقعة التي حدثت في ١٣ صفر ٧٤٣هـ لصالحه، فتجاسر وتعقب السربدارية في خراسان لفترة وجيزة ثم عاد إلى هرات.

على الرغم من محدودية أهمية موقعة زاوة في تاريخ إيران، فإن لها بعض الأهمية في تاريخ الأدب الفارسي؛ فالشاعر المعروف أمير محمود بن يمين فريومدي شارك في المعركة ضمن أتباع الأمير وجيه الدين مسعود وفقد ديوان أشعاره في المعركة، فنظم ابن يمين أبياتاً شهيرة في أسفه على فقدانه وفي مديح الملك حسين كرت.

كانت هزيمة جيش السربدارية في موقعة زاوة مقدمة لتدهور أوضاعهم في خراسان؛ فقد تعلقت آمال الناس بازدياد قوة هذه الفرقة لتصبح سداً يصد هجمات أتراك ما وراء النهر وقوات تيمور، فجاءت هزيمة زاوة وأحالت الأمل يأساً. يقول أحد شعراء ذلك العصر في هذا الصدد:

لو لم يضرب ملك الكرت الشجعان	ولو لم يضرب أعناق الأسود بسيفه البتار
لما ضرب تركي خيمته في إيران	حتى يوم الدين خوفاً من السربدارية

مقتل الأمير مسعود (٧٤٥هـ):

في أواخر سنة ٧٤٣هـ، شن الأمير وجيه الدين من أستراباد حملة لفتح مازندران ورستمدار وفيروزكوه. فدان له أمراء مازندران. أما جلال الدولة اسكندر (٧٤٤هـ-٧٦١هـ) أمير رستمدار في ذلك الوقت وشقيقه شاه غازي فخر الدولة الذي تولّى الإمارة بعد جلال الدولة فقد تشاورا ووجدا أن الأصلح أن يتركا بعض ولايات مازندران للأمير وجيه الدين مسعود درءاً لشره. وما أن توغل السربدارية في غابات رستمدار حتى أطبقا عليهم من كل اتجاه.

ودخل الأمير مسعود آمل في ١٨ ذي القعدة ٧٤٣هـ وعسكر بقواته على أطرافها. وشرعت قوات جلال الدولة وشاه غازي في مهاجمة جيشه، وتمكنوا من الإجهاز على أمير السربدارية نتيجة لهجماتهم المتوالية. فاضطر الأمير مسعود للتحرك صوب رستمدار بعد تسعة أيام من إقامته بآمل.

إلا أنه تعرض في رستمدار للمضايقات نفسها حيث عانى جنوده هجمات جنود مازندران. وانتهى الأمر بفراره وبمقتل أتباعه أو تفرقهم ووقوعه هو نفسه في النهاية أسيراً في يد المازندرانيين ومقتله في ربيع الأول ٧٤٥هـ.

آقا محمد آيتمور (٧٤٥هـ-٧٤٧هـ):

بعد مقتل الأمير وجيه الدين مسعود الذي يُعَدُّ أشهر أمراء السربدارية، آلت زعامة الفرقة إلى خدمه الذين تولوا الإمارة واحداً تلو الآخر لعدة سنوات؛ ولم يكن لأي منهم عدا آخرهم أي اسم أو شأن.

كان محمد آيتمور أحد خدام الأمير مسعود والأمير عبد الرزاق. وكان الأمير مسعود قد ولّاه نائباً له على سبزوار. وما أن ذاع نبأ مقتل الأمير مسعود حتى جلس آيتمور مكانه وتولّى الإمارة مستقلاً زهاء العامين. وعندما وجد مريدو الشيخ حسن الجوري الذين كانوا سبب قوة السربدارية وعلو شأنهم أن محمداً لا يوليهم أي اعتبار، ثاروا عليه بزعامة شمس الدين علي فاعتقلوه وقتلوه ونصبوا مكانه كلو إسفنديار[٣٤] وهو خادم آخر من خدام الأمير مسعود.

كلو إسفنديار (٧٤٧هـ-٧٤٩هـ):

استمر حكم كلو إسفنديار ثلاثة عشر شهراً. وكان شخصاً رذيلاً وشريراً لا أصل له ولا نسب. لذا فقد اعتقله السربدارية هو أيضاً وقتلوه ونصبوا خواجه شمس الدين فضل الله شقيق الأمير مسعود حاكماً لهم.

شمس الدين فضل الله (٧٤٩هـ):

بعد مقتل كلو إسفنديار، أراد الأهالي تنصيب لطف الله ابن الأمير مسعود أميراً عليهم، إلا أن خواجه شمس الدين علي لم ير مصلحة في ذلك بدعوى أنه كان طفلاً صغيراً وولّى خواجه فضل الله شقيق الأمير مسعود زعيماً لهم وجعله نائباً للطف الله. فتولّى شمس الدين فضل الله الزعامة

لسبعة أشهر؛ ولما كان درويشاً يميل إلى العزلة فقد استولى في غضون سبعة أشهر على أربعة آلاف حمل من الحرير من خزائن السربدارية واعتزل الحكم. وعندما بلغه أن طغا تيمور خان مُصَمِّمٌ على الانتقام من السربدارية اختار العزلة التامة.

شمس الدين علي الچشمي (٧٤٩هـ-٧٥٣هـ):

ترك شمس الدين فضل الله زمام إمارة السربدارية لخواجه شمس الدين علي الذي يُعَدُّ الزعيم الفعلي للسربدارية بعد مقتل الأمير مسعود. وكان خواجه شمس الدين من أهالي قرية چشم وعرف بالفراسة والكفاءة، فأعاد للسربدارية ما كان لهم من مكانة؛ فتصالح مع طغا تيمور خان ورد له الولايات التي كان الأمير مسعود قد استولى عليها منه، وبذل جهده لإعمار سبزوار والقضاء على الفساد فيها وعمل على رفاهية الرعية. وكان لديه عامل مسؤول عن جمع الضرائب يدعى حيدر القصاب حُكم عليه بسداد مبلغ تبقى في عهدته. وعندما احتد عليه خواجه شمس الدين في مطالبته بالسداد وأهانه، عزم حيدر على تحريض أحد المقربين للأمير مسعود ويدعى خواجه يحيى، فقتل خواجه شمس الدين في سنة ٧٥٣هـ بعد أربع سنوات وتسعة أشهر وجلس خواجه يحيى مكانه.

خواجة يحيى الكرابي (٧٥٣هـ-٧٥٩هـ):

كان خواجة يحيى الكرابي من أهالي كراب من توابع بيهق سبزوار؛ وكان رجلاً ورعاً وسخياً وذا أصل ونسب، وكان محباً للعلم، إلا أن الغضب والبطش كانا غالبين على طبعه. وقد عين حيدر القصاب قاتل شمس الدين على قائداً لجيش السربدارية. فانتزع حيدر القصاب ولاية طوس من أيدي خلفاء أرغونشاه جاني القرباني وضمها إلى الأراضي التي يسيطر عليها السربدارية.

مقتل طغا تيمور خان (٧٥٤هـ):

في سنة ٧٥٤هـ، استدعى طغا تيمور خان خواجه يحيى وطلب منه قبول طاعة ملك جرجان،

فأبى خواجه يحيى. وبعد تبادل عدة مراسلات[٣٥] وسفارات بين الطرفين، خرج خواجه يحيى في ثلاثمئة فارس لملاقاة طغا تيمور خان. وكان هدفه الظاهري الطاعة ودفع الخراج. وفي معسكر طغا تيمور خان، دخل في مفاوضات مع طغا تيمور. ونظراً لقلة عدد المرافقين لطغا تيمور خان، فقد رماه أحد أمراء يحيى بسهم في مفرقه وعاجله خواجه يحيى بضربة سيف فصلت رأسه عن جسده، وأطبق السربدارية على رفاق طغا تيمور خان فشتتوا شملهم. وانتهى بذلك عهد هيمنة طغا تيمور خان على خراسان وجرجان على يد السربدارية بهذه الصورة المفجعة.

وبعد أربع سنوات وثمانية أشهر من حكم خواجه يحيى، قفز علاء الدولة شقيق زوجته على ظهر جواده من الخلف وهو عائد إلى داره وأصابه بجروح. وأصابه يحيى أيضاً بجروح، وتوفي كلاهما في وقت واحد في سنة ٧٥٩هـ.

ظهير الدين الكرابي (٧٥٩هـ-٧٦٠هـ):

بعد خواجه يحيى، قام پهلوان حيدر القصّاب وغيره من الأمراء بتنصيب خواجه ظهير الدين شقيق يحيى حاكماً. وكان خواجه ظهير الدين رجلاً حليماً مسالماً، فأصبح الفصل في شؤون الحكم بيد پهلوان حيدر. واعتزل ظهير الحكم أيضاً بعد سنة واحدة وتولّى حيدر مكانه.

حيدر القصاب (٧٦٠هـ- ٧٦١هـ):

تولّى حيدر القصاب الچشمي قاتل خواجه شمس الدين علي وقائد جيش خواجه يحيى الحكم لمدة سنة وشهر، وعهد بقيادة الجيش لپهلوان حسن الدامغاني. واتفق پهلوان حسن مع اثنين من الأمراء الآخرين على قتله طعناً بالسكين في ربيع الآخر ٧٦١هـ. وكان هذا الپهلوان قد هاجم حيدر القصاب في أسفراين بصحبة پهلوان آخر من قرية باشتين من توابع سبزوار ويدعى نصر الله. ولما كان كلاهما من أتباع لطف الله ابن الأمير وجيه الدين مسعود، فقد قرعت الطبول باسم لطف الله بعد مقتل حيدر، وصار خواجه لطف الله أميراً للسربدارية.

خواجه لطف الله (٧٦١هـ-٧٦٢هـ):

كان جلوس خواجه لطف الله من دواعي فرح أتباع السربدارية؛ فهو ابن الأمير وجيه الدين مسعود أشهر أمرائهم. لذا فقد أقاموا الأفراح ووزّعوا الحلوى. إلا أن پهلوان حسن الدامغاني كان له نفوذ طاغ يشمل لطف الله نفسه. فبعد سنة وثلاثة أشهر، دب الخلاف بين خواجه لطف الله وپهلوان حسن حول مصارعي سبزوار وتعصب كل منهما للفريق الذي يشجعه؛ فقام پهلوان حسن بسجن لطف الله وقتله في آخر رجب ٧٦٢هـ. ولما كان لطف الله ابن الأمير مسعود، فقد كان أهالي سبزوار ينادونه بلقب «ميرزا» أي ابن الأمير؛ وربما كانت هذه أول مرة يستخدم فيها لفظ «ميرزا» في الفارسية.

پهلوان حسن الدامغاني (٧٦٢هـ-٧٦٦هـ):

بعد مقتل ميرزا لطف الله، ادّعى پهلوان حسن الإمارة، إلا أن أتباع الفرقة الجورية ثاروا عليه في طوس لخيانته لابن الأمير مسعود؛ وكان زعيم ثورتهم هو الدرويش عزيز مجدي الذي استولى على قلعة طوس. فذهب پهلوان حسن إليه لاستمالته وأهداه عدة أحمال من الحرير وأبدى له كل احترام. وثار أحد مريدي الدرويش عزيز ويدعى خواجه نجم الدين علي المؤيد بدامغان وانتزع دامغان من أيدي أعوان پهلوان حسن وأوفد أحد أقاربه إلى أصفهان لإحضار الدرويش عزيز إلى خراسان؛ مما أدى إلى زيادة عدد أتباعه وقوة نفوذه.

وبعد مقتل طغا تيمور خان، فرّ أحد أبناء خدمه ويُدعى الأمير ولي ابن الشيخ على الهندي إلى مدينة نَسا، وعلا نجمه بعد مصاهرته لحاكمها؛ ثم جاء إلى جرجان وجمع حوله الأتباع وانتزع أستراباد من يد حاكمها السربداري وألحق الهزيمة عدة مرات بقوات پهلوان حسن، بل هزمه هو نفسه حين جاء لسحقه، وانضم جنوده المهزومون إلى قوات خواجه علي المؤيد. وانتهز خواجه علي فرصة خلو سبزوار فدخلها واستولى عليها وأقام عزاء لميرزا لطف الله؛ وأرهب رفاق پهلوان حسن بالاعتداء على أهلهم وعيالهم من ناحية، ورغّبهم من ناحية أخرى بتقسيم خزائن پهلوان حسن بينهم. لذا فقد قطعوا رأس پهلوان حسن وأتوا بها لخواجه علي، وبذلك انتهى عهد پهلوان حسن في سنة ٧٦٦هـ بعد أربع سنوات في الحكم.

خواجه علي المؤيد (٧٦٦هـ-٧٨٨هـ):

كان خواجه علي المؤيد السبزواري من أمراء وجيه الدين مسعود؛ وقد نال شهرة واسعة بين الناس بسبب أصالة محتده وورعه. وقد تولّى إمارة السربدارية بعد مقتل پهلوان حسن، وهو آخر السربدارية واستمرت إمارته لمدة أطول ممن سبقوه. وقد اشتهر باهتمامه الشديد بالمذهب الشيعي وسعيه الدائب لنشر مناقب الأئمة وإقامة الشعائر المذهبية واحترام الأشراف.

وفي بداية إمارته، قام خواجه علي بإيفاد الدرويش عزيز مجدي مع جماعة لقتال الملك معز الدين حسين كرت. وحين وصل الدرويش إلى نيسابور، غير رأيه فيه ودعا أتباعه للعودة وألقى القبض على الدرويش وهو في طريقه إلى العراق وقتله في سنة ٧٧٧هـ. كما أساء الظن بمشايخ الجورية وأحال ضريح الشيخ حسن الجوري إلى مزبلة، مما أثار غضب الجورية وبغضهم؛ فذهب أحد أتباعها ويدعى الدرويش ركن الدين إلى فارس في سنة ٧٧٨هـ يطلب المدد من شاه شجاع. فقدم له شاه شجاع الإمدادات وعاد الدرويش إلى خراسان، واستولى في سنة ٧٧٩هـ على سبزوار وأجرى الخطبة وضرب السكة باسمه. فذهب خواجه علي إلى مازندران واسترد سبزوار من أيدي أتباع الدرويش ركن الدين بعون من الأمير ولي الذي كان قد استولى آنذاك على مازندران.

وضم خواجه علي المؤيد ولايات قاين وطبس وترشيز وقهستان إلى ممالكه فاتسع نطاق حكمه من دامغان حتى سرخس. ونشب الصراع بينه وبين الأمير ولي عدة مرات؛ وفي النهاية، قام الأمير ولي بمحاصرة سبزوار. فاستنجد خواجه علي بالأمير تيمور جوركان. فجاء الأمير تيمور إلى خراسان بعد أربعة أشهر أي في سنة ٧٨٢هـ، وأسرع خواجه علي حتى سرخس لاستقباله، وأصبح من ذلك الوقت ملازماً لركاب تيمور ورافقه في كل حملاته؛ وكان الأمير تيمور يحبه ويحترمه أيضاً. وظل خواجه علي وأقرباؤه ملازمين لتيمور لمدة سبع سنوات إلى أن أصيب بسهم في معركة بخرم آباد بلرستان في سنة ٧٨٨ هـ وتوفي وانتهت بوفاته أسرة السربدارية.

بذل خواجه علي المؤيد جهداً كبيراً لنشر العلوم والآداب وترسيخ دعائم التشيع كما سبقت الإشارة. وراسل الشيخ شهيد المكي ودعاه إلى خراسان، وألّف الشيخ كتاب اللمعة الدمشقية باسم المؤيد وأرسله إليه في خراسان.

السربدارية:

١- خواجه عبد الرزاق الباشتيني	من ٧٣٦هـ إلى ٧٣٨هـ
٢- خواجه وجيه الدين مسعود شقيقه	من ٧٣٨هـ إلى ٧٤٥هـ
٣- آقا محمد آيتمور	من ٧٤٥هـ إلى ٧٤٧هـ
٤- خواجه شمس الدين شقيق عبد الرزاق	من ٧٤٧هـ إلى ٧٤٩هـ
٥- خواجه شمس الدين علي الچشمي	من ٧٤٩هـ إلى ٧٥٣هـ
٦- خواجه يحيى الكرابي	من ٧٥٣هـ إلى ٧٥٩هـ
٧- خواجه ظهير الكرابي شقيق يحيى	من ٧٥٩هـ إلى ٧٦٠هـ
٨- پهلوان حيدر القصاب	من ٧٦٠هـ إلى ٧٦١هـ
٩- ميرزا لطف الله بن خواجه مسعود	من ٧٦١هـ إلى ٧٦٢هـ
١٠- پهلوان حسن الدامغاني	من ٧٦٢هـ إلى ٧٦٦هـ
١١- خواجه نجم الدين علي المؤيد	من ٧٦٦هـ إلى ٧٨٨هـ

أما الطغاتيمورية أي ذرية طغا تيمور خان حفيد شقيق جنكيزخان وأبنائه، فقد حكموا جرجان والمنطقة المحيطة بها بعد مقتل طغا تيمور خان على يد خواجه يحيى السربداري حتى سنة ٨١٢هـ. ومنح الأمير ولي الذي طرد السربدارية بعد طغا تيمور من جرجان في سنة ٧٦١هـ ملك جرجان للقمان بن طغا تيمور؛ ولكنه سرعان ما عزله حين أدرك عدم كفاءته. واستولى الأمير تيمور في سنة ٧٨٦هـ على جرجان من الأمير ولي، وفرّ ولي إلى تبريز وخلخال، وقُتِلَ فيها بأمر من الأمير تيمور، وعهد الأمير تيمور بحكم جرجان إلى لقمان وظل في هذا المنصب حتى سنة ٧٩٠هـ. وعندما توفي، تولى ابنه پيرك ملك جرجان بموافقة الأمير تيمور. وفي سنة ٨١٠هـ أبدى الملك پيرك معارضته لميرزا شاهرخ ابن الأمير تيمور، فجرَّدَ شاهرخ حملة إلى مازندران؛ ولم يتمكن پيرك من المقاومة ففر إلى رستمدار وتوفي بها. وتولّى ابنه سلطان علي مكان أبيه بعد عودة شاهرخ. وحظي سلطان علي بعطف شاهرخ، إلا أنه سرعان ما فرَّ من معسكر شاهرخ وذهب إلى

رستمدار واستمد العون من أمرائها وجاء إلى أسترابادا؛ إلا أنه أصيب على يد أحد أمراء ألغ بيك في سنة ٨١٢هـ وتوفي متأثراً بجروحه، وسقطت بوفاته أسرة الطغاتيمورية.

أمراء الطغاتيمورية:

١- طغا تيمور خان بن ... جوجي شقيق جنكيز	من ٧٣٧هـ إلى ٧٥٤هـ
٢- لقمان الملك بن طغا تيمور	من ٧٦١هـ إلى ٧٩٠هـ
٣- پيرك الملك بن لقمان الملك	من ٧٩٠هـ إلى ٨١٠هـ
٤- سلطان علي بن پيرك الملك	من ٨١٠هـ إلى ٨١٢هـ

الهوامش:

١- يقول ربيعي البوشنجي شاعر آل كرت في مديح الملك فخر الدين:

أنت أساس نسل سنجر وأنت وسيلة مُلك الإسكندر
نسل سنجر يسالك البشرى وملك الإسكندر يعلّق عليك الآمال

ويقول صدر الشريعة البخاري (توفي ٧٤٧هـ) في مدح الملك معز الدين حسين:

أبو الفتح سلطان السلاطين كلهم به نال فخراً آل كرت بن سنجر

٢- معنى لفظ «كرت» ونطقه الصحيح ليس معروفاً على وجه الدقة، ولعله اسم أبو بكر والد شمس الدين محمد. وقد ورد الاسم بفتح الكاف وبضمها، والفتح أشهر. وقد رجح البعض ضم الكاف في هذا الاسم بناء على القصيدة التي نظمها وجيه الدين النسفي في تاريخ وفاة شمس الدين محمد:

في سنة ستمئة وست وسبعين في شهر شعبان طالع القضاء المصحف لمعرفة الطالع
وباسم أشجع الفرس محمد كرت نزلت الآية «والشمس كورت»

٣- كان الملك فخر الدين مدمناً لشرب البنج أو «سبز» (الأخضر) حسب تسمية عصره. والرباعيتان التاليتان له في هذا الصدد:

كلما انتشيت بالأخضر أصبح جديراً بخضرة الأفلاك
أتعاطى الأخضر مع الحسان فوق الخضرة قبل أن أصير خضرة تحت الثرى

وله أيضاً:

شارب الخمر عارٍ حتى وإن كان غنياً ... ويملأ الدنيا بضجيجه وعربدته

أصب ذلك الزمرد في وعاء ياقوتي ... حتى تعمى عين أفعى أحزاني

٤- شاهنامه (كتاب الملوك؛ سير الملوك) : يطلق هذا الاسم على العديد من الأعمال المنثورة والمنظومة التى تتناول تاريخ إيران القومي. ومن الشاهنامات المنثورة تلك التى دونها أبو المؤيد البلخى فى بدايات القرن الرابع ومتنها مفقود. ومن الشاهنامات الأخرى تلك التي دونها أبو علي البلخي نثراً. وهناك أيضاً شاهنامة أبي منصور محمد بن عبدالرزاق قائد جيش خراسان التي جمع لتدوينها الشعراء والكتّاب من كل صوب. وأمر بتدوينها من منطلق التعصب العنصري. ويرجع تاريخ تدوينها إلى عام ٣٤٦ هـ وتبدأ من عهد كيومرث وتنتهي بعهد يزدجرد آخر ملوك آل ساسان. وهناك أيضاً شاهنامة مسعودي المروزي المنظومة، وهو أول من نظم ملاحم الفرس شعراً؛ وترجع الى عام ٣٠٠ هـ تقريباً ولم يبق منها إلا أبيات معدودة. وهناك أيضاً شاهنامة دقيقي المنظومة التى تعرف باسم گشتاسب نامه (٣٦٥-٣٨٧هـ). وأكبر هذه الشاهنامات شاهنامة الفردوسي التى استغرق نظمها ثلاثين عاماً من ٣٧٠ إلى ٤٠٠هـ (المترجم).

٥- سعد الشيرازي، وهو مشرّف الدين مصلح بن عبدالله سعدي الشيرازي من كبار شعراء الفرس ولد عام ٦٠٦هـ بشيراز. ونظراً للصراع بين الخوارزمشاهيين والأتابكة والغزو المغولي، أخذ في الترحال لمدة طويلة فى العالم الإسلامي. وبعد عودته عمل بمديح كبار قومه. وتشمل أعماله ديواناً فى الغزل وكتابين بعنوان "بوستان" و"گلستان". وتعرف أعمال سعدي في مجموعها باسم "كليات سعدي". وتوفي سعدي بين عامي ٦٩١هـ و٦٩٤هـ (المترجم).

٦- كانت أشكنوان أو شكنوان ومعها اصطخر وشكسته ثلاث قلاع تقع على أطراف مدينة اصطخر على ثلاثة جبال تعرف في مجموعها باسم سه گنبدان.

٧- قال السلطان محمد خوارزمشاه البيت التالي في حضور خواجه أسعد:

نحن في الحرب كالحديد وفي السلم كالشمع رقة ... نحن على الصديق بركة وعلى العدو شؤم

وطلب من أسعد إكمال الرباعية فقال أسعد:

أخذ من وجودنا العدل إلى الشام ... وأخذ من هيبتنا الزنار إلى بلاد الروم

٨- من أشعار الملك مظفر الدين التي نظمها في رثاء ابنه غياث الدين:

فلتسعد في آخرتك يا روح أبيك ... فلتخلد بعد أن تركتني

اخترتَ ملك البقاء على ملك الفناء ... فلتسعد روحك بما اخترت

وأرسل الملك مظفر الدين الرباعية التالية إلى كمال الدين إسماعيل الشاعر الأصفهاني المعروف (قتل في سنة ٦٣٥هـ):

لما لم يكن من سبيل لوصالك ... دونت التقويم على ديوانك

أقول أيها الفلك ماذا ينقصك ... لو وصلنا لحظة إلى الكمال

فكتب كمال رداً عليه:

دانت الشمس لك خضوعاً ... كل عبد لك يعد ملكاً

يسعى أهل الدنيا للكمال ... ثم يسعون إليك يا لب الكمال

٩- بوستان : منظومة شهيرة للشاعر سعدي الشيرازي نظمها في عام ٦٥٥هـ. وتشمل عدة أبواب فى العدل والإحسان والحب والتواضع والشكر والتوبة والمناجاة. وضمنها الشاعر حكايات وأحداثاً متفرقة من رحلاته (المترجم).

١٠- گلستان : هو كتاب في التربية والأخلاق ويعد من أشهر الكتابات الفارسية المنثورة دوّنه سعدي الشيرازي عام ٦٥٦هـ باسم الأمير سعد الدين ابي بكر بن سعد الزنكي. ويشمل الكتاب مقدمة وثمانية أبواب عناوينها كالتالي: في سِيَرِ الملوك، في أخلاق الدراويش، في فضيلة القناعة، في فوائد الصمت، في العشق والشباب، في الضعف والشيخوخة، في تاثير التربية، في آداب الكلام (المترجم).

١١- أربطة جمع رباط والمقصود به هنا الخانقاه. وكان يتم بناء هذا النوع من الخانقاوات قبل ذلك في بعض البلاد الإسلامية على حدود البلاد غير المسلمة. وكان يقيم بهذه الأربطة جماعة تعرف بالمرابطين ممن كانوا دائماً على أهبة الاستعداد للجهاد وصد المعتدين.

١٢- يقول سعدي نفسه:

ديباجته الملكية دُوِّنتْ باسم سعد بن أبي بكر سعد بن زنكي

١٣- ويعرف بنظام الدين حسوية (حسنوية) وهو ابن محمد بن الملك مظفر الدين الذي حكم شبانكاره بعد قطب الدين مبارز.

١٤- نظم مؤلف تاريخ وصاف القطعة التالية في رثائها، ويتأكد فيها أن اسم هذه الأتابك هو أبش وليس آبش:

دفنت «وارثة ملك سليمان» في التراب يا أسفاً ... أين سليمان ليبكي على بلقيس هذه

الفلك في كل ساعة يبكي بعين الكوكب ودموع الشفق ... حزناً على تلك الحسناء

إذا بكت طبول النوبات فهو بكاء في محله ... أين كأس المأتم حتى تبكي لوعة عليها

أصبحت الوردة لذكراها كالوجه الدامي ... ربما بكى النرجس على تلك العيون

١٥- معزي : هو أبو عبدالله محمد بن عبدالملك من كبار شعراء العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري، وكان يتخلص باسم «معزي» نظراً لانتسابه إلى بلاط معز الدين ملكشاه بن ألب أرسلان. وتضم قصائده إشارات إلى الأحداث التاريخية التي شهدها العصر السلجوقي (المترجم).

١٦- تولّى الأتابك علاء الدين حكم يزد قرابة عام ٦٥٠هـ.

١٧- ونظم محمود شاه الرباعية التالية في ذلك الوقت:

إنى متى أظل أسيرَ كل دنئ تافه ... فالدنيا لا تعرف للناس أقدارها

تجاسرنا وقتلنا أعداءنا ... فماذا يُخرج الفلك من جعبته

١٨- في رده على محمود شاه، نظم جلال الدين وزير فارس الرباعية التالية بعد إلقاء القبض عليه:

أيها التافه الزنديق السافل الدون ... يا من عقلك في يد الهوى أضحى ذليلاً

تهورت وقتلتَ الأعادي ... ورأيتَ ماذا يُخرج الفلك من جعبته

١٩- يقول حافظ الذي كان من مداحي أبي إسحاق في رثائه وتاريخ وفاته:

في يوم كـــاف وألف من جــمـــادى الأولى ... فـــي ســنــة ذال وحـــــــــــاء ونـــون

الفـــريـد بين ملوك الـشـــرق والغـــرب ... جـــمـــال الدنيـــا والدين الملك أبو إســحـــاق

وسط ســاحـــة مـيـــدانه بسـيـف العــدو ... وسم على قلوب أحـــبـــائه وسم الفـــراق

كما نظم غزلية أسفاً على الأمير أبي إسحاق مطلعها:

لتـــحـــيـــا ذكـــرى من كـــانت داره داري ... أضــــــاءت عــــيـــنـي من تـراب بـابـك

ويقول في هذه الغزلية:

حـــقـــاً كنتَ يا أبا إســحـــاق خـــاتماً من فـيـــروز ... ولكن كـــانت دولتــــه ســـريعـــة الزوال

٢٠- هو الشيخ أمين الدين مراد من خواص بلاط شيخ أبي إسحاق، وكانت لعبيد زاكاني حكايات معه.

٢١- هو القاضي عضد الدين عبدالرحمن الإيجي الذي توفي في سنة ٧٥٦هـ، وكان عالماً ومتكلماً وهو مؤلف كتاب مواقف وله مؤلفات أخرى وقدّمنا جزءاً من ترجمته في الفصل السابع وسنتحدث عنه فيما بعد.

٢٢- يهو حاجي قوام الدين حسن التمغاجي، وكان في عهد أسرة إينجو يتولّى جمع الضرائب الديوانية في فارس. وذات مرة تكفّل بضمان عوائد فارس وتقدر بعشرة آلاف درهم. وهو الشخص نفسه الذي قال حافظ عنه:

بحـــر الفلك الأخـــضـــر وســـفـــينة الهـــلال ... في نـعــــــمــــــة حـــــاجي قـــــوام

وتوفي حاجي قوام في سنة ٧٥٤هـ.

٢٣- هو القاضي مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداداد قاضي شيراز الذي عاش بكل إجلال بالقرب من أفراد أسرة إينجو وبنى في شيراز مدرسة تعرف بالمدرسة المجدية وكان يقوم بالتدريس فيها، وسبق أن روينا حكايته مع السلطان محمد خدابنده (انظر الفصل السابع). وكانت وفاته في يوم الثلاثاء ١٢ رجب ٧٥٦هـ، ويقول حافظ عن تاريخ وفاته:

مـــجـــد الدين وسلطان القـــضـــاء إســـمـــاعـــيل ... الذي نطق قلمــــه البليغ بلســـــان الشــــرع

كـــان وسط الأســـبـــوع في الثـــاني عـــشـــر من رجب ... حين خــــــرج من هـذا العـــــالم المضطرب

لـتـكـن رحــــــــــمــــــــة الحق مـنزلـه ... فــقــد كــان تاريخ وفــاته يوافق «رحـــمت حق»

٢٤- من قلاع جبل جيلوية الحصينة بين بهبهان وشيراز.

٢٥- ورد ذكر واقعة سمل عيني الأمير مبارز الدين في أشعار عدد من شعراء عصره، فيقول أحدهم:

جــــر فـــيـل هـمــــتــــه وجـــــلاله ... عـــــدد من الجنود جـــروه من الهند إلى النيل

عــندمــــــــا تـداعــت دولـتـــــــه ... ســــمـلوا نور عـــــينيــــه أيضـــاً

ويقول خواجة ساوجي:

كـــــان من الكـبـــــر لا يرى المســــافــــة ... من رأســـه حـــتى قـمـــة الشـمس إلا شــبـــراً

كـــان يقـــول أنا الأســـد الـهـــصـــور ... في الهـــيـــجـــاء وغـــيـــري حـمُـــر وحــشــيـــة

كـــــســـــــر ظـهــــــره ابن ظـهــــره ... ســــمــل عــــيـنه قــــرة عـــــيـنه

فــــــاعـلـم أن الســــعـــــادة والحظ ... لا يتـــحــــقـــــان بالمروءة والقـــوة

ويقول حافظ في هذا الصدد وفي سرعة غضب الأمير مبارز الدين وقسوته:

لا تعلق الآمال على الدنيا ومتاعها — فلم ير أحد منها وفاء

لم يذق أحد من حانوتها شهداً بلا لدغ — ولم يقطف أحد من بستانها رطباً بلا شوك

لو اضاء مصباح في بعض الأيام — فإنها تنفخ ريحها فيه حين يتم ضياؤه

ساذج كل من علق آماله عليها — فتراها تدلل من يعاديها

الملك الفاتح البطل المغوار — من يقطر الدم من سيفه

في هجمة واحدة يجندل جيشاً — أو بصيحة يمزق قلب جبل

تسجن العظماء بلا سبب — وتفصل الرقاب عن الرؤوس دون ذنب

يرتعد الأسد فرقاً منه — وحين يسمع اسمه في البيداء

بعد أن فتح شيراز وتبريز والعراق — حان أجله ودنت منيته

من كانت الدنيا تضئ بعينيه — سملت عينيه الدنيا

٢٦- يقول شاه شجاع:

أقلع العابثون جميعاً عن معاقرة الخمر — عدا محتسب المدينة الثمل بلا خمر

ويشير حافظ إلى ذلك في غزليتين يقول في إحداهما:

أوتدري ماذا يقول الصنج والعود — عدا محتسب المدينة الثمل بلا خمر

ويقول في الغزلية نفسها:

مع أن الخمر تهب السعادة والمرح — لا تشرب الخمر مع عزف الصنج فهناك محتسب

٢٧- يقول مولانا صدر الدين العراقي وهو من أنصار الأمير مبارز الدين في هذا الصدد:

لو كانت يد القدر قد سملت عينيك — فإن الدنيا لم تر في ذاتك الشريفة عيباً

ومن سمل عينيك هاتين — عوقب بنفس العقاب

٢٨- حين بلغه نبأ وفاة شاه محمود قال:

محمود أخي أسد هصور — كان يقاتل في سبيل التاج والخاتم

قسّمنا الملك بيننا إلى قسمين — هو تحت الأرض وأنا فوقها

٢٩- يقول حافظ عند بشرى هذا التقدم:

تعال فقد جاءت راية الملك المنصور — وبلغت بشرى الفتح الشمس والقمر

ألقى جمال الحظ النقاب عن وجه الظفر — وجاء جمال العدل لنجدة الملهوف

٣٠- لم يفلت من آل مظفر سوى ابن السلطان زين العابدين ويدعى السلطان معتصم، وكانت له بعض الصولات بعد وفاة تيمور.

٣١- نظم سليمان شاه الرباعية التالية في واقعة قتل حسام الدين خليل:

خليل المسكين أصبح في حيرة إذ نبتت بذرة عشق الربيع في روحه

يسعى عفريته إلى ملك سليمان فقتل في صحن ديوان سليمان

٣٢- وقيل في هذا الصدد:

أرأيتَ ماذا فعل أشرف الحمار حمل الظلم وحمل غيره الذهب

٣٣- عبيد زاكاني: هو نظام الدين عبيد الله زاكاني من شعراء القرن السادس واشتهر بالهجاء والهزل. ولد بقرية زاكان بقزوين وتلقى علومه الأولية بشيراز؛ وكان من معاصري حافظ الشيرازي. وتشتمل كليات عبيد على قصائد وغَزليات ورباعيات وأشعار هزلية، ومن أعماله عشاقنامه، أخلاق الأشراف، ريش نامه، صد پند، تضمينات، رساله دلگشا، رساله تعريفات، موش وگربه، سنگتراش، فالنامه. وتوفي عبيد عام ٧٧٢هـ تقريباً (المترجم).

٣٤- «كُلو» تعني الرئيس أو الزعيم.



الفصل التاسع
الحضارة والمعارف والصناعات في العصر المغولي

على الرغم من أن حقبة المئتي سنة التي تناولنا تفاصيل تاريخها في الفصول الثمانية الماضية قد تعد واحدة من الحقب الحزينة في تاريخ العالم الإسلامي عامة وإيران خاصة، فإنها تعد من أكثر العهود إشراقاً في تاريخ العلم والفلسفة والأدب في إيران لأنها أعقبت قرون النهضة العلمية والأدبية التي شهدها العصر العباسي ولم تكن النتائج السلبية للاحتلال المغولي قد ظهرت بعد. فهي حقبة متميزة من عدة نواحٍ، خاصة من ناحية تعدد الشخصيات الكبرى التي عاشت في تلك الفترة وحملت مشاعل العلوم والآداب الفارسية؛ فقد عاش فيها عدد من أكبر شعراء إيران وأدبائها وحكمائها كمولانا جلال الدين الرومي[1] وأفصح المتكلمين سعدي الشيرازي ولسان الغيب حافظ الشيرازي وعطا ملك الجويني وخواجه رشيد الدين فضل الله الوزير وحمد الله المستوفي والعلامة قطب الدين الشيرازي وخواجه نصير الدين الطوسي. ويمكن القول إنه بعد مضى عصر هؤلاء الأعلام والذي امتد حتى أواخر العصر التيموري، بدأ عصر انحطاط العلوم والآداب الفارسية وبلغت ذروة ضعفها في عصر الدولتين الصفوية والأفشارية. ففي هذين العصرين الأخيرين، ظهرت النتائج السلبية لاحتلال المغول والتيموريين. وقبل أن نخوض في أوضاع الحضارة والعلوم والمعارف والصناعات في عصر الاحتلال المغولي، ينبغي أن نشير إلى المصادر التي استقينا منها تاريخ تلك الحقبة وسير المؤرخين الذين أخذنا عنهم في الفصول السابقة حتى يتسنى الرجوع إليها لمن يريد المزيد من التفاصيل.

المصادر التاريخية:

كتب بعض مصادر تاريخ حقبة الاحتلال المغولي باللغات الإسلامية أي العربية والتركية والفارسية، وبعضها الآخر بلغات أجنبية كالصينية والمغولية والأرمينية واللغات الأوربية. وقد دوَّن الكتابات العربية كتّاب من الفرس ودوَّنَ بعضاً آخر منها كتّاب مسلمون آخرون يعرفون العربية. ونقدم فيما يلي هذه المصادر حسب الترتيب الزمني بدءاً بتلك التي دونها مسلمون.

ياقوت الحموي (٥٧٥هـ-٦٢٦هـ)

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، أشهر الجغرافيين الإسلاميين. وقد ولد في بلاد الروم. وتم بيعه بعد أسره لتاجر من أهل حماة، وتولّى فيها تجارة مولاه وارتقى عنده وتعلم الأدب والنحو واللغات. وفي أسفاره التجارية التي كان يقوم بها من جانب مولاه اطلع على أحوال الطرق والبلاد. وبعد عتقه، اتخذ من نسخ الكتب وسيلة لكسب العيش. وتبدأ هذه المرحلة من عمره منذ سنة ٥٩٦هـ. وفي سنة ٦١٢هـ، استقر به الحال في دمشق. ونظراً لميله لآراء الخوارج، فقد ثار عليه أهلها وأرادوا قتله. فرحل ياقوت عنها إلى حلب والموصل وأربيل، وفي النهاية ذهب إلى خراسان إبان اجتياح المغول، واستقر في مرو وبدأ في التردد على مكتباتها للمطالعة وجمع المعلومات لوضع مؤلفه في جغرافيا البلاد الإسلامية.(٢)

وفي سنة ٦١٦هـ فر ياقوت من مرو على أثر اجتياح المغول، ووصل إلى الموصل بعد عناء شديد، وأقام فيها لفترة، ثم رحل إلى سنجار، وانتقل في أواخر حياته إلى حلب إلى أن وافته المنية في سنة ٦٢٦هـ. وفي أثناء إقامته بحلب، عقدت أواصر الصداقة بينه وبين القاضي أكرم جمال الدين أبي الحسن علي القفطي (٥٦٣هـ-٦٤٦هـ) وزير الأمير والمؤرخ المعروف، وأتم كتابه الخالد معجم البلدان الذي كان قد أعد مقدماته في مرو بعونٍ من هذا الوزير المحب للعلم. ويعد هذا الكتاب موسوعة جغرافية وكنزاً من المعلومات التاريخية والأدبية. ويشير ياقوت فيه من حين لآخر إلى اجتياح التتار ضمن حديثه عن مدن خراسان وما وراء النهر وتركستان. وإلى جانب هذه الإشارات التي أوردنا بعضها في الفصول السابقة، وردت نبذة عن أوضاع خراسان في الرسالة التي كان قد كتبها في سنة ٦١٧هـ من الموصل إلى القفطي بعد فراره من مرو والتي أوردها ابن خلكان في ترجمته لياقوت.(٣)

ابن الأثير (٥٥٥هـ-٦٣٠هـ):

هو عز الدين أبو الحسن الجزري المعروف بابن الأثير، وهو من أهالي جزيرة ابن عمر (من الجزر الداخلية لدجلة بشمال الموصل) ويعد من أشهر المؤرخين الإسلاميين، وأمضى أوائل حياته في

تحصيل فنون الأدب بالموصل وبغداد والشام. وبعد أن بز أهل عصره في التاريخ واللغات والأنساب، اعتزل الحياة العامة في الموصل وعكف على التأليف.

وأكبر مؤلفات ابن الأثير وأشهرها هو كتاب الكامل في التاريخ وهو تاريخ عام للعالم سنة بسنة بداية من بدء الخليقة حتى سنة ٦٢٨هـ أي قبل وفات مؤلفه بعامين. وفي هذا الكتاب، يسجل ابن الأثير الذي عاصر الاجتياح المغولي تفاصيل الأحداث منذ أواخر عصر القراخطائيين والخوارزمشاهيين حتى أواخر عهد السلطان جلال الدين منكبرني وبدقة بالغة. وهو أول مؤرخ يورد في كتابه وقائع عصر اجتياح التتار بصورة مفصلة نسبياً. وقد بذل جهداً كبيراً في جمعه للمعلومات عن الثقاة. لذا فإن كتابه يعد من أهم مصادر تاريخ المغول. وقد ألفه ابن الأثير باسم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

محمد النسَوي الكاتب (النصف الأول من القرن السابع):

هو نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد النسوي الكاتب الخاص للسلطان جلال الدين منكبرني، وقد سبق أن أوردنا نبذة عن حياته ضمن حديثنا عن وقائع عصر هذا السلطان. وكان ملازماً لولاة مدينة نسا المحليين، وقد تم إيفاده منها من قبل أحدهم إلى خراسان في سنة ٦٢١هـ لتسليم بعض المال للسلطان جلال الدين؛ ولكن لما كان جلال الدين في الري بعد أن انتصر على أخيه، فقد ذهب إليه هناك والتحق منذ ذلك الوقت ببلاطه، وتولّى في سنة ٦٢٢هـ منصب منشئه الخاص، وظل يعيش في كنفه حتى قتل جلال الدين في سنة ٦٢٨هـ. وعندما فر جلال الدين من آذربيجان إلى الجزيرة، ابتعد عنه النسوي الذي كان قد ذهب برسالة إلى الملك المظفر صاحب ميافارقين وتعرض لشتى ضروب المحن. واستقر به الحال في ميافارقين في سنة ٦٢٩هـ حيث اطلع على تفاصيل مصرع السلطان. وقد عاش محمد النسوي حتى سنة ٦٣٩هـ ولا نعرف ماذا حدث له بعد ذلك. وكان النسوي من الكتّاب الفصحاء ثنائيي اللغة، إذ كان يتحدث العربية والفارسية. وله كتابان في سيرته وسيرة سيده السلطان جلال الدين منكبرني، أحدهما بالفارسية بعنوان نفثة المصدور وقد أتمه النسوي في سنة ٦٣٢هـ بميافارقين عن أحداث حياة السلطان وحياته

هو نفسه في الفترة بين عامي ٦٢٧هـ و٦٣٢هـ؛ والآخر بالعربية بعنوان سيرة جلال الدين منكبرني وقد أتمه النسوي في سنة ٦٣٩هـ. ويستدل من مقدمته أن المؤلف بعد انتهائه منه واطلاعه على المعلومات القيمة عن الخوارزمشاهيين والسلطان جلال الدين، ونظراً لأن الكتاب يتوقف عند سنة ٦٢٨هـ أي تاريخ مقتل السلطان جلال الدين، فإن ابن الأثير لم يطلع على نهاية عمله وأشار إلى ضرورة تدوين كتاب خاص عن سيرة جلال الدين لإكمال ما بدأه والرد على الحكايات الملفقة التي تناقلها الناس عن حياة مخدومه. وكان هذا هو كتاب سيرة جلال الدين الذي يتضمن تفاصيل الفترة الأخيرة من حكم الخوارزمشاهيين وبداية خروج المغول والأحداث الخاصة بالسلطان جلال الدين ومعاركه؛ وهو يعد أيضاً من أهم مصادر تاريخ عصر اجتياح التتار.

ابن أبي الحديد (٥٨٦هـ-٦٥٦هـ):

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني البغدادي المعروف بابن أبي الحديد، وهو من الشعراء والأدباء والمؤرخين المعتزلة وكان ميالاً كذلك للتشيع. وقد عمل هو وأخوه موفق الدين بالأعمال الديوانية في عهد المستنصر والمعتصم. وكان عز الدين من خواص ابن العلقمي وزير المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، ووضع كتابه الشهير شرح نهج البلاغة باسم هذا الوزير. ووقع عز الدين وأخوه موفق الدين في أسر التتار إبان غزو هولاكو لبغداد، وأفلت الأخوان من القتل بتدخل من ابن العلقمي ووساطة خواجه نصير الدين الطوسي؛ إلا أنهما توفيا في أوائل سنة ٦٥٦هـ[٤]

ومع أن ابن أبي الحديد الذي عاصر حملات المغول على الجزيرة والعراق قبل اجتياح بغداد لم يضع كتاباً مستقلاً عن هذه الأحداث، فقد أورد في كتابه شرح نهج البلاغة معلومات مفصلة نسبياً عن بداية خروج التتار وغزو بلاد ما وراء النهر وخراسان والعراق والجزيرة وهجومهم على بغداد في سنة ٦٤٢هـ في خمس صفحات أو ست من القطع الكبير، وتضم هذه الصفحات معلومات مهمة تتعلق بتاريخ احتلال المغول لأصفهان وبعض المناطق الأخرى.

منهاج السراج (٥٨٩هـ-النصف الثاني من القرن السابع):

هو القاضي أبو عمرو منهاج الدين بن سراج الدين الجوزجاني المعروف بمنهاج السراج وهو شاعر وأديب فارسي من أسرة من أهل العلم والبلاغة. وكان أجداده من أعيان سيستان وبلاد الغور. وكان أبوه مولانا سراج الدين منهاج يعيش في بلاط الملك معز الدين محمد بن سام الغوري، وتم تعيينه من قبل هذا الملك قاضياً لجيش الهند في سنة ٥٨٢هـ؛ ثم تولّى منصب القضاء والخطابة في باميان في عهد السلطان بهاء الدين سام.

ولد أبو عمرو منهاج السراج في سنة ٥٨٩؛ وفي عامي ٦٢٢هـ و٦٢٣هـ، أي في خضم الاجتياح المغولي، تم إيفاده سفيراً من قبل ملك الغور إلى الملك نيمروز، وأفلت عدة مرات من قبضة المغول، وانتقل في النهاية إلى الهند واستقر في كنف السلطان ناصر الدين قباجة وهو أحد المماليك الغورية وقد تولّى الحكم من ٦٠٢هـ إلى ٦٢٥هـ في مولتان وبعض بلاد السند وكان من رعاة الأدب الفارسي؛ وعمل مدرساً بأحد المدارس وقاضياً للجيش من قبله. وبعد أن قضى شمس الدين ألتتمش على ناصر الدين قباجة في سنة ٦٢٥هـ، ذهب القاضي منهاج السراج إلى شمس الدين وسار في ركبه في فتحه دلهي، وظل منذ ذلك الوقت ملازماً لشمس الدين وابنه ناصر الدين محمودشاه (٦٤٤هـ-٦٦٤هـ)، ووضع كتابه المعروف طبقات ناصري باسم هذا الملك.

وكتاب طبقات ناصري الذي بدأ القاضي منهاج السراج تدوينه في سنة ٦٥٧هـ وأتمه في شوال ٦٥٨هـ هو تاريخ عام للعالم في ثلاثة وعشرين باباً يختص كل منها بطبقة من الأنبياء والأولياء أو الخلفاء والملوك. ومع أنه تناول اجتياح المغول ضمن تناوله لملوك الغور والخوارزمشاهية وسلاطين الهند، فقد خصص الباب الثالث والعشرين والأخير من كتابه لهذا الموضوع منذ بدء خروج التتار وحتى غزو بغداد.

ويعد كتاب طبقات ناصري من أمهات الكتب الفارسية من حيث سلاسة اللغة والبلاغة ومن حيث إيراده للأحداث المهمة والدقة. كما يعد من أهم المصادر الخاصة بتاريخ الغور وملوك الهند وغزو التتار ومن أقدم التواريخ الفارسية في هذا الصدد.

ويعد ياقوت الحموي وابن الأثير ومحمد النسوي الكاتب وابن أبي الحديد والقاضي منهاج

السراج هم المؤرخون الإسلاميون الوحيدون الذين عاصروا بداية اجتياح المغول ورأوا فظائعهم بأعينهم وفروا أمام طوفان هجومهم وسمعوا من غيرهم من الناجين تفاصيل ما أحدثوه من خراب ودمار وسجلوه في مؤلفاتهم. وقد عاش في تلك الحقبة أيضاً عدد آخر من الأدباء تناولوا وقائع الاجتياح التتري بصورة مجملة في أعمالهم، ومن هؤلاء شمس الدين محمد بن قيس الرازي في مقدمة كتابه المعجم؛(٥) والشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الرازي المعروف بنجم الدين دايه الذي فر أمام جحافل التتار في سنة ٦١٧هـ ولجأ إلى بلاد الروم وظل فيها حتى توفي في سنة ٦٥٤هـ، ويشير في مقدمة كتابه العرفاني مرصاد العباد إلى اجتياح المغول وفراره من خراسان والعراق؛ وخواجه نصير الدين الطوسي العالم المعروف الذي عمل في خدمة المغول منذ اجتياحهم لقهستان وأورد نبذة عن تاريخ المغول في مقدمة كتابه زيج أيلخاني، وهناك رسالة صغيرة تنسب إليه عن فتح بغداد. ويشير هؤلاء الأدباء الأعلام إلى المغول كعادة أهل ذلك العصر باسم التتر أو التتار(٦) ، وربما لم يكن أي منهم يعرف لفظ «مغول» الذي انتشر منذ عهد عطا ملك الجويني ومعاصريه سوى مؤلف طبقات ناصري الذي بدأ في تدوين كتابه في سنة تأليف الجويني لكتابه جهانگشاى؛ وهو يكرر لفظ «مُغُل» في كتابه. أما تسمية «تتر» و«تتار» فقد عُرِفَ لدى المسلمين منذ ما قبل القرن السابع الهجري.

عطا ملك الجويني (٦٢٣هـ - ٦٨١هـ):

يعد تاريخ جهانگشا أي تاريخ جنكيز أدق التواريخ الخاصة باجتياح المغول وفتوحات جنكيز بقلم علاء الدين عطا ملك الجويني بن بهاء الدين محمد وشقيق خواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان والذي سبق أن أوردنا ترجمات مختصرة لهم ضمن حديثنا عن الإيلخانات الذين عاصروهم.

ولد عطا ملك الجويني في سنة ٦٢٣هـ، وعمل بالشؤون الديوانية منذ مطلع شبابه أي قبل بلوغه العشرين، وصار من العمال الديوانيين للأمير أرغون آقا حاكم خراسان. وكما سبقت الإشارة، سافر عطا ملك الجويني عدة مرات إلى الأمير أرغون بقرا قروم عاصمة منغوليا، وتعرَّف في

هذه الأسفار على أوضاع المغول ومخيماتهم الأصلية وجمع المادة اللازمة لتدوين كتابه الخالد. وقد أشرنا من قبل إلى بقية حياة عطا ملك الجويني منذ سنة ٦٥٤هـ حيث تعرف على هولاكو من خلال الأمير أرغون.

أتم عطا ملك الجويني تاريخه المعروف في سنة ٦٥٥هـ، أي إبان انتهاء قوات هولاكو من فتح قلاع الإسماعيلية. وبناء على ذلك فإن تاريخ إتمام ذلك الكتاب يقترب من سنة بدء تأليف كتاب طبقات ناصري. ومع أن شباب عطا ملك الجويني يتزامن مع اجتياح المغول، فإن دوره في الديوان يبدأ مع قدوم هولاكو إلى إيران. لذا فإن معظم الأحداث التي أوردها الجويني في كتابه عن عهد جنكيز استقاها من المعمرين الذين عاصروا ذلك العهد وسجلها في كتابه. كما حصل على بعض المعلومات أيضاً من مسئولي المغول، وربما استفاد كذلك من بعض الكتابات المغولية.

يقع تاريخ جهانگشا للجويني كما قسمه مؤلفه في ثلاثة مجلدات؛ يتناول المجلد الأول تاريخ بداية بزوغ نجم جنكيزخان وإلياسا الجنكيزية وتاريخ قبيلة الأويغور وفتوحات جنكيز في ما وراء النهر وخراسان وزوال دولة الخوارزمشاهية وجلوس أقطاي وجيوك وحياة جوجي وجغتاي؛ والمجلد الثاني في تاريخ سلاطين الخوارزمشاهية والقراخطائية وحكام إيران المغول؛ والمجلد الثالث في تاريخ منجو قاآن وتفاصيل حملة هولاكو على إيران وتاريخ الإسماعيلية حتى سنة ٦٥٥، ومعظم هذا القسم الأخير مستمد من كتاب سرگذشت سيدنا. وتم ضم الملحق الخاص باجتياح بغداد والمنسوب لخواجه نصير الدين الطوسي إلى آخر نسخ تاريخ جهانگشا كتذييل للمجلد الثالث.

ويعد تاريخ جهانگشا للجويني أحد كتابين أو ثلاثة في التاريخ بالفارسية، قضى مؤلفه سنوات عمره في جمع مادته؛ وبلغت دقته في ذلك حداً بعيداً لدرجة أن المعلومات التي ضمنها إياه لا نجدها في أي كتاب آخر كتاريخ الأويغور والقراخطائية والخوارزمشاهية وفتوحات جنكيز واستقى كل المؤرخين الذين جاءوا من بعده بلا استثناء تاريخ هذه الأحداث منه. ويتميز الجويني على غيره من مؤرخي تاريخ المغول بأنه عاش عصراً لم تكن الممالك الجنكيزية قد قسمت بعد بين أبناء جنكيزخان الأربعة. لذا فقد أورد الجويني التاريخ العام للممالك التي دانت للمغول في كتابه، بينما يركز المؤرخون الذين جاءوا بعده كوصاف ورشيد الدين فضل الله على أحداث الدول التي خضعت للإيلخانات وقد يتطرقون إلى الصين ونادراً ما يتناولون تاريخ الدول الأخرى.

شهاب الدين عبد الله وصاف الحضرة (النصف الأول من القرن الثامن):

من أهم مصادر تاريخ المغول وأقدمها من الناحية الزمنية بعد تاريخ جهانگشا للجويني هو كتاب تجزية الأمصار وتزجية الأعصار أو ما يعرف بـ تاريخ وصاف تأليف الأديب شهاب الدين عبد الله الشيرازي الملقب بوصاف الحضرة. ولد وصاف قرابة سنة ٦٦٣هـ بشيراز؛ وكان أديباً وشاعراً. وقد انخرط في الأعمال الديوانية في شيراز وتدرج حتى أصبح من خواص خواجه صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني نائب الأمير طغاجار إبان ولايته على فارس. وقد نظم وصاف الحضرة مدائح وأشعاراً عن الزنجاني الذي تولّى وزارة كيخاتو خان. وكان عز الدين فضل الله والد وصاف قد توفي في ٢٢ ذي القعدة ٦٩٨هـ في القحط الذي حل في إقليم فارس؛ وكان وصاف آنذاك يعمل مأموراً لجباية الضرائب في الإقليم، وكانت تربطه بالوزير رشيد الدين فضل الله صلات وثيقة، وقد حظي بوساطة منه بعطف بالغ من كل من غازان وأولجايتو، وعرض تاريخه على الإيلخان من خلاله.

ويعد تاريخ وصاف تذييلاً لـ تاريخ جهانگشا للجويني؛ فهو يشتمل على أحداث عصر إيلخانات إيران بمنهج تاريخ جهانگشا نفسه وتاريخ ملوك وأمراء الأطراف منذ سنة ٦٥٦هـ وحتى سنة ٧٢٨هـ في أواسط عهد إيلخانية أبي سعيد بهادرخان. وبدأ وصاف في تدوين كتابه في سنة ٦٩٩هـ وانتهى من المجلد الأول منه في ١٣ رجب ٧٠٢هـ بأحد منازل القوافل على ضفاف الفرات على الطريق إلى الشام وعرضه على غازان من خلال رشيد الدين فضل الله وخواجه سعد الدين محمد الساوجي. وقد حظي بعطف الإيلخان نتيجة لحسن تقديم هذين الوزيرين. وبعد أن فرغ من نصف الكتاب، عرضه أيضاً على رشيد الدين وأولجايتو في ٢٤ محرم ٧١٢هـ بسلطانية وحظي أيضاً بعطف هذا الإيلخان.

ومع أن تاريخ وصاف أدنى مرتبة من تاريخ جهانگشا للجويني من ناحية الأسلوب حيث اتبع مؤلفه طريق التكلف، فإنه يُعَدُّ من أهم مصادر تاريخ المغول في عصر إيلخانات إيران؛ وقد استقينا معظم المعلومات التي أوردناها عن تاريخ الحقبة الفاصلة بين فتح بغداد وأواسط عهد أبي سعيد من

تاريخ وصاف ومن جامع التواريخ للرشيدي. ومن يمن الطالع أن كلاً من مؤلِّفَيْ هذين الكتابين اعتمد على مصادر مستقلة واستمد كل منهما معلوماته من الآخر.

خواجه رشيد الدين فضل الله (٦٤٥-٧١٨هـ):

من أهم الأعمال التاريخية والأدبية التي دُوِّنَتْ في العصر المغولي في إيران مجموعة كبرى في التاريخ العام بعنوان جامع التواريخ تم جمعها وإعدادها في عهد غازان خان وأولجايتو وتحت إشراف الوزير العالم خواجه رشيد الدين فضل الله الهمداني. ورشيد الدين فضل الله هو ابن عماد الدولة أبي الخير وحفيد موفق الدولة الهمداني. وقد عاش جده موفق الدولة مع نصير الدين الطوسي في قلاع ملاحدة قهستان؛ وبعد تسليم القلاع، التحق بخدمة المغول. وقضى رشيد الدين سنوات شبابه في همدان في تحصيل العلوم خاصة الطب، والتحق ببلاط أباقا خان كطبيب كما سبقت الإشارة، وارتقى إلى أن تولَّى وزارة غازان وأولجايتو وأبي سعيد.

وكان غازان خان يحب التاريخ، وكان محيطاً بتاريخ أسلافه إحاطة تامة؛ فكلَّف رشيد الدين بإعداد كتاب في تاريخ المغول ونشره بين أمراء التتار وأعيانهم وقادتهم ورجال دولتهم وعامتهم حتى لا ينسوا تاريخ أجدادهم بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين أوطانهم الأصلية. وقَبِلَ رشيد الدين هذه المهمة الجليلة، ومن خلال مطالعة الوثائق المغولية والمناقشة الشفاهية مع المطلعين من التتار كپولاد تشينج سانج وغازان خان نفسه، وضع أساس كتابه القيم تاريخ غازاني باسم غازان خان. إلا أن غازان توفي قبل إتمامه، وجاء أخوه وخليفته أولجايتو وشجَّع رشيد الدين على تنفيذ وصية أخيه وسلفه، وكلفه بإضافة تاريخ الطوائف التي كان لها ممثلين مقيمين في البلاط الإيلخاني وتضمينه مجلداً آخر في الجغرافيا والمسالك والممالك ملحقاً بـ تاريخ غازاني. وعلى الرغم من استغراق رشيد الدين التام في العمل وتدبير شؤون الدولة والديوان وعلى الرغم من شيخوخته وضعفه، فقد أخذ هذه المهمة على عاتقه، وانهمك في إعداد جامع التواريخ بعون من أهل العلم من كل طائفة وجماعة من المقيمين في سلطانية وتبريز من علماء الصين والتبت والأويغور والفرنجة، وأتمه في سنة ٧١٠هـ.



كان جامع التواريخ الرشيدي وفقاً لخطة رشيد الدين في أربعة مجلدات:

المجلد الأول: في تاريخ قبائل المغول منذ أقدم العصور وتاريخ كل قبيلة وموطنها وتاريخ أجداد جنكيزخان وذريته حتى عهد أولجايتو. وهذا هو الكتاب المعروف بـ تاريخ غازاني ولايزال باقياً.

المجلد الثاني: وهو في بابين، الباب الأول في تاريخ حكم أولجايتو حتى عصر تأليف جامع التواريخ. ويتضمن الباب الثاني قسمين، الأول منهما في فصلين: الأول في مجمل تاريخ الأنبياء والخلفاء والملوك وسائر طبقات الناس منذ عهد آدم حتى زمن تأليف جامع التواريخ، والفصل الثاني في تفصيل تاريخ كل أمة من أمم العالم. والقسم الثاني من الباب الثاني في تاريخ أولجايتو منذ زمن تأليف جامع التواريخ وما تلاه وهو القسم الذي وضعه المؤرخون الآخرون وضموه إلى جامع التواريخ.

المجلد الثالث: في بيان صور الأقاليم والمسالك والممالك. ولم يبق هناك أثر لهذا المجلد الثالث. أما المجلدان الآخران فقد بقيا وتم نشر أجزاء منهما أيضاً.

والجزء الأساسي والقيِّم من جامع التواريخ هو المجلد الأول أي تاريخ مبارك غازاني والذي يقتصر على تاريخ قبائل التتار وأجداد جنكيزخان. وحتى كتاب جهانگشا يفتقر إلى مثل هذا الجزء. أما فيما يتعلق بفتوحات جنكيزخان وأبنائه فإن جامع التواريخ يعد صورة مختصرة لـ جهانگشا؛ في حين أنه يعد كنزاً ثميناً فيما يتصل بتاريخ غازان وإصلاحاته والقوانين التي استنها وغير ذلك من تفاصيل. كما أن أسلوب إنشاء هذا الجزء يعد نموذجاً لبساطة الفارسية وسلاستها.

كان خواجه رشيد الدين فضل الله عالماً شاملاً ملماً باللغات الفارسية والعربية والتركية والمغولية والعبرية، وكان يقضي كل أوقات الفراغ التي يقتنصها من أعماله الديوانية في المطالعة أو الكتابة. وإلى جانب جامع التواريخ فإن له مؤلفات أخرى مهمة ككتاب الأحياء والمآثر في بيان البرد والحر وفصول السنة والزراعة والري وأمراض النبات والمعادن وغير ذلك، إلا أن الكتاب مفقود؛ وكتاب توضيحات ويضم تسع عشرة رسالة في المسائل الكلامية والدينية والعرفانية؛ و مفتاح التفاسير في بيان فصاحة القرآن وتراجم المفسرين وبيان الخير والشر والجبر والقدر والإبطال والتناسخ وإثبات الحشر وغيره؛ و رسالة سلطانيه و لطايف الحقايق و بيان الحقايق، إضافة إلى مجموعه مكاتبات

رشيدي وهو عبارة عن مجموعة رسائل كتبها رشيد الدين لأبنائه وعماله، وتشتمل هذه الرسائل على العديد من النقاط الأدبية والتاريخية.

اتخذ خواجه رشيد الدين الاحتياطات اللازمة للحيلولة دون تلف كتاباته التي عانى كثيراً لتدوينها ولتعميم الفائدة منها في حياته؛ فمن ناحية، ترجم كل مؤلفاته الفارسية إلى العربية، ومن ناحية أخرى ترجم كل مؤلفاته العربية إلى الفارسية حتى تعم فائدتها على أهل اللغتين؛ ثم أمر بعمل عدة نسخ منها وأرسلها لأصدقائه ولأهل الأدب في الأقاليم ممن سمحوا لغيرهم بنسخها. وفي حي الربع الرشيدي الذي كان قد أنشأ فيه مدرسة ومصحة وداراً للأشراف وضريحاً لمدفنه بالقرب من تبريز وأنفق على منشآته مبالغ طائلة أودع نسخاً من مؤلفاته حتى يطالعها من يريد أو ينسخ منها. هذا إلى جانب أنه أعد نسخة ضخمة بعنوان جامع تصانيف رشيدي (جامع مؤلفات رشيد) وزودها بالصور والرسوم وأودعها في الربع الرشيدي حتى يقارن الناس نسخهم بها، وأمر بنسخ نسختين من كل من مؤلفاته، إحداهما بالعربية والأخرى بالفارسية وإرسالهما إلى إحدى البلدان الإسلامية الكبرى.

ومما يؤسف له أنه على الرغم من كل هذه الاحتياطات، فقد وقعت نسخ مؤلفاته وكثير من النفائس في أيدي الجهلة حيث تعرض حي الربع الرشيدي للنهب مرتين، مرة بعد مقتل هذا الوزير والأخرى بعد مصرع ابنه غياث الدين. وضاع بعض آخر من مؤلفاته القيمة نتيجة لحوادث أخرى.

ومن بين التواريخ المهمة التي ذكرناها وإلى جانب الكامل لابن الأثير وطبقات ناصري التي تتميز بجانبها التاريخي العام وبالتالي بتناولها لتاريخ المغول، نجد أن الأعمال الأربعة وهي سيرة جلال الدين النسوي و جهانگشا للجويني وتاريخ وصاف وتاريخ غازاني لرشيد الدين فضل الله تمثل الأركان الأربعة لتاريخ المغول. وكل ما كتب عن تاريخ المغول بعد تدوين هذه الأعمال كانت معلوماته الأساسية مستمدة من هذه الكتب الأربعة.

ونظراً لازدهار كتابة التاريخ في عصر المغول وفي إيران على الأخص، فقد ظهرت عدة تواريخ عامة كبيرة وصغيرة وردت بها معلومات تتعلق بحقبة احتلال المغول وحكمهم، ومنها نظام التواريخ للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي الذي دوَّنهُ في سنة ٦٧٤هـ، و روضة أولي

الألباب تأليف أبي سليمان داود البناكتي وأتمه في سنة ٧١٧هـ، و تاريخ گزيده و ظفرنامه وكلاهما من تأليف حمد الله المستوفي القزويني، وأولهما كُتِبَ نثراً في سنة ٧٣٠هـ، والآخر نظمه حمد الله في سنة ٧٣٥هـ، و مجمع الأنساب لمحمد بن علي الشبانكاري وقد دوَّنَهُ في سنة ٧٣٣هـ قبيل وفاة أبي سعيد، ونقَّحه بعد وفاة هذا الملك.

وبالإضافة إلى هذه المؤلفات الفارسية التي سنتطرق إلى كل منها فيما بعد وإلى جانب كتب مؤرخي العصر التيموري كحافظ أبرو وشرف الدين علي إليزدي وكمال الدين عبد الرزاق السمرقندي وخسرو أبرقوهي وخوندمير وميرخوند وهي أعمال تتضمن معلومات لها قيمتها عن عصر المغول، هناك خمسة مؤرخين عاصروا الحقبة المغولية وكتبوا بالعربية:

ابن العبري (٦٢٣هـ-٦٨٥هـ):

هو أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطبيب وكان من أهالي ملطية ومن المسيحيين اليعاقبة الذين سكنوا مراغة. وكان من معاصري أرغون خان المغول وعطا ملك الجويني، وكان يتقن السريانية والفارسية والعبرية واليونانية وغيرها، ودوَّنَ كتابين في التاريخ، أحدهما بالسريانية في التاريخ العام المفصَّل، والآخر بالعربية في الموضوع نفسه عنوان مختصر الدول. وفي كلا الكتابين أورد تاريخ الخوارزمشاهيين والإسماعيلية والمغول مختصراً عن جهانگشا للجويني. ومع ذلك فقد تضمنا معلومات إضافية عن احتلال المغول للجزيرة وبلاد الروم.

ابن الفوطي (٦٤٢هـ-٧٢٣هـ):

هو كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد البغدادي المعروف بابن الفوطي، وهو أصلاً من أهالي مرو الروذ بخراسان. وقد اشتغل بالأعمال الديوانية في عهد الخلفاء العباسيين، وبعد اجتياح المغول لبغداد، عمل في خدمة خواجه نصير الدين الطوسي وتتلمذ عليه في الحكمة والأدب وشارك في مرصد مراغة. وفي عهد ولاية عطا ملك الجويني، صار من خواص أسرة الجويني ومداحيها حيث امتدحهم نظماً ونثراً بالعربية والفارسية.

ونظراً لمداخلة ابن الفوطي مع نصير الدين الطوسي وأسرة الجويني ومطالعة مكتبة الطوسي التي تضم آلاف المجلدات وتوليه أمانة خزانة الكتب المستنصرية ببغداد، فقد كان من العالمين بالأوضاع التاريخية في عصره؛ ولكن لم يبق من مؤلفاته سوى جزء من أحدها بعنوان الحوادث الجامعة في وقائع المئة الهجرية السابعة، حيث فقد الجزء الخاص بالوقائع ابتداء من سنة ٦٢٨هـ. ويتضمن الجزء الباقي العديد من الموضوعات المهمة.

أبو الفداء (٦٧٢هـ-٧٣٢هـ):

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي، من ملوك حماة وسبق أن رأينا بعضاً من أدواره في حروب عهد غازان خان. وكان بالإضافة إلى ذلك عالماً في الفقه واللغات والتاريخ والأدب والهيئة، وتولّى الحكم تحت حماية الملك الناصر سلطان مصر. وكان يبذل جهوداً كبيرة لرعاية أهل العلم والأدب. وقد بقي له مؤلفان قيمان أحدهما تقويم البلدان في الجغرافيا والمسالك والممالك، والآخر في التاريخ بعنوان المختصر في أخبار البشر وهو اختصار لما ورد عند ابن الأثير حتى سنة ٦٢٨هـ، ومنذ ذلك العام وحتى ٧٢١هـ من وضع المؤلف نفسه. ويضم هذا الجزء الأخير معلومات قيمة عن تاريخ المغول خاصة في الجزيرة وبلاد الشام وحملاتهم على تلك المناطق.

ابن الطقطقي (النصف الأول من القرن الثامن الهجري):

هو صفي الدين محمد بن علي بن محمد طباطبائي المعروف بابن الطقطقي، وهو من أشراف الجزيرة، وقد ولد قرابة سنة ٦٠٠هـ في الموصل. وكان أبوه يستأجر مساحة هائلة من الأملاك الديوانية إبان ولاية عطا ملك الجويني على العراق وجمع من هذا السبيل ثروة طائلة. ونتيجة للغرور الذي أصابه عرض على أباقا خان عزل عطا ملك من حكومة بغداد والعراق؛ وعلم خواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان بهذه المسألة وقام عطا ملك بقتل تاج الدين علي والد صفي الدين وصادر أمواله. وكان صفي الدين آنذاك في العشرين من عمره، وقد نشأ في الموصل، وفي سنة ٧٠١هـ، وضع كتاباً في تاريخ الخلفاء ووزرائهم بعنوان منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء

والوزراء ويعرف بـ الفخري، وهو كتاب صغير ولكنه قيِّم ويضم معلومات متفرقة عن تاريخ المغول واجتياحهم لبغداد. وهو الكتاب نفسه الذي ترجمه إلى الفارسية هندوشاه النخجواني بعنوان تجارب السلف وأضاف إليه إضافات مهمة وأهداه للأتابك نصر بن أحمد اللري.

ابن بطوطة (٧٠٣هـ-٧٧٧هـ):

هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبدالله، من أهالي ميناء طنجة بالمغرب الأقصى. وكان رحالة عاش في أواخر عهد أبي سعيد خان وعصر تفتت الدولة الإيلخانية وتجول في ممالك المغول ووضع كتاب رحلات. ولم يكن ابن بطوطة عالماً ولم تكن له مكانة كبار الجغرافيين الذين عاشوا قبل عصر احتلال التتار من ناحية البحث والتحقيق؛ ومع ذلك فقد ضمّن كتاب رحلاته الكثير من النقاط التاريخية المهمة عن عصره.

مصادر أخرى:

أما المصادر غير الإسلامية فهي إما وثائق صينية ومغولية أو سياحات الرحالة الأوربيين الذين عاصروا خوانين المغول وإيلخاناتهم أو أبحاث المحققين المحدثين.

وأقدم الوثائق الصينية والمغولية ملحمة مغولية كتبت في سنة ٦٣٧هـ أي بعد وفاة جنكيزخان بثلاث عشرة سنة بعنوان يوان تشايوبي شي(التاريخ السري للمغول)؛ وهي أقدم الوثائق الخاصة بجنكيزخان وأجداده، إلا أنها ليست على شكل تاريخ، بل حكاية منظومة بصورة ملحمية، ولا يمكن الاعتماد تماماً على ما ورد فيها من أحداث. ولايزال الأصل المغولي لهذه الحكاية باقياً وكذلك ترجمتها الصينية. وقد أوشك المستشرق الفرنسي پيليو Pelliot على الانتهاء من نشر أصلها المغولي.

وقد سبق أن ذكرنا ضمن تناولنا للأحداث أسماء عدد من كتب رحلات ممثلي البابا أو ملوك أوربا أو تجارها وأمرائها، وأهم كتّابها:

- هيتوم الأرمني أمير كيليكيا و پلانو كارپينو Plano Carpino ممثل البابا، وقد شارك كلاهما في حفل تتويج جيوك (٦٤٤هـ) وقد ترك كل منهما سرداً لأحداث رحلاته.

– جيوم دي روبروكي Guillaume de Rubruquis ممثل لويس ملك فرنسا ومبعوثه إلى بلاط منجو قاآن (٦٥٠) قد ترك سرداً لأحداث رحلاته.

– ماركو پولو التاجر والرحالة الڤينيسي الذي أقام في الصين قرابة العشرين عاماً في عهد قوبيلاي قاآن وشغل مناصب إدارية مهمة وترك كتاب رحلات قيِّم يضم معلومات عن أوضاع الصين وممالك الشرق وعن مروره بإيران.

– أودوريك دي پوردينون Odoricus di Pordenone الذي جاء إلى إيران في عهد السلطان أبي سعيد خان.

وهناك عدد آخر من المؤرخين الأرمن والكرج دوَّنوا مؤلفات تساعد على فهم تاريخ المغول في ذلك العصر.

أما المحققون المحدثون فأول من دوّن تاريخاً عاماً مرتباً نسبياً عن قبائل الترك والتتار فهو دوجيني Deguignes الذي نشر كتاباً في خمسة مجلدات بعنوان التاريخ العام لقبائل الهون والترك والمغول في السنوات ١٧٥٦–١٧٥٨م في باريس؛ ولكن نظراً لاعتماده على الوثائق الصينية، فإن فائدته في التعرف على أوضاع آسيا الشرقية أكبر من فائدته بالنسبة لآسيا الغربية.

وأهم تاريخ للمغول في أوربا حتى الآن هو كتاب دوسون D'Ohsson الكبير الذي نشره مؤلفه أولاً في سنة ١٨٢٤م (١٢٤٠هـ)، ثم أعاد نشره في طبعة مفصلة في عامي ١٨٣٤ و١٨٣٥م في هولنده. ونظراً لاعتماد دوسون على المصادر الإسلامية أي الفارسية والعربية بخلاف دوجيني، فقد استوعب تاريخ المغول بصورة أدق. ومع أن المصادر التاريخية في عصره كانت لاتزال محدودة ولم يكن قد تم وضع أي منها موضع النقد بعد، فإن كتاب دوسون لا يخلو من النقص والأخطاء. ومع ذلك فإن كتابه لايزال يمثّل أشمل ما كتبه الأوربيون عن تاريخ المغول.

وبعد دوسون، كتب سير هنري هاورث Sir Henry Howorth كتاباً مفصلاً في ثلاثة مجلدات عن تاريخ المغول بالإنجليزية ونشره في لندن بين عامي ١٨٧٦م و١٨٨٨م. وكتاب هاورث لا يختلف عن كتاب دوسون إلا في بعض الإضافات من غيره. ولما كان هاورث لا يعرف الفارسية والعربية وبالتالي لم يرجع للمصادر الأصلية مباشرة، فالأخطاء في كتابه كثيرة؛ وهو يختلف عن دوسون في

أنه ينظر للمغول نظرة إعجاب، ولكنه كدوسون لا يذكر فظائعهم.

ومن المؤرخين من يغالون في تمجيد قبائل الترك والمغول وإبراز مفاخرهم ويستغل قوة البيان والبلاغة في قلب كل الحقائق التاريخية؛ وعلى رأس هؤلاء ليون كاوون Léon Cahun. ففي كتابه مقدمة في تاريخ آسيا: قبائل الترك والمغول من البداية حتى سنة ١٤٠٥م، يثني على الأتراك والمغول من كل ناحية. ومع أنه يستعين على ذلك برصانة الإنشاء، فالكتاب لا يقوم على أي أساس علمي أو تاريخي. وقد أدى ظهوره إلى إلهاب حماس الشباب التركي المتعصب وتأجيج نار العصبية بينهم.

ومن أحدث المؤلفات العلمية القيِّمة التي نشرها علماء الغرب عن المغول إلى جانب المقالات المتفرقة كتاب في جغرافية تركستان وتاريخها للمستشرق الروسي بارتولد Barthold؛ وقد صدر أصله الروسي في سنة ١٩٠٠م ونشرت ترجمته الإنجليزية في سنة ١٩٢٨م بعد مراجعة المؤلف لها. وفي هذا الكتاب، رجع بارتولد إلى كل المصادر المتعلقة بتاريخ المغول وتاريخ آسيا الوسطى وتركستان إبان اجتياح التتار، وخصَّصَ فصلاً كاملاً لخروج جنكيزخان وفتوحاته وقوانينه المعروفة بالياسا.

العلوم والآداب

كما رأينا خلال تاريخ الحقبة التي رزحت فيها الممالك الإسلامية الشرقية تحت الاحتلال المغولي واحتلال الأمراء الذين جاؤوا بعدهم، كان أهل هذه البلاد في النصف الأول من القرن السابع الهجري يفتقرون إلى أسباب تحصيل العلم والأدب وما يتطلبه من شعور بالأمن بسبب الثورات والمذابح وأعمال التخريب، وفي النصف الثاني من القرن نفسه نتيجة لخراب المكتبات والمدارس وقتل المعلمين. كما أن المغول لم يكن لديهم إدراك لهذا النوع من اللطائف ولا حاجة بهم لها؛ ولم يكن نمط حياتهم ومعتقداتهم وعاداتهم يتلاءم مع كل المعارف؛ فلم يكن لهم اهتمام إلا بالنجوم والكيمياء والفلك، ولم تكن لهم حاجة إلا للكاتب والمنشئ لتسوية الأعمال الإدارية والديوانية. والفرع الوحيد من المعارف الذي كان لهم دور في تطوره في إيران في عصر الإيلخانات هو علم

التاريخ كما سيرد فيما بعد.

على أية حال، كان للاحتلال المغولي تأثير مهم نسبياً على حضارة إيران ومعارفها في فترة حكمهم لها، ألا وهو ربط ممالك الشرق والغرب معاً عن طريق إيران وتوافد كثرة من العلماء الصينيين والأويغور والتبتيين والأوربيين والأرمن إلى عاصمة الإيلخانات وانتشار معارفهم بين الفرس.

وكانت كل من بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان تمثّلُ قبل الاحتلال المغولي مركزاً مهماً للتعليم والتعلم والمكتبات والمراصد والمدارس والعلماء والأدباء؛ وهو ما كان ينطبق كذلك على العراق والجزيرة وجنوب إيران. وجاء الاحتلال المغولي وسوّى كل هذه المراكز بالأرض ولم يبق من كل هؤلاء الكتّاب والعلماء والأدباء سوى قلة قليلة. وأدَّتْ حملة هولاكو إلى النتيجة نفسها بالنسبة لمركزين رئيسين للعلم والأدب وهما ألموت وبغداد، ولم يبق للعلم والأدب من ملاذ في العالم الإسلامي سِوى في جزء صغير من جنوب إيران والسند وبلاد الروم ومصر والشام.

وعلى الرغم من شدة الضربة وجسامة حجم الخراب، لم يكن ظهور التأثير المروِّع للاحتلال المغولي في العالم الإسلامي سريعاً في إطفاء مشاعل العلم والأدب، وذلك بسبب رسوخ الجذور المعنوية وتعلق الناس بالمعارف. ففي خضم الأحداث، كان لايزال هناك أعلام نشؤوا قبل الاحتلال المغولي وجعلهم سوء طالعهم يشهدون عصر اجتياح التتار. ومن هؤلاء من هلك في معمعان الحدث؛ بينما لاذ بعضهم بالفرار ولجؤوا إلى جنوب إيران أو الهند أو بلاد الروم أمام سيل التتار العرم، وعملوا في تلك البلاد بالتدريس والتعليم.

وأدى اعتناق إيلخانات إيران للإسلام بجهود الوزراء والعمال الفرس إلى تخفيف حدة التعصب المغولي والمسيحي وإلى زيادة الطمأنينة بين الناس في عهود غازان وأولجايتو وأبي سعيد بالمقارنة بالعهود التي سبقتهم؛ ومع ذلك فلا سبيل لمقارنة تلك العهود بالعصور الزاهرة للسلاجقة والخوارزمشاهيين والخلفاء العباسيين من ناحية انتشار العلم والأدب ووفرة الكتّاب وتعدد العلماء الأعلام. فلم يكن هناك في الحقبة المغولية سوى أسرات صغيرة من أمراء الأقاليم كآل كرت في هرات والأتابكة وآل مظفر في فارس وأمراء اللر في لرستان جمعت العلماء والأدباء الفارين حولها؛

كما بذل غلمان السلاطين الغوريين في السند والهند الغربية وسلاطين سلاجقة الروم أو أمرائهم جهودهم لإيواء أهل العلم والأدب في حماهم تقليداً لملوك إيران الكبار قبل اجتياح التتار كالسلاجقة والغوريين والخوارزمشاهيين. فظهر منذ ذلك الوقت مركزان رئيسان للأدب الفارسي خارج إيران، أحدهما في الهند الغربية وهو ما كان له سابقة في أواخر عصر الغزنويين والغوريين، والآخر في بلاد الروم.

ونقدم فيما يلي بعضاً من أعلام الفرس ممن عاشوا قبل الغزو التيموري في إيران أو خارجها ونظموا الشعر بالفارسية أو بالعربية أو دوّنوا الكتب، ونوردهم هنا حسب الترتيب الزمني، ونُقدّم لكل منهم ترجمة مختصرة. كما نورد تراجم لعدد من الأعلام من غير الفرس ممن كان لفكرهم أثر في إيران.

١- العلماء والعرفاء والحكماء

نجيب الدين السمرقندي (قتل ٦١٩): هو نجيب الدين أبو حامد محمد بن علي السمرقندي، وهو من أبرز علماء عصر الخوارزمشاهية وأواخر سلاطين الغوريين. وكان يقيم في هرات ولقي مصرعه على يد جند تولي. وقد ألّفَ عدة أعمال في الطب والعلاج أشهرها الأسباب والعلامات الذي استقى مادته من كتاب الأدوية لأبقراط والقانون لابن سينا وغيرها من كتب الطب المعروفة. وقد زادت شهرة هذا الكتاب من خلال الشرح الذي دوّنه عليه برهان الدين نفيس بن عوض الكرماني وهو من أطباء عهد ألغ بيك بعنوان شرح أسباب نفيسي.

الإمام الرافعي (توفي ٦٢٣هـ): وهو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني، من علماء الحديث والتفسير، وله مؤلفات عديدة في كل من هذين العلمين. وأشهر أعماله كتاب تدوين في تاريخ قزوين. وتوفي في ذي القعدة من سنة ٦٢٣هـ بقزوين.

السكاكي (٥٥٥هـ-٦٢٦هـ): هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، من أعلام العلم والأدب والمعاني والبيان والبلاغة. ولد بخوارزم في سنة ٥٥٥هـ وعاش في بلاط السلطان محمد خوارزمشاه؛ وبعد سقوط الدولة الخوارزمشاهية واجتياح المغول، عاش مكرماً لدى جغتاي،

وظل حتى آخر حياته في ما وراء النهر وخوارزم. وعلى الرغم من مكانته في عالم الأدب، كان يؤمن بالطلاسم والسحر، وتُروى عنه حكايات غريبة في هذا الصدد. وله مؤلف شهير بعنوان مفتاح العلوم في علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والمنطق والشعر. وقد دوَّن العلماء الذين جاءوا بعده شروحاً وملخصات له.

شهاب الدين السهروردي (٥٣٩هـ-٦٣٢هـ): هو الشيخ أبو حفص عمر بن محمد، من أهالي سهرورد (شهرود) بزنجان. وكان من كبار عرفاء أواخر القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجريين. وكان زاهداً تقياً، وكان الناس في بغداد يهتدون بمواعظه الصوفية. وكان الخليفة الناصر لدين الله يوليه احتراماً فائقاً وكان يوفده برسائل إلى ملوك الدول الأخرى، وكان هؤلاء الملوك يكرمون وفادته. وكان الشيخ السهروردي يدير عدداً من الرباطات أو الخانقاوات الخاصة بالصوفية؛ وأنشأ الناصر رباطاً خاصاً له يضم حمّاماً وبستاناً لسكنى الشيخ وأهله. وعلى الرغم مما اكتسبه الشيخ من متاع الدنيا، لم يكن يملك شيئاً حين وفاته إذ كان قد أنفق كل ما كسب. ومن مؤلفاته عوارف المعارف في التصوف والسلوك. ولا ينبغي الخلط بين شيخنا هذا والشيخ شهاب الدين بن يحيى بن حبش السهروردي المعروف بالشيخ إشراق (٥٤٩هـ-٥٨٧هـ) والذي قتل بحلب بأمر من السلطان صلاح الدين الأيوبي بتهمة الحكمة.

نجم الدين الرازي (توفي ٦٤٥هـ): هو الشيخ نجم الدين أبو بكر عبد الله بن محمد الرازي المعروف بالشيخ نجم الدين دايه، وهو من كبار العرفاء ومن تلاميذ الشيخ نجم الدين الكبري الذي قتل في موقعة خوارزم. وبعد مقتل شيخه وأهله في خوارزم وخراسان، فرَّ نجم الدين الرازي إلى العراق ثم إلى همدان.[٧] ولكنه حين علم بوصول التتار في سنة ٦١٨هـ، رحل عن همدان مع عدد من تلاميذه وأسرع إلى أردبيل حيث قرر أن:[٨]

« يقيم في ديار يسكنها أهل السنّة والجماعة وتخلو من البدع والتعصب والهوى ويسودها الأمن والعدل ويحكمها ملك ورع وعالم وعادل يعرف لأهل الدين أقدارهم. وبعد النظر فيما قاله أرباب النظر وأصحاب التجارب الواقفون على أوضاع البلاد والأقاليم، وجد أن دياراً بهذه الصفات تدين بمذهب أهل السنّة والجماعة ويسودها الأمن والعدل ويحكمها والحمد لله ملك من بقايا آل

سلجوق وأسرته المباركة التي وجد أهل الإسلام في ظلها الظليل كل راحة وأمن وطمأنينة . . . »

وفي سنة ٦١٨هـ، غادر الشيخ نجم الدين أردبيل واتجه إلى بلاد الروم وعاش في حمى السلطان علاء الدولة كيقباد السلجوقي (٦١٠هـ-٦٣٦هـ) بقيسارية الروم. وفي سنة ٦٢٠هـ، دوّن كتابه مرصاد العباد بالفارسية في السير والسلوك والمبدأ والمعاد وأهداه للسلطان كيقباد. وأمضى الشيخ بقية عمره في بلاد الروم بين كبار العرفاء الذين عاشوا في كنف سلاطين سلاجقة الروم كصدر الدين القونيوي ومولانا جلال الدين البلخي، وتوفي في سنة ٦٤٥هـ.

عز الدين الزنجاني (توفي بعد ٦٥٥هـ): هو عز الدين أبو المعالى عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني، من مشاهير الأدباء وعلماء النحو والصرف، قضى أواخر عمره في بغداد وعاش حتى اجتياح هولاكو لتلك المدينة، وربما لقي مصرعه في خضم حملة التتار. ولعز الدين الزنجاني كتاب في علم الصرف بعنوان العزي في التصريف وضعه في بغداد في ذي الحجة ٦٥٤هـ. وقد اشتهر هذا الكتاب من خلال الشرح الذي قدمه عليه الملا سعد الدين التفتازاني.

أثير الدين الأبهري (توفي ٦٠٠هـ): هو أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري من الحكماء وعلماء المنطق ومن أبرز تلاميذ الإمام العلامة فخر الدين الرازي. وقد عاش فترة في بلاد الروم بعد ظهور فتنة التتار، وعمل فيها بالتدريس والتأليف، وله مؤلفات قيّمة في المنطق والزيج والحكمة، من بينها كتابان طبقت شهرتهما الآفاق في أرجاء العالم الإسلامي وأصبحا من أقيم الكتب الدراسية وقدم لهما العديد من العلماء شروحاً؛ وأحدهما بعنوان إيساغوجي في كليات المنطق الخمس، والآخر هداية الحكمة في المنطق والطبيعيات والإلهيات.

السيد بن طاوس (٥٨٩هـ- ٦٦٤هـ): هو السيد رضي الدين علي بن طاوس العلوي الحلي وهو شقيق جمال الدين أحمد (المتوفي ٦٧٣هـ)، وكان كلاهما من أبرز أشراف الحلة ومن زعماء الشيعة الإمامية ومن مؤلفيها. وتشتهر مؤلفات السيد رضي الدين المعروف بالسيد بن طاوس بين شيعة الفرس. وله مؤلفات عديدة في آداب المذهب الشيعي وأحكامه، وتضم أعماله موضوعات علمية وتاريخية مفيدة، فقد اطلع على أهم المكتبات. ونقل في بعض مؤلفاته عن الأعمال التي اطلع عليها. وكان من أصدقاء مؤيد الدين بن العلقمي الوزير وأخيه وابنه. وعندما اجتاح هولاكو

بغداد، عيَّنَهُ العلقمي نقيباً للعلويين في سنة ٦٦١هـ. وقد عمل على نشر العدل والإحسان في بغداد إلى أن وافته المنية فيها في ذي القعدة من سنة ٦٦٤هـ.

خواجه نصير الدين الطوسي (٥٩٧هـ-٦٧٢هـ): أكبر العلماء الذين ظهروا في إيران بعد علماء الحقبة المشرقة من الحضارة الإسلامية من أمثال الفارابي والبيروني وابن سينا وعمر الخيام، وحامل مشعل العلم والأدب في عصر الاحتلال التتري المظلم. وهو أبو جعفر نصير الدين محمد بن محمد بن حسن الملقب بأستاذ البشر. وهو في الأصل من أهالي جهرود بقم، وولد فيها في سنة ٥٩٧هـ، ثم طاف بالعديد من البلاد لتحصيل العلم. وقد أقام بطوس لفترة واشتهر بالطوسي لهذا السبب.

وفي فترة إقامته في طوس وبسبب شهرته العلمية، اجتذبه إسماعيلية قهستان الذين بذلوا جهودهم في طلب العلم وجمع الكتب واستقطاب العلماء، فعمل في خدمة علاء الدين محمد بن حسن الإسماعيلي وناصر الدين عبد الرحيم بن أبي منصور محتشم قهستان الذي عمل على ترجمة كتب الحكمة والأخلاق من العربية إلى الفارسية. وقد لقي كل إعزاز لدى الأخير ووضع كتاباً في تأييد مذهب الإسماعيلية. كما ترجم كتاب تطهير الأعراق أو الطهارة تاليف أبي علي مسكويه من العربية إلى الفارسية بتشجيع من ناصر الدين. وألَّفَ كتابه الشهير أخلاق ناصري باسم ناصر الدين. وظل بقلاع الملاحدة حتى سنة ٦٥٤هـ. وبعد استسلام ناصر الدين المحتشم، تعرَّفَ نصير الدين على هولاكو فأكرمه نظراً لاحتفاء المغول الشديد بعلم الفلك وأحكام النجوم واشتهار نصير الدين في هذا المجال. وظل نصير الدين يعيش في كنف المغول حتى توفي.

وبلغت شهرة نصير الدين في النجوم والزيج والرصد حتى أقاصي منغوليا حتى إن منجو قاآن طلب من أخيه إرساله إليه في منغوليا لكي ينشئ مرصداً فيها؛ إلا أن هولاكو كلَّف نصير الدين بتنفيذ هذه المهمة في إيران لبعض الأسباب، وانشغل نصير الدين في سنة ٦٥٧هـ بإنشاء مرصد في مراغة، ووضعت كل أوقاف الممالك الإيلخانية تحت تصرفه بأمر من هولاكو. وقد ذهب نصير الدين إلى بغداد مرتين، مرة في سنة ٦٦٢هـ والأخرى قبيل وفاته بغرض الإشراف على شؤون الأوقاف. وبعد تجنيب النفقات والرواتب، خصَّصَ ما تبقى من عوائدها لإنشاء المرصد. وفي خلال



هذه الأسفار، قام بجمع ما وجده من كتب وآلات لازمة للرصد من كل مكان. وقد بذل هولاكو وأباقا من بعده كل جهدهما لتحقيق هذا الهدف إلى أن تمَّ عمل زيج مراغة. ودوَّن نصير الدين خلاصة أعماله ومعارفه في كتاب زيج إيلخاني.

إلى جانب مناصبه العلمية، أسدى نصير الدين خدمتين جليلتين للحضارة الفارسية، إحداهما إنقاذه لكل ما أمكن إنقاذه من الكتب الثمينة من التلف وتكوين مكتبة ضمت أربعمئة ألف مجلد؛ والأخرى إنقاذه للعديد من أهل العلم والأدب بفضل مكانته لدى هولاكو.

أما في تحصيل العلم ونشره، فلم يتوان نصير الدين لحظة عن المطالعة والتدريس على الرغم من كل تلك الأحداث الرهيبة التي شهدها عصره، والتف حوله كثير من التلاميذ الذين تعلموا منه. وكان مغرماً بالبحث والتحقيق لدرجة أنه كلما كان يكتشف إحدى دقائق العلم كان ينهض على قدميه ويدق بهما على الأرض فرحاً ويقول: «لو علم الملوك بعالمنا الممتع لما أضاعوا هذه النعمة من أيديهم». ولم يكن يكف عن الكتابة والتأليف في خضم الأحداث الجسام، فكتب كتابه القيِّمَ شرح الإشارات في واحدة من أحلك فترات حياته، وأورد في نهايته البيت التالي على سبيل التمثيل:

كلما نظرت حولي رأيت البلاء خاتماً وأنا فصه

وعلى الرغم من نبوغ نصير الدين في معظم العلوم القديمة وله مؤلف بالفارسية والعربية في أغلبها، فقد اشتهر بالحكمة والرياضيات. ففي الرياضيات حقَّق نجاحاً في حل العديد من المشكلات الدقيقة. وأهم مؤلفاته هي: تجريد الكلام أو تجريد الاعتقاد في إثبات عقائد الشيعة الإمامية بالأدلة العقلية والكلامية؛ تحرير أوقليدس وهو شرح لكتاب العالم الإغريقي إقليدس في الهندسة؛ تحرير مجسطي وهو شرح لكتاب المجسطي لبطليموس في الهيئة؛ تحرير الإشارات وهو شرح لكتاب التنبيهات والإشارات لابن سينا في الحكمة؛ أخلاق ناصري بالفارسية في الحكمة العملية والأخلاق؛ أساس الاقتباس بالفارسية في المنطق؛ تذكره نصيريه في الهيئة؛ أوصاف الأشراف بالفارسية في التصوف؛ معيار الأشعار بالفارسية في العروض والقافية.

كاتبي القزويني (ت ٦٧٥هـ): هو نجم الدين علي بن عمر بن علي القزويني المعروف بكاتبي

أو دبيران؛ وهو من علماء الرياضيات والرصد والحكمة، وكان ممن عملوا مع نصير الدين الطوسي في زيج مراغة وكان من علماء الشافعية. وله في المنطق والحكمة كتابان معروفان وضع من لحقوا به شروحاً عليهما، وأحدهما حكمة العين في الحكمة الإلهية والطبيعية، والآخر الرسالة الشمسية في قواعد المنطق وأهداه لخواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان الجويني؛ وهو متن كتابه نفسه الذي أصبح شرحه من الكتب الدراسية المتداولة.

ميثم بن علي البحراني (ت ٦٧٩هـ): هو كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني من بلغاء متكلمي الشيعة الإمامية. وهو أستاذ العلامة الحلي الشهير. وكان في البداية يعيش منزوياً معتكفاً، ثم ذهب إلى الحلة والعراق بدعوة من علمائهما حيث وضع كتابه شرح نهج البلاغة وأهداه لعطا ملك الجويني حاكم بغداد والعراق. وإلى جانب هذا العمل الكبير له مؤلفات أخرى في الإمامة وغيرها من المسائل الأصولية والفلسفية.

زكريا القزويني (٦٠٠هـ-٦٨٢هـ): هو عماد الدين زكريا بن محمود القزويني، ولد قرابة سنة ٦٠٠هـ في قزوين، وهاجر في صدر شبابه إلى دمشق حيث بدأ في تحصيل العلم والأدب. فتتلمذ على أثير الدين الأبهري. ثم ذهب إلى العراق وعُيِّنَ في سنة ٦٥٠هـ قاضياً لمدينة الحلة. وبعد عامين أي في سنة ٦٥٢هـ تولّى قضاء مدينة واسط وعمل أيضاً بالتدريس. وتوفي في واسط وتمّ نقل جثمانه إلى بغداد حيث دفن.

وكان زكريا القزويني يحسن الخط ويلم بالشعر الفارسي والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية وبقي له مؤلفان معروفان بالعربية أحدهما عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وعنوانه ينم عن مضمونه، والآخر آثار البلاد وأخبار العباد وهو شرح جغرافي وتاريخي لمشاهدات المؤلف أو مطالعاته؛ وإلى جانب الأهمية التاريخية والجغرافية لهذا الكتاب فهو يشتمل على معلومات قيمة كثيرة تتعلق بتسعة عشر من كبار شعراء الفارسية وهم أنوري وعسجدي وأوحد الدين الكرماني وفخري الجرجاني وفرخي وفردوسي وجلال الطبيب وجلال خواري وخاقاني وأبو طاهر الخاتوني ومجير البيلقاني ونظامي وناصر خسرو وأبو سعيد أبو الخير وسنائي وشمس الطبسي وعمر الخيام وعنصري ورشيد الدين وطواط؛ وهو في هذا المجال من أهم الأعمال التي تعرّف بالشعراء المذكورين.

جمال القَرشي (أواخر القرن السابع الهجري): هو أبو الفضل محمد بن عمر المعروف بجمال القَرشي، وهو من علماء اللغة، وكان يقيم في كاشغر وقام بترجمة صحاح الجوهري للفارابي إلى الفارسية وأسماه الصُّراح من الصحاح وأتمه في كاشغر ثم أضاف إليه ملحقاً بالعربية بعنوان ملحقات صراح؛ وقد أشار فيه إلى بعض ملوك آسيا الوسطى وشيوخ مدينة بلاساغون وأعلامها وضمَّنَهُ الكثير من الموضوعات التاريخية. لذا فإن ملحقات صراح يساعد على فهم تاريخ المغول في كاشغر وآسيا الوسطى.

القاضي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ): هو قاضي القضاة أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، من أبرز علماء الفقه والمنطق والعربية والتاريخ، تولَّى لفترة منصب قاضي قضاة شيراز في عهد الأتابكة السلغوريين كما سبق أن أشرنا. وبعد عزله من هذا المنصب ذهب إلى تبريز وظل فيها إلى أن عاد إلى منصبه. وفي هذه السفرة لفت أرغون خان وعلماء تبريز، وعمل بالتدريس وتوفي فيها في سنة ٦٨٥هـ.

ومن مؤلفات البيضاوي كتابان حققا شهرة واسعة، أحدهما في التفسير بالعربية بعنوان أنوار التنزيل وأسرار التأويل والمعروف بـ تفسير البيضاوي، والآخر بعنوان نظام التواريخ بالفارسية، وهو كتاب مختصر نسبياً في التاريخ العام.

رضي الدين الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ): هو رضي الدين محمد بن حسن الأستراباذي، من علماء النحو ومن أبرز علماء الشيعة، وكان يقضي معظم أوقاته في النجف الأشرف. وهو مؤلف شرحين على كتابين من كتب جمال الدين أبي عمرو عثمان بن عمر (٥٧٠هـ-٦٤٦هـ) المعروف بابن الحاجب، أحدهما الكافية في النحو وقد اشتهر شرحه الذي قدمه رضي الدين الأستراباذي باسم شرح رضي، وهو من أشمل كتب النحو؛ وقد أتمه رضي الدين في النجف في سنة ٦٨٣هـ، وهو من الكتب الدراسية المهمة؛ والآخر بعنوان الشافية في الصرف، ويُعَدُّ شرح رضي الدين عليه من أهم الكتب في علم الصرف.

بهاء الدين الأربلي (ت ٦٩٣هـ): هو بهاء الدين علي بن عيسى الأربلي، من أبرز شعراء شيعة العراق ومحدثيها وكتّابها. وقد عمل بالأعمال الديوانية في بغداد قبل اجتياح التتار وبعده،

خاصة بعد تولي عطا ملك الجويني حكم العراق. وعين بهاء الدين في سنة ٦٥٧هـ كاتباً في الديوان وظل بهذا المنصب حتى توفي. وهو يعد من مداحي أسرة الجويني وخواجه نصير الدين ومن الشعراء الذين نظموا مراثي في نصير الدين بعد وفاته. ولعلي بن عيسى كتاب بالعربية في سير الأئمة الاثني عشرية بعنوان كشف الغمة، وهو كتاب حقق شهرة واسعة لدى شيعة إيران.

صفي الدين الأرموي (ت ٦٩٣هـ): هو صفي الدين عبد المؤمن فاخر، من أهالي مدينة أرومية. وهو شاعر وخطاط وأديب وموسيقي ذهب في صباه إلى بغداد وتعلم بالمدرسة المستنصرية ومهر تدريجياً في الأدب والتاريخ والخط والعزف على العود، ونال عطف الخليفة المستعصم الذي كان يعشق الموسيقى والخط وأصبح كاتباً بمكتبته ومغنياً ونديماً له. وبعد اجتياح هولاكو لبغداد وتولى عطا ملك الجويني لحكم العراق، التحق صفي الدين بخدمة أسرة الجويني ووجد كل إعزاز لدى علاء الدين عطا ملك وأخيه صاحب الديوان، وعين كاتباً في ديوان بغداد. ولكن بمجرد سقوط عطا ملك وأخيه، تدهورت أحوال صفي الدين وأصابه الفقر حتى إنه سجن لعدم قدرته على سداد دين قدره ثلاثمئة دينار. وتوفي في السجن وهو في الثمانين من عمره في ١٨ صفر ٦٩٣هـ. ولصفي الدين مؤلَّفٌ في فن الموسيقى بعنوان رساله شرفيه وقد أهداه لخواجه شرف الدين هارون ابن خواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان.

بابا أفضل الكاشاني (ت ٧٠٧هـ): هو أفضل الدين محمد بن حسن الكاشاني، من مشاهير العرفاء والحكماء والشعراء، عاش معظم حياته في كاشان وتوفي بها في سنة ٧٠٧هـ ودفن بقرية مرَق من أعمالها. وكان بابا أفضل موضع احترام شديد من جانب خواجه نصير الدين الطوسي وذكر اسمه في بعض مؤلفاته ونقل بعض أقواله. ويقال إن بابا ابن شقيقة نصير الدين وإن نصير الدين منع جيش هولاكو من تدمير كاشان إكراماً له. ونظم بابا أفضل رباعيات بالفارسية وله عدة مؤلفات أهمها جاودان نامه و ره انجام نامه و إنشاء نامه و مدارج الكمال وغير ذلك.

العلامة قطب الدين الشيرازي (٦٣٤هـ-٧١٠هـ): هو العلامة قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الكازروني الشيرازي، ولد في سنة ٦٣٤هـ، وكان والده طبيباً. وقد تلقى قطب الدين مقدمات الطب عن أبيه وعمه. وبعد أن مهر في الطب والحكمة والهيئة، التحق بخدمة نجم

الدين الكاتبي القزويني وخواجه نصير الدين لإكمال تعليمه، وأصبح من خواص نصير الدين، وشارك في مرصد مراغة. ونظراً لذكائه الفائق، فقد أدى خدمات جليلة لنصير الدين في هذا المجال. ثم رحل إلى بلاد الروم وتولّى قضاء سيواس وملطية لفترة، ثم سافر إلى الشام. وفي هذه الرحلة، التقى بصدر الدين القونيوي ومولانا جلال الدين البلخي وانخرط في سلك الصوفية. ثم عاد إلى تبريز وعاش في بلاط الإيلخانات، وتوفي فيها في سنة ٧١٠هـ ودفن بجوار قبر القاضي البيضاوي.

وكان قطب الدين من أبرز علماء عصره. وإلى جانب نبوغه في الحكمة والهيئة والطب، كان زاهداً حسن الطبع مرحاً، وكان يجيد لعب الشطرنج ويعزف على الرباب. ويقال إنه خال الشاعر سعدي الشيرازي. وكان ينظم الشعر بالفارسية.[٩] وله مؤلفات بالفارسية والعربية من بينها شرح قانون في الطب وهو شرح على كتاب القانون لابن سينا؛ و شرح حكمة الإشراق تاليف الشيخ شهاب الدين السهروردي المقتول؛ و شرح مفتاح العلوم تأليف السكاكي؛ ودرة التاج لغرة الدبّاج وهو بالفارسية في العلوم الفلسفية المختلفة باسم أميرة الدبّاج وهي إحدى أمراء إسحاقوَند جيلان وسبق الحديث عنها؛ و تحفه شاهي و نهاية الإدراك وكلاهما بالفارسية في علم الهيئة.

العلامة الحلي (٦٤٨هـ-٧٢٦هـ): هو جمال الدين أبو منصور حسن بن يوسف المطهر الحلي وكان يلقب بين الشيعة بالعلامة. وهو من أبرز علماء الإمامية ومن المتكلمين وكبار كتّاب هذه الفرقة. وقد ولد في سنة ٦٤٨هـ في الحلة السيفية وهو أحد المنازل بين النجف وكربلاء على الضفة الشرقية للفرات. وقد اشتهر منذ طفولته بالفراسة والعقل، وتعلم علوم الدين والحكمة على أبيه الشيخ سديد الدين يوسف والسيد جمال الدين أحمد بن طاوس والسيد رضي الدين علي بن طاوس والشيخ ميثم البحراني شارح نهج البلاغة وخواجه نصير الدين الطوسي ونجم الدين الكاتبي القزويني. وقد سبقت الإشارة إلى أنه جاء مع ابنه فخر المحققين إلى سلطانية في عهد أولجايتو وسعى لنشر التشيع. والحقيقة أن تجديد بناء المذهب الشيعي ودعم أصوله وأحكامه قبل العصر الصفوي كان نتيجة لجهودات العلامة وتلامذته. وكان لمؤلفات العلامة ومناظراته دور كبير في هذا الصدد.

ومؤلفات العلامة الحلي تربو على التسعين مجلداً كبيراً وصغيراً في الفقه والأصول والكلام والرجال والمنطق، وأشهرها: منهاج الكرامة في باب الإمامة، نهج الحق وكشف الصدق؛ وهما في إثبات عقائد الشيعة ودوّنهُما لأولجايتو؛ كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد في شرح كتاب التجريد لأستاذه خواجه نصير الدين الطوسي، تذكرة الفقهاء في فقه الشيعة، قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام وهو من كتب الفقه الدراسية، جوهر النضيد في المنطق، خلاصة الأقوال في علم الرجال، أنوار الملكوت في علم الكلام، تبصرة المتعلمين في أحكام الدين.

الشيخ صفي الدين الأردبيلي :(٦٥٠هـ-٧٣٥هـ): هو الشيخ صفي الدين أبو الفتح إسحاق ابن الشيخ أمين الدين جبرائيل، من أبرز عرفاء عصر أولجايتو وأبي سعيد؛ وعاش في تلك الفترة مع مريديه في قرية كلخوران على مسافة فرسخ من أردبيل حول قبر والده. ويُرجع البعض نسبه إلى الإمام موسى الكاظم. وكان من مريدي الشيخ زاهد الجيلاني. وكان له مريدون في جيلان وآذربيجان وأران وموغان. وكان رشيد الدين فضل الله يوليه عناية فائقة وكان يرسل راتباً من نقود وسلع سنوياً لخانقاه أردبيل وكتب إلى ابنه الأمير أحمد حاكم أردبيل رسالة يوصيه فيها بحسن معاملة الشيخ صفي الدين حتى يرضى عنه الشيخ.

وقبل بلوغ هذه المكانة، اتجه الشيخ صفي الدين في شبابه إلى شيراز لملاقاة أحد أبرز عرفائها؛ إلا أن العارف توفي قبل وصول الشيخ صفي الدين. فذهب صفي إلى شيوخ آخرين بشيراز؛ ويقال إنه التقى بسعدي الشيرازي، ثم مضى إلى الشيخ تاج الدين إبراهيم الملقب بالشيخ الزاهد في جيلان وتزوج ابنته. وكان الشيخ صدر الدين ابن الشيخ صفي الدين وخليفته من هذه الزوجة. وظل الشيخ صفي الدين موضع اهتمام الناس منذ انضمامه إلى حلقة مريدي الشيخ الزاهد الجيلاني إلى أن توفي في ١٢ محرم ٧٣٥هـ في سن الخامسة والثمانين. وبعد وفاة الشيخ الزاهد، تولّى رئاسة طريقته ومريديه. وبما أن الشيخ صفي الدين هو جد الملوك الصفويين، فإننا سنتناول حياته بصورة مفصلة في بدء حديثنا عن تاريخهم.

كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني (ت ٧٣١هـ): هو الشيخ كمال الدين أبو الغنايم عبدالرزاق بن أبي الفضائل جمال الدين الكاشاني، من كبار عرفاء عهد السلطان أبي سعيد بهادر

خان ومن معاصري علاء الدولة السمناني. وكانت لهذين العارفين الكبيرين مناقشات ومراسلات عرفانية فيما بينهما. ولكمال الدين عبدالرزاق الكاشاني ثلاثة كتب عرفانية قيمة بالعربية، أولها شرح فصوص الحكم وأصله من تاليف العارف الشهير محيي الدين أبي بكر محمد بن علي الأندلسي المعروف بابن عربي (٥٦٠هـ-٦٧٨هـ)؛ والثاني شرح منازل السائرين وهو شرح على كتاب منازل السائرين لأبي إسماعيل شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي (٣٩٦هـ-٤٨١هـ) أي خواجه عبد الله الأنصاري المعروف؛ والثالث هو اصطلاحات الصوفية وهو كتاب قيِّم في شرح المصطلحات المتداولة بين العرفاء والمتصوفة.

علاء الدولة السمناني (٦٥٩هـ-٧٣٦هـ): هو ركن الدين علاء الدولة أحمد بن محمد البيابانكي، من أبرز عرفاء عهد أبي سعيد بهادر خان. وكان في صدر شبابه يعمل بالوظائف الديوانية، ثم سافر إلى الحج. وفي سنة ٦٨٧هـ، اختار التصوف طريقاً واعتكف منذ ٧٢٠هـ فصاعداً في إحدى الخانقاوات وعمل بإرشاد الناس. وقد سبق أن تحدثنا عن تفاصيل لجوء الأمير چوپان إليه ووساطة الشيخ له عند أبي سعيد. ولعلاء الدولة السمناني رباعيات فارسية جميلة.

الخطيب القزويني (٦٦٦هـ-٧٣٩هـ): هو جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني المعروف بخطيب دمشق؛ وهو من أشهر علماء علم المعاني والبيان. ولد في سنة ٦٦٦هـ، وذهب في شبابه إلى دمشق وعُيِّنَ خطيباً لها؛ ثم تولّى قضاء دمشق ووصل إلى قضاء ديار مصر. وتوفي في دمشق في سنة ٧٣٩هـ في منصبه كقاض. وكان الخطيب القزويني رجلاً حاد الذكاء فصيحاً وحسن الخط وكريماً ومنصفاً وحامياً للفقراء والضعفاء، وكان ينفق معظم ما يكسبه من مال في هذا السبيل. وقد قام الخطيب القزويني باختصار كتاب مفتاح العلوم للسكاكي وأسماه تلخيص المفتاح، وهو التلخيص نفسه الذي اتخذ منه سعد الدين التفتازاني أساساً لكتابه المطول.

القاضي عضد الدين الإيجي (٧٠١هـ-٧٥٦هـ): هو القاضي عبد الرحمن بن أحمد، من أهل إيج العاصمة القديمة لولاية شبانكاره. وكان من أبرز رجال عصر شاه شيخ أبي إسحاق إينجو والأمير مبارز الدين محمد وشاه شجاع ومن معاصري حافظ الشيرازي. وكان من تلامذة قاضي القضاة ناصر الدين البيضاوي. ولقي كل احترام في بلاط أبي سعيد وخواجه غياث الدين

محمد الرشيدي وشاه شيخ أبي إسحاق وملوك إقليم فارس وشبانكاره؛ تولّى في عهد أبي سعيد منصب قاضي قضاة إيران. وكان يقيم في مدينة سلطانية ونال من هؤلاء الملوك والأمراء عطايا كثيرة وسبقت الإشارة إلى ذلك.(١٠)

وقد أولى شيخ أبو إسحاق إينجو عناية فائقة للقاضي عضد الدين وكان يستشيره في الشؤون الملكية؛ ففي سنة ٧٥٤هـ، حين شن الأمير مبارز الدين المظفري حملة على شيراز لصد شيخ أبي إسحاق، استشار الأمير القاضي عضد الدين ولجأ إلى التصالح مع الأمير مبارز الدين بمشورة منه، وأوفد القاضي إليه للتفاوض حول الصلح. والتقى القاضي بالأمير مبارز الدين في سيرجان؛ فأكرم الأمير مبارز الدين وفادته وخصّصَ خمسة آلاف دينار لنفقات إقامته وعشرة آلاف أخر للقاضي للإنفاق على مرافقيه وأمر ابنه شاه شجاع بمناقشة القاضي الإيجي في كتابه شرح مختصر ابن الحاجب. ثم أعاده بكل احترام إلى شيراز. وأخرج الأمير مبارز الدين القاضي من شيراز إبان حصاره لها وذهب القاضي إلى شبانكاره؛ إلا أن أمير شبانكاره لم يتفق مع القاضي وحبسه في إحدى القلاع وظل القاضي في سجنه إلى أن توفي في سنة ٧٥٦هـ.

وللقاضي الإيجي مؤلفات قيّمة في الحكمة والمعاني والبيان والأصول وأشهر هذه المؤلفات كتابه مواقف في علم الكلام وأهداه لخواجه غياث الدين محمد. وهذا الكتاب وشرحه على يد مير سيد شريف الجرجاني من أشهر كتب الكلام؛ و فوائد غياثيه و شرح مختصر ابن الحاجب، وكلاهما باسم غياث الدين محمد. والمقصود بمختصر ابن الحاجب الكتاب الذي اختصره أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب (٥٧٠هـ- ٦٤٦هـ) في الأصول عن كتابه الآخر بعنوان منتهى الوصول. وقد قام بشرح هذا المختصر عدد من العلماء منهم القاضي عضد الدين.

قطب الدين الرازي (ت ٧٦٦هـ): هو العلامة قطب الدين محمد بن محمد البويهي الرازي، وهو أصلاً من أهالي ورامين بالري، ويقال إن نسبه يرجع إلى سلاطين آل بويه، وفي قول آخر إلى الشيخ أبي جعفر الصدوق محمد بن بابويه؛ وقد اشتهر بالبويهي بسبب هاتين الصلتين. وكان من تلاميذ القاضي عضد الدين الإيجي والعلامة الحلي. وبعد إتمام تعليمه، التحق بخدمة السلطان أبي سعيد وخواجه غياث الدين. وبعد فترة من وفاة هذا الملك وهذا الوزير ذهب إلى الشام واستقر في

دمشق حيث اشتغل بالتدريس والتناظر مع علماء تلك الديار، وتوفي في ذي القعدة من سنة ٧٦٦هـ.

وللعلامة قطب الدين الرازي مؤلفات معروفة في المنطق والحكمة والأصول منها تحرير القواعد المنطقية أو شرح الرسالة الشمسية الذي اشتهر باسم شرح شمسيه وأهداه لخواجه غياث الدين محمد الرشيدي؛ وهو شرح رساله شمسيه لنجم الدين الكاتبي القزويني في المنطق ومن أشهر الكتب في هذا المجال؛ و لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار وهو أيضاً شرح لكتاب مطالع الأنوار تأليف سراج الدين أبي الثنايا محمود بن أبي بكر الأرموي (٥٩٤هـ-٦٨٢هـ) وهو من علماء الفقه والمنطق وكان يقيم بالموصل وبلاد الروم؛ وقد أهداه لخواجه غياث الدين. وأشهر مؤلفات قطب الدين الرازي بعنوان المحاكمات بين شارحَي الإشارات قام فيه بالتحكيم بين الإمام العلامة فخر الدين الرازي وخواجه نصير الدين الطوسي اللذين وضع كل منهما شرحاً على كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا؛ وبسبب هذا الكتاب عُرف قطب الدين الرازي باسم «صاحب المحاكمات».

٧- الكتّاب والمؤرخون

ظهر أول نماذج نثر اللغة الفارسية مدوَّناً بالخط العربي في عهد السامانيين، ثم تطور تدريجياً في عهود الغزنويين والسلاجقة والخوارزمشاهية وتخلّى شيئاً فشيئاً عن أسلوبه المبسط الأول وبدأ في محاكاة الكتابات العربية المتكلفة نتيجة لتكلف كتاب العهدين السلجوقي والخوارزمشاهي، واستمر على ذلك في العصر المغولي. فقد تطور أيضاً في ذلك العصر نتيجة لبعض متطلبات العصر في مقابل الشعر الفارسي والنثر العربي.

والأسباب الرئيسة لتطور النثر الفارسي وضعف انتشار الأدب العربي في الممالك شرقي دار الخلافة بغداد بالمقارنة بعصر البويهيين والغزنويين والسلاجقة في عصر الإيلخانات هي كالآتي:

١- بسط نفوذ الملوك المتحدثين بالفارسية على آسيا الوسطى وغرب الهند وهو ما نجم عن توسع آل أفراسياب والخوارزمشاهية على حدود كاشغر وفرغانة وتركستان وما وراء النهر، وسيطرة ملوك الغوريين وغلمانهم على غرب الهند. ففي تلك المناطق التي لم تعد لها صلة مباشرة ببغداد والبلاد

المتحدثة بالعربية، حيث عاش الناس في ظل ملوك وأمراء وعمال يتحدثون الفارسية، بدأ الشعراء في قرض الشعر وتدوين الكتب بالفارسية؛ وفيما عدا بعض الأدباء ذوي اللسانين، نادراً ما نجد شاعراً ينظم الشعر بالعربية في تلك الولايات. وبصرف النظر عن بعض الكتب العلمية التي شاع تأليفها بالعربية بسبب قدرة اللغة العربية على التعبير عن العلوم ورعاية سهولة المصطلحات وغير ذلك، فقد دوَّن باقي الكتّاب كتاباتهم في سائر الأفرع بالفارسية.

ولما كانت ممالك بلاد الروم وآسيا الصغرى تخضع لإدارة أبناء ملوك إيران أو أمرائهم أو ولاتهم منذ عهد السلاجقة العظام، فقد أدت سيطرتهم إلى رسوخ جذور اللغة الفارسية واتجاه الشعراء والكتّاب والعلماء المتحدثين بالفارسية في تلك البلاد إلى مدح الحكام والسلاطين والأمراء وإلى تأليف الكتب باسمهم طبقاً لما كان شائعاً في إيران. وقد أدَّى هذا الوضع الذي كان سائداً قبل اجتياح المغول من فرغانة وحتى سواحل المتوسط إلى إحياء اللغة الفارسية بعد هيمنة التتار وضم كل تلك الممالك تحت إدارة موحدة ومشاركة الوزراء والكتّاب والولاة والعمال الفرس المتحدثين بالفارسية في الإدارة في كل أنحاء تلك الممالك وزوال الخلفاء وضم بغداد إلى الممالك المذكورة وجلوس الحكام الفرس مكان الخلفاء العباسيين. وعلى الرغم من بقاء العربية كلغة علمية وأدبية وعدم استغناء عامة الأدباء والكتّاب الفرس عن تعلمها فقد دفعتهم مقتضيات العصر إلى مزيد من الاهتمام بالفارسية.

٢- ونتيجة لانفصام عرى الارتباط المباشر بين المراكز العلمية لما وراء النهر وخراسان والعراق وإقليم فارس وبين بغداد ودمشق ومصر في عهد الخلفاء وتقدم الفارسية وتراجع استخدام العربية في الممالك الواقعة شرق دار الخلافة، ظهرت الحاجة إلى وضع الكتب العلمية بالفارسية. وكان هذا الأمر قد بدأ منذ عهد السامانيين والبويهيين في صورة ترجمة للكتب العلمية أو التاريخية المهمة من العربية إلى الفارسية، واشتد هذا الاتجاه في عهود الخوارزمشاهية والغوريين والعصر المغولي. وبدأ العلماء والأدباء العاملون في خدمة أي أمير يتحدث الفارسية أو يعيشون في منطقة تسكنها أغلبية من المتحدثين بالفارسية في تلك العهود في وضع كتبهم بالفارسية؛ أما من كان منهم يعيش في ممالك تتحدث بالعربية أو يريد إظهار علمه وأن يكتب باللغة التي يكتب بها سائر أهل العلم

فظل يكتب بالعربية. ونظرة واحدة على مؤلفات العلماء والحكماء والعرفاء ممن مر ذكرهم تكفي لبيان ذلك.

٣- وفي عهد سيطرة المغول ونظراً لأن الإيلخانات لم يكونوا يفهمون اللغة الفارسية ولم يألفوا سماع مدائح الشعراء أو رعايتهم كملوك المسلمين وأمرائهم، فقد كسد سوق شعراء المديح وناظمي القصائد. وبعد اندثار هؤلاء الشعراء المداحين الذين عاشوا في كنف أتابكة آذربيجان وسلاجقة العراق وآل صاعد بأصفهان وملوك الخوارزمشاهية، أصيب هذا النوع من الشعر الفارسي بتدهور شديد ولم يظهر شعراء كبار يشار إليهم بالبنان عدا قلة معدودة كسلمان الساوجي وأثير الدين الأوماني وسيف أسفرنك ممن لا يطاولون شعراء عصر السلاجقة والأتابكة. في حين أن الأشعار العرفانية تطورت بصورة ملحوظة بعد انتشار الفكر الصوفي في عهد سلاجقة الروم وملوك الخوارزمشاهية من أمثال محيي الدين بن عربي والشيخ مجد الدين البغدادي والشيخ نجم الدين كبرى وشهاب الدين السهروردي وغيرهم. وربما كان لكوارث عصر اجتياح المغول وزوال عهود الاستقرار والنشاط وحلول عهد التسليم والتأمل والعبرة من تقلب الأيام وانقلاب الأوضاع والمذابح والمآسي دور في سيطرة هذا الاتجاه وانتشار الفكر العرفاني.

موجز القول إن النثر الفارسي ساد بصورة تامة في عصر سيطرة التتار نتيجة للاحتياجات الإدارية وكساد سوق العربية. واتجه الشعر الفارسي إلى العرفان والتصوف فيما عدا قسم منه اتجه إلى الغزل. وظهرت في هذا العصر أفضل نماذج هذا النوع من الشعر الصوفي الذي يمكن اعتباره أجمل ثمار بستان الأدب الفارسي. وربما أمكن القول إن هذا العصر لا يقارن بأي عصر أدبي آخر من عصور الأدب الفارسي من هذه الناحية؛ فهو عصر ساد فيه الفكر الراقي والذوق الرفيع لشعراء من أمثال الشيخ العطار ومولوي الرومي وسعدي الشيرازي وأوحدي الأصفهاني وفخر الدين العراقي والشيخ محمود الشبستري وحافظ الشيرازي ممن نظموا أرقى الأفكار العرفانية والصوفية في أروع أشكال النظم الفارسي وقدموا أمة الفرس للعالم من خلال رقي الفكر وصفاء القريحة.

٤- تطورت كتابة التاريخ في العصر المغولي تطوراً ملحوظاً، وذلك لسببين؛ أولهما وقوع حدث جسيم كاجتياح المغول الذي لم يكن أحد قد رأى أو سمع بمثله من قبل، ووقوع أحداث أخرى

تمخضت عنه كزوال عدة دول كبرى وسقوط الخلافة العباسية التي دامت خمسمئة وخمس وعشرين سنة والمذابح المتوالية وخراب المدن ونكبة الإسلام؛ والآخر هو تشجيع الإيلخانات لهذا الفن وميلهم إلى إحياء أخبار أسلافهم وقومهم وتسجيل الوقائع التي تمت على أيديهم أو على أيدي أسلافهم من المغول ومعرفة أحوال الممالك المجاورة لهم. وقد بذل كل من غازان وأولجايتو وأبي سعيد خان ووزرائهم جهوداً فائقة في هذا المجال ، فتمَّ تدوين عدد من أهم تواريخ عصر المغول بتشجيع من هؤلاء الإيلخانات الثلاثة.

٥- يتفاوت أسلوب الإنشاء في العصر المغولي كما هو الحال في كل العصور حسب الذوق الشخصي للكاتب ونوعية مطالعاته في شبابه والبيئة الأولى التي نشأ فيها وليست له علاقة كبيرة بالعصر الذي يكتب فيه. فقد دون جهانگشاي للجويني وطبقات ناصري وگلستان سعدي جميعاً في عصر واحد تقريباً؛ ومع أن ثلاثتهم من أفضل نماذج الإنشاء في اللغة الفارسية، فإن كلاً منها كتب بأسلوب متميز عن الآخر. وتمَّ تدوين كل من تاريخ غازاني لرشيد الدين فضل الله و تاريخ وصاف في عصر واحد ولحاكم واحد، ومع ذلك فالأول يتميز بأسلوب إنشائي سلس ومبسط، بينما يتميز الآخر بشدة التكلف والإغلاق في بعض مواضعه، بل البعد عن قواعد الفصاحة والذوق السليم. وكذلك الحال بالنسبة لـ تاريخ معجم لشرف القزويني و تجارب السلف لهندوشاه النخجواني حيث دوِّن كلاهما في عهد الأتابك نصرة الدين أحمد وباسمه؛ وفي حين أن الأول كتب بأسلوب متصنع ومغلق، نجد أن الآخر شديد البساطة والفصاحة. ولا يختلف الشعر عن النثر في هذا الصدد؛ فإذا قارنا بين أشعار شرف القزويني و وصاف وبدر الجاجرمي مثلاً بأشعار سعدي ونزار القهستاني وعراقي، نجد الفروق شاسعة.

٦- هناك كثرة من الألفاظ المغولية والتركية دخلت الفارسية في العصر المغولي. وقد بدأت هذه العملية بصورة ضعيفة منذ أن فرض السلاجقة والأتراك الغز والقراخطائيون وآل أفراسياب هيمنتهم على الممالك المتحدثة بالفارسية، ثم اشتدت في عصر المغول. وتمتلئ كتب ذلك العصر، خاصة كتب التاريخ، بالألفاظ المغولية؛ إلا أن هذه الألفاظ لم يكتب لها الانتشار في إيران. فقد كانت في معظمها مصطلحات إدارية وحكومية خاصة بالمغول أو تتصل بأعرافهم وأحكامهم، وبالتالي فقد

اندثرت تدريجياً بعد زوال سيطرتهم ولم يبق سوى بعضها من خلال تجدد هيمنة القبائل الأخرى التي كانت تتحدث التركية كالتيموريين والتركمان والصفويين.

بعد هذه المقدمة نبدأ في ذكر الكتّاب والمؤرخين الذين عاشوا في عصر هيمنة المغول. وسنتغاضى هنا عن تكرار الإشارة إلى كبار المؤرخين الذين سبق لنا أن قدمنا سيرهم ضمن حديثنا عن مصادر تاريخ المغول.

أبو نصر الفراهي (النصف الأول من القرن السابع الهجري): هو أبو نصر بدر الدين بن أبي بكر الفراهي، من أهالي مدينة فراه بسيستان. وقد ولد أعمى. وكان شاعراً ذا فراسة وذكاء، وعاش في عهد آخر ملوك سيستان وعاصر مقاومتهم لطلائع جيش المغول. وكان يتقن العربية ونبغ في الحديث. وهو مؤلف كتاب نصاب الصبيان وهو مزيج من العربية والفارسية ومنظوم. كما قام الفراهي في سنة ٦١٧هـ بنظم كتاب جامع الصغير تأليف محمد بن حسن الشيباني (١٣٥هـ-١٨٩هـ).

محمد عوفي (النصف الأول من القرن السابع الهجري): هو سديد الدين محمد عوفي البخاري ولد بأواسط النصف الثاني من القرن السادس الهجري في بخارى. ويتصل نسب أجداده بعبد الرحمن بن عوف وهو أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لذا فقد عرفت أسرته بعوفي. قضى محمد عوفي شبابه في تحصيل العلوم الأدبية والعربية والحديث، وظل يتلقى العلم بها حتى سنة ٥٩٧هـ؛ ثم رحل إلى مدن ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وسيستان حيث تتلمذ على مشاهير الأدباء فيها وحصل من بعضهم على إجازة برواية الحديث والوعظ، ولقي كل احترام لدى الملوك والأمراء ونال الكثير من عطاياهم.

عاش عوفي الفترة من ٥٩٧هـ إلى ٦١٧هـ خارج إيران في مناطق متفرقة. فقضى مدة وجيزة في بداية تلك الفترة في خدمة نصرة الدين عثمان خان سلطان السلاطين (٦٠٠هـ- ٦٠٩هـ) آخر ملوك خانية سمرقند حيث تولى رئاسة ديوان الإنشاء. ثم ذهب إلى خراسان في قرابة سنة ٦٠٠هـ حيث عاش فيها وفي سيستان حتى سنة ٦١٢هـ؛ ثم عاد إلى بخارى قبل الغزو المغولي على بلاد ما وراء النهر. وبعد أن ساد الاضطراب نتيجة لبدء اجتياح المغول، لم ير صلاحاً في الإقامة في تلك

الديار، فرحل إلى السند عن طريق غزنة وكابل واستقر في كنف ناصر الدين قباجة (٦٠٢هـ-٦٢٥هـ) وهو من مماليك الغورية، وأصبح من خواص وزيره عين الملك فخر الدين حسين الأشعري.

تمكن شمس الدين ألتتمش من القضاء على ناصر الدين قباجة في سنة ٦٢٥هـ واستولى على الأراضي الخاضعة له. وانضم عوفي إلى بلاط ألتتمش وتقرب إلى وزيره نظام الملك محمد جنيدي، واستقر منذ ذلك الوقت في دلهي وعاش حتى سنة ٦٣٠هـ ولا نعرف كيف سارت حياته بعدها.

وبعد أن استقر محمد عوفي في الهند منذ سنة ٦١٧هـ، شرع في التأليف، فوضع ثلاثة كتب بالفارسية يعد اثنان منها من أهم الأعمال الأدبية في إيران. وهذه الكتب الثلاثة هي:

١- لباب الألباب في طبقات شعراء الفارسية في مجلدين؛ المجلد الأول في سير الأمراء والملوك والوزراء والكتّاب والعلماء الذين نظموا الشعر بالفارسية؛ والآخر في سير شعراء الفارسية من فرغانة وما وراء النهر إلى العراق وآذربيجان وسيستان وأفغانستان الحالية. وألّف عوفي هذا الكتاب في سنة ٦١٨هـ باسم عين الملك وزير ناصر الدين قباجة. وهذا الكتاب أقدم ما كتب بالفارسية في سير شعراء الفارسية؛ فقد ضاعت الكتب التي دُوِّنت قبله في هذا الموضوع ومعظم المعلومات التي بين أيدينا اليوم عن شعراء عصر الصفاريين والسامانيين والغزنويين والسلاجقة مأخوذة عن لباب الألباب لعوفي. كما أن سير العديد من علماء عصر الخوارزمشاهية وأواخر السلاجقة القريبي العهد بعوفي نجدها في المجلد الأول من كتابه هذا. ولكن مما يؤسف له أن عوفي سعى في هذا الكتاب إلى محاكاة الثعالبي وعماد الكاتب وغيره من مشاهير كتّاب طبقات الشعراء العرب؛ لذا فقد ركَّز اهتمامه على الألفاظ وتنميق العبارات، وقليلاً ما قدَّمَ معلومات تاريخية.

٢- ترجمة كتاب الفرج بعد الشدة بالفارسية عن كتاب القاضي محسن بن علي التنوخي (توفي ٣٨٤هـ). وقد ترجمه عوفي بعد تاليف لباب الألباب، أي في قرابة ٦٢٠هـ باسم ناصر الدين قباجة. ولم يبق من ترجمة عوفي هذه سوى نصفها الأخير، ولكنه لم ينشر حتى الآن. أما الترجمة الكاملة لكتاب الفرج بعد الشدة والتي قام بها التنوخي إلى الفارسية فهي موجودة. وهناك ترجمة أخرى قام بها حسين بن أسعد المؤيدي الدهستاني بعد ترجمة عوفي بثلاثين سنة. وكان

الدهستاني من منشئي خواجه عز الدين الزنكي الفريومدي نائب الأمير أرغون آقا على حكومة خراسان ومازندران. وخواجه عز الدين هو ابن خواجه وجيه الدين الزنكي الذي تولى وزارة خراسان إبان تمرد أرغون خان على تكودار، وفي النهاية قُتل بأمر من هذا الإيلخان.(١١)

٣- كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات في أربعة مجلدات، كل منها في خمسة وعشرين باباً، ويضم أكثر من ألفين ومئة حكاية أدبية وتاريخية وعبرة جمعها عوفي من حوالى مئة كتاب، إضافة إلى ما رآه بنفسه أو سمعه. وقد بدأ عوفي في وضع هذا الكتاب باسم ناصر الدين قباجة؛ ولكن بعد سقوط قباجة على يد شمس الدين التتمش وانضمام عوفي إلى بلاط الأخير، أهداه لوزيره نظام الملك جنيدي وأتمه في سنة ٦٣٠ تقريباً. ويعد جوامع الحكايات من أهم الكتب الفارسية؛ فهو إلى جانب أسلوبه السلس يضم ثلاثين حكاية تاريخية قيمة وفقرات من كتب تاريخية مهمة مفقودة.

شمس قيس الرازي (النصف الأول من القرن السابع الهجري): هو شمس الدين محمد بن قيس الرازي، من كبار علماء العلوم الأدبية. وهو أصلاً من أهالي الري؛ إلا أنه قضى معظم سنوات شبابه في ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وعمل ببلاط الخوارزمشاهية وظل مقيماً بتلك المناطق منذ أوائل القرن السابع حتى بداية سيطرة التتار أي سنة ٦١٤هـ. وفي هذه السنة الأخيرة جاء إلى العراق في ركاب السلطان محمد خوارزمشاه بعد اقتراب المغول، وعاش في مدن العراق لمدة ست سنوات. وسقط في أيدي قوات المغول مرة أو مرتين في تلك الفترة وفقد عدداً من الكتب ومنها مُسَوَّدَةُ العديد من مؤلفاته. وفي النهاية، ذهب إلى إقليم فارس في سنة ٦٢٠هـ وعاش في كنف الأتابك سعد بن زنكي وأصبح أحد ندمائه وظل في بلاطه حتى آخر حياة ابن زنكي أي حتى سنة ٦٢٣هـ. ثم انضم لبلاط ابنه الأتابك أبي بكر بن سعد وألَّفَ كتابه الشهير المعجم في معايير أشعار العجم باسمه في سنة ٦٣٠هـ في فارس.

بدأ المؤلف في تدوين المعجم في سنة ٦١٤هـ بمرو. وبعد ضياع أحد أجزائه مع سقوط شمس قيس في أيدي المغول بالقرب من همدان، تعطَّل إتمام تأليفه. وبعد استقراره في فارس، أتمه في سنة ٦٣٠هـ تقريباً بتشجيع من فضلاء هذا الإقليم. وكان أصل الكتاب بالعربية؛ إلا أن المؤلف بعد

مراجعته الأولية له، فضل كتابته بالفارسية بناء على مشورة من فضلاء فارس. ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب الأدبية الفارسية في العروض والقافية ونقد الشعر؛ وفي القسم الأخير من الكتاب، تناول المؤلف قواعد نظم الشعر وشروط البيان وعيوب الشعر بالدراسة المتعمقة وأشار إلى العديد من النقاط الدقيقة الخاصة بنحو اللغة الفارسية وشعراء هذه اللغة وأورد نماذج من أشعار عدد من شعراء الفارسية ممن فُقِدَتْ دواوينهم. وللمؤلف أعمال أخرى بالفارسية والعربية ولكنها مفقودة.

ناصر المنشئ (النصف الأول من القرن السابع الهجري): هو ناصر الدين عمدة الملك بن منتجب الدين إليزدي رئيس ديوان الرسائل والإنشاء في بلاط صفوة الدين پادشاه خاتون (٦٠١هـ-٦٩٤هـ) وهو من ملوك قراخطائيي كرمان. وقد غادر والده منتجب الدين إليزدي يزد في سنة ٦٥٠هـ واستقر في بلاط السلطان قطب الدين محمد القراخطائي ابن شقيق براق الحاجب (٦٥٠هـ-٦٥٤هـ). وفي عهد السلطان حجاج (٦٥٥هـ-٦٨١هـ) تولى الوزارة لفترة أيضاً. وجاء ابنه ناصر الدين فيما بعد بصحبة عمه إلى كرمان وتولّى في صدر شبابه أي في سنة ٦٩٣هـ رئاسة ديوان رسائل پادشاه خاتون واستقر في كرمان.

لناصر الدين المنشئ كتاب في تاريخ قراخطائية كرمان بعنوان سمط العُلى للحضرة العليا وقد وضعه المؤلف محاكاة لكتاب عقد العُلى للموقف الأعلى تأليف أفضل الدين أبي حامد الكرماني في سنة ٧١٦هـ وأهداه لإيسن قتلغ نويان وهو من كبار أمراء أولجايتو وأبي سعيد. وقد وضع ناصر الدين هذا الكتاب بعد اطلاعه على كتاب تاريخ شاهي تأليف خواجه شهاب الدين أبي سعيد في تاريخ قراخطائية كرمان والذي يفتقر إلى أية معلومات عن الأحداث التي أعقبت وفاة پادشاه خاتون؛ فشرع ناصر الدين في إعداد خاتمة له عن نهاية هذه الأسرة وبتشجيع من بعض فضلاء كرمان، وضمَّنَهُ نبذة عن تاريخ كرمان وكل تاريخ القراخطائية وعهد الملك ناصر الدين محمد بن برهان الغوري[١٢] وحتى أواخر عهد أولجايتو.



فخر البناكتي (النصف الأول من القرن الثامن الهجري): هو أبو سليمان داود بن محمد البناكتي المتخلص باسم فخر، من أدباء وشعراء عهد غازان وأولجايتو وأبي سعيد ونال في بلاط غازان خان منصب ملك الشعراء، وتوفى أخوه سيد نظام الدين علي الذي كان من عرفاء تبريز فيها في سنة ٦٩٩هـ. ولفخر مؤلف تاريخي بعنوان روضة أولي الألباب في تواريخ الأكابر والأنساب في التاريخ العام للعالم منذ خلق آدم حتى جلوس أبي سعيد . وأتمه المؤلف في شوال ٧١٧هـ؛ وقد استخلصه حسب قوله هو نفسه من كتاب جامع التواريخ لرشيدي. وهذا الكتاب المعروف بـ تاريخ البناكتي يختلف عن سائر التواريخ الإسلامية الأخرى كجامع التواريخ لرشيدي في اشتماله على شرح مفصل نسبياً لأوضاع الامم غير الإسلامية كاليهود والنصارى والهنود والصينيين والمغول. وبالإضافة إلى المعلومات التي استقاها من جامع التواريخ، ونظراً لتوليه منصب ملك الشعراء ببلاط إيلخان عظيم كغازان، فقد تمكّن من جمع معلومات أخرى من المقيمين معه. لذا فإن الكتاب على صغر حجمه يعد من التواريخ المهمة عن عصر المغول.

شرف القزويني (ت ٧٤٠هـ تقريباً): هو شرف الدين فضل الله الحسيني القزويني المعروف بشرف، من الأدباء والشعراء المتكلفين الذين عاشوا في كنف الوزراء الفرس في عهد الإيلخانات وقضى مدة في خدمة الأتابك نصرة الدين أحمد اللري، ومعظم أشعاره في مديح غياث الدين محمد الرشيدي والأتابك نصرة الدين. ونظراً لتبحره في الأدب العربي، فقد اتخذ سبيل التكلف ورعاية اللفظ في شعره ونثره بدرجة تفوق وصاف؛ وله أشعار متكلفة كثيرة.

ولد القزويني بقزوين في سنة ٦٦٠هـ تقريباً. وفي سنة ٧٣٢هـ حين كان بصحراء أوجان، التحق بخدمة أولجايتو بوساطة من غياث الدين محمد، وذهب إلى تبريز مع غياث وهو في سن السبعين أو يزيد. ومعظم أشعار شرف القزويني وكتاباته مهداة لخواجه غياث الدين والأتابك نصرة الدين، وأشهرها كتابه المعجم في آثار ملوك العجم الذي وضعه باسم الأتابك نصرة الدين أحمد اللري؛ وهو عن تاريخ إيران القديم منذ عهد كيومرث حتى عهد أنوشيروان. وقد دونه بأسلوب متكلف ومغلق ولا هدف له إلا استعراض القدرات الفنية ولا يتضمن أية موضوعات تاريخية ذات قيمة؛ كما أنه ليس نموذجاً طيباً للإنشاء الفارسي. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب بعنوان الترسل النصرتية،

دوَّنه شرف باسم الأتابك نصرة الدين أيضاً بعد سنة ٧٢٧هـ في فن الإنشاء وبيان أقدار الكلام وأسلوب كل من أرباب البيان.

يخلط البعض بين شرف الدين فضل الله القزويني هذا وعز الدين فضل الله الشيرازي والد وصاف، والتبس الأمر بين مؤلف المعجم وتاريخ وصاف باعتبارهما أباً وابنه، في حين أنه لا علاقة بينهما على الإطلاق. فشرف مؤلف المعجم من الأشراف الحسينيين القزوينيين وتوفي في سنة ٧٤٠هـ تقريباً، بينما توفي عز الدين فضل الله الشيرازي والد وصاف في سنة ٦٩٨ في القحط الذي أصاب شيراز. وينبغي الإشارة إلى أن وصاف أيضاً تخلص في شعره باسم شرف.

محمد بن علي الشبانكاري (أواسط القرن الثامن الهجري): هو محمد بن علي بن محمد الشبانكاري، من شعراء غياث الدين محمد الرشيدي ومداحيه، ولد في سنة ٦٩٧هـ تقريباً بإحدى قرى ولاية شبانكاره؛ واشتهر بالشعر أكثر من اشتهاره بالنثر كفخر البناكتي. وفي عهد وزارة غياث الدين، كان يرسل قصائد في مديحه كل سنة.

بدأ محمد بن علي الشبانكاري في تدوين تاريخ عام في سنة ٧٣٣هـ، أي قبل وفاة أبي سعيد بهادر خان بثلاث سنوات، وأتمه في سنة ٧٣٦هـ، وقدَّمَهُ لخواجه غياث الدين ليعرضه على أبي سعيد. إلا أن الإيلخان توفي قبل أن يعرض الوزير الكتاب عليه؛ وضاع كتاب الشبانكاري إبان نهب الربع الرشيدي. وقام محمد بن علي الشبانكاري بإعادة تدوين كتابه بعد فترة من مقتل خواجه غياث الدين، أي في سنة ٧٤٣هـ تقريباً؛ وفي هذه المرة ضمّنه أحداث عهد أبي سعيد. وهذا الكتاب بعنوان مجمع الأنساب؛ وأقسامه التي تتناول ما قبل عصر المغول استقاها المؤلف من كتب لمؤرخين سابقين عليه؛ أما فيما يتعلق بعهد إيلخانية أولجايتو وأبي سعيد وملوك إقليم فارس وشبانكاره وهرمز، فهو يتضمن معلومات قيمة.

شمس الفخري (أواسط القرن الثامن الهجري): هو شمس الدين بن فخر الدين الفخري الأصفهاني، من الأدباء والشعراء الذين عاصروا الأتابك نصرة الدين أحمد اللري وخواجه غياث الدين محمد الرشيدي والأمير أبا إسحاق إينجو. وأبوه هو مولانا فخر الدين، وكان أيضاً من الشعراء الذين اشتهروا بالتكلف في أشعارهم، وتوفي بعد ٦٨٦هـ.

ذهب شمس الفخري في عنفوان شبابه إلى لرستان وألف بها كتاباً مختصراً في العروض والقوافي بعنوان معيار نصرتي باسم الأتابك نصرة الدين أحمد في سنة ٧١٣هـ. وفي عهد وزارة خواجه غياث الدين الذي التف حوله أهل الأدب من كل صوب ونظموا الشعر وألفوا الكتب باسمه، ذهب إلى العراق. وفي سنة ٧٣٢هـ، استقر به المقام في قم حيث نظم قصيدة مطولة متكلفة بعنوان مخزن البحور ومجمع الصنايع في صنائع البديع وأوزان العروض في مدح غياث الدين. وبعد زوال دولة غياث الدين، ذهب إلى إقليم فارس وأصبح ضمن ملازمي الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إينجو، ووضع باسمه كتابه الشهير معيار جمالي ومفتاح ابو اسحاقي في سنة ٧٤٤؛ وهو كتاب في أربعة أفرع هي العروض والقافية وعلم البديع ولغة الفرس. وقد قدَّم شمس الفخري معظم الشواهد التي أوردها فيه ومعظمها في مديح الشيخ أبي إسحاق.

شمس الدين الأفلاكي (أواسط القرن الثامن الهجري): هو شمس الدين أحمد الأفلاكي، من مريدي الشيخ جلال الدين العارف حفيد مولوي الرومي وخليفته؛ وقد جمع بتكليف من أستاذه كتاباً في سيرة مولوي الرومي وأبيه وشيوخه وأصدقائه وابنه وخلفائه بعنوان مناقب العارفين، وبدأ في جمعه في سنة ٧١٨هـ وظل منشغلاً بتاليفه حتى سنة ٧٤٢هـ. وهذا الكتاب في عشرة فصول ويتضمن معلومات قيِّمة عن مولانا جلال الدين مولوي وأسرته وأصدقائه ومراحل حياته وخلفائه وشرح للمثنوي وعن تاريخ الفترة التي تناولها الأفلاكي بالدرس.

حمد الله المستوفي (ت ٧٥٠هـ تقريباً): هو خواجه حمد الله بن تاج الدين أبو بكر المستوفي القزويني، من أسرة قزوينية عريقة من المحاسبين الحكوميين. وتدّعي أسرته أن نسبها يرجع إلى الحر بن يزيد الرياحي وأنهم سكنوا قزوين منذ عهود بعيدة وتولّوا الأعمال الديوانية فيها. ومن هذه الأسرة أمين الدين نصر الجد الثاني لحمد الله الذي تولّى محاسبات العراق لفترة من الزمن، ثم اعتزل العمل واختار الاعتكاف والزهد والتعبد؛ وابنا عم حمد الله وهما خواجه فخر الدين محمد وخواجه سعد الدين مظفر اللذان توليا مناصب مهمة في عهد الأمير بوقا وأخيه الأمير آروق في ديوان العراق.[١٣] وكان لهذين الأخوين دور رئيس في القضاء على أسرة الجويني. فقد حثَّ خواجه شرف الدين هارون ابن صاحب الديوان الأمير آروق في سنة ٦٨٥هـ على قتل خواجه سعد

الدين مظفر، فقُتل سعد الدين في بغداد ونقل جثمانه إلى قزوين. وقد حثّ أخوه خواجه فخر الدين الأمير آروق في السنة نفسها ٦٨٥هـ على قتل خواجه هارون، وقد كان. وكان خواجه فخر الدين أحمد شقيق حمد الله المستوفي أديباً وشاعراً في عهد أولجايتو وأبي سعيد وعمل في الديوان.

ولد حمد الله المستوفي في قزوين في سنة ٦٨٠هـ وكان من خواص خواجه رشيد الدين فضل الله ومنشئيه. وفي سنة ٧١١هـ، بعد مقتل سعد الدين الساوجي صاحب الديوان واستقلال رشيد الدين بشؤون الحكومة، عهد إلى حمد الله المستوفي بديوان محاسبات أبهر وزنجان وطارم،(١٤) كما عهد إلى أخيه الآخر زين الدين محمد بنيابة ديوان الوزارة في عهد هذا الوزير الجليل.

وبعد مقتل رشيد الدين وبحكم الخدمات السابقة لأسرة الرشيدي، أصبح حمد الله المستوفي من حاشية ابنه خواجه غياث الدين محمد. وليس لدينا أية معلومات عن حمد الله المستوفي بعد مقتل غياث الدين، أي بعد ٧٣٦هـ.

كان حمد الله المستوفي من شعراء الفارسية وأدبائها الأعلام وكان شديد الانتماء لوطنه الأم إيران. وكان منذ صدر شبابه شغوفاً بدراسة التاريخ ومناقشة العلماء ومخالطتهم، خاصة في ديوان رشيد الدين الذي كان ملتقى لهم. ولحمد الله ثلاثة كتب بالفارسية في التاريخ والجغرافيا:

١- تاريخ گزيده: وهو مختصر لتاريخ العالم منذ بدء الخليقة حتى عهد وزارة غياث الدين محمد الرشيدي. وقد وضعه حمد الله في سنة ٧٣٠هـ باسم هذا الوزير. وهو في الحقيقة مختارات من جامع التواريخ لرشيدي مضافاً إليه معلومات انتقاها حمد الله من كتب المؤرخين الآخرين، وأضاف إليه فصلين أحدهما في تاريخ العلماء والأئمة وشعراء العرب والعجم، والآخر في التاريخ والجغرافيا وأعيان مدينته قزوين؛ وكلا الفصلين من أهم أبواب الكتاب.

٢- ظفرنامه: وهو منظومة مطولة في وزن البحر المتقارب وتضم خمسة وسبعين ألف بيت في تاريخ إيران منذ فجر الإسلام وحتى عصر المؤلف. وأتمها حمد الله في سنة ٧٣٥هـ، أي بعد إتمام تاريخ گزيده بخمس سنوات. وتعد ظفرنامه تاريخ سبعة قرون ونصف القرن في قالب شعري، يورد الشاعر أحداث كل قرن منها في عشرة آلاف بيت. وتنقسم المنظومة إلى ثلاثة أقسام: عصر

الفتح العربي في خمسة وعشرين ألف بيت؛ عصر حكم أسرات ملوك إيران في عشرين ألف بيت؛ وعصر حكم المغول والإيلخانات في ثلاثين ألف بيت. وبدأ حمد الله هذه المنظومة وهو في سن الأربعين، أي في سنة ٧٢٠؛ وأمضى خمس عشرة سنة في نظمها. و ظفرنامه وإن كانت لا تطاول شاهنامة الفردوسي أو گرشاسب نامه للأسدي أو بوستان سعدي فهي من النماذج المتوسطة للشعر الفارسي. ولما كان ناظمها مؤرخاً تحرّى الدقة في إيراد الوقائع وأسماء الأشخاص والبلاد، فإن منظومته تعد من المصادر المهمة لفهم الأحداث التاريخية للعصر المغولي بصفة خاصة، ويمكن الوقوف في منظومته على الصورة الإملائية والنطق الصحيح لأسماء كثيرٍ من أعلام المغول حيث ضبط حمد الله ما أورده منها ضبطاً جيداً.

٣- نزهة القلوب: وهو كتاب في الجغرافيا وله مقدمة في الإنسان والحيوانات والنباتات والجمادات والأفلاك. وهو آخر ما كتبه حمد الله وذلك في سنة ٧٤٠هـ؛ وهو من الكتب المهمة في مجاله؛ فهو إلى جانب رصانة إنشائه يضم معلومات قيمة عن إيران وعن أوضاع الممالك المجاورة لها في أواسط القرن الثامن الهجري.

معين الدين الجويني (أواخر القرن الثامن الهجري): هو مولانا معين الدين الجويني، من عرفاء النصف الأول من القرن الثامن الهجري وأدبائه وكان من مريدي العارف الشهير سعد الدين يوسف بن إبراهيم الحموية الجويني؛ وكانت له مكانة في عهد أبي سعيد وخواجه غياث الدين محمد، وعاش حتى أواخر القرن الثامن الهجري. ويعد معين الدين الجويني من أوائل الأدباء الذين وضعوا كتباً تحاكي گلستان سعدي؛ وهذا الكتاب بعنوان نگارستان. وفي ديباجته وبعد الثناء والحمد وتوجيه الشكر لأبي سعيد وغياث الدين محمد، يقول المؤلف إن الثناء على گلستان سعدي جرى على الألسنة في أحد المحافل وإنه مع اعترافه بنبوغ سعدي في إنشائه لـ گلستان شرع في تدوين كتاب شبيه به وإنه أتم نگارستان في سنة ٧٣٥هـ وإنه زيَّنَهُ باسم أستاذه سعد الدين يوسف بن إبراهيم الحموية. و نگارستان معين الدين الجويني وإن كان لا يرقى إلى مستوى گلستان سعدي من حيث رصانة الإنشاء، فهو يتضمن بعض النقاط التاريخية المهمة. وهو ينقسم إلى سبعة أقسام على النحو التالي: ١- في الصون والعفاف ٢- في مكارم الأخلاق ٣- في حسن المعاشرة

٤- في العشق والحب ٥- في الوعظ والنصح ٦- في الفضل والرحمة ٧- في الفوائد المختلفة.

محمد بن محمود الآمُلي (النصف الثاني من القرن الثامن الهجري): هو شمس الدين محمد بن محمود الآمُلي، من علماء الشيعة ومن مدرسي مدينة سلطانية في عهد أولجايتو (٧٠٣هـ- ٧١٦هـ)، وكان دائم التباحث مع أهل السنّة في عصره في إثبات حقيقة التشيع؛ خاصة القاضي عضد الدين الإيجي العالم والمتكلم المعروف الذي ظل يناظره لمدة في هذا الصدد. وقد عاش محمد الآمُلي لفترة بعد أولجايتو وأبي سعيد، وقضى عمره في السياحة ومجالسة العلماء وأهل الفضل. وطاف معظم البلاد لهذا الغرض. واستقر في النهاية في إقليم فارس في عهد الأمير شيخ أبي إسحاق.

كان الآمُلي من علماء عصره، وكان يتقن العربية والفارسية، وله مؤلفات في كل منهما في مختلف الفنون، منها شرحه لكليات القانون لابن سينا في الطب في سنة ٧٥٣هـ؛ وكتب شرحاً بعنوان رد عقايد قاضي ايجي على مختصر الأصول لابن الحاجب والذي اعتبره القاضي عضد الدين الإيجي مطابقاً لعقائد أهل السنّة. وأشهر أعمال الآمُلي هو نفايس الفنون في عرايس العيون، وهو بالفارسية وبمثابة موسوعة للعلوم المتداولة عند المسلمين والقدماء ويُقَدِّمُ تعريفاً لهذه العلوم ونبذة عن كل منها. وقد بدأه الآمُلي في سنة ٧٣٦هـ وأتمه بعد ٧٤٢هـ باسم شاه شيخ أبي إسحاق إينجو، ويمتد القسم التاريخي منه إلى وقائع ما بعد وفاة السلطان أبي سعيد.

هندوشاه النخجواني (النصف الأول من القرن الثامن الهجري): هو هندوشاه بن سنجر الصاحبي النخجواني، من منشئي عهد صاحب الديوان شمس الدين الجويني وأباقا خان ومن تلاه من الإيلخانات. وشغل هو وأخوه الأمير سيف الدين محمود مناصب إدارية في عهد وزارة صاحب الديوان؛ فتولّى هندوشاه نيابة حكومة كاشان من طرف أخيه في سنة ٦٧٤هـ؛ وفي أواخر عهد أتابكية نصرة الدين أحمد اللري، سافر هندوشاه الذي كان يعيش في نخجوان للعمل في خدمة ذلك الأتابك الذي اشتهر بحبه للعلم، وأهداه كتابه منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء والوزراء وهو ترجمة فارسية لكتاب الفخري لابن الطقطقي مضافاً إليه العديد من الموضوعات المقتبسة من كتب أخرى، وكتابه تجارب السلف الذي ألفه في سنة ٧٢٤هـ باسم الأتابك.

وهندوشاه النخجواني هو والد شمس المنشئ النخجواني الذي عاش في عهد خواجه غياث الدين الرشيدي والسلطان أويس بهادر خان الإيلكاني (٧٥٧هـ-٧٧٦هـ)، وهو مؤلف كتاب لغوي بالفارسية بعنوان صحاح العجم باسم غياث الدين. وكلّفه غياث الدين بوضع كتاب في فن الإنشاء وقواعد الكتابة لمختلف طبقات الناس؛ إلا أنه لم يتمكن من إتمام تلك المهمة في عهد وزارة غياث الدين القصير؛ بل أتمه في شيخوخته وفي عهد السلطان أويس وأسماه دستور الكاتب في تعيين المراتب.

معين الدين إليزدي (ت ٧٨٩هـ): هو مولانا معين الدين المعلم إليزدي، من علماء الحديث في عهد الأمير مبارز الدين محمد وابنه شاه شجاع. وعيَّنَهُ مبارز الدين في سنة ٧٥٥هـ للتدريس بدار السيادة بميبد. وقد عاش بكل إعزاز في كنف الأب وابنه على السواء؛ وكان يُعهد إليه من حين لآخر بمهام حكومية؛ فقام بمهمة إبرام اتفاقية تصالح بين شاه شجاع وأخيه شاه محمود في سنة ٧٦٠هـ.

ولمعين الدين إليزدي مؤلف تاريخي عن أسرة آل مظفر بعنوان مواهب إلهيه يقول في مقدمته إنه شرع في شرح مآثر الأمير مبارز الدين محمد وفاءً منه لما لقيه منذ شبابه من عطف في كنفه، وفي سنة ٧٥٧هـ، قرأ بعضاً مما كتبه من تاريخ على الأمير مبارز الدين محمد بالقرب من أصفهان وشجَّعَهُ الأمير على إتمام كتابه؛ إلا أن الأمير توفي قبل أن يتمه فأهداه معين الدين لشاه شجاع، وذيَّلَهُ بسرد للأحداث المتعلقة بآل مظفر حتى سنة ٧٦٦هـ أي بعد سنة من وفاة الأمير مبارز الدين. وتوفي معين الدين في سنة ٧٨٩هـ.

وكتابه مواهب إلهيه وإن كان من الأعمال القيِّمة من حيث اشتماله على الأحداث التاريخية لعهد حكم آل مظفر والأوضاع في جنوب إيران في تلك الحقبة، فهو من حيث أسلوب الإنشاء يُعَدُّ من أكثر الكتب الفارسية تكلفاً، فقد أفرط مؤلفه في إيراد العبارات المغلقة والجمل المكررة والاستعارات المصطنعة لدرجة تجعل من عملية استنباط الموضوعات التاريخية منه أمراً غير يسير. لذا فقد قام أحد الكتّاب ويدعى محمود الكيتي بتبسيطه في سنة ٨٢٣هـ وذيَّلَهُ بأحداث تالية حتى زوال أسرة آل مظفر؛ فاضفى على الكتاب أسلوباً مبسطاً.



ضياء النخشَبي (ت ٧٥١هـ): هو ضياء الدين النخشَبي، من الأدباء والزهاد. رحـــل عـــن بلدته نخشَب إلى الهند وتوفي فيها في سنة ٧٥١هـ. وتعلم ضياء في الهند اللغة السنسكريتية وترجم منها عدة كتب؛ والتحق هناك ببلاط ملوك خلج ووضع بعض أعماله باسم مبارك ملك خلج (٧١٧هـ-٧٢١هـ). وأشهر مؤلفات ضياء النخشَبي كتاب طوطي نامه وأصله هندي. فترجمه ضياء في سنة ٧٣٠هـ بعبارة فارسية سلسة. وقد ترجم هذا الكتاب الذي يضم عدة حكايات إلى معظم اللغات. وهذا الكتاب هو أصل كتاب چهل طوطي نامه المعروف.

ابن بيبي (النصف الثاني من القرن السابع الهجري): هو الأمير ناصر الدين يحيي بن مجد الدين محمد الترجمان المعروف بابن بيبي، وهو ابن مجد الدين محمد الترجمان، من أشراف كور سرخي بجرجان. وأمه بيبي المنجمة ابنة كمال الدين السمناني رئيس الشافعية بنيسابور. وينتسب من ناحيتها إلى الإمام محمد بن يحيى العالم الخراساني الكبير الذي لقي مصرعه في عهد سنجر إبان فتنة الغز. وكانت لبيبي المنجمة شهرة واسعة في التنجيم. ويقال إن نبوءاتها كانت غالباً ما تتحقق؛ وقد أكرمها السلطان جلال الدين منكبرني في بلاطه وقرَّبَها إليه، وكان غالباً ما يصطحبها في حملاته. فحضرت حصار مدينة أخلاط. وقد تعرَّفَ الأمير كمال الدين كاميار على مهارتها في التنجيم حين جاء في سفارة إلى جلال الدين.(١٥) وبعد عودته إلى علاء الدين كيقباد السلجوقي، قصَّ عليه ما رآه منها، فاشتاق علاء الدين إلى الحديث إليها. وبعد القضاء على جلال الدين، ذهبت بيبي المنجمة وزوْجُها مجد الدين محمد إلى دمشق، فدعاهما علاء الدين إلى بلاد الروم وألحقهما ببلاطه. وعندما شاهد علاء الدين بعض النبوءات الصادقة من بيبي المنجمة، أمرها أن تطلب منه ما تشاء. فطلبت بيبي تعيين زوجها مجد الدين كاتباً للديوان. فلبَّى السلطان لها مطلبها وانضم مجد الدين الترجمان وزوجه منذ ذلك الحين إلى بلاط سلاجقة الروم، وأصبح مجد الدين من كبار أمراء السلاجقة وذهب في مهام خطيرة إلى بغداد ودمشق؛ وقد ذهب من قبل السلطان إلى علاء الدين بعد إسلامه وانضمامه إلى الإسماعيلية في ألموت. وتوفي في شعبان ٦٧٠هـ.

والتحق الأمير ناصر الدين يحيى بن بيبي ابن مجد الدين الترجمان بالوظائف الديوانية أيضاً،

ووصل في عهد خلفاء علاء الدين كيقباد إلى منصب إمارة الديوان. وفي الفترة من ٦٨١هـ إلى ٦٨٤هـ، دوّن كتاباً بالفارسية في تاريخ سلاجقة الروم بعنوان سلجوقنامه سعى فيه إلى محاكاة جهانگشاي للجويني من حيث الأسلوب. ويتخذ فيه نهج جهانگشاي للجويني و تاريخ وصاف ومواهب إلهيه لمعين الدين إليزدي. وأصل كتاب ابن بيبي مفقود. إلا أن هناك من اختصر هذا الكتاب المطول والصعب وبسطه؛ وهذا الكتاب المنقح موجود ويعد من المصادر المهمة للتعرف على تاريخ حكم سلاجقة الروم.

ضياء الدين البَرَني (أوائل النصف الثاني من القرن الثامن الهجري): هو ضياء الدين بن رجب البَرَني، من مشاهير مؤرخي الهند وأدبائها المتحدثين بالفارسية وأحد مريدي العارف نظام الدين محمد البداؤني المعروف بنظام الدين أوليا (توفي ٧٢٥هـ) ومن أصدقاء الأمير خسرو الدهلوي والأمير حسن الدهلوي، وعاش في بلاط السلطان محمد وهو أحد سلاطين تغلقية بالهند (٧٢٥–٧٣٠هـ). وعندما جلس السلطان جلال الدين فيروزشاه (٧٥٢– ٧٩٠هـ) على العرش، التحق بخدمته وهو في السبعين من عمره، وبدأ في التأليف باسم فيروزشاه.

ولضياء الدين البَرَني كتابان بالفارسية، أحدهما اخبار برمكيان (أخبار البرامكة) وقد ترجمه المؤلف من العربية إلى الفارسية باسم فيروزشاه؛ والآخر بعنوان تاريخ فيروزشاهي في تاريخ سلاطين دلهي منذ جلوس السلطان غياث الدين بلبن وحتى السنة السادسة من حكم فيروزشاه، أي من ٦٦٢هـ إلى ٧٥٨هـ. وقد وضعه ضياء الدين البَرَني كتذييل لـ طبقات ناصري للقاضي منهاج السراج في سنة ٧٥٨هـ وهو في الرابعة والسبعين من عمره. ولضياء الدين كتاب آخر بعنوان فتوحات فيروزشاهي في شرح مآثر فيروزشاه. وقد توفي بعد هذا الكتاب بمدة وجيزة.

ابن البزاز (٧٦٠هـ تقريباً): هو الدرويش توكل بن إسماعيل التوكلي المعروف بابن البزاز، من مريدي الشيخ صفي الدين الأردبيلي جد سلاطين الصفوية. وقد عاش في عصر الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفي الدين والذي خلف أباه من ٧٣٥هـ إلى ٧٩٤هـ. وهو مؤلف كتاب في مناقب الشيخ صفي الدين بعنوان صفوة الصفا. ويضم هذا الكتاب إلى جانب تاريخ مريدي الشيخ صفي الدين وسيرته الكثير من الموضوعات القيِّمة في التاريخ والأخلاق في النصف الثاني

من القرن السابع وأوائل الثامن. وفي عهد طهماسب الأول الصفوي، قام أبو الفتح الحسيني بتنقيحه بأمر من هذا الحاكم الصفوي؛ وهذه النسخة المنقَّحة باقية ومعظم المعلومات التي أوردها المؤرخون فيما بعد عن بداية الصفويين استمدوها من صفوة الصفا لابن البزاز.

أحمد بن زركوب (النصف الأول من القرن الثامن الهجري): هو أبو العباس أحمد بن أبي الخير زركوب الشيرازي الملقَّب بمعين وفخر الدين. وهو مؤلف كتاب تاريخي عن مدينة شيراز بعنوان شيرازنامه وضعه بعد العودة من الحج في سنة ٧٤٤هـ. كما دوَّنَ المؤلف وقائع عهد شاه شيخ أبي إسحاق إينجو في مجلدين ولكنهما فقدا.

ولم يجهد أحمد أبو الخير نفسه في تدوين كتابه شيرازنامه؛ حيث اقتبس موضوعاته من كتب أخرى وبالعبارات نفسها وانتحلها لنفسه. والجزء الأكبر من الأحداث التاريخية فيه مقتبسة حرفياً من تاريخ وصاف. وقد ذيَّلَ كتابه بفصل في طبقات أئمة شيراز ومشايخها.

٣- الشعراء:

تدهور الشعر في العصر المغولي كما سبقت الإشارة، وذلك للأسباب التي سبق ذكرها. وآخر شاعر كبير، وهو كمال الدين إسماعيل الأصفهاني، قتل في سنة ٦٣٥هـ. أما شعر الحكمة والعرفان، فقد تطور بصورة كبيرة. وينبغي أن نتذكر أن هذا التطور والازدهار كان ينحصر في المضمون والمعاني دون الفصاحة والتركيب والأسلوب؛ فلا مجال لمقارنة أي من شعراء هذا العصر بأساتذة العهود السابقة. فآثار الضعف والتكلف واضحة في أشعارهم. ومن الغريب أن يظهر وسط هذا التدني والانحطاط شاعر ذو ذوق سليم كالشيخ سعدي الشيرازي الذي كتب شعرَ الفارسية ونثرها حتى بلغ قمة الكمال والسلاسة والرصانة، وأصبح أسلوبه ميزاناً لفصاحة الشعر الفارسي. وسنعود إلى هذه النقطة حين نصل إلى سيرة سعدي. وإذا تجاوزنا سعدي، نجد أن أياً من شعراء هذه الفترة بما فيهم مولوي وحافظ اللذين بلغا الذروة في نظم المعاني الدقيقة والأفكار السامية لم يبلغ مكانة شعراء العهود السابقة من حيث فصاحة العبارة. فلم يراعِ مولوي جانب قواعد الفصاحة واللفظ؛ بينما أفرط حافظ في مراعاة هذا الجانب ووقع إلى حد ما في فخ التكلف. وكبار شعراء

هذه الفترة على النحو التالي:

الشيخ العطار (ت ٦٢٧هـ): هو فريد الدين محمد بن إبراهيم النيسابوري المتخلص بعطار. وهو يمثّلُ إلى جانب سنائي الغزنوي ومولوي الرومي أكبر شعراء العرفان الفرس. ويُعَدُّ العطار حلقة وصل بين سنائي ومولوي. ويعترف مولوي الذي يعتبر آخرهم زمنياً بتتبعه لخطى كل من سنائي والعطار.

ولد هذا الشاعر الكبير في نيسابور في أواسط القرن السادس الهجري، وأمضى ردحاً من شبابه في مشهد بطوس؛ كما طاف العراق والهند وتركستان والشام ومصر ومكة؛ وفي النهاية استقر في نيسابور حيث شرع في جمع أشعار العرفان ونظم الشعر فيه، ولم يلجأ للمديح قط. وقد عاصر العطار كبار عارفي عصره وارتبط بهم، ومنهم الشيخ نجم الدين الكبري والشيخ مجد الدين البغدادي. ويقال إنه لقي مصرعه في سنة ٦٢٧هـ في نيسابور على أيدي المغول.

وللشيخ فريد الدين العطار أعمال عديدة نظماً ونثراً في موضوعات العرفان؛ ويذهب البعض إلى أن عدد مؤلفاته ومنظوماته يصل إلى ١١٤ مؤلفاً، وعدد الأبيات التي نظمها خمسمئة ألف. وهذه الأرقام وإن اتسمت بقدر من المبالغة فإن عدد الأشعار التي نظمها العطار كبير. وقد وصلتنا أسماء ثلاثين منظومة له، بعضها لايزال باقياً.

وأشهر مؤلفات العطار النثرية تذكرة الأولياء في سير العرفاء والمتصوفة. والكتاب عبارة عن نماذج من النثر الفارسي يضم معظمها أقوال العرفاء وأشعارهم وكراماتهم ونادراً ما تشتمل على سيرهم. وأشهر منظومات العطار هي منطق الطير، إلهي نامه، أسرارنامه، مصيبت نامه، پند نامه (كتاب العبر)، مظهر العجايب وموضوعها جميعاً هو العرفان وموضوعاته.

كمال الدين إسماعيل (ت ٦٣٥هـ): هو خلاق المعاني كمال الدين إسماعيل الأصفهاني ابن الشاعر جمال الدين محمد بن عبد الرزاق الأصفهاني (توفي ٥٨٨هـ). وهو يعد كما ذكرنا من قبل آخر كبار شعراء القصيدة بعد شعراء العراق وخراسان وأران أي الخاقاني ومجير البيلقاني وسيد أشرف الغزنوي وظهير الدين فاريابي ووالده جمال الدين وشرف الدين شفروه؛ وكان مداحاً لأواخر سلاطين الخوارزمشاهية كالسلطان علاء الدين والسلطان جلال الدين منكبرني وشقيقه السلطان

غياث الدين، وكان ثلاثتهم قد حكموا أصفهان، وأتابكة فارس السلغوريين كالأتابك سعد بن زنكي وابنه الأتابك أبي بكر وبعض زعماء طبرستان، وقبل هؤلاء وأولئك آل صاعد الذين رعوا الأدب الفارسي ومدحهم كبار شعراء أصفهان كجمال الدين ورفيع الدين اللنباني وشرف الدين شفروه، ويضم ديوانه العديد من مدائح آل صاعد خاصة ركن الدين أبو العلاء صاعد بن مسعود الملقب بصدر أصفهان وابنه ركن الدين مسعود بن صاعد صدر جهان، وظل حتى آخر عمره مداحاً لهذه الأسرة التي تولَّتْ رئاسة الحنفية في أصفهان. كما مدح بعض أفراد الأسرة الخجندية رؤساء الشافعية في أصفهان والذين كانوا في منافسة دينية مع آل صاعد.

كان هناك نزاع وخصومة بين الحنفية والشافعية في أصفهان بزعامة الأسرتين الصاعدية والخجندية. ومع أن أصفهان ظلت بمنأى عن الاجتياح المغولي حتى سنة ٦٣٣هـ، فقد دُمِّرَتْ تدريجياً نتيجة للخصومة بين هاتين الأسرتين. وفي سنة ٦١٩هـ، حين جاء السلطان ركن الدين الغورسانجي ابن السلطان محمد خوارزمشاه من كرمان إلى أصفهان لمساندة صدر الدين الخجندي استولى على حي جوباره مقر إقامة القاضي ركن الدين مسعود الصاعدي وقتل عدداً من الناس ولجأ القاضي ركن الدين إلى الأتابك سعد بن زنكي في فارس.(١٦) وكان كمال الدين إسماعيل في أصفهان طوال هذه الأحداث. وفي سنة ٦٢٥هـ، بعد هزيمة السلطان جلال الدين على أيدي قوات المغول قرب أصفهان وفراره إلى خوزستان ثم عودته إلى أصفهان في عيد الفطر في السنة نفسها، نظم كمال الدين قصيدة لتهنئته بالعودة. وحينئذ تولَّى ممدوحه الخاص ركن الدين مسعود رئاسة أصفهان كلها.

وفي سنة ٦٣٣هـ أي في عهد أقطاي قاآن، تجدد النزاع بين الحنفية والشافعية في أصفهان، وفي هذه المرة تحالف الشافعية مع المغول الذين لم يكونوا قد فتحوا أصفهان بعد وتقرر فتح بوابات المدينة أمامهم في مقابل إقامة مذبحة للحنفية. وهكذا دخل المغول المدينة نتيجة لخيانة بعض من أهلها وأعملوا القتل في الشافعية والحنفية على السواء وسويت المدينة بالأرض بعد أن ظلت بعيداً عن اجتياح هؤلاء السفاكين. يقول كمال الدين في ذلك:

لم يعـد هناك من يبكي على وطنه يبكي على ما آل إليه حال الناس

بالأمس يبكي مـئة على مـيت واحـد | واليـوم مـا من أحـد يبكي على مـئة

وبعد مذبحة أصفهان في سنة ٦٣٣هـ، انزوى كمال الدين إسماعيل بإحدى الخانقاوات وظل بها حتى سنة ٦٣٥هـ حيث قتل على أيدي المغول.

أثير الدين الأوماني (ت ٦٦٥هـ): هو أثير الدين عبد الله الأوماني، من أهالي قرية أومان من أعمال همدان. ويقال إنه كان من تلاميذ خواجه نصير الدين الطوسي. وقد عاصر كمال الدين إسماعيل. وهو مداح الأتابك مظفر الدين أوزبك وسليمان شاه بن پرچم الإيوائي زعيم إحدى عشائر الأكراد وسبق الحديث عنه ضمن حديثنا عن غزو بغداد وتاريخ أتابكة لرستان، وتوفي أثير في سنة ٦٦٥هـ.

سيف أسفرنك (٥٨١هـ-٦٦٦هـ): هو سيف الدين الأعرج، وهو أصلاً من أهالي أسفره أو إسفرنك وهي منطقة جبلية على مسافة تسعة فراسخ من مرغينان. وقد أمضى شبابه في مديح السلطان محمد خوارزمشاه وحاشيته ومنهم وزيره نظام الملك محمد بن صالح. وبعد زوال دولة الخوارزمشاهية وخضوع ما وراء النهر لحكم جغتاي وأمراء المغول، بدأ في مديح الأمير عميد قطب الدين حبش الذي تولّى إدارة ما وراء النهر من قبل جغتاي وخلفائه. ومعظم أشعاره الباقية في مديح أشراف ما وراء النهر. وهو يفاخر بمديحه لآل علي وبني هاشم. وكان سيف أسفرنك من فحول شعراء القصيدة وكان يتبع أسلوب الخاقاني وعارض عدداً من قصائده وغزليات ظهيرالدين الفاريابي.

مولوي الرومي (٦٠٤هـ-٦٧٢هـ): هو مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي ابن بهاء الدين محمد بن حسين الخطيبي البكري وهو من الأسرة البكرية أي نسل أبي بكر الصديق من ناحية الأب، وحفيد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه من ناحية الأم؛ لذا فغالباً ما يشار إليه ببهاء الدين ولد.

كانت العلاقة بين السلطان محمد خوارزمشاه والعارفين والمتصوفة سيئة كما سبقت الإشارة، وكان حذراً تجاه أتباعهم وتعاليمهم. لذا فقد جافى بهاء الدين الذي كان من كبار مشايخ عصره. فغادر بهاء الدين خراسان ومعه ابنه جلال الدين الذي كان في الخامسة من عمره وذهب إلى مكة

عن طريق بغداد، ثم أقام بعد ذلك في الجزيرة. وبعد إقامة دامت تسع سنوات في ملاطية وغيرها، لبّى دعوة من السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي واستقر ببلاد الروم إلى أن توفي في سنة ٦٢٨هـ في قونية عاصمة سلاجقة الروم.

وبعد وفاته، التحق ابنه جلال الدين محمد بخدمة السيد برهان الدين الترمذي وهو من تلاميذ والده وكان قد جاء إلى قونية في سنة ٦٢٩هـ لتحصيل التعاليم العرفانية. وظل من سنة ٦٤٢هـ إلى ٦٤٥هـ، ملازماً للعارف شمس الدين التبريزي حتى توفي الأخير. وقد انجذب إليه حتى إنه أهدى ديوان غزلياته إلى اسمه وتخلص في غزله باسم شمس.

وأصبح لجلال الدين محمد الذي اشتهر فيما بعد بمولوي أو الملا الرومي كثير من المريدين في أواخر عمره. وقد تجمع مريدوه الذين عرفوا بدراويش المولوية في خانقاه شيخهم بقونية، وذاع صيت مولوي في كل أنحاء بلاد الروم وصار محط أنظار الجميع لدرجة أن معين الدين پروانه الحاكم العام لبلاد الروم أصبح من المخلصين له. وظل مولوي على هذا الحال إلى أن توفي في قونية في الخامس من جمادى الأخرى ٦٧٢هـ ودفن فيها وأصبح ضريحه مزاراً لدراويش المولوية.

كان جلال الدين محمد مولوي الرومي ولا شك أكبر شعراء العرفان في إيران، ويُعَدُّ كتابه المثنوي[١٧] الذي أطلق عليه البعض صيقل الأرواح من الأعمال التي لا نظير لها. وقد نظمه في ستة دفاتر. وهو مجموعة من الأفكار العرفانية والأخلاقية وتفسير لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكايات والأمثال. وقد نظمه بتشجيع من أحد تلاميذه المقربين وهو حسن بن أخي ترك الملقب بحسام الدين چلبي (توفي ٦٨٣هـ)؛ إذ كان حسام الدين يرى ميل مريدي مولانا لمطالعة المنظومات العرفانية لسنائي والشيخ العطار. فطلب من مولانا نظم منظومة على غرارها. فنظم مولوي المثنوي في ستة دفاتر على وزن منطق الطير للعطار و الهي نامه لسنائي دوّنها حسام الدين.

شرع مولوي في نظم الدفتر الأول من المثنوي قبل سنة ٦٦٢هـ بمدة طويلة. ولكنه ما أن أتمه حتى توقف عن مواصلة هذا العمل لمدة سنتين على أثر وفاة زوجة حسام الدين في سنة ٦٦٢هـ. وفي سنة ٦٦٤هـ، استأنف العمل فيه حتى فرغ منه تماماً. ويعد مثنوي مولوي الرفيق الأول للعارفين المتحدثين بالفارسية، وقد طبع عدة مرات وترجم إلى العديد من اللغات وصدرت عليه شروح متعددة.

ولمولوي بالإضافة إلى المثنوي ديوان غزليات كبير يعرف باسم ديوان شمس التبريزي، ذلك أن مولوي تخلص باسم شمس تكريماً لشيخه وأستاذه. ولمولوي ابن واحد يدعى بهاء الدين أحمد ويعرف بسلطان ولد (٦٢٣هـ-٧١٢هـ)، وتولّى مشيخة الطريقة المولوية بعد أبيه بعشر سنوات وظل فيها حتى توفي. وهو أيضاً من الشعراء والعارفين وله مؤلف بعنوان فيه ما فيه ومنظومة بعنوان رباب نامه تضم ١٥٦ قصيدة باللغة التركية تعد من أقدم نماذج الشعر التركي الحديث.

پور بهاء جامي (النصف الثاني من القرن السابع الهجري): پور بهاء جامي من شعراء خراسان المعروفين حيث تولت أسرة أبيه قضاء ولاية جام؛ وكان هو نفسه مداح خواجه وجيه الدين زنكي ابن خواجه طاهر الفريومدي مستوفي خراسان. وعندما كان أرغون يتولى حكم خراسان، ذهب پور بهاء مع وجيه الدين إلى تبريز حيث التقى بهمام الدين التبريزي والتحق بخدمة صاحب الديوان شمس الدين الجويني وأصبح من مداحيه. وقد توفي بعد سنة ٦٩٩هـ.

قانعي الطوسي (توفي بعد ٦٧٢هـ): هو ملك الشعراء بهاء الدين أحمد بن محمود قانعي الطوسي، وهو ممن فروا أمام جحافل التتار في سنة ٦١٧هـ من خراسان عن طريق البحر وذهب إلى المدينة ومكة، ثم إلى بغداد ومنها إلى بلاد الروم التي كانت في ذلك العهد ملاذاً لأهل الأدب الفارين كغرب الهند. واستقر في كنف السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي ومدحه هو واثنين من خلفائه وهما غياث الدين كيخسرو (٦٣٤هـ-٦٤٢هـ) وعز الدين كيكاوس (٦٤٢هـ-٦٧٨هـ) وظل مداحاً لهذه الأسرة زهاء الأربعين سنة.

انشغل قانعي مدة أربعين عاماً في نظم وقائع حكم سلاجقة الروم ونظم كتاباً بعنوان سلجونامه في ثلاثين مجلداً وثلاثمئة ألف بيت. كما نظم كتاب كليلة ودمنة وعاش في قونية حتى سنة ٦٧٢هـ، وكان ممن نظموا المراثي في مولوي الرومي بعد وفاته.

إمامي الهروي (ت ٦٨٦هـ): هو رضي الدين عبد الله بن محمد إمامي الهروي، من علماء هرات وشعرائها ومن مداحي ملوك آل كرت وكرمان ووزرائها. عاش لفترة في أصفهان، واشتهر في البلاغة العربية وفنون الأدب، مما حدى ببعض معاصريه إلى القول بتفوقه في الشعر حتى على سعدي. ولإمامي ديوان شعر وبعض المؤلفات العربية منها شرحه بالعربية لبائية الشاعر العربي ذي

الرمة. وقد توفي إمامي الهروي في ١٧ محرم ٦٨٦هـ في لنجان بأصفهان.

مجد همكَر (ت ٦٨٦هـ): هو خواجه مجد الدين مجد همكَر، من أبناء أعيان يزد ويدعى هو نفسه أنه من نسل الساسانيين ويباهي في أشعاره بأصله ونسبه. وقد عاش في كنف الأتابكة السلغوريين وبهاء الدين محمد حاكم أصفهان وابن خواجه شمس الدين محمد صاحب الديوان، وقضى صدر شبابه لدى ممدوح سعدي الشيرازي الأتابك سعد بن أبي بكر بن سعد بن زنكي؛ وقد عمل بخدمته على الأقل منذ سنة ٦٤٧هـ، ويستدل من سيرته أنه تولّى الصدارة لفترة. ومجد همكَر من معاصري إمامي الهروي وسعدي الشيرازي، وله مكانة مرموقة في عالم القصيدة.

بدر الجاجُرمي (ت ٦٨٦هـ): هو بدر الدين الجاجُرمي،[١٨] من شعراء عهد خواجه بهاء الدين محمد الجويني وأبيه شمس الدين محمد صاحب الديوان. ويقال: إنه كان من تلاميذ مجد همكَر، وعاش معه ومع إمامي الهروي في أصفهان. وكان محمد بن بدر بن بدر الجاجرمي شاعراً أيضاً وجمع مجموعة من أشعار قرابة المئتين من مشاهير شعراء الفارسية وأتم هذا العمل في سنة ٧٤١هـ بعنوان مونس الاحرار. ولهذا الكتاب أهمية خاصة حيث يضم أسماء عدد من مشاهير شعراء الفارسية وأشعارهم.

فخر الدين العراقي (ت ٦٨٨هـ): هو فخر الدين إبراهيم بن شهريار الهمداني العراقي، من العارفين والشعراء المرموقين، رحل عن همدان في سن السابعة عشرة بصحبة عدد من الدراويش إلى الهند، وفي مولتان انجذب إلى الشيخ بهاء الدين زكريا وظل ملازماً له قرابة اثنين وعشرين عاماً وأخذ عنه خرقة الإرشاد وتزوج ابنته وأصبح خليفته، ولكن نظراً لخلافه مع سائر الصوفية، هاجر العراقي من الهند إلى مكة والمدينة ثم إلى بلاد الروم حيث حضر دروس العارف الكبير الشيخ صدر الدين القونيوي وتلا عليه كتاب فصوص الحكم لمحيي الدين ابن عربي، وذاع صيته تدريجياً حتى أصبح معين الدين حاكم بلاد الروم من مريديه وأنشأ للعراقي خانقاه بمدينة توقات. وبعد مقتل معين الدين، رحل العراقي عن بلاد الروم وطاف بالشام ومصر إلى أن توفي في سنة ٦٨٨هـ.

تتسم أشعار العراقي العرفانية بالرقة والذوق والسلاسة. وله إلى جانب غزلياته منظومة على وزن حديقة الحقيقة لسنائي بعنوان عشاق نامه نظمها باسم خواجه شمس الدين محمد صاحب

الديوان. وتقوم شهرة العراقي في المقام الأول على كتابه العرفاني الصغير الذي وضعه بعد سماعه لدروس صدر الدين القونيوي ونشره بعد عرضه على أستاذه وهو بعنوان لُمَعات، وقد زادت شهرة هذا الكتاب من خلال الشرح الذي كتبه مولانا عبدالرحمن الجامي له بعنوان أشعة اللمعات.

سعدي (ت ٦٩٤هـ): هو بلا خلاف أستاذ كل شعراء هذه الحقبة، بل أفصح شعراء إيران قاطبة ومحيي الأسلوب السلس في النظم والنثر في العصر المغولي. وهو أبو عبد الله مشرف بن مصلح الشيرازي المتخلص بسعدي. وقد ولد في العقد الأول أو الثاني من القرن السابع الهجري في شيراز. وقد درس بالمدرسة النظامية قبل اجتياح المغول لبغداد وتتلمذ في العلم والأدب على علماء دار الخلافة وأعلامها، وكان من أساتذته جمال الدين عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزي حفيد المؤرخ والواعظ والعالم الشهير جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي[١٩] (٥١٠هـ-٥٩٧هـ)، وأدرك بعضاً من كبار رجال العلم والأدب ومنهم الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي (٥٤٠هـ-٦٣٢هـ). وقد انبهر منذ شبابه بسيرة الدراويش وأخلاقهم وأبدى ميلاً للعرفان نتيجة لتأثره بهؤلاء الشيوخ.

وبعد عودته إلى شيراز، انخرط في سلك خواص ولي العهد سعد ابن الأتابك مظفر الدين أبي بكر بن سعد زنكي واتخذ من اسمه تخلصاً له. ومع أن سعد هذا لم يتول الأتابكية رسمياً إلا لمدة اثني عشر يوماً بعد وفاة أبيه في سنة ٦٥٨هـ، حيث وافته المنية بقم قبل أن يصل إلى شيراز، فقد أمسك بزمام الأمور في عهد أتابكية أبيه (٢٣هـ-٦٥٨هـ). وكان سعد عندما تولى والده الأتابكية في الثانية والثلاثين من عمره، وكان كأبيه محباً لأهل العلم والأدب، ومدحه شعراء آخرون غير سعدي في حياة أبيه ومنهم مجد همكَر.

نادراً ما لجأ سعدي إلى المديح، بل إن نهجه العرفاني لم يكن يتفق وهذا اللون من الشعر؛ ومع ذلك فقد خلَّدَ في قصائده أسماء أسرة السلغوريين وخواجه شمس الدين صاحب الديوان وأخيه علاء الدين عطا ملك الجويني أولياء نعمته. بل إنه أهدى متن عمليه الخالدين كَلستان و بوستان لاسم أبي بكر بن سعد وديباجة كَلستان لاسم سعد بن أبي بكر بن سعد. ويذهب البعض إلى أن سعدي عاصر سعد بن زنكي واتخذ تخلصه من اسمه، وهذا ليس صحيحاً، فقد كان سعدي في

عهد أتابكية سعد بن زنكي لايزال طفلاً ولا نجد في كلياته أية إشارة إلى سعد بن زنكي أو إلى عهده.

وليست هناك معلومات موثوقة عن حياة سعدي، وكل ما نعرفه هو أن هذا الأستاذ الجليل قضى عمره في السياحة والتجوال في أغلب بلاد المسلمين. وربما كانت فترة سياحته قد تلت فترة تعلمه مباشرة، أي قبل ٦٥٥هـ، وعاش سنوات أواخر عمره في الخانقاه التي امتلكها في شيراز حيث اشتغل بالوعظ وإطعام الفقراء. وتوفي في سنة ٦٩٤هـ في سن الثمانين، ودفن في الزاوية نفسها التي تقع على ضفاف نهر ركن آباد على مسافة نصف فرسخ من شيراز، وأصبح قبره مزاراً للعارفين.

تقوم شهرة سعدي على قصائده الفارسية والعربية التي تتخذ من الوعظ والنصح والحث على الزهد والقناعة والاعتبار مضموناً لمعظمها، وكذلك على مدحه لولاة فارس والأتابك أبي بكر وابنه سعد وخواجه شمس الدين صاحب الديوان وأخيه عطا ملك الجويني. وأعمال سعدي على النحو التالي:

١- الغزليات: يعد سعدي بلا خلاف أستاذ الغزل الفارسي. ومع أن العديد ممن سبقوه من الشعراء كشهيد وفرخي ومعزي وأنوري وظهير الفاريابي نظموا غزليات رقيقة، فإن سعدي هو الذي صب هذا النوع من الكلام في أدق قوالبه وألطف صوره؛ فكلامه في الغزل هو أكمل نموذج لجمال هذا النوع الأدبي. فقد أبدى سعدي مهارة في الغزل بلغت حد الكمال، واتبع من جاءوا بعده من الشعراء خطاه وحاكوا أسلوبه.

ومعظم غزليات سعدي تدور حول الحب والشباب وتفاصيل عالم الوجد ورقة الطبع. ومع ذلك فإن ديوان غزلياته لا يخلو من نماذج الغزليات الصوفية؛ وقد حاكى أكبر شعراء العرفان المتغزلين وهو حافظ الشيرازي أغلب غزليات سعدي وبعض قصائده التي تدور حول هذا المضمون، واقتبس معظم مضامينها بل ألفاظها بشئ من التصرف.

٢- بوستان أو سعدي نامه: نظمه الشيخ سعدي في بحر المتقارب في عشرة أبواب باسم الأتابك سعد بن زنكي في سنة ٦٥٥هـ. وهذه المنظومة الصغيرة عبارة عن بستان ملئ بالأزهار والثمار من وعظ ونصح وسياسة وحياة وحكايات، وتعد من أعظم ما كُتِبَ بالفارسية ونادراً ما نجد

في الفارسية منظومة في هذا البحر بهذه الرصانة والإحكام والسلاسة. ومن أبياتها ما أضحى بمثابة الأمثال على لسان الناس وقليلاً ما نجد من الفرس من لا يحفظ بعضاً منها ويستشهد بها في كتاباته.

٣- كَلستان: دوَّنَ سعدي هذا الكتاب في سنة ٦٥٦هـ باسم الأتابك أبي بكر وديباجته باسم سعد بن أبي بكر. ويقع في ثمانية أبواب مصنفة؛ مجموعة من الحكايات المنثورة الممتزجة بالأشعار. وقد دوَّن سعدي معظم حكايات هذا الكتاب من باب استعراض القدرات الإنشائية إلى جانب النصح والعبرة والموعظة في صورة مقامات صغيرة.

مكانة سعدي: على الرغم من أن اسم سعدي على كل لسان في كل زمان ويُسلِّمُ أغلب أساتذة الكلام جدلاً بنبوغ الشيخ، فإن قليلاً من الناس من يقدِّرُ مكانة سعدي في تاريخ الأدب الفارسي ومدى تأثير أسلوبه وتراكيبه اللغوية على أسلوب الحديث الجاري على لسان الناس في إيران. ومع أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق هذا الكتاب وينبغي تناوله بالبحث ضمن تاريخ الأدب الفارسي، فلابد لنا أن نتناول هذه النقطة بشئ من الإيجاز في هذا المقام.

بمطالعة أشعاره وكتاباته النثرية ومقارنة أسلوبه بأسلوب شعراء العصر المغولي وكتّابه، يتبين أنه نادراً ما وقع تحت تأثير خارجي في اختياره للألفاظ وتركيبه للعبارات وذلك على الرغم من دراساته ومطالعاته المتعددة. فكان ميزان الفصاحة هو الذوق السليم والفطرة الخالصة التي وهبها الله له. وقد أدرك من جولاته وسياحته وعشرته للناس وتعرفه على مشاربهم وأسلوبهم في الحوار أن التصنع في الكلام واختيار المهجور والغريب من الألفاظ يجعل من الفهم وهو المقصود من البيان أمراً عسيراً. ولما كان الإعراض عن التكلف يستلزم قدرة خاصة على التصرف في الألفاظ، ولا قبل لكثير من الناس بالتحرر من هذا القيد، فقد أبدى سعدي قدرة فائقة على ذلك فلم يتبع الصنعة والتكلف في نظمه ونثره. وأدَّتْ رعايته للمضمون والمعنى في بعض المواضع إلى التضحية باللفظ.

وفي النثر أيضاً دفعه ذوقه في اختيار الألفاظ وتركيب العبارات إلى تجنب الألفاظ المهجورة والصور البعيدة عن الذهن والكنايات المبتذلة وإلى تقديم جانب السهولة والرصانة والفصاحة على أي اعتبار آخر. لذا فإن كَلستان سعدي يعد أرقى نماذج الفصاحة والبلاغة الفارسية. ومن مميزات

سعدي سواء في النظم أو في النثر استقلاليته في ابتكار المضامين واستحداث التراكيب اللفظية وابتداع الأساليب. ونادراً ما اتبع الشيخ طريق المحاكاة في هذا السبيل ونادراً ما تأثر بمن سبقه من الشعراء والأدباء أو عارضهم؛ بل ابتكر في النظم والنثر أسلوباً خاصاً تأثر به كل من عاصروه وجاؤوا بعده من شعراء وكتّاب، وكثيراً منهم من عارض غزلياته وبوستانه وكَلستانه. وقد أدّى انتشار غزليات سعدي وكَلستانه كانتشار شاهنامة الفردوسي ورباعيات الخيام وخمسة نظامي إلى قيام نهضة جديدة في الأدب الفارسي. وقد بدأ ذلك منذ أواخر حياة الشيخ سعدي؛ فقد بادر همام الدين التبريزي والسيد جمال الدين الكاشي والأمير خسرو الدهلوي وخواجو باتباع أسلوبه، وبعد فترة وجيزة قام مجد خوافي مؤلف روضه خلد (ألفه في ٧٣٣هـ) ومعين الدين الجويني مؤلف نكَارستان (ألفه في ٧٣٥هـ) بمحاكاة كَلستانه.

وقد تأثر كافة المتحدثين بالفارسية من عامة الناس إلى نخبة الأدباء بنظم سعدي ونثره ويحفظون بعضاً منهما. ولم يستطع أي ممن جاءوا بعده الخلاص من التأثر بأسلوبه وابتكار أسلوب جديد؛ فأسلوب الشيخ عندهم هو أرقى أساليب الفارسية نظماً ونثراً. وللإنصاف فإن ميرزا أبا القاسم قائم مقام تمكّن من محاكاة أسلوب الشيخ في نثره ولم يبلغ غيره ما بلغه في هذا الصدد.

وتكمن مكانة سعدي في اللغة الفارسية في أن أسلوبه وضع أساليب الشعراء والأدباء الذين سبقوه والذين لحقوا به على السواء موضع الفحص؛ فقد استولى أسلوبه على أذهان المتحدثين بهذه اللغة حتى لُقِّبَ بأفصح المتكلمين.

تُعَدُّ لغة طهران بالنسبة لسائر المتحدثين بالفارسية نموذجاً لصحيح الكلام دون سائر مدن إيران. لذا فإن أحداً لا يتخذ من لهجات المدن الأخرى كلهجة شيراز أو أصفهان أو مشهد مناطاً للاعتبار. ولغة الكلام المعاصرة على لسان أهل طهران كما نعلم ليست لهجة خاصة؛ بل هي اللغة المكتوبة التي أجراها كتّاب الفارسية منذ العصر الصفوي فصاعداً في طهران واتسع نطاقها في العصر القاجاري نتيجة لتأثير كبار كتّاب عهد فتح علي شاه. وكان أهالي طهران قبل ذلك يتحدثون لهجة پهلوية خاصة لاتزال آثارها مشهودة في بعض القرى النائية كما في شميران مثلاً أو دولاب أو كن أو سولقان.

هذه اللغة المكتوبة التي اتبعها الكتّاب وبصرف النظر عن التعبيرات الأجنبية الناجمة عن ترجمة الكتب الأجنبية ومصطلحات الصحف والألفاظ الدارجة المبتذلة، هي لغة في غاية السلاسة والدقة. ولغة سعدي هي اللغة التي استخدمها المنشؤون. واليوم أيضاً إذا قام أحد أهالي طهران بكتابة كلامه مع رعاية قواعد الفارسية وتجنُّبَ الألفاظ الركيكة، فإن ما يكتبه سيكون هو الفارسية السليمة. وقد تعلم أهالي مدن إيران الأخرى تلك اللغة، وذلك بفضل سعدي حيث رسَّخَتْ لغته أسلوب الإنشاء السليم والشعر السلس في أذهان الناس. ولم تتغير هذه اللغة كثيراً منذ ما بعد سعدي وحتى الآن بغض النظر عن بعض النماذج المتكلفة للأسلوب الهندي في النظم والتي لم يبق منها شئ يذكر. وفي أواخر عهد آل زند، انتبه بعض أصحاب الذوق السليم إلى قبح أسلوب الإنشاء لدى بعض الأدباء من أمثال ميرزا مهديخان نادري وبعض الشعراء من أمثال زلالي وكليم وصائب، فاعرضوا عنه وعادوا إلى أسلوب الشيخ سعدي في النظم والنثر على السواء. فعاد الشعر الفارسي لدى مشتاق الأصفهاني ورفاقه من أمثال هاتف وآذربيكدلي وصباحي الكاشاني إلى أسلوب الشيخ، واتخذ النثر الفارسي النهج نفسه على يد قائم مقام فراهاني، وسيطر النفوذ الأدبي لأفصح المتكلمين سعدي من جديد على الأدب الفارسي والذي كان قد توارى لفترة نتيجة لتدني ذوق بعض الشعراء والأدباء.

همام التبريزي (٥٩٨-٧١٤هـ): هو خواجه همام الدين التبريزي، من مشاهير شعراء آذربيجان ومن ملازمي أسرة الجويني؛ ويقال إنه عاصر خواجه نصير الدين الطوسي والعلامة قطب الدين الشيرازي والشيخ سعدي. وهو يعد أعذب شعراء آذربيجان، خاصة في غزلياته التي اتبع فيها نهج سعدي. وله ديوان غزليات وهي منظومة بعنوان صحبت نامه أهداها لاسم خواجه شرف الدين هارون بن شمس الدين صاحب الديوان الجويني. وتوفي همام في سنة ٧١٤هـ في تبريز في سن يناهز الست عشرة سنة بعد المئة.

الأمير الحسيني (ت ٧١٨هـ): هو الأمير فخر السادات حسين بن عالم الحسيني الهروي، من الشعراء والعارفين وُلِدَ في بلاد الغور وعاش معظم حياته في هرات، وله عدد من المنظومات والرسائل العرفانية بالفارسية وأشهرها مثنوي بعنوان زاد المسافرين، وهي منظومة عرفانية صغيرة في

ثماني مقالات تضم عدة حكايات منظومة على وزن ليلى والمجنون لنظامي، و نزهة الأرواح وهو كتاب منثور في السير والسلوك ويتضمن بعض الحكايات والأشعار.

الشيخ الشبستري (ت ٧٢٠هـ): هو الشيخ سعد الدين محمود بن عبد الكريم، من أهالي شبستر بآذربيجان. وكان من علماء تبريز في عهد أولجايتو وأبي سعيد خان؛ وهو صاحب المنظومة العرفانية الشهيرة كَلشن راز (روضة الأسرار)، وهو عبارة عن أجوبة منظومة ردَّ بها الشيخ الشبستري على خمسة عشر سؤالاً منظوماً وجهها إليه الأمير الحسيني الهروي في سنة ٧١٧هـ. وهو كتاب صغير منظوم بغاية السلاسة ويعد من أشهر المجموعات العرفانية، وكتب العديد من العلماء شروحاً عليه. وللشيخ الشبستري أشعار ومؤلفات أخرى أشهرها حق اليقين و شاهد نامه وسعادة نامه.

نزاري القهستاني (ت ٧٢٠هـ): وهو سعد الدين نزاري القهستاني، من شعراء إسماعيلية قهستان، وعاش معظم حياته منزوياً كناصر خسرو، وكان يقيم في قاين أو بيرجند. وربما كان تخلصه من اسم نزار بن المستنصر الخليفة الفاطمي في مصر والذي اعتبره إسماعيلية إيران إمامهم بعد أبيه. ونزاري من أرق شعراء الفارسية ويقال إنه كان من أصدقاء سعدي. ويرى جامي أن حافظ اتبع أسلوبه في الغزل. ولنزاري بالإضافة إلى ديوان الغزليات منظومة بعنوان دستور نامه.

الأمير خسرو الدهلوي (٦٥١هـ-٧٢٥هـ): هو الأمير ابن الأمير سيف الدين محمود، أشهر شعراء الفارسية في الهند. وكان أبوه لاچين من أتراك تركستان الخطائيين وكان قد رحل من بلخ إلى الهند إبان اجتياح المغول والتحق بخدمة شمس الدين ألتتمش، وعرف بالأمير شمس الدين محمود الشمسي. وولد ابنه خسرو في سنة ٦٥١هـ في دلهي. وبعد وفاة الأمير سيف الدين في سنة ٦٥٨هـ، ترقى خسرو برعاية خاله ودخل في حمى سلاطين دلهي ومدح خمسة منهم وأولهم معز الدين كيقباد (٦٨٦هـ-٦٨٩هـ) وآخرهم السلطان محمد بن تغلق (٧٢٥هـ-٧٣٠هـ). وتوفي في دلهي في سنة جلوس هذا السلطان الأخير نفسها، في ربيع الأول ٧٢٥هـ.

وكان الأمير خسرو الدهلوي من أصدقاء خواجه حسن الدهلوي وضياء الدين البرني المؤرخ،

وكان ثلاثتهم من مريدي العارف المعروف الشيخ نظام الدين محمد البداؤني أي الشيخ نظام الدين أوليا. واشتهر الأمير خسرو بغزارة أشعاره ويقال إن أشعاره بلغت نصف المليون بيت. وقد ترك العديد من الأعمال نظماً ونثراً. ورد على خمسة نظامي بناء على طلب من شيخه نظام الدين أوليا، وفي الغزل كان من أتباع الشيخ سعدي الذي كان يحبه حباً شديداً. وإلى جانب الشعر والعرفان، مهر الأمير خسرو في الموسيقى أيضاً. ومن مؤلفاته النثرية خزائن الفتوح وهو في تاريخ حكم علاء الدين محمد شاه الخلجي (٦٩٥هـ-٧١٥هـ) منذ سنة جلوسه حتى ٧١١هـ؛ ويعرف هذا الكتاب بـ تاريخ علائي أيضاً؛ ويحاكي في إنشائه أسلوب حسن نظامي النيسابوري في كتابه تاج المآثر. لذا فإن كتابه يتسم بالتكلف والاستغلاق. وله أيضاً تاريخ دلهي و قانون استيفا (قانون المحاسبات) وغير ذلك. أما منظوماته الكبرى فعلى النحو التالي:

١- دواوينه الخمسة وتضم غزليات وقصائد ورباعيات وأشعار شبابه وأواسط عمره وشيخوخته رتبّها بنفسه ووضع عنواناً لكل منها.

٢- خمسة الأمير خسرو رداً على خمسة نظامي على النحو التالي: مطلع الأنوار في مقابل مخزن الأسرار؛ شيرين خسرو في مقابل خسرو وشيرين؛ ليلى ومجنون في مقابل ليلى ومجنون؛ آئينه اسكندري (مرآة الاسكندر) في مقابل اسكندر نامه؛ هشت بهِشت (الجنان الثماني) في مقابل هفت پَيكر (الأصنام السبعة).

٣- مفتاح الفتوح وهي منظومة على وزن خسرو وشيرين لنظامي في فتوحات جلال الدين فيروزشاه من سنة جلوسه في ٦٨٩هـ إلى ٦٩٠هـ.

٤- قران السعدين وهي منظومة على وزن مخزن الأسرار في شرح لقاء السلطان معز الدين كيقباد بأخيه السلطان ناصر الدين بغراخان ملك البنغال في سنة ٦٨٨هـ، وعدد من المثنويات الأخرى.

الأمير حسن الدهلوي (ت ٧٢٧هـ): هو الأمير نجم الدين حسن بن علي السنجري الدهلوي، من شعراء العرفان ومن أصدقاء الأمير خسرو الدهلوي وعاش معه خمس سنوات (من ٦٧٨هـ إلى ٦٨٣هـ) في بلاط السلطان محمد ابن السلطان غياث الدين بلبن. وكان كالأمير

خسرو، من مداحي البلاط والسلطان علاء الدين محمد الخلجي، وقضى خمس عشرة سنة (٧٠٧هـ-٧٢٢هـ) في حلقة مريدي الشيخ نظام الدين أوليا، وجمع تعاليم شيخه. وقد توفي في سنة ٧٢٧هـ في دولت آباد العاصمة الجديدة للسلطان محمد بن تغلق. وللأمير حسن قصائد وغزليات ولقّبَهُ البعض بسعدي الهند.

أوحدي المراغي (ت ٧٣٨هـ): هو ركن الدين أوحدي، ولد بمراغة، ونظراً لإقامته الطويلة بأصفهان، فقد عرف أيضاً بالأصفهاني. وكان من مريدي الشيخ أبي حامد أوحد الدين أحمد الكرماني (توفي ٦٣٥هـ) وربما اتخذ تخلصه من لقب هذا العارف الكرماني.

وكان أوحدي الكرماني هذا من شعراء العرفان في النصف الأول من القرن السابع ومن معاصري ابن عربي والشيخ فخر الدين العراقي. عاش لفترة في أربيل وكان والي هذه المدينة من مريديه، ثم ذهب إلى بغداد، واستقر في سنة ٦٣٢هـ بأحد الرباطات الشهيرة بدار الخلافة واشتغل بالوعظ. وتوفي بها في سنة ٦٣٥هـ. ونظم أوحدي الكرماني هذا رباعيات بالفارسية وقد نظم المثنوي المسمى مصباح الأرواح. وسنة وفاته ليست ٦٩٧هـ كما يرى البعض.

أما أوحدي المراغي فقد قضى الجزء الأخير من حياته في آذربيجان، ونظم منظومة بعنوان ده نامه (كتاب العَشَرة) باسم أحد أحفاد خواجه نصير الدين الطوسي، ونظم المثنوي المعروف جام جم في سنة ٧٣٣هـ محاكاة لحديقة سنائي باسم خواجه غياث الدين محمد ابن خواجه رشيد الدين الوزير. ويُعَدُّ جام جم من أشهر المنظومات العرفانية. وله إلى جانب هاتين المنظومتين غزليات ورباعيات وقصائد. وتوفي في سنة ٧٣٨هـ بمراغة.

خواجوي الكرماني (٦٧٩هـ-٧٥٣هـ): هو كمال الدين أبو العطا محمود بن علي الكرماني المتخلص بخواجو، وهو أكبر شعراء كرمان. ولد في ٥ شوال ٦٧٩هـ في كرمان، وبدأ حياته بمديح آل مظفر، ثم رحل عن كرمان والتحق بخدمة العارف الكبير علاء الدولة السمناني وأقام في بغداد لفترة ومدح السلطان أبي سعيد بهادر خان وخواجه غياث الدين محمد الرشيدي. ثم عاد في أواخر حياته إلى شيراز واستقر في كنف شاه شيخ أبي إسحاق إينجو. وظل في شيراز إلى أن توفي في سنة ٧٥٣هـ. وقد اختلط في شيراز بكبار الشعراء كحافظ الشيرازي، واتبع أسلوب سعدي في

الغزل وحاكى العديد من غزلياته. ويقترب أسلوبه في الغزل من أسلوب الشيخ؛ لذا فد أطلق عليه البعض «لص ديوان سعدي». وقد عارض حافظ بعضاً من غزليات خواجو واتبع أسلوبه. ولخواجو بالإضافة إلى ديوانه قصائد وغزليات ورباعيات ومقطعات تضم خمسة مثنويات على غرار خمسة نظامي، وهي على النحو التالي:

١- هماي وهمايون: وهي قصة حب همايون لهماي ابنة حاكم الصين، في بحر المتقارب. ونظمها خواجو في بغداد في سنة ٧٣٢هـ، وامتدح في مقدمتها أبا سعيد بهادر خان وغياث الدين.

٢- كمال نامه: وهو مثنوٍ عرفاني على وزن هفت پيكر لنظامي، وقد نظمه باسم شيخ أبي إسحاق إينجو في سنة ٧٤٤هـ.

٣- روضة الأنوار: منظومة عرفانية نظمها في سنة ٧٤٣هـ باسم شمس الدين محمود بن صاين[٢٠] وزير شاه شيخ أبي إسحاق إينجو.

٤- كَل ونوروز: قصة الأمير نوروز ابن ملك خراسان وكَل ابنة ملك الروم على وزن خسرو وشيرين لنظامي. ونظمها خواجو في سنة ٧٤٢هـ باسم تاج الدين العراقي وزير الأمير مبارز الدين المظفري.

٥- كَوهر نامه: نظمها على وزن خسرو وشيرين لنظامي باسم بهاء الدين محمود بن عز الدين يوسف وزير الأمير مبارز الدين، وحفيد خواجه نظام الملك الطوسي.

ابن يمين (ت ٧٦٩هـ): هو الأمير محمود ابن الأمير يمين الدين الطغرائي، من أهالي فريومد عاصمة ولاية جوين. ولد في عهد حكم خدابنده وأبوه هو الأمير يمين الدين الذي ربما كان من أصل تركي؛ وقد استقر في فريومد بعد عودته من تركستان وعاش في خدمة خواجه علاء الدين محمد مستوفي خراسان.

وقضى ابن يمين فترة في مديح بعض أمراء خراسان وهرات وعاش مع السربدارية وملوك آل كرت والطغاتيمورية. وكان رجلاً صالحاً وقانعاً وزاهداً أمضى معظم حياته في نظم المقطعات في المواعظ والحكم والنصح. وقد ضاع ديوان ابن يمين في موقعة زاوة٢١ في ١٣ صفر ٧٤٣هـ ولابن يمين أشعار

في ذلك. وتوفي ابن يمين في ٨ جمادى الأخرى ٧٦٩هـ بقصبة فريومد ودفن بجوار قبر أبيه.

عبيد الزاكاني (ت ٧٧٢): هو خواجه نظام الدين عبيد الله القزويني، من أسرة الزاكانيين التي تنتسب إلى إحدى القبائل العربية وسكنت قزوين منذ عهد بعيد. وقد تولّى بعض أفراد هذه الأسرة مناصب علمية وشغل بعضهم منصب الصدارة والأعمال الديوانية.

ليست لدينا معلومات دقيقة عن حياة عبيد الله الزاكاني الذي تخلص في شعره باسم عبيد. وكل ما نعرفه هو أنه كان أحد كبار علماء عصره، وتولّى الوزارة لفترة. وكان من مواطنيه ومعاصريه حمد الله المستوفي الذي كتب تاريخ كَزيده في سنة ٧٤٣هـ أي قبل وفاة عبيد باثنين وأربعين عاماً. ويقول عن عبيد في خاتمة ذلك الكتاب: «الصاحب المعظم خواجه نظام الدين عبيد الله له أشعار طيبة ورسائل لا مثيل لها».

يعد عبيد الزاكاني أحد كبار شعراء إيران وأدبائها، وكان متفرداً في فنه. وعلى الرغم من معرفته التامة لعلوم عصره على خلاف الكثيرين من معاصريه، فقد اتبع أسلوب سعدي الشيرازي في النظم والنثر، فرعى جانب الفصاحة والسهولة في آن. فكان كَلستان سعدي نموذجه في النثر ومعظم الحكايات التي أوردها عبيد صاغها على نسق حكايات الكَلستان؛ بل إنه استعان في بعض المواضع بعبارات سعدي نفسها وتراكيبه اللغوية. وفي النظم اتبع نهج اثنين من كبار الأساتذة القدامى، وهما أوحد الدين أنوري وسوزني السمرقندي.

اشتهر عبيد الزاكاني في عصره بالظرف وحسن الطبع ورسائله الباقية في هذا الباب لا مثيل لها حقاً كما يصفها حمد الله المستوفي. فقد أبدع عبيد الزاكاني في نظمها بأفصح العبارات. ويستدل من مطالعة أعمال هذا الشاعر أن أخلاق الناس تدنت إلى أدنى الدركات في أواخر عهد الإيلخانات نتيجة لاجتياح التتار وظلم حكامهم وعمالهم ونتيجة للفوضى والمذابح وأعمال النهب؛ وأصبحت الفضائل والمبادئ الأخلاقية المتعارف عليها «ديناً بائداً» حسب تعبير الزاكاني، وحلت محلها الرذائل والصفات التي أسماها الكاتب الفصيح «الدين المختار» محل الفضائل القديمة؛ وساد التظاهر بالتقوى وادعاء التدين وهي صفات انتقدها حافظ الشيرازي في ذلك العصر وكشفها في غزلياته الفريدة. أما العلم والفضل والعدل والجود وغيرها من الفضائل فقد توارت

وكسد سوقها، فلم يلق أمثال عبيد الذي ينتسب إلى أسر أصيلة وله مكانة مرموقة في الأدب والمعرفة ما يستحقونه من احترام.

وتأثر عبيد برؤيته لهذه الأوضاع وصورها من ناحية بلغة هزلية ساخرة، ومن ناحية أخرى قدَّمَ بالهزل والسخرية ما لم يتمكن من تقديمه بلغة الجد ليطلع أرباب العقول على تلك الأسرار.

ومما يؤسف له أن من تلقوا أفكار عبيد وأعماله تركوا الجوهر واكتفوا بظاهر العبارات ووصفوا هذا الرجل العظيم الذي وقف على خصائص عصره وأوضاعه المضطربة بالهجاء والهزال واتهموه بالركاكة على الرغم مما ترك أيضاً من أعمال في مقام الجد.

في عصر عبيد الزاكاني وحافظ الشيرازي اللذين انتقدا أهل الرياء والتزييف كان خواجه عماد الدين الفقيه وشيخ خانقاه كرمان قد درَّب قطته على الركوع والسجود كما يفعل هو في الصلاة؛ وهو ما اعتبره شاه شجاع من كرامات عماد الدين الفقيه فزاد ولاؤه وتقديسه له. ولم يكن مثل هذا الرياء الواضح لكبير فقهاء العصر وسذاجة مليكه ليغيب عن حصافة أدباء لماحين كعبيد الزاكاني وحافظ الشيرازي ليسكتوا عنها. فيقول حافظ في إحدى غزلياته:

غداً حين تتضح الحقيقة ... سيتوارى من زيَّف الأمور خجلاً

أيها الحجل المختال إلى أين تذهب ... لا تغتر إذ صلَّتْ هرة العابد

يا حافظ لا تلُم المجان فقد اغنانا ... الله منذ الأزل عن الزهد والرياء

وضاق عبيد الزاكاني ذرعاً بملاحظة هذه الأوضاع فنظم حكاية موش وكَربه (الفأر والقطة).

قضى عبيد الزاكاني جزءاً من حياته في السياحة والترحال، فذهب إلى بغداد ويقال إنه التقى بسلمان الساوجي، وعاش لفترة في حمى شيخ أبي إسحاق بشيراز، وتوفي في سنة ٧٧١هـ أو ٧٧٢هـ. وتضم كليات عبيد الزاكاني على أشعار ورسائل منثورة، ومدح شاه شيخ أبي إسحاق في بعض قصائده الجادة، ولا تخلو غزلياته أيضاً من الظرف وخفة الروح. ومن أشهر رسائله أخلاق الاشراف في بيان العقائد المنسوخة والعقائد المختارة وفضائل الأخلاق، وألفه في سنة ٧٤٠هـ، و ده فصل (الفصول العشرة) أو تعريفات وهو عبارة عن تعريفات للكلمات والتعبيرات المتداولة في

عصره بلغة هزلية، و رساله دلگشا (الرسالة المرحة) وتضم نوادر وحكايات ساخرة بالعربية والفارسية، و صد پند (مئة نصيحة) وكتبه عبيد في سنة ٧٥٠هـ. ولعبيد الزاكاني منظومة بعنوان عشاق نامه وحكاية قصيرة بعنوان گربه وموش (القط والفار) تداولها أهل الفارسية من عوام وخواص وحاكاها عدد من الشعراء الذين جاءوا بعده.

عماد الفقيه (ت ٧٧٣هـ): هو خواجه عماد الدين الفقيه الكرماني، من فقهاء كرمان وزهادها؛ وكان موضع احترام في كرمان في عهد كل من الأمير مبارز الدين وشاه شجاع، وكان كل منهما يكنّ له قدراً من التقديس والولاء. وكان لعماد الفقيه زاوية في كرمان. وعلى الرغم من تفقهه كان يقرض الشعر. ومعظم أشعاره الباقية في الغزل. وله أيضاً خمسة مثنويات أشهرها منظومة محبت نامه بيدلان (كتاب الحب لمن لا قلوب لهم) ونظمه في سنة ٧٢٢هـ، و مونس الابرار ونظمه في ٧٦٦هـ.

سلمان الساوجي (ت ٧٧٨هـ): هو خواجه جمال الدين سلمان ابن خواجه علاء الدين محمد، من أهالي ساوة. كان أبوه خواجه علاء الدين محمد من محاسبي الديوان؛ وولد جمال الدين سلمان في العقد الأول من القرن الثامن الهجري. وكان سلمان الساوجي في شبابه من مداحي الوزير غياث الدين محمد وظل يمدحه طوال مدة وزارته؛ وبعد تهاوي حكم الإيلخانات وموت أبي سعيد بهادر خان، التحق بخدمة أمراء آل جلاير وأصبح المداح الخاص للأمير شيخ حسن الكبير وزوجته دلشاد خاتون. وأقام في بغداد عاصمة الإيلكانيين. وظل منذ حوالي ٧٤٠هـ وحتى آخر حياته يمدح أمراء الإيلكانيين أي شيخ حسن الكبير وابنه السلطان أويس والسلطان حسين من بعده. وفي عهد أويس، أقام معظم أيامه في تبريز. وفي سنة ٧٧٧هـ حين استولى شاه شجاع على تبريز، مدحه. من ثم فديوان سلمان يتضمن نقاطاً تاريخية عديدة عن تاريخ أوضاع عهد إمارة الإيلكانيين. وفي أواخر حياته اختار العزلة وعاد إلى مسقط رأسه ساوة وتوفي في ١٢ صفر ٧٧٨هـ.

يعد سلمان الساوجي آخر شعراء القصيدة بعد المغول. وفي حين لا يقارن بكبار الشعراء القدامى فإن له مكانة مهمة، واتبع في القصيدة أسلوب كمال الدين إسماعيل الأصفهاني وظهير

الفاريابي وأنوري، وله غزليات تشبه غزليات حافظ تماماً، لذا فقد أدرجت خطأً ضمن ديوان حافظ.

وبالإضافة إلى ديوانه، له قصائد وغزليات ومقطعات تضم مثنويين لم تكتب لهما الشهرة، أحدهما جمشيد وخورشيد على وزن خسرو وشيرين لنظامي وقد أتمه سلمان في عهد السلطان أويس في سنة ٧٦٣هـ، والآخر فراق نامه في وزن المتقارب نظمه سلمان في سنة ٧٧٠ بتكليف من أويس.

عصّار التبريزي (ت ٧٨٤هـ): هو خواجه محمد العصار التبريزي، من مداحي الشيخ أويس الإيلكاني. كما مدح أمراء آخرين وله العديد من قصائد المديح. وفي النهاية مل هذا اللون من الشعر واختار العزلة ونظم في عزلته مثنوٍ في سنة ٧٧٨هـ على وزن خسرو وشيرين لنظامي ويضم العديد من القصائد والنقاط المهمة.

الفنون والعمارة والآثار:

من الآثار الإيجابية للاجتياح المغولي وتأسيس دولة تترية واحدة كما سبقت الإشارة مراراً في الفصول السابقة إيجاد صلات مباشرة بين ممالك شرق آسيا ومناطقها الغربية. وهذا الارتباط وعلى الرغم من تقدم وسائل النقل والطرق الحالية لم يعد اليوم كما كان في عصر المغول؛ وأدى إلى نتائج مهمة على رأسها امتزاج حضارتين قديمتين هما الحضارتان الصينية والفارسية. فحدث اتصال مباشر بين هاتين الأمتين اللتين كانت لكل منهما حضارة زاهرة وقديمة في ظل الدولة المغولية الموحدة، وانتقلت المعارف والعلوم بينهما، وبدأ عهد نفوذ الحضارة الصينية في إيران وغيرها من بلاد الإسلام وفي أوربا على يد المسلمين، ونفوذ الحضارة الفارسية والإسلامية في الصين. فانتشرت اللغة الفارسية في الصين وانتشر الكثير من العادات الفارسية والمعارف الإسلامية بين الصينيين. كما تعرف عدد من أهل الأدب والعلم في إيران والبلاد الإسلامية على التقاليد البوذية واللغتين الصينية والمغولية ومعارفهما. فاستفاد نصير الدين الطوسي من معارف المنجمين الصينيين في إنشائه لزيج مراغه، كما أخذ المؤرخون الفرس من أمثال رشيد الدين فضل الله وفخر البناكتي وحمد الله

المستوفي عن العلماء الصينيين والمغول والأويغور المقيمين في البلاط الإيلخاني كثيراً من الأخبار والمعلومات القيمة. واستفادت جماعة منهم من الكتب العلمية والتاريخية الصينية مباشرة. وكان نفوذ الصينيين والمغول أوضح ما يكون في مجال التصوير وبعض الفنون الأخرى التي ازدهرت في عصر الاحتلال المغولي في ممالك غرب آسيا.

التصوير: رأينا في بداية تناولنا لتاريخ المغول أن الأتراك الأويغور الذين استولوا في القرن الأول الهجري على الأراضي التي تقطنها قبائل التخار والسغد الآرية حكموا الجزء الأعظم من الختن وكاشغر ويارقند أي تركستان الشرقية حالياً حتى بداية فتوحات جنكيز وورثوا حضارة التخاريين والسغد القديمة وأخذوا عنهم الديانة والخط واختاروا سكنى المدن والتحضر قبل سائر قبائل الترك والمغول.

كانت المانوية أو ديانة ماني نبي الفرس في تلك الحقبة هي السائدة في تركستان الشرقية. وكان أتباع تلك الديانة والذين عرفوا عند المسلمين باسم الزنادقة واشتهروا بالمرح وحسن السلوك والذوق يولون اهتماماً خاصاً للجانب الجمالي وبالتالي للتصوير. وكان للتصوير في المانوية مكانة رفيعة ويعد من مستلزمات الديانة. وكانت نشأة التصوير المانوي هي نشأة التصوير الفارسي نفسه في العهد الساساني؛ وقد عمد المانوية إلى نشره بين الأتراك الأويغور، وساد الأسلوب الفارسي في التصوير بينهم لسنوات في تركستان الشرقية، ثم طرأت بعض التغييرات بمرور الزمن وتغير ذوق الفنانين الجدد من الجنس التركي.

وبعد اجتياح المغول لبلاد الأويغور وذوبان قبائلهم في قبائل التتار، انتشر التصوير المذكور في الصين على أيدي المغول فتأثر هذا الفن بذوق فناني تلك البلاد المتحضرة التي عرفت هذا الفن منذ القدم. وهكذا اتخذ التصوير الفارسي المانوي أسلوباً جديداً بعد انتقاله من الأويغور والمغول إلى الصين، وكان هو طراز التصوير نفسه الذي عاد إلى إيران في عهد الإيلخانات على أيدي الفنانين الصينيين واشتهر باسم «الطراز الصيني».

كان الفرس كما يتضح من بعض الآثار الباقية من العهد الساساني (النقوش البارزة والأواني المنقورة والنقوش الجدارية) يهتمون برسم صور الأشياء وجسم الإنسان اهتماماً بالغاً وكانت جماعة

منهم وهم المانوية يعتبرون التصوير من اللوازم الدينية كما رأينا. وقد حرَّمَ الإسلام التصوير وتجسيم جسد الإنسان ونحت تماثيل للبشر والكائنات الحية كوسيلة لمنع عبادة الأوثان؛ وكان هذا التحريم بمثابة ضربة قاصمة لفن التصوير عند الفرس المسلمين. ولكن لما كان شغف الناس بهذا النوع من الأعمال والفنون طاغياً فإنهم لم يستطيعوا وأد هذا الفن مرة واحدة؛ بل غيَّروا في مضمونه واتجهوا بشغفهم إلى تجويد الخط العربي وابتكار أشكال جديدة منه. وشرعت جماعة منهم في ابتكار صور دينية للكتب التي تتناول المعراج وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة وغيرها من الكتب الدينية. وعلى الرغم من كل المعوقات، ظلت طائفة من الفرس تتشبث بحكايات الأسلاف وأساطيرهم القديمة فاتخذت من خداي نامه وكليلة ودمنة وهزار افسان (الأصل الفارسي لألف ليلة وليلة) وأمثالها مؤنساً لهم، وفي نسخها وترجمتها أضافوا إليها الصور التي كان الفرس يضيفونها إليها في العصر الساساني خاصة خداي نامه الذي يعد الأصل البهلوي للشاهنامة وغيره من الكتب الخاصة بتاريخ الفرس والتي كانت تزدان بالنقوش والصور. ويتضح من بعض الإشارات الصريحة أن بعض الشاهنامات الأخرى التي نظمها الفرس في القرن الرابع الهجري وقبل نظم شاهنامة الفردوسي كانت مزودة بالنقوش والصور.

وفي عهد الخلافة العباسية حيث خفَّتْ حدة التشدد الديني واتجاه الخلفاء إلى محاكاة ملوك الفرس القدامى في إضفاء مظاهر الأبهة على بلاطهم، عاد التصوير إلى الازدهار وحقَّقَ الخط والتصوير والنقش على أغلفة الكتب رواجاً كبيراً؛ وإلى هذا العصر تعود أول الآثار المهمة الباقية من التصوير الإسلامي. وكان معظم المصورين في ذلك العهد من النصارى والفرس ويتجلى فيها الطراز الفارسي.

وبمقارنة الصور الباقية من العهد الساساني والنقوش المانوية لتركستان الشرقية والتي نجد نماذج منها حالياً بمتحف برلين للفنون بنقوش وتذهيب كتب عصر ما بعد الإسلام، يتبين أن الفنانين الفرس منذ العصر الساساني وحتى الحقبة التيمورية والصفوية التي بلغ هذا الفن فيها ذروته في إيران كانوا يهتمون بإبراز الجوانب المعنوية والجمالية، وأنهم على الرغم من مرور الزمن والتحولات الكبرى التي شهدتها تلك الحقبة كغيرها من الحقب لم يفقدوا همزة الوصل التي ربطت بينهم

وسعوا بشتى السبل إلى التعبير عن خواطرهم عن طريق وصل الخطوط ومزج الألوان على صفحات الكتب وعلى الجدران ليبرزوا الطابع الفارسي الخاص الذي ميز روح هذه الأمة في كل عصر وزمان.

وفي عصر الاحتلال المغولي، خاصة بعد حملة هولاكو وتأسيس أسرة الإيلخانات واتجاه الإيلخانات المسلمين إلى تشييد العمائر، وقعت الفنون الفارسية خاصة التصوير تحت التأثير المباشر للفنون الصينية. ويرجع ذلك في المقام الأول إلى جلب الفنانين الصينيين من الصين إلى إيران بأمر من الإيلخانات، واهتمامهم بإحياء التقاليد المغولية التي ظلوا يحترمونها طبقاً للياسا الجنكيزية وعلى الرغم من اعتناق الإسلام والاستقرار في إيران، وحافظوا على ما كان يتصل بالمغول وتاريخهم وعادات أسلافهم كما بذلوا كل جهدهم للحفاظ على تاريخهم وشجعوا على تاليف الكتب في هذا الموضوع.

ونتيجة لذلك بالإضافة إلى تردد الفرس على الصين، انتشر التصوير الصيني في إيران تدريجياً؛ وكان مما ساعد على رواج هذا الطراز وعلى الرغم من قوة الطراز الإسلامي الخاص في العصرين العباسي والسلجوقي حتى في ما وراء النهر، صدور نسخ من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين بتكليف من أولجايتو؛ وكما استعان رشيد الدين ببعض العلماء الصينيين والمغول والأويغور في تاليف بعض أبوابه، فقد استعان في تزويده بالصور بفنانين من هذه الشعوب. وأصبحت النسخ التي كان لها جانب رسمي وتم إعدادها بمنتهى الدقة والجمال نموذجاً يحتذيه الناس بعد وصولها إلى أيديهم. وتعد بعض نسخ جامع التواريخ المحفوظة في مكتبات أوربا والتي نسخت في عصر مؤلفه أو بعده بقليل أول نماذج التصوير في العصر المغولي والتي امتزج فيها الطراز الإسلامي قبل عصر الإيلخانات بالطراز الصيني وتمثل بداية نشأة طراز خاص جديد.

ونتيجة لنفوذ المصورين الصينيين واستخدام القلم والحبر الشيني وأسلوب مزج الألوان وتركيب الخطوط ورسم صور بعض الحيوانات مما لم يكن له سابقة عند المسلمين كالتنين وغيره من الحيوانات الخرافية الأخرى، دخلت عناصر جديدة إلى التصوير الفارسي سادت في رسم صور المغول بعيونهم اللوزية وعوارضهم البارزة. وبلغ هذا الامتزاج بين الطرازين الصيني والفارسي أوجه في العصر التيموري.

الفنون الأخرى:

نظراً لعدم اهتمام الفرس بجمع الآثار الفنية ومصنوعات العصور القديمة وعدم وجود بحوث علمية أثرية عنها في أوربا وأمريكا، فليست هناك معلومات علمية كافية لفهم تاريخ الفنون الفارسية القديمة. ويتضح من بعض النماذج التي تم جمعها تدريجياً وحفظت بمتاحف أوربا وأمريكا أو ضمن مجموعات الأفراد أن هناك أفرعاً أخرى من الفنون ازدهرت في العصر المغولي، وأهمها فن الخزف وصناعة الصحون الخزفية والحفر على الأبواب والخشب والمعادن ونسج الأقمشة ونسج خيوط الذهب وصناعة الأسلحة وغير ذلك.

وظل نسج الأقمشة النفيسة والذي راج في إيران قبل اجتياح المغول، على الدرجة نفسها من الرقي في عصر الإيلخانات، بل تطور عن ذي قبل أيضاً؛ فقد كان على الأمراء والعمال والوزراء أن يرسلوا قدراً من السلع كل سنة كهدايا للإيلخانات؛ لذا فقد شجعوا على نسج الأقمشة بخيوط الذهب في مراكز حكمهم ونطاقات إماراتهم، ونشأت مصانع لهذه الصناعات في كل من تبريز وكرجستان وبغداد ومرو وطوس وشوشتر وشيراز ونيسابور. وقد وقع اختيار المغول على عدد من الحرفيين الذين برعوا في النسيج بخيوط الذهب ونقلوهم ضمن أصحاب الحرف الذين هجّروهم في بداية فتح بلاد منغوليا وقراقروم. ففي سنة ٦٢٩هـ، وبعد فتح تبريز، صنع أهالي المدينة خيمة نفيسة من الأطلس وشعر السمور والسنجاب لتقديمها هدية لأقطاي قاآن وأرسلوا إليه عدداً من الحرفيين المهرة في هذا الفن إلى منغوليا.

وفي عهد حكومة عطا ملك الجويني، ذاع صيت مصانع بغداد نتيجة لتشجيعه لها. وكان عطا ملك رجلاً كريماً وسخياً، وكان له في العراق جهاز حكومي ملكي، وكان ينفق سنوياً مبالغ طائلة كهدايا لبلاط الإيلخان، ويخصّصُ جزءاً منها للأقمشة النفيسة الموشاة بالذهب، مما أدّى إلى ازدهار هذه الصناعة.

وفي عهد كيخاتو وصدارة صدر الدين الخالدي الزنجاني، حلّتْ كارثة بصناعة نسج الأقمشة النفيسة بسبب ندرة الذهب والفضة. ومن بين الأحكام التي أصدرها الزنجاني إبان نشر العملة الورقية وقف نسج الأقمشة من خيوط الذهب إلا فيما يتعلق بالإيلخان وأمراء الأسرة الحاكمة. وفي

عهد غازان حيث عمرت خزانة الدولة من جديد بجهود رشيد الدين فضل الله وأطلق التعامل بالذهب والفضة مرة أخرى وتزايد حجم المتداول من هذين المعدنين في الممالك الإيلخانية، عاد نسج الأقمشة النفيسة إلى الرواج من جديد وعادت المصانع كما كانت قبل عهد كيخاتو. وفي عهد أولجايتو بلغت مكانة مصانع النسيج ببغداد درجة أن سعد الدين الساوجي في محاولته لإقصاء خصمه تاج الدين علي شاه عن الإيلخان وعن منصب الصدارة الذي كان يطمح إليه أرسله لرئاسة مصانع بغداد؛ وقد أسرع علي شاه بإعادة تنظيم هذه المصانع وأدارها بكفاءة غير مسبوقة فأنتجت أقمشة لم تنتجها من قبل من حيث الدقة والقيمة.

وبعد مقتل سعد الدين الساوجي واختيار كل من علي شاه ورشيد الدين فضل الله ليحلا محله، كان من بين الهدايا التي قدمها هذان الوزيران للإيلخان كمية من الأقمشة والسروج والعباءات والثياب الحريرية الموشاة بالذهب التي لم ير أحد مثلها حتى ذلك الوقت.

وكان لنسج الأقمشة الحريرية في إيران في ذلك الوقت مكانة خاصة في جيلان وخراسان ويزد وكرمان؛ وكان الحرير نفسه من الثروات العالية القيمة آنذاك حتى إن قسماً من الضرائب على السلع في هذه الولايات كان يتم سداده بالحرير؛ وكان الخراج المفروض على مسؤولي الولايات المذكورة من الحرير حتى إن أولجايتو بعد فتح جيلان فرض على كل من الأمراء المحليين دفع مقدار من الحرير كل سنة. وفي خراسان أيضاً وفي عهد السربدارية، تمكن پهلوان حسن الدامغاني من إقصاء الدرويش عزيز مجدي عن منافسته بإعطائه عدة أحمال من الحرير وإقصائه إلى أصفهان. وكان الحرير في عهد الاحتلال المغولي من أهم ثروات الشرق، وكان تجار الغرب يبذلون كل جهد لشرائه وجلبه.

كما ازدهر نسج البُسط النفيسة في العصر الإيلخاني في إيران وفي سائر بلاد المشرق الإسلامي وكان يتم نقل كميات كبيرة منها إلى الهند عبر موانئ الخليج العربي وإلى أوربا من خلال التجار الفينيسيين، ولكن ليس هناك اليوم نموذج منها يمكن استقاء معلومات وافية منه. وكانت للموصل من بين بلاد المشرق الإسلامي شهرة واسعة في نسج أنواع البسط والأقمشة الصوفية النفيسة بسبب وقوعها على الطريق بين البلاد التي يقطنها بدو (كردستان ولرستان وبادية الشام) وسهولة الحصول

على أرقى أنواع الصوف وقربها من عاصمتي الإيلخانات في الصيف والشتاء (تبريز وبغداد).
وكان التجار الأجانب في تبريز وبغداد والموصل نفسها يشترون الأقمشة والمنسوجات الموصلية بأثمان معقولة ويصدرونها إلى الخارج؛ وكان أحد أحياء الموصل ويعرف بالعتابية[٢٢] ينتج نوعاً من السجاد[٢٣] والأقمشة ذي شهرة عالمية.

وإلى جانب تشجيع السلاطين والأمراء والاحتياجات التجارية، كان هناك عامل آخر ساعد على ازدهار الفنون الدقيقة في العصر الإيلخاني في البلاد الإسلامية خاصة إيران، الا وهو انتشار الفكر الصوفي؛ فكان المتصوفة يرون في كل نقش جميل مظهراً لتجلي نور الحق وجمال الله تعالى. فكانوا يتفننون في تجميل ملابسهم وبسطهم ويجمعون الأشياء الدقيقة الصنع ويشجعون علناً على الفنون الدقيقة كالمانوية. وكان هذا من أسباب نفرة أهل الزهد منهم ووصمهم بالشرك وعبادة الأوثان. وكان الخزف المعرَّقُ والصحون الخزفية المنقوشة التي تم الحصول عليها في الري وسلطان آباد و ورامين وخراسان ضمن آثار العصر الإيلخاني يعد من ناحية الدقة والمهارة في طبخ الطين ومزج الألوان وجمال النقوش من الآثار النفيسة. وهذه الصحون كان لها مشترون في كل بلاد الشرق والغرب؛ فكانت تصدر إلى أوربا والصين، وبدأ الفنانون في محاكاتها في أوربا.

وكان صنع أدوات الرصد والفلك وأنواع الساعات وأدوات تحديد أوقات الصلاة مألوفاً في كل البلاد الإسلامية. وكان الإسماعيلية في ألموت والخلفاء العباسيون في بغداد قبل الاجتياح المغولي يبذلون جهودهم لجمع هذا النوع من الأدوات والآلات وجلب صناعها المهرة. وبعد أن استولى هولاكو على كل من هذين المركزين الإسلاميين الرئيسين، وضع معظم هذه الآلات الثمينة تحت يد نصير الدين الطوسي للاستعانة بها في إنشاء مرصد مراغة؛ كما قام الطوسي نفسه بجمع عدد آخر من هذه الأدوات في رحلاته إلى بغداد لإتمام مرصده واصطحب معه صناع أدوات الرصد والفلك إلى مراغة.

وكان الخط من أفرع الفنون الدقيقة التي كانت لها مكانة بارزة خاصة إبان الاجتياح المغولي في بلاد الشرق. وأنفق المستنصر والمستعصم ووزراؤهما مبالغ طائلة لجلب الخطاطين إلى مكتبات دار الخلافة، وكان من أشهر خطاطي هذا العصر صفي الدين عبد المؤمن الأرموي (توفي ٦٩٣هـ)

وتلميذه جمال الدين ياقوت المستعصمي (توفي ٦٩٨هـ) الذي حقق شهرة أوسع نطاقاً من أستاذه؛ وكان كلاهما من الخطاطين الخاصين ببلاط المستعصم آخر الخلفاء العباسيين؛ وبعد سقوط الدولة العباسية التحقا بخدمة أسرة الجويني. وكان ياقوت الذي برع في خط النسخ من الغلمان الذين اشتراهم المستعصم وعهد به إلى عبد المؤمن لتعليمه، وسرعان ما نبغ في الأدب والخط، بل تفوق في الخط على أستاذه هذا. وكان عطا ملك الجويني يكن له كل تقدير، وعهد إليه بأبنائه وابن أخيه شرف الدين هارون لتعليمه.

العمارة والمباني:

قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن نربط بين المغول والعمارة والبناء. فالتتار أولاً وكما سبق أن أشرنا ككل طوائف البدو لم يعرفوا الاستقرار في مكان ثابت، وكان مقرهم يقتصر على الخيام. فكان مجموع الخيام يتخذ هيئة المدينة، وبعد انتقالها لا يبقى منها أثر. ثانياً، كان التتار وقوادهم وخلفاؤهم رموز للخراب؛ فكانوا يجرون الدمار في أعقابهم حيثما حلوا، ويحيلون أعظم المدن إلى قفار موحشة. إلا أن هذه السمات كانت تميزهم في بادئ الأمر؛ أما بعد انتهاء مرحلة الفتوحات وجاءت مرحلة إدارة البلاد المفتوحة وضرورة اختيار مراكز وعواصم لهم، خضع المغول سواء أشاؤوا أم أبَوا لعادات رعاياهم، واضطروا للاحتذاء بهم في الإقامة في عواصم وإنشاء إدارات واتخاذ وزراء وإحاطة أنفسهم بعمال ديوانيين. إلا أنهم لم يتخلوا عن عادتهم البدوية في التنقل بين المصيف والمشتى والعكس؛ لذا فقد كان لهم مقران، أحدهما في عراق العجم وآذربيجان (تبريز، أوجان، موغان، أران، سلطانية) والآخر في عراق العرب (بغداد). وفي كل من هذين المقرين، كان الإيلخانات والأمراء ووزراؤهم يبنون العمائر والمباني لأنفسهم. كما أن خلفاء جنكيز وقواده بعد إخضاع مدن إيران وتدميرها كانوا يسمحون لأهلها بإعادة بناء عمائرها؛ وكانوا يقومون بذلك بأنفسهم أحياناً. فتمت إعادة بناء العديد من المدن التي سبق تخريبها كما حدث في بلاد ما وراء النهر وتركستان على يد الأمير مسعود بن محمود يلواج وعراق العرب تحت رعاية أسرة الجويني خاصة عطا ملك، وقوچان على يد هولاكو وأرغون.

وقبل اعتناق إيلخانات إيران للإسلام، كان المغول يدفنون جثمان ملوكهم بعيداً عن أنظار العامة في أماكن سرية. لذا فإن أماكن قبور الإيلخانات غير المسلمين غير معروفة. أما بعد الإسلام، وخاصة منذ عهد غازان حيث قوي إسلامهم وبعد أن بعد الفاصل الزمني بينهم وبين أسلافهم غير المسلمين، بدؤوا في إنشاء المقابر والأضرحة. وللتأكيد على قوة إسلامهم، بدؤوا في تشييد المباني الخيرية كالمساجد والجوامع والمدارس. وإذا كان الإيلخانات قبل الإسلام قد بنوا الكنائس والمعابد البوذية في إيران، فقد هدمها الإيلخانات المسلمون ولم يتركوا لها أثراً؛ لذا فإن معظم المنشآت والآثار الباقية من عصر المغول ترجع إلى عهد غازان وما بعده.

كانت مباني الإيلخانات ووزرائهم وأمرائهم منذ عهد غازان فصاعداً تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- بناء مدن المصايف والمشاتي أو إعادة بناء القرى والبلاد السابقة كإعادة بناء أوجان وإطلاق اسم مدينة الإسلام عليها، وإعادة بناء محمود آباد بموغان وإعادة بناء جزء من عمائر الري وإنشاء حصن تبريز وبناء شنب غازان على يد غازان وبناء سلطانية وسلطان آباد على يد أولجايتو، وبناء جزء من سلطانية والربع الرشيدي بأمر من رشيد الدين فضل الله، وبناء بعض منشآت تبريز على يد علي شاه وغير ذلك.

٢- المباني الدينية والمدارس والعمائر الخيرية كإنشاء دار الأشراف بالنجف ومباني شنب غازان الخيرية بأمر غازان، وبناء مسجد ذي الكفل ومنشآت سلطانية الخيرية وترميم مسجد أصفهان وورامين على يد أولجايتو ومنشآت عطا ملك الخيرية بعراق العرب ونظيرها لرشيد الدين بسلطانية والربع الرشيدي.

٣- المقابر والأضرحة كضريح شنب غازان الذي دفن فيه هذا الإيلخان، وضريحي سلطانية اللذين دفن فيهما أولجايتو وأبي سعيد.

أدى اجتياح المغول في بداية الأمر إلى تدمير المدن وخراب العمائر والمنشآت وإلى القضاء على عدد كبير من نوابغ الفنون الدقيقة والفنانين وفرار عدد آخر منهم من إيران إلى غيرها من البلاد الإسلامية كمصر وبلاد الروم حيث أحيوا فنونهم وصناعاتهم في كنف أمراء هذه البلاد. وكما أدى ذلك إلى نشر الأدب الفارسي خارج إيران فقد أدّى أيضاً إلى إدخال الصناعات اليدوية الدقيقة

والطرز المعمارية الفارسية إلى بلاد الروم ومصر، وبنيت عدة منشآت في مصر والشام وبلاد الروم على أيدي هؤلاء المهاجرين الفرس.

ومنذ عهد هولاكو، حيث توطدت العلاقات بين البلاد الإسلامية في وسط آسيا وفي غربها مع الصين وتردد الصينيون على إيران والفرس على الصين وتعلّم كل طرف منهما لفنون الآخر وعلومه، تم إدخال العمارة الإسلامية السلجوقية إلى الصين على يد الفرس وإدخال العمارة الصينية إلى البلاد الإسلامية خاصة ما وجد منه قبولاً لدى المسلمين كالشكل القبابي الذي تم اقتباسه كاملاً من المعابد الصينية والبوذية وتطبيقه على الأضرحة والمساجد، واستخدام الألوان المائية الشفافة في الأعمال الخزفية وتكسية القباب من الخارج بالخزف الأزرق البرّاق. وبعض الأبنية الباقية من العصر الإيلخاني تبدو من بعيد على هيئة خيام؛ ومن أوضح نماذج هذا الشكل المبني الذي لايزال الجزء الأكبر منه باقياً في مراغة ويعرف بقبر ابنة هولاكو. أما الآثار التي لاتزال باقية من العصر الإيلخاني ولو في حالة مهدمة بعد اندثار أجزاء كبرى منها فأهمها ما يلي:

١- المقبرة المعروفة بمقبرة ابنة هولاكو.

٢- أطلال مرصد مراغة.

٣- مسجد ورامين لأولجايتو.

٤- جزء من مسجد أصفهان الجامع لأولجايتو.

٥- ضريح سلطانية لأولجايتو.

٦- بناء لأبي سعيد بمراغة.

وأهم هذه العمائر وما اشتهر منها في العالم في العصر الإيلخاني ولايزال جزء منه باقياً حتى الآن هو ضريح سلطانية أي مقبرة السلطان محمد أولجايتو التي سبقت الإشارة إلى أنها بنيت في حياته ضمن بناء مدينة سلطانية الذي امتد من سنة ٧٠٣هـ إلى ٧١٣هـ. وهذا الضريح الذي يقع داخل حصن سلطانية هو بناء مثمن يبلغ طول كل ضلع منه ثمانين ذراعاً، ويبلغ ارتفاع القبة التي كانت تعلوه مئة وعشرين ذراعاً. وكانت على جوانبه نوافذ حديدية بلغ ارتفاع إحداها ثلاثين ذراعاً وعرضها مئة وخمسة عشر ذراعاً. ومقبرة أولجايتو محفورة في مكان مرتفع ومزينة بخطوط جميلة ونقوش دقيقة.

وضريح أولجايتو مكسو من الداخل والخارج بالخزف الأزرق الشديد الشفافية، ولايزال جزء منها باقياً، وتومض وميضاً براقاً في ضوء الشمس من بعيد. وشيئاً فشيئاً أصبح هذا النوع من العمائر الذي لم يكن معروفاً في البلاد الإسلامية من قبل نموذجاً للعمارة في العصر التيموري وبلغ ذروة اكتماله في العصر الصفوي.

كان استعمال الخزف مألوفاً في داخل المساجد والمباني قبل عصر أولجايتو ولكن في أجزاء معينة منها. وكان ضريح سلطانية أول نموذج لتكسية المبنى كله بالخزف، وهو ما يعد في رأي بعض الباحثين نتيجة للتأثر بالمغول وعاداتهم، إذ كان المغول يحرصون في إعداد خيام خوانينهم على تزيينها من الداخل والخارج بكل أنواع الزينات. وكانت الخيمة المنسوجة بخيوط الذهب والتي صنعها فنانو تبريز وزينوها من الداخل والخارج بأنواع الأطلس والحرير والسنجاب وأهدوها لأباقا خان من هذا النوع. ولم يتخلوا عن هذا الطراز بعد تعودهم على سكنى المدن؛ فأمروا صناعهم ومعمارييهم ببناء عماراتهم ومساجدهم ومقابرهم بهذه الصورة البهيجة نفسها، وهو ما لم يلق قبولاً لدى المسلمين في بادئ الأمر، فالتذهيب والتزيين كان يتنافى في نظرهم مع المساجد بصفة خاصة واعتبروه تشبهاً بالوثنيين والنصارى. وحدث في أوائل عهد أبي سعيد أن أمر هذا الإيلخان بتخصيص مبالغ طائلة لبناء مسجد في مدينة سلطانية. وفي أثناء إعداد طاق مرتفع للمسجد، حدث خلل في البناء ولم يتم إكمال بناء المسجد. فاعتبر البعض أن ذلك مرجعه إلى أن الإيلخان ووزراءه أنفقوا مبالغ طائلة لمجرد التفنن والتزيين لا لوجه الله وسعياً لمرضاته، ولذا فإنه لم ينته على خير ولم يكتمل. وقال أحد الشعراء في ذلك:

انظر جـــزاء ســـيئ الأعــــمــــال، فــــالزمــــان يـخــــــرب طاقـــــاً لم يـكـتــــــمل بـعــــد

العلاقات التجارية:

كان غزو المغول ودخولهم إلى معظم آسيا خاصة البلاد ذات الحضارة القديمة وطرق الربط المهمة تحت إدارة موحدة ونظام حكم واحد وفرض إلياسا الجنكيزية على كل البلاد الخاضعة لأبناء جنكيز الأربعة سبباً في تداعي الحواجز الكبرى التي لم تكن من قبل تسمح لسكان مختلف البلاد بإقامة

علاقات مباشرة بينها وذلك لاختلاف أساليب الحكم ووجود الحدود السياسية والعادات التي حالت دون الاختلاط المباشر بينها وعدم معرفة كل من هذه البلاد بأحوال البلاد الأخرى. وكان التتار يحرصون على جذب رؤوس الأموال والبضائع النفيسة من البلاد المتحضرة؛ لذا فقد عملوا على الإبقاء على الطرق التجارية مفتوحة. وتوسعوا في هذه السياسة القديمة بعد إخضاع بلاد آسيا الوسطى والغربية. وكان من بين أهداف جنكيزخان من حملته على بلاد الخوارزمشاهية افتتاح طريق تجاري بين منغوليا وآسيا الغربية. لذا فقد استن في قانونه بنوداً خاصة لصيانة طرق القوافل وحفظ الأمن فيها ورعاية التجار والقوافل، وبذل خلفاؤه كل جهدهم لتطبيق هذه القوانين.

أدّى تأسيس دولة مغولية موحدة في آسيا وربط قراقروم وخانبإليغ ببلاد ما وراء النهر وخراسان وتبريز وبغداد وسلطانية إلى زيادة حركة القوافل بين الصين وإيران وفتح الطرق التجارية بين شطري آسيا؛ كما أدت السياسة العالمية التي انتهجها إيلخانات إيران في إقامة صلات مع بابوات أوربا وملوكها والحملة على مصر والشام تدريجياً إلى إيجاد رباط مهم بين مصر والشام وأوربا مع مناطق آسيا الوسطى والشرقية التي كانت تمثل عالماً مجهولاً لدى الغرب. وعلى أثر رحلات كاربينو وجيوم دي روبروكي إلى قراقروم والأخوين ماركو پولو إلى الصين ورحلات پوردينين إلى إيران وشرق آسيا ورحلات السفراء والمبشرين المسيحيين، أصبحت آسيا الوسطى والشرقية معروفة في أوربا، وعمل هؤلاء الرحالة والسفراء على تعريف مواطني بلادهم بآسيا ونشروا المعلومات عن حضاراتها وعمرانها وطرقها وتجارتها ونفائسها في أوربا.

وتزامن انتشار هذه المعلومات في قارة أوربا مع عصر بسط النفوذ التجاري لموانئ بلاد شمال المتوسط، خاصة ميناءي ڤينيسيا والبندقية اللذين كان لهما تجارة واسعة في المتوسط في ذلك الوقت وكانت سفنهما التجارية تجوب موانئ مصر والشام لشراء البضائع النفيسة من البلاد الإسلامية وبيعها في أوربا. وكان تجار ڤينيسيا كما ورد في تاريخ أوربا قد استولوا على مدينة القسطنطينية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وظلوا بها قرابة نصف قرن وأمسكوا بمفاتيح التجارة في أوربا الشرقية والبحر المتوسط وغرب آسيا؛ ومن هذه المدينة مارسوا التجارة مع روسيا الجنوبية والممالك الخوارزمشاهية القديمة وما وراء بحيرة خوارزم من ناحية، ومع البلاد

الخاضعة لمماليك مصر والشام من ناحية أخرى. ودخل تجار ڤينيسيا في معاملات تجارية عن طريق البحر الأسود مع المغول الذين استقروا بصحراء قبچاق وخانات البلغار والباشغرد (المجر) والقرم، وكانوا يشترون منهم الغنائم التي يستولون عليها من البلاد المفتوحة ويبيعونهم ما يحتاجون إليه.

وكانت السلع المهمة التي كانت تنتقل من خلال تجار ڤينيسيا من البلاد المذكورة إلى أوربا هي الخشب والكتان والقار (للسفن) والملح والعسل والشمع والجلد والسمك واللحم القديد وغلات روسيا الجنوبية. ومن التعاملات التجارية المهمة التي كانت تتم على يد تجار ڤينيسيا تجارة الرقيق؛ فقد كان هؤلاء التجار كتجار فينيقيا القديمة وعلى الرغم من تحريم البابا لهذه التجارة يشترون الأطفال والنساء من بلاد المغول والسلاف والكرج نظير مبالغ ضئيلة ويبيعونهم في مصر والشام وخاصة لسلاطين مصر الذين كانوا في الأصل من هؤلاء الغلمان والعبيد. فكان لديهم عمال مكلفون بشراء الرقيق والمماليك من تجار ڤينيسيا وإحلالهم محل الفلاحين المصريين في الأعمال الزراعية وغيرها؛ وهذا هو السبب في كثرة أعداد المماليك في مصر في أواخر القرون الوسطى.

وكانت خوارزم (خيوة) في ذلك الوقت من أهم مراكز القوافل والتجارة؛ فكانت القوافل الصينية والمغولية تأتي ببضائع آسيا الوسطى والشرقية إلى هذه المدينة وتبيعها لتجار القوافل الأخرى. وكانت هذه القوافل تنتقل من خوارزم إلى المدن الواقعة على ضفاف الڤولجا حاملة بضائع آسيا الوسطى والصين والهند إلى مدن البلغار (إلى الجنوب من غازان الحالية) وسراي وهشترخان أو إلى شبه جزيرة القرم ويقايضونها مع سكان تلك المناطق أو مع تجار ڤينيسيا.

طرق التجارة الكبرى:

نتيجة لتأسيس دولة المغول الموحدة والطرق الآمنة والصرامة في تنفيذ إلياسا الجنكيزية فيما يتعلق بحماية القوافل والتجار وفتح الطرق التجارية، فتح الطريق البري بين أوربا ومملكتي الصين والهند اللتين اشتهرتا منذ القدم بالثراء والسلع النفيسة والأحجار الكريمة؛ ففتح الطريق إلى الصين عن طريق روسيا، وإلى الهند عن طريق إيران.

حصل تجار البندقية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي على إذن من خان صحراء القبچاق أي

روسيا الجنوبية بإنشاء منطقة تجارية في ميناء كافا وهو من موانئ شبه جزيرة القرم. وبعد ذلك بقليل، حصل التجار الڤينيسيون على إذن مماثل. وسرعان ما أصبحت لتجار البندقية وڤينيسيا مناطق تجارية في موانئ سواحل البحر الأسود خاصة تانا (آزوف) والبوسفور. وأنشأ تجار البندقية إدارة خاصة باسم إدارة القرم لتسهيل التعاملات التجارية في روسيا الجنوبية، ونقلوا عن طريقها منتجات روسيا من جلد ولحوم وأسماك وغلال عبر نهر الڤولجا وحرير الصين عبر صحراء جوبي وبيش بإليغ والمإليغ وأترار وخوارزم وسراي وهشترخان إلى موانئ بحر آزوف والبحر الأسود. وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسة بين الصين والهند وموانئ بحر آزوف والبحر الأسود :

١- طريق الصين وهو جزء من طريق أكبر يعرف بطريق الحرير بسبب تجارة الحرير الصينية التي كانت تمر عبره. وكان هذا الطريق يمر بولاية توان هوانج ثم ولاية كانسو بالصين ومنها إلى تركستان الشرقية الحالية ومنها إلى سمرقند وبخارى عن طريق بيش باليغ والماليغ وأترار. وفي بخارى، يمر الجزء الأصلي منه عن طريق مرو وجرجان إلى الري، ومنها إلى قزوين وزنجان وتبريز وإيروان؛ ومن إيروان ينتهي إما إلى طرابزون أو إلى أحد موانئ الشام. وينتهي الجزء الفرعي من هذا الطريق من سمرقند إلى خوارزم، ومن خوارزم إلى سراي وهشترخان، ومنها إلى ضفاف نهر الدن وموانئ بحر آزوف.

٢- طريق الهند والسند عن طريق پيشاور وكابل وبلخ وخوارزم إلى سراي وهشترخان وموانئ تجار ڤينيسيا والبندقية ومناطقهم التجارية.

٣- طريق الهند البحري إلى ميناء هرمز، وعبر طريق بري من هرمز إلى كرمان وجرجان وخوارزم حيث يتصل بالطريق السابق.

فرض تجار ڤينيسيا والبندقية هيمنة اقتصادية تامة على موانئ شبه جزيرة القرم في روسيا حتى عهد الأمير تيمور جوركان، وكانت تجارة حرير الصين وتوابل الهند في أيديهم. وفي أواسط القرن الرابع عشر الميلادي وقع صدام بين جاني بيك خان صحراء قبچاق والتجار الإيطاليين، وانتزع جاني بيك ميناءي تانا وكافا من أيديهم فتضاعفت أسعار الحرير والتوابل في أوربا. وظل الحال على ذلك حتى تم التصالح بين الخان والتجار المذكورين. وفي هذه المرة، ضاعف تجار ڤينيسيا والبندقية

مجهوداتهم لتعويض ما فاتهم.

أما الطرق التجارية الدولية في إيران فقد انتهت في آذربيجان وذلك لاستقرار الإيلخانات بها، خاصة أن آذربيجان كانت تقع على الطرق الكبرى الموصلة بين صحراء قبچاق وخوارزم وإيران والعراق والبحر المتوسط. ومنذ أن صارت تبريز عاصمة للإيلخانات في العصر المغولي، تحولت إلى أهم مركز تجاري في إيران، بل أحد أهم المناطق التجارية في العالم آنذاك.

وفي عصر الإيلخانات، كانت طرق القوافل كافية في الشرق الأقصى والهند والبحر المتوسط وصحراء قبچاق وإيران والعراق تنتهي في مدينة تبريز وتنقل إليها مختلف أنواع البضائع لمقايضتها بها. وكانت تبريز ترتبط بالخليج العربي عبر ثلاثة طرق:

١- طريق البصرة وبغداد ويمر عبر معابر جبال كردستان ويصل إلى مراغة ومنها إلى العاصمة.

٢- طريق ميناء سيراف (ميناء طاهري حالياً) إلى مدينة شيراز وأصفهان وكاشان وقم والري وقزوين.

٣- طريق هرمز وكرمان ويزد وكاشان حيث يتصل بالطريق الثاني.

وإلى جانب هذه الطرق الثلاثة، كان طريق تبريز يقع على رأس طريق الحرير الأصلي كما سبقت الإشارة، وكان يتصل بكل مدن كشتاسفي وموغان وأران عن طريق أردبيل وجلفا وخوي أيضاً.

وكانت تبريز ترتبط بالبلاد المسيحية عن طريقين:

١- طريق أرمينيا الكبير عن طريق خوي ومنازجرد وأرزنة الروم إلى طرابزون التي كانت إحدى المناطق التجارية الكبرى لتجار البندقية في ذلك الوقت.

٢- طريق أرمينيا الصغير عن طريق معابر جبال كردستان أو عن طريق أرزنة الروم وسيواس أو عن طريق وان ودياربكر ليصل في النهاية إلى ساحل خليج اسكندرون وإلى ميناء لاجازو وهو أحد موانئ أرمينيا الصغرى وأحد الأسواق التجارية الكبرى ومركز للتجارة الإيطالية والفرنسية والإسبانية.

التجارة:

نتيجة للعمران والطرق الآمنة وحرص الإيلخانات على إدارتها وتامينها، أصبحت الممالك الإيلخانية خاصة منذ عهد غازان خان مركزاً مهماً للتجارة والمقايضة، وتحولت تبريز بصفة خاصة إلى أكبر سوق تجاري بين الشرق والغرب؛ فقد كانت أغلب الطرق التجارية الكبرى تنتهي إليها نظراً لموقعها المهم ولكونها عاصمة. وبمطالعة كتب رحلات المسلمين والتجار والمبعوثين الأوربيين، يتضح أن تبريز كانت في ذلك الوقت سوقاً لتجارة التوابل من ماليزيا واللؤلؤ والياقوت من سيلان ومالابار والماس والزمرد من الهند والبسط من بلاد ما وراء النهر والفيروز من نيسابور والحرير والأقمشة من مرو وطوس وشوشتر والموصل ويزد وكرمان وماء الورد والعطور من شيراز وأصفهان وأنواع الأسلحة المحفورة من كرجستان والشام. وكان صناع تبريز نفسها قد برعوا في نسج الأقمشة النفيسة والبسط الغالية والمنسوجات الحريرية، وكانوا يبيعون منتجاتهم اليدوية للتجار الأجانب أيضاً.

وهكذا كانت لتبريز في ذلك العصر مكانة خاصة من الناحية التجارية والاقتصادية؛ وكانت تعد أكبر مدن العالم آنذاك. وكانت موضع دهشة الرحالة الأوربيين الذين ترددوا عليها. فيقول دي پوردينين الذي زارها في عصر أبي سعيد خان: «إن تبريز من ناحية البضائع هي أهم مدن العالم؛ وهي بالنسبة لإيلخان إيران أهم من فرنسا كلها بالنسبة لمليكها».

كانت إيران في تلك العهود وبمقتضى موقعها الطبيعي همزة وصل تجارية بين وسط آسيا وشرقها أي الهند والصين والشرق الأقصى وممالك ساحل المتوسط ومصر وأوربا. وكان الجزء الشرقي من هذه التجارة وحتى حدود إيران الغربية في أيدي المسلمين؛ والجزء الغربي منها أي التعاملات مع سكان سواحل المتوسط وأوربا في أيدي تجار فينيسيا والبندقية. وعندما جاء ماركو پولو إلى تبريز (٦٩٤هـ)، كانت التجارة الخارجية في تلك المدينة في أيدي تجار البندقية؛ وكان بعض هؤلاء التجار قد حصلوا على امتياز بالملاحة في بحر الخزر. وقد حقق تجار البندقية هذا النجاح عن طريقين، أحدهما نتيجة لحيازتهم لمراكز تجارية مهمة على سواحل شبه جزيرة القرم، والآخر نتيجة للدخول في اتحاد تجاري مع الأمير اليوناني لميناء طرابزون على ساحل البحر الأسود.

وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وكما سبقت الإشارة، دخل تجار ڤينيسيا في تنافس مع تجار البندقية وتفاوضوا مع أولجايتو وأبي سعيد من بعده؛ وتوصلوا في النهاية إلى إبرام اتفاقية مع الأخير في هذا المجال في سنة ٧٢٠هـ؛ وسمح أبو سعيد لتجار ڤينيسيا بحرية الحركة التامة في إيران وإعفائهم من كل أنواع الضرائب عدا الرسوم الجمركية. كما أمر عماله بعدم التواني عن تقديم المساعدة العسكرية للتجار والقوافل الڤينيسية وعدم تعطيلهم على الطرق ومرافقتهم بالحراسة إن دعت الحاجة.

وفي سنة ٧٢٤هـ، جاء إلى تبريز أحد القناصل من جمهورية ڤينيسيا وبدأ تجار ڤينيسيا بعد هذه الزيارة في إنشاء مناطق تجارية في أرجاء الممالك الإيلخانية. وبلغت أهمية هذه المراكز والمؤسسات في تبريز درجة أن أوفدت جمهورية ڤينيسيا مفتشاً خاصاً إلى تبريز لتفقد أوضاع تلك المؤسسات.

كان استقرار التجار الإيطاليين في إيران وفتح الطريق التجاري بين الغرب والشرق عن طريق البحر الأسود وآذربيجان في صالح الأوربيين تماماً. وقد ازدهرت التجارة بصورة مطردة نتيجة لسهولة التعامل وقِصَرِ الطريق. وكان التجار الأوربيون قبل ذلك يضطرون إلى الرجوع إلى موانئ مصر والشام التي كانت خاضعة للمماليك لشراء بضائع الهند والصين والشرق الأقصى؛ وكانت الإسكندرية المصرية قبل افتتاح طريق إيران هي المركز الرئيس لتجارة بضائع الشرق.

بعد طرد الصليبيين من الشام على يد المماليك، ساءت العلاقات بين التجار الأوربيين وهؤلاء المماليك، إلا أن هؤلاء التجار كانوا يضطرون للذهاب إلى الاسكندرية لشراء بضائع الشرق كتوابل الهند من التجار المسلمين فيها. وبعد سداد الرسوم الجمركية، كانوا يحصلون على البضائع بثلاثة أمثال أسعارها الحقيقية ليبيعوها في أوربا. وكان الصليبيون الأوربيون قد اعتادوا على كثير من منتجات الشرق كالقهوة والتوابل نتيجة لطول إقامتهم في بلاد الشام ومصر إبان الحروب الصليبية؛ وأصبحوا يسعون للحصول عليها بأي ثمن. لذا فقد انتعش الطلب على مثل هذه السلع في أوربا. فكان بعض تجار ڤينيسيا والبندقية من الانتهازيين يترددون على موانئ مصر والشام على الرغم مما كانوا يلقونه من سوء معاملة لشراء هذه البضائع ونقلها إلى أوربا.

ودخل إيلخانات إيران المسلمون الذين كانوا ينافسون المماليك في كل مجال في تنافس مع

ملوك مصر والشام في هذا المجال أيضاً وبتشجيع من التجار الإيطاليين. وتمكنوا من تحويل طرق التجارة الشرقية عن الاسكندرية إلى تبريز من خلال جذب تجار فينيسيا والبندقية وتشجيعهم وتأمين الطرق، وخفضوا الرسوم الجمركية رغم أنف المماليك وأحسنوا معاملة التجار الأجانب وفتحوا أمامهم كل المراكز والطرق وطبقوا سياسة اقتصادية جديدة بالثناء. ونتيجة لذلك، أصبحت إيران هي الممر التجاري بين بلاد سواحل المتوسط وممالك آسيا الوسطى والشرقية.

واقترح أرغون خان على أسقف سلطانية المسيحي إنشاء ميناء على ساحل الخليج العربي حتى تتجه إليه كل التعاملات التجارية مع الهند. كما فكر في وضع سفن مجهزة في بحر عمان لسد طريق البحر الأحمر عند ميناء عدن ومدخل باب المندب في وجه سفن التجارة الشرقية وإجبارها على الرسو على سواحل الخليج العربي.

وآتت جهود الإيلخانات ثمارها بافتتاح أقصر طريق تجاري بين الشرق والغرب وهو طريق طرابزون، وبدأ الاتصال بين إيران وأوربا التي كانت في ذلك الوقت في مستهل نهضتها. وظلت حركة القوافل منتظمة والطرق آمنة وازدهرت التجارة طوال عهد الإيلخانات. ولكن ما أن توفي أبو سعيد وبدأت الاضطرابات والثورات في إيران عامة وآذربيجان خاصة حتى سدت الطرق التجارية وتوقفت حركة القوافل وظل التجار ينتظرون عودة الأمور إلى ما كانت عليه من أمن واستقرار؛ وهو ما حدث لفترة وجيزة في عهد السلطان أويس الإيلكاني حيث استقرت الأمور في آذربيجان وبذل هذا السلطان وتجار فينيسيا وأمير طرابزون جهودهم لإعادة طريق تبريز طرابزون إلى سابق ازدهاره. وجاء عدد من تجار فينيسيا بالفعل؛ ولكن سرعان ما تبين أن الأمن اللازم لعودة التجارة وحركة القوافل لم يستتب بعد على الطريق القديم.

وفي العهدين التيموري والصفوي، عاد الاهتمام بالطريق القديم، وبلغ في عهد الصفويين إلى قمة ازدهاره. ولكن ظهر عامل خارجي جديد يمكن اعتباره أحد الأسباب الكبرى لتعثر إيران الحديثة إبان النهضة الأوربية ولإغلاق الطريق المذكور؛ ألا وهو غزو الأتراك العثمانيين لكل السواحل الشرقية للمتوسط والمنافذ التجارية لمصر والشام، مما حدى بالتجار الإيطاليين والإسبان بعد إغلاق طريق التجارة القديم مع الشرق إلى التفكير في إيجاد طرق بديلة، وهو ما انتهى لاكتشاف طريق

رأس الرجاء الصالح واكتشاف الأمريكتين؛ فوجد بذلك سد منيع بين إيران وأوربا في القرون الحديثة التي كانت تخطو خطوات واسعة نحو التقدم. وشيئاً فشيئاً فرضت العزلة على إيران بسبب الأتراك العثمانيين وروسيا القيصرية بعد أن كانت طرفاً مباشراً في السياسة الدولية والاقتصاد العالمي حتى أواخر العصر الصفوي وازدادت يوماً بعد يوم عزلة شعبها عن تطورات العالم الجديد. وزاد الأمر سوءاً في القرن التاسع عشر الميلادي بحفر قناة السويس والتنافس السياسي بين انجلترا وروسيا في آسيا الوسطى. وكانت هذه هي الأسباب الحقيقية لتخلف إيران في وقت وضعت فيه أوربا أقدامها على طريق الرقي والتقدم، وهو ما سنتناوله في فصول تالية تناولاً مفصلاً.

الهوامش:

١- مولانا أو مولوي هو الاسم الذي اشتهر به مولانا جلال الدين محمد بن بهاء الدين الخطيبي، وهو من أكبر شعراء المتصوفة الفرس في القرن السابع الهجري. ولد في بلخ ولكن نظراً لطول إقامته في قونيه، فقد اشتهر بالرومي. ومن أشهر آثار مولوي المثنوي الكبير فى ستة مجلدات ومجموعة رباعيات وديوان غزليات يعرف بديوان شمس تبريزي. ومن آثاره النثرية «فيه مافيه» و «مجالس سبعه» و «مكاتيب». وتمتد شهرة مولانا إلى مختلف بقاع العالم الإسلامي وترجمت اعماله إلى لغات عديدة. وتوفي مولانا في سنة ٦٢٨هـ (المترجم).

٢- انظر الفصل الثاني.

٣- انظر الفصل الثالث.

٤- تاريخ وفاة ابن أبي الحديد الذي ذكرنا في الفصل الخامس انه كان في سنة ٦٥٥هـ نقلاً عن بعض المؤرخين يعد خطأ شائعاً؛ فقد توفي عز الدين حسب قول المؤرخين المعاصرين له في جمادى الاخرى أو رجب ٦٥٦هـ بعد أربعة عشر يوماً من وفاة شقيقه موفق الدين.

٥- انظر الفصل الثالث.

٦- وهذه هي التسمية الوحيدة التي ترد في أشعار سعدي وگلستانه.

٧ -في مقدمته لـ مرصاد العباد، يقدم الشيخ نجم الدين واقعة فراره والمذبحة التي اقامها التتار حيث يحث ملوك المسلمين على الدفاع فيقول:

«كيف يمكن مقارنة بلدة العبد الفقير التي شهدت مقتل وأسر ما لا يقل عن سبعمئة الف نفس بمدينة وولاية؟! وقد احدث هؤلاء الملاعين ما لا يمكن وصفه بالإسلام والمسلمين. وإذا لم تتحرك حمية ملوك المسلمين الذين يتولون رعاية الإسلام والمسلمين بمقتضى قوله تعالى «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله» وإن لم يبذلوا النفس والمال لدفع هذه الفتنة، فإني لأشم رائحة هلاك الإسلام أو سقوط أكثر بلاد الإسلام ويسود العالم الكفر:

يا ملوك العالم أسرعوا جميعاً حتى تنقذوا ما تبقى من الدين

ضاع الإسلام وأنتم غافلون وساد الكفر الدنيا وأنتم نيام»

٨- من مقدمة مرصاد العباد.

٩- وينسب إليه هذا الرباعي:

امتزجنا لحين بالياقوت الرطب وسعينا لفترة وراء الزمرد

كان امتزاجاً ولكننا اغتسلنا بماء التوبة واسترحنا

١٠- انظر الفصل السابع.

١١- انظر الفصل السادس.

١٢- انظر الفصل الثامن.

١٣- انظر الفصل السادس.

١٤- انظر الفصل السابع.

١٥- انظر الفصل الرابع.

١٦- انظر الفصل الرابع.

١٧- ترجم الأستاذ الدكتور عبدالسلام كفافي رحمه الله مجلدين من مثنوي جلال الدين الرومي، ثم أكمل الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا رحمه الله ترجمة بقية مجلدات المثنوي وصدرت ترجمته عن المجلس الأعلى للثقافة في سنة ١٩٩٧م (المترجم).

١٨- توفي إمامي ومجد همكَر وبدر الجاجرمي ثلاثتهم في سنة واحدة بفاصل شهرين في أصفهان. ويقول فخري والد شمس الفخري في هذا الصدد:

شيخ الأصحاب إمامي الهروي ومجد همكَر الذي كان من الكفاة

وبدر الجاجرمي طيب الذكر كانوا في أصفهانْ حين حان الأجل

توفوا جميعاً في ثمانين وست وستمئة في غضون شهرين

١٩- وهو جمال الدين بن الجوزي الذي لقي مصرعه مع أخويه وأبيه في بغداد؛ وأبوه هو محيي الدين أبو محمد يوسف (٥٨٠هـ-٦٥٦هـ) وشقيقاه هما شرف الدين عبد الله وتاج الدين عبد الكريم (انظر الفصل الخامس).

٢٠- ربما كان هذا الشخص ابن نصرة الدين صاين الوزير أحد نواب الأمير چوپان وكان من ملازمي الأمير پير حسين الچوپاني والملك أشرف؛ إلا أنه ترك خدمتهما في سنة ٧٤٤هـ وأصبح أحد أمراء الأمير مبارز الدين المظفري. وعندما أوفده مبارز في مهمة إلى شيراز، انضم إلى مساعدي شيخ أبي إسحاق وأصبح وزيراً. وفي النهاية أسره أتابك الأمير مبارز الدين في ٤ صفر ٧٤٦ وقتلوه.

٢١- انظر الفصل الثامن.

٢٢- تستخدم كلمة «عتابي» عند العرب بمعنى القماش المخطط، لذا فالحمار الوحشي يقال له «الحمار العتابي».

٢٣- كان التجار الأوربيون ينقلون هذا النوع من السجاد الذي كان يعرف باسم العتابي إلى أسواق أوربا ويبيعونه. وقد اشتقت كلمة tapis في اللغات الأوربية من هذا اللفظ.



المحتوى

المترجم في سطور

المترجم من مواليد ١٩٥٨م، ويعمل أستاذاً مساعداً بكلية الآداب بجامعة القاهرة. وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميتشجان، آن آربر، الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٨٨م).

ترجمات أخرى للمترجم:

تاريخ الجزيرة العربية والإسلام ترجمة عن الفارسية لكتاب تاريخ إسلام تأليف علي أكبر فياض، مركز النشر لجامعة القاهرة، ١٩٩٣م

القوى العظمى: التغيرات الاقتصادية والصراع العسكري من ١٥٠٠م إلى ٢٠٠٠م ترجمة عن الانجليزية لكتاب *Rise and Fall of the Great Powers* تأليف پول كيندي، صدر عن دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣م

الموجة الثالثة: التحول الديمقراطي في أواخر القرن العشرين ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *The Third Wave* تأليف صامويل هانتنجتون، تقديم د. سعد الدين إبراهيم، دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٤م

السياسة الدولية: القوى والصراعات منذ عام ١٩٤٥م ترجمة عن الانجليزية لكتاب *International Politics After 1945* تأليف ج. بيريدج، مركز النشر لجامعة القاهرة، ١٩٩٤م

الحداثة وما بعد الحداثة ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *Modernism and Postmodernism* إعداد پيتر بروكر (١٩٩٢م)، مراجعة د. جابر عصفور، المجمع الثقافي في الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٥م

الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط الحديث ترجمة عن الانجليزية لكتاب *State, Power and Politics in the Making of the Middle East* تأليف روجر أوين، (لندن، ١٩٩١م)، جاهز للنشر

الثورة العالمية الأولى ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *The First Global Revolution* تأليف الكزاندر كينج وبرتراند شنايدر (١٩٩٢م)، مركز جامعة القاهرة للنشر، ١٩٩٧م

ديانة الساميين ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *The Religion of the Semites* مراجعة د. محمد خليفة

حسن، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م

مصادر دراسة التاريخ الإسلامي ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *Sources of Islamic History* بالمشاركة مع د. عبدالستار الحلوجي، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م

التنوع البشري الخلاّق مشاركة في الترجمة عن الإنجليزية لتقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية *Our Creative Diversity* وبإشراف وتقديم د. جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م

الإسلام في البلقان ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *Islam in the Balkans* مراجعة وتقديم د. محمد خليفة حسن، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩م.

أثينة السوداء (الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥م–١٩٨٥م). ترجمة الباب الخامس من كتاب *Black Athena* تحرير ومراجعة د. أحمد عثمان، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م

التراث والتطور ترجمة عن الفارسية لكتاب آنچه خود داشت ... تأليف د. إحسان نراقي، آفاق الترجمة، ديسمبر ١٩٩٨م.

فعل القراءة ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *The Act of Reading* تحت الطبع في المجلس الأعلى للثقافة.

ثقافة العولمة ترجمة عن الإنجليزية لكتاب *Global Culture* مراجعة وتقديم د. جابر عصفور، تحت الطبع في المجلس الأعلى للثقافة.

محدثات العولمة ترجمة عن الانجليزية لكتاب *Global Modernities* إعداد مايك فيذرستون وآخرون. مراجعة وتقديم د. جابر عصفور، تحت الطبع في المجلس الأعلى للثقافة.